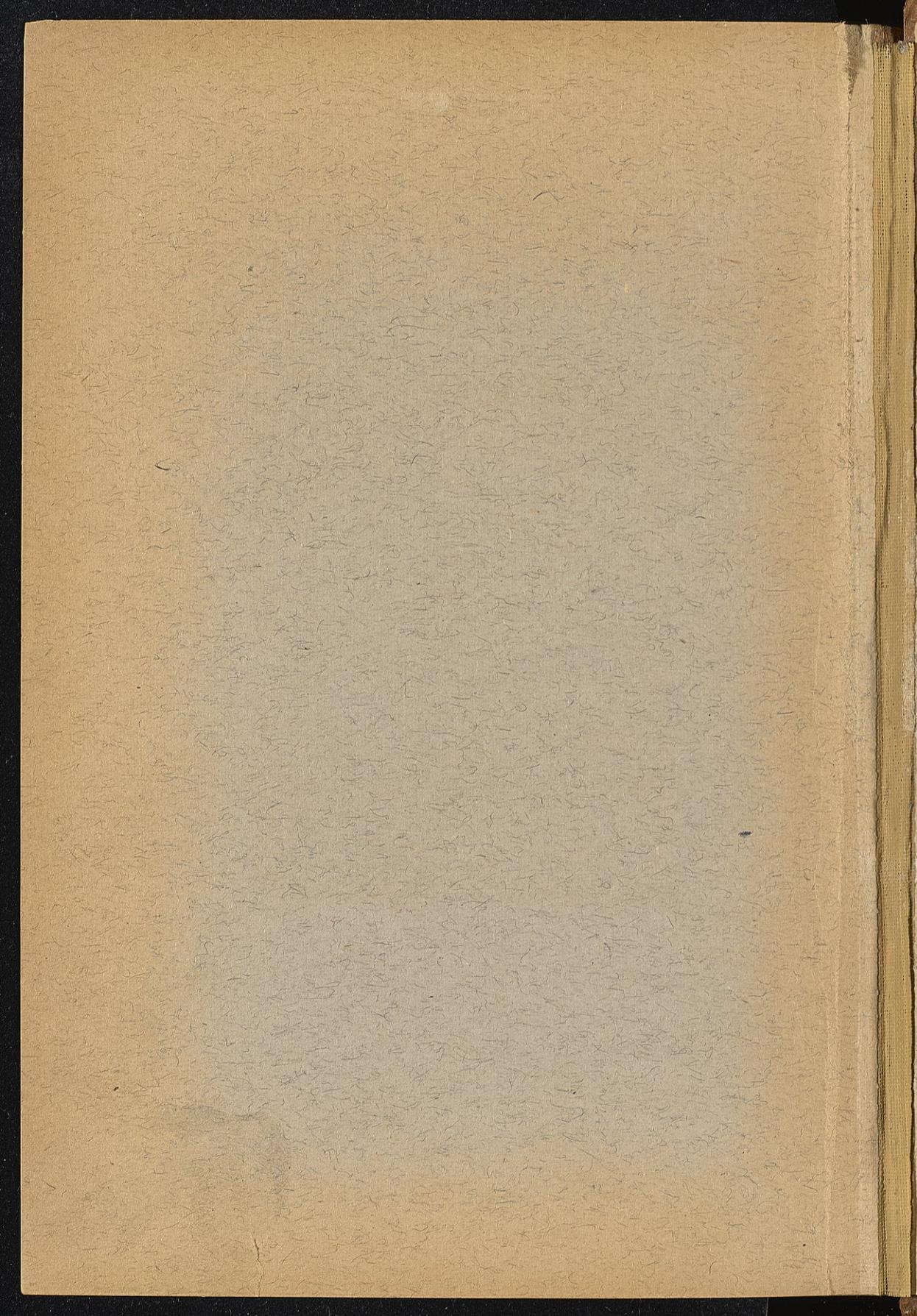
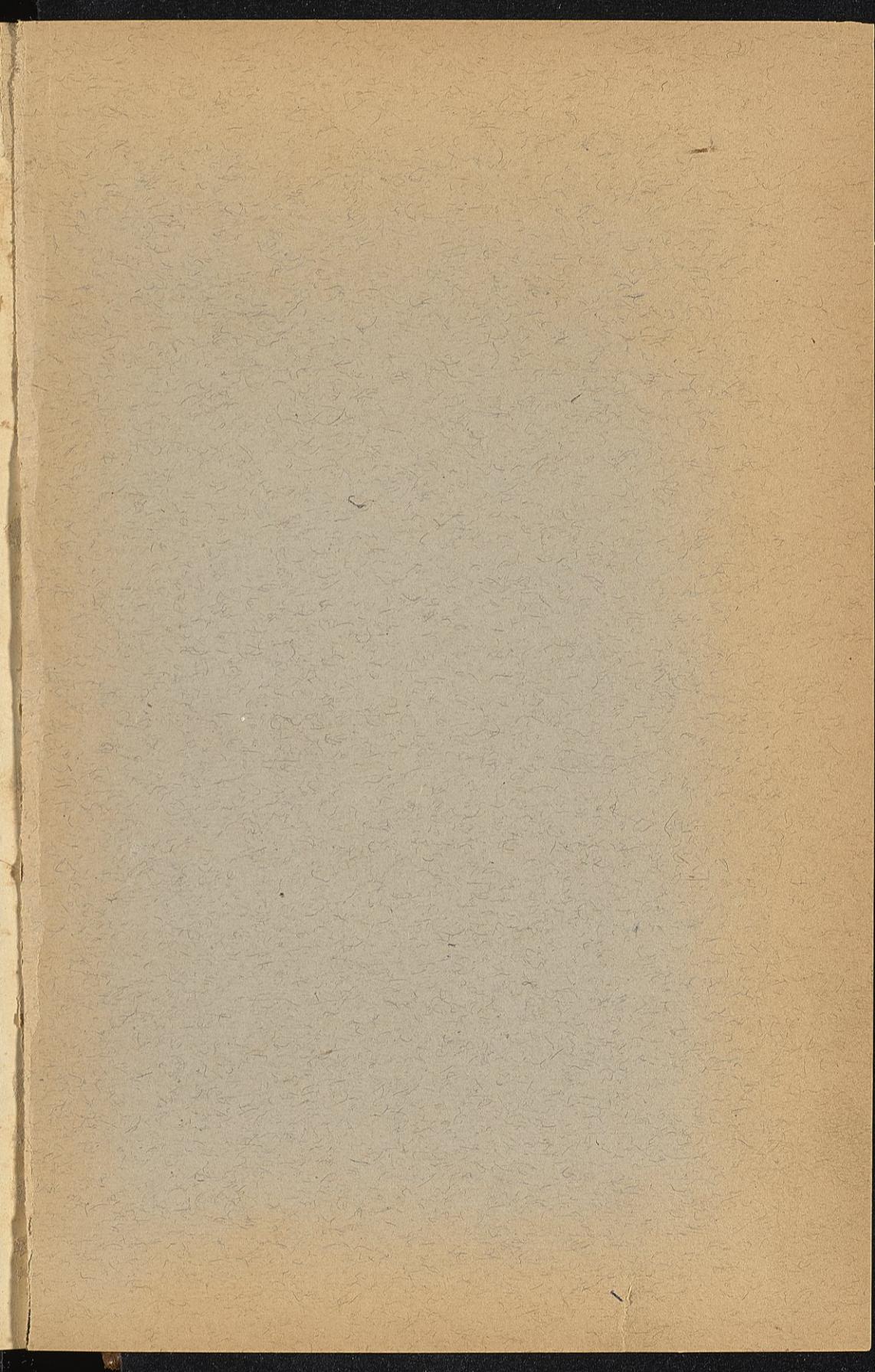




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY







م

محتويات الكتاب

| الصفحة

الموضوع

٣

تصدير

٣

منزلة علم الأخلاق

٣

ارتباطه بالدين

٤

الحاجة إليه

٥

أمثلة من نفائصنا الخلقية

٩

الفلسفة الخلقية

٩

تعريفها

٩

موضوع الفلسفة الخلقية

١١

أعلم الأخلاق نظري أم عملي؟

١٦

نسبة الفلسفة الخلقية إلى سائر العلوم

١٦

تفصيل بعد إجمال

٢٤

الخلق

٢٥

نزعات النفس

٣٢

ينابيع الخلق

٢٥

الرغبات

٣٦

المصالح

الصفحة

الموضوع

٣٧	✓.١	الخلال النفسية الذاتية
٤١		الانفعالات النفسية
٥٥		الغاية
٥٨		الداعي أو الباعث
٥٩		العادة
٦٥		البيئة
٧٢		العلم وأثره
٧٦		التربية من الطفولة
٧٩		التربية العقلية
٩٧		محاطة الآخيار ، ومجانبة الأشرار

خلاصة ينابيع الخلق

١٠٣		الوراثة
١٠٥		المنزل
١٠٧		المدرسة
١١٠		الأصدقاء
١١١		طريقة دين الإسلام
١٥٦		وسيلة تقويم الخلق
١٦١		أثر الآسوة في تقويم الخلق
١٨١		القواعد الخلقية
١٨٣		الحقوق والواجبات القومية

١٨٤

الموازين الخلقية

١٨٧

الميزان الأول — العرف

١٩١

» الثاني — الفطرة

١٩٤

» الثالث — القول باللذة

٢٢١

» الرابع — الاٰيشار

٢٢٣

» الخامس — العاطفة

٢٢٤

» السادس — استهالة القلوب

٢٢٦

» السابع — الاقداء بالله

٢٢٨

» الثامن — السعادة

فهرس

الصفحة

الموضوع

٣

تصدير

٣

منزلة علم الأخلاق

٣

ارتباطه بالدين

٤

الحاجة إليه

٥

أمثلة من نقادنا الخلقية

٩

الفلسفة الخلقية

٩

تعريفها

٩

موضوع الفلسفة الخلقية

١١

أعلم الأخلاق نظري أم عملي؟

١٢

أمن يدرس الفلسفة الخلقية يصير ذا خلق؟

١٣

رأينا

١٦

نسبة الفلسفة الخلقية إلى سائر العلوم

١٦

تمهيد :

١٦

تفصيل بعد اجمال

١٦

نسبة الفلسفة الخلقية إلى العلوم الطبيعية

١٧

نسبتها إلى علم الحيوان

١٨

نسبتها إلى علم النفس

١٩

نسبتها إلى علمي المنطق والجمال

٢٠

نسبتها إلى الفلسفة الاجتماعية

صحيفة

الموضوع

٢٠	نسبتها إلى علم تدبير المال
٢١	نسبتها إلى السياسة
٢٤	الخلق
٢٥	نزعات النفس
٢٥	رأي سقراط
٢٦	رأي فلوطين وأبي العلاء
٢٦	رأي اليسوعيين واليسوعيين
٢٦	رأي رسو
٢٧	ابن مسكونيه وجالينوس
٢٨	رأي أرسطو
٢٩	رأي صاحب سلوك الملك
٢٩	رأي الغزالى في إمكان تغيير الخلق
٣٠	كل مولود يولد على الفطرة
٣٠	رأي ابن خلدون
٣٠	رأي الإمام على في تغيير الخلق
٣١	خلاصة آراء المتفقدين
٣٢	رأي شارح المواقف
٣٢	رأي الشيخ محمد عبده

ينابيع الخلق

٣٤	الغرائز مع العواطف ، والانفعالات . والاحساسات . فالعادة فالبيئة
٣٤	الغرائز مع العواطف ، والانفعالات والاحساسات

١ - الغرائز :

٣٤	الأولى : النزعة إلى طلب الطعام والشراب .
----	--

صحيفة

الموضوع

- ٤٢ أولاً : الحنق . ثانياً : الحقد . ثالثاً : المذر
 ٤٣ ٣ — مقومات الانفعالات : أولاً : الشجاعة .
 ٤٣ ثانياً : التهور . ثالثاً : الجبن .

٤٣ د - الاحساسات :

- ٤٣ الأولى : التعجب .
 ٤٤ الثانية : الاستحسان . الثالثة : الإجلال .
 ٤٤ درجات الحب : الأولى : الميل . الثانية : الود .
 ٤٤ الثالثة : الحب .

٤٥ الرغبة والخلق

- ٤٦ ارتباط الرغبة بالخلق . تعارض الرغبات
 ٤٨ الإرادة والعمل
 ٥١ إن الخلق صورة الإرادة

٥١ مباحث نفسية لأبد منها

- ٥١ ١ — الحال والملابسات :
 ٥٢ ١ — ماهية الحال
 ٥٢ ٢ — تغيرات الأحوال الرئيسية : أولاً ،
 ٥٣ ثانياً ، ثالثاً ، رابعاً ، خامساً ، سادساً
 ٥٤ الشخصية : متغيرة ومطلقة
 ٥٥ ب — الغاية : تنوع الغايات :
 ٥٥ ١ — الرغبة ، والغاية
 ٥٥ ٢ — وأهم هذه الأحوال ما يلي : أولاً ، ثانياً ، ثالثاً ،
 ٥٦ رابعاً ، خامساً ،
 ٥٦ ٣ — تسلسل الغايات وتنوعها . ٤ — السرور والغاية .

الموضوع	صحيحة
٥٧	٥ — الغاية القصوى .
٥٨	٦ — الداعي ، أو الباعث .
٥٨	١ — الطبع بوصفه محركا لفعل وحده أو بعوانة الغاية
٥٩	٢ — التعقل بوصفه محركا . ٣ — الحال بوصفها محركا .
٥٩	العادة
٦٠	ذرائع تكوين العادة
٦٢	الغريزة والعادة
٦٤	المصادر التي تورث من الوالدين :
٦٤	الأولى : المصادر الجسدية
٦٤	الثانية : المصادر العقلية
٦٤	الثالثة : المصادر الأخلاقية
٦٥	البيئة
٦٧	البيئة الطبيعية
٦٩	البيئة الاجتماعية
٧٢	العلم وأثره
٧٦	التربية من الطفولة
٧٧	واجب الأم . ما يجب أن تكون عليه الأم .
٧٨	تأمل مالي . أثر جهل الأم
٧٩	التربية العقلية
٧٩	التربية الأخلاقية :
٧٩	١ — وجوب التبشير في غرس الفضيلة .
٧٩	٢ — أثر القدوة
٨٠	٣ — التشجيع على الفضيلة

صحيفة	الموضوع
٨١	تشئت على الشجاعة - التربية الخلقية
٨١	التربية الاقتصادية
٨١	أثر الدين في الخلق
٨٤	موازنة بين أثر الدين والقوانين الوضعية
٨٥	استعداد الأمة العربية لصلاح الروحي
٨٨	جمل آراء الغربيين في التربية وعواملها
٩٤	أثر البيئة
٩٥	تنافز الوراثة والبيئة وأثر المربى
٩٥	أثر الوالدين
٩٦	العوامل المؤثرة في الطفل
٩٧	١ - الوراثة . ٢ - المخالطة . ٣ - المربون .
٩٧	مخالطة الآخيار ومحابية الأشرار
٩٨	اختيار الخاطاء
٩٩	خلال الخليط
١٠١	آثار المخالطة الصالحة
١٠٢	خلاصة بناء الخلق
١٠٢	المؤثرات الداخلية : ١ - الغرائز . ٢ - العادات
١٠٣	٣ - الرغبات
١٠٣	المؤثرات الخارجية : الوراثة ، المنزل ، المدرسة ، الأصدقاء
١٠٣	البيئة
١٠٣	الوراثة
١٠٥	المنزل
١٠٧	المدرسة
١١٠	الأصدقاء

طريقة دين الإسلام

أمثل طريق لتكوين خلق الإسلام

- الذرية الأولى - تأدبه في ما كانه ومشربه
- الذرية الثانية - تأدبه في حديثه
- الذرية الثالثة - تأدبه في مجالسته
- الذرية الرابعة - تأدبه جوارحه ومشاعره
- طرق التأديب :
- ال الأولى
 - الثانية
 - الثالثة
 - الرابعة
 - الخامسة
 - السادسة
 - السابعة
- الذرية الخامسة - تنشئته على بر الوالدين والعطف على القريب ،
صلة الرحم
- الذرية السادسة - غرس الإجلال ل النبي صلى الله عليه وسلم
- الذرية السابعة - طبع نفوس النشء على التأدب في حق الله عز وجل
- الذرية الثامنة - تربيته على حسن معاملة أفراد المجتمع
- ## وسيلة تقويم الخلق
- تبييد
- الأولى :
- الثانية :
- سبل اعتقاد الإنسان الأُخلاق المحمودة وإهمال المذمومة :

- | | |
|-----|---|
| ١٦٠ | مراتب الناس في قبول التأديب |
| ١٦١ | أثر الأسوة في تقويم الخلق : تمهيد : |
| ١٦١ | النفس محبوكة على حب المهانة والمحاكاة . |
| ١٦٦ | الأسوة خير مرشد |
| ١٧٣ | العمل مظهر الخلق |
| ١٧٧ | عبادة الله أقوى أركان الخلق |
| ١٧٩ | الخلق عماد الإيمان |
| ١٨١ | القاعدة الخلقيّة |
| ١٨١ | السنة الخلقيّة |
| ١٨١ | السنن العامة وأنواعها |
| ١٨٣ | الحقوق والواجبات القومية |

الموازن الخلقية

- | | |
|-----|--|
| ١٨٤ | مقدمة ، دواعي الأعمال |
| ١٨٧ | الميزان الأول — العرف |
| ١٩١ | الثاني — الفطرة |
| ١٩٢ | قدم مذهب الفطرة |
| ١٩٣ | نقد القول بالفطرة |
| ١٩٤ | الميزان الثالث — القول باللذة |
| ١٩٤ | ١ — حقيقة اللذة |
| ١٩٤ | ب — اللذة والألم |
| ١٩٤ | ح — ضروب اللذة : الأول والثاني والثالث |
| ١٩٧ | ه — تعاقب اللذة والألم |
| ١٩٨ | و — تقاويم اللذات |
| ١٩٩ | ز — ضروب اللذة في رأى علماء النفس |
| ١٩٩ | ح — رأى علماء الأخلاق من المسلمين في اللذة : |
| ١٩٩ | رأى الغزالى |

الصحيحة	الموضوع
٢٠١	رأى ابن حزم في صنوف اللذة
٢٠١	اللذة البدنية بوصفها ميزانا
٢٠١	فرق أهل هذا المذهب
٢٠١	الفرقة الأولى — أولو الأثرة
٢٠٣	تقد القول بالأثرة
٢٠٦	الفرقة الثانية — النفعيون
٢٠٨	تقد هذا المذهب
٢١٠	رد النقد
٢١١	أطوار النفعية
٢١١	رأى أبيقور
٢١١	الرغبات عند أبيقور
٢١٢	تقد مذهب أبيقور
٢١٣	رأى بنتام في النفعية
٢١٤	تقد مذهبيه
٢١٥	رأى استيوارت ميل
٢١٦	تقد مذهب ميل
٢١٨	إجمال القول في محاسن النفعية ومسايبها :
٢١٨	محاسنها :
٢٢٠	مساويها :
٢٢١	الميزان الرابع — الإيشار
٢٢٣	» الخامس — العاطفة
٢٢٤	» السادس — استهالة القلوب
٢٢٥	تقد هذا المذهب
٢٢٦	الميزان السابع — الاقتداء بالله
٢٢٨	تقد هذا الميزان
٢٢٨	» الثامن — السعادة

صحيفة	الموضوع
٢٢٨	ماهية السعادة
٢٣٣	رأي الائمه الغزالي في السعادة
٢٣٥	رأي أرسطوطاليس
٢٣٥	رأي الفلاسفة العصريين
٢٣٥	رأي الفريق الأول من الفلاسفة العصريين
٢٣٦	رأي الفريق الثاني
٢٣٧	سبب اختلاف الناس في تحديد السعادة :
٢٣٧	(أ) فضل الإنسان على غيره
٢٣٨	(ب) تفاوت العقول
٢٣٩	(ج) سبب تفاوت العقول :
٢٣٩	الأول - اختلاف الأمزجة
٢٤٠	الثاني - اختلاف أحوال الوالدين
٢٤٠	الثالث - اختلاف الأفعال
٢٤٠	الرابع - اختلاف أحواهم في تأديبهم
٢٤١	الخامس - اختلاف من يتخصص به ويخالطه ويعاشره
٢٤١	السادس - اختلاف الاجتهاد في تركيبة النفس بالعلم
٢٤٢	حظ الإنسان من السعادة
٢٤٧	الإرادة والسعادة
٢٥٠	عناصر السعادة
٢٥٠	عناصر السعادة عند الفرقـة الفيشاغوريـة
٢٥٠	« « « الأـرسطوـطـالـيـسـيـة
٢٥١	سبـب اختـلافـ الفـرقـتينـ :
٢٥١	(أ) وجـهةـ نـظرـ الفـرقـةـ الـأـولـىـ
٢٥٢	(ب) وجـهةـ نـظرـ الفـرقـةـ الثـانـيـةـ
٢٥٣	رأـيـ تـولـسـتـوـيـ فـيـ تقـسـيمـ السـعادـةـ
٢٥٥	رأـيـ الـفـلـاسـفـةـ الـإـسـلـامـيـنـ فـيـ عـنـاصـرـ السـعادـةـ

- | | |
|-----|---|
| ٢٥٥ | (ا) رأى ابن مسكونيه |
| ٢٥٦ | (ب) رأى الراغب الأصفهانى |
| ٢٦٠ | (ج) رأى الغزالى |
| ٢٦١ | وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجية |
| ٢٦٣ | » » » الجسمية |
| ٢٦٤ | معنى الفضائل التوفيقية؛ ووجه الحاجة إليها |
| ٢٦٦ | رتب السعادة |
| ٢٦٦ | رأى أرسسطو |
| ٢٦٧ | الرتبة الأولى من السعادة |
| ٢٦٩ | الحن والمصائب لاتخرج السعيد عن سعادته |
| ٢٧٠ | شقاوة البناء لاتخرج السعيد بعد موته من زمرة السعداء |
| ٢٧٢ | الرتبة الأخيرة من السعادة |
| ٢٧٤ | رأى الغزالى في رتب السعادة |
| ٢٧٧ | أسباب السعادة : |
| ٢٧٩ | الأول - الإيمان : |
| ٢٧٩ | الاعتقاد |
| ٢٨١ | اليقين |
| ٢٨٤ | الرابطة بين الاعتقاد واليقين |
| ٢٨٤ | الإيمان |
| ٢٨٩ | الفرق بين الإيمان والتصديق |
| ٢٩٠ | المؤمن الكامل بالإيمان لا يخرجه الابتلاء عن كمال إيمانه |
| ٢٩٢ | الدين |
| ٢٩٣ | الرابطة بين الدين والإيمان |
| ٢٩٤ | الإيمان باللهية |
| ٣٠٠ | أثر الإيمان باللهية |
| ٣٠٢ | إنكار اللهية |

صحيفة

الموضوع

- ٣٠٨ اختلاف العقائد واختلاف أنصارها
٣٠٩ إشكال الإسلام تجاه الأديان
٣١٠ أصول دين الله واحدة
٣١١ مآفاذة الأديان من العقائد والخلاص
٣٢٠ الدين والعلم
٣٢١ الدين الإسلامي والعقل
٣٢٧ ظاهر العقل والدين
٣٢٩ الدين الإسلامي أعظم الأديان
٣٣٦ السبب الثاني من أسباب السعادة
٣٣٦ الفضائل التي بتحصيلها تناول السعادة .
٣٣٨ الذريعة إلى محاربة الهوى
٣٤١ قد تصدر الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل
٣٤٥ السبب الثالث من أسباب السعادة الإخلاص
٣٤٨ أنواع الإخلاص
٣٥٢ السبب الرابع من أسباب السعادة - الصحة
٣٥٣ ما يجب لحفظ صحة النفس :
٣٥٤ الأول - معاشرة الآخيار
٣٥٥ الثاني - الارتياض بالآمور الفكرية
٣٥٦ الثالث - عدم إثارة قوى الشهوة والغضب
٣٥٨ الرابع - التدبر في كل الأمور
٣٥٩ الخامس - استقصاء عيوب النفس
٣٦٠ قيمة حفظ الصحة النفسية
٣٦٣ علاج النفس
٣٦٤ التهور والجبن
٣٦٦ ما يدرج تحت التهور والجبن
٣٦٧ الغضب :

٣٦٩	الغضب المكرر و
٣٦٩	» المظمر
٣٦٩	أسباب الغضب صنفان :
٣٧٠	لواحق الغضب
٣٧٠	جسم أسباب الغضب
٣٧٠	العجب والافتخار
٣٧٢	المراء والاجاج
٣٧٢	المزاح والتهيء والاستهزاء
٣٧٢	المزاح
٣٧٣	التهيء
٣٧٣	الاستهزاء
٣٧٣	الغدر والضمير
٣٧٣	الغدر
٣٧٤	الضمير
٣٧٤	المقتنيات النفسية
٣٧٤	الخلط بين الغضب والشجاعة
٣٧٥	الشجاع الزيف والشجاع الحق
٣٧٦	أسباب الخوف وعلاجه
٣٧٦	الأمور الممكنة
٣٧٧	الأمور المحتومة
٣٧٨	أسباب الخوف من الموت وعلاجه :
٣٧٨	١ — عدم معرفة حقيقة الموت
٣٧٩	٢ — جهل المصير أو جهل بقاء النفس
٣٨١	٣ — خوف العقاب الذي يعقب الموت
٣٨١	٤ — جهل ما يقدم عليه بعد الموت
٣٨٢	٥ — الحزن على ما يخلف من الأهل والولد والمال

الصحيحة	الموضوع
٣٨٢	جلة القول في الخوف من الموت
٣٨٤	ذكرى الموت (للإنسان حالان في تذكره) :
٣٨٤	الحال الأولى - حاله في التذكر قبل الموت
٣٨٥	ماعليه الناس في هذه الحالة (ثلاثة أقسام) :
٣٨٥	القسم الأول : الأحمق الذي لا يتذكر الموت
٣٨٥	« الثاني : الذي يذكر الموت دائماً خوفاً منه
٣٨٦	القسم الثالث : الذي يتذكره دائماً بعقل وكياسة
٣٨٦	الحال الثانية : (حال الإنسان عند الموت)
٣٨٦	الناس فيها ثلاثة أقسام :
٣٨٦	القسم الأول : عاقل ذو بصيرة
٣٨٧	« الثاني : رديء البصيرة منهمك في الدنيا
٣٨٧	« الثالث : بين الرتبتين
٣٨٨	علاج الحزن
٣٨٨	الحزن على ماض
٣٨٩	« على حاضر
٣٩٠	« على مستقبل
٣٩١	انتفاء الألم يستدعي وجود السعادة
٣٩٢	اجتماع الألم والسعادة
٣٩٢	ضرورة الألم في السعادة
٣٩٢	ال الألم حقيقة لابد منها
٣٩٣	ال الألم كالظل
٣٩٣	الحياة بدون الألم ناقصة
٣٩٤	ال الألم سر النبوغ - أمثلة على ذلك
٣٩٥	الأمم كالأفراد في أثر الألم
٣٩٥	الشره والخود
٣٩٦	تقىتف العفة رذيلتان : الشره والخود

الموضوع	صحيحة
يندرج تحتهما ١٢ رذيلة :	٣٩٦
الوقاحة والتختنث	٣٩٦
التبذير والتقتير	٣٩٦
الرياء والهتكة	٣٩٧ - ٣٩٦
الكرازة والمجانية .	٣٩٧
العبث والتحاشي	٣٩٧
الشकاسة والملق	٣٩٧
الحسد والشماتة	٣٩٧
علاج هذه الامراض	٣٩٧
الخب والبله وما ينتج عنهم ، وعلاج ذلك	٣٩٨
الغبن والتغابن والجور . أنواع العدل :	٣٩٩
السبب الخامس من أسباب السعادة : الغنى - حقيقة الغنى والفقر	٤٠٠
السبب السادس من أسباب السعادة - القناعة . «	٤١٧
حقيقة القناعة	٤١٧
القناعة والعمل	٤٢٠
انتصار الإٰسلام بعقائد أهله فيها	٤٢١
أمثلة على ذلك .	٤٢٢
المقوقس وعمرو بن العاص في فتح مصر	٤٢٢
عبدة بن الصامت والمقوقس	٤٢٣
عبدة وقوم من الروم	٤٢٣
الإٰسلام المتصدر بالقناعة قد حدث على السعي	٤٢٤
لامنافاة بين القناعة وكثرة المال	٤٢٥
القناعة والإدخار	٤٢٥
دفع الضرر في النفس والمال والوقاية منه	٤٢٦
كيف يكون الآخر بهذه الأسباب راضياً متوكلًا ؟	٤٢٧
الوقاية من المرض - الوباء وقصة عمر	٤٢٨

صحيفة	الموضوع
٤٢٩	علاج المرض . قوله صلى الله عليه وسلم و فعله
٤٣٠	كيف يرضى القانع بالبلايا والحن ؟
٤٣٠	الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب
٤٣٠	قول الغزالي في ذلك إنه من وجوهين :
٤٣٠	أحدهما : أن يبطل الإحساس بالآلام ... الخ أمثلة
٤٣١	ثانيهما : الإحساس بالآلام والرضا به - أمثلة
٤٣٢	السعادة هي القناعة
٤٣٣	محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل في القناعة
٤٣٥	الرضا وجمال العالم

أسباب السعادة

٤٤٠	فـ رأى الفيلسوف الإنجليزي
٤٤١	الأول - مبلغ الشعور باللذة
٤٤٢	الثاني - العطف
٤٤٣	الثالث - الأسرة
٤٤٥	الرابع - آللعمل من أسباب السعادة أو من أسباب الشقاء ؟
٤٤٦	الخامس - الجهاد
٤٤٧	السادس - التسليم
٤٤٨	السعيد
٤٤٩	أسباب الشقاء :
٤٤٩	١ - خطأ العقل وفساد حكمه
٤٥١	٢ - السخط
٤٥٢	٣ - التطرف أو الشذوذ
٤٥٤	أسباب الشقاء في نظر « برترند رسل »
٤٥٤	الأول - الأثرة
٤٥٤	الثاني - الإسراف في التنافس

٤٥٥	الثالث — الملل
٤٥٦	الرابع — الغيرة
٤٥٧	الخامس — الإِجْهَاد
٤٥٨	السادس — وخذ الضمير
٤٥٩	السابع — توهُّم عداء الناس
٤٦١	الثامن — الخوف من الرأى العام أهم أسباب الشقاء في رأى الاستاذ « الدجوی »
٤٦١	الأول — الترف
٤٦١	الثاني — الإِسْرَاف
٤٦١	الثالث — عدم تنظيم الأوقات
٤٦١	الرابع — الاكتفاء بالعلم في تهذيب النقوس
٤٦١	الخامس — عدم غرس الدين في نقوس النش
٤٦٢	السادس — عدم رياضة النفس
٤٦٢	السابع — إنكار الروحانيات
٤٦٢	الثامن — عدم ملاحظة استعداد النش
٤٦٤	تنبيه :
٤٦٥	جدول المطاؤ والصواب

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
الشريعة	الشريفة	١٤	٣
المستشرقين	المستشرقين	١٧	٤
وكانت	وكان	٤	٥
ينتحل	يتلمس	١٠	٦
تفصل	تفصيل	٤	٧
غَشاوة	غِشاوة	١٢	١٣
الفطرية	النظرية	١٤	١٦
تقدوا	تقروا	١٤	١٧
رَدَاءةُ	رَدَاءةً	٢٣	١٨
...وهـ	سوءـ	٢٣	١٨
الحقهـ	الحقيقة	٢١	٢٦
ينطبع	وينطبع	١٢	٣٠
المختران	المخترعين	١٢	٣٧
مهاـ	مهماـ	٥	٣٩
اسديهـ	مسديهـ	٧	٤١
ودعهاـ	أودعهاـ	١٥	٤٨
يختلفان	يختلفان	٩	٥٥
اللهـ	اللهـ	٤	٦٢
أبلهاـ	أبلهـ	٢٢	٦٤
وحسن	وأحسنـ	١٨	٦٦
مناخهاـ	جوهاـ	٢	٦٨
تشيدـ	تشيدـ	٢٣	٧٠

الصفحة	السطر	الصواب	الخطأ
٧٣	٢٠	غشاوة	غشاوه
٧٤	١٩	أخذوا	أخذ
٧٦	١١	فيها	فيهها
٧٧	١١	إن تهمله شب	إن شب
٨١	١١	حنه	حسه
٨٣	٥	جوستاف لوبيون	
٨٧	١٤	وحبيت	وجبت
٨٧	١٥	سيلله	يلله
٨٨	١	رجل	رحل
٨٨	٢	شتت	شتتـ
٩٢	١	وتلك	تكلـ
٩٦	٢١	الشباب	الشبان
١١٨	١٠	فيين	فبین
١٢٨	٨	الحياة	الحياةـ
١٣٣	٣	الكبير	الكبـير
١٣٥	٢٤	بتربيته	بتربيتهـ
١٣٦	٢٠	تؤمن	تؤمل
١٤٠	٢٢	يستعيده	يستعيـده
١٤٢	٢٢	مهـم	مهما
١٤٢	٢٢	عاق	لقـ
١٤٤	١٧	لقاءـه	لقاءـهـ
١٤٨	١	فسـهل	سـهلـ
١٥٩	٨	المذمومـة	المذمـومـهـ
١٦٤	١٣	عن العنـقـود	على العـنـقـودـ
١٦٧	٢٣	تأثيرـا	أثيرـا
١٨١	١	يفـلتـ	يفـتلـ

الصفحة	السطر	الصواب	المخطأ
١٨٥	٩	ممن	ما
١٨٨	١٤	لولى	لونى
٢٢٨	١٦	الثامن	التاسع
٢٣٠	٤	تعطى	تعط
٣٣٩	١٦	مثل لا حديث	الناس بخير الخ
٢٤٤	٦	التقدير	القدر
٢٦٢	١٠	يُلْتَفَسْعَ	يتتفّسح
٢٦٣	٧	المُبَدِّيَة	المبَدَّة
٢٧٠	١٩	خيرا	خيارا
٢٧١	٩	ومتى	وحتى
٢٧٢	٢٢	خارج	وخارج
٢٧٣	٢٤	إليه	إليها
٢٩١	١٤	العيش	الييش
٢٩٣	٣	ما يفيد أن	ما يفيده الدين
٢٩٤	٩	النَّبِيُّ	النبيء
٢٩٤	٢٠	واحدة	واحد
٢٩٩	١	تَكُونُ	تكون
٣٠١	٢	العمل	لعمل
٣٠٢	١٥	نجمت	نجحت
٣١١	٢٣	مقارفة	مفارة
٣١٣	١٨	اقتراف	عن اقتراف
٣٢٠	١٠	مملاً يتافق	ما يتافق
٣٢٤	١٨	وتحييص	وتحيس
٣٣٤ - ٣٣٣	١	أعظم الأديان	من أعظم الأديان
٣٣٩	٥	وقتله	وقتله
٣٤٣	٥	عن	من

الخطأ	الصواب	السطر الصفحة
أو	أن	٣٤٢ ١١
ما يعنيك	ما يعنيك	٣٥٦ ١٥
هال	هان	٣٥٧ ٨
مه	منه	٣٦٤ ١٣
لو كنت أنا أنت... لمْ كن أنا أنت	لو كنت أنا إياك... لمْ كن أنا إياك	٣٧٦ ١
وَلَا بُرْءَةٌ	وَأَن لَّا بُرْءَةٌ	٣٧٩ ١٨
النفس	النعش	٣٨٤ ١٩
تحتكه	تحنّك	٣٩٨ ٢١
جزأ	جزءاً	٣٩٩ ٩
بلي	بل	٣٩٩ ٢١
يطلب	يطلبه	٤٠٠ ١٨
وعشرين	أو عشرين	٤١٥ ٦
لِسَكِيٍّ لَا تَأْسُوا	لِكَيْلَادَ تَأْسُوا	٤٢١ ١
لا شراب	لا شرابهم	٤٢١ ٢٣
ولَيْلَادُخُوا	ولَيْلَادُخُوا	٤٢٧ ٩
الرضا !! بالحال ؟	الرضا بالحال ؟ !!	٤٤٠ ٢

اتهـى

الخواص الحكما في الدين

تأليف

مكتبة الموسوي

بك

المفتش بوزارة المعارف

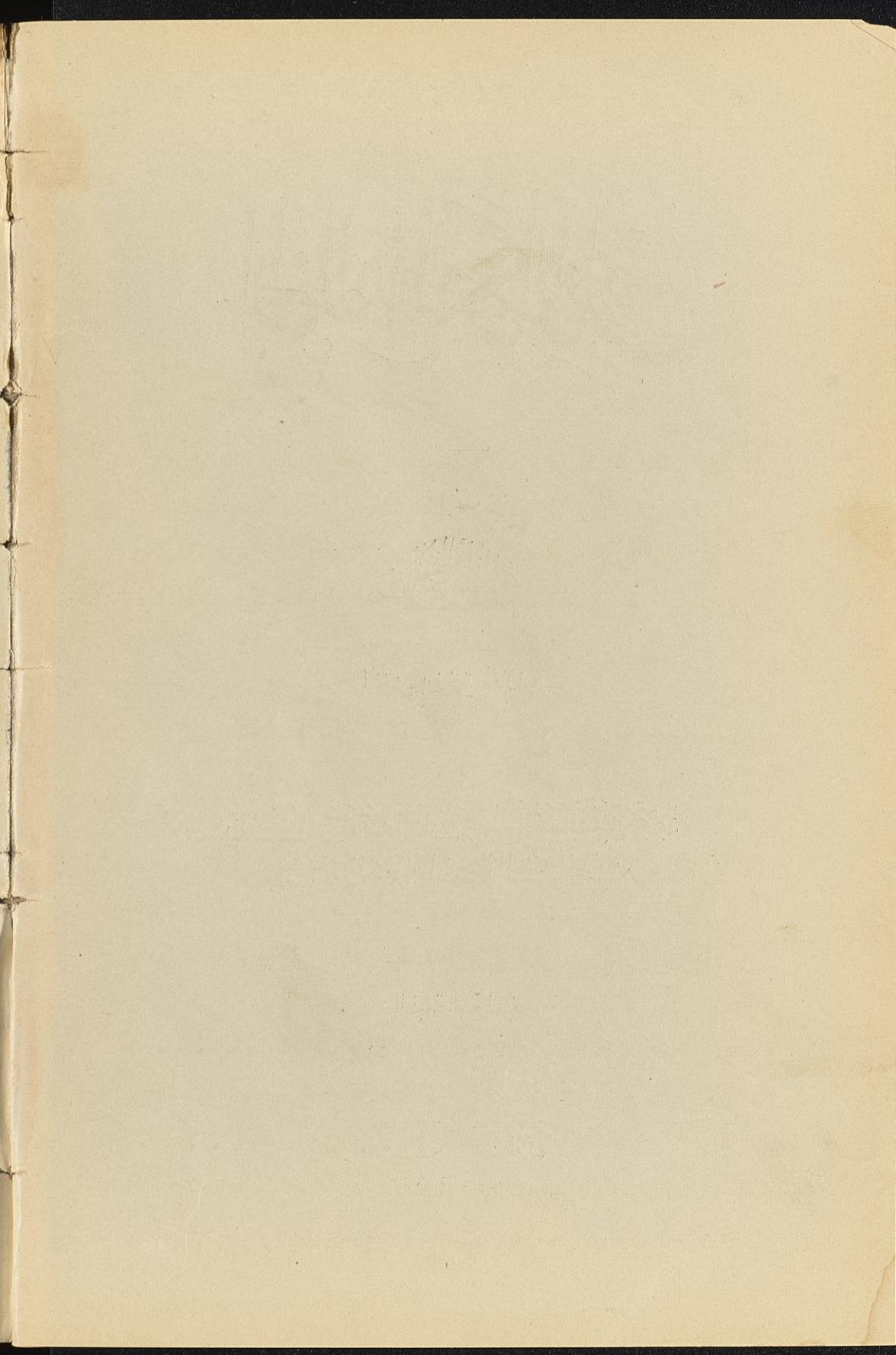
يطلب من المكتبة التأزيمية بشارع الصناديق بمصر
لصناجهها عبد الواحد محمد التأزيم

(طبعة الأولى)

١٣٥١ م - ١٩٣٢

مطبعة جمازي

تلفون رقم ٥٥٤٨٠



تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلة علم الأضداد

الحمد لله الكريم الخلاق ، والصلة والسلام على أشرف الخلق المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق (وبعد) فان علم الأخلاق من أشرف العلوم ان لم يكن أشرفها ، إذ أن قيمة المرء في الحقيقة تقدر بأخلاقه وأعماله ، لا بجسمه ، ولا بعلمه ، ولا بماله ، ففي الحديث الشريف « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ». .
ومن كلام على (قيمة كل أمرٍ ما يحيط به)
« وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فانهم ذهبت أخلاقهم ذهبوا »

ارتباط بأمرٍ

من تأمل مقاصد الأوامر ، والنواهى الدينية ، وتغفل في أسرارها ، عرف أنها ترمي إلى غرض واحد ، هو طهارة النفس ، وكالها الإنساني ، الذي تسعد به في الدنيا والآخرة ، أنظر قوله تعالى « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ . إِلَّاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ » تجده أن فلاح الإنسان منوط بسلامة عقيدته ، وصلاح أعماله ، ومتانة أخلاقه . وقال صلى الله عليه وسلم (إِنَّمَا بَعِثْتُ لَكُمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) فقد جعل مكارم الأخلاق الغاية من بعثته الشريفة ، وأثار الاهتمام بالأخلاق بقوله : (أَنْقُلْ مَا يَوْضَعُ فِي الْمِيزَانِ الْخَلْقَ الْحَسَنَ) وقال الحكمة (إن اعتدال الأخلاق في الإنسان قد يكون السبب وحده في سعادته) .

المادة الرابعة

من البدھي أنه كلما انتشرت الأمراض ، اشتدت الحاجة إلى علم الطب لمقاومتها ، وإنقاذ الناس من فتكها ، وكذلك كلما انتشرت المفاسد ، ازدادت الحاجة إلى علم الأخلاق ، ومضاعفة العناية بهذب النقوس وصقلها ، فهو طهراً واصفاً أدواها . ولئن كان الإنسان في حاجة إلى العلوم ، فهو إلى الأخلاق أحوج ، لأن ما يصييه من الظلم ، وما يفسو بين أفراده من الاجرام ، منشؤه نقص الأخلاق ، أكثر من أن يكون منشؤه نقص العلم ؛ فان العلم يخدم الفضيلة والرذيلة على حد سواء . أما علم الأخلاق فظهور الفضيلة ، وخصيم الرذيلة . الفضيلة لا تكون إلا بالقيام الفعلى بالواجب . ولا يكون المرء فاضلاً لمجرد أنه يعلم ما يجب عمله ، بل الفضل في أن يعمل ما يجب عمله ، ويترك ما يجب تركه . فكأى من عالم موسر بمدى الحاجة فيعرض عنه مع علمه بفضل مساعدة الحاج ، وإغاثة الملهوف . وكم من جاھل سليم القلب تحمله سلامه قلبه على قضاء حاجته .

لست أحاول أن أبغض العلم حقه ، ولكنني أريد ألا تتوجه رغبتنا إلى محاربة الجهل فقط ، فالمتعلم السيء أضر من الجاهل . ولقد كان يسرنا أن تكون الأخلاق شنسنة المتعلمين . ولكن كثيراً ما نرى غير هذا . قال أحد المستشرين (إن غير المتعلمين في مصر أزرى أخلاقاً من المتعلمين) وليس لهذا من سبب سوى أنهم لم يأخذوا قسطاً من العلم الصحيح ، ولم يتزودوا من الأخلاق الفاضلة ؛ لأن القوى المohoبة إن لم يأخذ بزمامها قائد الأخلاق الفاضلة كانت آلات الشرور ؛ فمن كان ذا جاه وكرمت أخلاقه استخدم جاهه في مساعدة الضعفاء ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وإذا ساءت أخلاق ذي الجاه ، توصل به إلى الشر ، وكذلك من أعطى المال ، إن كان حسن الأخلاق ، بذلك في صنوف الخير ، وإن كان شريراً ابتعث به شراً ؛ والكاتب إذا لم يكن أميناً كانت معرفته الكتابة وسيلة

تمكنته من تزوير العقود والوثائق وإيقاع الناس في المشاكل ، والحداد إذا لم يكن أميناً اشتراك مع اللصوص ، وصنع لهم المفاتيح التي تساعدهم على السرقة ، والفتاة المتعلمة إن لم تكن كريمة الأخلاق ، فانها لا تجني من تعلمها سوى الخلاعة ، والخروج على الأخلاق والأداب المرعية ، وكانت ضررها أكبر اذا تولت مهنة التعليم . والمدره إذا لم يكن صادقاً أضل القاضي ، وضيئع الحقوق ، وساعد على أكل أموال الناس بالباطل ، وهلم جرا .

أمثلة من نقصانا الخلقي

- ١ من النقص الخلقي أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من طفله ، فرحا بقدرته على النطق ، جاهلا أنه خير للولد أن يكون أبكم من أن يكون سببا .
- ٢ ومن النقص الخلقي احتقار الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة وكثير من قطعوا بعض مراحل التعليم يتزفون عن مزاولة هذه الحرف
- ٣ ومن النقص الخلقي لطم الخدود وألوغيل على الشبان الذين يجندون لخدمة بلادهم والدفاع عنها .
- ٤ ومن النقص الخلقي احتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة ، والتعلق بالعادات الغربية وإن كانت سليمة .
- ٥ ومن النقص الخلقي الانغماس في الترف ومحاكاة الفقير الغنى .
- ٦ ومن النقص الخلقي تطلع الشبان إلى الزوجات الغنيمات وإن كان وضييعات الأخلاق ، وتطلع الشابات إلى الأزواج الأغنياء وإن كانوا فاسدي الأخلاق .
- ٧ ومن النقص الخلقي أن نرى نصرة العدالة ضعيفة ، فالرجل يشهد الزوج ويحلف اليدين الغموض إرضاء لنفسه ، أو صديقه ويعتبر ذلك ديننا له يسترد عند الحاجة ، والمدره يعرف أن موكله ظالم مجرم ومع ذلك يدافع

عنه ويعتبر ذلك مهارة . وكذلك من يعرف حقيقة الأمر ويكتم الشهادة ويتوارى عن الأنوار .

٨ ومن النقص الخلقى أن نرى القراء يقبلون على الروايات المهزيلة المقوته ويضربون صفحآ عن الكتب القيمة .

٩ ومن النقص الخلقى أن نرى موظف الحكومة يأخذ راتبه من مال الأمة لخدمتها . ولكنها ينسى واجبه ويترفع عن خدمة أفرادها ، وكثيراً ما يهم بشئونه الخاصة ويهمل واجبه فيعطي مصالح الناس ، بل قد يتخطى هذا إلى استخدام مركزه الحكومى في قضاء مأربه المعيبة .

١٠ ومن النقص الخلقى تكدر الموظف عند انتقاله إلى جهة نائية لالسبب غير أنها نائية ، وينتحل الأذدار ، ويوسط الكباء لالغاء النقل ، مع أنه يرى الأجانب يضربون في الأرض ، ويتجشمون الصعب .

١١ ومن النقص الخلقى ال متواضع من سماع الحق ومقت قائله ، والاطمئنان إلى أهل الباطل والنفاق والرياء .

١٢ ومن النقص الخلقى ازدراء المعتصم بدینه المحافظ على شعائره ، وتقریب المستخفين والمستهرين ، وتقکیم الزنادقة والملحدین .

هذه بعض عيوبنا الخلقية ، ولكننا كما نرى معاول اضمحلال وانحلال ولا دخل للعلم فيها ، بل القسم الأكبر منها يتفشى الطبقات المتعلمة .

وقد أخذنا أنفسنا بأن نجمع في كتابنا هذامن الآراء الخلقية بين ما ارتفاه فلاسفة الغرب في بحوثهم ، وذهب إليه حكام الشرق في مؤلفاتهم ، مستضيئين في ذلك بنبراس كتاب الله تعالى ، ومسترشدين بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وما كان لنا أن نحيد عن ذلك في أحد ث كتاب يبحث في فلسفة الخلق ، ويصف أقوم الطرق إلى تكوينه وتنزيكته .

لأن فلاسفة الغرب - وان كان يرجع إليهم فضل السبق في بحث أمهات الفضائل - لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لها حدا فاصلاً بين ما يتحقق الفضيلة .

وما لا يتحققها : فانهم لم يذكروا متعلق العفة ، ولا عن أي شيء تكون ، ولا مقدارها الذي إذا تجاوزه المرء وقع في الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح ، وكذلك الشباعية .

وأما الدين الإسلامي فقد بين ذلك غاية البيان ، وفصله أحسن تفصيل في غير موضع من القرآن الكريم . وحسبنا في هذا المقام أن نذكر آية من القرآن الكريم جمعت قواعد الأخلاق ، وحدتها أدق تحديد ، قال تعالى :-

« قل إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأَثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » فهذه الأنواع الأربع التي حرمها القرآن الكريم تحريمًا مطلقاً لم يسع منها شيئاً لأحد من الخلق ، ولا في حال من الأحوال ، ولا كذلك المية والدم ولحم الخنزير مثلاً : فانها تحرم في حال وتباح في حال ، وأما تلك الأربعة فهي محظة دائمًا : فالفواحش من بطة الشهوة ، واعتدال قوة الشهوة في اجتناب هذه الفواحش ، والبغى بغير الحق من ببط بالغضب ، واعتدال القوة الغضبية في اجتناب البغي .

والشرك بالله ظلم عظيم ، بل هو الظلم على الاطلاق وهو مناف للعدل والعلم ، وقوله تعالى : (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا) متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله ، وكذلك يستدعي إيجاب العدل في حقه ، وهو عبادته وحده لاشريك له ، فان النفس لها القوتان : — العلمية والعملية ، وعمل الانسان اختياري تابع لراداته وكل إرادة لها مراد ، وهو إما مراد لذاته ، وإما مراد لغيره ينتهي إلى المراد لذاته . والقوة العملية تستدعي أن يكون للنفس مقصد تكمل بتحقيقه ، فان كان ذلك المقصد مضمحلًا فانياً : زالت الإرادة بزواله ولم يكن للنفس مقصد غيره ، ففاتها أعظم سعادتها وفلاحتها . ولذلك وجب أن يكون مقصد النفس الذي تكمل بتحقيقه والاحتفاظ به وإشاره ؛ باقياً لايفنى ولايزول ، وليس ذلك الا الله وحده .

ذلك ما ينطوي عليه قوله تعالى : (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا) أوردنا هذا ليبيان أن فلاسفة الغرب لم يوفقا إلى فهم ذلك عند الكلام على كمال النفس ، وإنما جعلوا كمالها في اعتدال قوى الشهوة والغضب ، ومعلوم أن الشهوة جلب ما ينفع البدن وبقى النوع ، والغضب دفع ما يضر البدن ، وليس في ذلك تحديد للمطلوب ، ولا بيان للمقدار المحبوب ، بل هو وقوف بالأخلاق عند حد العلم بها زعمًا منهم أن مجرد العلم بها كاف في كمال النفس .

وذلك خطأ من وجوه كثيرة : —

- ١ منها أن ماذكروه في كمال القوة العملية إنما غايتها إصلاح البدن الذي هو أداة النفس ، ولم يذكروا كمال النفس الارادي والعمل بالمحبة والخوف والرجاء .
- ٢ منها أن كمال النفس في العلم والارادة ، لا في مجرد العلم ، فإن مجرد العلم ليس بكمال للنفس مالم تكن مريدة محبة لها لسعادة لها إلا بارادته ومحبته .
- ٣ منها أن كمال النفس ورقها الروحي المستفاد من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ليس ذا أثر ظاهر عندهم .
- ٤ منها أنهم أخطأهم التوفيق في بحوثهم الالهية لعجزهم عن تحديد الفضائل تحديدا يحول بينهم ويأخذ بعجزهم عن التورط في الزيف ، وتنكب جادة ، الحق

من أجل هذا تخينا إلا نورد إلا المستحسن من آراءهم ، والمرضى من مذاهبهم ، ليسكون ذلك أعم فائدة وأوفر عائدية .

وإن لي في العهد الأصفهاني لأسوة إذ يقول : (إني رأيت أنه لا يكتب الإنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر . وهو دليل على استيلاء النقص على البشر) والله سبحانه المسئول والمرغوب إليه والمأمول أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيعات أعمالنا ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، إنه قريب مجيب ، أمين . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

الفلسفة الخلقية

تعريفها

هي علم يبحث عن السنن الخلقية التي يجري عليها العالم ويتحذّرها معياراً توزن به أعمال البشر وأقوالهم وأحوالهم في معاشهم ومعادهم ، ويبيّن لهم كيف يحب أن يعيشوا لا كيف يعيشون ، ولهذا أسماء بعضهم علم ما يجب وعَنَّا بذلك القواعد التي يحب أن يسير الإنسان على مقتضاه ليتم انفسه ماهي جديرة به من الكمال والرقة ، وتبلغ ماهي حرية به من الخير : وكذلك يبحث في نزعات بني الإنسان وزغاته ، وما اعتادوه من الأعمال والأقوال ويكشف الغطاء عن حقيقتي الخير والشر ، والغاية التي يعد الدنو منها قرباً من الأول والبعد منها قرباً من الآخر . ولما كان مبحث الخير هو الغاية التي ينشدّها الخلقي غالباً بعضهم فعرف علم الأخلاق بأنه علم الخير والارشاد إليه .

موضوع الفلسفة الخلقية

موضوعها : أعمال بني الإنسان الاختيارية الصادرة عن قصد وروية .
 نفرجت الأفعال التي لا سلطان للارادة عليها كالتنفس وما شابه ، وهناك أعمال شبيهة بالأعمال الاختيارية والأعمال الاضطرارية فيلتبس أمرها على غير الناقد البصير ، ولذلك وجب أن نكشف الغطاء عنها ، لنبين في أيهما تدرج والمثل خير موضح : من الناس من اعتاد أن يهب من نومه وهو حالم فيأتي من الأعمال خيراً وشرها ، فربما أنقذ طفلاً كاد يهوى من النافذة ، وأحرق منزله . أفيحكم على عمله خلقياً بأنه خير في الحال الأولى وشر في الحال الثانية ؟ ومنهم من ابتلى بالسوء والنسيان ، فتفوته أعمال كان حقاً عليه أن يعملها : فربما علم أن جماعة يأترون بتدمير مصنع ، أو نسف قطار فيما خلق كثير انتقاماً من رب المصنع ، أو حاكם غاشم في القطار ، ثم نسى كعادته

أن ينبع على درء البلاية ، أفتلق عليه التبعة ، ويحكم عليه بأنه شريك خلقيا للجنة في جريمتهم ؟ ومنهم من ابتلى بحدة الخلق ، وسرعة الغضب بحيث لا يستطيع الصبر على سماع كلامه تؤلمه ، أو اشارة تؤديه فإذا أكثر من الاختلاف إلى الأنانية وغشيان المجالس ؛ تلقى عليه التبعة ، ويؤخذ على بوادره ، وإن كانت خارجة من إرادته ؟

الحق أن أعمالهم جميعاً في الأمثلة الثلاثة مؤاخذون عليها خلقيا ، لأن قواعد الأخلاق توجب أن يحتاط المرء لدرء شر الحالات التي يكون فيها مسلوب الارادة ، فالنائم والساهي في المثالين الاولين عليهمما تبعة إهمال اتخاذ الحيطة والحذر . والغضب في المثال الثالث لا يبرئ صاحبه من اللوم والمؤاخذة ، لأن له مندوحة عن الخصم والتنازع ، بان كفافه عن التردد إلى المجالس التي هي عادة مثار المرأة ومباءة الخصم

قال الفخر في تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَؤْخِذْنَا إِنْ نَسِيَّنَا أَوْ أَخْطَأْنَا » ما ملخصه ان العقل يحكم بالعفو عن الناسي لانه لايجوز تكليف مالا يطاق وقد جاء السمع مؤيداً لذلك ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكر هو على هـ) فاذا كان النسيان في محل العفو قطعاً ، عقلاً وشرعاً ، فما معنى طلب العفو عنه ، في الدعاء ؟ وبحاب عن ذلك بأن النسيان منه ما يعذر صاحبه فيه ومنه مالا يعذر ، الا ترى أن من رأى دما في ثوبه فأخر إزالته إلى أن نسى فصلٍ وهو على ثوبه عد مقصرًا ؟ إذ كانت تلزمه المبادرة إلى إزالته ، وأما إذا لم يرها في ثوبه فإنه يعذر فيه ، ومن رمى صيداً في موضع فأصاب إنساناً ، فقد يكون بحيث لا يعلم الرامي أنه يصيب ذلك الصيد أو غيره ، فإذا رمى ولم يتحرز كان ملوماً ، أما إذا لم تكن أellarat الغلط ظاهرة ثم رمى وأصاب إنساناً ، كان هاهنا معذوراً وصفوة القول ، إن الناس يؤخذون في ترك التحفظ قصداً وعمداً . ولقد ألم الغزال رضوان الله عليه إلى ذلك في إحيائه إذ يقول : قد ينظر الإنسان إلى وجه حسن فيميل

إليه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمحالسة والمخالطة والمحاورة ، لتأكّد ميله حتى يخرج من أمر اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، وكان حقا عليه أن يفطم نفسه ابتداء ، ويزجر ميله دفعاً لبلوغه حالاً يصبح فيها مسلوب الارادة ، وما ذلك بمنجيه من اللوم والتبعه .

فغير بالعقل ألا يغفل عن محاسبة نفسه ، ومراقبة حركاتها وسكناتها وما عساه أن يتّصل فيها من العادات الذميمة ، ويحذرها معبة الاتهام ، حتى لا تسهل عليها مقارفة العمل السيء فتصبح عادة لازمة . والتقي من كان أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك صحيح .

أعلم الأخلاق نظرى أم عملى؟

ذهب بعض الفلاسفة الخلقين وهم النفعيون^(١) إلى أن علم الأخلاق عملي ، وزعموا أنه يمكن تحديد غاية معينة يجب أن يسعى إليها الناس جميعاً هي في عرفهم : أن ينال جل الناس أكبر قسط من الم هنا ، وأنه يجب على الخلقين أن يتذكروا أخير الوسائل لبلوغ هذا المقصد ، كما يجب على الأطباء أن ينقووا عن أ مثل الطرق إلى توفير أسباب الصحة وتحصيلها . وذهب الجمور إلى أنه نظرى وعنوا بذلك أنه يصور أ مثل الخلقي الذي يجب أن يختذل ، والقواعد التي يجب العمل بها لمحاولة بلوغ هذا المثل ، وإن تناوله البحث أحياناً فيما لدى الناس من المواقف والعادات ، استحساناً واستهجاناً ، وفيما طرأ عليها من التبدل والتغير ، اقتئات منه على علم الاجتماع الباحث في تكوين الجماعات ، وتدرج حياتها ، والذى هو من العلوم الواقعية الباحثة في الأمور الثابتة ، فهم يرون أن مَثَل علم الأخلاق ، كمثل علم الجمال ، فعلم الجمال لا يبحث إلا في تصوير المثل الكامل للجمال ، وليس منه البحث في وسائل تحصيله ، وكذلك علم الأخلاق لا ينقب في رأى الجمود إلا عن إماتة اللشام عن طبيعة المثل

(١) سيعنى الكلام عليهم فيما بعد

الكامل، لما يجب أن يكون عليه الناس في أحواهم وأعمالهم.

أمن يدرس الفلسفة الأخلاقية يصير ذا خلق؟

قال الشيخ الاكابر سيدى محي الدين فى كتابه فلسفة الأخلاق أهم من ايا دراسة الاخلاق ما يأتى :

(١) إنها تبين ما الخلق وما علته وما أنواعه وما المرتضى منه المغبوط صاحبه المتخلق به ، وما المشنوء الممقوط فاعله المتسنم به ، ليسترشد بذلك من كانت له همة تسمى إلى مبارأة أهل الفضل ، ونفس أية تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص .

(٢) وتدل على طريق الارتكاض بال محمود من أنواعه والتدريب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير للمرتاض به ديدناً وعادة وسببية ، يهتدى به من نشأ على الأخلاق السائدة وألفها ، وجرى على العادات الردية وأنس بها .

(٣) وتصف الإنسان الكامل المهدى بالأخلاق ، والمحيط بجميع المناقب الجميلة ، وطريقته التي يصل بها إلى الكمال ، وما يحفظ عليه الكامل ليشتاق إلى سمته من تشوق إلى الرتبة العليا ، ويحن إلى احتذاه من استشرف إلى الغاية القصوى .

(٤) تنبئه من كانت له عيوب قد التبسست عليه وهو مع ذلك يظهر له أنه في غاية الكمال فان من هذه حاله إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكرورة تيقظ لما فيه من ذلك وأنف واجهد في اطرافه .

(٥) إذا تصفح الأخلاق المحمودة من كان متصفًا بأكثراها فقدا بعضها ابترى للتخلق بما هو فاقد له وتأفت نفسه إلى الاحاطة بجميعها .

وتحث المهدى بالأخلاق ، الجامع المحاسن على الاستمرار على سيرته ، والاصرار على طريقته ، إذا من بسمعه ذكر الخلائق الجميلة والمناقب النفيسة ورأى أن تلك هي عاداته وسبجياته

(٧) دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدتها ، وتقديرها حق قدرها ، دون أن يخضع في حكمه إلى إلف أو عادة ، أو يؤثر بحكم الزمان والمكان .

(٨) وبها تقوى الإرادة على عمل الخير ، وسلوك السنن القويم ، وتنشط العزيمة للبصري في سهل الفضيلة ، واتخاذها نبراساً في أعمالها .

رأينا : والحق أن مثل الخلقي في تلقينه قواعد العلم ، وتوضيح مباحثه ، كمثل الطبيب ، يتعرف الداء ، ويصف الدواء ، فالطبيب لا يستطيع أن يستأصل جرثومة المرض اذا أهمل المريض نصيحته وإرشاده ، وكذلك ملحن الفلسفة الخلقية ومبين مزاياها ، ليس في مقدوره أن يجعل من يأخذون عنه ، أو يقرءون كتابه أخيراً صلحاء ، اذا هم خالفوا قواعد علميه ، وانصرفو عن الجرى على سنته ومنذهبه «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَدَّكَّرُونَ»

أجل إن الموعظ الحسنة ، وقواعد التهذيب البينة ، قد تبعث العزائم في بعض الأحابين على القيام بصالح الأعمال ، وجلايل الفعال ، فالموعظة كما يقول محمد بن تمام : جند من جنود الله تعالى ، ومثلها مثل الطين يضرب به على الجدار ، إن استمسك نفع ، وإن وقع أثراً ، من أجل ذلك استدعي الرشيد منصور بن عمار ليعظه ، فقال له : عظمي وأوجز ، فقال : يا أمير المؤمنين هل أحد أحب إليك من نفسك ؟ قال : لا ، قال : إن أردت إلا تسيء إلى من تحب فافعل ، ودخل مالك بن أنس وابن طاووس على أبي جعفر المنصور وبين يديه أنطاع قد سقطت ، وجلادون بأيديهم السيف يضربون الأعناق ، فأواماً اليهما بالجلوس ، فجلسا ، فأطرق زميماً طويلاً ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس وقال له : حدثني عن أبيك ، قال : سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشَرَّ كُهُ اللَّهُ فِي مُلْكِهِ ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْجَوْرَ فِي حُكْمِهِ)
فَأَمْسَكَ أَبُو جعفر ساعةً حتى اسود ما ينينا وبينه ، فضممت ثيابي مخافةً أن ينالها
شيءٌ من دم ابن طاووس ، ثم قال : يابن طاووس : ناولني هذه الدواة ، فأمسك
عنه ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ، قال : أخاف أن تكتب بها معصية ،
فأكون شريكَ فيها . فلما سمع ذلك قال : قوماً عنى ، فقال ابن طاووس :
ذلك ما كنا نبغى . قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاووس فضله من
ذلك اليوم .

وقال أبو بكر الطروشي : دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو
أمير على مصر فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد السلام على
نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرمني أكراماً جزيلاً ، وأمرني بدخول مجلسه
والجلوس فيه ، فقلت : أيها الملك ، إن الله تعالى قد أحلك محلاً عالياً
شامحاً ، وأنزلتك منزلًا شريفاً باذخاً ، وملكت طائفة من ملوكه ، وأشركتك
في حكمه ، ولم يرض أن يكون أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون
أحد أولي بالشكر منك ، وليس الشكر باللسان ، وإنما هو بالفعال والاحسان
قال الله تعالى : «اعملوا آلَ دَاؤُدَ شَكْرًا» واعلم أن هذا الذي أصبحت
فيه من الملوك ، إنما صار إليك بمорт من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل
ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله تعالى سائلك عن
الفتيل والنمير والقطمير ، قال الله تعالى «فَوَرَبْكَ لِلنَّاسِ نَهْمَمُ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ» وقال تعالى «وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا
حَتَّى سَبِّينَ» واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى سليمان بن داود عليهما
السلام ملك الدنيا بعذافيرها ، فسخر له الانس والجن ، والشياطين ، والطير
والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم
رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : هذا عطاونا فامتن أو أمسك بغير
حساب . فوالله ما عدها نعمة كأ عدد تمواها ، ولا حسبها كرامة كأ حسبتموها

بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى ، ومكرًا به ، فقال «هذا من فضل ربي ليبلوئني أشكراً أم أكفر» فاقتحم الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وأغاث الملهوف ، أعنك الله على نصر المظلوم ، وجعلك كهفاً للملهوف .

وكذلك العلم اذا تغلغل في النفوس أورثها البأس والاقدام وكساها حلة العظمة واليقين ، يبدأ المتخلفين بما يعلمون ، هم الأقلون قدماً وحديثاً ، ومن أجل ذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه (اما زهد الناس في طلب العلم ، لما يرون من قلة اتفاقع من علم بمعامله) وهانحن أو لا نرى الناس يتلون الكتب السماوية ويسمعون الحكم الخلقية ، وهم خلو من حلية التقوى وطابع المهدى لاشتئهم يد المراقبة ولا تكشفهم خيبة الحاسبة ، فهم لدعائم الاخلاق مضيرون ، ولدوا على الفساد والهوى مطيعون ، جاء في التوراة «الرَّجُلُ الْحَكِيمُ فِي عِزٍّ» وجاء في الكتاب المقدس «كما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلاً أنتم أيضاً بهم هكذا» وجاء فيه أيضاً «وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةً» وورد في القرآن الكريم «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةً» «وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» «وَلَا تَنسَوْا الْفَضْلَ يَيْنِنُكُمْ» «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى» وجاء في الحديث الشريف (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) فهل أقيمت مع هذا شريعة الانصاف ، وهدمت دعائم الاستبعاد . أليس الناس يكره بعضهم بعضاً ، ويترbus به الدوائر ؟ أليس سيف البغي مصلحتنا ، وشيطان العداون وال الحرب مستيقظاً ؟ حقاً لقد صدق صاحب كليلة ودمنة ، إذ يقول على لسان بروزويه : إنما قد نرى الزمان مدبراً بكل مكان ، حتى كأن أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزاً فقده مفقوداً ، وهو جوداً ما كان ضائراً وجوده ، وكأن الخير أصبح ذابلاً ، والشر ناضراً ، وكأن الفهم قد زالت سبله ، وكأن الحق ولـى كسيراً ، وأقبل الباطل تابعاً ، وكأن اتباع الهوى ، وإضاعة الحكم ، أصبح بالحكام موكلًا وأصبح المظلوم بالحيف مقرًا ، والظالم بنفسه مستطيلاً ،

وكان الحرص أصبح فاغرا فاه من كل جهة ، يتلقف ماقرب منه وما بعد ، ودأب الرضا أصبح مجهولا ، وكأن الاشرار يقصدون السهام صعوبا ، وكان الآخيار يريدون بطن الارض نزوا لا ، فأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف إلى أسفل درك ، وأصبحت الدناءة ممكّنة ، وأصبح السلطان متقدلا عن أهل الفضل ، إلى أهل النقص ، وكأن الدنيا جذلة مسرورة ، تقول قد غابت الخيرات ، وأظهرت السيئات .

نسبة الفلسفة الخلقية إلى إسائر العلوم

تمهيد —

الفلسفة الخلقية : ضرب من ضروب الفلسفة العامة ، ونحن وإن كنا لا نقصد بسط القول في تبيان مناخيها في هذا المقام ، لأنجد بدا من إجمال الكلام في الرابطة بينها وبين العلوم فنقول :

الفلسفة « هي دراسة حقائق العلوم دراسة كافية » ومن أجل ذلك كانت ذات وجوه وألوان شتى : لأنها إن كان المقام مقام تعرف حقائق الكائنات وتنقض حكمة تكوينها ، سمي في عرف الفلسفه « الحكمة الفطرية » وإن كان المقام مقام دراسة القوى العقلية ، وأحوالها وأسباب أحوالها ، وكيفية وصول المعلومات إليها سمي « علم النفس » إلى غير ذلك مما لا يسعه المقام

تفصيل بعد اجمال

نسبة الفلسفة الخلقية إلى العلوم الطبيعية

ان دراسة العلوم الطبيعية تكسب صاحبها ملحة الحكم على عواقب ما يشاهده من اعمال الناس وسيرهم ، وإن كانت لا تفيده معرفة الأصول

الخفية التي ابعتها عنها هذه الأفعال والسير . أضف إلى ذلك أن العلوم الطبيعية تمكن الخلقي من تعرف البيئة ، ومباغث أثرها في حياة الإنسان وعقله وتصوراته ، وما تجلبه إليه من الخير أو الضير ، ومن أجل ذلك قد اقتضت حكمة الحكيم أن ينذرأ الإنسان في بيئته تحفه الكائنات من حيوان وجماد فيجد من نفسه باعثاً إلى استخدامها تحسيناً لحاجاته ، وقضاء مآربه . ولقد جاءت الأديان بما ينبع على وثيق الرابطة بين الفلسفة الخلقية والعلوم الطبيعية ، فقد قال الحواريون ليعيسى بن مرريم عليهما السلام « هل على الأرض اليوم مثلك » ؟ فقال : نعم « من كان منطقه ذكراً ، وصيته فكراً ، ونظره عبرة ، فإنه مثلـي » وجاء في القرآن الكريم « إنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَاتُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُثُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ وَاخْتِلَافٍ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَهْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ » إلى غير ذلك من الأدلة على أن إدمان الفكر في السنن الكونية ، يفضي إلى حال خلقية لا يسع صاحبها معها إلا أن يعمل ، ولا قيمة للأخلاق إلا بالعمل

﴿نسبتها إلى علم حياة الحيوان﴾

ذهب القائلون بالنشوء والارتقاء إلى أن الميزان الذي يوزن به حميد السلوك وذميمه ، هو ما يبذدو من نزع صاحبه إلى النهوض بشئون الحياة نحو التقدم والارتقاء ، أو النزول بها إلى الدرك الأسفلي من التأخر والانحطاط ، وهذا القول شبيه بما يراه علماء حياة الحيوان في طبقاته فمن كان نزاعاً بفطنته إلى مجاوزة مرتبته عدوه صنفـاً مترياً ، ومن مال إلى ما هو أدنـونـهـ عدوـهـ طبقة سافـةـ ، لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى :

(٢) — الخلق الكامل)

«ومَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الْأَرْضِ . وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِحَنَاحِينَ إِلَّا أَمْمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» وقوله تعالى «أَفَلَا يَنْظَرُونَ إِلَى الْأَيَّلِ كَيْفَ خُلِقْتُ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعْتُ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبْتُ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحْتُ» ولا مرية في أن الغرض من ذكر هذه الآيات هو الحث على البحث عن حكمة وجود الحيوان ، وما آتاه الله من النظام والتدير ، أضف إلى ذلك أن في دراسة حياة الحيوان عوناً كبيراً على تفهم الخلل التي يراها الخلق في طوائف الحيوان وهي بالانسان أحجج وأجرد ﴿نسبتها الى علم النفس﴾

لا غنى للخلق عن دراسة صنوف الرغبات والميول والارادات وطائفه من الغرائز ، فلهذه الأشياء شأن كبير في تكوين الخلق كسيأتي ، إذ عنها تنشأ العادة ، والعادة في الغالب أساس الخلق ، أضف إلى ذلك أن علماء النفس لا يجدون محيضاً من تتبع العوامل ذات الأثر في تكوين الخلق ، كالبيئة والجماعة وما إليهما .

ألم تر الى قطان المنطقة المعتدلة الشماليه مثلاً كيف أوتوا نصيباً حسناً من الرزانة ، وسعة الصدر ، والصبر على العمل ؟ وإلى أهل المنطقة الحارة كيف عرفوا من قديم الأحقاد بالنزق والطيش ، والخلود الى الراحة ، والميل الى الكسل ، كما سنبينه فيما بعد ؟

وكذلك الخلقيون يسلكون نهج علماء النفس ويرون رأيهم دع عنك ما للأسرة والمدرسة والمعاشرة من التأثير في الخلق ، فالأولاد في البيت والمدرسة ضل المري وأثره : فان كان مثلاً حسناً يعمل بما يقول متبوعاً آداب الدين ، وسین الشرع كسب من يربهم تربية طيبة ، وسلوكاً جميلاً وأخلاقاً فاضلة ، وكان لهم نموذجاً للخير ، ومثالاً للآداب ، ومرآة للفضيلة ، وإن كان المثل السوء ، أعدى من يربهم ، رداءة السلوك وسوء المذهب ، فكما تكون الآباء تنشأ الآباء ، فلا يستخرج من الحديد الذهب ، ولا يجني من الشوك العنبر . وأما المعاشرة والمخالفة فأثرها عظيم : هل سمعت قول

النبي صلى الله عليه وسلم «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» وقول على كرم الله وجهه «الصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ»، وقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «مَا مِنْ شَيْءٍ أَدْلَى عَلَى شَيْءٍ وَلَا الدُّخَانُ عَلَى الشَّارِي مِنَ الصَّاحِبِ عَلَى الصَّاحِبِ» وقول عدي بن زيد :

«عن المرء لا تسل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى
وقول عبد الله بن المعتز : «إِخْوَانُ الشَّرِّ كَشْجُرُ النَّارِ بَخْ يَحْرُقُ بَعْضَهُ بَعْضًا»
ييد أن أول ما يهم علماء النفس هو دراسة عقول الأفراد ، وما يعرض لها من
من الأطوار والاحوال ، ولا يتصدون لدراستها من الوجه الاجتماعية
للحليقين إلا استطرادا ، وبقدر ما تدعوا إليه الحاجة ، فهم إن ذكروا اللغة
مثلا فانما يذكرونها لما بينها وبين الفكر من الصلة والرابطة ، إذ يرون أنها
المعين الذي تستمد منه القوى العقلية مادتها ، فيزداد التذكر اتساعا والرأي
سدادا ، والخيال رقة ، والنهاية تهذيبا ، وانه لولا هالدفت الحقائق ، وانحيت
المواهب . هم يرون رأى الحليقين في أنها رمز رقي المجتمع وانحطاطه ، فان
كانت مهدبة ذات أصول وضوابط ، مملوءة خزانتها من الآثواب ما يكسو
ضروب المعانى المتتجدة ؛ رأيت عقول أهلها في رتبة سامية ، وشاهدت من
رقىهم الفكري ما يملا قلبك روعة وجلا ، وإلا ألغيت أناسا هم بالحيوان
الاعجم أشبه ، والى أخلاقه أقرب .

﴿نسبتها الى على المتنطق والجمال﴾

بين هذه العلوم الثلاثة سهمة رحم وتشابه كبير ، لأن لكل منها قواعد كلية
وغائية واحدة : هي تحرير ميزانها وتصوير مثلها الكاملة : فغاية المتنطق اثبات
الحق على الوجه الاكمل ، وغاية على الجمال والأخلاق تبيان معياري الجمال
ومحسن الأعمال ، أضعف إلى ذلك أن فريقا من فلاسفة اليونان وتعتهم كثیر
من جلة العلماء من بعدهم بازعموا أن الجميل والطيب كلمتان متراقدتان ، فسوزعوا
لأنفسهم أن ينعتوا النفس الطيبة بالجمال ، كما وصفوا به المثال الذي كمل حسنه

وأجيدت صنعته ، ومن هؤلاء الغزالي في كتابه « إحياء العلوم » إذ يقول في باب حقيقة الحبة وأسبابها مانصه : « فاعلم أن الحسن والجمال يكونان في غير الحسات : إذ يقال هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة . وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى ، والكرم والمرودة ، وسائل خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الحسن ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة »

لقد أخذ بعض المتأخرین في زماننا هذا على المتقدمين جعلهم الجميل والطيب شيئاً مترافقين فقال : « إن طيبة النفس ليست أثراً من آثار الصنعة الفنية وإنما هي وليدة المجاهدة والمراقبة ، وحمل النفس على المكاره ، وصبرها على الآهوال الشدائـد ، ونتيجة حرب طاحنة ، ظهرت فيها الارادة القوية ، والعزمية الصادقة ، على الميل والشهوات ، فجعلتها تحت سلطانها وهينمتها ، تصرفها أنـى شاءت ، وليس في ذلك أثر للصناعة الفنية .

(نسبتها إلى الفلسفة الاجتماعية)

لا جرم أن دراسة سلوك الإنسان وأعماله تقتضي دراسة حياة الجماعة التي يعيش بينها ، فليس في مقدور أحد أن يحكم حكماصحـيحاً على أمرٍ منفصـمة روابطـه من جمـاعة بـني الإنسـان ، ومن أـجل ذلك قال أـرسـطـو « الإنسـان حـيـوان سـيـاسـيـ » على أـنـا لـا نـسـطـيـع درـاسـة ماـفـيـ المرـءـ منـ الفـضـائـلـ والـرـذـائـلـ دونـ أـنـ بـجيـلـ النـظـرـ فيـ الأـلـمـةـ الـتـيـ يـنـسـبـ إـلـيـهاـ ، وـفـيـ مـاـهـاـ مـنـ المـوـاضـعـاتـ وـالـعـادـاتـ الـتـيـ توـقـرـ فيـ أـخـلـاقـهـ رـقـيـاـ وـانـحـطاـطاـ ، وـهـذـاـ هوـ الذـىـ حـدـاـ بـأـرـسـطـوـ إـلـىـ اعتـدـادـ عـلـمـ الـأـخـلـاقـ قـسـماـ مـنـ اـقـسـامـ السـيـاسـةـ ، وـاتـخـاذـ حـالـ الفـردـ الـخـالـقـيـةـ أـسـاسـاـ لـمـ يـؤـخـذـ بـهـ مـنـ ضـرـوبـ السـيـاسـةـ وـالـحـكـمـ ، وـإـلـىـ هـذـاـ يـشـيرـ قولـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ « كـمـ تـكـوـنـواـ يـوـمـ عـلـيـكـمـ »

(نسبتها إلى علم تدبير المال)

ليـسـ الثـرـوـةـ كـمـ يـقـولـ بـعـضـ الـغـلـةـ مـنـ عـلـمـاءـ تـدـبـيرـ المـالـ غـاـيـةـ فـيـ ذـاتـهـاـ ، وـأـنـماـ هـىـ ذـرـيـعـةـ إـلـىـ تـجـمـيلـ حـالـ بـنـيـ الإنسـانـ ، وـاشـتـراكـ ذـوىـ الـإـقـلـالـ وـالـأـكـثـارـ فـيـ

الاستمتاع بخير الدنيا ونعمتها ، فيقبل بينهم التحاسد ، ويتنافى عنهم تباغض العدم ، وتكثر الموساة والتواصل ، وتنبسط النفوس ، فتستفرغ للذود عن حريتها ، وتهض للضرب في الأرض ، وشق عباب البحار ، وامتطاء متن الهوا تقتتص شوارد العلم ، وتلقن ضروب الصناعة والتجارة، فتتسع آمالهم، ويتعمون من العمر انما قصرت أعمال السلف عن استيعابه ويرمون ما أحدثوه من شعث ، وهكذا تكون أحوال أمتهم على الأعصار متئمة ، وأمورها على ممر الدهور منتظمة ، ومن تم له ذلك فأحر به أن يحيا حياة أساسها الفضيلة ، وثيرها رغد العيش في الدنيا ، والنعيم المقيم في الآخرة

(نسبتها إلى السياسة)

السياسة عند جمهر الخلقين هي تدبير شئون المجتمع وفقا لقوانين تسن ، وأنظمه توضع ، لبيان مابين الحكم والحكم من الروابط والعلاقات ، وما على كل منها من الواجبات ، ومآل من الحقوق ، فأما القوانين فقوامها الأمر والنوى . وإذا أنها لا تأمر إلا بما ينفع الواحد والجماعة ولا تنهى إلا بما يضرهما ؛ فالقانون الوضعي داخل في حدود القانون الخلقي ، والأخلاق والسياسة في هذا متضارفان ، على أن درجة حسن السلوك واستهجانه محدودة في رأي الخلقين الغربيين بما تواضعت الجماعة على حسنه أو قبحه ، ودرجت عليه أحقيا من الدهور ، ثم صار بعد قانون نامكتوبا واجب الطاعة والامتثال ، وهذا يفسر معنى قولهم : إن الواجب القانوني متأخر عن الواجب الخلقي ومبني عليه ، ومن أجل ذلك قرر هؤلاء الخلقيون وجوب الطاعة للقوانين الوضعية ، وإن اشتملت على ما يشغل على النفوس احتماله ، أو كان الواضع لها مستبدا ، معللين ذلك بأن سلامه الحكومة ، وعمارة البلدان ورفاهيتها لا يتم إلا بانتظام الشمل ، واجتماع الكلمة ، ونبذ الشقاق والتنازع ، وهذا لا يتم إلا بالحنون لقانون تتألف برهبته الأهواء المختلفة ، وتحتاج بسيفته القلوب المتفرقة ، وتنكشف بسطوته الأيدي الغالبة ، وتنقمع من خوفه النفوس

المتعادية، لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه، مالا ينفكون عنه إلا بمانع قوى، ورادع ملي. لقد أدرك الإمام على كرم الله وجهه سر اجتماع الأهواء، وانتظام الشمل وعرف أنه أنس نظام العمران، إذ خطب جماعته يستحثهم على الجهاد فقال «والله لأظن أن هؤلاء القوم سيُدلون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حكمكم، وبعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى أصحابهم، وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم، فلو ائتمست أحدكم على قَعْب لخشيت أن يذهب بعلاقته» يريد الإمام بهذا أنه متى تم لقوم اجتماع كلّهم، وأداؤهم الأمانة بلادهم؛ كان النصر حليفهم، والعزة ظهيرهم، فالحق ضعيف بتفرق أنصاره، والباطل قوى بتكافُف أعدائه.

ما تقدم يتبيّن أن بين الأخلاق والسياسة رابطة في النشوء والتدرج وهذا علاقة ثانية هي - كما يقول النفعيون - إن واجب الخلق أن يضع القواعد التي ينبغي أن يسير عليها الآحاد في أعمالهم وسلوكهم بوازع النهاية، والرادع النفسي الذي يهيمن على النفوس فيصرفها عن شهواتها ويراقبها في خلواتها، وينصحها في ملأتها، ثم يبين منها مالا بد لإنفاذه وإيمصائه، من الالتجاء إلى القانون الوضعي في حمل الناس على اتباعه والعمل به . فمن الأمور التي يتصدى لها القانون - وهي بقانون الأخلاق أحجى وأجدر - كف الأذى عن الناس واجتناب إغضابهم إلا دفعاً لهضيمة أو خسيفة، وحظر التعرض لهم فيما اقتتوه من الأموال بكدهم وجدهم، أو ورثوه عن آبائهم وأسلافهم، أو أعطوه منحة وتفضلاً . والوفاء بالعقود التي أبرمت طوعاً واختياراً، إلا ما كان الوفاء به ضراراً بقوم آخرين، أو كان ضرره أكثر من نفعه للموفي به، أو قام البرهان القطاع على أن الفريق الآخر المتعاقد مزمع عدم الوفاء بما يلزم منه إياه العقد، وإطعام الأولاد وتربيتهم ، والاحسان إلى الفقراء واليتامى والمساكين .

ومن الأمور التي لا مناص فيها من الاستعانة بالقانون السياسي - إذ هي بهذه

أشد زجرا وأقوى ردا - السرقة والقتل والبغى وشهادة الزور وأكل الأموال بالباطل ، وانتحال المخترعات الفنية ، والافتعال على أنصبة الورثة ، وخيانة الوطن ، وما شابه ذلك مما يعجز عن الفصل فيه قانون الأخلاق ، وتمس الحاجة فيه إلى قوة تقييم الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ، ولا تقدير عنها ، وتبني صروح العدل ، فياوى إليها كل مظلوم ، ويلتجئ إليها كل مضطهد ، حيث يرون عدلا شاملا ، به تعمير البلاد ، وتنمو الأموال ، إذ ليس من شيء أسرع في خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجحود ، لأنه لا يقف على حد ، ولا ينتهي إلى غاية ، وحسبك برهانا قول المصطفى عليه الصلاة والسلام «بِئْسَ الْزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدُوَّانَ عَلَى الْعُبَادِ» وقوله «أشد الناس عذابا يوم القيمة من أشر كه الله في سلطانه فجأة في حكمه» وقول عيسى بن مريم عليهم السلام إذ قام خطيبا في بني إسرائيل : «يابني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهل فتظلموا بها ، ولا تمنعوا أهلهما فتظلموهن ولا تكافئوا ظالما ، فيبطل فضلهم . يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وامر تبين عليه فاجتنبواه ، وامر اختلف فيه فهو إلى الله تعالى» وقول بعض الحكماء «المملوك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم»

و صفة القول إنه يجب في كل مجتمع إنساني أن يتخذ القانون السياسي
ظهيراً في الشؤون المحفوفة بالمخاطر ، حتى يحيط الناس أمن عام تطمئن إليه
نفوسهم ، و تيسير فيه همهم ، ويسكن فيهم ، و يأنس به ضعيفهم ،
فليس لخائف - كما يقولون - راحة ، ولا لخاذر طمأنينة ، ولقد جاء عن عثمان رضي
الله عنه ما يؤيد هذه القاعدة إذ قال : « إن الله ليزع بالسلطان كثرة مما يزع بالقرآن »
وأما في غير الأمور المحفوفة بالمخاطر فكفي بقانون الأخلاق زاجراً ، وبسلطانه
على النفوس رقيباً ، وما أحسن قول بعضهم : « القانون السياسي هيكل نظام
المجاعة والقانون الخلوق لحمه ودمه »

الخلق

يحدُر بناؤن نسرد آراء المتقدمين والمتاخرين من علماء الأُخْلَاقِ في الخلق ليكون المطلع على ما يختلف الآراء في مبحث زلت فيه الأقدام، وتضاربت الفهوم . قال ابن مسکویه في كتابه « تهذیب الاَّخلاق » : الخلق حال للنفس تحملها على أداء أعمالها دون فکر وروية ، وهذه الحال إما طبيعية من أصل المزاج : كالغضب لا وهي الاَّسباب ، والفرز من ضعيف الاَّصوات ، والحزن على تافة الاَّشياء ؛ وإما مستعادة بالعادة والتدرُّب ، حتى صارت ملحة وخلقاً كشجاعة البدو وبأسهم المستفادين من تفردُهم عن المجتمع ، ومساكنتهم الوحش والضوارى . اهـ بتصريف

وقال الغزالى في كتابه « إحياء العلوم » الخلق هو عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الاَّفعال بسهولة ويسراً من غير حاجة إلى فکر وروية ، وإنما قلنا هيئة راسخة لأنَّ من يصدر منه بذل المال مثلاً على الندور الحاجة عارضة لا يقال : خلقه السخاء ، واشتريطنا صدورها من غير روية ، لأنَّ من تكلف بذل المال ، أو السكوت عند الغضب مثلاً لا يقال : خلقه السخاء والحلم ، ثم قال بعد كلام طويل ، وليس الخلق عبارة عن الفعل إذ ربَّ أمرى خلقه السخاء ولا يبذل ، إما لفقد المال وإمَّا لمانع آخر وقد يكون خلقه البخل ، وهو يبذل رباء ونفاقاً

وليس الخلق القوة ، لأنَّ نسبة القوة إلى الاعطاء والامساك واحدة ، ولأنَّ كلَّ إنسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء ، وليس الخلق معرفة ، لأنَّها تتعلق بالجليل والقبيح جميعاً على وجه واحد . اهـ

وقال المحدثون من الفرنجية : الخلق صفة نفسية مكونة راسخة تصدر عنها الأفعال دون قصد وتتكلف ، وهي إما جبليّة في نفس صاحبها ، وهي الناشئة

عن الغرائز : كمن يولد و خلقه الكرم والبأس ، أو مستفادة من تدريب الارادة في عمل ما ، وهي الناشئة عن العادة : كمن اعتاد التحمل حتى صار حليها ، والبذل حتى أمسى كريما ، أو مكتسبة مما يحيط بالمرء : كالمشاهد الطبيعية ، والمجتمع . فان صدرت الأفعال من امرئ قصد او تكالفا فليس ذا خلق ، وإنما هو متخلق كأن يفعل المكرمات ابتغاء الشهرة ، وحسن الأحداث ، أو يتضاعن الحلم والتواضع لينال الحمد والثناء ، وهذا هو سر قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمُنَّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَا لَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخْرِ فَشَلَهُ كُمَّشَ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَآبَلٌ قَرَّ كُصَدْلًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا » لأن حكمة الشارع في الحث على الانفاق سرا و علانية في غير ما آية ، ليست سدا حاجات ذوى القرى والقراء والمساكيين فقط ، بل ارتياض النفس أيضا وابتلاعها وإعدادها للإنفاق مما تحب ، حتى يتم لها خلق الإعطاء والبذل ، وفي هذا يقول الله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مَا تِحْبُّونَ »

نزعات النفس

اختلقت آراء الباحثين قديما وحديثا في حال النفس : ف منهم من رأى أنها مقطورة على الخير ، ومنهم من رأى أنها مقطورة على الشر ، ومنهم من رأى قبولها للأمررين ، ومنهم من رأى خلوها منهما .

رأى سocrates : (١) فمن الذين ذهبوا إلى أنها مقطورة على الخير سocrates إذ كان يقول : إن نفس الطفل خباء الكمال لا ظهره إلا بالمناقشة والتحاور

(١) سocrates : حكيم إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد و كان جنديا بالجيش الأنثني ممتازا بالأقدام ، ثم وجده همه إلى السياسة فكان فيها عالما من الأعلام ، ثم ابتدع طريقه في إصلاح شعوب الشعب جذبت إليه النفوس ، وأحلته المكانة السامية التي جعلت معاصريه من العلماء يعتقدون عليه ، ويصفونه بالزندقة وإفساد عقول النساء لذلك حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه بذلك بشهور سنة ٣٩٩ قبل الميلاد

رأى فلسطين وأبوالعلاء : ومن رأى أنها مفطورة على الشر فلسطين (١)
وجاء من بعده أبوالعلاء المعرى (٢) فأذنَ في شعره بأنَّ الإنسان شر يربطه ،
وأنَّ الفساد غريزة فيه

رأى اليسوعيين واليسينيّين : ثم تلاه من الفرنجية فريقان كبيران اشتهرَا
في القرن الثامن عشر وهما «اليسوعيون» و«اليسينيون» ، إذ بنىَا آراءهم على
عقيدة أنَّ الإنسان جبل على الشر ، ولا يحوله عنه الاصارم العقاب ، وإرهاف
الحد ، وغالباً في ذلك كل المغالاة ،

رأى رسو (٣) : ولهذا لم يطق «رسو» تقبل علوهم ، بل وجه لهم سهام
مطاعنه ، وما زال يشن عليهم العارة حتى ألف له عصبة من المفكرين ناوأتهم
ورصدت لهم في كل مرصد .

(١) فلوطين : فيلسوف مصرى ، ومن أسرة يونانية ، اعتمد في نظرياته
على فلسفة أفلاطون . وتوفي سنة ٢٦٢ قبل الميلاد

(٢) أبوالعلاء أَحمد بن عبد الله المعرى الشاعر الفيلسوف ، ولد ومات بالمعرة
كان نادراً في الحفظ والذكاء ، وعمي في صغره ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، وما
يخرج من كل ذي روح توفي سنة ٤٤٩ هـ عن نحو ٨٦ سنة ، وله شعر على روى
وآخر التزم فيه روين وضمنه أغلب رأيه في العالم ونظمه .

(٣) هو الكاتب الروائي والفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) ولد بمدينة
جييف سنة ١٧١٢ وهو صاحب نظرية العقد الاجتماعي أي أنَّ الناس قبل أن
يستظلوا بحكومة كانوا فوضي ، ثم اجتمعوا وتعاقدوا على أن يتنازل كل منهم عن جزء
من حرية ، ويتوافقاً أوفراداً أو فراداً منهم السلطة لتولي شئونهم . ومذهبة إعادة الناس
إلى الحالة الطبيعية ، زاعماً أنهم بخروجهم عنها خرجوا عن دائرة السعادة الحقيقة . وآراؤه
في التعليم نظرية لاعملية وقد انتقد مباديء اليسوعيين ، واختط نظاماً جديداً أَلف
فيه كتابه : أميل و توفى سنة ١٧٧٨

ابن مسکویه^(١) و جالینوس^(٢) : ولقد أجمل ابن مسکویه آراء المتقدمین فی هذا المبحث فقال : والحق أن الانسان يولد مطبوعاً على قبول الخلق ، إذ نراه ينتقل بالتأدیب والمواعظ إما سریعاً ; واما بطیئاً، لأن القول بعدم قبول الخلق يؤدی الى ابطال قوى التميیز والعقل ، والى رفض السياسات كلها ، وترك الناس جمیعاً مھملین ، والى ترك الاحداث والصیان على ما يكونون علیه بغير سياسة ولا تعالیم ، وهذا ظاهر الشناعة . ثم قال : ولم يخلق الناس أشراراً بالطبع كما ذهب اليه الرّواقیون ، لأن الناس كما قال « جالینوس » ان كانوا أشراراً بالطبع وينتقلون إلى الخیر بالتعلیم ، فاما أن يكونوا تعلموا الخیر من غيرهم أو من أنفسهم ، فان كانوا تعلموا من غيرهم فعليهم أخیار بالطبع ، وحينئذ فليسوا اکلهم أشراراً بالطبع ، وإن كانوا تعلموا من أنفسهم ، فاما أن تكون فيهم قوة نزاعة إلى الخیر فقط ، فهم اذن أخیار بالطبع ، واما أن يكون فيهم مع القوة التي تنزع إلى الخیر قوة أخرى تنزع إلى الشر ، غير أن قوة الخیر غالبة قاهرة ، فهم أخیار بالطبع أيضاً . وان كانوا أخیار بالطبع كذهب الرواقین ، وينتقلون إلى الشر بالتعلیم ، فهم بين أمرین : فاما أن يكونوا تعلموا الشر من أنفسهم أو من

(١) هو الشیخ أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسکویه وهو فاضل فی العلوم الحکیمية خبیر بصناعة الطب، جید فی أصولها وفروعها . وكان - فيما ذكره - بعض المؤرخین خازنا للملك عضد الدولة بن بویه أثیر عنده ، وله مؤلفات جمة منها كتاب تهذیب الاخلاق والفوز الأصغر بنها على أصول الفلسفة الاهلیین ، وانتصر فیهما للدين . وله فی الطب كتاب الاشربة ، وله مشاركة حسنة فی العلوم الأدبية وعلوم الاولیاء واحتفظ بالرئیس ابن سینا و توفی سنة ٤٢١ هـ

(٢) جالینوس : حکیم فیلسوف طبیعی یونانی من أهل مدینة (فرغاموس) ببلاد اليونان وكان امام الأطباء في عصره ، ورأس الطبعین في وقته . قال المسعودی : لاأعلم بعد أرسطو أعلم بالطبعیات من بقراط وجالینوس ، وعاش بعد النسیح بنحو مائیة سنة

غيرهم فان كانوا تعلموه من غيرهم فعلمواهم أشرار بالطبع ، وحيثئذ فليس الناس كلهم أخيراً بالطبع ، وان كانوا تعلموه من أنفسهم ، فالملا لا تعدو اثنين : فاما أن يكون فيهم قوة تجذب الى الشر فقط ، فهم اذن أشرار بالطبع واما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تجذب الى الشر قوة تنزع الى الخير غير أن قوة الشر غالبة قاهرة ، فهم اذن أشرار بالطبع . اه بتصريف قليل

وقال في موطن آخر لقد دل الاستقراء على أن من الناس من هو خيرٌ^١
فاضل من مبدأ تكوينه ترى فيه النجابة طفلاً، وتترسّف فيه الفلاح ناشئاً،
رزق الحياة وكرم الشيم ، وحبّب اليه مجالسة الاخيار ، ومؤانسة الفضلاء .
رأى أرسطو^(١) في الخير الفاضل : ويرى «أرسطو» أن هذا الصنف قد منح
العناء الاهمية العظمى ، فسعادته الاهية بحثة ليس فيها أدنى نصيب من الكسب
والتحميسيل ، وعلم الأخلاق لا يعني في بحوثه الا بما كان ثمرة العمل والسعى
والمجاهدة والكدر

ومنهم من يكون في مبدأ تكوينه مستعداً للخير والشر كسائر الأحداث
إلا أنه يسعى ويجهد ، ويطلب الحق اذا رأى اختلاف الناس فيه ، ولا يزال
كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء فيصير علمه صحيحاً ، وعمله صواباً ، ولا مرية
في أن هذا الصنف من الناس هم الذين يقدر الخلقيون أعمالهم حق قدرها ،
ويسِمُّونَهم بالعدل والفضيلة جزاء سعيهم وكدهم ، وإقراراً ب الكبير همتهم
وعظيم شجاعتهم ، وأمانن ولد بالطبع خيراً فاضلاً ، كذلك بمحبة الله إيمان ،
وعنايته به ، وليس من شأن الخلقيين أن يصدروا حكمهم في أمره ، فالقدرة
الصمدانية قد كفلته جنيناً ، وتعهدته ولیداً وطفلاً يافعاً ، وشيخاً كبيراً

(١) (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أرسطو كان تلميذاً لـ فلاطون مدة عشرين سنة ،
وكان يسميه العقل ، وإليه اتّهت فلسفة اليونان ، وهو خاتمة حكماهم ، وسيد
علم الاسكندر المقدوني ، وأسس مذهب يسمى مذهب المشائين ويلقب
بالمعلم الأول ، لانه أول من جمع المنطق ورتبه .

رأى صاحب سلوك المالك : وقال صاحب سلوك المالك وهو شهاب الدين ابن أحمدين أبي الريبع . أما مراتب الناس في قبول هذا الأدب الذي سميـناه خلقاً فانـها كثيرة ، وهي تشاهد وتعـاينـهم وبخـاصـة الأطفال ، فـإنـأخـلاقـهم تـظـهـرـفيـهمـمـنـذـنشـأـتـهـمـ ، ولا يـسـتـرـونـهـاـ بـرـوـيـةـ ولاـ فـكـرـ ، كـماـ يـفـعـلـ الرـجـلـ التـامـ الذـىـ اـتـهـىـ فـيـ نـشـأـتـهـ وـكـالـهـ إـلـىـ حـيـثـ يـعـرـفـ مـنـ نـفـسـهـ ماـ يـسـتـقـبـحـ مـنـهـ فـيـخـفـيـهـ ، بـضـرـوبـ منـ الحـيـلـ ، وـالـأـفـعـالـ المـضـادـةـ لـمـاـ فـيـ طـبـعـهـ ، وـأـنـتـ تـأـمـلـ مـنـ أـخـلـاقـ الصـيـانـ ، وـاسـتـعـادـهـ لـقـبـولـ الأـدـبـ ، وـنـفـورـهـ مـنـهـ ، وـمـاـ يـظـهـرـ فـيـ بـعـضـهـمـ فـيـ بـعـضـهـمـ مـنـ الـحـيـاءـ ، وـكـذـلـكـ مـاـ يـرـىـ فـيـهـمـ مـنـ الجـودـ وـالـبـخـلـ ، وـالـرـحـمـةـ وـالـقـسـوةـ وـالـحـسـدـ ، وـضـدـ هـذـاـ مـاـ تـرـفـ بهـ مـرـاتـبـ الـإـنـسـانـ فـيـ قـبـولـ الـخـلـقـ ، وـتـعـلـمـ مـنـ أـنـ النـاسـ لـيـسـواـ عـلـىـ مـرـتـبـةـ وـاحـدـةـ ، وـأـنـ فـيـهـمـ الـمـوـاتـ وـالـمـمـتـسـعـ ، وـالـسـهـلـ السـلـاسـ وـالـفـقـطـ العـسـرـ ، وـالـخـيـرـ وـالـشـرـيرـ ، وـالـمـتوـسطـ بـيـنـ هـذـهـ الـأـطـرافـ فـيـ مـرـاتـبـ لـاـ تـحـصـيـ كـثـرـةـ . وـإـذـ أـهـمـلـتـ الـطـبـاعـ وـلـمـ تـرـضـ بـالـأـدـبـ وـالـتـقـوـيمـ ، نـشـأـ كـلـ إـنـسـانـ عـلـىـ سـوـمـ طـبـاعـهـ وـبـقـىـ عمرـهـ كـلـهـ عـلـىـ الـحـالـ الـتـىـ كـانـ عـلـيـهـاـ فـيـ الطـفـولـةـ وـتـبـعـ مـاـ وـافـقـهـ بـالـطـبـعـ . اـهـ بـتـصـرـفـ

رأى الغزالى في امكان تغيير الخلق : وقال الغزالى : يزعم بعض الناس أن الأخلق لا يتصور تغييرها ، ويستدلون بأمرتين : أحدهما أن الخلق صورة الباطن ، كما أن الخلق صورة الظاهر وإذ أن الخلقة الظاهرة لا يمكن تغييرها كالدمى لا يستطيع أن يصير جميلاً ، فكذلك القبيح باطناً لا يستطيع أن يكون ذا خلق حسن ، وثانيةما أنهم ضربوا مثلاً فقالوا : إن حسن الخلق في قمع الشهوة والغضب ، وقد شاهدنا من جاهد طوال عمره في قمعهما ، فأبى عليه فطرته ، ومرأجه إلا بقاءهما ونحن نرى أن هذه مغالطة ، وإنكار للواقع ، لأن أحداً لم يشترط لحسن الخلق محو الشهوة والغضب بهذا محال ، ولأن الواقع يشهد أن البازى ينقل من الاستيحاش إلى الانس ، والفرس من الجماعة إلى السلامة والانقياد ، والآدى أولى ، بيد أن الجبالات مختلفة ، بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطئته ، ولا اختلافهما سببان :

«أحدهما» قوة الغريزة في أصل الجبالة وأمتداد مدة الوجود، فان قوى الشهوة والغضب والتكبر محبول عليهما الانسان ، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة ، لأنها أقدم وجوداً «ثانيهما» أن الخلق يتآثر بكمية العمل بمقتضاه ، والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً مرضياً .

كل مولود يولد على الفطرة : ورأينا أن كل مولود يولد معتملاً صحيحاً الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، أو بالاعتياد والألفة قد تكتسب الرذائل ، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالشوه والتربيه بالغذاء ، فـ كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وتكميل بالتربيه وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . اه بتصريف

رأى ابن خلدون : وقال ابن خلدون إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى ، كانت مهيأة لقبول ما يرد عليها ، وينطبع فيها : من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَإِنَّمَا يَهُودِيَّهُ أَوْ يَنْصُرِيَّهُ أَوْ يَمْجَسِّرِيَّهُ» وبقدر ما ثبت لها من أحد الخلقيين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه ، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عادات الخير وحصلت لها ملائكته ، بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر ، إذا سبقت إليه أي ضماعاته . اه

رأى الإمام علي في تغيير الخلق : وإلى تغيير الخلق أشار الإمام على كرم الله وجهه بقوله : أتعجب ما في الانسان قبله وله موارد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فان سمح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع ، أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعد بالرضا نسي التحفظ (الاحتراز والتيقظ) وإن ناله الفزع شغله الحذر ، وإن اتسع له إلا من استتبنته الغرة (الغفلة) ، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإن أصابته فاقعة مسه الجزع ، وإن هلكه الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط

بـ الشـيـعـةـ الـبـطـنـةـ، فـكـلـ تـقـصـيرـ بـهـ مـضـرـ، وـكـلـ إـفـراـطـ لـهـ مـفسـدـ
خـلاـصـةـ أـرـاءـ المـتـقدـمـينـ : يـسـتـخلـصـ مـاـ نـقـلـنـاهـ فـيـ مـبـحـثـ حـالـ النـفـسـ
وـاسـتـعـداـدـاـهـ عـنـ اـبـنـ مـسـكـوـيـهـ وـعـنـ شـهـابـ الدـيـنـ صـاحـبـ سـلـوكـ الـمـمـالـكـ
وـعـنـ الـغـزـالـيـ فـيـ كـتـابـهـ إـحـيـاءـ الـعـلـومـ، وـابـنـ خـلـدـونـ فـيـ مـقـدـمـتـهـ؛ أـنـهـمـ
يـجـنـحـونـ إـلـىـ أـنـ الـإـنـسـانـ قـاـبـلـ لـلـخـيـرـ وـالـشـرـ مـعـاـ وـهـذـاـ هـوـ الرـأـيـ الصـوـابـ،
وـلـاـ حـاجـةـ مـعـهـ إـلـىـ إـقـامـةـ الـبـرـهـانـ، فـالـوـجـدانـ يـحـسـهـ، وـالـطـبعـ يـأـلـفـهـ،
وـالـذـوقـ يـحـكـمـ بـهـ، وـالـعـقـلـ يـتـقـبـلـهـ، وـقـدـأـيـدـهـ النـقـلـ، إـذـجـاءـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ
قـوـلـهـ تـعـالـىـ (أـلـمـ بـنـجـعـلـ لـهـ عـيـنـيـنـ، وـلـسـانـاـ وـشـفـتـيـنـ وـهـدـيـنـاهـ التـحـدـيـنـ ؟) «
طـرـيقـيـ الـخـيـرـ وـالـشـرـ، وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ (وـنـفـسـ وـمـاـ سـوـاـهـاـ، فـأـلـهـمـهـاـ فـجـورـهـاـ
وـتـقـوـاـهـاـ، فـقـدـ أـفـلـحـ مـنـ زـ كـتـاهـاـ، وـقـدـ خـابـ مـنـ دـسـتـاهـاـ) (إـنـاـ هـدـيـنـاهـ
الـسـبـيـلـ إـلـىـ شـاـكـرـاـ وـإـلـاـ كـفـورـاـ) يـيدـ أـنـهـ وـإـنـ كـانـ قـاـبـلـ لـلـخـيـرـ
وـالـشـرـ فـهـوـ إـلـىـ الـخـيـرـ أـقـرـبـ كـماـ قـالـ اـبـنـ خـلـدـونـ فـيـ مـوـضـعـ آخـرـ فـيـ
مـقـدـمـتـهـ «إـنـ الـمـلـكـ طـبـعـ لـلـإـنـسـانـ لـمـاـ فـيـهـ مـنـ طـيـعـةـ الـاجـتمـاعـ، وـلـأـنـهـ
أـقـرـبـ إـلـىـ خـالـلـ الـخـيـرـ مـنـ خـالـلـ الشـرـ بـأـصـلـ فـطـرـتـهـ، وـقـوـتـهـ النـاطـقةـ
الـعـاقـلـةـ، لـأـنـ الشـرـ إـنـمـاـ جـاءـهـ مـنـ قـبـلـ الـحـيـوـانـيـةـ الـتـىـ هـىـ فـيـهـ؛ وـأـمـاـ مـنـ حـيـثـ هـوـ
إـنـسـانـ، فـهـوـ إـلـىـ الـخـيـرـ وـخـالـلـ أـقـرـبـ» وـلـقـدـ تـبـعـ اـبـنـ خـلـدـونـ فـيـ هـذـاـ الرـأـيـ
جـمـهـورـ حـكـماءـ الـعـربـ الـذـيـنـ يـقـولـونـ إـنـ الـإـنـسـانـ جـزـءـ مـنـ الـعـالـمـ وـالـعـالـمـ فـيـهـ
خـيـرـ وـشـرـ فـلـوـ وـازـنـتـ خـيـرـهـ بـشـرـهـ، وـمـنـافـعـهـ بـمـضـارـهـ؛ بـلـ وـجـدـتـ خـيـرـ أـرـجـحـ،
وـنـافـعـ أـكـثـرـ. وـهـمـ فـيـ ذـلـكـ يـسـتـدـلـوـنـ بـالـمـاشـادـ وـالـوـاقـعـ، وـيـؤـيـدـوـنـ اـسـتـدـلـالـهـمـ
بـمـالـحـ لـهـمـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ يـخـاطـبـ الـمـلـائـكـةـ. (إـنـيـ جـاعـلـ فـيـ الـأـرـضـ خـلـيـفـةـ
قـالـوـاـ أـتـبـعـلـ فـيـهـاـ مـنـ يـفـسـدـ فـيـهـاـ وـيـسـفـكـ الـأـمـاـءـ وـنـحـنـ نـسـبـحـ بـحـمـدـكـ
وـنـقـدـسـ لـكـ قـالـ إـنـيـ أـعـلـمـ مـاـلـاـ تـعـلـمـوـنـ) أـيـ أـعـلـمـ هـذـاـ النـوـعـ يـنـاسـبـ
الـحـكـمةـ لـأـنـ الـخـيـرـ فـيـ كـثـيرـ

وما يناسب ما أوضحتناه في الخلاصة ماذبه إليه صاحب المواقف
والاستاذ الامام فيما يلي

(١) رأى شارح المواقف : ذكر شارح المواقف نقاً عن بعض الحكماء أن
الموجود إما خير مخصوص : كالعقل والأفلاك ، وإنما الخير غالب فيه كما في هذا
العالم وتلك هي حكمته سبحانه وتعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا)
جل شأنه وعز سلطانه

(٢) رأى الشيخ محمد عبده : وقال الاستاذ الامام المغفور له الشيخ محمد عبده في
تفسير قوله تعالى (لَهُمَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهِمَا كَتَسْبَتْ) لاشك في أن الميل إلى الخير
مهما أو دع طبع الإنسان ، وأن الخير كل ما فيه نفع نفسه ونفع الناس ، وجاء ذلك
أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، كما جاء في الحديث الشريف (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُ كُمْ
حَتَّى يُحِبَ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُ لِنَفْسِهِ) والانسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه
لذته ، وميل إلى عبادة الله تعالى ، لأن شكر المنعم مغروس في الطبع ، ويظهر
أثره في كل إنسان ، وأقله البشاشة والارتياح للمنعم ، ولا يحتاج الإنسان إلى
تكلف في فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ، ويراه بعين الرضا ،
وأما الشر فإنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا مقتضى فطرتها
ومهما كان الإنسان شريرا فإنه لا يخفى عليه أن الشر مقوت في نظر الناس ،
وصاحبه مهين عندهم ، فان الطفل ينشأ على الصدق حتى يسمع الكذب من
الناس فيتعلمه ، وإذا رأى إعجاب الناس بكلام من يصف شيئاً يزيد فيه ويبالغ
كاذباً ، استحب الكذب واقتراه لينال الحظوة عند الناس ، ويحظى باعجابهم
وهو مع ذلك لا ينفك يشعر بقبحه ، حتى إذا نبذ أمامه أحد بلقب
الكاذب أو الكذابة أحس مهانة نفسه وخزيه ، وهكذا شأن الإنسان عند
اقتراف كل شر يشعر في نفسه بقبحه ، ويجد من أعماق سريرته هاتفاً يقول
له : لا تفعل ، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا في النادر ، ومن النادر أن
يصير الإنسان شريراً مخصوصاً أنه قلبـاً يألف أحد الشر ، ويتطبع به حتى

يكون طبعاً له ، لا تشعر نفسه بقبحه عند الشروع فيه ، ولا في أثنائه ، ولا بعد الفراغ منه ، وقل أن تجد واحداً في (المليون) يفعل الشر وهو لا يشعر بأنه شر قبيح في نفسه ، والذين ذهبوا إلى أن الإنسان شرير بالطبع ، قد أرادوا من الطبع ما يرون عليه غالب الناس ، ولم يراعوا فيه معنى الغريزة ومناشي العمل من الفطرة : ذلك بأن الإنسان ينشأ بين منازعات الكون وفواضل الطبيعة وأحيائها ، ومحاباة أبناء جنسه على المنافع والمرافق ، وقد يدفعه هذا الجهد إلى الأثرة ، وتوفير الخير لنفسه خاصة ، ويلجئه الظلم إلى الظلم ، فيفعله متعلماً إياه تعلم ، متكتلاً له تكلاً ، وفي نفسه ذلك الهاطف الفطري ، يقول له : لا تفعل ، وهو النبراس الالهي الذي لا ينطفى . فإذا رجع الإنسان إلى أصل فطرته لا يرى إلا الخير ولا يميل إلا إليه . وإذا تأمل الشر الذي يعرض له لم يخف عليه أنه ليس من أصل الفطرة ، وإنما هو من الطوارئ التي تعرض لأسينا من ينشأ بين قوم فسدت فطرتهم . وأشد ما يضر الإنسان في ذلك نظره إلى حال غيره ، ولذلك أمرنا في الحديث أن ننظر في شؤون الدنيا إلى من دوننا ، وهذا الأمر خاص بالأفراد بعضهم مع بعض ، فإن "نظر الواحد إلى من دونه يجعله راضياً بما أوتيه من النعم ، بعيداً عن الحسد الذي هو منبع الشرور . وأما الأمم فينبغي أن تنظر الواحدة إلى حال من فوقها لأجل مباراتها ومساماتها ، هذا هو صفوته قول المغفور له الإمام .

ولقد أضاف إلى ذلك الاستاذ السيد رشيد رضا ما نصه : والمسألة تحتاج إلى زيادة في البسط لكثره اشتباه الناس فيها ، ولشد ما عارضنا في تقريرها الطلاب في الدرس والباحثون في المحاضرات ، ولأن سألكم ما الشر الفطري في البشر ؟ ليقولن : حب الشهوات والغضب ، وما ينشأ عنهما من الأعمال والأخلاق ، ولو لا هاتان الغريزتان ما جلب أحد لنفسه ولا لغيره نفعاً ، وما دفع ضرا ، وما ظهر من أعمال الإنسان ما نرى من أسرار الطبيعة

ومحاسن الخليقة ، بل لو لاموا ببادت الأفراد وانقرض النوع ، وفي الفطرة والدين المرشد إلى كمالها ما يكفي لاقامة الميزان القسط فيهما غالباً ، حتى لا يغلب في الأمة تفريط ولا إفراط ، ويكون الخير أصلاً عاماً والشر عرضاً مفارقاً . والأصل الذي لا ينزع فيه أحد أن الإنسان قد جبل على إلا يعمل عملاً إلا إذا اعتقد أنه نافع ، وأن فعله خير له من تركه ، وذلك شأنه في الترك أيضاً ، وأن هدایاته الأربع : الحس والوجدان والعقل والدين ، كافية لأن يعتقد أن كل خير نافع وكل شر ضار ، فإذا قصر في الاهتمام بهذه المدایات فوقع في الشر ، كان وقوعه فيه أثراً لتتکب طريق الفطرة لا للسير على جادتها ، وأكثر أعمال الناس نافعة لهم غير ضارة غيرهم ، اهـ

ينابيع الخلق

إن نظرة في تعريف الخلق (على رأي المحدثين من الفرنجية) الذي أسلفنا ذكره تدل على أن مكونات الخلق ثلاثة :

الغرائز مع العواطف ، والانفعالات والاحساسات ، فالعادة ، فالبيئة

» (الغرائز مع العواطف والانفعالات ، والاحساسات) «

- (١) الغرائز :

هي قوى فطرية أودعها الله جسم الإنسان فتسوقه بحركة داخلية ذاتية إلى المحافظة على بقاءه ، وبقاء سلالته ، فهى نزعات الفطرة . ومردها إلى ثلاث الأولى : النزعة إلى طلب الطعام والشراب : وهى أمر حيواني ، يستدعيه

نحو إنسان وبقاوه إلى أجل . ولأسلطان للعقل على هذه النزعة يحول بتاتاً بينها وبين مطلوبها ، وإن روى التاريخ أن أناساً امتنعوا عن تناول الطعام حتى الموت فلم يكن سبب ذلك العقل ، وإنما هي نزعة أخرى فطرية قهرت نزعة الطعام والشراب

الثانية : النزعة الجنسية : ومن مظاهرها الحرص علىبقاء النوع ، واتخاذوسائل
شئ لاستهواه قرين يتم به وجود النسل ، وليس للعقل أيضا سلطانا عليها
يمحى مهاراتها قضاء لبياناتها . وما أثر من امتنان انس عن استخدامها فرده إلى نزعة
أخرى تغلبت عليها

الثالثة : النزعة الذاتية : وهي قوة كامنة في الأعصاب والعضلات ، منبعثة في
جميع المشاعر نزاعة إلى الحركة والعمل ، ومن شاهد الأطفال وهم لا يكادون
يملؤن الحركة ، أدرك أن العقل ليس هو الأمر بالحركة ، وإنما هو ينظمها
على حسب مايرى ؛ فهى خاصة من خواص الحياة ، يشارك الإنسان فيها غيره
من الأحياء ، وقد انها نذير الفناء

ولما كانت النزعة الأولى تسوق الإنسان إلى طلب الرزق مستظهرة بالنزعه
الذاتية ، وكان الإنسان لا يقف عند تحصيل رزق اليوم ، بل يسعى إلى التأني
في المأكل والمشرب ، ويحاول الظهور بأحسن مظهر في المجتمع الذي يخالطه ،
وكانت النزعة الثانية لا تقف عند حد طلب القرین ، بل تسوقه إلى ما هو أبعد
من ذلك مدى ؛ نشأ عن هذه النزعات ثلاثة ميول : هي الرغبات والمطامع
والحلال النفسية الذاتية

«ا» الرغبات

أما الرغبات فنزعات في قلوب الناس تدفعهم إلى نيل أمور فيها منفعة
يعتبطون بها : كالشهرة والثروة والبراعة في العلم أو الفن . ولها أطوار ثلاثة
الثني : وهو تشوف للحصول على الرغبة مع شعور بالقصور عن دركها

كمن تمنى أن يكون ملكا وليس لديه سبب من أسباب الملك
ثم الأمل : وهو شعور بأن في النفس شيئا من الثقة بذيل مرغوبها مبتغاها

ومن أجل ذلك كان من مظاهره الجد والمثابرة
ثم الطموح : وهو نمو الأمل وازدياد الثقة بالنفس في الظفر بالرغبة . ومن

أجل ذلك كان من مظاهره اندفاع المرء في العمل ، والجزم بالوصول إلى رغبته فان حصل المرء على هذه الرغبة تحدد سعيه وعمله ، وانتقل من حال إلى أخرى . وإن لم ينل المرغوب عاد إلى حاله الأولى ، سالكاً طريقاً آخر مرة بعد أخرى ، مadam الرجاء يتعدد في قلبه ، وإلا استولى عليه اليأس وحيل بينه وبين ما يصبو إليه .

(ب) المطامع

وأما المطامع فنزعات في النفوس تدفع أصحابها إلى أن يحاولوا ب مختلف الوسائل تعزيز قوتهم الذاتية بما يستطيعون الحصول عليه ، من قوى المجتمع الذي يعيشون فيه ، مستعينين بما أوتوا من الذكاء والدهاء ، أو القوى الذاتية الممتازة . وينشأ الطمع في النفس عن الوثوق بقوة الشخصية ، واتساع ميدان المجتمع الإنساني وأحواله ، فأقوى الناس شخصية أقدرهم على استزادة قواه من البيئة التي يعيش فيها ، وأضعفهم أكثرهم تعرضها لذهب شيء من تواه والمطامع أربعة أقسام :

الأول الثروة : وهي قوة عظمى ينالها الإنسان تارة بكتبه وكده ،

وأخرى باستغلال عمل غيره ، وثالثة بهاتين الناحيتين . ومن مظاهرها حب المال ، والشوق إلى الحصول عليه بختلف الوسائل : من الحذق والذكاء والدهاء ، واغتنام الفرص في ميدان الحياة ، والاستيلاء على كثير من الأمانى للتمتع بلذاتها

الثاني الوجاهة : وهي أن يكون الإنسان ذا منزلة سامية بين جماعته ، ينال

بها احترام هذه الجماعة ، والتتفافها حوله . وللوصول إلى هذه المنزلة خصائص يجب أن تتوافر في المرء : كالذكاء والدهاء ، أو الغنى ، أو الحسب ، أو البطولة والعبرية ، وما إلى ذلك مما يفضل به على غيره

ومن مظاهرها القبض على أعنجهة الجماعة ، واستخدامها وفق مشيئتها ، وجمعها

تحت إمرته ، فلا يليث أن يكون له القسط الأوفر من الارتفاع بها ، نافذ الكلمة مهيب الجانب . ومن أجل ذلك لا يألو جهدا في العمل على إسعادها ورفاهيتها ، والذود عن مصالحها

الثالث السلطة : وهي قوّة شرعية مستمدّة من قوّة الجماعة . ويؤيدتها الدستور ،

أو القانون أو العرف ، على الأقل ، وهي أرفع شأنًا من الوجاهة ، ينالها المرء غالباً بـ مواهبه وكفایته ، وأحياناً يصل إليها بوجاهته ، أو بماله . ومن مظاهرها استخدامها كثيراً فيما يجلب له الخير ويسعده ، واتخاذها وسيلة للوصول إلى ما ينشده من مختلف الأمانى ، فحسبها أنها قوّة تبعث في الانسان الجد والسعى إليها

الرابع الشّرة : وهي أن يعرف المرء بين قومه أو غيرهم بمزاية يجعله من

يشار إليهم بالبنان ، يصل إليها باستخدام مواهبه مستشعراً الثبات والمثابرة . ومن مظاهرها أن يتذرع بها صاحبها إلى تحقيق المُبتَغى . وتجلى هذه الشّرة في القواد الحريين والسياسيين ، والكافحين والمخترعين وأهل الفنون الجميلة ، وما يمت إليها من مختلف الحرف التي لها صلة بالجمال . مما تقدم يتبيّن جلياً أن نمو الطموح بهذه الأخلاق الفرعية ، وأنها أقوى شأنًا من الرغبات .

«ـ» الخلل النفسيّة الذاتيّة

هي صفات تصدر عن الواقع الداخلي ذات مغبة لا تتجاوز صاحبها سواء كانت محمودة ، أم غير محمودة وتنحصر هذه الصفات في ثلاثة :

الأولى القناعة : وهي الاكتفاء باليسير من الخير ، يتصرف بها من الناس قليل الطمع ، قصیر الطموح . ومن مظاهرها أن يشعر القانع بالبغطة والسرور ، وأن يكون بمنأى عن المجازفة ، وألا يطمع إلى نيل بعيد الأمانى ، وأن يبذل المجهود في الوصول إلى الضروري

الثانية الاعتدال : وهي ألا يقف المرء عند حد اليسير من الخير ، بل يطمح إلى إدراك ما تصبو إليه نفسه ، و تستطيع الحصول عليه ، دون إفراط أو تفريط

ومن مظاهرها التقادى فى طلب الخير ، والاستزادة منه مادام قادرا على نيله والاكتفاء بما نال ، متى بلغ حد العجز ، واجتناب المجازفة والمخاطرة ، وبذل المجهود قدر الطاقة

الثالثة الشراهة : وهى صفة تدفع المرء إلى مجاوزة حد الاعتدال ، وتكليف النفس مالاً تطيق . ومن مظاهرها أن يجاهد الإنسان ويکدح طول العمر ، غير راض بمحن مختلف الأحوال ، وأن يکثر من المحاطرة ، وألا يغتبط بما يناله ويصل إليه من متاع الحياة الدنيا .

(ب) العواطف

العاطفة هي قوة جاذبية داخلية تشيرها العوامل الخارجية ، وتتدرج في النحو والارتفاع ، تابعة في ذلك إرشاد العقل ووحيه ، فلا تثبت أن تعد من القوى العقلية أو تقاد ، والعواطف الرئيسية خمس

الأولى عاطفة الوالدين : وهى الحنو المشرب بالحب ، فعطف الوالد على ولده يرجع إلى عاملين : أحدهما ما يراه الوالد في ولده من صورة جوهره ، وثانيهما ما يتمثل في الولد من استمرار هذا الجوهر . ولذلك قد تسمى هذه العاطفة ، أو تستحيل إلى شفقة ، فاعراض ، فنفور ، فقد ، إذا ما عرف أن هذا الولد أجنبي منه . ومن هذا يتبين جلياً أنها عزيزة مفهوم سببها عند بني الإنسان ، مجھولة السبب عند العجماءات . ومن مظاهرها ع Kovf الأم على حضانة ولدها ، وتعهده منذ نعومة أظفاره ، وكدح الآب في ميدان الحياة حرضا على نمو الأسرة وتكوينها .

الثانية عاطفة الأسرة : وهى نوعان بنوية وأخوية : فالبنوية ثمرات الحنو الأبوى ، أضف إلى ذلك أن الولد متى أدرك الحياة وقيمتها ، رقيت فيه هذه العاطفة ، واشتمل على والديه ، والأخوية تنشأ عن المحاكاة ، لأن الولد حينما يشاهد أبويه يعطفان على أخيه أو أخته ، يندفع بفطرته إلى حماكمه ماف العطف على الأخوة والأخوات

هذا وكما يكون التعاطف بين الاخوة يكون بين أبناء الأعمام والخالات ،
بل بين جميع أفراد الأسرة بعامل التجاذب الفطري ، سنة الله في خلقه (وَنَسْأَلُهُ تَبَدِّيلًا)

الثالثة : العاطفة الوطنية : - وهي عطف الفرد على مجموع قومه ، وشعوره
بأنه عضو في هذا الجسد الممثل في المجموع . ومها رقيت هذه العاطفة ، فلن
تبلغ شأوها عاطفة الوالدين في القوة

ومن مظاهرها شعور المرء بأنه مدين بكيانه وسعادته لرفعة وطنه ، وعلو
 شأنه ، وبأنه يجب أن يفتديه بنفسه إذا دعا الداعي

الرابعة : العاطفة الاجتماعية : - وهي عطف الإنسان على مجموع آحاد
المجتمع دون تفرقة جنسية . ومن مظاهرها أن يذعن الإنسان إلى معاونته
المجتمع ، ويخضع لقوانينه وشرائعه وأنظمته . وما تقدم يتبيّن جلياً أن العاطفة
الوطنية بين فرد وآخر من أمته ، والعاطفة الاجتماعية بين فرد وآخر من المجتمع
من أمته أو من غيرها

الخامسة عاطفة الشفقة : وهي أوسع شمولاً من العاطفة الوطنية ، والعاطفة
الاجتماعية ، فلا تقييد بقرابة ولا وطن ولا مجتمع ، لدورها عن الإنسانية
المطلقة . ومن مظاهرها أن يتّألم الإنسان لأنّ غيره ، فلا يلبث أن يكون عوناً
له على ما نزل به من المكرور

الرابطة بين العواطف والغرائز . وعلى الجملة فالعواطف أخلاق تشارك
الميل الغرزي في صدورها عن الدافع الداخلي ، غير أنّ تحركها مقرون
بالمؤثر الخارجي . هذا ويتفرع من العاطف الرئيسة عواطف بعضها
مقصورة على نفس المرء ، والبعض الآخر يتجاوزه إلى غيره :

(١) العواطف المقصورة

تنحصر هذه العواطف في أربع :

الأولى الشمم : وهو خلق نفسي يعني به المرء لنفسه ، غير أنه يودمن غيره الاعتراف له به . ومن مظاهره أن يرتأي بنفسه عن الدنيا ، وأن يكون بمثابة عن ارتکاب الآثام ، وألا يأتمر بمن هم دونه في المنزلة . هذا والتغالي في هذه العاطفة يحدث في النفس خلق الكبراء الذي ينشأ عنه احتقار غيره

الثانية احترام النفس : وهو اتخاذ المرء الشمم وسيلة للاحتفاظ بالمنزلة التي وضع نفسه فيها . ومن مظاهره أن يصون المرء مقامه ودرجه في ميدان الحياة ، وأن يكون مهيباً الجانباً لا يتسىء غيره أن ينال منه

الثالثة الغرور : وهو مجاوزة المرء حد الشمم ، وميله إلى وضع نفسه في منزلة فوق منزلته ، ولذلك لا يقره الآخرون على هذه المنزلة ، ولا ينال من هذا الادعاء سوى الاستهجان .

الرابعة الضعف : وهي وضع المرء نفسه في منزلة دون المنزلة التي يجب أن يكون فيها . ومن مظاهرها التزلف والذبابة ، وما إلى ذلك من الصفات التي لا تتفق واحترام النفس . هذا وتعظيم المرء غيره ، مع حرصه على منزلته ، يسمى تواضعاً ، فالتواضع غير الضعف

(ب) العواطف المتجاوزة

تتحضر في ثلات :

الأولى الكرم : وهو أن تقىض نفس المرء خيراً حباً للإنسانية . ومن مظاهره النجدة ، والاغاثة ، ولين الجانب ، وما إلى ذلك من الأعمال الخيرية

الثانية البخل : وهو الاحتياج عن فعل الخير مع القدرة . ومن مظاهره الاعراض عن مديد المساعدة ، وعدم تحقيق رغبة ذى الحاجة

الثالثة الطمع : وهو رغبة المرء في هضم حقوق غيره الشرعية ، والاستئثار بما لاحق له فيه . ومن مظاهره اتهاز الفرص للاستيلاء على حقوق الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة ،

أثر العاطفة : ولا اختلاف جبلات الناس وطباعهم اختلف أثر العاطفة
فيهم وظهر في أحوال ثلات

الاولى الشكر : وهو مقابلة الجميل بمثله أو بأعظم منه ، إن كان الشاكر
قادرا ، والاعتراف بالجميل إن كان عاجزا عن المكافأة بالمثل ، (إنما يعرف
الفضل من الناس ذووه) ويصدر الشكر عن الجبلة الطيبة الصالحة . ومن مظاهره
أن يعرف الشاكر بالصدق والأمانة والأخلاص وحسن الظن وسلامة الطوية .

الثانية الكنود : وهو جحود النعمة ، وعدم الاعتراف بالخير لأسديه ،

فهو لا يصدر إلا عن جبلة رديئة

الثالثة الخيانة : وهي مقابلة الحسنة بالسيئة ، والخير بالشر . ومن هذا يتبيّن
جليا أنها لا تقف عند حد نكران الجميل ، بل تتعداه إلى ما هو أشد مغبة .
ومن مظاهرها اتهاز الفرص للإيقاع بذوى الجبلات الطيبة الذين ظهرت
نفوسيهم ، وخلصت نياتهم .

هذا وكثيرا ما يكون أحد هذه الطباع ملزما للشخص طوال حياته ،
وقد ينتقل البعض من خلة إلى أخرى بالتربية والأحوال الاجتماعية .

(٢) الانفعالات النفسية

(١) المنفرات الرئيسية

هي ماتصدر عن أمر خارجي ينفر منه الخلق ، أو يخالف ميل النفس
ورغبتها . وتشارك العواطف في صدورها عن أمر خارجي ، وتخالفها في أنها
دافعة لاجاذة ، كاتخالف الغرائز فيها تصدر عنه ، لأن هذه تصدر عن أمر
داخلي ولذلك يصح أن نسميها عواطف سلبية وتنحصر في ثلات :

الأولى الكراهة : وهي أثر مخالف الرغبة ، أو نافي الذوق ، من الأمور
التي لا يرتاح إليها في مختلف الأحوال . ومن مظاهرها الاعراض عن المكره

الثانية الغضب : وهو أثر ما يصل إلى المرء من الضرر والاساءة سواءً كان مباشراً أم غير مباشر . ومن مظاهره حمل الغاضب على دفع مالحقه من الأذى والشر بما أوتي من قوة غير متظر حكم العقل وتدبره

الثالثة الخوف : وهو أثر ما يهدد المرء من الحوادث الفجائية التي ترتاب منها النفوس ، وترتعد لها الفرائص . ومن مظاهره الميل إلى الهرب إن استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً ، فان لم يستطع عمد إلى ابقاء الخطر بالحيلة ، فان لم يستطع نشط إلى الدفاع غير متظر في كل ذلك حكم العقل وتدبره .

ما تقدم يتبيّن جلياً أن وظيفة الانفعالات النفسية الوقاية من الخطر والأذى ، وأن وظيفة الغرائز الحرص على البقاء الفردي والسلالي ، وأن وظيفة العواطف الحرص على الكيان الاجتماعي

(٢) الانفعالات الفرعية ، أورد الفعل

أوضحنا في النواشر الرئيسية أنها تدفع المرء إلى الفعل قبل أن يتولى العقل الأمر ، ويشرع في التدبر ، فإذا تبرى العقل للتدارك في حال الخوف والغضب نشأ عن ذلك ما يسمى الانفعالات الفرعية أورد الفعل ، ولذلك أساليب مختلفة :

أولاً الحق وهو تحفز المرء لرد الشر بالمثل . ومن مظاهره اشتراك العقل معه في تدبر رد الفعل ، وسكون الغضب وذهاب الحقد ، إذا ماعجز عن التعجيل برد الفعل

ثانيها الحقد : وهو بقاء الغضب محتدماً مع الكظم . ومن مظاهره إصرار الحاقد على رد الفعل ، والانتقام متى سنتحت له الفرصة

ثالثها الحذر : وهو تنبه الانفعال لما ينذر بالخطر أو الأذى قبل وقوعه .

ومن مظاهره أن يعمّل المرء على تأوييل أعمال غيره بغير ظواهرها ، وأن يبالغ في سوء الظن ، حتى يصل إلى درجة الغدر الذي يحمله على التعجيل بأذى غيره ، قبل التثبت من احتمال مجيء الأذى منه . وقد يؤدّي فرط الحذر

إلى تورط المرء في المخدور ، غير أن الخدر قد يكون عوناً على النجاة من الأذى والخطر إذا ما كان مصحوباً ببعد النظر خالياً من سوء الظن

(٢) مقومات الانفعالات

وهناك أخلاق فطرية ثانية أخرى وظيفتها تقويم الانفعالات النفسية ورد الفعل بحال بين الشدة والضعف ، تابعة في ذلك وحي العقل وإرشاده ، وهي :

أولاً : الشجاعة ، وهي الاقدام على العمل حيث يجب - وفق ما تتحمل القدرة ومن مظاهر هذا الخلق أن يستطيع المرء أن يروض الضارى من العجارات ، وأن يلقي الرعب في قلب خصمه ، وأن يحمله على مهابته .

ثانياً التهور : وهو تطرف في الشجاعة وغرور بالقدرة . ومن مظاهر هذا الخلق الوقوع في الخطر في الغالب الكثير

ثالثاً الجبن : وهو الاحجام عن اتقاء ما ينزل به من الخطر ، أو دفع ما يناله من الأذى مع القدرة على ذلك . ومن مظاهره الالتجاء تارة إلى الحيلة ، وأخرى إلى الاستعانة بالكذب والرياء والمواربة ، وما إلى ذلك من الصفات الذميمة . وما ورد من الفضائل والرذائل في الانفعالات ، فقد جاء لضرب المثل في هذا البحث النفسي ، وسيأتي الكلام عليها مفصلاً في موضعه

(٤) الاحساسات

الاحساسات من الحالات الانفعالية تشبه العواطف في الانجداب وتحالفها في أنها ناشئة عن أمور علينا ، وهي شعور المرء بما هو فوق تصوراته ، وغريب عن اختباره وتجاربه من مختلف الأمور والحوادث ، ولهذا الشعور ثلاثة حالات :

الأولى : التعجب وهو انفعال نفسي من سر مجهول يحمل المرء على استقصاء السبب ، ولذلك لا يفارقه العجب إلا إذا فهم السبب . هذا وتحتفل الدهشة عن التعجب بأنها تحدث لمفاجأة أمر غير متوقع ، وإن كان مفهوم

السبب : كروية من نشأ في البادية البحر الخضم لأول مرة ، وكمشاهدة ابن السهل الشاهق من الجبال لأول مرة أيضا .

الثانية الاستحسان : وهو انفعال ينشأ عن الجميل مما نشاهد أو نسمع أو نشم ،

فلا يلبيث أن يصل إلى الأجهزة العصبية فتهاز اهتزازا متساويا ينتقل إلى المراكز الدماغية التي تهتز مثله اهتزازا نظاميا . وعلى النقيض من ذلك الاستهجان الذي يحدث في الأجهزة العصبية أثرا تموجه النفس ، وتنفر منه

الثالثة الاجلال : وهو رد الانفعال بالأمر العظيم كالقوة والشجاعة . ومن

ظاهره الشعور بوجوب عبادة الخالق ، وإجلال الرعما ، وأولياء الأمور ، وما إلى ذلك مما هو جدير بالتبجيل والتكرير ، ثم الحبة ^{الناشئة} عن تفرع الإحساسات الفارطة - وبخاصة الاستحسان - إلى إحساسات تحرك بعض العواطف فلا يلبيث أن يفوق الفرع الأصل .

ولهذه الحبة ثلاثة درجات :

الأولى الميل : وهو رغبة المرء في التقع بما يستحسن من الجمال ، ما يستطيع

إلى ذلك سبيلا . ومن مظاهره طلب الأمور التي لا تتكلف النفس نصبا

الثانية الود : وهو اشتداد الميل نحو الجميل ونيله . ومن مظاهره اندفاع المرء

إلى طلب الجميل ، ومواصلة بذل الجهد للوصول إليه

ما تقدم يتبيّن جليا أن الميل والود يشتراكان في الرغبة في نيل الجميل ، غير

أن الأول يقتصر على الأمور التي لا تتكلف النفس عناء ، والثاني لا يقف

بالمरء عند هذا الحد

الثالثة الحب : وهو شعور راق في المرء يدفعه إلى توحى المثل الأعلى من

الجمال ، ويرتفع بالعاطفة إلى أعلى درجات الخيال ، وفيه يتمثل جل الأخلق

الكريمة . ومن مظاهر هذا الشعور أنه العامل الكبير في تصرفات الإنسان

وأن جل مساعي الإنسان وأعماله صادرة عن حبه .

وقصارى القول في طوائف الأخلاق الأربع الرئيسيّة وفروعها أن الغرائز تدفع الإنسان بحركة داخلية ذاتية إلى المحافظة على البقاء، والعواطف تربطه بما يتفق ومزاجه من مختلف الأشياء، والانفعالات تجعله يعزل عن الأمور التي تختلف مزاجه، والاحساسات تسمو بروحه إلى درجة في الجمال والصلاح. هذا ولما كانت أفعال الإنسان لا تصدر عن مؤثر واحد، لأن مبتغى المال يصل إلى مبتغاه بدافع الود والطموح والبخل والطمع، والمدافع عن نفسه يظهر عدوه بدافع الغضب والشجاعة؛ قيل: إن الإنسان مجوعة أخلاق

الرغبة والخلق

الرغبة هي انبعاث النفس نحو ما يلوح أنه ملائم لها وهي خاصة بالانسان، ويقابلها عند الحيوان الحاجة ، وهي الداعية العميماء التي تدفعه إلى مساواة الفطرة، وتحصيل ما به ينمو الجسم ، ويستكمل قواه ، دون أن يدرك بوجه ما منشأها وعلتها . ومظاهرها في الحيوان على اختلاف أجنسه وطبقاته السرور والآلم، فالحاجة إلى الطعم وقت الشتاد الجوع مدعوة إلى الآلم ، وإسعاف تلك الداعية سبيل السرور والابتهاج ، ومعنى هذا أن أخص دلائل هذه « الحاجة » عند الحيوان وإن تباينت أجنسه وتعددت مراتبه ، هو السرور أو الآلم أما الانسان فرغبتة مظهر خلقه ، ومعيار نفسه : ذلك بأن الانسان في حالاته البدوية والحضارية يجد للجوع أملاً فيطلب سده ؛ ييد أن له في كل منهما قصداً يطليبه ، وغرضنا يرمي إليه : فالبدوى يطلب لسد نهمه وشرهه وملء بطنه ، وتفويته جسمه وعضله ؛ والحضري يقصده ليقيم به أود صلبه، ويستعين به على نماء عقله ، وإعداد جسمه لاحتمال مطالب نفسه ، ومعاونتها على اقتحام المخاطر وركوب متن الأهوال

وإذا كانت النفوس كيارا تَعْبُت في مرادها الأَجسام على أن رغبتهما في الشئون المعنوية مختلفة كذلك : فالحضرى يرحب في

المدى (١) والتقوى، ومؤازرة الفضيلة وإقامة دعائم الحق ، ونشر ألوية الانصاف والبدوي البعيد عن تزكية الدين الحالى من حلية العلم ، وجمال الأدب ؛ همه شن الغارة على جاره ، وأخذ ما في أيدي الناس ، مغرياً أونها ، وتحصيل الأرزاق بحد السيف وتحت ظلال الرماح ، إلى غير ذلك من قبيح العادات وسوء الملاكات .

يستخلص مما تقدم أن رغبات الإنسان تضر布 بسهم في تكوين أخلاقه ، ومن أجل ذلك يجدر بنا تفهم الرابطة بين الرغبة والخلق وإليك البيان : ارتباط الرغبة بالخلق : لقد أتيت كل نفس رغبات هي الآخذة بزمام عقله ، المالكة لشعوره وحسه ، وهي مختلفة على حسب اختلاف صاحبها صحة ومرضا ، سعة وضيقا ، يسر أو عسرا ، هناءة وبؤسا . ولذلك قال الخلقيون : إن في نفس الإنسان عشائر من الرغبات كل عشيرة مؤلفة من وحدات ، يبنها شيبة قربى وسُهمَة رحم متضارفة متوازنة ، لا تفارق واحدة صواباتها مادامت النفس في حال طبيعية ، فإذا ما عرها حدث بفائي : كمني عزيز ، أو تذكر وعيه ، أو وخز ضمير . أو داعية شرف أو عرض ، حصل اضطراب في نظام الوحدات واحتلط بعضها ببعض

تعارض الرغبات : لقد أسلفنا أن في النفس عشائر من الرغبات مؤلفة من وحدات متضارفة ، و شأنها شأن عشائر بني الإنسان قد يقع بينها التخاصم والتطاحن : فان همت واحدة من عشائر الرغبة بدفع صاحبها إلى العمل على تحصيل غرض ما ، انبرت واحدة من عشائر أخرى لمبارزتها ، وقصد الانتصار عليها ، مستصرخة ببنات

(١) بدهي أن المخلقي لا يعني في مباحثه إلا بالقواعد العامة ، فان كانت هناك طائفة من أهل البدو أقرب إلى الفضيلة والتقوى من طائفة من أهل الحضر الذين تعلموا الدين ودرسو الأخلاق ، فذلك مما لا يقدح في عموم القاعدة

عشيرتها ، مدلية إليهن بحق العصبية ، ووجوب مظاهره القريب على البعيد تملك سنة الله في خلقه (وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَةً اللَّهِ تَبَدِّي لَا) .

ولنضرب مثلا : قد يخلو السياسي بنفسه فتجول في صدره رغبات مختلفة تتجلاله وتتكافح ، فيينا هو مسوق برغبة عمل الخير لوطنه ، متشفف إلى سلوك سهل يفضي به إلى قضاء لبانته ، وتحقيق غرضه ، فإذا هو بجيشه من رغبات أخرى يهجم على قلبه ، فتسبى من بينها رغبة المجد لنفسه ، والهداة لأسرته وفصيلته ، ونيل الرفعة لاعضديه وعصبته ، مشيرة عليه بايشار نفسه ، محسنة له أن من كسب المجد لنفسه ، وأحرز لها زبارة الذكر ، وأورث أسرته الجاه الرفيع ، والصوت البعيد ، فقد أدى الواجب الاعظم وسقط عنه كل تكليف آخر .
ويينا تجول في خاطره رغبة حمل أمته على إذ كاء نار الحرب على جارتها ، وشن الغارة على بلادها لانتزاع ملوكها ، وثل عرش مجددها ، فإذا برغبة حب السلم تدور بخلده حقنا للدماء ، واجتنابا لاصلات سيف البغي ، وحبا في نشر السلام والوئام

هذا مثل من تشاحن الرغبات وتطاحنها ، فلأيها أصحابها يخضع ؟ وإلى أيها يجسح ؟ فان كان من رست فواعد خلقه ، وتوطدت دعائمه ، وقويت مرائه ،
جمع عشائر هذه الرغبة المتجالدة ، ورد أمرها إلى « الواجب » فهو الحكم الذي لا يحيد قيد شبر عن سن الحق وصراط العدل ، فما ناصره الواجب منها وقضى له ، فهو الحق الذي يجب أن يتبع ، وما قضى عليه فغيره بأن يستأصل ويتحقق .

ما تقدم يتبيّن مبلغ الرابطة بين الرغبة والخلق ، وأن هذا الخلق القويم هو الذي ينawiء الرغبة الفاسدة ، ويدرك أنها مطيّة الفتنة ، وسبيل المحنّة ، وأن طاعتها داء وعصيّانها دواء ، وأن الحرج وراءها يصرف النفس عن أن ترتكب الأفضل من خلائقها ، والإجهل من طرائقها . ألم تر إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه (اقْدُعُوا هَذِهِ النُّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا فَإِنَّهَا طَلَاقَةٌ تَنْزِعُ إِلَى شَرٍّ

غايةٍ، إنَّ هذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبَيْهُ ذُو الْخَلْقِ الْقَوِيمِ هوَ الَّذِي يَتَخَذُ الْوَاجِبَ وزِيرَه وَمُشَيرَه وَمُعيَارَ قَوْلِه وَعَمَلَهُ، وَالْوَاجِبُ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَسْتَعِينَ الْعُقْلَ، فَيَوْقِظُهُ إِلَى سُطُوهِ الرَّغْبَاتِ وَسُلْطَانِهَا، وَيَبْصُرُهُ حَيْلَهَا وَخَدَاعَهَا، وَيَحْذِرُهُ أَنْ يَتَورَّطَ فِي شَرِّاً كَثِيرًا وَيَقُولُ فِي نَفْوِهَا، فَلَا تَلْبِثُ أَنْ تَصِيرَ بِالْعُقْلِ مَدْحُورَةً، وَبِحُكْمِهِ مَقْهُورَةً. فَالْعُقْلُ وَزَيْرُ نَاصِحٍ، وَالرَّغْبَةُ وَكِيلٌ فَاضِحٌ، لَا شَكَّ فِي أَنَّ الرَّغْبَةَ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْوَاجِبَ وَلَمْ يَنْصُرْهَا؛ لَهُ أُخْتَ الْهَوَى، وَلَقَدْ قَالَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (الْهَوَى عَمِيٌّ) وَوَصْفَهُ بَعْضُ الْبَلْغَاءِ فَقَالَ (الْهَوَى مَطِيَّةُ الْفَتْنَةِ، وَالدُّنْيَا دَارُ الْمُحْنَةِ، فَاتَّرَكَ الْهَوَى تَسْلِمَ، وَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا تَغْنِمَ، وَلَا يَغْرِنَكَ هُوَكَ بَطِيبُ الْمَلاَهِ، وَلَا تَفْتَنْكَ دُنْيَاكَ بِحُسْنِ الْعَوَارِيِّ، فَدَدَ الْهَوَى تَنْقُطَعُ، وَعَارِيَةُ الدَّهْرِ تَرْجِعُ، وَيَقِيْعُ عَلَيْكَ مَا تَرَكْتَهُ مِنَ الْمَآمِ) وَقَالَ عَلَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجَعْفَرِيُّ: سَعَتِنِي أَمْرُ أَقْبَلَ الطَّوَافَ وَأَنَا أَنْشَدْ أَهْوَى هُوَى الدِّينِ وَاللَّذَاتِ تَعْجَبُنِي * فَكَيْفَ لِي بِهُوَى الْلَّذَاتِ وَالدِّينِ فَقَالَتْ هَمَا ضَرَّتْنَاهُ : فَذَرْ أَهْيَهُمَا وَخُذْ الْأُخْرَى الْأَرَادَةُ وَالْعَمَلُ : الْأَرَادَةُ هِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي وَدَعَهَا اللَّهُ الْإِنْسَانُ ، وَأَسْلَمَهَا زَمَامُ

عَقْلَهُ، فَبِهَا تَعْقِدُ الْعَزِيمَةُ عَلَى إِمْضَاءِ عَمَلٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ، فَإِنْ كَانَ آجِلًا وَلَمْ تَحْلِ دُونَهُ الْحَوَائِلُ الْخَفِيفَةُ، ثُمَّ انْفَاذَهُ عَلَى الْفُورِ، وَإِنْ كَانَ آجِلًا بَقِيَ فِي النَّفْسِ مَكْنُونًا حَتَّى يَجْعَلَهُ حِينَهُ، وَرَبِّمَا طَالَ عَلَيْهِ الْأَمْدُ فَقَعَدَرَ انْفَاذَهُ، إِذْقَدَ تَسْخُوَ النَّفْسُ بِالْعَزِيمَةِ عَلَى أَمْرٍ، وَصَاحِبُهَا مَتَاثِرٌ بِأَحْوَالٍ وَمَقْتَضَياتٍ، غَيْرُ مُحِيطٍ بِعَوْاقِبِ الْأَمْرِ حِمْدَهَا وَذَمِيمَهَا، مَنْطَوِيَّةٌ نَفْسَهُ عَلَى أَمْرِ مَخْبُوَةٍ فِي غِيَابِ ثَنَيَاتِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَ زَمْنَ الْإِمْضَاءِ وَالْانْفَاذِ، وَحَقَّتِ الْحَقَّاءِقُ نَجَّمَتْ أَحْوَالٌ جَدِيدَةٌ، وَانْكَشَفَتِ الْأَمْرُورُ الْمَكْنُونَةُ، فَانْحَلَتْ عَزِيمَةُ النَّفْسِ، وَثَقَلَ عَلَيْها الْعَمَلُ، فَتَغَيَّرَتْ عَنْ عَزْمَهَا، وَخَذَلَتْ صَاحِبَهَا . وَلَنْ يَنْزَرِبُ مَثَلًا :

يَعْقِدُ السِّيَاسِيُّ الْعَزِيمَةَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا تَوَلَّ رِيَاسَةَ الْحُكُومَةِ مَثَلًا التَّزْمِنِ الْإِسْتَقَامَةِ

فيها ، والانقياد للحق في مجاريها ، وأقام أركان العدل واجتنب الميل والمحاباة والتسيع والمماراة ، واستأصل جذور الظلم والظالمين ، وخصد شوكة المرتشين والراشين والراشين ، واتخذ ظهير الله أشیاع الحق ، وأنصار العدل وأهل الدين والخلق ، وحمة الفضيلة والادب ، حتى اذا تولى صادف عزيمته الضعف والوهن ، واستحوذ عليه الهوى ، فصر له عن الرشد ، وزين له قبيح عمله ، فأضل له عن سوء السبيل ، فر كن الى شيعة الباطل ، وأعداء الحق ، واستمد رأيه من أتباع الغي وبطانة السوء .

من أجل ذلك قال علماء الأخلاق : (عقد العزم لا يستلزم حتماً إنجاز العمل) فطالما هيئت ريح العزائم على النفس فأنشتها ، وأفعمتها بجم المقاصد ، ثم ما لبثت أن سكتت ، وهدأت ، كأنها كانت حلماً لصاحبها ، وإلى ذلك وأشار على رضى الله عنه إذ يقول : « ما أنقض النوم لعزائم اليوم » فكم خطط هدرت بالخاطر ثم قرت ، وكم عزائم صالت ثم انهزمت أمام تبدل الأحوال مذعورة من اشتباه العقبي ، وغموض المآل .

يتبيّن مما تقدم أن الارادة غير العمل ، وإن القول بأنهما شيء واحد باطل . حقاً قد تتصف الارادة بالقوة فيقترن بها العمل ، ولذلك يخيل لغير المدقق أنها والعمل أمر واحد ، والحق أن لا اشتباه ، لأن اتصافها بالقوة لم يغير من حقيقتها ، بل جعلها وسيلة قرني للعمل مفضية إليه ، وقوتها : إما فطرية ، وإما كسيّة مستفادة . فإن كانت فطرية فصاحبها يوم غالباً بأنه غليظ الكبد قاسي القلب ، رابط الجأش ، لا يخشى ركوب متن الأهوال ، واقتحام المصاعب والمخاطر . وإن كانت كسيّة فأصحابها من ذوى الفكر الواسع ، الذين خبروا الأمور وسبروها ، وتعرفوا ما يهم منها وما لا يهم ، فالى المهم وجهوا المهم ، وله شحذوا العزائم . ألا ترى قوة الارادة متجليّة في قول عمر رضي الله عنه : « لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه » إذ معنى هذا أنه وجد من نفسه العزم

الجازم على أنه لا يتآمر مع وجود أبي بكر، وأكذ ذلك بما ذكره من القتل، ومثل عمر من لوخير بين أن يقتل هو أو أبو بكر، لفداء نفسه، وآثار حياته على حياته.

حقاً لقد أراد عمر رضي الله عنه أن يجعل نفسه قدوة صالحة، ومثلاً كاملاً، وعبرة نافعة، لمن رمت الشكوك بنازعها عزيمة اعتقادهم، واعتبرت الطنوون على معاقده يقينهم، وقدحت قادحة الاحن فيما بينهم، ثم عدت على عزائمهم خداع الشهوات، وطمست بصائرهم بلادة الغفلات، وتولاهم غل التحاسد، وشعبتهم مصارف الريب، واقتسمتهم أخيف الهمم. يستخلص مما تقدم أن الارادة القوية سر النجاح، ورائد الظفر، وحياة الشعوب والأمم، ولا شيء أدل على متانة الخلق، واستحضار قواعده، من إرادة قوية تحب إلى صاحبها الاستماتة والاستبسال في الدعوة إلى مكارم الخصال، ومحامد الأفعال، والتعصب لخلال الحمد: من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للرب، والمعصية للكبير، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والانصاف للخلق، والكظم للغيط، واجتناب الفساد في الأرض.

وكل أمة يكثر في أبنائها ذوق الارادة القوية، والعزم الصادقة، لا تلبث أن تنشر النعمة عليها جناح كرامتها، وتسهل لها جداول نعيمها، وينعمها الله سلطاناً قاهراً وعزرا غالباً، يثبت ملكتها، ويؤيد دولتها، ويجعل منها حكاماً على العالمين، وملوكاً في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكونها عليهم، ويضمنون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم.

إلى درجة صدق الارادة والوفاء بالعزم يشير قوله تعالى في كتابه الكريم «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنِهْمُ مَنْ قَضَى تَحْبِهِ وَمَنْهُمْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلَوا تَبَدِّيلًا» فلقد روى أن أنس بن النضر لم يشهد بدر امتحان رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم ليرين الله ما أصنع ، فلما أتى العام شهد واقعة « أحد » فاستقبله سعد بن معاذ فقال : « يا أبا عمرو إلى أين ؟ » فقال : « واهلاً لريح الجنة ، إنني أجد ريحها دون « أحد » ! فقاتل حتى قتل فوجد في جسمه بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : « ما عرفت أخي إلا بثيابه » وكذلك تفعل قوة الإرادة بأهلها ، وكذلك يكون اليقين .

لما كانت الإرادة بهذه المنزلة قال جمهور الخلقين : « إن الخلق صورة الإرادة »

ان الخلق صورة الإرادة : ومرادهم أن للنفس أحواشٍ شتى ، وخلقها هو الحال التي تتغلب عليها وتصر لها : فمن رسم في نفسه مثلاً ، وتغلب عليها حال تقديس الواجب ، فاتخذه المرد الأعلى ، والمرجع الأسمى ، الأمر الزاجر ، الناهي القاهر ، فهو صاحب الإرادة الصادقة ، والخلق الحسن . ومن تغلب عليه حب جمع المال ، ومنعه أهله ، فهو البخيل الشحيح . ومن تغلب عليه الانفراد بالرأي ، والاعراض عن النصيحة والمشورة ، فهو العينيد المستبد . ومن كان قليلاً حولاً ليس له حال متغلبة عليه ، فهو المتعطل من الخلق ، العاري من الإرادة الماضية ، والعزمية الصادقة ، إذا عاشر الأنسخاء ، شاكلهم وحاكمهم ، فجادوا أعطى ، وإذا عاشر البخلاء ، تقيل أثرهم ، فسخ وأكدى ، إذا حبيت إليه النجدة والإغاثة سارع وأبلى ، وإذا زين له الكيد والواقعة بالناس انقاد ولبي ، كذلك الأمة .

يتبين مما تقدم أن الخلق المكون جدير بالعناية والبحث ، ولذلك يقمن بنا أن نبحث في مظاهره : وهي الأعمال التي يأتينا صاحبها إعادة وإفرازا . وتلك الأعمال هي ما اصطلاح الخلقيون على تسميتها بالسلوك
مباحث نفسية لابد منها

١ — الحال والملابسات :

يصل الفعل ، إلى الغاية بمرافقه الإرادة أو الرغبة فإذا تغيرت الرغبة تغير

ال فعل ، وقد تتغير الغاية أيضاً . ولما كان تغير الرغبة مقدمةً لتغيير الحال التي تنشأ فيها مسيرة الحاجة إلى البحث في الحال .

(١) ماهية الحال :

الحال هي ملابسات الشيء المطيفة به ، فكل رغبة مرتبطة بالحال التي تنشأ فيها . فإذا تغيرت الحال سبب ما ضعفت الرغبة أو تغيرت ، وكذلك الحال تتعدل أو تتبدل تلبية لاطوارى التي تؤثر في حركات الفعل وبواعثه ، ومسيرة لاختلاف الرغبات والغايات : فهبك تساوم شخصاً على أمر فيه منفعة لكليكما ، وترغب في الاتفاق معه على شروط العقد ، وبينما أنت تناقشه ويناقشك ، إذ بدر منه ما أغضبك فعدلت عن الاتفاق ، فلما استأثرت من المناقشة تغيرت من حال الموافدة إلى الحال المعاذبة ، وتغيرت الرغبة والغاية أيضاً وهبك آنسست في مناقشته إياك لينا يطمعك في منفعة أخرى ، تفوق المنفعة التي ترمي إليها ، فلينه هذا غير حال المساومة كما غير الرغبة .

مثال آخر : رغب تلميذ في الطبع ، فاشتغل بالدرس لتحقيق هذه الرغبة وفي أثناء اشتغاله مات أبوه ، أو أفلس فلم يستطع الإنفاق ، فعدل عن الدرس ، ونزل إلى مضمار العمل والاسترزاقي . فالحال في الأولى تغيرت بتغير حال الأب ، فتغيرت معه رغبة ابنه وغايته وعمله . ومن هذا يتبيّن أن الأحوال ليست في قبضة الإنسان ، بل هي كالرياح تجري بما لا تشتهي السفن . ولذلك تغير أحوال الإنسان من وقت إلى آخر ، ولحصر هذا التغير في أحوال رئيسة نذ كرم يأتي :

(٢) تغيرات الأحوال الرئيسية :

أولاً - قد يكون سبب تغير الأحوال في الحركات الباعثة للفعل : كالمكنت تطالع رواية ، فهاجت حادثة الرواية عاطفة الحب فيك ، فاندفعت أفكارك في الخيالات الغرامية ، وقد يلوح لك أن تنظم قصيدة في الموضوع ، فترك الرواية وتشرع في النظم .

ثانياً — قد يكون السبب تصويب الرأي إذ يعرض للإنسان ما يغير حكمه، فيعدل عن مجرى فعله ويوجهه في ناحية أخرى : كاً لو كان يضارب في السوق، وفهم أن المضاربة تؤدي إلى الخسران والافلاس ، فيعدل عنه إلى التجارة المشروعة بلا مضاربة .

ثالثاً — قد يكون السبب طارئاً خارجياً يطرأ على عملك فيغير مجرى، أو يقطع السبيل عليه ، كاً لو كنت تصطاد طيوراً ، فصادفت غزلاناً ، فتجنح عن صيد الطيور إلى صيد الغزلان ،

رابعاً — قد يكون السبب تغير الحال الصحية ، فيينا تشتعل إذ أصبت بمرض فتجنح إلى السرير للاستشفاء ، وقد يكون المرض عضالاً يحول بينك وبين العودة إلى هذا العمل ، فتضطر أن تزاول عملاً آخر ، أو أن تسفر للاستشفاء .

خامساً — قد يكون السبب الأحوال التي تقضي على الإنسان بتغيير مجرى الحياة ، فهو اليوم تلميذ ، وغداً مستخدم ، وبعد الغد تاجر أو صانع ، والآن مسحور ، وبعده رهبة كسيب ، والآن في عزلة ، وبعد برهة بين جماعة ، وهلم جرا من الأحوال التي تجعله في شأن جديد ، يغير رغباته ، وغاياته ، ومحارى أفعاله سادساً — وأخيراً تختلف الأحوال باختلاف الأشخاص ، فقد يتفرق اثنان في الرغبة ، ويختلفان في الغاية : كلاهما يقدم ما لا مشروع خيري ، أحدهما بداع الشفقة ، والآخر بداع الشهرة ، فالبعثان مختلفان ، وقد يقترب نائبان في مجلس نواب على مشروع : أحدهما يقصد به الخير العام ، والآخر يرمي إلى نيل منفعة له من هذا المشروع : فالخير العام غاية النائب الأول ، وغاية النائب الآخر توخي المنفعة لنفسه .

هذا وقد تتعدد أحوال الإنسان ورغباته المختلفة في وقت واحد ، فلا تثبت أن تضارب أو تباين ، وأن توشك أفعاله أن تتعدد في وقت واحد : ذلك أن السياسي يمكن أن يجد نفسه في ثلاثة أحوال معاً ، وهو يفاوض سياسياً آخر في دولة أخرى : إحداها الرغبة في السلم العام ، وثانية الرغبة في مصلحة بلاده ، وثالثتها الرغبة في إرضاء ضميره ، ولا يعدم التضارب في هذه

الأحوال ، فإذا أصر على مصلحة بلاده ، فقد يعرض السلم للخطر ، أو لا يرضي ضميره ، لأن المصلحة الوطنية المبتغاة ليست حقًا مطلقاً ، وإذا لان محافظة على السلم ، فقد يضيع حق وطنه ، ويختلف ضميره إذا كان حق وطنه ثابتاً حقاً . فمثل الرغبات الثلاث مثل قوات متضاربة ، وأقواها توجه الفعل وجهتها . فالإنسان يجد نفسه في مختلف الأوقات وال ساعات مقوداً برغبات مختلفة يغلب عليها التضارب أو التباين ، فهو يريد الاحسان إلى الفقراء ، ويحتمم لقلة المال ، ويريد التوجه لسماع محاضرة ، فيحول بينه وبين إنفاذ إرادته اضطراره إلى ملازمة عمله ؛ ويريد الهجرة في طلب العلم غير أنه ذو أسرة لامعين لها سواه ، فيبقى إلى جانبها ، وما إلى ذلك من الرغبات المختلفة في الأحوال المختلفة .

الشخصية : متغيرة ، ومطلقة

لما كانت الدواعي المحركة للفعل متغيرة بتغير الأحوال ، ولما كانت الرغبة التي تدب الإرادة إلى الاقتران بالعمل أو الترك متغيرة أيضاً ؛ كانت الشخصية (التي هي مظهر اتحاد الدواعي المحركة مع التعقل المرشد في إجراء الفعل) - متغيرة : فأنت الآن مسلم ، وبعد هنيهة مخاصم . وأنت الان عادل ، وبعد هنيهة ظالم ، وأنت الان فيك أثرة ، ثم فيك إيثار ، ومسرور ثم مكتئب ، ورزين ثم أهوج .

أما الشخصية المطلقة التي يتصرف بها المرء ويعرفها له معارفه ، فهي أثر تفاعل الشخصيات المتغيرة ، مع ما يغلب عليه من السجايا : فيوصف بالكرم ، لكثرة إحسانه ، وإن أسلك في بعض الأحيان . ويوصف بالشهم وعزة النفس ، وإن تزلف أو تصادر في بعض الأحيان .

ولا جمال الأساليب التي يحرى فيها الفعل بقوة الحركات وحكم الإرادة نذكر لك بيان أحوال الغاية :

الغاية

تنوع الغايات

١ — الرغبة والغاية :

الرغبة ترمي إلى غاية ، فـ كل فعل تفعله غاية تتجه إليها الرغبة ؛ لذلك كان تطلب الغاية يستدعي اصطحابها ، لأنها ترافق الفعل إلى أن يبلغ الغاية ، ومن أجل ذلك يتبين جلياً أن الرغبة تتضمن أمرين : أحدهما الباعث الذي يدعوا إلى الفعل ويرافقه إلى الغاية ، والآخر الغرض الذي ترمي إليه الرغبة . ويتبين ذلك الفرق بين الأمرين إذا كان اثنان يرميان إلى غرض واحد ، ولكنهما يختلفان باعثاً كلاهما يبتعى إنقاذ غريق : فأماماً أحدهما وهو أبوه فيبتعد عن إنقاذه للبنوة ، وأماماً الآخر وهو غريب عنه فيبتعد عن إنقاذه للإنسانية ، ولهذا اختلف الباعث والقصد الغرض . هنا وتحتفل البواعت باختلاف الأحوال :

٢ — وأهم هذه الأحوال ما يلى :

أولاً - يختلف الباعثان من حيث البعد والقرب ، فيكون أحدهما بعيد المرمى ، والآخر قريبه : هب اثنين ينقدان غريقاً : أحدهما للإنسانية ، والآخر لأن له عنده دينا يريد استيفاءه . في الحال الأولى ينتهي مرمى الباعث بالإنقاذ ، وفي الأخرى لا ينتهي إلا بستيفاء الدين .
ثانياً - أن يكون أحد البايعتين من الداخل والآخر من الخارج : كما لو صنع الواحد جميلاً لارضاء ضميره . والآخر صنعه للشهرة ، أو الشواب ، أو المكافأة .

ثالثاً - أن يكون أحد البايعتين مباشراً ، والآخر غير مباشر ، كما لو رام فوضويان قتل حاكم ، يتحين أحدهما فرصة لقتله وحده ، في حين أن

الآخر ينسف قطارا ، لأن الحاكم فيه . يقتل كل من في القطار مع أنهم ليسوا مقصودين ليصل إلى غايته
 رابعا - أن يكون البعث كامنا مستورا : كالمخدم المرء وطنه خدمة جليلة
 قاصدا خيراً أمته ، مستبطننا نيل الفخر لنفسه ، فقصد الفخر كامن مستور
 وإن لم يكن مرماه الأول . وفي كثير من الأحوال يتعدى الفرق بين هذين
 البعثين

خامسا - أن يكون أحد البعثين حزينا ، والآخر نفعيا : كالمورام حزبان
 - أو شخصان من حزبين - أن يغيرا الحكومة . فأحد الحزبين أو الشخصين
 يصوت ضدها ، لأنها تحالف مبدأه ، وثانيهما لأنها تضر بمصالحه أو مصالح
 حزبه

على أن هذه الأحوال الحمس غير مستوعبة الجميع ضروب البواعث
 وأحوالها ، إلا أنها جمعت أهمها .

٣ - تسلسل الغايات وتعددها :

قد تكون الغاية واحدة : كالمأكل لتسد الجوع . فالغاية هنا واحدة ،
 والفعل مباشر . لكن إذا طبخت ، فنضج الطبخ هو الغاية المباشرة ، والأكل
 من الطبخ هو الغاية الأخرى . فالغاية الأولى صارت وسيلة للأخرى ..
 فالغايات يتشعب بعضها عن بعض : فأنت تتاجر وتربح ، ثم تنفق بعض
 الربح في قضاء الحاجات ، والبعض الآخر تضمه إلى رأس المال ، لكي توسع
 المتجر ، فاتساع متجرك غاية قائمة بنفسها ، ثم ترمي باتساع المتجر إلى جمع
 المال لكي تسعد أسرتك ، فاسعادها غاية أخرى . وهكذا دواليك الغاية
 الواحدة وسيلة للأخرى .

٤ - السرور والغاية :

اختلاف الباحثون في ماهية الغاية فكانوا في قيدين : فريق يقول : إن الغاية
 سرور النفس ، وإشباع شهوتها ، وترقيتها شعورها ، وفريق آخر يقول : بل هي

النفع المقصود والسرور يرافق القصد إلى الغاية . فن ذلك لعب النرد مثلاً أو أية مسابقة ، فاللاعب حين يشرع في اللعب ، لا يضمن الفوز ، بيد أنه يلتفت باللعب حين تختدم المسابقة ، ومتى فرغ من اللعب لا يكون سرور الفوز عظيماً ، كسرور اللعب نفسه ؛ فما السرور إلا استمرار اللعب طمعاً في الفوز ، وأملاء في السبق . ومن ذلك أيضاً أن كثيرين يجمعون المال ، ويدخرون له ولا يتمتعون به ، فهم يسعون إلى المال نفسه ، وليس السرور في المال المدخر ، وإنما السرور في جمعه والكذب في تحصيله ، فالسرور هنا سبق الغاية ، والغاية جاءت متاخرة .

ومن ذلك يتبين جلياً أن السرور ليس غاية بل هو يرافق القصد إليها ، ومتى بلغ المرء غايته انتهى سروره ، وشرع يرمي إلى غاية أخرى لذلك بكى الإسكندر الأكبر حين انتهى من الفتح ، ولم يبق أمامه من البلاد ما يحتاج إلى تبعية وحروب ، فكان سروره في الحرب للفتح ، فلما تملأ مأساه إليه ، انتهت لذته . وما تقدم يتبين أن الفريقين مختلفان في تحديد الغاية . فال الأول يعد الغاية اللذة سواءً كانت اللذة في أثناء الفعل أم في نهايته . والغايات سلسلة كما أوضحت سالفًا : فإذا كنت تبني بيتاً ، فلا تلبث أن تشعر بلذة حين تنتهي من وضع الأساس ، لأنك وصلت إلى درجة من الغايات التي تتوصل بها إلى الغاية القصوى ، وهي سكنى البيت ، أو التمتع بأجرته . فمقاصد الإنسان سلسلة لا تقطع والسلسلة تشمل حلقات ، كل حلقة قائمة بنفسها وفيها لذة ، فاللذة هي الغاية سواءً كانت الغاية نهاية ، أم مرحلة من المراحل والفريق الثاني يعد الغاية ثمرة الفعل ، فتُقْبَلُ ثمرة الفعل كان ثمره غاية . وأما السرور فيحدث في أثناء الفعل - أي أن السرور يرافق القصد إلى الغاية - هذا ، وسنزيد هذا الموضوع إيضاحاً عند بحث موازين الأعمال الخلقية .

٥ - الغاية القصوى :

ما تقدم يتبين أن لكل من الفريقين وجهة ، والفرق بينهما قليل ، وللتوصيل

إلى الحقيقة يجب أن تعرف الغاية التي يتوجه إليها الفعل ، ويرمى إليهاقصد ، وهذا يستدعي العودة إلى المحرك لل فعل ، لأنَّه سبب وجود الغاية ، فنبحثه بحثاً أو عب مما فعلنا من قبل . ذلك أنه مربك أنَّ الأخلاق والسمجايا التي تحرك الفعل ، منها غرائز بحثة كالشهوات والانفعالات . وأنَّ الغرائز وظيفتها الحرص على بقاء الفرد والنوع ، فالقصد من الأفعال الحرص على الحياة والبقاء : فحين تأكُل لدفع الجوع تفعل ذلك بغريزة الميل المعدى ، حرصاً على الحياة والبقاء ، وحين تهرب تفعل ذلك بدافع غريزة الخوف ، محافظة على الحياة والبقاء ، وحين تخضب تقاتل حرصاً على الحياة ، وهلم جرا . ومن ذلك يتبيّن جلياً أنَّ للغاية دخلاً في تحريك الفعل وشركة ، لأنَّها غرض الغريزة .

ـ الداعي أو الباущ

ظهر لك مما تقدم أنَّ الغاية المرغوبة يرافق السرور وسائلها ، وأنَّها محركة لل فعل أو من جملة محركياته : فالشهرة مثلاً غاية ، ومحرك لل فعل المنتجه إلى هذه الغاية . ولا يوضح أمر التمييز بين المحرك من قبل الطبع ، والغاية التي تتراهى لنا محرك كأيضاً لل فعل المنتجه إليها ؛ بوجه ذهن القارئ إلى مبدأ أعم من المحرك وهو الداعي أو الباущ لل فعل : فالداعي قد يكون محركاً من قبل الطبع أو غاية مرغوبة ، أو تعقلاً أيضاً ، أو حالات طارئة ، أو قد يكون كل ذلك أو بعضه ،
١ - الطبع بوصفه محركاً لل فعل وحده أو بمعاونته الغاية :

المحرك من قبل الطبع الذي يستقل وحده في ندب المرء لل فعل هو الدافع الغرزي البحث ، ولا سيما إذا كان رئيساً : كالشهوات الغريزية والانفعالات ، بهذه تحرك المرء لل فعل من غير أن ينظر إلى الغاية : فهو يغضب ويقاتل ، ويحاف ويفر ، ويجوع ويتهف على الطعام قبل أن يفكِّر في الغاية ، سواء كانت سارة أم مؤلمة . فالغاية - على هذا الاعتبار - لا تسهم في تحريك الفعل ، وأما الطبع المترعرع فلا تتها أقل سرعة في عملها ، تقضم في الذهن صورة الغاية المرغوبة ، وهذه الصورة تشتراك معها في تحريك الفعل : حب المال

والشهرة ، والشفقة ، والميل إلى الاحسان ، وما إلى ذلك ؛ يقيم في الذهن صورة السرور بالحصول على الأمر المرغوب فيه ، فتكون الغاية المرغوبة عوناً قوياً في تحريرك الفعل .

٢- التعقل بوصفه محرّكاً:

المحرك من طريق التعقل هو إثارة الوسيلة الحمودة التي يجب أن تحرى فيها حركة العقل إلى الغاية المرغوبة ، وهي التي تضبط الشعور وتجعله في قبضة التعقل : فقد تتحرّك شفقة المرء عند رؤيته فقيراً ، وتدفعه إلى الاحسان إليه غير أن تعقل الغاية قد يقمع الشفقة ، لئلا يتعدّد الفقير الشحادة . فهنا كان التعقل باعثاً على قبض اليدين عن الاحسان وتوبيخ الشحاذ هذا ، وقد يستغل التعقل وحده بتحرّيك الفعل فيحرك الخلق ، ويقيم له غايته مرغوبه عن نفسه وحيثند يكون عمله عقلياً بحثاً كاخصم يواسى خصميه في كرب نزل به

٣- الحال بوصفه محرّكاً:

قد تعرض للمرء حال تسند إليه فيها الرياسة فلا يلبث أن تثير هذه الحال في نفسه حب الزعامة ، وقد كانت نفسه قبلًا غير طامحة فيها ولا طامحة إليها ، أو قد تعرض له حال ينال فيها شيئاً من المال ، أو يحسن صورة ، أو يتصدق مرة ، أو يناله شيء من التمجيل ؛ فيثير ذلك في نفسه حب الثراء ، والفن ، والاحسان ، والوجاهة ؛ ف تكون الحال في الأصل ، هي علة تحرّيك الفعل .

العادة

لما كانت العادة ينبعوا عظيمها من ينابيع الأخلاق حق علينا أن نقول كلمة في مبلغ أثرها في رفع الإنسان إلى درجات الكمال ، أو التدلي به إلى دركات الانحطاط .

قال ابن خلدون في مقدمته : إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر ، وأصله أن الإنسان ابن عوائده وموالوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه : فالذى

ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً ملائكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة ، واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً . وقال في مقام آخر : إن أهل الحضر لما ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والمدعة ، وانغمسو في التعميم والترف ، وتواترت على ذلك منهم الأجيال ، أصبحوا عيالاً على غيرهم ، يبدأن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وانتباذهم عن الأسوار ، ووثوقهم بأنفسهم ؛ قد صاروا أمدلين بآيسهم ، وصار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها مدعاهم داع ، أو استفترهم صارخاً هـ من أجل ذلك قال علماً التربية : إن العادة طبع ثان ، وأثبتوا بكل ما في قوتهم من حجة ودليل ، أن تلقين الطفل الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، ألفاظاً منساخة عن مدلولاتها ، ومعانٍ مجردة عن منازعها في عالم الحسن ؛ سنة لا تورث إلا عقا ، ولا تشرم إلا خيبة وندماً ، بل لا بد من إشراب النفوس تلك المعانٍ ، وتكوينها على العمل بالفضائل المقدم ذكرها ، حتى تخل منها محل الروح من البدن ، وتجرى فيها مجرى الدم من الشرايين ، ويصبح الصدق مثلاً طبيعة راسخة في النفس ، والعفة سمة من سمات الشخص ، ويتم للنفس عند مختلف الحوادث حال مبنية على عمدة الاعتقاد الراسخ ، واليقين الذي لا يتزعزع . فكما أن البحر بماهته ، والشجر بشره ، والدار بساكنها ؛ كذلك المرء بأدبه وأخلاقه ، فإذا غاضت مياه النهر ، وذوى ثمر الشجر ، وخلت الدار من ساكنها ، فقد حل بالعالم الملاك . وإذا أقرفت النفوس من جميل العادات وسنى الخلال ؛ فقل على الدنيا العفاء ، وعلى العلم والعرفان السلام

وليس بنافع بنيات قوم إذا أخلاقيهم كانت خراباً

وحسينا أن نقتصر هنا على الذريعة الآتية : وهي تتلخص في التأليف تدريجياً بين البنية وما ينافرها : كالسموم والاختلاف الأقاليم مثلاً : فالبنية بحكم استعداد تركيبها ومزاجها لا تثبت أن تعود السم فلا يضرها ، وتحتمل حر الأقليم وبرده إلى أقصى درجاتهما . ولقد ثبت علمياً أن أشد ضروب السموم تتحمّس أو لا مقادير صغيرة ، حتى إذا اعتقدا الجسم وألفها ، تقبل منها أقداراً كبيرة . ولقد أثر عن بقراط في شأن العادة قوله :

« مباشرة ما اعتدته ولو كان ضاراً في ذاته أقل أذى مما لم تعتدْ وإن كان نافعاً في ذاته » ، وكما أن العادة لا تم إلا تدريجياً ، كذلك الأقلام عنها لا يستطيع إلا تدريجياً . وهذا هو السر في أن القرآن الكريم حرم الحمر على ثلاث مراتب ، فقد ورد في الحمر ثلاث آيات : الأولى قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا أُثُمٌ كَبِيرٌ وَمَنَّا فِعْ لِلنِّاسِ ، وَإِنْهُمْ مَا أَكْبَرُ مِنْ تَفْعِيلِهِمَا » فكان من المسلمين شارب و تارك ، إلى أن شرب رجل فدخل في الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُو مَا تَقْوَلُونَ » فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها ، حتى قيل إن واحداً من وجوههم شربها ، فكان منه أن شج رأس واحد من إخوانه ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الاسود بن يعفر وهو :

أَيُوْعَدُنِي أَبْنَ كَبِشَةَ أَنْ سَيَّحْيَا
وَكَيْفَ حَيَا أَصْدَاءَ وَهَامَ ؟
أَيُعْجَزُ أَنْ يَرِدَ الْمَوْتُ عَنِ
وَيَنْشَرِنِي إِذَا بَلِيَتْ عَظَامِي ؟
أَلَا مِنْ مَبْلُغِ الرَّحْمَنِ عَنِ
بَأْنِي تَارَكَ شَهْرَ الصِّيَامِ
فَقَلَ اللَّهُ يَمْنَعُنِي شَرَابِي
وَقَلَ اللَّهُ يَمْنَعُنِي طَعَامِي

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج مغضباً ، فلما لقي الشارب ضربه بشيء كان في يده ، وعلى إثر ذلك نزل قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعْدَكُمْ تَقْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَوْقَعَ بِيَنْسُكُ الْعَدَاؤَةَ
وَالْبَغْضَاءِ فِي الْخَرِّ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُلْ
أَتَمْ مَتَهُونَ» . فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اتَهِنَّا! اتَهِنَّا!

يعلمنا الله جل جلاله بهذه الآيات الثلاث قاعدة من أسمى قواعد علم النفس ،
ولقد جاءت التجارب فيها بعد مؤيدة لها ، ودالة على أنه لا يجوز أن تهجر
العادة دفعة واحدة ، ولو كانت ضارة كالمخدر الذي حرمه القرآن على ثلاث
راتب ، إذ لو هجرها معتادوها جملة واحدة ، لكن هذا هو السبب القاتل ،
لأن المخدر - كما يقول الأطباء - ينفذ أثرها إلى أعماق المراكز العصبية ، فتورتها
حدة عنيفة ، فإذا ماترك شربها بجأة ، حدث اختلال واضطراب في النظام
العصبي بالانتقال جملة واحدة من حال الحدة القصوى ، إلى حال السكون
النائم ، فتحتل الموازنة الحيوية ، دون أن يتذهب الجسم لهذا الاختلال .
من أجل ذلك يجب أن تكون طريقة هجر العادة والاقلاع عنها مائة
طريقة تكويتها واعتناقها . ولو لا خشية الاطالة والافتئات على مباحث علم
النفس لضر بنا المثل الكثيرة لبيان النزاع المختلف لاعتناق العادة وهجرها .

الغريرة والعادة

الغرائز أصل من أصول العادة ، وقاعدة من قواعدها الركينة : ذلك بأن المرء قد
تدفعه جبنته وغريته إلى أن يفرك يديه جبهته عند التفكير في أمر ما ، ثم لا يلبث
أن يعود إلى فرك جبهته ثانية وثالثة كلما ساورته فكرة ، أو تهمم أمرا دون
تروّ وانتباه ؛ فيصبح هذا الفعل الغرزي عادة لا تتخلّف ، إلى غير ذلك من المثل
ما يدل على أن الجبطة تدفع بصاحبها إلى عمل ما ، حتى إذا تكرر وتواتر نجمت
العادة ، وصارت هي الحاكمة الغالبة . ولا يختلطن الأمر على المطلع ، فيظن الغريرة
والعادة شيئا واحدا ، إذ هما وإن اتفقا في أن كليهما تسوق أبدا إلى أعمال
آلية قهرية ، غير مسبوقة بتروّ وتدبر مع إحكام تام ؛ فإن الغريرة هي الدافع
الفطري الأول إلى اقرارف العمل ، والعادة هي الدافع الثاني إلى تكراره .

على أن العادة قد تكون اختيارية كسلبية غير مستندة إلى غريزة ما : وذلك كمن يختلف إلى متنه ابتغاء استراحة الجسم ، واستراحتة النفس ، فما يعمّ أن تقوى فيه نزعة التردد عليه ، فيجد نفسه مسوقاً إلى التوجّه إليه ما سمحّت له الفرصة . وهذا الضرب من العادة شبيه بالغريرة في الغاية ، ممّا ينطوي على الوسيلة .

وقد سبق أن أوجزنا الكلام في الغرائز ، لأن التسقّب عن حفّائتها وأقسامها يستدعي بحثاً مطولاً ليس من شأن الخلق أن يستوعبه - وهو شأن الباحثين في علم النفس - غير أن الخلق لا يسعه إغفال ذكر الغرائز ، لأن الخلق مكون من أصل داخلي هو الغرائز ، وأصل خارجي ، ويندرج تحته البيئة بأقسامها ، والعادة والتربيّة والتعلّم . والاصل الداخلي هو جمّاع الصفات التّنفسية القابلة للتحول والنّمو والذّبول ، على حسب ما يوافقها أو يشاكسها من الأحوال ، ومن هذه الصفات ما يرثه المرء من أبويه وأسلافه ، وتلك صفات خاصة ، ومنها ما يرثه من نوعه وتلك صفات عامة : فمن الأولى صفات الشجاعة ، والاقدام ، والباس ، وكرم الضيافة في أبناء العرب الذين نشأت آباؤهم من قبائل الأسود ، مساكنهن الوحش والضوارى ؛ يذلون قراهم ، ويؤثرون على أنفسهم ضيقاً منهم . ومن الآخرى الحذر ، والمدافعة عن النفس ، واتخاذ الحيطة لما عساه أن يحل بها ، إلى غير ذلك من الصفات التي اكتسبها الإنسان في بداولته من ضروب الحوادث حتى أصبحت له خلقاً ، وتنزلت عنه منزلة الجبالة ، فورثها البناؤه ، غرائزَ فيهم تدفعهم إلى العمل قهراً واقتصاراً .

يستخلص مما تقدم أننا نؤيد رأى القائلين : إن الغرائز تورث ، وإنما فرقنا فيما سلف بين العادة والغريرة ، فواجب أن نضيف إلى الفوارق بينهما المقدم ذكرها (أن العادات لا تورث) : ذلك بأن رعاية الأغنام يتربون أذنابها من أحقاب متطاولة . وما رأينا نتاجها قد ولدون ذنب وأن نساء أهل الصين يلبسن منذ أجيال أحذية ضيقة من الحديد ، لتصغر أقدامهن ، وما تأمّل ذلك وقد توالّت عليهن الادهار والاحقاب ، وأن المسلمين قبلهم

اليهود يختنون أبناءهم ، ومارأينا من ولدَ منهم مختونا إلا شادوا من شواد العلقة ، ولقد يعترض على منع وراثة العادة بما هو معروف مسلم به من أن كريم المحتد ، عريق النسب ، يحيى بابنه كرام النفس ، وأن الجياد تورت ذرارها سرعة العدو . وأن كلاب الصيد تأتى بنسل متاز في الصيد والقنص ، وجواب هذا أن الموروث في الأحوال الثلاثة هي العناصر المكونة للعادة - أعني الغرائز كما قدمنا - ، بدليل أن نتاج الجياد لورث دون تمرير وترويض ، لفقد ميرته ، وقصر عن أصله . وكذلك القول في الباق .

وصفوة القول أنه لا جدال في أن الابناء يرثون من والديهم أو أسلافهم الخصائص الآتية :

الأولى ، الخصائص الجسدية : كطول القامة وقصرها ، وبياض اللون وزغرتها ، وزرقة العيون وسودادها ؛ وسباطة الشعر وتجعيده ، وجهازة الصوت وضعفه . ييد أن تشابه الابناء بوالديهم أو أسلافهم ليس له نظام خاص يرجع إليه .

الثانية : الخصائص العقلية : لقد رأى بعض الخلقين أن الابناء يرثون من آبائهم صفات عقلية ، قائلاين : إن كبار المفكرين يرزقون بأولاد أولى عقول كبيرة ، والحق أن هذه قاعدة غير مضطربة ، فقد دلت التجارب ، وشهد التاريخ أن بعض المجانين وضعفاء العقول قد يرزق أولادا ذوى نظر ثاقب ، ورأى سعيد ، وقد يرزق الله أولادا هم غالية في حدة الذكاء . وتوقد الذهن (١) وإن الفضل ييد الله يؤتى به من يشاء

الثالثة : الخصائص الخلقية : لقد دل البحث على أن الأولاد يشبهون

(١) ورأينا أن أحدا لا يستطيع تعين الجهة التي تأثر بها المولود ، فقد يكون الأب ذا عقل كبير ، والام ضعيفة التفكير ، وقد يكون الأب أبلها والأم متعية ، وقد يحيى الولد متأنرا من ناحية أبيه أو أمه ، وقد يتافق الوالدان ذكاء أو بلاهة ولا يألف الولدين شابها لهما ، بل يرث من أصول أبيه أو أمه ، وقد يعطي مواهب غير موروثة .

آباءهم في كثير من الميول والصفات الخلقية حسنها وقبيحها ، فترى أبناء الأسر التي ألغت الكرم والبذل كرماء أسيخاء ، العطاء سجيتهم ، والإشار ديدنهم ، وترى أولاد الأسر المشهورة بالاقدام والشجاعة ذوى بأس شديد ، يخوضون غمار الموت ، ويقتربون المخاطر ، غير هيايين ولا وجلين ، وترى أولاد الأسر التي نشأت في النفاق ، ورضعت ثدي الكذب والرياء ، ذوى حيل وخداع ، المين خلتهم ، والبهتان صفتهم ، يتلونون ألواناً ، إذا وعدوا أخلفوا ، وإذا حدثوا كذبوا ، وإذا اؤتمروا أخانوا .

وقد نشاهد في الانسان صفات خلقية لابد أن يكون ورثها من نوعه ، فهنا صفات الحقد ، وحب الدفاع عن النفس ، والتحفز لاتقاء الحوادث ، إذا سار في طريق مظلم رأيته يتلفت عن كل جانب ، يتوجس للنباتات (١) والهيئات ، ومنها تقطيب حاجبيه ، والكسر عن أبياته إذا أخذته ثوره الغضب للانتقام ، أو للذود عن نفس أو عرض أو مال . ومن هذه الصفات الخلقية النوعية ، أن الانسان في أول أمره قد تعلم باختباره الطويل أنه إذا سلك طريقاً مخوفاً مثلاً أخذ حذره ، فتحفز للقاء عدوه من الوحوش الضوارى ، وبتقادم العهد استحالات الخلال التي كان يفعلها السلف طوعاً واختياراً ، إلى حركة قسرية يفعلها الخلف دون تنبه وشعور . وذلك لأن كل خلية من الدماغ مثلاً قد أتقنت في عضو الازمة الغابر وظيفتها حتى صارت قادرة على إنجازها دون مشورة العقل ، وعلى مر المدهور والأحقاد نشأ في الذهن أداة فرعية ، تنزلت منزلة الجبلة ، وامتزجت بطبيعة الانسان فورها الخلف عن السلف غريرة وجبلة ، لا عادة ومالوفا .

البيئة

البيئة ما يحيط بالانسان من مؤثرات حسية ومعنوية ، وإليك ما يقول ابن

(١) النباتات : جمع نبات : الصوت ، والهيئات : جمع هيبة : الصوت الذي تقزع

منه ونخافه من عدو . وقد هاع يهيج هيوماً إذا جبن

خلدون في شأنها : إن سكان الأقاليم المعتدلة هم أعدل البشر أواناً وأجساماً
 وأخلاقاً وأدياناً ، ومن أجل ذلك اختصهم الله بالنبوات ، لأن الأنبياء
 والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى
 (كنتم خير أمة أخر بَعْتَ لِلنَّاسِ) . وذلك ليتم القبول لما يأتهم به
 الأنبياء من عند الله . و سكان الأقاليم غير المعتدلة يغدون عن الإنسانية
 بمقدار قربهم من الحيوان الأعمى في أمزاجهم وأخلاقهم ، فلا يعرفون نبوة ،
 ولا يدينون بشريعة ، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال . وهذا نحن
 أولاء نرى أهل السودان متخصصين على العموم بالخلفة والطيش ، و لعنة بالرقص
 على كل توقيع ونعم ، وليس لذلك من سبب إلا أنهم لما سكنوا الأقاليم
 الحار دهوراً طويلاً استولى الحر على أمزاجهم ، وفي أصل تكوينهم ، فأصبحت
 نفوسهم تكاد تكون أبداً منتشية فرحاؤسرورا ، بحكمة انتشار الروح الحيوانية
 فيهم وسريانه في أعماق جسومهم ، وكانوا بذلك أقرب إلى الطيش من كل
 أمة أخرى . ثم قال في مقام آخر عند بيان تأثير حال المعيشة في العقول
 والأنفس ما ملخصه : إن أهل الأقاليم المخصبة العيش ، الكثيرة الزرع
 والضرع ، والأدم والفواكه يتصرف أهلها غالباً بالبلاد في أذهانهم ، والخشونة
 في أجسامهم ، وإن المقلين المقتصرین على الآلابان ، وخفيف الأغذية ؛
 أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من المنغمسين في بحار الترف والبذخ :
 فالوافئون أصنف ، وأذهبائهم أتفى ، وأشكالهم أشم وحسن ، وأخلاقهم أبعد من
 الانحراف ، وأذهبائهم أثقب في المعارف والأدراكات ، أضعف إلى ذلك أن
 المت天涯ين عن اللذات في البدائية والحاضرة أحسن دينا وإقبالاً على العبادة ،
 وأقوم أخلاقاً وأمتن مذهباً من أهل الترف والرهنية الذين قسّت قلوبهم
 وطمّست بصائرهم بما أكثروا من الطعام والشراب . ولقد دلت التجارب
 على أن أهل الخصب والترف يسرع إليهم الملاك أكثر من المتخصصين في
 في غذائهم إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المحنعات . اهـ بتصرف
 يشير ابن خلدون إلى أن أهل الترف والبذخ نكبة على بني الإنسان في

السراء والضراء . ولقد أعرب من قبله الامام على عن رأيه فيهم إذ يقول : (وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مئونه في الرخاء ، وأقل معونته له في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالاحاف ، وأقل شكرًا عند الاعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء ، العامة من الأمة ، فليكن ضغوك لهم وملكهم معهم) .

هذا ابن خلدون وقد عاش في القرن الثامن الهجري قد جاء في كلامه تصريحًا وتلميحاً بما أ茅ط اللثام عن البيئة وصنوفها ، وتأثيرها في جسموم بني الإنسان وعقولهم وأخلاقهم ، ولذا يحمل بنا أن نقول كلمة في رأى الغربيين فيها :

البيئة الطبيعية : الأرض وطن الإنسان ومهده ، وكل ما حوت من بحار وأنهار وأودية وجبال وحيوان ونبات ، مؤثر في جسمه وعقله وحاله وخلقه . وقد تضمنت الآية الآية عناصر هذه البيئة (ألم نجعل الأرض مهاداً ، وألْجِبَالَ أُوتَاداً ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سَبَاتاً ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبِيعاً شَدَاداً ، وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبِيعاً شَدَاداً ، بِهِ حَبَا وَبَنَاتَا ، وَجَنَّاتٍ أَفَاقَا)

هذه الأرض عليها أقوام أهل صناعة وتجارة وحضارة وإمارة أكبوا على العلوم فخلووها ، وسعوا إلى الحضارة فبلغوها ، ثم شحدوا بسيوف عقولهم فكشفوا كنوز الأرض ومعادنها ، وأعمق البحار وأغوارها ، وبذلك سخرت لهم السنن الكونية ، فأحالوا الماء هواء ، وقلبو الليل نهارا ، واستطاعوا أن يتناجووا والبلد طروح ، والدار متراخية

وعليها أقوام لا تزال تريم في سيداء الوحشية والجهل ، أحوا لهم فطرية ، وعقولهم همجية ، كان الزمان عليهم وجد ، ونواب الحديث عليهم تأليت ،

فقلو ب لهم قاسية ، وأخلاقهم فاسدة ، فهل لذلك من سبب ؟ إن من أهم الأسباب حال الأقطار الطبيعية ومناخها ؛ ولنضرب لذلك مثلاً : لقد لبت أهل الولايات المتحدة زهاء ثلاثة قرون يقطنون الأصقاع التي إلى الشرق من نهر « مسيسيبي » لا يربونها إلى غيرها ، ولما طال عليهم الأمد ، وعيّل صبرهم من الدأب على قطع الغابات ، لاعدام مكانها للزراعة ؛ فنفر فريق منهم للضرب في الأرض ، فكشفوا السهل الكبير ، فألفوه خصباً وفريماها ، فأثاروا الأرض وزرعوها ، وتعهدوها بالسوق والتنمية ، فكثرت أرذاقهم ، ونما عدهم ، واحتظوا الأمصار والمدن وبلغوا من الرقى والحضارة ما بذلوا به أهل أوربة . على أن نظرة في أحوال الأمم البحريّة تبين ما أفادتهم مجاورة البحر من خلق المكافحة ، والغالبة والثابتة والمصبارة : فالملاحون لكتلة ما يعادون من منازلة الخطوب ، مما في قلوبهم حب الحياة التي يدرءون عنها في كل يوم نواب جهه ، وكوارث متعددة ، حتى إذا اشتدت بهم الريح في يوم عاصف ، واضطرب البحر وتلاطم أمواجها ؛ هبوا لمقابلة الفواعل الكونية ودرء المخاطر المفينة ، وبذلك قويت قلوبهم ومضت عزائمهم

ولقد ثبت عليها أن إغفال استخدام أعضاء الجسم يوهن القلوب ، فتمتلئ بالمخاوف ، ويفسد العقول ، فتكتظ بالوسوس ، وأشباح المخاطر . فيما يلاقيه سكان شطوط البحر الزلزال الأرضية ، فكثيراً ما ترتج الأرض ، ويتو لها الاضطراب ، ويشتد صخب البحر ولجهه ، فستكسر أناجر السفن ، وتقطع سلاسلها ، وعند ذلك يعم الفزع ويرز الناس من بيتهم ، حتى الطيور من وكناتها ، والسبع من عرائتها ، والنمل من قراها ، ولطالما ارتجت الأرض فدمرت بلاداً كانت بالأمس عاصمة ، لا يجد الباحث عنها في عرصاتها إلا أطلالاً بالية ، ورسوماً دارسة ، ذلك إلى عقول طاشت ، وأموال ضاعت ، وأبناء فقدت ؛ كل هذه الشدائيد كونت أخلاقهم بفعلتهم في عامة أو قاتهم على حذر وانتباه ، لا يذوقون النوم إلا غرراً ، متأهبين دوماً لمقابلة الحوادث ، ومكافحة النواب .

وما تأثير البيئة الطبيعية في الأخلاق بأقل منه في العقول ، والتاريخ يدّة ناطقة بأن الأودية الخصبة الغنية بالأشجار والنبات كانت ولا تزال بعما يفيض على عقول ساكنيها ، رقيق الخيال ، ولطيف الوجدان (الشعر والنشر في الأندلس وبغداد) لم تسمع الكاتب الشهير « وشنجتون إرفنج^(١) » الذي استهوى الألباب ببدائع طرفه ، وخلاب الأفئدة بدقائق وصفه ، إذ يقول : إن كان في طبعى لطف ودماثة ، فلأنى نشأت على ضفاف بحر « إتش »^(٢) إذ كنت وأنا حدث أعتقد أن بهذا الهر روحآ يقوم به ، وأنه قد طوى على الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ، لا يعرف المصانعة والمذلة والخداع ، خلصت نيته ، وظهر قلبه ، وانتقام مجراه ، وعلته السكينة ، وخيمت عليه السعادة ، فاستمد عقلي منه ، واستنار خيالي بنوره .

(البيئة الاجتماعية)

ليس ذلك مقصورا على التربية المنزلية ، بل قد يكون ذلك التأثير للجو والمعاشين ، فإن للأجواء من التأثير ما لا ينكره المطلع على خصائصها ، إلا ترى البلاد الزائدة الخصب إذا قلت فيها المراحمة وجد أهلها من ذلك ما يكفيهم مئونة الحياة على قليل أتعابهم ، فيرکنون إلى الراحة والبطالة ، قانعين بأسهل لديهم من وسائل المعيشة ، فيعتادون الكسل ، ويقتل فيهم خلق المشارة على العمل ، ويؤثرون الراحة على المشقة . ويقرب من هؤلاء من وكلوا أمور نفقاتهم إلى الخدم ، وكلفواهم القيام باستدرار الأرزاق : انظر إلى أهل السودان لا تجد في أخلاقهم زمن إكثارهم من الأرقاء والخدم ، المداومة على الأعمال واحتمال المشاق في سبيل الرزق ، وإلى أهل الحجاز في فرضهم على عبدهم العمل ، وإعطاءهم الأجر ، فإن ذلك حبب إليهم الراحة ، وعدم الادمان على

(١) هو أديب قصصي أمريكي ولد سنة (١٧٨٠) ومات سنة (١٨٥٩ م)

(٢) هو خليج متسع على السواحل الشمالية من القسم الانجليزي من أمريكا

الأعمال الجالية لخيرات الأرزاق ، مع ما يساعد على هذا من الحرارة في بلاد السودان وما شاكلها ، فان شدتها تورث في الإنسان خمودا في القوة الفكرية والبدنية ، حتى لا يستطيع المثابرة على كثرة استعمالها ، اللهم إلا إذا زاحم أو لئك أقوام ذوو غيره وعمل ، فان مخالطتهم إياهم تولد فيهم غيرة ونشاطاً ، لما جبت عليه النفوس من حب استبقاء المنافع والخيرات ، ولا نذهب بذلك بعيداً ، بل نوجه نظرك إلى نفسك وقومك قبل وفود أبناء الأمم الأخرى إلى ديارهم ؛ تجد أنهم كانوا لا يشترون على الأعمال ولا يتسابقون في الوصول إلى ما يجلب الثراء ، فكنت ترى الزارع لا يشتغل إلا أيام قليلة في تهيئة أرضه للزرع ، وإلقاء البذر ، ثم يتركه و شأنه بدون سداد و تنمية من الحشائش الغريبة حتى إذا جاء وقت حصاده نقله إلى البىدر ، واشتغل بدراسته و تذريته ، وقضى الكثير من أوقاته في ملازمته منزله ما بين نوم ولعب ومسامرة ، قانعا بما يكفيه من تلك الأرزاق التي حصل عليها بقليل من العمل . وكذلك التجار كان لا يسعى ويكتفى جلب عروض تجارتة من المصانع التي بالأماكن البعيدة ولو كانت رخيصة الأثمان ، ولا يفك في اتخاذ طريق للوصول إلى الجيد الربيح منها ، مفضلا الاكتفاء بالقليل من الراحة من عناء الأسفار ، وشتات الأفكار ، عن الكثير المستصحب لذلك ، ولكن لما زاحمه الغرباء في طريق الكسب وموارد الرزق ، ووجد من نشاطهم ما يعوقه عن الوصول إلى مراقب الحياة ، أخذ في الحركة والمثابرة أكثر من حالته الأولى ، وإن كان لا يزال في ذلك قليل الكد ، قصير الفكر ، لو نسبناه لمزاحمه ، فان تغير الحال أفهمنا أن المخالطة تؤدي إلى تغيير في الخلق : فلو خالطنا أقل مما كدنا وأحط فكراماً مما فينا خلق المزاحمة والمثابرة . غير أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تلك المخالطة أظهرت فيما حب التائق في المأكل والمشارب والقصور والرياش ، فأصبحنا مع كدنا وعملنا القليل بذلك ما زاد عن الكسب والربح على تشيد تلك القصور البادحة ، والملابس المنوعة ، والألوان المختلفة ، ويا لينا وقفنا عند ذلك ، بل

تجاوzenاه إلى الاكتئان من معاشرة الخنور ، والمبارأة في ميادين القمار ، والمضاربات المحتاجة للثروة ؛ فذهبت أمونا ، وضاعت أرباحنا . خالطناؤم أشد من امارة في طرق الشاء والاقتصاد ، وأقدر تقينا في وسائلهما ، ذوو جد ونشاط رسم فيهم خلق المشابرة ، فأكسبوا منه قليلا ، وأقبلنا إقبالا هائما على مالديهم من الزخارف ، ومن وسائل الثروة التي نحن فيها عيال عليهم ، كالمضاربة وماشا كلها فربنا قليلا من الأولى وخرسنا أضعاف ذلك من الثانية ، ولو كان لدينا سياج من العقل الراجح ، والرأي الركين ما كسبنا إلا ما به صلاحنا فلا حنا . إذا نشأ المرء بين أسرة مهذبة سرت أخلاقها إليه من حلم وأنة وشجاعة وقوة إرادة ، وغير ذلك من الفضائل ، فإذا عاش كبيرا بين قوم أخيار ببرة لا يعرفون النقيصة ، ولا يألفون سوى الفضيلة ، أصبح كاملا فاضلا ، خيرا لنفسه ، خيرا لأسرته ، خيرا للأصدقاء وقومه ، فإنه لا يجد لديهم مدخل إلا للفضيلة ، ولا ذمة إلا للرذيلة ، فيعتاد ذلك ، وتنصل فيه الفضائل ، ويجانب الرذائل . وعلى العكس من ذلك التربية الفاسدة ومعاشرة الأشرار ، ذوي الدعارة والفحور ، فإنه بمحابتهم لا يبتعد عن الرذيلة المنطوية في أقوالهم وأفعالهم ومذاهبهم ، وغالب أحاديثهم ، فيمرن عليها ، والمرء إذا اعتاد شيئاً لا تردهه مذاته ، ولا تنفر قلبه قبائمه ، بل ربما تخيلها حسان . أليس الشرف الإنساني يمنع صاحبه من ارتكاب الرذيلة ، فتراه يتبع عنده استحياء وخشية من سوء الأحذو ثة ، فإذا وجد قرناه لا يتحاشونها ، سهل عليه أن يغشاها مرة أخرى ، فلا يجد فيها غضاضة على حسن سمعته ، وثلا شرفه بوهذا ما يحملنا على القول بأن الشرف الإنساني كالزجاج إذ كسر تعسر جبره

المرء يتخالق بخلق أحبائه وأصدقائه ، ومن يعتقد فيهم الكمال والفضل ، فإن المفضول مولع بالتخالق بأخلاق الفاضل ، وهذا أمر سائر في عامة الناس ، كما نص عليه العلامة ابن خلدون ، ولذا ورد مامعنـاه « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالف » وعلى هذا فإذا رأيت قوما يقلدون أخلاق أمة

أخرى وعاداتها، ويفون مألفاتها؛ فاحكم بأن عظمتها ملأت قلوب أبنائهم حتى إذا حاربوا لا يقدمون على ذلك إلا وقلوبهم بين جناحي طائر، لاماً لها من تحفة تلك الأمة وإكبارها، فلا يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم مغلوبين مخذولين.

يؤيد هذا ماورد (إذا شابه الزىَّ الزىُّ فقد شابه القلب فاقتفى أثره فيما يستحبه وما يستحسن). ومن ثم حظر بعض الدول القوية على الجندي تقليد غيرهم من جند الدول الأخرى

العمل وأثره

إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولانظام لا ين إلا بانتظام الدنيا، ولا يستقيم نظام الدنيا إلا بفهم عالم المخلوقات، بالبحث عن طبائع الموجودات وخصائصها، وذرائع استخدام ما لا يغني عنه، فيبقاء الإنسان أو كماله، ثم استقراره شئون الاجتماع وما يتبع ذلك من سنن التعاون على أسباب المعيشة وضبطها وطرق إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس، وإرشادها إلى ما فيه رفعتها في الدنيا وسعادتها في الآخرة. ومن هذا يتبين أن الإنسان لا يتم له حكمة خلقه، وتسيير هذا الكون له إلا بالعلم والتربية، فبهم سعادة الدنيا، وبهم طريق الفوز في الآخرة. قال تعالى وهو أحجم القائلين: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ الْأَمَمَينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيَزِّكِيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لِفِي ضَلَالٍ مِّنِينَ» فالقرآن حوى المقصدين: التعليم، وهو مشفف العقول ومرؤضها. والتربية، وهي مقومة الأخلاق ومظهرتها

العلم هو الأنليس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاقيات، والقريب عند الغرباء، حياة القلوب من العمى، ونور الأ بصار من الظلم، أهل سادة قادة، آثارهم متيبة، وأفعالهم مرموقة، أولئك سرج الأزمنة، وأئمة الخير.

وَكُفِيَ الْعِلْمُ فَعَلَهُ تَعَالَى فِي مُحْكَمٍ كِتَابُهُ الْعَزِيزُ : (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) وَقُولُهُ جُلُّ حُكْمَتِهِ : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وَقُولُهُ عَزَّ شَانَهُ : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ أَمْنَ وَعَمَلٍ صَالِحٍ) وَقُولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الْحِكْمَةَ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ، وَتَرْفَعُ الْمُلْمُوكَ حَتَّى يَدْرُكَ مَدَارِكَ الْمُلْمُوكِ » وَقُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ الْبُشُورِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ » أَمَا أَهْلُ الْعِلْمِ فَدَلَّوْا النَّاسَ عَلَى ماجِاهَاتِ بَهِ الرَّسُولِ ، وَأَمَا أَهْلُ الْجِهَادِ فَجَاهُوْا بِسَيِّفِهِمْ عَلَى ماجِاهَاتِ بَهِ الرَّسُولِ ، وَجَاهُوْا أَنفُسَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ ماجِاهَاتِ بَهِ الرَّسُولِ . وَلَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَرَأَى مَجَلسَيْنِ : أَحَدَهُمَا يَدْعُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَرْغِبُونَ إِلَيْهِ ، وَالثَّانِي يَعْلَمُونَ النَّاسَ قَوْلًا : « أَمَّا هُوَ لَا يَفِي سَأْلَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى فَانْ شَاءَ أَعْظَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنْعَهُمْ ، وَأَمَّا هُوَ لَا يَفِي عِلْمَوْنَ النَّاسَ ، وَإِنَّمَا بِعِثْتَ مَعَدَّمًا » ثُمَّ عَدَلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ مَعَهُمْ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ أَهْدِي وَالْعِلْمِ كَثُلَ الْغَيْثُ الْكَثِيرُ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا بِقْعَةٌ قَبْلَتِ الْمَاءِ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ ، وَالْعَشَبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا بِقْعَةً أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا عَزَّ وَجَلَ النَّاسَ ، فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقُوا وَزَرَعُوا ، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيعَانٌ لَا تَمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبَتُ كَلَأً » ، الْأَوْلَى لَمْ تَعْلَمْ وَاسْتَفَادَ وَأَفَادَ ، وَالثَّانِيَةُ لَمْ تَعْلَمْ وَأَفَادَ غَيْرَهُ وَلَمْ يَفْدُ نَفْسَهُ ، (أَتَأْمَرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنفُسَكُمْ) وَالثَّالِثَةُ لِلْمَحْرُومِ الْمَطْرُودِ (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْوَبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) الْعِلْمُ الَّذِي نَعْنِيهِ لَيْسَ اسْتِظْهَارُ الْمَسَائِلِ ، وَاسْتِيْعَابُ فَرَوْعَهَا ، بَلْ هُوَ تَحْصِيل مَلَكَةٍ فِي الْإِحْاطَةِ بِمَبَادِئِ الْعِلْمِ ، وَالْوُقُوفُ عَلَى مَسَائِلِهَا ، وَاسْتِبْنَاطُ فَرَوْعَهَا مِنْ أَصْوَلِهَا ، وَإِذَا لَمْ تَحْصِلْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ ، فَلَا أَثْرُ لَهُ فِي تَكُونِ الْقَوْيِ الْعُقْلِيَّةِ : ذَلِكَ بِأَنَّ الْعِلْمَ صَنَاعَةٌ ، وَكُلُّ صَنَاعَةٍ مَنْظَمَةٌ يَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ مِنْهَا أَثْرٌ يَكْسِبُهَا

رجاحة في العقل . وإضاءة في الفكر ، ووفرة في الكيس ، يجعل صاحبه أدنى إلى كال الذهن ، وفهم حقيقة الأمور ، والأخذ بالأحسن من الأعمال والعادات والمعاملات ، مما يزيد في بناء الأخلاق ، ويمكن دعائهما ، وهذا هو سر التذرع ببراعة العقول وترويضها إلى بلوع كال الأخلاق . ألم تر (كما يقول ابن خلدون) إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضرى متحلياً بالذكاء ، ممتهناً من الكيس ، حتى إن البدوى ليظنه قد فاته فيحقيقة إنسانيته وعقله ، وليس كذلك ، بل إن الحضرى قد جادت ملكته في الصناعة والأداب والعادات ، حتى ظن كل من قصر عن بلوغ تلك المرتبة أن ذلك ناشئ عن كال في عقل الحضرى ، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجلبتها عن فطرته ، وهذا خطأ : فكأن من بدوى هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته ، يَدِيْنَ الحضرى يفوّقه بما كسبه من رونق الصناعة وطلاء التعليم . أتهى بتصرف

هذا الضرب من التعليم هو الذي يوقد الشعور الغرزى ، وينمى العقول ويروضها على طويل التفكير ، والنظر في كتاب الكائنات ، ونظام المخلوقات حتى تقوى ملحة الترقب ، ويتحقق سره قوله تعالى (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَبْلَى كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَارِ كَيْفَ نُصِيبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

ولقد جنى الغربيون ثمرة هذا النفع من التعليم فتفهموا به أسرار الصنعة الاهمية في الكون ، وأخذوا ينتهيون نهجها ، فبدأوا على حمايتها ، والجرى على سنته ، وبذلك ارتفعت صناعاتهم ، واتسعت متأجرهم بما سخر لهم من الأرض ومعادنها ، والبحار ومسالكها ، والرياح ومهابها ، ومن ذلك أنهم يمموا وكنات الطيور ، فرأوا ضرورة باكشيرة ، وأجناساً مختلفة القدو والتقطيع والألوان ، ثم راقبوا عن كثب الحمامات وهي في مهضمتها ، والقططا وهي في أفحوصها ، والبازى وهو في ميقعته ، ثم نظروا في خلق الطير عامة نظرة استقصاء وتتبع ، فتفهموا أقسام رئيس الجناح : من القوادم

والمناكب والأباهر والخوافي، ثم فطنوا إلى تكوين منقارها ودوابرها وقطنوها، فأماطوا اللثام عن علاقه هذا التصوير البديع بطيران الطير وعکوفها، فشاهدوا منها القوى والضعف، والسرع والخفيف، والبطيء والشقيق، وكلها لاتعدمها الصرامة، وذكاء الفؤاد والشهومة، ثم صنعوا على مثلها سفائن هي كالطير إذا نشرت (١) ثم إذا أسفت (٢) أو كفت (٣)، أو دوامت (٤) في السماء، أو اصطفت (٥)، أو حامت (٦) على شيء.. لقد نقلوا إلى هذه السفائن هيئة العقاب إذا خات (٧) ثم إذا كنعت (٨) ألم تر كيف تند (٩) دفيف الطائر فهي كالحمام في زوفها (١٠) والعقاب في وحاتها (١١) تخترق جو السماء، فلا اضطراب ولا اختلاط، وتنفذ في طبقات الجو صعدا، وربما حال السحاب دونها، فتوارت عن الأ بصار.

نعم إن الله سبحانه وتعالى قد يخص بالطالفة الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه، رزانة عقل، وزيادة معرفة، تخرجه عن حد الاكتساب، يصير بها راجحا على ذوى التجارب والآداب. أوئكم الانبياء صلوات الله عليهم الذين أدر كتهم العناية الأزلية، فأشرقت على بواسطتهم أنوارها الكونية، وشملتهم الهدایة الربانية، فاتصفت بالفطنة والذكاء فلو بهم وأسفرت عن وجه الاصابة ظنهم، وحسبنا دليلا آثارهم وأعمالهم وسيرهم وأخبارهم، وتلك مرتبة دونها خرت القتاد، فلا ينبغي لعاقل أن يطبع في بلوغها بالكسب والعمل والمشاركة. ييد أن هناك مرتبة هي من متناول العقول التجريبية الكمية يبلغها من يحيضن الحوادث سواد لهم، وأخلقت التجارب

(١) نشرت: أسرعت في هويها (٢) دنت من الأرض وكل قريب مسف

(٣) تقلبت في طيرانها ظهراً لبطن (٤) جعلت تدور (٥) صفت أحنته دون حركة (٦) استدارت عليه (٧) انقضت (٨) ضمت جناحيها للانقضاض (٩) دف

الطير حرك جناحبه ورجليه في الأرض (١٠) زوفها أن تنشر جناحيها وذنبها وتسحبه على الأرض (١١) وحة العقاب هو صوت انقضاضها

لباس جدتهم ، وتلك هي التي يطبع فيها المتمسكون بأهدايب العلم ، الدائرون على دراسته ، العاكفون على العمل به . وآية هذه المرتبة أن يكون صاحبها بحيث لا يرى شرفاً إلا شرف العقل ، ولا غنى إلا غنى النفس ، يقول إذا فكر ، ويعمل إذا تدبر ، رأيه في إمداد ، وعقله في إرشاد ، عند العقاد موسوم بالعقل ، مرموق بعين الفضل

(التربية من الطفولة)

نزيد بها هنا تنمية الفضيلة النفسية والجسمية تدريجياً حتى تصل بالمربي إلى حد الكمال فيما

ذكرنا فيما سبق طرقاً عما يراه بعضهم من أن الطفل يولد خالياً من مدركات النفس الناطقة التي تكلمنا عليها ، والآن نفصل القول تفصيلاً : استعداد الفطرة لما يلقى فيها :

ليس لدى الطفل إلا المدركات الحسية التي تناسب القوة الشهوية والغضبية فهو في هذه الحال بمنزلة الحيوان ، يهوى الحسات إذا تخيل فيها نفعاً ، وينفر منها إذا تخيل ضرراً فقوته العاقلة بمنزلة جوهرة نفيسة خالية من النقش قابلاً لما يرسم فيها من حسن أو قبيح ؛ فهو أمانة في يد أبيه أو من وكلت إليه تربيتهم (فعليه أن يحفظه من موارد التلف) فان نقش فيها المعلومات الحقة المفيدة ، وطبعه على الألباب الفاضلة ، وتجنبه الأباطيل والرذائل ، وعوده خير الأعمال : أثابه الله على حفظ تلك الأمانة ، والعمل الصالح الذي كان به كمال ذلك الطفل ، ذلك الكمال الذي أفاده ، وأفاد ذلك المربي وأسرته ومعاشريه بل أمهه وبني الإنسان ، وإلا كان ضاراً لنفسه بعدها عن حفظ ما أوثقنا عليه ، ضاراً لتلك الأمانة ، ولأسرتها ولأمها ، يرشد إلى هذا قوله عليه السلام « كل مَوْلُودٍ يَوْلَدُ عَلَى فِطْرَةٍ فَإِنَّمَا يَهُوَ دَانِهُ أَوْ يَمْجِسَنَاهُ » والمرء كما هو مسئول عن إصلاح نفسه وإنقادها مسئول عن إصلاح نفس من وكلت إليه تربيته وإنقادها .

واجب الأم :

ينبغى للأم أو من يقوم مقامها أن تتعهد الطفل في نظافة جسمه وملبسه ، وما كلها ، فلا تتركه لحظة غير نظيف فان ذلك مجلبة للضرر ،

الطفل لا يصون نفسه عن وضع أصابعه على عينه وداخل فمه ، وأسرع

شيء إلى اتلاف الأعين قدارتها وماراصها ووسع ملامسها ، إن وسخ الثياب

والجسم يجب تراكم الذباب الناقل لجرائم الامراض ، وتراكم الأوساخ

يضعف التنفس الجلدي ، وكل هذا من وسائل ضعف الصحة . فعليها ألا تدعه

في الأماكن القدرة ، ولا تكثره من الرضاع ، بل تنظمه تنظيمًا يطابق الصحة ،

ولا تهمل في ذلك خشية عوذه وصياده ، فإنه إذا رأى ذلك مجبًا لما يرومده

أكثر منه كما قال :

وَالنَّفْسُ كَالْطَّفْلِ إِنْ شَبَّ عَلَى حَبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفَطَّمْتَهُ يَنْفَطَمْ

على أن كثرة الصراخ أيام الطفولة الأولى أحسن لاصوت ، وأوصل إلى

إصلاح طرق التنفس ، وقد عرفت ذلك العرب قديما ، وذكر في نصائحها

وألا تئمه حزينا باكيًا ، فقد ورد عن القدماء من الأمة العربية (أن النوكى

تنيم ولدها باكيًا ، والحادفة تعني له حتى ينقلبأسفه سرورا ، ثم تئمه على

هذه الحال)

ما يجب أن تكون عليه الأم : يجب أن تتعلم الأم نظام منزلها ، وتربيه ،

أولادها ، وهي رهينة خدرها ، أليفة عفافها ، فانا لا نطلب منها شيئا فوق القيام

بذلك ، وتكليفها أن تكون كالرجل في كل أعماله شطط - لو تعلمون ويل .

للمرأة أعمال كثيرة ، فان القيام بالنظمات المنزلية على تنوعها ، لا يدع لها

الوقت يسير لراحة ، فياحببنا لو وصلنا بها إلى هذه الغاية . وعلى الرجل

القيام بما هو خارج المنزل ، فيكفي زوجته همه ، وعليها ما هو داخله فتقسميه

مئونته (قسمة عادلة وحكم حسن) .

تأمل ما يلي :

اختلف على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وفاطمة رضي الله عنها عنها في ذلك فناد رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بقضاء ما هو خارج منزله ، وفاطمة بما هو داخله . وأسد الأحكام وأنفعها حكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل حكم يأتي على خلاف ذلك ليس منشوه إلا ما استهوى العقول من رفعة قوم ، واتساع سلطان ملوكهم ، فنسب المقلدون ذلك إلى كل مالديهم من الأخلاق والعادات ، ولم يفطنوا إلى أن في بعضها قبحاً ، يأثم منه القوم ، ألماناً من بعض مالدينا من العادات ، فما كوهم في الضار وحده لعجزهم عن التمييز بين الغث والسمين ، وجهلهم بأسباب الرق المكين .

الرق الحق ثمرة الاتحاد والتعاون على المنافع العامة العائدة على الأفراد بمنافعهم الخاصة ، والاشارة على الأعمال العظيمة ، والتنقير وراء ما يفيد اختراعه قوة ومالاً ، وجاهها وملكاً .

لو تم لنا الوصول بنسائنا ورجالنا إلى ماقتنا ، فقام الرجال بما وكل إليهم من الأعمال الخارجية حق القيام ، وثابرموا على العظيم النافع منها ، وتخلقوا بفضائل الأخلاق ، وتعاونوا على المنافع العامة ، ووجلوا إليها من بابها الممكн ، ولبسوا الكل حال لبوساً في ذلك السبيل ، وقامت النساء بقسطهن الذي يبناه ، لتوقعنا خيراً ، ولو توسمنا للأمة رقياً وفلاحاً .

فعلينا أن نلح في الوصول إلى هذا الطريق القويم ، ولا يقنطنا منه تباين الأفكار ، واختلاف الآراء ، وصعوبة المسارك ، مع تقاعدهم ، متمسكين

بشرعية القادر الرحيم : (وَهُوَ الَّذِي يَنْزَلُ الْغُيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)

أثر جهل الأم : ما أكثر جرم الامهات الجاهلات على أبنائهن في التربية

العقلية والجسمية ، فكم من جواهر نقوس ذهبت نفاستها ، وتأصل فيها الظلم بعد صلاحتها للإنارة ، ودنست بعد نقائصها بياطل المعلومات ، وكاذب الأقاويل !!

وكم من صحة بدلت سقما استعقب فناء ، بجهلهن طروع الامراض القاتلة ، فلا تفطن اليها حتى تعرض طفلها على الطبيب قبل أن يستحكم الداء ولا يجدى الدواء

(انظر الى مرض الخناق المسمى (بالدفتريا) فان جهل الامهات إياه أودى بالاولاد وهم رياضنا صغرا ، ورجال مستقبل بلادنا كبارا ، فأصبحوا رهائن القبور ، ومضمدين اللحوذ

التربية العقلية

يجب أن يعلم الطفل من المعلومات النافعة شيئاً على المقدار الذي يصل اليه عقله ، كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئاً أعلى من مداركه ، ولا يلقى إليه شيء من المعلومات الباطلة ؛ والأفاصيص الكاذبة ، فان ذلك مجبلة فساد الأخلاق ، وباطل الآمال : فن الأشياء الموجبة لسوء تربية الشيء قراءة الأفاصيص والروايات المملوءة بالأباطيل فانها تؤصل فيه الأمانى الكاذبة ، فوق ماتجنبه من الحوف والكذب ، واتباع هوى النفس ، وليس ذلك بمقصود في مبحثنا هذا لأنمن مباحثت علم النفس

التربية الخلقيّة : ولنذهب بك إلى القول في طريق إنماء القوة الحكيمية

والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة فيه ، وهو خلو من هذه أو من أضدادها، فإنه أسهل وأناسب بطريقنا ، وأنفذ للوصول إلى الكمال المطلوب :

١ - وجوب التبشير في غرس الفضيلة : إذ إلقاء بندر في مغرس خال ، لا يحوج إلى عناء ، كالعناء الذي ينشأ عن إلقاءه في أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة والجذور المختلفة لمناء ذلك البذر ، فإنه يستدعي قبل الإلقاء تعباً عظيماً في تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش والجذور العائقة عن إنبات البذر بنياتا طيبا ، يشعر ثمنا حسنا

٢ - أثر القدوة : يجب أن يعود الطفل الصدق في كل أقواله، ومن أقوام السبيل

إلى ذلك نشأته بين أسرة لا تقول إلا حقاً، فلا يرغب ترغيباً كاذباً من هو
يئنهم لأنهم بذلك يحررونه إلى الكذب، وإذا درج عليه مرة، درج أخرى
وهكذا حتى يكون خلقاً راسخاً يصعب علاجه.

فالطفل قابل لما يودع في نفسه من حسن أو قبيح إلا يرى أنه ينبع
على مثال كافله ومربيه، وأخلاق مربيه تصل إلى قراره نفسه من
حيث لا يشعر، فإنه يراه أعظم منه لكونه قائماً بشأنه، صاحب أمره ونهايه،
فيحاكيه حاكاة المفضول للفاضل. ولذا ترى الأبناء يتشبهون بأباءهم في
حركاتهم وسكناتهم، فيجب أن يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن
الأخلاق، والتمسك بالقوى جهد الاستطاعة، ومن ثم حضرت الشريعة
أن يعهد في تعليمهم إلى معلم فاسق
إذ افهمت ذلك علمت أن المريءات لأبنائنا سبب في جهالتهم، وفساد
أخلاقهم، وسقامة أجسامهم، فيجب أن تكون الأمهات على جانب عظيم من
العفة والديانة والتقوى، عارفات بالفضائل ووسائل الصحة التي قدمناها ويعرض
المعلومات المشرمة التي يناسب تعليمها الأطفال، حتى تحسن لدينا تربية أبناءنا

٣ - التشجيع على الفضيلة : ويحسن بالمربيين تشجيع الطفل على الفضيلة

بالاحسان إليه إذا قال صدقاً، وترك معاقبته إذا أجرم، وسئل عمما ارتكب
ققال حقاً، وأن ينهى عن الكذب، ويؤمر بالصدق في كل أقواله، ويكافأ
عليه بما يعده حسناً، وعن ترك المغيبة لـكبير الأسرة فيها يحصل داخل
المنزل من أحد أفراد أسرته، ويعالج في ذلك بالقضاء عليها قبل نموها، وأن
يعود العطف والخير على من معه، والغضب في موضعه، وأن يستحسن منه
ما هو حسن، ويكافأ عليه، ويستقبح منه ما هو قبيح بالنصر وإظهار الاستثناء
منه. فانرأى أن النصح كاف في الردع والزجر فلا يعدل عنه إلى العقوبة
لأنها تولد في القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحة والحرمية المطلوبة في المقال
والأفعال وكذلك يجب أن يربى فيه خلق المثابرة على العمل بحمله على مداومة

المزاولة لما يتعلّق به من غسل الوجه والأطراف، وصون الملابس، والقيام ببعض الأشياء المنزليّة متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فإن رأى أن النصح كاف في الردّع والزجر فلا يعدل عنه إلى العقوبة، لأنّها تولّد في القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحتة والحرارة المطلوبة في المقال والأفعال تمشّطته على الشجاعة: ويجب ألا يحدث بالأحاديث المفرّعة التي تملأ

القلب مخافة: كأقاوميّص العفاريت وما شاكلها، بل يعود الشجاعة والاقدام، وذلك بالامساك عن ذكر الخوفات، وبحمله على الذهاب إلى بعض قاعات المنزل منفرداً، وقضاء حاجته كذلك، مادام في أمن عليه من الحشرات والهوام حتى ينمو فيه هذا الخلق، ولذا كان النشء في البدو أكثر شجاعة وأعظم إقداماً.

التربية الخلقية ويجب حسه على التمسك بأذیال تقوى الله، فيعود القيام بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه قدر استطاعته، حتى إذا جاء طور التكليف، وجده مأولاً فـلا يصعب على مرعيه في بده أمره تهذيبه، وحمله على الأخلاق الفاضلة متى كان القائم بتوريته حكماً، عالماً بطبعائِ النفوس ووجوه إصلاحها

التربية الاقتصادية: وعليه أيضاً أن ينمي فيه خلق الاقتصاد فـيأمره بادخار شيء من النقود التي تعطى له، وكلما رأه مقتضاً نفي فيه ذلك بزيادة عطائه واستحسان هذا الخلق منه، وإذا رأه مسرفاً متنافساً، قلل من إعطائه أو أمسك وأظهر له الاستيءان، إلى غير ذلك من الأشياء التي تبغض إلى الإسراف، وتحبب إليه الاقتصاد.

أثر الدين في الخلق: جاء في مجلة المنار الجزء السادس من المجلد التاسع عشر ص ٣٤٠) ما ملخصه: إن الكفر بالبعث والجزاء، واعتقاد أنه لا حياة بعد هذه الحياة، يجعلهم الكافر محصوراً في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية: كالجاه والرياسة، والعلو في الأرض ولو بالباطل، وهو (٦ - الخلق الكامل)

ما يسمونه الشرف ، ومن كان كذلك يكون في اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم كالبقر والقردة والخنازير ، وفي اتباعه هواه في لذاته الغضبية ، أضرى وأشد أذى من الوحوش الضاربة المفترسة كالذئاب والنور وفي اتباعه هواه ولذاته النفسية شرًا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويقترب بعضهم ببعضًا ، لا يصدح عن باطل ولا شر يهو ونه ، إلا العجز ، ولا يرجون بفضل بينهم إلا القوة التي جعلوها فوق الحق ، وطالما غشوا أنفسهم وقتوا غيرهم في هذا الزمان ، بما كان من تأثير التوازن في القوى من منع كثير من البغى والعدوان الذي كان يصل به قوى الأمم على ضعيفها ، والحكومات الجائرة على رعيتها ، فزعموا أن الحضارة المادية والعلوم والفنون البشرية هي التي تفيض روح الكمال على الإنسان إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء ، بل ولا بالله الديان ، واستدلوا على ذلك بما أجمعوا عليه أنهم ودولهم من ذم الحرب ، والتفاخر ببناء سياستهم على أمن قواعد السلم ، وزعموا أن الباعث لهم على ذلك حب الإنسانية ، والرغبة في العروج بجميع البشر إلى قمة السعادة المدنية ، وقد جاءت الحرب العظمى ، فقوضت كثيراً من مزاعمهم وأوهامهم ، إذ رأينا فيها أرق أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة يخربون بيوتهم بأيديهم ، ويقوضون صروح مدنיהם بمدافعهم ، ويستعينون بكل ما يلغوه من العلوم والفنون والصناعات والحكمة والنظام لاحراق الحرش والنسل ، وتخريب العمران بمنتهى القوة والشدة التي لا تشبهها عاطفة رأفة ولا رحمة . ولو كان من بأيديهم أزمة الأمور منهم يدينون بالمدنية الروحية ، فيؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب ، والجزاء بالحق ؛ ما انتهوا في الطغيان إلى هذا الحد .

حقاً إن هذه الشعوب كانت تقاتل لنصر المذهب والدين في القرون التي كانت تعمل فيها كل شيء باسم الدين ؛ ولكنها لم تصل في التقتيل والتخريب في ذلك الزمان إلى عشر معاشر ماهي عليه الآن ، وإن كانوا يسمون هذا العصر عصر النور ، وتلك العصور بعصور الظلمات . على أن الرؤساء كانوا

يتخذون اسم الدين وتأويل نصوصه ، وسيلة لأهوائهم التي ليست من الدين في شيء كما يعلمه جميع علماء هذا العصر .

وجملة القول : أن الأمم التي سارت على منهج الشريعة الغراء لم تشر حربا إلا دفاعا عن النفس ، وتقريرا للحق والعدل والمساواة في الحقوق بين أصناف الحلق ، وحسبهم شاهدا على ذلك الحكم (جوستافيون) إذ يقول : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب .

وها نحن أولاء نرى شبكات المفتوذين بالمدينة المادي قد ضعفت بهذه الحرب الساحقة الماحقة ، وقويت بها حجة أهل الدين عليهم ، بل تنبه بها الشعور الديني في الجم الغفير من الأوروبيين ، حتى الفرنسيين منهم ، بعد أن كانوا قد نبذوه وراء ظهرهم ، وآثروا عليه الشهوات البذرية الحقيرة حتى صاقت بهم المعابد التي كانت مهجورة ، قلما تفتح أبوابها ، وقلما يلم بها أحد إن فتحت . وذلك شأن المسرفين في أمرهم من الناس لا يتوجهون إلى خالقهم إلا عند الشدة والباس . (وإن مَنْ لَا إِنْسَانَ الصُّرُدُ كَانَ لِجَنَبَهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفَنَا عَنْهُ صُرُدٌ مَرَّ كَانْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَّا صُرُدٌ مَسَهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وصفة القول أن تأثير الدين في الأخلاق أمر ظاهر لا يسع أحدا إنكار سلطانه على القلوب وتأثيره في النفوس (إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعُدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) وقد وعد أهلـه بالخير العميم والفضل الجليل إذا انتـروا بأوامـره ، واجتنـبوا نواهـيهـ (وَأَوْعَدْهُمْ إِذَا خَالَفُوكُـلـذـكـبـالـسـخـطـالـمـرـوعـالـعـذـابـالـأـلـيمـ ، وـهـوـالـعـالـمـالـذـىـ لـاـيـعـزـبـعـنـعـلـمـهـمـمـثـقـالـذـرـةـفـيـالـأـرـضـوـلـاـفـيـالـسـمـاءـ (وَعـنـهـمـمـفـاتـحـ الـأـنـجـيـبـلـاـيـعـلـمـهـمـإـلـاـهـوـوـيـعـلـمـمـاـفـيـالـبـرـوـالـبـحـرـوـمـاـتـسـقـطـمـنـوـرـقـةـإـلـاـ يـعـلـمـهـمـأـلـاـحـبـةـفـيـظـلـمـاتـأـلـأـرـضـوـلـاـرـطـبـوـلـاـيـاسـإـلـاـفـيـكـتـبـ مـبـيـنـ) وهو القادر على تحقيق ما وعده المتقيـنـ ، وـأـوـعـدـهـهـمـغـيـرـهـمـ، وـهـوـالـقـاهـرـ

فوق عباده ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، فمن آمن بمجاءهت به الرسل وجحد على نفسه رقيبا في خلواته ، أنه يثبته إذا أطاعه ويعاقبه إذا عصاه ، فيقبل على المأمورات ، ووجوه الطاعات سرا وجبرا ، ويعرض عن المنيات في وحدته ومجتمعاته .

موازنة بين أثر الدين والقوانين الوضعية

القوانين الوضعية على فرض إصابتها الغرض المقصود فيها يناسب سعادة المجتمع لاتزع الناس عن الأخلاق النميمة والأفعال الضارة إلا ظاهرا ، لأن ماترتب عليها من أنواع العقوبات لا يتحقق إلا إذا علم من صاحب ذلك الخلق تلك الفعال ، بخلاف ما كان خفيما في الانفراد ولا يطلع عليه أحد ، أو تواطأ المطلعون على إخفائه ، على أن كثيرا ما يحصل الإغضاء عن العقوبة بوسائل المحبة وما جرى مجرىها ، وعلى فرض كل ذلك فمن أين لنا أن المسيطر لا يعوقه عن الحكم بالعقوبة أو تنفيذها عوائق أخرى ؟

علمت بما سبق في مدح الأخلاق الفاضلة وذم السافلة أن كل ذلك بعض ما انطوت عليه الشريعة الظاهرة فإن آى الكتاب الكريم والأحاديث الشريفة أتت في بيان ذلك بما لا يفوقه بيان ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه « من لم يؤدب الشرع فلا أدبه الله » وليس لدينا شيء أحسن في هذا الباب من أن نخبلك على كتاب الله تبارك وتعالى وسننه نبيه صلى الله عليه وسلم فانك إذا تدبرت ماجاء فيها رأيت العجب العجاب ، وقلت ليس في الامكان أبدع مما كان . إذا قرأت تاريخ العرب قبلبعثة وعلمت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمححة في تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر ، وسبب ذلك أن التربية إذا صادفت نفوسا مستعدة غرسـت فيها فضيلة الانتصار للحق وأشربتها حب الانصاف ، وأرتها أن العدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوى ، والحق من البطل ، فأصبحت لاتحفل بعظيم ولا كبير ما دامت للعدل ، والعدل لها .

استعداد الأمة العربية للإصلاح الروحي :

من أجل ذلك ما كاد يتصل بالأمة العربية ذلك الإصلاح الروحي المدنى العام حتى ملكت الأقطار ، وأصلحت سيف الحق ، فانتشر العدل ، وزخرت بحور العمران ، وأطلقت العقول من قيودها وأغلالها ، التي ظلت أدھارا ترسف فيها .

وتجدر بنا في هذا المقام أن نسرد طرفا من مزايا الأمة العربية نبين به علة اصطفاء الله لها ، ومبني استعداد دنوفها لاحتياط تلك الأمة العظيمة ، وحسينا أن ننقل ما كتبه الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه « ذكرى المولد النبوى » وهو بنصه :

(كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوعة ، وكثير من الفضائل الموروثة والكسيبة : كقرى الصيف ، وأغاثة الملهوف ، والنجدة (١) والأباء (٢) وعلو الهمة ، والسخاء والرحمة ، والإيشار (٣) ، وحماية اللاجيء ، وحرمة الحارأ أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة (٤) ، والأئتين من ثقل الضرائب (٥) والأتاوى (٦) ورؤساؤها من محاسين في الشهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد دعم الراعي والرعية .)

كانت العرب قد بلغت أوج السُّكال في فصاحة اللسان ، وبلاعة المقال وكانت تتحدى لغات قبائلها أو لهجاتها العربية ، وتغلب المصرية منها على الجيرية ، بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية ، والأسوق الأدبية ، فاستعدت بذلك للوحدة القومية ، وللتأثير والتآثير بالبراهين العقلية ، والمعانى الخطابية

(١) النجدة : مضاععزم يبعث صاحبه على المضى فيما يعجز عنه غيره (٢) الآباء : الترفع عن الخسائر (٣) الإيشار : تقديمك غيرك على نفسك بما تحتاج إليه مما تملك (٤) الأثرة بالتحرير : تقديم نفسك على غيرك ولو بما هو أولى به منك فهو ضد الإيشار ، والباء للسببية (٥) الضرائب : جمع ضريبة وهي ما يضرب على العبيد ونحوهم يؤدونه أقساطاً ، ومنها الجزيمة (٦) الأتاوى : جمع أتاوة وهي الرشوة وتطاقي على الخراج ونحوه

والشعرية، وللتعبير عن جميع العلوم الالهية والشرعية، والفنون العقلية والكونية، أيام كانت الأمم تتفصّم عراً وحدتها بالتعصبات الدينية والمذهبية، وتتفرق وشائجها (١) بالعداوات الجنسية، وتمزق دولها بالحروب الأجنبية والأهلية. فتلك أمهات مزايا الأمة العربية التي أعدّها الله تعالى بها للبعثة المحمدية والسيادة الدينية والمدنية، بعد أن طال العهد على مدينتهم العادىة، واستعمارهم للبلاد الكلدانية البابلية، والبلاد الفينيقية (السورية)، والمصرية التي تشهد لهم سيادة لغتهم للغات السامية، وبقاياها في اللغة الahir وغليفية وبعد أن غلبت عليهم الأممية، وخرافات الوثنية، وعصبية الجاهلية.

وأعظم مزاياهم أنهم كانوا أسلم الناس فطرة، على كون أمم الحضارة كانت أرقى منهم في كل فن وصناعة، والصلاح الاسلامى مبني على تقديم إصلاح الأنفس باستقلال العقل والارادة وتهذيب الأخلاق على إصلاح ما في الأرض من معden ونبات وحيوان، ولهذا كان الله تعالى يُعدُّ هذه الأمة لصلاح العظيم الذي جاء به محمد عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم) وإليك مثلًا من أثر التربية الإسلامية

مات مسلمة بن سعيد وكان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله وقتئذ: أن استوف لأمير المؤمنين حقه ثم فرق ما بقي بين الغرماء، فلم يحفل هذا العامل بكتابه، بل ضرب للمنصور برسهم كما ضرب لأحد الغرماء، فلما بلغ المنصور بذلك كتب إليه «ملعت الأرض بك عدلاً حقاً إن التربية إذا تغلغلت في أعماق النفوس أمكنت فيها الإشار وأوهنت فيها الآثرة، وحببت إليها المصلحة العامة، ورغبتها في المعاونة والموازنة، وجعلتها تجد السرور كل السرور في العمل بقوله صلى الله عليه وسلم «خير الناس أنفعهم للناس» فتغيّث الملهوف، وتسعف المكروب، وتنجد من

(١) الوشيج والوشيجة: اشتباك القرابة وتدخل بعضها البعض بعض وأصله شجر الرمح ونحوه مما يشتباك

استنجد بها ، وتصرخ من استصرخها ، هي التي تجعل صاحبها يلقى الناس بالبشر والابتهاج ، ويعاملهم بالكرم والصفح ، ويسمع الناس جهداً استطاعته بأمواله وحسن شيمه ، ويعمل رغبة واغبطة بقوله صلى الله عليه وسلم « حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام يد المملك ، والملك يحرره إلى الخير ، والخير يحرره إلى الجنة ، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام يد الشيطان ، والشيطان يحرره إلى الشر ، والشر يحرره إلى النار » التربية هي التي تقود صاحبها إلى مسالك الخير ، والتتنقib عن وجوه البر والاحسان الصحيحة ، وتبغض إلهي أفعال أهل العلم السقيم ، الذين لا يعملون إلا رداء للناظرين ، وتصنعوا للمخلوقين . ليس تعطفوا القلوب النافرة ، ويخدعوا العقول الواهية ، حتى يعدوا من الأخيار العاملين ، وكبار المصلحين والواقع أنهم متسبعون بما لا يملكون ، والمتسبع بما لا يملك كاوردي الحديث كلاس ثوب زور .

التربيـة إـذـا صـادـفـتـ تـرـبـةـ صـالـحـةـ كـاـقـدـمـنـاـ كـسـتـهـاـ عـلـوـ الـهـمـةـ وـالـأـبـاءـ، وـكـرـهـتـ إـلـيـهـ النـفـاقـ وـالـرـيـاءـ، وـجـبـتـ إـلـيـهـ الـقـنـاعـةـ وـالـصـيـانـةـ، وـمـجـاـنـبـةـ الـرـيـبـ وـالـشـبـهـاتـ وـأـنـارـتـ مـنـهـاـ الـبـصـائـرـ فـعـلـتـ أـنـ الذـوـدـ عـنـ الـحـقـ، وـاحـتـمـالـ الـأـذـىـ فـيـ بـيـلـهـ، وـالـصـبـرـ عـلـىـ مـكـارـهـ مـنـ أـشـهـىـ الـأـمـورـ، وـأـوـفـرـ الـلـذـاتـ، وـأـدـرـكـتـ مـعـنـىـ قـوـلـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ «لـآـتـزـ أـلـ هـذـهـ الـأـمـةـ بـخـيـرـ تـحـكـمـ يـدـ اللـهـ وـفـيـ كـنـفـهـ مـاـلـمـ يـمـتـأـلـ فـرـأـوـهـ أـمـرـأـهـاـ، وـلـمـ يـزـكـ صـلـحـاؤـهـاـ بـخـارـهـاـ، وـلـمـ يـجـارـ أـخـيـارـهـاـ شـرـأـرـهـاـ. فـاـذـأـفـلـوـاـ ذـلـكـ، رـفـعـ عـنـهـمـ يـدـهـ، ثـمـ سـلـطـ عـلـيـهـمـ جـبـاـ بـرـ تـهـمـ فـسـأـمـوـهـمـ سـوـءـ الـعـذـابـ، وـضـرـبـهـمـ بـالـفـاقـةـ وـالـفـقـرـ، وـمـلـأـ قـلـوـبـهـمـ رـعـبـاـ» آـيـةـ كـالـتـرـبـيـةـ وـرـسـوـخـهـاـ أـنـ يـكـونـ صـاحـبـهـاـ أـجـرـاـمـاـ يـكـونـ عـلـىـ اـسـتـنـكـارـ الـخـيـاثـ وـالـمـحـظـورـاتـ، وـمـقـتـسـفـاـفـ الـأـمـورـ، وـسـاقـطـ الشـهـوـاتـ، لـلـذـوـدـ عـنـ حـيـاضـ الـجـمـاعـةـ الـإـنـسـانـيـةـ، وـمـدـافـعـةـ الـبـلـاءـ الـعـامـ الـذـيـ يـشـيرـ إـلـيـهـ قـوـلـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ «مـاـأـفـرـ قـوـمـ الـمـنـكـرـ بـيـنـ أـظـهـرـهـمـ إـلـاـ عـمـهـمـ اللـهـ بـعـدـأـبـ مـحـتـضـرـ» وـقـوـلـهـ عـلـيـهـ الـصـلاـةـ وـالـسـلـامـ «إـنـ قـوـمـاـ رـكـبـواـ سـقـيـنةـ فـاـقـتـسـمـوـاـ، فـأـخـذـ كـلـ وـأـحـدـ مـنـهـمـ

موَضِعًا ، فَقَرَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِقَاعَسٍ ، فَقَالُوا : مَا تَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : هُوَ مَكَانٌ أَصْنَعَ فِيهِ مَا شِئْتُ ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ فَهَلَكَ وَهَلَكُوا » وَهَكُذا مُصِيرٌ مَنْ يَتَرَكُونَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ذُوِّ الْبَادِيَّةِ الْفَاسِدَةِ وَالآرَاءِ السُّقِيمَةِ ، وَالْمُعْتَقَدَاتِ الْأَضَالَّةِ ، مُتَعَلِّمِينَ بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ حِرْفٌ قَوْلُهُ وَعَقِيْدَتُهُ ، وَنَسُوا أَنَّ ذَلِكَ بِالْعَلِيِّمِ ، وَتَدْمِيرِ لَكِيَانِ قَوْمِهِمْ وَوُجُودِهِمْ ، (عَنِ الدِّينِ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاؤَدَ وَعَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مِنْكَرِ قَعْلَوْهُ ، لَبِسْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

محمل آراء الغرب في التربية وعواملها

أُرسِلَ مِنْ ثَاقِبِ فَكْرِكَ شَعَاعًا عَلَى الْكَوْنِ وَمَا يَكْنِفُهُ ، وَالْعَالَمِ وَمَا يَسْبِحُ فِي بَحَارِهِ ، وَيُدْرِجُ فِي مَهْدِ أَرْضِهِ ، تَقْرَأُ عَلَى صَوْئِهِ عَبَارَةٌ تَحْمِلُ فِي جَوْفِهَا تَلْكَ الْحَقِيقَةَ الْآتِيَّةَ :

تَتَأْثِيرُ الْأَحْيَاءِ فِي نَمُوهَا بِضَرْوبِ مُتَنَوِّعِهِ مِنَ الْمُؤْثِرَاتِ ، وَتَجْرِي فِي بَنَاءِ كَيَانِهَا وَرَاءِ عَوَالِمَ تَحْيِطُ بِهَا ، وَتَنْفَذُ إِلَيْهَا آثارُهَا ، فَتَصْوِرُهَا صُورًا تَلَامِهَا وَتَجْعَلُهَا خَاضِعَةً لِسُلْطَانِهَا :

فَالْأَسْمَاكُ تَبَيَّنُ أَشْكَالُهَا لِتَبَيَّنُ عَوَالِمَ التَّكَوِينِ فِي دَارِ مَقَامِهَا ، وَالْأَشْجَارُ الَّتِي يَمْتَزِعُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِسَبِيلٍ مِنْ وَحدَةِ النَّوْعِ يَخْلُعُ عَنْهَا لِبَاسِ تَشَابُهِهَا تَشَابُهًا تَامًا اخْتِلَافُ الْمُؤْثِرَاتِ فِي أُوطَانِهَا ، وَالْحَيْوانُ تَتَمَيَّزُ صِبْغَةً الْأَفْرَادِ فِي نَوْعِهِ لِتَنْيِزُ خَوَاصِ الْبَنَاءِ فِي مُسْتَقْرِهَا ، وَدِيَارِ نَمُوهَا .

كَلْمَةُ التَّأْثِيرِ لَا تَدْلِي عَلَى أَنَّ هَنَاكَ مَؤْثِرًا فَقَطْ ، بَلْ تَدْعُ لِزَاماً إِلَى وَجُودِ ذَاتٍ أُخْرَى يَقْعُدُ عَلَيْهَا التَّأْثِيرُ وَيَمْيِنُهَا بِمَا يَشَاءُ مِنْ مَمِيزَاتِ النَّوْعِ وَضَرْوبِ التَّكَوِينِ . تَلْكَ الذَّاتُ لَهَا شَخْصِيَّةٌ مُسْتَقْلَةٌ ، وَوَجْدُ ظَاهِرٍ لِيُسْتَلِكَ الْمُؤْثِرَاتُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا يَدِ فِي إِنْشَائِهَا وَتَفْتَحُ أَكْمَامَ الْحَيَاةِ عَنْهَا ، وَبَعْشَهَا مِنْ مَرْقَدِ فَنَائِهَا صُورَةً بَارِزَةً تَسْمَعُ بِالْحَيَاةِ وَتَجْرِي عَلَيْهَا اللَّيَالِي وَالْأَيَامِ .

فالنهر الذي يشق طريقه في بطن الأرض ليس للبشر يد في إيجاده نهر ينساب أنساب الأفاعي ، تصوره قوة اندفاعه وتدفعه هيبة جريانه ، وغاية ما يصنعه البشر بهذا الخلق العظيم أن يغروا اتجاهه أو يقفوا اجريانه إلى حين أما إقامة صرح وجوده فانها ترجع إلى قوة أخرى ليس للبشر إليها من سبيل .

والبذر الذي يأوى إلى الأرض يخرج نباتا ، ويطلع شجرا بقدرة الله الذي يده كل شيء ، ولا يستطيع البستانى أن يتناوله بشيء يؤثر في نموه ، إلا أن يتعهده بالصلاح ، ويرعاه رعاية تقىه الشمس أن تجففه ، ومتى ماء حياته ويجعله في مأمن من العابثين وعارضى (١) الأطفال أن ينزعوه من مقره . وهل الطفل إلا كائن حى يجري عليه ما يجري على الكائنات الحية ويصيده ما يصيده ؟

من هذا نستطيع أن نفهم قول الاستاذ « فردريل العالم الالماني :

« المربون والمربيات بستانيو الأطفال وبستانيا لهم »

أى إن عملهم مقصور على ذلك التأثير المحدود الذى يشبه فى امتداده إلى مدى غير بعيد تأثير البستانى في النبات إذا رعاه حق رعايته .
نخلص من فهم تلك الحكمة البالغة إلى فهم معنى التربية والوقوف على حقيقتها ، إذا خلعنا عليها ثوب الكلمة الآتية :

« التربية تأثير الكبير في الصغير قصدا »

ولقد أنى على علماء التربية حين من الدهر كانوا يعتقدون أن المربي يده كل شيء ، وأن المرية قادرة لا يعجزها شيء ، لأنها قد ملك عقائدهم أن الطفل يولد صفحة بيضاء يخط المربي فيها ما يشاء ، وبعینة لينة هينة يصورها كما يريد ويعنى ، لا يصدء عن ذلك صاد ، ولا يحتجبه حجاب .
من هذا ماقاله إراسموس الروتردامى :

« إن الفطرة (كذا) إذا وهبت لك أبناء فانما تسلّمك كتلة بقة ، ومن

(١) العارم : الشرس

شأنك أرن تعطى هذه المادة القابلة للتهيئة والتشكل بكل شيء أحسن صورة تريدها : فأنت إن أهملتها حصلت منها بحيمة ، وإن عنيت بتريتها حصلت منها ، - إن صح القول - ملماً كريماً »

ومما فاه به الحكمي الألماني « لا يينتز » : « آتونا التربية نغير لكم أخلاق أوربة في أقل من قرن » غير أن تقدم العلم وتعرف العلماء أعضاء كل مخلوق والوقوف على مميزاته وخصائصه ، ومعرفة ما هو أساس نموه وعماد بقائه ، والاعتقاد بأن كل حي يسير في طريق وجوده ، ويقطع مرحلة حياته على سنن خاصة ، وضرورب من النمو مرسومة ، وأنماط من الكيف معينة بقوه قاهرة أزلية ، لا يدلل الغير في إقامة دعائمها ، وإجراء أنوارها ، وإرسال رياحها . كل ذلك جعلهم في منأى عن ركوب متن الشطط في تعريف التربية وبيان حقيقتها ، إذ قالوا بذلك القول المتقدم « التربية تأثير الكبير في الصغير قصداً » نظر الأستاذ بستان التزى إلى الإنسان وقال : أنا إن عرفت الإنسان ، وماركب فيه من ميول وجبل عليه من خواص ، وأودع فيه من ضرورب الاستعداد : استطعت حين ذاك أن أريه ، أي أثر فيه تأثيراً يوجه ميوله واستعداده وخواصه إلى حيث يعيش إنساناً كاملاً ، ويحيا ملماً كريماً .

ووجد الإنسان ذا غرائز كثيرة فطر عليها ، وصحبته جنيناً وطفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً كبيراً تظهر جلياً في أفراده ، وتتناولهم على اختلاف أجناسهم وتنوع نحلتهم ، وتفرق مواطنهم

تلك الغرائز العامة التي تكمن في الإنسان تتخذ طريقها إلى الوجود ، وسمتها إلى الظهور عند الظروف المناسبة ، والأحوال الملازمة ، التي تنفس في صورها فإذا هي لديها حاضرة .

فتشلاً : يظهر السرور إذا ظهر باعثه : كرؤيه منظر يقييد الخواطر جماله ، ويسترعى الناظر حسن نظامه ، ويبعد الغضب عند الاحساس بالظلم ، ويتحرك حب الاستطلاع عند رؤيه شيء خفي مغلق يثير العجب والدهشة ،

إلى غير ذلك مما كان ويكون أساساً لما يتجمّل به الإنسان من كل أمر عظيم، وما يمتاز به من خصائص لها أثرها البالغ في توسيع العرصات الكبرى للحضارة الإنسانية. يمكننا أن نفهم الآن أن التربية في استطاعتها أن تهديها إلى الطفل لتخرج غرائزه الصالحة من أكمامها ، وتسكّف عنها غطاءها، وتحفظها من كل ما يعوق نموها ، وتحوطها بشيء من الرعاية حتى يستطيع الطفل بعد نضوج جسمه ، وتسوية خلقه وتهذيب عقله أن يزج بنفسه في المجال العام لحضارة الإنسان ورقمه ، وذلك عمل إيجابي تقوم به التربية الغرائز الكامنة في الطفل ليست كلها من ذلك النوع الشريف الذي يتخذ أساساً لكل رفعة وكل ، بل بجانب تلك الغرائز الشريفة غرائز أخرى لها خستها وحقارتها ، لأنها دعامة كل مبتذل وخسيس يلح في الطفل : كالجبن والكذب والكسيل ، وغير ذلك من كل رذيلة تفيض بها الأثرة الإنسانية فال التربية أمام تلك الغرائز الدينية تخضد شوكتها ، وتغير وجهتها ، وتحسن استخدامها، فال التربية إذاً عملاً :

١ إيجابي : وهو إحياء الغرائز الشريفة ورعايتها حق رعايتها
 ٢ سلبي : وهو إضعاف سلطان الغرائز الدينية ، وتصريفها طريق غير طريقها
 وغير خاف أن هذين العملين ضروريان ، ولا يغني أحدهما عن الآخر .
 وكل منهما شرط في الثاني ، فالشيطان المتساويان لا ترجح كفة أحدهما إلا إذا خفت كفة الآخر

لهذا كان لزاماً أن يبدأ العملان في وقت واحد وأن يسيرا جنباً جنباً ، دون أن يتقدّع أحدهما ، أو يتباطأ أو يخلد إلى الأرض ، أو يشاقل ، حتى ينشأ عنهما إنسان كامل .

نرى التربية وهي قائمة بعمليها : الإيجابي والسلبي ذات يد غير مبسوطة إلا إلى حد معين ، وذات قوة لا تظهر إلا بقدر معلوم ، إذ يحجبها عن القدرة المطلقة ، والارادة الحرة في اختيار سهل غير ذي عوج : حدود كامنة خافية

ومظاهر سافرة واضحة : هذه المظاهر، تلك الحدود تبعد بالتربيـة عن السير في طريقها سيراً حراً.

أما الحدود الكامنة فانها تعرف من غرائز الطفل التي خلقت معه ، ومصدرها الوراثة .

وأما المظاهر السافرة فانها تتجلـى في بـيـئة الطـفـلـ الـكـفـيلـةـ بـتـحـيـدهـاـ وـتـعـيـنـهـاـ فـسـدـرـهـاـ الـبـيـئةـ يـطـلـعـ الـجـسـينـ وـيـشـرقـ وـجـهـهـ ،ـ فـتـطـلـعـ مـعـهـ مـوـاهـبـهـ الـبـاطـنـةـ وـتـشـرقـ إـلـيـاهـ خـواـصـهـ الـذـاتـيـةـ الـتـيـ وـرـثـهـ عـنـ آـبـائـهـ السـالـفـينـ .

يولد فتولد معه تلك الغرائز الكامنة ، وينمو فتنمو معه دون أن يبدأ المربى أول خلقها ، أو يكون له أثر في نشأتها وتكوينها .

فالطفل إذ ذاك صورة آباء الصادقة ، وتاريخ أجداده الصامت الناطق تهدى سطوره القارئـةـ إـلـىـ مـاتـحـلـيـ بـهـ أـسـلـافـهـ مـنـ مـزـاـيـاـ ،ـ وـمـاتـوـطنـ فـيـ نـفـوسـهـمـ مـنـ خـواـصـ ،ـ وـمـادـرـجـتـ عـلـيـهـ عـقـولـهـ مـنـ مـيـوـلـ ،ـ وـبـرـزـتـ فـيـهـ هـمـمـهـ مـنـ شـئـونـ ،ـ وـمـاـسـتـقـرـ فـيـهـمـ مـنـ عـادـاتـ ذاتـ خـلـقـ سـوـىـ أوـغـيـرـ سـوـىـ .ـ وـمـاـ أـشـبـهـ فـيـ ذـلـكـ بـالـغـصـنـ تـعـرـفـ بـهـ شـجـرـتـهـ وـالـأـثـرـ يـدـلـ عـلـيـهـ مـؤـثـرـهـ ،ـ فـالـطـفـلـ صـورـةـ مـصـغـرـةـ لـحـيـاةـ سـابـقـةـ قـطـعـتـ دـهـورـاـ ،ـ وـأـفـتـ أـعـوـاماـ .

على هذا الأساس يرجع تعليـلـ ماـنـراهـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الأـسـرـ مـنـ موـاهـبـ بـارـزةـ ،ـ وـكـفـاـيـاتـ نـادـرـةـ تـظـهـرـ فـيـ أـفـرـادـهـ حـيـنـ ،ـ وـتـنـتـقـلـ بـيـنـ أـبـنـائـهـ جـيلاـ بـعـدـ جـيلـ ،ـ وـهـذـهـ أـسـرـةـ «ـبـاخـ»ـ الـأـلـمـانـيـةـ مـنـ أـعـضـائـهـ مـاـيـنـيفـ عـلـىـ إـلـثـاـمـاـتـةـ مـنـ ذـوـيـ الـقـرـائـحـ الـمـوـسـيـقـيـةـ بـرـزـ مـنـهـمـ عـلـىـ أـقـلـ تـقـدـيرـ اـثـنـانـ وـعـشـرـونـ سـارـتـ بـذـكـرـهـ الرـكـبـانـ ،ـ وـذـاعـ صـيـتـهـمـ فـيـ كـلـ مـكـانـ ،ـ وـطـبـقـ نـبـوـغـهـمـ الـآـفـاقـ بـيـنـ سـنـتـيـ ١٥٥٠ـ وـ ١٨٠٠ـ وـمـثـلـ ذـلـكـ فـيـ أـسـرـاتـ كـثـيرـةـ الـأـلـمـانـيـةـ .

ولا ننسى أن هذا التوارث عام يشمل الخير والشر كلـيـمـاـ : فـكـاـ يـمـرـ نـسـيمـ خـلالـ الـخـيـرـ فـيـ غـرـائـزـ الـطـفـلـ الـمـوـرـوثـةـ يـدـبـ بـيـنـهـاـ أـيـضـاـ عـقـارـبـ الشـرـ فـيـ غـرـائزـ آخرـىـ لاـتـقـلـ اـسـتـحـكـاماـ فـيـ اـرـتـباطـهـ بـنـفـسـهـ وـتـعـلـقـهـ بـهـ عـنـ الـأـوـلـىـ .

وأظهر مثال لذلك تلك الأسرة الجوكية بولاية نيويورك فقد ثبتت من بذرة فاسدة شريرة إذ أن أصلها رجل هو لندى من سكان البايدية ، لا يكاد يفتق من سكره أو يصحو من سبات طوه ، عاش عيشة وحشية في برية صخرية ينسب إليها في خمسة أجيال من تاريخ حياته ٧٠٩ أشخاص :

١٨٠ شخصاً يعيشون على ماتجود به الصدقات العامة

٧٦ شخصاً باض الأجرام في نفوسيهم وفرخ فكانوا مجرمين

٥٢٪ من النساء إى إن أكثر أفرادها نساء منهن ١٤٠ امرأة تقريراً كن

يعشن من طرق غير شرعية لا يديحها الدين ولا تقرها الإنسانية

لم يصل العلم إلى معرفة ما تجري عليه سنته التوارث من ضوابط ، وما تسير على ضوءه من قوانين ، وغاية ما في استطاعتنا أن نحفظ تلك الموهاب جلالها ، ونعد لها عدتها باعتبارها قوة هائلة ، ذات سلطان قاهر وحياة بارزة تحدد من موقف المربى أمامها ، فلا يدور بخلده حينئذ أن يحصل من الطفل على ماترمى إليه إرادته ، ويشير إليه رأيه .

ولكن الذي يستطيع الوصول إليه من الطفل ما يوحى إليه به استعداد ذلك الطفل ، وتدل عليه غرائزه ، وتولى وجهها شطره خواصه التي ركتب فيه واتقلت إليه في طريق طويل من أجيال عمرت آلا فامن السنين

قف أمام الطفل فإذا به لغز مظلم ، وعقدة وثيقة محكمة لا يحسّر أحد باديء ذي بدء أن يحلها ، ويعرف ما انحنت عليه من موهاب الطفل التي استقرت فيه ، لأن سماءه لا تطلع فيها غرائز أسرة واحدة بل غرائز أسر كثيرة .

فالطفل له أبوان لكل واحد منها أبوان ، والأربعة لكل واحد منهم أبوان وهكذا ... وكل أب وأم من أسرة تختلف عن الأسرة الثانية في خواصها وغرائزها .

فالطفل إذاً مجال تحرى فيه غرائز أسر عديد مختلفة ، وصفحة ترجم فيها خواصها المتباعدة .

من ذلك يمكننا أن نفهم التباين الذي يقع بين الاخوة الأشقاء والأخوات الشقيقين في الأخلاق والعادات ، وقوة الفكر وحصافة الرأي ، إلى غير ذلك مما يرجع تكوينه إلى أسر سابقة ، وينسب ظهوره إلى الوراثات المتعاقبة .

أثر البيئة لقد عرفنا أن تأثير المربى في تلك الغرائز تأثير محدود فهو محكوم لها ، خاضع لأمرها ، نازل على إرادتها . لهذا كانت التربية أمراً غير ذي بال لو أن العامل الوحيد في نمو الطفل وتكوينه يرجع إلى الوراثة وحدها ، ولكن العالم الفرنسي « لامرك » دلنا بنظريته على أن هناك عاماً آخر لا يقل خطراً عن الأول ذلك هو عامل المخالطة ، وهي ما نسميه البيئة .

فكل مخلوق قدر له أن يتآثر بهما بمخالطه ويشاركه في الوطن وما حواه . ومن شواهدهم على ذلك ماجاء في إحدى المجالات إذ قال: « النبات المعروف بسن الأسد ينبع بين نباتتين عاليتين من نبات المروج بأوراق قائمة على حين أنه إذا نبت وحده هنالك نامت أوراقه الوردية الشكل على الأرض وبعض أنواع الحسكي والنبات المعروف بقدم الديك إذا نبت على الشاطئ الجاف يكون له أوراق ذات فلقتين فقط وإذا نبت في الماء نبت له من أحد جانبيه أوراق عائمة عريضة ذات فلقتين تطفو على سطح الماء ، وفي

جانبه الآخر أوراق دقيقة على شكل خيوط تحت الماء »

على هذه السنة تدرج نفس الطفل وتشق سفينته طريقها في الحياة لذلك كان لزاماً أن تعرف البيئة التي يلقى الطفل بين أناسها ، إذ كل شيء في الحياة يدع في نفسه أثراً مختلفاً قوة وضعفاً على حسب قوة مصدره غير أننا لا نستطيع أن ننتقي بيئه خيرة لا يزورها الفساد ، ولا تمر بها عواصف الشر ، وبخاصة المدن حيث يكثر الازدحام ويطغى سيل الحضارة : فالطفل في بيئته أمام عوامل لا تحصى ، كامنة له في كل مرصد ، مقتنة إياه

في كل مكان ، تدخل عينه فتقيدها ، وتنفتح في أسماعه قتملكها ، وتصل إلى قرارة نفسه فتأسرها وتغويها ، وتساور فؤاده مساورة السموم القاتلة ، لا يمتنع عنها بحيلة ، ولا يفر منها بوسيلة ، فهو مضطرب إلى أن يختلط بالتلמיד في مدرسته وبالناس في طريقه ، وأن ينظر ما يوضع على الجدران من « اعلانات » وصور ، إلى غير ذلك مما يقحم الطفل وجلات الشر ، ويحله ورطات الفساد ويجعل واجب المربى شاقا غير يسير ينحني عجزا أمام تلك القوة الهائلة قوة المخالطة « البيئة »

تنازع الوراثة والبيئة وأثر المربى : فالوراثة والبيئة اذا ذاك يتنازعان الطفل

بقوة خارجة على الجملة عن دائرة المربى ، إلا أنها إذا لحظنا أن المربى نفسه من ضمن البيئة التي لها تلك القوّة فإنه يستطيع بجانبها أن يفعل شيئاً في نفس الطفل ويؤثر فيها تأثيراً ما ، لذلك كان من الضروري انتقاء المربين واصطفاؤهم أخيراً ببررة صالحين ، لينقضوا مؤشرات البيئة الضارة غزلاً ، ويميتوا معاً عسى أن يظهر من ضروب الاستعداد السيئة أو يوجهوها وجهة صالحة ، وأن تقوم رقابتهم على دعائم من اليقظة الصادقة والاحساس الحى حتى يكونوا في التأثير أورى قدحاً ، وأعلى كعباً ، وأرجح وزناً ، وبذلك يصلحون أبواباً فتحاً إلى تهذيبه وأسباباً ذللاً إلى كماله

أثر الوالدين : لأنكرون بعد هذا متجانفين لغلو إذا قلنا : إن التبعة الكبرى

منصبة على الوالدين : لأنهما أكثر الناس اختلاطاً بالطفل ، وهو أخشع لهما ، وأعظم استكانة لأمرهما ، واستسلاماً لطاعتهما ، يهوى إليهما فؤاده وتسكن لجوارهما نفسه .

فعلى الوالدين والمربين أن يضعوا أمام عينيهما أنهم قدوة طيبة ، ومثل مشكور ، يحتذى بهم أبناءهم وأن يخلعوا اقناع الخسنة ، ويدرعوا لباس الكمال الذي يملأ القلوب جلاً ، والعيون جمالاً ، وأن يتنازلوا عن كثير مما يشتهون نفياً للذرية أن يراها الطفل ، وإبعاداً للنقيصة أن يدنو منها .

قال جيته (١) أكتب كتاب الألمان « من جد في إرشاد غيره إرشاداً حسناً فعليه أن يستعد لحرمان نفسه محاها » وقد سبقه إلى ذلك على كرم الله وجهه إذ يقول : « من نصب نفسه إماماً للناس فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، فعلم نفسه ومُؤَدِّبَها أحق بالاجلال من معلم الناس ومُؤَدِّبِهم ». وعلى الوالدين أن يحكما الصلة بينهما وبين الطفل ، ويفسحوا له الطريق إلى الجلوس أمامهما يحاورانه ويجادلانيه أطراف الحديث ، وفي تلك الفترة التي يأنس الطفل إليها ويشغف بها يقص على والدته مثلاماً فاجأها من الحوادث طوال يومه ، وما كان له من أثر بالغ في نفسه ، وإذا ذاك تستطيع الوالدة أن تميز الخبيث من الطيب فتتميّت الأولى وتقضى عليه ، وتحيي الثانية وتبارك فيه .

العوامل المؤثرة في الطفل : تستخلص من هذا أنه يعمل على تنمية الطفل

تنمية صالحة بأيدٍ متراوفة ، تتحازه عن كل أمر يكسر الفقرة ، ويوهى المنة ، ويدنيه إلى البهيمة ، إلى حيث ينشر الخلق القيم عليه جناحه ، ويسهل له جداول نعيمه ، يعمل على ذلك ثلاثة أمور :

(١) ولد « يوهان فولفجانج فون جيته » في مدينة (فرنكفورت على الماين) في أغسطس سنة ١٧٤٩ وكان أبوه مستشاراً ملكياً وأمه عظيمة الأخلاق وكان لها أكبر الأثر في نفسه ، قال : ورثت من أبي قوامي ، وعزيمة السير في الحياة ، ومن أجي الطبع المرح ، وهو القصص » وجونه هذا كان أشهر شعراء الألمان ، وأعظم كتاباتهم ، ومن كبار فلاسفيتهم ، وكان لرواياته الكثيرة أبلغ الأثر في الألمان من أشهرها : آلام فرتر ، وافجنيا ، وليلي ، والشقيقان ، وفاوست . وله كذلك كثير من القطع الشعرية والغنائية باللغة التأثير ، وقد قاتله نابليون سنة ١٨٠٨ وأبدى له عظيم إعجابه به ، وقد وصف نفسه بأنه طبيعة عبقرية متقدمة الشبان . وفي ٢٢ من مارس سنة ١٨٣٣ توفي جيته بعد أن رفع بجمالي فنه ورق شعره منزلة الآداب الألمانية إلى الجوزاء ، وبعد أن أثر في عقلية أمته أثراً لا يمحى

١ - الوراثة

٢ - المخالطة

٣ - المربون

تبدأ الثلاثة عملها من حين الولادة بدرجات مختلفات ، فقد ينشط أحدها ويتباطأ غيره ، ولهذا لا يحمل الوالدان المسؤولية وحدهما إذا نما الطفل نزاعاً إلى الشر كما لا ينتمي إلى المرضي وحده ما يحمل الطفل من استقامة محترمة ، وسلوك حازم ؛ لأن للرببي شريكتين لهما أثرهما : الوراثة والمخالطة .

مخالطة الاخيار ومحاباة الاشرار

ليس شيء من أخلاق الإنسان وعاداته ومعتقداته إلا وهو قابل للتغيير والتبديل ، كما هو مشاهد معلوم ، أما الأخلاق فيقع التغيير في بعضها بطيء وفي بعضها بسرعة تبعاً لقوة المؤثر وضعفه ، وأما العادات وكثير من المعتقدات فصائرية إلى الإنسان من مراولة العمل أو القول مرة بعد أخرى ، وبقاء آخر له في النفس ، يزداد ثباتاً فيها بازدياد تكرره ثم يستقر ، ويصبح عادة لازمة ، واعتقاداً راسخاً

وسبب هذا أن الأعصاب في الإنسان تتأثر بذلك العمل وتلك الفكر حتى أخذت شكلها خاصاً ، وكلما تكرر ذلك ازداد تأثير الأعصاب حتى يكون لتلك الأفعال فيها مجرى تجري فيه ، وتنجح إليه وينشأ من هذا أن يألف الإنسان الأفعال ، ويجد مباشرتها أمراً سهلاً عليه ، حتى لقد يفعلها بدون تفكير ، ولا معاناة مشقة ، ولا نظر إلى ما تفعله يداه أو وجده ، وتوافق أوضاعها أو اختلافها ؛ إذ كان الشأن في هذا كلامه الذي يحرى إلى المنحدرات فيشق لنفسه فيه وادياً ينحدر إليه يسهلة ، ويحرى فيه كلما تدفق من نحو سيل أو مطر .

ومما يوضح هذا أن القول يمر بسماعك ، والأمر تشهده وهو يخالف منك

دينك أو عادتك أو اعتقادك قترى من نفسك إنكارا له ، وثورة عليه فإذا تكرر ذلك فقد تألفه وتنجذب إليه ، وربما تفعله راضيا له ، مسرورا به ؛ إذ ثثيرنا مانزى إنسانا يحاكي آخر في قول أو فعل ، ازدراء به ومقتله ، ثم لا يلبث أن يدرج على ماحا كاه ويصبح من عاداته ، ولا سيما إذا وجد من يحيطون به من يستحسنون ذلك منه أو يطلبونه إليه للتسلية واللهو . وإذا وجدت العادة أو الاعتقاد ما يعارض الميل الذي من أجله نشأ فأنهما يضعفان في الإنسان وقد يزولان ، بتعاقبة المعاشرة وضعفها ومن أهم ما يعارض ذلك الميل المخالطة : إذ هي التي تغير في الإنسان كثيرا من أخلاقه وعاداته من حيث يدرى ولا يدرى ومن حيث يريد ولا يريد . وأثرها فيما لا يستطيع إنكاره منكر ؛ بل إنك لتتجدد أثرها في الجماد والحيوان وهو دون الإنسان قبولا للتأثير ، فالماء يطيب ريحه ، ويعذب في الفم مذاقه ، إذاجاور الأزهار ، وينبثت ريحه ويشتد غصنه إذاجاور الجيف ، والحسان الشroud إذا قرن بأخر ذلول صار ذلولا سهل القياد وإن العوامل التي تتخد في التربية لتجعل الشرير خيرا ، والفاسد صالحا : من وعد ووعيد ، وتحذير وترغيب ، وثواب وعقاب ؛ قد لا تأتى في الغالب على ما في نفس الإنسان ولا تنتقل به من حال إلى حال . أما المخالطة فأنها لا تحصل بدون أثر يكون لها أثر ظاهر في حال الإنسان الخلقيه والاعتقاديه والفكريه وكل أنواع التربية تعرض وتزول كالمدرسة والبيت إلا المخالطة فإنها تربية لا تنتقضى إلا بالموت ، فان حسنت أمرت ثمرا طيبا ، وإن ساءت كانت شرا أو بلاء .

اختيار المخالطه :

عن الباحثون وعلماء الأخلاق والدين والمشفون في كل أمة وعصر بوصف العشراء والخلطاء ، وأرسلوا القول في ذلك شعرا ونثرا ، ما شاءت لهم البلاغة ووحى البيان ؛ ولم تفرط الشريعة الإسلامية في شيء من ذلك ،

والاحاديث الواردة فيها أكثر من أن تعينا أذن واحدة، أو يلم بها قلب حافظ أو راوية.

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «مثـلـ الـجـلـيـسـ الصـالـحـ كـمـثـلـ الدـارـىـ إـنـ لـمـ يـجـدـكـ مـنـ عـطـرـهـ يـعـلـقـكـ مـنـ رـيـحـهـ وـمـثـلـ الـجـلـيـسـ السـوـهـ كـمـثـلـ الـقـيـنـ إـنـ لـمـ يـحـرـقـكـ بـشـرـهـ يـؤـذـكـ بـدـخـانـهـ» وقوله «مـنـ أـرـادـ اللـهـ بـخـيـرـ آـرـزـقـهـ خـلـيـلـاـ صـالـحاـ، إـنـ نـسـيـ ذـكـرـهـ، وـإـنـ ذـكـرـأـعـانـهـ»

ذلك لأن المخالطة أثراً بینا في تكوين أخلاق الإنسان، وفيما يصدر عنه من أفعال الخير والشر، وفيما يناله من سعادة وشقاء ونعمي الحياة وبؤسها، ولأن الإنسان موسوم بسمات من يخالطه ومنسوب إليه فعله قال عبد الله بن مسعود : (مامن شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب) وقال عدى بن زيد

عن المرء لسؤال وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصبح الأردى فتردى مع الردى لهذا ينبغي للإنسان أن يعرف فيمن يختارهم المخالطة ويصطفيهم لمعاشرته أموراً لا بد منها لتنستقيم الصحبة وتedom الألفة :

خلال الخليط :

فمن ذلك أن يكون العشير موفور العقل ، كامل التجربة لأن الأحمق لا تdom مودته ، ولا تطول عشرته ، وقد يصيب الإنسان بصره أكثر مما يصيه بخيه، وقد أبان القرآن الكريم عن هذا أوضح بيان ، قال تعالى : (وَيَوْمَ يَعْضُضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيِّلًا ، يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا لَقَدْ أَضْلَلَنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولاً) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البذاء لوثم ، وصحبة الأحمق شؤم و قال بعض الحكماء (عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق) وحكاية الدب و صاحبه في هذا الباب مشهورة معلومة

ومنها أن يكون ذا دين يقف به على الخير ويئاه عن الشر، لأن تازك الدين عدو نفسه؛ فكيف يكون صديق غيره، ولهذا قال بعض الحكماء: (اصطف من الاخوان ذات الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنه ردد لك عند حاجتك، ويد لك عند نائبك وأنس عند وحشتوك وزين عند عافيتك) ومنها أن يكون رضى الأخلاق، حميد الفعال، يؤثر الخير على الشر، ويفعله ويأمر به، فإن مخالطة سوء الخلق تكسب العداوة، وتفسد الأخلاق، ولا خير في مودة تحبب عداوة، وتورث صاحبها مذمة وملامة، وقال بعض العقلاة (مخالطة الأشرار على خطر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر؛ من سلم منه بيد نهمن التلف لم يسلم بقلبه من الخدر منه)

ومنها أن يكون ذا ميل إلى الصحبة، ورغبة في المعاشرة؛ فإن ذلك أو كد لها، وأمد لأسباب المصادفة، وأدعى إلى الاستفادة.

هل يكثر الإنسان من الاخوان والاصحاب؟

سؤال يتزدّر جوابه نفس كل انسان، فإذا ألقيت به على قوم انقسموا فيه ثلاث فرق: فرقه ترى الا كثار، وفرقه ترى الاقلال، وفرقه ترى الا يكون واحداً منها، ولا بد لمن يريد علم هذا أن يقف على رأي المتقدمين من علماء الأخلاق والدين، ومن بلوا الايام، وعركوا الحوادث، فعرفوا خيراً وشرها، فإن ذلك أدعى إلى اطمئنان النفس، وأهدى إلى سبل الخير

يرى بعض هؤلاء أن الاستكثار من الأصحاب ضرورة تدعو إليها حاجة الإنسان إلى المعاونة والمعاضدة وفي هذا قيل: (حلية المرء كثرة إخوانه) وقيل:

(المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه) وفي الأمثال: (يد واحدة لا تصفق) ويرى فريق آخر أن الاقلال منهم خير من الاكتثار، لأنه أخف مثونه وأيسر كلفة وأذهب للبغضة والتنافع الذي يحدث من الكثرة ولهذا قال الاسكندر: (المستكثار من الاخوان من غير اختيار كالمسنون من الحجارة، والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر) وقال عمرو بن العاص: (من كثر إخوانه كثر

غرماؤه) وقال إبراهيم بن العباس : (مثل الاخوان كالنار : قليلها متابع ، وكثيرها بوار) وقال ابن الرومي :

فلا تستكثرن من الصحاب
 يكون من الطعام أو الشراب
 يعاف وكم قليل مستطاب
 وتلقى الرى في النطف العذاب
 عدوك من صديقك مستفاد
 فان الداء أكثـر ماتراه
 ودع عنك الكثـير فكم كثـير
 فـها للحجـاج الملاح بـمرويات

وفريق ثالث يرى الخير في الوحدة ، والانصراف عن الناس جملة ، فأن
هذا أصون للدين ، وأحفظ لوقت ، وأضمن لراحة الإنسان وسلامته ، وأذهب
للعنة الذي يجده الإنسان عادة من تكلف ما يترضي به كل واحد من إخوانه
وخير الآراء ثانية ، وهو الأجرد بالتقدمه والأولى بالاتباع ، إذ لا إفراط
فيه ولا تفريط ، ولكن على الإنسان أن يتعرف فيما يختاره لصحبته ما تقدم
من الصفات والا يثق به قبل ابتلاعه ولا سما في هذا الزمان الذي كثر شره ،
وقل خيره ، وأتقن الناس فيه التصنع ولبس الرياء ، حتى أنه ليعجز أعقل
الناس وأكثرهم دهاء وحزمًا عن كشف ما انطوت عليه نفوسهم من خبث
وسوء نية ، وإن في الحوادث التي يسوقها الدهر كل يوم عظات بالغة لمن كان له
قلب أو ألق السمع وهو شهيد ،

آثار المخالطة الصالحة :

للمخالطة الصالحة تتأتي حسنة، إذ يستحبى الإنسان فى العالَمِ من إطهارِ عيوبه
أمام رفقائه والمتصلين به ، ولا سيما من عرَفُوا منهم بالترفع عن الدنيا ،
وفي هذا ما يبعده عن الشر ويدنيه من الحِيرَ ، كلاماً من على أخلاقه بمعاشرِهم .
ومن آثارها أن يذكره إخوانه بالخير فيفعله ، والشر فيجتنبه ، وأنه يكتسب
بصحيحتهم شرفاً ، ويجد منهم عوناً في الملمات ، وعضداً في النَّائبَاتِ
المخالطة عامل من عوامل التربية : - ومن أجل ذلك : يحب على الآباء

والمريين أن يعيروا المحافظة عن أياتهم كلها، لأن أثرها في التربية تقطع دونه جميع الأسباب، ولتحقيق الغرض الصالح منها يجب أن يمنع الأطفال من

مخالطة من سامت أخلاقهم ، ولو زمنا قليلا، وأن يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم ، ولا سيما التي يغشاها ذwo الدناءة ، والأخلاق السيئة ، وأن يختار لهم آباءهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا في بلد بعيد ناساً من عرفاً بكرم الأخلاق وصحة الآداب ، ليشرفوا عليهم ، وألا يتركوا لهم الحigel على الغارب في اختيار الأصدقاء والخلان ، فإن قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهם في الغالب إلى اختيار من يضرون ولا ينفعون ، ويفسدون ولا يصلحون

وقد أدرك الناس على اختلاف منازلهم ومنازعهم خطر المخالطة ، واتصال عدوها بالدين والأخلاق والعادات والمعتقدات، فاتتحى كل فريق ناحية في أسلوب معيشته، وسلك سبيلاً خاصة به، في ترتيبه وتعليمه وعاداته وآدابه، وأسلوبه في ما كله ومشربه وحديشه وملبسه، حتى في إشاراته وحركاته وسكناته ليتاز عن سواه. وقد سرى هذا التمييز في كل شيء تقريراً، فيث تلتفت لا تجد إلا ذلك: في قطر سكة الحديد ومركبات الكهرباء ومشارب القهوة والفنادق والمطاعم والملاهي دور التيشيل والمستشفيات والمصاح ومحال التجارة والمدارس التي هي أماكن تهذيب وتعليم، ترى أماكن للخاصة وأخرى للعامة، حتى تتجدد هنا في أرباب المهن والحرف والصناع: كالخياطين والنجارين والبناءين والمهندسين والأطباء والمدارء من جعلوا لهم جعلاً خاصاً صاروا بسببيه يختصون بطبقة من الناس دون طبقة.

خلاصة ينابيع الخلق

ما تقدم يتبيّن أن المؤثرات في تكوين الخلق ضربان: داخلة وخارجية: وأهم المؤثرات الداخلة ما يلي:

١ - الغرائز: وهي تبعث على العمل، وهو يكوت العادة، والعادات

أمهات الأخلاق

٢ - العادات: وهي كثيراً ما تكون قواعد لـ "خلق" وإن اعترفنا أن العادة

تكون من العمل سهل علينا أن نعرف أن من الناشئ تكرار أي عمل سيء يضمن لنا سلامته من العادات السيئة، ومتى سلم منها سلم من الأخلاق السيئة، ولكن علينا إذا منعنا ناشئًا عملاً سيئاً أن نستبدل به عملاً صالحًا نشغله به، ونحمله على مزاولته، حتى تكون عنده عادة صالحة يقوم عليها خلق صالح (العادة طبع ثان)

٣- الرغبات : وهي ميول النفس، وتعتبر من العوامل الفعالة في تكوين
الخلق ، لأن الرغبات أكبر دافع للعمل أو مانع منه، ولذا قال أحد الحكماء:
(نبني بما يرغب فيه الإنسان أنتئك بأخلاقه)
وأهم المؤثرات الخارجية :-
الوراثة . المنزل ، المدرسة . الأصدقاء . البيئة

الوراثة

الانسان خاضع لقانون الوراثة كالحيوان والنبات ، وقد أثبت العلماء صحة
هذا القانون بتجارب كثيرة لانخفي على المتأمل
ولا يقتصر تأثير الوراثة على حالات الانسان البدنية، بل يتعدى الى عقله
وأخلاقه، فالانسان يكاد يكون جسما وعقلا نتيجة لازمة ما كان عليه أسلافه
ينشأ الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها ينبت الشجر
نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا
ولقد كان العرب يؤمدون بتوارث الطبائع والعادات. كان لأبي اخزم الطائلي
ابن يقال له اخزم كان عاقا، فمات وترك بنين ، فوثبوا يوما على جدتهم أبي اخزم
فأدموه ، فقال :

إن بنى ضربوني بالدم شذوذة أعرفها من آخرزم
يعنى ان احفاده لطخوه بالدم وقد أشبعوا أباهم آخرزم في العقوق . وكذلك
كانوا يعترفون بالتوراث عن الأم ويظهر ذلك في قول شاعرهم :
إن الكريمة ينصر **الكرم** ابنها وابن اللئيمة للئام نصير

وقد أشار إلى ذلك النبي السّلام بقوله (تَخِيرُوا لِنِطَافِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَاسُ)
وفي الأمثال (اولد سر أبيه)

ويظهر تأثير الوراثة واضح في زمن الحمل إذ هو الزمن الذي يوضع فيه أساس
القوى الإنسانية ؛ فنابليون الذي طبقي شهرته الحربية الافق نقل المؤرخون عن
والدته أنها لما كانت حاملاً به رافق زوجها ماريا في الحروب من غير أن ترثى،
بل كان يلد لها من نظر الواقعية فظاهر على نابليون في صغره الميل إلى الحرب
وقد أثبت الأطباء أن انفعالات الحامل: من سرور وخوف وحزن وحب
وبغض وغيرها تؤثر في جنينها، وأوصوا بادخال السرور على الحامل، والعناية
بصحتها ، وترويح نفسها بالمناظر الجميلة، وبعد عن كل ما يثير انفعالاً سيئاً في نفسها
ونرى العامة يحكمون على أخلاق الناشئين والناشئات بما يحكمون به على

آباءهم وأمهاتهم ، وهذا تصديق منهم بتأثير الوراثة في الأخلاق
من أجل ذلك حرم كثيرون من الأمم الغربية الأذن بالزواج إلا بعد التأكد
من خلو الزوجين من الأمراض المعدية . وفي عام ١٩٢٩ . قررت
حكومة الاقندة بهم، وتصدر قانوناً بذلك محافظة على النسل، وقد أرسلت
وزارة الحقانية المنصور رقم ١ ١٩٢١ إلى المحاكم الشرعية بناءً على طلب
مصلحة الصحة القاضي بوجوب التشديد في الحصول من طالبي الزواج ذكرها
 وإناثاً على الإقرار الخاص بسلامتهم من الأمراض السرية، وقد أذاعت
جريدة الأهرام الاجراءات التي جرت بين مصلحة الصحة والحقانية في هذا
الشأن بعدها الصادر في ١٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٩

وكثير من المتعلمات فطن لقانون الوراثة، وعملن على غرس الأخلاق
المحيدة في نفوس أجيالهن وهم في طور التكوين باريادهن في أثناء الحمل إلى
الفضيلة ونفورهن من الرذيلة ، فإنه أطفالهن على ما شئن أن يكونوا عليه ،
وعلى ما اتخذن من الوسائل الموصولة إلى غرضهن .
ومهما كان الإنسان خاضعاً لقانون الوراثة ومهما كان إيماننا بهذا القانون

فلا يمكننا أن نقف جامدين أمام تأثير التهذيب والصقل . ومهمما كانت قابلية النفس البشرية للتأثير بالتهذيب، فليس في الامكان مقاومة ما مستحسن في النفس عن الوراثة والغرائز مقاومة تامة، فقد نرى بعض أبناء الصالحين صالحين كما نرى بعض أبناء الأشرار أخياراً.

المنزل

المنزل أول بيئة يعيش فيها الطفل ، وهو أقرب ما يكون للتهذيب
المنزل هو المدرسة الأولى التي يتأنب الطفل بادابها ويتعود عاداتها ،
ويقف على كثير من أفكارها وآرائها واعتقاداتها . فان كانت الأسرة التي
تسكن في المنزل شريقة تنسجم فيه الطفل نسجم الفضيلة ، وإلا انغمس في حماة
الرذيلة . ولانشك في أن البيئة التي عليها مدار تربية الطفل عندنا الآن موبوءة :
فالكذب والبذاءة والخرافات متفشية في الحال مروعة لا تتفق وتربية الأطفال
الذين نعدهم للحياة

والأسرة الشريفة والدينية سواء في تكوين الأخلاق وإن اختلف الآثاران ، غير أن الأسرة الدينية خير من بعض الوجوه من الأسرة المهملة لأن الدينية كثيرة ما تغرس في نفس الحدث مضاء العزيمة ليصل إلى غاية وضيعة . ولكن قد يدركه حسن الطالع ، فيغسل وزره بالتوبيه ويضرب في سبيل الفضيلة ، وحينئذ يجد ما نبت في نفسه من قوة العزيمة سلاحا نافعا له في الوصول إلى محسن الأعمال . أمامن نشأ في أسرة مهملة فإنه يقف أمام مصاعب الحياة مغلول اليدين يذهب مع كل خاطر ، ليس له رأى سديد ولا إرادة حازمة

وإذا عرف المربون قيمة هذه الغريرة واستثمروها، بأن حفظوا عيون أولادهم من أن تقع إلا على كل جيل ~~وآذانهم~~ من أن تسمع إلا كل قول حميد، وصانوهم، من مخالطة الخدم وغيرهم من ذوى النعائص، ومن غشيان مجالس الله والمحجون نشئوا نشأة حسنة. قال أحد فلاسفة اليونان : « أعط ابنك عبدك يريه يكرن لك بدل العبد عبدان »

وإذا أراد الوالدان مثلاً أن ينميا الاحساسات الطيبة في نفس الناشئ عرضوا عليه مواضع الشفقة على الإنسان والحيوان، ووجهاه إلى مواضع الرحمة ومساعدة الضعفاء، واشتركا معه في أعمال البر، وأبعداه عن كل ما ينفي هذا الشعور عنده. وبذلك يهدان له السبيل إلى أرقى الأخلاق وإن لم يحسن الآباء تربية أولادهم شبووا على الرذيلة، وضعف الرجال في إصلاحهم فان من شب على شيء شاب عليه

ان الغصون إذا قومتها اعتدت ولن يلين إذا قومته الخشب وأكبر جنائية يحييها الآباء على أولادهم سوء تربيتهم قال سبنسر : « لم يحمل الآباء شيئاً إلهم إنعم الفكر في تأديب أطفالهم ، وتعويذهم حميداً للحصول وجيل الفعال ، ولعلهم ظنوا الأمر هينا ، وحسبوا أنهم قادرون بلا فضول ولا بحث على أن يودعوا طبائع صبيانهم ماشاء وامن المناقب ، وجهلوا أن علم تهذيب النفس علم صعب المأخذ، عسر الملتمس، من جهل قواعده خاب في تأديب غلامه ، وبدهى أن من سار إلى الشيء من غير طريقه لا يصل ، ومن دخل الظلام بغیر سراج فقد ضل ». ويوخذ من كلام سبنسر أن علم النفس ضروري للأباء والأمهات، وبدونه لا يهتدون إلى الطريقة المثلث في تهذيب أبنائهم . ولتكون على يينة من خطأ الآباء في تربية أولادهم إذا جهلوا علم النفس ، أذ كراك حكاية يتبيّن لك منها كيف يسيرون في طريقهم على غير هدى :

أراد والد أن يعلم ابنه الصدق وأن يحبه إليه ليشب صادقاً فأخذ يذكر له جملة مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف خاصاً بفضيلة الصدق وجراء الصادقين ، وبينما هو يسدي إليه من عبارات النصح والوعظ ما هو

كفيل بتبنيت هذه الفضيلة في نفسه إذ بقادم دق على الباب، فهضم الولد ليفتح له ، فأستمهله الوالد وأطل من النافذة، فرأه زائرا لا يود مقابلته فأمر ابنه أن يقول له: إن والدى ياسيدى غير موجود هنا . فمن الخطأ نسبة الشر إلى الأطفال و تبرئ آباءهم منه، فما الأطفال إلا صورة آباءهم . وما أصدق قول سبنسير في ذلك: (ولقد نرى الناس ينسبون المفروقات والعيوب إلى الأطفال و يخلون الآباء منها، شأنهم مع الحكومة إذ يرثون الولاية من كل عيب و ينسبون إلى الرعية كل نقص ، والحقيقة أن سوء معاملة الآباء أصل أكثر ما ينسب إلى عناد الأطفال و تشبيهم)

وإذا انتقل النشء من المنزل إلى المدرسة شيد المدرسون **أخلاقيهم** على الأساس الذي وضع في المنزل : فان كان وطيدا زادته المدرسة توطيدها، وإن كان واهيا صعب إصلاحه على المدرسة ، وهي مهما بذلت من المجهود في تقويمه فلا بد أن يبقى للتربيه المزنلية أثر ظاهر أو خفي في نفوس النشء ، ولذا كان السلف الصالح يمتنع من تعليم الأرذال والوضعاء ما يزيد على قدر حاجتهم، حذرًا مما يترب على قدر الزيادة من الضرر العام ، إذ قد يخذون العلم آلة الشرور . وبالاجمال ، فانا لا ننتظر من وراء التربية المزنلية نتيجة خلقية سارة إلا إذا كان الآباء والأمهات على خلق عظيم

المدرسة

ليست مهمة المدرسة تلقين المعلومات فحسب ، بل هي عامل كبير يلى المنزل في تكوين **الأخلاق** ، ففيها يقف تيار أسرة الطفل، ويشعر بواجبات لم يشعر بها من قبل ، وفيها يجد أفرادا متزوجين لهم وينتهي صلة الصداقه بالمشاركة والمعاونة ، وفيها يجد سلطنة تحاسبه على زلات و أفعاله بدون محاباة، فيمرن على طاعة أولى الأمر . مهمة المدرسة إعداد النشء لأن يكونوا رجالاً نافعين وأمهات صالحت ، ولا غرو فقد عزا بسمارك العظيم انتصار الألمان في حرب السبعين إلى المدرسة ولا يمكن أن تقوم المدرسة بهذا المهم العظيم إلا إذا كان القائمون بأمرها

من تربوا بتربيه حسنة، عاملين بأوامرهم منتهين عن نواهيهم، قدوة صالحة في أقوالهم وأفعالهم ، عاملين بأحوال النفوس وغراائزها واستئثارها ، فلا يكفي أن يكونوا من ذوى الأخلاق الكريمة فقط ، بل يجب أن يكونوا قادرين على بث هذه الأخلاق في نفوس من وكل إليهم أمر تعليمهم

ولاشك أن مازاها من النقص في المتعلمين لا يجبر إلا باصلاح المتعلمين ، فالمعلم الذى يملى الحقائق إملاء ولا يعني باشراك تلاميذه معه في تعليم أنفسهم بأنفسهم (التعليم الذانى) نرى تلاميذه يخرجون من المدرسة قليل الثقة بأنفسهم ، فاقدى الهمة ، ضعاف العزائم ، مغلق الحواس ، قليلي الملاحظة والخبرة . ولعل ذلك من أكبر أسباب الزهد في العلم بعد الخروج من المدرسة ، والتقادع وتهيب الاقدام على الأعمال ، وتلك من أضر الأخلاق التي تعيق رق الأمم . فييجدر بالمعلم أن يحمل تلاميذه على استنباط كل ما يمكن من الحقائق ليرى فيهم خلق الاعتماد على النفس ، وهو من أنفع الأخلاق وأعنوانها على النجاح

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل والمعلم الذى يرهق تلاميذه بالمعلومات يقضى عليهم بالخنول فيصل بهم إلى عكس المطلوب ، ألم تر أن الحرص على أن يسرع النبات في النمو بتسميده بكمية فوق حاجته يحرقه السباد ويفسده ، وأن الحرص على سرعة الشفاء بمضاعفة الدواء يؤخر الشفاء . وكذلك حشو الذهن بالمعلومات قبل استعداد النشء لها يفضي إلى الانحطاط العقلى

والمعلم الذى يبخس زملاءه حقهم ، ويحبط من أقدارهم أو أقدار العلوم التي يدرسونها أمام تلاميذه ، يبث فيهم أخلاقاً ذميمة . فيجب أن يسود بين القائمين بالتعليم الواقع والاحترام والتعاون على إنهاض تلاميذهم ، فإن أقل خلاف أو تخاذل يقوم بينهم يسرى منهم إلى تلاميذهم ويؤخر تقدم المدرسة العلمي والخلقى .

وإذا عاملت المدرسة تلاميذها بالعدل فإنهم يتخلقون به وينقدسونه وتبقي آثاره ظاهرة فيهم وهم كبار .

ومن الطرق المثلث في تغيير أخلاق الطائفة الفاسدة بالمدرسة ألا نزدريها أو نحط من شأنها : بل علينا أن نغرس في نفوس هذه الطائفة أخلاقاً تناقض أخلاقها، وتعهد بها بالتنمية حتى يموت ما كان فيها من الأخلاق السيئة ، ويحيى ماغرسناه من الأخلاق الحميدة . وإذا لم تجده طرقاً لاصلاح عمدنا إلى بترهذا العضو من جسم المدرسة حتى لا يعود غيره، ومدرسة الحياة كفيلة باصلاحه أو تحطيمه .

وجملة القول إن وسائل تربية الخلق في المدرسة ما يأتى :

- (١) الدروس الدينية والأدية (٢) معالجة الأمراض الخلقية ووصف الدواء الناتج لها عند المناسبات وما أكثرها في اليوم المدرسي
 - (٣) النظام المدرسي فيجب أن تبين للתלמיד فائدته على التدرج حتى ينطبع في نفوسهم فيقوموا به طائعين مختارين
 - (٤) مشاركة المدرس التلاميذ في شعورهم ودرس أمر جتهم الخاصة فيظهر الشفقة لسى الحظ ، والانصاف للضيق
 - (٥) تربية العادات الأدية في الأطفال كالطاعة بوالتبكير، والمواضبة، ومعرفة نتيجة العمل قبل الشروع فيه ، فإن تكرار العمل يجعله مأولاً فاسهل المزاولة فيصبح عادة ثم خلقاً
 - (٦) القدوة الصالحة إذ الطبع يسرق
 - (٧) الألعاب النظمية فلما حظهم المدرس في أثناء قيامهم بها .
 - (٨) محاربة ميل التلاميذ إلى مخالفه القانون
 - (٩) الشعور بالواجب فإنه يبعث في نفس صاحبه سروراً من عمل الخير وألما من عمل الشر
 - (١٠) وضع الثواب والعقاب في موضعهما بأن يكون العرض من الثواب التشجيع على الأخلاق الطيبة، والمقصود من العقاب تجنب السوء منها .
- وجملة القول إن وسائل تكوين الأخلاق في المدرسة تكون بغرس الميل

الصالحة في الذهن وتجيئ النفس إليها، ويجب أن يتعاون البيت والمدرسة على نشأة الطفل وتهذيبه ،

الأصدقاء

لابنsgي اختيار الصديق الابعد اختباره وتجربته ، ويجب أن يكون من بيت طيب منظم، متعلماً بكريم الخصال ، متمسكاً بجميل الفعال ، له عقل ودين وأدب ، لأن الإنسان صورة من صديقه يحاكيه في زيه وأخلاقه وآدابه ، فكم من جبان القلب تعلم الشجاعة والاقدام من معاشرة الشجعان ، وكم من بخيلاً أصبح كريماً بمخالطة الكرماء ، وكثير من الناجين له عقل وافر ودين وأدب ، وله همة عالية يحب الرفعة والمعالي ، فعاشرتهم لها أثرها ولا تشعر الصدقة إلا إذا كان بين الصديقين شعور متبادل وطبع متقابلة وميل متناسبة . قال حكيم : (نبني عنمن تصاحب أبنائك من أنت)

وقال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى وكثير من الناجين ينسبون نبوغهم إلى أنهم وفقوا إلى اختيار صاحب أو أصحاب أثروا فيهم أثراً صالحاً، ونبهوا فيهم قوى كانت خاملة وللصديق حقوق أدهمها :

- ١ — البحث عن حاجة الصديق وقضاءها .
 - ٢ — مشاركته في السراء والضراء .
 - ٣ — الدفاع عنه حاضراً أو غائباً .
 - ٤ — شكره على حسن صنيعه والتودد إليه بجميل الكلام .
 - ٥ — المحافظة على أسراره وعدم التكبر عليه ، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وأن يخلق نفسه بخلق حسن .
- ولترية الصداقة وسائل :

١ - المنزل . على الآباء أن يعشوا الألفة بين الأبناء حتى لا يظلم أحدهم الآخر
 ٢ - المدرسة . فعلى المدرسین أن يعودوا الطلبة حسن المعاشرة والكرم
 والمساعدة : لأن المال يولد الألفة ويعث على الحبة . قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) أي يتوادون ويتخابون
 ويحبهم الله . وقال عليه الصلاة والسلام « عليكم بأخوان الصدق فانهم زينة في
 الرخاء وعصمة في البلاء »

طريقة دين الاسلام

أمثل طريق لتكوين خلق الانسان

سلك الاسلام في تكوين خلق بني الانسان مسلكا شملهم من جميع
 نواحיהם ، فاتخذ من الوسائل أوفاها وأقربها ، ومن النزاع أبليها وأنجعها
 (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِتِي هِيَ أَفَوَّمْ)
 وإليك البيان :

الذرية الأولى

تأديبه في مأكله ومشربه

إن من أهم الأمور وآكدها الاعتناء بتربية النشء الصغار ، وتعويذهن
 التخلق بالكمال في حال نشأتهم ، لأن الصبي عند ما يولد يكون ساذجا خاليامن
 كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، وما يقال إلى كل ما يعمال به
 إليه ، فان عود الخير وعمله نشا عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في
 ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شق
 و وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والمتولى أمره ، انظر قوله تعالى:
 (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِنِيكُمْ نَارًا)

وإذا كان الأَب يصونه عن نار الدنيا فلأنه يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويعمله مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات . وإذا إن أول ما يغلب عليه شره الطعام وجب على المربى أن يؤدبه فيه ، حتى لا يكثر من الطعام ، ولا يسرف فيه ، فإن الله سبحانه يبغض من يفعل ذلك ، وإن يصبح عنده كثرة الأَكل بتشهيه كل من يكتثر الأَكل بالبهائم ، ويذم بين يديه كل من يكتثر الأَكل من أمثاله ، وألا يطعنه إلا حلال طيبا طاهرا من ربا وأغضاب أوسرقه ، ويبيّن له الحلال منه وطرق تحصيله ، والحرام ويساعده عنه ، ويبيّن له الموارض التي أباح الله الأَكل منها من بيوت أقاربه : كأبيه وأمه وأخيه وأخته وعمه وعمته وخاله وخالتة ، أو صديقه . ويبيّن له آداب الأَكل منفرداً أو مع غيره ، وقبل الأَكل وبعده .

وقد بين الله جل شأنه هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله . فقال تبارك اسمه في النهي عن كثرة الأَكل والشرب ، والاسراف فيما وبغضه لذلك (كلوا وأشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) تأرشدنا إلى ما علينا من الطب والحكمة ، وهدانا إليه ، مما تصح به أجسادنا وقوى به أجسامنا ، وتطيب به معيشتنا ، وتهنأ به حياتنا من عدم الافراط في الأَكل والشرب والاسراف فيما ، لأن كثرة الأَكل والشرب تفسد المعدة ، وتضعف الجسم ، وبذلك يضعف الفكر ، ويحمد الذهن ، وينحط الادراك . وإذا حجب القلب عن الادراك ، ومنع الذهن عن الحركة في المعقولات ، خسر صاحبه بباباً كبيراً من العبادات ، لأن المقصود من العبادات إنما هو الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصر بحقائق الحق ، وكثرة الأَكل كما علمت مانعة منه . ولهذا قال لقمان لابنه « وإذا امتلأت المعدة نامت الفكر وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » وقد بينت السنة حد السرف المنهى عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من السرِف أن تأكل كلَّ ما أشتَهيتَ » كما بينت القدر اللازم والمقدار الواجب استهلاكه منهما فقد قال صلى الله

عليه وسلم : « ماماً ابْنَ آدَمَ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ . حَسْبُ ابْنَ آدَمَ لِقَيْمَاتٍ يَقْمِنُ صَلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعْلَأَ لَا مَحَالَةَ ، قَتَلَ ثُلَثٌ لَطَعَامِهِ ، وَثُلَثٌ لَشَرَابِهِ ، وَثُلَثٌ لَنَفْسِهِ » هذا وبعد أن نهى جل شأنه عن الاسراف في الأكل والشرب، أخذ يتوعد ويهدد من خالف أمر الله فأسرف فيها، ولم يقتصر على استعمال القدر الواجب استعماله منها فقال : « إِنَّه لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » أى يبغضهم، وناهيك بغضب الله تعالى وعدم رضاه فإنه داعية للهلاك، وسبب كل المصائب، وأى عاقل يحرؤ على أن يغضب الله تعالى في مقابلة مرضاه نفسه باتباعها في شهوته هي سبب هلاكه، وداعية لأسقامه وآلامه ؟

الذرية الثانية

تأديبه في حدشه

إن أعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مئونة في تحريكه، ولذا ترى أغلب الخلق قد تساهل في الاحتراز عن آفاته وغوايده، والحدر من مصايده وحبائله، فأوردهم المالك، وجرّ بهم إلى المصائب. وما كبر الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم. فاللسان خطره عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالجامـه براجـمـ الشرع، ووقفـ صاحـبه عند الحدود والأـدـابـ التي أدـبـهـاـ الشـرـعـ، وعلـمـهـ إـيـاهـاـ فيـ مـحـادـثـاتـهـ وـمـخـاطـبـاتـهـ، فـلـاـ يـطـلـقـهـ إـلـاـ فـيـمـاـ يـنـفعـهـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ، وـيـكـفـهـ عـنـ كـلـ مـاـ يـخـشـيـ غـائـلـتـهـ فـيـ عـاجـلـهـ وـآجـلـهـ، وـذـلـكـ بـأـنـ يـعـقـلـهـ إـلـاـ عـنـ حـقـ يـوـضـحـهـ، أـوـ باـطـلـ يـدـحـضـهـ، أـوـ حـكـمـةـ يـنـشـرـهـاـ، أـوـ نـعـمـةـ يـذـكـرـهـاـ، وـلـاـ يـتـكـلـمـ بـهـ إـلـاـ يـقـدـرـ الـضـرـورةـ وـالـحـاجـةـ، وـلـاـ يـقـتـصـرـ فـيـ التـكـلـمـ بـهـ عـلـىـ مـاـ يـقـيمـ حـجـجـهـ،

﴿ ٨ - الخلق الكامل ﴾

ويُبلغ حاجته ، وألا يغالب أحداً على كلامه ، وإذا سُئلَ غيره فلا يحيي عنده ، وإذا حدث بحديث فلا ينزع عنه ، ولا يقتصر عليه فيه ، ولا يرى أنه عالم به ، وأن يكلم كل إنسان بما يليق ، فلا يخاطب السوقه بكلام الملوك ، ولا الملوك بكلام السوقه ، وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام ، فان مالا داعي له هذيان ، وأن يختب في حادثه ثلاثة أشياء ، هي أعظم الأشياء خطرًا على الإنسان وأبغضها الله ، وأقربها عند الناس ، وهي : الكذب ، والغيبة ، والنفيمة ، وألا يتتجاوز في مدح ، ولا يسرف في ذم ، لأن السلامة من الكذب في المدح والذم متعددة ، وألا يتكلم إلا فيما يعنيه ، وأن يضع الكلام في موضعه ، لأن لكل مقام مقالاً ، وأن يختب في حديثه كل ما يقدر مخاطبه ، وألا يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه ؛ فان ذلك كله مما ندب إليه الشرع ، وسلم به سليم الطبع .

فإن لاحظ المتكلم في حديثه هذه الاعتبارات السابقة ، وألزم نفسه رعايتها في كل أحواله ، كان من كملت أخلاقه ، وعظم قدره ، واستوى عقله ، فان عقل المرء مخبأ تحت لسانه ، بمصدق قول على " كرم الله وجهه : (لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه)

تأمل قوله جل شأنه في الملاطفة في القول ، والمجامعة في الحديث ، ومجانية الحشوته فيه : « وقل لِعَبْدِي يَقُولُوا إِنَّ هَذِهِ أَحْسَنَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلنَّاسِ عَدُوًّا مُبِينًا) فَأَرْشَدَنَا إِلَى حَسْنِ الْأَدْبِ فِي الْمُحَادَثَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ .

فقد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطبائهم ومحاوراتهم ومحادثتهم : الكلمة الطيبة ، وهي الكلام الحسن الذي لا خشونته فيه ، فانهم إن لم يفعلوا نزع الشيطان بينهم ، وأفق بينهم العداوة والبغضاء ، لأن العدو المبين للإنسان يتربص به الدوائر ، ويترقب له

الفرص في حصول الشحنة بين بعض أفراده.

فالعقل من لم يجعل للشيطان حظاً من قلبه ، حتى يُملّكه من غرضه ، وينيله أمنيته ، ويتحقق له رغبته ، وإلا كان قد أسلم نفسه لعدوه يفعل فيها كيف يشاء ، وهو لعمري فعل غير حكيم .

وقال تعالى في النهي عن التكلم فيما لا يعني ، والسؤال عما لا يعود على السائل منه أدنى فائدة ، بل ربما ساءه وأضر به : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءِ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلَ لَكُمْ عَفَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » فأنشدت الآية الكريمة إلى بيان تأديب الله تعالى عباده المؤمنين ، وتعليمهم الأدب معه ومع رسوله صلى الله عليه وسلم وقت التشريع ، إذهاهم عن أن يسألوا عن وجوه ما لم يحب أو حرمه مالم يحر من التكاليف التي تشتهي نفوسيم الوقوف عليها ، ولم ترد على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم لو سألوا عنها لكان سؤالهم داعية إلى مشقتهم بتكليفهم مالا يطيقون ، مما يضعفون عن القيام به فيحل بهم غضب الله ، وهذا ما يفيد قوله صلى الله عليه وسلم لعكاشه بن محسن ، أو سراقة بن مالك ، حين سأله عن وجوب الحج في كل عام : (ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكتفترتم . فاتركوني ماتركتكم ، فاما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على انيائهم . اذا أمرتكم بأمر نفذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) .

فأدرب المرأة بالنسبة لله سبحانه وتعالي هو أن يسكن عما ترك الله ذكره ، لأنه جل شأنه هو العالم بالصالح والمحيط علمه بكل شيء ، ولو علم أن في ذكر هذه الأشياء خيراً كثيراً الذكرها

وقال جل ثناؤه في الحث على التكلم مع الناس بالحسنى ، واللين والرفق ،

وتجانبة الفظاظة في القول والغلظة في الحديث ، آخذا العهود والمواثيق من بني إسراءيل على ذلك : « وَإِذْ أَخْذَنَا مِيشَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَا » فأفادت الآية الكريمة بيان ما أمر الله به بنى إسراءيل ، وأوجب عليهم أن يؤدونه من الحقوق والآداب نحوه جل شأنه ، ونحو عباده ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك ؛ فأعظم هذه الحقوق وأولاها بالرعاية أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، لأنه هو الخالق الرازق المنعم المفضل على خلقه في جميع الأوقات والحالات ، فهو المستحق أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته ثم يليه حق الوالدين وهو برهما وحسن معاشرتهما والتواضع لهما والرحمة بهما ، والنزول عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ، ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه ولا يؤذيهما ، وإن كان على غير دينه . ولعناية الله تعالى ببر الوالدين ، وأداء ما يجب لهما من الحقوق قرن ذلك بأعظم الأشياء لديه وهو عبادته وحده لاشريك له ، وذلك في غير موضع من القرآن ف منه قوله تعالى : « أَن اشْكُرْنِي وَلِوَالَّدَيْكَ إِلَى الْمُصِيرِ » وقوله « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَاءِيَاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » إلى غير ذلك من الآيات .

ثم من بعده حق اليتامي وهم الذين مات آباءهم وهم صغار ؛ وحقهم أن يتولى تربيتهم ، ويحسن تأديتهم ، ويكفل مصالحهم ، وييسّر في صالحهم ، وبالجملة يجلب لهم كل خير ، ويدفع عنهم كل شر وضير .

ثم من بعده حق المساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يقوم بكفایتهم . وحقهم أن يقوم بمساعدتهم بما تهم به كفایتهم وتزول به ضرورتهم ، ويكفيهم مسئوله ذلـ السؤال ، ولا يلجهـهم إلى تكـفـ الناس ، ثم بعدـ أنـ أمرـهمـ جـلـ شـأنـهـ بالـاحـسانـ بالـفـعلـ علىـ الـوالـدـيـنـ وـالـأـقـرـيـنـ وـالـيـتـامـىـ وـالـمـسـاكـينـ وـأـخـذـ عـلـيـهـمـ العـهـودـ وـالـموـاثـيقـ بذلكـ أمرـهمـ بالـاحـسانـ بالـقـولـ معـ سـائـرـ النـاسـ ، ليـجـمعـ بـيـنـ طـرـفـيـ الـاحـسانـ الفـعـلـيـ وـالـقـولـيـ فـقـالـ : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَا » أـىـ كـلـمـوـهـمـ كـلـامـطـيـاـعـنـدـ مـحـادـثـكـ

لهم ، ومخاطبتك إياهم ولنعوا لهم جانبا ، وليكن حديثكم معهم هينا لينا وسطا
ليس بالغليظ المرتفع فيموج ، ولا بالمنخفض بحيث يكلف المستمع طلب إعادته ،
ويدخل في ذلك كل حسن من القول ، سواء أكان أمراً معروفاً أم نهياً عن
منكر . وقال تعالى في الحث على خفض الصوت عند المحادثة : (وَاغْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنَّ أَنْسَكَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (وقال تعالى : (وَلَا تُطْعِنْ كُلَّ
حَلَافٍ مَهِينٍ هَمَازٍ مَشَاءٍ بِنَمَيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدِلٌ أَثْيَمٌ) (في بين حرم صحبة من
لأخلاق لهم من الناس ، ومجانبة المجالسة والمجادلة معهم ، وعدم طاعتهم في كل
ما يقولون بقوله : (وَلَا تُطْعِنْ كُلَّ حَلَافٍ مَهِينٍ هَمَازٍ مَشَاءٍ بِنَمَيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ
مُعْتَدِلٌ أَثْيَمٌ) فهذه سبعة أوصاف كلها مثالب ومعايب ، نهى الله تعالى نبيه صلى الله
عليه وسلم عن طاعة المتصفين بها وهو تعلم لنا ، وإرشاد لما يجب أن تتحقق
به من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة ، وتركه من الأخلاق الفاسدة
والصفات الكاسدة

ووجه النهي والله أعلم أن الخلاف وهو كثير الخلف سواء في الحق أو في
الباطل - قليلاً يتحرى الصدق في أيمانه ، فهو عرضة على الدوام لل欺كذب والخطأ
فيها ، فضلاً عما من الجراءة على الله تعالى وعلى اسمائه ، ومثل هذا يجب مجانبته
وتحريم مخالفته، ولذا جعله جل شأنه فاتحة المطالب ومقدمة المعايب . وإن طاعة
المهين وهو حقير الرأي والتدبر - ربما أورده المهالك وجرت عليه أخبار
المسالك ، لأن الله يريد أن ينفع فيضر ، فطاعة مثل هذا لا نتيجة لها سوى الضرر .
إن الهمز والعياب الطعان لا تومن غوائله فهو اليوم له ، وفي غد
عليه فضلاً عن أنه بطاعته يعد شريكاً له في هذه المنقصة ، وتلك الرذيلة ،
لأنه لا يعييغ غيره ولا يطعن عليه إلا لزمانة في مرؤته ، وخسفة في أصله ، ولو لم
في طبعه .

وإن المشاء بالنعيم هو النقال للحديث من قوم إلى آخرين ليسددهم
لامهم له إلا الإيقاعُ بين الناس والافساد بينهم ، وإلقاء بذور الشقاوة والخصومات
فيما بينهم ، وأيغار الصدور وتوليد الشرور ، ومثل هذا يجب مخالفته وتحريم

طاعته وتعاف مجالسته ، لأن صحبته غَرَر ، وطاعته ضرر ، ومجالسته خطر ، فكثيراً ما هلك وأهلك ، وأراق الدماء وسفك ، وما حمد أيمان سلك . وإن المنان للخير وهو البخيل الممسك يمنع أحوج ما يكون اليه صاحبه ، ومثل هذا لا خير في صحبته وطاعته . وإن المعتدى وهو الظالم لا يؤمن شره ولا يؤمل خيره ، فهو أولى بالاجتناب ، وأحرى بنبذ طاعته سداً للباب . وإن الأئمَّةُ وهو كثيرون الأئمَّةُ والمعصية لم يبال المجاهرة بمعصيته خالقه ولم يخشن من جلاله وعظمته فلا يبال أن يجاهر صاحبها بأذنته ، وينبذه بعذاته ، ومثل هذا تنبذ طاعته وتتجتنب مخاطبته .

وقال في النهي عن الكذب في القول وقت المجادلة : (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) فيبين قبح الكذب وذمَّه فأعلمه، وذلك بما أخبر الله تعالى به عن الكاذبين من عدم الفلاح والنجاح ، وكفى بأى صفة ذماً أن تكون نتيجتها عدم الفلاح والنجاح .

الذرية الثالثة

تأديبه في مجالسته

من خلق الاسلام أن يوسع المرء جليسه إذا أقبل عليه ، ولا يضيق عليه ، وأن يتلزم معه الأدب والسكنة والوقار ، إذا كان أكبر منه سناً أو علمًا ، وبخاصة إذا كان أباً أو أستاذه ، وأن يرحب به ويقبل عليه إذا حدثه ولا يضع رجلاً فوق أخرى بحضوره من هو أكبر منه ، إن كان ذلك يغضبه ، ولا يصدق ولا يمتحن إلا في منديل ، مواريأ وجهه عن جليسه ، وإذا شاء بفلا يصح الت Shawab بصوت بل يضع يده على فمه ، فإن مخالفته ذلك مما يستقدره الناس قال الله تعالى مشيراً إلى بعض هذه الآداب : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّمُوا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْهُوا إِلَيْهِ الْمُسَاجِدَ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ اشْرُرُوا فَانْشُرُوا وَإِرْفَعُوا إِلَهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

وَاللَّهُ يُمَكِّنُ مَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ^٢) فَبَيْنَ مَا أَدْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمْرُهُمْ بِهِ مِنْ حَسْنَةِ
الْمُعْامَلَةِ وَالْمُجَامِلَةِ وَرِعَايَةِ الْأَدْبِ فِي حَقِّ بَعْضِهِمْ بَعْضًا : فَإِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَ جَمَاعَةً
فِي مَجْلِسٍ وَقَدِمَ عَلَيْهِمْ آخَرُ أَوْ جَمَاعَةً أُخْرَى - فَعَلِيُّ الْجَالِسِينَ أَنْ يُوَسِّعُوا الْمُقَادِمِينَ
مُسْرِعِينَ فِي ذَلِكَ سَوَاءً أَكَانَ الْمَجْلِسُ مَجْلِسًا ذَكْرَ أَمْ تَعْلِيمَ أَمْ صَلَاتَةَ جَمَاعَةَ أَمْ جَمَاعَةَ
أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ بَحْرِ الْخَيْرِ ، لَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ سَبِيلًا لِالتَّوَادِ وَالْتَّوَافِقِ وَالْتَّحَابِ
وَنَبْذِ التَّبَاغْضِ وَالْتَّحَاسِدِ، وَهَذَا مَا أَفَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ)

وَأَمَّا القيام منه للقادم فقد جوزه بعض العلماء إذا كان لعظمته قوله عليه الصلاة والسلام : (قَوْمُوا لِسِيدِكُمْ) ، وذلك ليكون أنقذ لحكمه ، وأدعى لتوقيره وتمثل عظمته في قلوبهم . وفي غير ذلك لا يجوز فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يقومون للنبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم عليهم ، ولم يكن أحد أحب إليهم ، ولا أمكن هيبة في قلوبهم منه وذلك لما كانوا يعلمون من كراحته لذلك أما القادم نفسه فليس له أن يقيم أحدا من مجلسه ليجلس مكانه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ
مِجْلِسِهِ ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا)

ولما كان الغرض من التوسيعة في المجلس للقادم غرس المودة والمحبة في قلوب المؤمنين، ولا يكون ذلك إلا حيث كانت التوسيعة مصحوبة بشيء من الحفاوة بالقادم والاحتفال بأمره والاعتناء بشأنه . ومن ذلك أن ينهض مسرعا في التوسيعة، فلما كان الغرض من التوسيعة ذلك حتى جل شأنه على النهوض بسرعة للتتوسيعة في المجلس للقادم فقال: (إِذَا قِيلَ ائْشُرُوا فَاقْائِشُرُوا يَرْفَعُ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ يُمَكِّنُ مَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ^٣)
أى وإذا قيل لكم انهضوا للتتوسيعة في المجلس للقادمين عليكم فانهضوا وأسرعوا ولا تتباطوا فانكم إن فعلتم ذلك يرفع الله الذين آمنوا منكم في الدنيا والآخرة درجات عظيمة جزاء امتحانهم لأمر الله تعالى في قيامهم من

ب مجالسهم ، وتوسيعهم لاخوانهم ، ويرفع الله الذين أتوا العلم منهم خاصة درجات أعظم وأرفع ، لأنهم إنما يفعلون ما يؤمرون به عن يقنة وقوة يقين وإنما خص جل شأنه أولى العلم مع دخولهم في عموم الذين آمنوا ، لأنه لما علم جل شأنه أن أهل العلم بمكانة بها يستوجبون عند أنفسهم وعنده الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ماههم من الرفعة في المجالس ، تواضعا لله عز وجل . وفي الآية مما يدل على فضل العلم والعلماء على غيرهم مالا يخفى .

وإن لم تفعلوه بأن كرهتم أن تتأدبوا بآداب الله ، واستعظامتم أن توسعوا مجالسكم للقادمين عليكم حسبما أمركم ربكم فإن الله بما تعملون خبير ، لا تخفي عليه خافية من أعمالكم من خير أو شر ، فيجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا .

ومما جاء في آداب المجالسة قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجِي رَجُلٌ أَنْ دُونَ الْآخَرَ ، حَتَّى تَحْتَلُّوا بِالنَّاسِ أَجْلَى إِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ » وال الحديث صحيح في أن التسار بين الاثنين دون الآخر منه عنه ، لأنه يدخل على قلبه الوحشة والريبة فيحزن ويتألم ، ومن هذا القبيل أن يتحدث الاثنين جحرة بلغة يجهلها الثالث ، مع اشتراكهم جميعا في معرفة لغة أخرى .

الذرية الرابعة

تأديب جوارحه ومشاعره

قصد الاسلام أن يجعل من الانسان في ذاته مثلا صالحا ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا يقع منه ما يخل بالمرودة أو يقلل من قيمته أو يحط من قدره . فلا تلقاه إلا محمود الخصال ، ولا تراه إلا شريف الشسائل جميل الخلال : إن نطق صدق ، وإن وعد وفي وحقق ، وإن ائتنم لم يخن ، وإن تمكن من فعل محروم عف وكف ، وإن رأى منكرًا غيره ، وإن تكلم غض من صوته ، وإن مشى لم يختل في مشيته ، وإن رأى كبيرا وقره ، وإن

مر بـالـقول أو الفـعل تجنبـه وإن لم يـقدر على دفعـه . وهـكذا من كل خـصلة حـميدة وصـفة جـميلة .

من أجل ذلك سـلك به في التـأديب الـطرق الآتـية :

الأولـي : غـض البـصر وحـفظ الفـرج وعـدم التـبرـج وعـدم فعل أـى شـيء من دـواعـي المـيول الحـيوـانية أو إـثارة الفتـنة سـواء أـكان ذلك للـرجال أمـللـنسـاء :

(قـل لـلـهـؤـمـنـينـ يـغـضـواـ مـنـ أـبـصـارـهـمـ وـيـحـفـظـواـ فـرـوجـهـمـ ذـلـكـ أـزـكـيـهـمـ إـنـ اللـهـ خـبـيرـ بـمـاـ يـصـنـعـونـ وـقـل لـلـهـؤـمـنـاتـ يـغـضـضـنـ مـنـ أـبـصـارـهـنـ وـيـحـفـظـنـ فـرـوجـهـنـ وـلـاـ يـبـدـيـنـ زـيـنـتـهـنـ إـلاـ مـاـ ظـاهـرـ مـنـهـاـ وـلـيـضـرـ بـنـ بـخـمـرـهـنـ عـلـىـ جـيـوـهـنـ وـلـاـ يـبـدـيـنـ زـيـنـتـهـنـ إـلاـ بـعـولـتـهـنـ أـوـ آبـاهـنـ أـوـ آبـاءـ بـعـولـتـهـنـ أـوـ أـبـنـاهـنـ أـوـ أـبـنـاءـ بـعـولـتـهـنـ أـوـ أـخـوـاهـنـ أـوـ بـنـيـهـنـ أـوـ بـنـيـهـنـ أـوـ مـاـمـدـكـتـ أـيـمـانـهـنـ أـوـ التـابـعـينـ غـيرـ أـوـلـيـهـ الـإـرـبـةـ مـنـ الرـجـالـ أـوـ الطـفـلـ الذـيـنـ لـمـ يـظـهـرـ وـاـ عـوـرـاتـ النـسـاءـ وـلـاـ يـضـرـ بـنـ بـأـرـجـلـهـنـ لـيـعـلـمـ مـاـ يـخـفـيـنـ مـنـ زـيـنـتـهـنـ وـتـوـبـواـ إـلـىـ اللـهـ جـمـيعـاـ أـيـهـاـ الـمـؤـمـنـونـ لـعـلـكـمـ تـفـلـحـونـ) .

فيـنـ أـكـمـلـ الـآـدـابـ الـتـيـ يـحـبـ عـلـىـ الرـجـالـ وـالـنـسـاءـ أـنـ يـتـخلـقـوـاـ بـهـاـ ، وـيـتـحـلـوـاـ بـحـلـاـهـاـ ، وـهـيـ بـالـنـسـبةـ إـلـىـ الرـجـالـ أـنـ يـغـضـواـ أـبـصـارـهـمـ عنـ النـظـرـ إـلـىـ مـاـ لـيـحـلـ النـظـرـ إـلـيـهـ : مـنـ أـجـنـيـةـ غـيرـ مـحـرـمـهـمـ ، وـأـنـ يـحـفـظـواـ فـرـوجـهـمـ مـنـ التـعـدىـ عـلـىـ عـرـضـ الغـيرـ ، وـهـذـاـ مـاـ أـفـادـهـ اللـهـ تـعـالـىـ بـقـولـهـ : (قـل لـلـهـؤـمـنـينـ يـغـضـواـ مـنـ أـبـصـارـهـمـ وـيـحـفـظـواـ فـرـوجـهـمـ ذـلـكـ أـزـكـيـهـمـ إـنـ اللـهـ خـبـيرـ بـمـاـ يـصـنـعـونـ) لـأـنـ الـعـيـنـ مـبـدـأـ الزـنـاـ ، وـالـنـظـرـ يـزـرـعـ فـيـ القـلـبـ الشـهـوـةـ الـتـيـ هـيـ مـجـلـيـةـ لـسـائـرـ الدـنـيـاـ ، وـمـهـلـكـةـ لـصـاحـبـهاـ ، بـمـاـ تـجـرـ إـلـيـهـ مـنـ أـعـظـمـ الـمـصـائبـ ، وـأـكـبـرـ الـمـعـاـيـبـ . وـلـذـاـ كـانـ حـفـظـ الـعـيـنـ مـنـ الـأـمـورـ الـمـهـمـةـ الدـالـلـةـ عـلـىـ جـلـالـةـ قـدـرـ صـاحـبـهاـ وـنـزـاهـةـ نـفـسـهـ ، وـبـعـدـ هـمـتـهـ ، وـصـلـاحـ شـيـمـتـهـ ، وـقـدـ حـذـرـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ الـأـخـذـ فـيـ أـسـبـابـهـ ، وـنـهـىـ عـنـ دـوـاعـيـهـ سـداـ لـبـابـهـ ، فـقـالـ : « إـيـاـكـمـ

والجلوس على الطرقات ، قالوا : يا رسول الله لابد لنا من مجالسنا ن Creed
فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فان أتيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها ، قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) هذا ومن اتفق وقوع بصره على ما يحرم نظره اليه من غير قصد فعليه أن يصرف بصره عنه سريراً ، بتحويل وجهه إلى جهة أخرى ، أو إبطاق عينيه ، أو إطراقه إلى الأرض أو يسترها بأى ساتر مما يحول دون نظره ، فان ذلك أدعى لعصمتة وأحفظ لميوله .

وأما هذه الآداب بالنسبة للنساء فهي أن يغضضن أبصارهن ويمعنها النظر إلى غير أزواجهن ، ولا يظهرن شيئاً من زينتهن للأجانب إلا ماظهر منها ، ولا يمكن إخفاؤه : كالرداء والثياب الظاهرة . وأن يلقين على صدورهن ونحوهن مقانع ليسترنها عن أعين الناظرين ، فلا يرون منها شيئاً ، ولا يدين زينتهن إلا لآزواجهن ، أو آباءهن ، أو آباء آزواجهن ، أو بنائهن ، أو أبناء آزواجهن أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى إخواتهن ، أو نسائهم المختصات لخدمة أو صحبة بشرط أن يكن مسلمات ، لأن غيرهن لا يتحرجن من وصفهن للرجال وذلك يحر للمفسدة ، أو مأمليكت أيمانهن من الاماء . أما الذكور فلا يجوز إبداء الزينة لهم ، لأنهم خول ليسوا أزواجاً ، والميول متتحقق فيهم والأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولا حاجة لهم إلى النساء ، أو الأطفال الذين لا يميزون - فهو لاء لا بأس من ظهور الزينة أمامهم .

اما وجہ جواز إظهار زینتھن لآباءھن ، وآباء آزواجھن ، وأبناء آزواجھن وإخوانھن وبنی إخوانھن ، وبنی إخواتھن ، فلا نھم محارم لهن يجوز للمرأة أن تظھر علیھم بزيتها ولكن من غير تبرج ، بل بالخشمة والوقار ، لقلة توقع الفتنة من جهاتھم ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في السفر للنزول والركوب وغير ذلك .

واما وجہ الجواز بالنسبة لنسائهم المختصات بهن المسلمات ، ومأمليكت

أيمانهن من الاماء والاجراء والاتباع الذين لا حاجة لهم إلى النساء والأطفال
الذين لا يميزون ، فلعدم الضرر من جهتهم إذا أبدين زينتهن لهم .

وقد شدد الشارع الحكيم في عدم إبداء الزينة للنساء لما يعلم ما يترب على ذلك من المفسدة والمضررة حتى نهى المرأة أن تضر ببرجلها الأرض
ليعلم ماخفي من زينتها فقال:(وَلَا يَضُرِّ بْنَ بَارِ جُلَيْهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)
ومثل ذلك ما لو كان شيء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ماخفي
أو تتعطر وتطيب عند خروجها من بيتهما فيشم الرجال طيفها فإذا دخل تحت هذا النهي أيضا ، وكذا ما يلبسه أكثرا مترفات النساء في زماننا فوق ثيابهن ويغطين به إذا خرجن من بيتهن ، فقيه من أنواع الزينة ما يغير العيون ،
وأخذ بالباب ضعاف العقول ، وقد عمت بذلك البلوى . ومثله مما عمت به البلوى أيضا عدم احتجاب أكثر النساء من أصدقاء أزواجهن وعدم مبالغة أزواجهن بذلك وكثيراً ما يأمر ونهن به ، فإن ذلك مالم يأذن به الله ورسوله وهو دليل على قلة الغيرة وضعف المروءة .

الثانية : عرض عليه طائفة من أحسن الآداب وأجمل الأخلاق الذاتية
حاكيها عن لقمان عليه السلام يوصى ابنه:(يَا بْنَ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ
وَأَنْهِ عَنِ الْمُسْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَبَّكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْرِ وَلَا تَصْرُّ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحَّاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ
وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتٌ حَمِيرٍ)
فيهن أهم مكارم الأخلاق ، وأعظم صفات الكمال على الأطلاق ولا غرو
فقد وصى بها أب حكيم قد ذكره الله بأحسن الذكر ، وآتاه الحكمة
والإصابة في الرأي والتفكير ، لأنّه هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم إليه ،
 فهو جدير بأن يمنحه أفضل ما يعرف ، وذلك من إقام الصلاة والاتيان بها
مستوفية الشروط والأركان ، في أوقاتها المعينة لها ، من غير إبداء ملل ولا
ضجر ، ولا تقاعدو لا تكاسل ، مع تمثيل عظمة الله تعالى في قلبه ، ومراقبته جل

شأنه في كل قول و فعل منها حتى يلزم الأدب قبله ، و تتبّعه في ذلك سائر جوارحه ، فانه إن أتى بها كذلك نهته عن فعل الفحشاء والمنكر و ذلك غاية الأدب ، و نهاية مكارم الأخلاق . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من لقمان عليه السلام لا بنه .. من باب تذليل النفس و تهذيبها ، وإقبالها على الطاعات ونبذها للمنكرات بلطف . وهذا شأن المعلم الحكيم : فان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تستنكر نفسه و تكره أن يراه الناس حيث نهاهم ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا ما يكون سبباً في عدم سماع كلامه وبلغ مرآمه ، فيفعّل الملائج ويختبئ القبيح إلى ما يتربّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من إرشاد الخلق إلى ما فيه صلاح حالمهم ، واستقامة أحوالهم ، وانتظام شؤونهم ، وتقويم ما عوج من أخلاقهم .

ولما علم لقمان عليه السلام بما أتاه الله له من الحكمة أن الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر لابد أن يقابل من المأمورين والمنهيين من الناس بأذى كثير ، لأنّه إنما يأمرهم بمفارقة ما عليه أهواوهم ، وألفته نفوسهم وتعلقت به رغائبهم ، ومفارقة ذلك أصعب شيء على النفس ، لما علم لقمان بذلك أمر ابنه بالصبر على أذاهم وتحمل الآلام والمشقات التي تحصل له في أثناء ذلك ، وبين له أن الصبر عليه من عزم الأمور فقال له : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »

ولما كان الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر يجب أن يكون متصفًا بأحسن صفات الكمال من الأدب والتواضع والحلم وعدم الكبر على الخلق ، وعدم استحقارهم والاستخفاف بهم ، حتى يكون ذلك سبباً في قبول أمره ومجابنته نهيه أمر لقمان عليه السلام ابنه بما يجمع هذه الخصال فقال : « ولا تُصرِّخْ خدك للناس » أي لا تعرّض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقارا لهم ، واستكبارا عليهم ، بل ألين جانبك لهم ، وتواضع لصغرهم وكبيرهم ، واجلب محبتهم إليك بحسن صنيعك معهم ، ولطف معاملتك لهم ، فانهم بذلك ينتظرون

لَكَ أَمْرًا فَيَتَبعُونَهُ أَوْ نَهِيًّا فَيَجْتَنِبُونَهُ وَبَعْدَ أَنْ يَبْيَنَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ يَصْانِعُ
النَّاسَ وَيَعْامِلُهُمْ وَيَعَاشُهُمْ أَخْذِيَّنَ ما يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ مِنْ
الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، وَالصَّفَاتِ الْكَاملَةِ فَقَالَ : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ بِخُورٍ ، وَاقْصُدْ فِي مُشِيكٍ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرْ
الْأَصْوَاتَ لِصَوْتِ الْحَمِيرِ » أَى إِذَا مَشَيْتَ فِي الْأَرْضِ فَلَا يَكُنْ مُشِيكٌ خَيْلًا ، فَإِنَّ اللَّهَ
يَغْضُضُ مِنْ هَذِهِ حَالَتِهِ ، وَإِذَا مَشَيْتَ فَلَا يَكُنْ مُشِيكٌ لَا بِالْبَطْءِ الْمُتَبَطِّطِ ، وَلَا
بِالسَّرِيعِ الْمُفْرَطِ ، فَإِنْ كَلَّا الْأَمْرَيْنِ مَذْمُومٌ بِلَانَ الْأَوْلَى مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّسْكُرِ
وَفَتُورِ الْهَمَةِ ، وَضَعْفِ الْعَزِيمَةِ ، فِيهِ ضَيَاعٌ لِفَرَصٍ كَثِيرَةٍ . وَالثَّانِي مَعَ
مَا فِيهِ مِنْ أَمَارَاتِ الطَّيشِ وَالْخَفَةِ وَعَدْمِ الثَّبَاتِ ، فِيهِ تَحْمِيلٌ لِلْأَعْضَاءِ فَوْقَ
طَاقَتِهِ وَإِضْعافُهَا بِعَمَلِ جَهُودٍ لَا تَتَحْمِلُهَا قَوَاهَا الْعَضْلِيَّةُ ، فَيَهْدِمُ بِذَلِكَ
أَسَاسَ قُوَّتِهِ ، وَيَجْرِي الْفَسَادَ عَلَى بَنِيَّتِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَتْ فَاخْفَضْ صَوْتَكَ ، وَلَا
تَرْفَعْهُ زِيَادَةً عَنِ الْحَاجَةِ ، فَإِنَّ الْجَهْرَ بِأَكْثَرِ مِنْ الْحَاجَةِ مَا يَضُرُّ بِالسَّامِعِ
وَيُؤَذِّيْهِ ، وَلَانَ صَوْتَهُ بِذَلِكَ يَكُونُ مُنْكَرًا يُشَبِّهُ صَوْتَ الْحَمِيرِ الَّذِي هُوَ أَفْظَعُ
الْأَصْوَاتِ وَأَقْبَحُهَا وَأَنْكَرُهَا كَمَا قَالَ جَلَ شَانَهُ : « إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لِصَوْتِ
الْحَمِيرِ » .

الثالثة : قبح له السخرية بالناس ولمزهم والتنابز بالألقاب وسوء الظن :

(يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ
وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلِمُّوْذُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا
تَنَابُّوْذُوا بِالْأَلْقَابِ يَئُسَّ الْأَسْمَاءُ الْفَسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتَبَّعْ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظُّنُونِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُونِ
إِنَّمَّا لَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيْحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيَّتًا فَكَرِهُتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَحِيمٌ) فِي هَذِهِ الْأَيْةِ الْكَرِيمَةِ
أَرْشَدَ اللَّهُ جَلَّ حَكْمَتِهِ إِلَى الصَّفَاتِ الْحَسَنَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ الْأَيْسِخُرُ أَحَدُ

من أحدو يستخف به و يستحقه ، وألا يعيب أحد على أحد بشيء يكرهه ، وألا يسىء
ظنه بأحد من إخوانه ، وألا يحيث ويقتلش عن عورات الناس ومعاهم ،
ويستكشف عماستروه ، وألا يذكر أحد أخاه بما يكرهه في غيبته فان ذلك كله
مما نهى الله عنه ، ورغم في التباعد منه . فنهى عن السخرية بالناس والاستخفاف
بهم بقوله : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخُرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يُكَوِّنُوا خِيرًا
مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ) أَيْ لَا يصح أن يستهزئ
أحد من . أحد ولا يستخف به ويحقره سواء أكان من الرجال أم النساء ،
لأنه ربما كان المسخور به عند الله خيرا من الساخر ، فلا ينبغي أن يجترئ
أحد على السخرية بغيره ، والاستخفاف به مجرد أنه رأه رث الهيئة ، أو فقيرا
أو ذا عاهة في بدنها أو غير لائق في محدثته ، أو غير ذلك ، فلعله أخلص ضميره
 وأنق قبلامن هو على ضد صفتة ، فيظل نفسه بتحقيقه من وقره الله تعالى .
والسخرية إنما تحرم إذا كانت في حق من يتاذى بها مامن جعل نفسه مسخرة
وربما فرح بالسخرية به كما يفعله السفلة من الناس ، فان السخرية في حقه من
جملة المزح وليس بمحرم في حقه وإنما المحرم استصغر يتاذى به المستهزئ به
لما فيه من التحقيق والتهاون : وذلك نارة يكون بالضحك من كلامه ، إذا تخطط
به ولم يتنظم ، أو من أفعاله إذا كانت غير منتظمة ، كالضحك من صنته أو
صورته وخلقته ، إذا كار . قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب . فالضحك
من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها ، وقد تكون السخرية بالمحاكاة
في الفعل والقول وقد تكون بالاشارة والاياء .
ونهى عن أن يعيب أحد غيره بقوله (وَلَا تَلْمِزُ وَاْنْفَسَكُمْ) أَيْ لا يعيب
بعضكم بعضا بقول أو فعل أو إشارة لأن الناس كنفس واحدة فتى عاب
الإنسان أخيه فكان معايب نفسه ، وهذا أدب كبير أدب الله به عباده ليكون سيفاً
ألفتهم واتحادهم ، وارتباط قلوبهم بعظميم المودة ووثيق الحبة
ونهى عن أن يدعوه أحد أخاه بلقب يكرهه ، لأن ذلك يزرع في القلوب

الضغينة ، ويمكن فيها الحفيظة ، وهو ماجاء الشرع الشريف بزواله ، ولذا سمي جل شأنه التنازع بالألقاب الذي هو داعية الحقد والبغض فسقا في قوله : (بِئْسَ الاسمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتَبَّعْ فَأُولَئِكُ هُمُ الظَّالِمُونَ) ونهى عن كثيرون سوء الظن بأحد من الناس بقوله : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجتَنَبُوا كَثِيرًا أَمْنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّمَا) أي يأيها الذين آمنوا اجتنبوا عن كثيرون سوء الظن وهو مجرد التهمة التي لا سبب لها ، ولا دليل عليها كأن تهم غيرك بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك ، لأن بعض ذلك يكون إنما يحصل . فليتجنب الكثيرون منه احتياطاً . ويشترط في حرمة هذا أن يكون المظنون به من شوهاتهم التستر ، والصلاح ، والأمانة . أما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث والمنكرات : كالدخول والخروج في حانات المخمور ، وصحبة الغواصين الفاجرارات ، فلا يحرم سوء الظن به في نحو ما يظهر منه فقط .

الرابعة : أنكر عليه البحث عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله (وَلَا تَجَسَّسُوا)

أى لا تبحثوا عن عورات الناس ولا تستكشفوا عوراتهم ، فإن في ذلك فضيحة لهم و تعرضها للاياعني ولا يفيد ، وهب أن ذلك الباحث اطلع على جميع عورات أخيه ومعايه ، فأى فائدة تعود عليه من ذلك سوى أنه كالذباب لا يتبع القاذورات والمواضع الفاسدة من الجسد وغيره ؟

ونهى عن أن يذكر أحد أخاه بما يكره في غيته بقوله : (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيْحِبَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمًا خَيْرَ مِيتًا فَكَرِهَتْمُوهُ) أى لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيته سواء كان ذلك باللسان أم بالفعل . ومنه الاشارة والكتابة وغيرهما مما يفهم نقصانه ، فإن علة النهى عن الغيبة الآيات بتقديم الغير نقصان المعتاب وهو موجود حيث أنهم الغير ما يكرهه المعتاب بأى وجه كان من طرق الافهام ، وسواء كان ذكر ذلك الشيء الذي يكرهه بنقص في بدنه أو نسبة ، أو خلقه أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه ، وداره ، وما له ، وولده ، وزوجته ، وخدماته ، وغير ذلك

من كل ما يتعلق به . فذلك كله مما كرهه الله تعالى وحرمه ونهى عنه ، حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتا ، ذلك الأمر المستبعش طبعاً وعقلاً وشرعاً . ومحل حرمة الغيبة إذا لم يكن المغتاب مجاهراً بالمعاصي متهكماً لا يبالى بما يفعل ، فإن الغيبة في مثله جائزة ، وذلك لأن الذي يعلن بالفجور والفسق ولا يستحبى من خصيـانـ الـخـالـقـ ، ولا يـسـتـرـ عـنـ الـمـلـوـقـ فـيـمـاـ يـأـتـىـ مـنـ الـكـبـارـ ويـظـهـرـ مـنـ الـمـنـاكـرـ . قد كشف ستاره ، وأبدى عواره ، بخرج من حد الظن إلى حد اليقين ، فمثل هذا ليس مقصوداً من النهى في الحديث « مَنْ أَقْرَى جَلْبَابَ الْحَيَاةِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ »

الخامسة : بين له أن أحقر المنكرات بالترك الجهر بالقول السيء فقال جلت حكمته : (لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلَيْهَا) فneath عن البداءة باللسان والجهر بالسوء من القول ، سواء أكان ذلك القول السيء شتماً أم سبباً ، أم لعناً أم مراء ، أم خصومة ، أم ذما في حق الغير أم غير ذلك مما يدل على حقاره تدر صاحبه ، ودناءة نفسه وقلة حيائه ، وسوء تربيته . وعدم قدرته على أن يكبح زمام نفسه عما تسوله له من القبائح والمنكرات . وتهيجه له القوة الغضبية التي منشؤها الزهو والعجب والكبر والمزاح والهزل والمماراة والمصادرة والغدر ، وغيرها من الأخلاق الرديئة المذمومة شرعاً وعقلاً .

ولما كان الجهر بالسيء من القول بهذه المكانة من القبيح عبر الله جل شأنه عن النهى عنه بما يفيد شدة قبحه وزيادة نكره وبشاشة أمره فقال : « لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ » ولم يقل لا تجهروا بالسوء من القول أى واد كان غير محبوب لله جل وعز . وغير مرضى له . فهو أولى الأشياء المنكرة بالاجتناب ، وأحقها بالترك والابتعاد . ثم استثنى جل شأنه من عدم محبته للجهر بالسوء من القول ، وبغضه وكراهته له جهر من ظلم بأن يدعوه على

ظالمه ، أو يتظلم منه ، أو يذكره بما فيه من السوء فان ذلك غير مبغض عند الله تعالى ، وذلك لأنه إنما يستغىث ليعاث ويستجير لينجذب ، ويذكره بسوء لعله يرد عليه ظلامته ، ولأن المظلوم مقصود ، وهو لا بد أن ينفث ، وهذا مالا بد منه من طريق الفطرة ، فرخص له الشارع ذلك ، وفي ذلك دلالة على قبح الظلم والظلم ، وعدم نظر الله له ، وعدم اعتبار حرمتة ، واحتقاره له جل شأنه حتى لم ينه عن مذمته بظلمه ، وعن الجهر بالسوء من القول في حقه .

السادسة - حضر عليه تبع ما ليس له به علم : (وَلَا تَقْنُقْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)
 إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤُادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
 مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغْ الْجَبَلَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ
 سَيِّئًا عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فلا يقول رأيت ، والحال أنه لم ير ، ولا سمعت
 وهو لم يسمع ، ولا علمت دون أن يعلم وهكذا ، لأن الله سبحانه وتعالى سائله
 عن ذلك كله من أين جاءه العلم بمارآه وسمعه وعلمه ، فانه جل شأنه خلق الأعضاء
 للإنسان وجعل لكل عضو منها وظيفة قائمة بها ، وعملا خاصا به ، يسأل عنه
 دون غيره : فيسأل السمع عماسمعه ، والبصر عمارآه ، والقلب عما عليه ، فان كان
 الجواب طبق مساطط الله هذه الأعضاء به ، وخلقها لأجله وكلفها إياه من الأفعال
 أثاب صاحبه ، إذ استعملها فيما خلقت له . وإن كان الجواب غير مطابق - عاقب
 صاحبها ، جراء تقصيره ، وتعدم استعماله هذه الأعضاء فيما خلقت لأجله ،
 ومعنى سؤال هذه الأعضاء ومحاجتها أن الله سبحانه ينطئها عند سؤالها فتخبر
 بما فعلت وفعله صاحبها ، وهذا الذي أشار الله تعالى له بقوله : (وَلَا تَقْنُقْ
 مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤُادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)

السابعة - نهاء عن التجير والتباخر والتليل في المشية ، فان ذلك يغضنه الله

ورسوله ، لأن نهاء نتيجة إعجاب المرء بنفسه وهو أخبث سرائر القلوب ، وأعظم
 كبائر الذنوب ، ودليل على جهل المرء بمقدار نفسه ، وعماته عن عيدها إدراي
 قبيحه حسنا ، وخطأه صوابا ، فأوجب لنفسه حقا لم تستوجبه ، ورأى لها فضلا

{ ٩ - الحلاق الكامل }

لم تستأهله ، ولو أنه تبصر في عيوب نفسه قليلاً ، وتأمل ما هو عليه من المثالب والمعايب - لاستنكاف مماعليه نفسه : من الزهو والعجب الذي حملها على هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله ، كما قال مطرف بن عبد الله للهلب بن أبي صفرة عند ما نظر إليه ، وعليه حلة يسبح بها ويمشي الخيلاء : يا أبا عبدالله ، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله !! فقال له المهلب أما تعرفي ؟ قال : (أعرفك ! أو لك نطفة مذرة) (١) وأخر كجيفة قدرة وحشوتك فيما بين ذلك بول وعدرة) فعلام الإنسان يتذكر وقد عرف مبدأه ومنتهاه ؟

وقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه صعد المنبر وحمد الله وأثنى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أيهَا النَّاسُ ، قَدْ رأَيْتِنِي أَرْعَى عَلَى خَالَاتِ لِي مِنْ بَنِي مَخْزُونٍ يَقْبَضُنَّ لِي الْقِبْضَةَ مِنَ الْقَرْ وَالْزَّيْبِ » فقال له عبد الرحمن بن عوف : « وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا زَدْتَ عَلَى أَنْ قَصَرْتَ بِنَفْسِكَ » فقال له : « وَيَحْكُمُ يَا بْنَ عَوْفٍ خَلُوتَ بِنْفُسِي فَهَذِهِنِي فَقَالَتْ أَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ ذَا أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْرِفَهَا قَدْرَهَا »

فشل هؤلاء هم الذين جل خطورهم ، وعظم قدرهم في الدنيا ومع ذلك لم يجعلوا لأنفسهم حظاً في الاستعظام والاعجاب ، فلذا يقول الله تعالى تو يسخاً للعجب بنفسه المتبحتر في مشيته : (إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا) أي لن تشق الأرض حتى تبلغ آخرها بمشيتك متكبراً ، ولن تبلغ الجبال طولاً بتماميك وفخرك وإعجابك بنفسك ، وفي ذلك من التحكم والتحقيق للمختار ما لا يخفى ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما أخبر جل شأنه عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، فخسف الله به وبدارمه الأرض ، ثم بين جل شأنه أن هذا الذي ذكر من الاعجاب والتبحتر في المشي ، وتتبع الإنسان ما ليس له علم وغيره مما تقدم ذكره ونهى الله عنه - هو قبيح مكره عند الله تعالى يجب اجتنابه والتبعاد عنه بقوله : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئًا) عند ربك مكره وهذا

الدريعة الخامسة

تنشئته على بر الوالدين والاعطف على القريب

إن أبا الإنسان وأمه لهما عليه حقوق لابد من أدائها ، وواجبات لابد من قضاها : فن تلك الحقوق وتلك الواجبات مقابلتهما بكل ما يمكنه من البر والاحسان ، وأن يمثّل أوامرهما عامة ، وبخاصة ما تعود عليه بالمنفعة : كأوامرهما المتعلقة بحسن السلوك ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاشرة مع الخلق ، والنظافة ، والعفة ، والأمانة ، وغير ذلك من الكمالات وحميد الأخلاق ، وجميل الصفات . وأن يجتنب نواهيهما وكل ما يؤذهما ، أو يكدر خاطرهما أو يجلب غضبهما من قول أو فعل ، فان أجهد نفسه في فعل كل ما يرضيهما كان له الحظ الأوفر من الفضيلة ، والنصيب الأكبر من المروءة ، وإن لم يفعل ذلك واستجلب غضبهما فقد قابل الحسنة بالسيئة ، والاحسان بالكفران ، والخير بالشر ، والطاعة بالمعصية ، فان أباه هو الذي رباه صغيرا ، وأجهد نفسه في تحصيل ما ينفقه عليه في ملبسه وملائمه ومشربه وجميع مطالبه ، والقيام بأوده ، إلى أن عرف حقوق نفسه ، وأمكنه أن يكتسب ، ولو لاه لمات جوعا ، لانه لا يقدر على شيء من ذلك في حال صغره ، وأماممه فقد عانت فيه المشقات العظيمة والآلام الكثيرة في مدة حمله وولادته ورضاعه وتنقيته من الأدران ، وسهرت لأجله الليليات الطوال ، وتكلمت لقدرها ، وفرحت لفرحه ، إلى غير ذلك من ضروب العناء التي لا تتحصى ، والمشقات التي لا تستقصى .

ومنها أن ينفق عليهم إذا كبرا ، لأنهما كفلاه صغيرا إلى أن استطاع أن يكتسب ، فهذا الكسب ثمرة غرسهما ، وليس من الأدب والمروءة أن يغرس الإنسان غرسا ثم يحرم جنى غرسه .

ومنها أن يجعلهما بالأدب والوقار فلا يضحك ولا يلعب ، كما يضحك ويلاعب السفهاء ، وليسكن ضحكة ولعبه على وضع لا يدخل بالأدب ، ولا يرفع

صوته فوق صوتها ، ولا بحضورهما ، ولا يمسي أمامهما إلا حاجة ، ولا يسبقهما بالكلام في المجلس ، وإذا أقبل عليه أحدُهُما وهو في مجلس قام ليوسّع لهما حتى يجلسا إن كان في المكان ضيق . وجملة القول يفعل جميع الوسائل التي تكون سبباً في مرضاهما وزوالِ ما يكدرها ، وإلى هذه الآيات السامية أشار الله جلت حكمته في كتابه العزيز إذ يقول : (وَقَضَى رَبُّكَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَّاهُمَا فَلَا تَقْلِنْ لَهُمَا أَفَ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلُّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا) فأرشد إلى أهم الأمور ، وأولاها بالعنابة ، وأجردها بالرعاية ، وأقر بها لرضا الله تعالى ، وأبعدها من سخطه ومقته : ألا وهو بر الوالدين الذي جمع من الخير أكمله ، ومن الإحسان أجله ، ومن المروءة أرفعها ، ومن الخيرات أنفعها . وكفى به فضلاً وشرفاً أن قرنه الله بتوحيده وعبادته ، وبالغ بالتوصية به مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق ، وتحمل ذوى العقول على تأدية الواجب لهم من الحقوق ، فأمر جل شأنه بالإحسان إلىهما وقرنه بتوحيده وعبادته في قوله : (وَقَضَى رَبُّكَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أى أمر أمراً جازماً ، وحكم حكماً قاطعاً بتوحيده وعبادته ، وبر الوالدين والاحسان بهما . وفي هذا الاقتران من الدلالة على تأكيد حقهما ، والعنابة بشأنهما مالا يخفى . ثم شدد في الأمر بمراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها ، فإذا حصل منها أى شيء يكرهه فلا يصح له أن يتكلم معهما بل كلام يكون من ورائه تضررهما وتکدر خاطرهما ، بل الواجب عليه في هذه الحالة أن يقول لهما قول لالينا جميلاً سهلاً أحسن ما يمكن التعبير به : من لطف القول وكرامته ، مع حسن التأدب والحياء والاحتشام ، وبخاصة إذا كانا كبيرين ، فإنهما في هذه الحالة أحق بالمجاملة وحسن التلطيف ،

لأنهما يظنان أنهما كَلٌّ عليه ، فكل كلمة تصدر منه ولو صغيرة يجدان منها
أُلماً ولذا أخص الله سبحانه وتعالى حالة الكبر بالذكر في قوله (إِمَّا يَعْلَمُ عِنْدَكَ
الْكَبِيرُ أَحَدُهَا أَوْ كَلَّاهُمَا فَلَا تَقُولُ لَهُمَا أُفَّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا
قَوْلًا كَرِيمًا» أى إن كبراً وهما في كنفك وكفالتك فلا يصح أن تقول
لهما أَيَّ قول يكدر خاطرهما ويجلب غضبهما ، حتى التأفف الذي هو أدنى
راتب القول السيء ، بل الواجب أن تعاملهما بالحسنى وتقول لهمما القول
اللين الطيب الحسن ، مع الأدب والتوقير والتعظيم والاحترام والاحتشام ،
وأن تخفض لهما جناح الذل ، وتواضع ، وتنزل لهما بجميع أنواع التذلل
والمسكنة : لأنهما صارا أفقرا الناس إليك بعد أن كنت أفقرا الناس إليهما ،
واحتياجُ المرء إلى من كان محتاجا إليه غايةُ الضراعة والذل والمسكنة ، فكانوا
لذلك أولى بشدة الرحمة والشفقة وزيادة التعطف عليهما . ثم ختم جل شأنه
التوصية بهما ، والحمد لله على برهما ، والاحسان بهما بطلب الدعاء لهما من الله
أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة ، فقال : (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَأَيْتَهُمْ
صَغِيرِاً) كأنه تعالى يقول لا تكتف برحمتك التي لا تدوم ، ولكن اطلب
من الله الرحمة الدائمة ، وقل رب ارحمهما رحمة مثل رحمهما وتربيتهما إياي
وأنا صغير .

ثم إن بر الوالدين لا ينتهي بموتهم ، بل يجب بعد الموت كما يجب في الحياة
ويكون بالصلوة عليهم والاستغفار لهم ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ،
وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما : فمن ذلك أن رجلا جاء لرسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله ، هل يبقى على من بر أبوى شيء أ بر هما
به بعد وفاتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهم ، والاستغفار لهم ، وإنفاذ عهدهما ،
وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما . ولئن تأكدت بر
الوالدين فهو في حق الأم أو كد لأنها تعبت في حمله وولادته وحضانته
وغيرها أكثر من أيه ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بر

الوالدة على الولد ضعفان» ويقول : «دعوة الوالدة أسرع إجابة . قيل يا رسول الله ، ولمَذاك ؟ قال : هي أرحم من الأب ، ودعوة الرحم لا تسقط » وقال تبارك اسمه في الحث على بر الوالدين وما أعدده مشوبه بذلك ، من قبول العمل الصالح ، والتجاوز عن السيئات وإدخال الجنة (وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلْتُهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلْهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشْدُهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبُّ أُوزْ عَنِي أَنْ أُشْكُرْ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرَيْتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) فَأَرْشَدَ إِلَيْ بَيَانِ مَا يُحِبُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ بَرِ الْوَالِدِينَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَالْحَنْوِ عَلَيْهِمَا وَخُصُوصَأُمِّهِ ، لَأَنَّهَا تَعْبَتْ فِيهِ ، وَكَابَدَتْ مِنَ الْمَشْقَاتِ وَالْمَتَاعِبِ فِي حَمْلِهِ وَوَضْعِهِ وَرَضَاَهُ مَالَمْ يُشارِكَهَا الْأَبُ وَصَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلْهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (فَانْهَ جَلَ شَانَهُ بَعْدَ أَنْ وَصَى بِالْوَالِدِينَ وَأَمْرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَالْحَنْوِ عَلَيْهِمَا ، ذَكَرَ مَا نَالَتِهِ الْأَمْمَ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشْقَاتِ ، وَقَاسَتْهُ مِنَ الْأَوْصَابِ وَالآَلَامِ فِي حَالِ حَمْلِهِ مِنَ الشَّقْلِ وَالْكَرْبِ ، ثُمَّ أَرْدَفَ ذَلِكَ بَيَانَ مَا تَقَاسَيَهُ الْأَمْمُ مِنَ الْآَلَامِ مِنْ حِينِ الْوَضْعِ إِلَى الْفَطَامِ مِنْ تَعْهِدِهِ بِالنظَافَةِ وَإِزَالَةِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْأَدْرَانِ ، وَكَدَرَهَا لَكَدَرَهَا وَفَرَحَهَا لَفَرَحَهَا ، وَسَهَرَهَا عَلَيْهِ الْلَّيَالِي الطَّوَالِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا يَفِيدُ أَنْ حَقَّ الْأَمْمَ آَكَدَ مِنْ حَقِّ الْأَبِ وَاضْعَأَ ذَلِكَ فِي قَالْبِ بَيَانِ مَدَةِ الْحَمْلِ وَالرَّضَاعِ فَقَالَ : (وَحَمَلْهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) أَيْ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَدَةُ الطَّوِيلَةُ ظَرْفًا لِمَا تَقَاسَيَهُ الْأَمْمُ مِنَ الْآَلَامِ ، وَتَلَاقَهُ مِنَ الْمَشْقَاتِ وَالْمَتَاعِبِ فِي الْوَلَدِ - فَحَقَّهَا عَلَيْهِ فِي بَرِّهَا

آكـد من حقـ أـيـهـ فـ ذـلـكـ عـلـيـهـ ، وـقـالـ جـلـ ثـنـاؤـهـ فـ الحـثـ عـلـىـ بـرـ الـوـالـدـينـ
وـالـاحـسـانـ إـلـيـهـاـ وـالـحـنـوـ وـالـشـفـقـةـ عـلـيـهـماـ ، قـارـنـاـ ذـلـكـ بـتـوـحـيـدـهـ وـعـبـادـتـهـ
عـمـاـ يـدـلـ عـلـىـ تـأـكـدـ حـقـهـمـاـ : (وـأـعـبـدـ وـاـللـهـ وـلـاـ تـشـرـ كـوـاـ بـهـ شـيـئـاـ وـبـالـوـالـدـينـ
إـحـسـانـاـ وـبـدـىـ الـقـرـبـىـ وـالـيـتـامـىـ وـالـمـسـاكـينـ وـالـجـارـ ذـىـ الـقـرـبـىـ وـالـجـارـ
أـلـجـنـبـ وـالـصـاحـبـ بـالـجـنـبـ وـاـبـنـ السـبـيلـ وـمـاـمـلـكـتـ أـيـمـاـ نـكـمـ إـنـ اللـهـ
لـاـ يـحـبـ مـنـ كـانـ مـخـتـالـاـ فـخـورـاـ) فـيـنـ صـنـوفـ الـبـرـ وـأـنـوـاعـ الـخـيـرـ وـحـسـنـ
الـمـعـاـمـلـةـ معـ اللـهـ وـالـنـاسـ مـالـوـعـلـمـتـ وـتـخـلـقـتـ بـهـ لـكـنـتـ مـنـ أـسـعـ الدـعـاءـ وـأـنـبـلـ
الـبـنـلاـ : فـنـ ذـلـكـ تـوـحـيـدـ اللـهـ تـعـالـىـ وـحـسـنـ عـبـادـتـهـ وـبـرـ الـوـالـدـينـ بـالـاحـسـانـ
إـلـيـهـاـ وـالـحـنـوـ عـلـيـهـماـ ، وـصـلـةـ الرـحـمـ بـمـدـيدـ المـسـاعـدـةـ لـهـمـ إـنـ كـانـواـ فـقـراءـ ،
وـالـتـوـدـدـ إـلـيـهـمـ بـالـزـيـارـةـ وـالـهـدـاـيـاـ ، وـالـطـيـبـ مـنـ القـوـلـ إـنـ كـانـواـ أـغـنـيـاءـ ،
وـالـاحـسـانـ إـلـىـ الـيـتـامـىـ وـالـمـسـاكـينـ بـالـنـظـرـ فـيـ مـصـالـحـهـمـ وـالـقـيـامـ بـأـوـدهـمـ وـكـلـ
مـاـيـحـتـاجـونـ إـلـيـهـ . وـمـنـ ذـلـكـ حـسـنـ الـجـوارـ سـوـاءـ أـكـانـ الـجـارـ مـلـاـصـقـاـمـغـيرـ
مـلـاـصـقـ ، وـبـخـاصـةـ اـذـ اـنـضـمـ إـلـىـ الـجـوارـ الـقـرـابـةـ . وـحـسـنـهـ بـالـتـصـدـقـ عـلـىـ الـجـارـ
إـنـ كـانـ مـحـتـاجـاـ ، وـالـتـوـدـدـ إـلـيـهـ بـالـزـيـارـةـ وـالـمـبـادـرـةـ بـرـدـ السـلـامـ وـالـمـسـاعـدـةـ لـهـ فـيـ
كـلـ مـاـيـحـتـاجـ إـلـيـهـ ، فـلـاـ يـمـنـعـ عـنـهـ مـاعـونـ الـبـيـتـ وـأـثـاثـهـ اـذـ اـحـتـاجـ إـلـىـ شـيـءـ مـنـهـ .
وـكـذـلـكـ حـسـنـ الصـحـبـةـ وـهـوـ الـمـرـادـ بـقـوـلـهـ تـعـالـىـ : (وـالـصـاحـبـ بـالـجـنـبـ) وـهـوـ
مـنـ كـانـتـ صـحبـتـهـ بـسـبـبـ مـرـاقـفـتـهـ بـالـجـنـبـ فـيـ طـلـبـ عـلـمـ ، أـوـ تـعـلـمـ صـنـاعـةـ ، أـوـ
مـبـاـشـرـةـ تـجـارـةـ ، أـوـ مـرـاقـفـةـ فـيـ سـفـرـ ، أـوـ قـعـودـهـ بـجـنـبـهـ فـيـ مـسـجـدـ أـوـ مـجـلسـ ،
أـوـ غـيرـذـلـكـ . وـحـسـنـ الصـحـبـةـ مـعـهـ أـنـ يـكـونـ لـهـ فـيـ النـوـائـبـ ، وـيـؤـثـرـهـ بـالـرـغـائـبـ ،
وـيـنـشـرـ حـسـنـتـهـ ، وـيـطـوـيـ سـيـئـتـهـ ، وـيـكـتـمـ سـرـهـ ، وـيـسـتـرـعـيـهـ ، وـاـذـ سـأـلـهـ أـعـطـاهـ ،
وـاـذـ سـكـتـ وـكـانـ مـحـتـاجـاـ اـبـتـدـاهـ ، وـاـنـ نـزـلـتـ بـهـ نـازـلـةـ وـاسـاـهـ . وـمـوـاسـاـةـ اـبـنـ
الـسـبـيلـ وـهـوـ الـمـسـافـرـ تـكـوـنـ بـسـدـ عـوـزـهـ ، وـإـعـاتـهـ بـمـاـ يـوـصـلـهـ إـلـىـ مـحـلـ أـوـبـتـهـ ،
وـالـشـفـقـةـ وـالـرـحـمـةـ بـالـأـرـقـاءـ وـالـعـيـدـ وـالـاحـسـانـ إـلـيـهـمـ ؛ لـأـنـ الرـقـيقـ ضـعـيفـ
الـحـيـلـةـ أـسـيـرـ فـأـيـدـيـ النـاسـ ، وـيـكـونـ ذـلـكـ بـتـرـيـبـتـهـ وـتـعـلـيمـهـ ، وـعـدـمـ تـكـلـيفـهـ

من العمل ما لا يطيق ، وأن يكسوه سيده ويطعمه مما يلبس أو يأكل ، حتى إذا آنس فيه النهاة والمعرفة والقدرة على أن يملك زمام نفسه ، ويعرف أن يتصرف في معيشته باستقلاله - أعتقه ، فان ذلك هو المقصود من الاسترقاء ، وليس المقصود منه الاستعباد المطلق؛ لأن العبد أخو سيده، ومتمنع بسائر الحقوق البشرية والميزات الإنسانية ، بل المقصود الأسمى منه أن العبد إذا وجد عند سيده كان ذلك داعية لتعلمه ، واكتسابه من أخلاق سيده وحسن آدابه ، وكما مررت به - ما يؤهله لأن يعرف أحوال نفسه ، ويمكنه أن يقوم بجمع مصالحه ، حتى إذا وصل إلى هذه الحالة أعتقه ، وقد جعل الشارع لذلك أسبابا كثيرة منها الكفارات وغيرها . وما أحسن ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الارقاء والخدم فإنه صلى الله عليه وسلم جعل يوصى أمته في مرض موته ويقول: «الصلاحة الصلاة ، ومأمليتكم أيمانكم» وجعل يرددها حتى انتقل للرفيق الأعلى ، وقال صلى الله عليه وسلم: «للملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق» وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا صنعت لأحدكم خادمه طعاما فليقعد معه ، فإن كان مشفوهًا^(١) فليضع في يده منه أكلة» .

صلة الرحم : رحم الإنسان أقاربها وصلتهم أن يطعمهم من جوع ، ويؤمّن لهم من خوف ، ويقضى عنهم دينا ، ويفرج عنهم غما ، ويقوم بما يحتاجون إليه ، ويتودّد إليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول ، والبشاشة عند اللقاء ، والمبادرة بالسلام ، ورد ضالتهم ، والمحافظة على فعل كل ما يجلب محبتهم إليه وهي من أفضل الخصال وأجمل الحالات ؛ فبها يكثـر التواصـل والتـواد ، وتوتمـل الغـواـئـل ، ويزـول التـباـغـض والتـحسـد وـتـسـتمـال القـلـوب ، وتصـفو الضـمـائـر ، وتحـسن السـرـائر . ولـهـذا حـثـ الشرـعـ عـلـيـهاـوـبـالـغـفـلـةـ التـمسـكـ بهاـ ، حتـىـ جـعـلـهـاـ رسـولـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ سـيـاـ فـإـدرـارـ الرـزـقـ وـسـعـتـهـ ، وـفـاتـحةـ الـخـيـرـ وـزـيـادـتـهـ . فـقـالـ عـلـيـهـ الصـلـاةـ وـالـسـلـامـ : «انـأـعـجـلـ الطـاعـةـ ثـوـابـاـ

(١) طعام مشفوه : كثـرـتـ عـلـيـهـ الـيـدـيـ

صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون بخار افتشمواً موالهم ، ويكثر عددهم ، إذا وصلوا أرحامهم » وقال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يُمدله في عمره ، ويوسّع له في رزقه - فليتق الله ول يصل رحمه » وسائل معاویة عمر بن الخطاب رضى الله عنهمَا عن المروءة فقال : « هي تقوى الله وصلة الرحم » وقال رجل لابنه في بعض وصاياه : « يا بني ، لا تقطع القرىب ؛ وإن أساء ، فإن المرأة لا يأكل لحمه وإن جاع » ولعل حكمة حث الشارع عليها ، والتشديد في أمرها ، والترغيب فيها ، والتحذير من قطعها ومحاجبتها ذلك جهد الاستطاعة - أن أقارب الرجل هم أكثر الناس بعد أبيه له تناصرا ، وأكثرهم رغبة في الخير له ، وأشدّهم شفقة عليه وأعظمهم محبة له ، بهم يعلو بين الأئمّة قدره ، ويعظم نهره ، ويرتفع ذكره ، وهم أكثر الناس به اختلاطا ، فإذا قطعهم تنقص عيشه ، وكثير شره ، وقل خيره ، ولأنهم أبعاض أبيه ، ومنهم من شعروا أو اختلطوا معهم في نسب ، فكل هذه حقوق تحتم على الشخص أن يصلهم بقدر جهده واستطاعته . وقد حث جل شأنه على صلة الرحم ورغم فيها وحذر من قطعها ، وأعد الجنة لمن وصلها ، والنار لمن قطعها فقال : (الَّذِينَ يُوفونَ بعهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيشَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدَ وَنَفْسِكَ لَهُمْ الْلَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) فيبين ما أعدّه من الخير العظيم والثواب الجزيل لمن اتصفوا بهذه الصفات الحميدة ، وتخلقوها بهذه الأخلاق الجميلة ، من الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق ، وصلة الرحم التي أمر الله بها أن توصل مع مرافقه جانب الله تعالى ، والخشية من عقابه على قطعها ، والخوف من سوء الحساب في السؤال عنها ، والصبر عند حلول النوائب ، وإقام الصلاة على وجهها المطلوب شرعا : من الخضوع والخشوع والانكسار ، والنفقة والصدق على الفقراء والمساكين في السر والجهر ، فإن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات قد أعد الله لهم من الجزاء الأولي ، ما يينه بقوله : (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقبَى الدَّارِ

جَنَّاتُ عَدَنِ يَدْخُلُونَهَا » وَقَالَ تَبَارَكَ اسْمُهُ فِي الْحَثِّ عَلَى صَلَةِ الرَّحْمَ ، وَيَبَانُ أَنْ ذُوِّي الْقَرَابَاتِ فِي إِصَالِ بَعْضِهِمُ الْخَيْرَ إِلَى بَعْضٍ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ مَمَنْ لَيْسَ بِهِمْ وَيَنْهَا قِرَابَةً : (وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمُ أَوْلَى بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) فَبَيْنَ أَنْ الْأَقْرَبَاءُ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ بِالصَّلَةِ وَالْمُوْدَةِ . فَمَا بَعْدَ نَظَرِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ وَأَعْلَمُهَا بِالْمُصْلَحةِ لِلْعِبَادِ . وَقَالَ تَبَارَكَ اسْمُهُ فِي الْحَثِّ عَلَى صَلَةِ الرَّحْمِ وَبِرِّهَا ، وَالنَّهُ عَنْ حِرْمَانِهَا وَقَطْعِهَا : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَقْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » فَبَيْنَ أَمْرَيْنِ :

الأول - ما أَرْشَدَ إِلَيْهِ خَلْقَهُ مِنَ الْأَمْرِ بِتَقْوَاهُ وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

الثاني - الْحَثِّ عَلَى صَلَةِ الرَّحْمِ وَبِرِّهَا وَعَدْمِ قَطْعِهَا وَهُوَ الَّذِي أَفَادَهُ بِقَوْلِهِ : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) أَيْ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي يَسْأَلُ بَعْضَكُمْ بَعْضًا بِهِ وَتَقْوَاهُ بِطَاعَتِكُمْ إِلَيَاهُ وَاتَّقُوا قَطْعَ مُودَّةِ الْأَرْحَامِ ؛ فَإِنْ قَطَعْتُمُهَا مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ، وَصَلَّتُهَا بَابَ لِكُلِّ خَيْرٍ فَتَزِيدُ فِي الْعُمُرِ ، وَتَبَارَكَ فِي الرِّزْقِ ، وَلَذَا وَصَلَ جَلَّ شَأنَهُ صَلَةُ الرَّحْمِ بِتَقْوَاهِهِ .

وَمَا أَحْسَنَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ دُوَاعِيِ الْخُنُوْدِ وَالْعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْأَقْرَبِ وَاسْتِهْلَكِ الْقُلُوبِ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى يَصْلُوْهُمْ وَلَا يَقْطَعُوهُمْ ، إِذْ ذَكَرَ جَلَّ شَأنَهُ أَنَّ أَصْلَ الْخَلْقِ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ مِنْ مُوجَاتِ الْاِحْتِرَازِ عَنِ الْإِحْلَالِ بِمُرَايَا حُقُوقِ الْأَخْوَةِ مَا لَا يُخْفِي . وَقَوْلُهُ : (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) أَيْ مَطْلَعًا وَعَلَيْهِ فَيَعْلَمُ مَنْ امْتَشَلَ أَمْرَهُ بِتَقْوَاهُ وَصَلَةِ الرَّحْمِ ، وَمَنْ لَمْ يَمْتَشِلْ فَيَجْزَى كَلَّا بِمَا يَسْتَحْقُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الذرية السادسة

غرس الاجلال والاعظام للنبي صلى الله عليه وسلم في قلوب النشاء
 النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من يحب احترامه وتبجيله وتقديره؛ لأنه
 صلى الله عليه وسلم السبب في هداية الخلق إلى فلاحهم في دنياهم ، ورفعهم
 من حضيض الشقاوة إلى أوج السعادة ، وإخراجهم من ظلمة الجهل والجهود
 إلى نور العلم والإيمان ، مع مقاومة المشقات والمتاعب في ذلك ، وليس من
 العدل والمرؤة أن يقابل صلى الله عليه وسلم بغير كمال التبجيل وتمام
 الاحترام والتعظيم والادب معه في حياته وماته . ولما كان علو مقامه صلى
 الله عليه وسلم وجليل مقداره بالمكانة التي قلما يمكن أحدا أن يقوم بما يجب
 لها من الآداب دون إرشاد وتعليم - سُنَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ
 من الآداب ما به يعرفون كيف يسلكون مسلك تعظيمه في ترك فعل
 ما يكرهه بين يديه ، أو الاستعلاء عليه في كلام أو مشي ، أو دخول بيته بغير
 إذنه ، أو قي لزوم طاعته ومتابعته ، والنزول عند حكمه ، والرضا بقضائه ،
 أو غير ذلك . ولتبجيله وتقديره مظهران :

الاول - أفاده الله تعالى بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
 أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْنَتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَهْرُبُ بَعْضُكُمْ
 لِيَعْضُ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَتَّمُ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ
 عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ فَلَوْ بَهُمْ لِتَقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) فَبَيْنَ صَنُوفِ الْآدَابِ الَّتِي أَدْبَرَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا
 يَعْمَلُونَ بِهِ نِيَّهُ صلى الله عليه وسلم من الاجلال والتعظيم والتبجيل والتكرير سواء
 أكانت هذه الآداب فعلية أم قوله ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله (يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيهِمْ) وفيها نهى صريح عن الاسراع في شيء من الاشياء قبله ، وأمر ضمني بمتابعة سنته ، والوقوف عند شريعته وأمر بالتقوى ومراقبة جانب الله تعالى في كل شيء؛ لانه سبحانه سمى لا قوانا ، عليم بنياتنا ، لاخفي عليه من ذلك خافية فقال : (واتقوا الله إن الله سمى عاليم) ومن كان كذلك فلن حقه أن يتقى ويراقب

ثم قال : (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَّا يَعْلَمُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ) ففيها حظر ظاهر لرفع الاصوات عند محادثته صلى الله عليه وسلم ومكالمته ، إلى حد يكون فوق ما يبلغه صوته صلى الله عليه وسلم؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام له صلى الله عليه وسلم؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازם التعظيم والتوقير عادة ، وهي عن الجهر بالقول كما يجهر الواحد لأخيه إذا كلامه ، لأن ذلك إنما يكون بين الأكفاء الذين ليس بعضهم على بعض منزية ، مع ما فيه من الجفاء في مخاطبته صلى الله عليه وسلم ، وعدم الادب معه، ثم حذر سبحانه المغبة بقوله : (أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده والجهر له بالقول كما يجهر أحدكم لأخيه إذا كلامه خشية أن تبطل أعمالكم بذلك دون أن تقطعوا ، لأن سبق رسول الله في قوله أو فعله ، ورفع الصوت في حضرته ، ومحادثته بالجهر كمحادثة الأكفاء - كل ذلك تجاوز لحدود الادب في مقام يتبعين فيه الاجلال والتعظيم ، ومن أجل ذلك أقسام أبو بكر رضي الله عنه ألا يكلم النبي صلى الله عليه وسلم إلا السرار أو أخا السرار . وقد بر رضي الله عنه بسمينه حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستعين به . ثم قفي على ذلك بيان مزايا من عمل بهذه الآداب ، فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ

فَلُوْبَهُ لِتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) أى ان الذين يخضون أصواتهم عند رسول الله اجلالا و تعظيما ، أوئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى وجعلها لها أهلا و محلا و كان جزاً لهم على ذلك مغفرة وأجرًا عظيمًا وقال جل شأنه في الادب مع رسوله صلى الله عليه وسلم في المجتمعات العامة : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَدْهُبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنُ لَمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَأْذِنْهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ)

في بين الآداب نحو الرسول عليه الصلاة والسلام في حال ما إذا كانوا مجتمعين معه على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه : كالمجتمع والجماعة والعيد والجهاد والتشاور في أمر ، وغير ذلك من الامور الداعية إلى الاجتماع ، وذلك بأنهم لا يتفرقون عنه صلى الله عليه وسلم ولا ينصرفون عمّا اجتمعوا له لعرض عندهم حتى يستأذنوه في الذهاب فإذا ذنب لهم به ، فإنهم خالفوا ذلك وتسليوا من عنده خفية واحدا بعد واحد ، كان ذلك علامه على نفاقهم وعدم ثبات إيمانهم لأن الخروج من مجلسه صلى الله عليه وسلم بغير إذنه من أمارات عدم الاكتراط به ، وعدين رغبتهم فيما جاء به واجتمعوا لاجله ، وذلك من أعظم الجنایات وأكبرها ، ولذا جعل الله جل شأنه استئذانه صلى الله عليه وسلم عند ارادة الانصراف من مجلسه من علامات كمال الإيمان في قوله : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى ومن لم يستأذن عند ارادة الانصراف فليس بهؤمن حقا ومن الآية الكريمة يؤخذ أدب المرءوس مع رءيسه ، وأدب المتعلم مع معلميه وأدب المصلين مع امامهم ، وأدب الرعية مع راعيهم ، فإن مراعاة الادب معهم ، واعتبار حرمتهم من الواجبات ، فأحرى بهم ألا يرموا أمراء دونهم

ولا يخالفون خطة لهم رسموها ولا يأمرنهم بأمر لا بادروا بتنفيذها كما لا ينصرفون من مجلسهم الا بعد استئذانهم
وجملة القول يفعلون كل ما فيه تمجيلهم وتعظيمهم واحترامهم ، ويتركون كل ما فيه تحقيرونهم واهانتهم .

وبعد أن بين جل شأنه كيف يتأدبون معه صلى الله عليه وسلم عند ارادة الانصراف من مجلسه أمره عليه الصلوة والسلام أن يأخذهم باللين ، ويعاملهم بالرفق ، وبما يكون داعية اللفة والتواد ، فإذا استأذنوه أحدهم من يخرج من المجلس لعرض عذر له أذن له إن شاء ومنعه إن شاء على حسب ماقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا معنى قوله تعالى له صلى الله عليه وسلم : (فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ) أي فإذا طلبوا منك الازن في أن يخرجوا من مجلس الاجتماع فأنت مخير بين أن تأذن لهم أولا . وفي هذا التفويض له صلى الله عليه وسلم من رفع شأنه ، وعلو منزلته عند الله تعالى - مالا يخفى . ولما كان الاستئذان وان كان لعذر مسوغ كثير المغفرة لفترات عباده والرحمة بالتسهيل عليهم ، بالغ فيما الغاية التي ليس وراءها غاية . وفي الآية الكريمة من المبالغة في الحفاوة به صلى الله عليه وسلم مالا يخفى ؛ إذ جعل سبحانه الاستئذان للذهب عنه أمر احتجاج للاستغفار ، فضلا عن الذهب بدون إذن، ورتب الازن منه على الاستئذان بعض شأنهم ، لا على الاستئذان مطلقا ، ولا على الاستئذان لأى أمر مهما كان أو غير مهم . ومع ذلك فقد علق الازن على المشيئة وليس ذلك بالغريب فرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه مكانة دونها كل مكانة والله يختص برحمته من يشاء والله غفور رحيم

المظاهر الآخر - متابعته صلى الله عليه وسلم في كل ماجاء به عن ربه ، والنزول عند حكمه والرضا بقضائه . وقد أفادها الله تعالى بقوله: (وما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةً إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ كُلُّمَاكِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) فبين ما يجب على عباده من الأدب وحسن المعاملة مع رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا حكم على أحدهم فليس له أن يختار من أمره شيئاً بل يجب عليه أن يجعل رأيه تبعاً لرأيه عليه الصلاة والسلام ، و اختياره تبعاً لاختياره ، حتى يكون بذلك مؤمناً حقيقة ، كما قال تبارك وتعالى: (فَلَا وَرَبَّكَ لَا يَؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحَكِّمُوا كَمِّ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُو فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مَا قَضَيْتَ وَيَسِّلُمُوا تَسْلِيمًا) وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وذلك لأن من لم ينزل على حكمه صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض بقضائه فهو ضال : وذلك إما لكونه يرى أن هذا الحكم منه صلى الله عليه وسلم وقع في غير محله ، فهو ظلم و جور فهو يتمتنع عن قبوله ، وهذا نهاية الخسران والضلال . وإما لأنه يرى أن حكمه عليه السلام وقع في محله ولكن لا يقبله عناداً وكبراً ، أو لأن لا يوافق هواه ، وعلى كل فهو جحود وكفران ، ولذا شدد الله سبحانه على من لم يرض بحكمه صلى الله عليه وسلم ، وختار غير ما اختاره بقوله : (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) أي ومن يعص الله ورسوله في أمر من الأمور مثل عدم الرضا بقضائه وحكمه صلى الله عليه وسلم - فقد ضل عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى : فان كان العصيان عصياناً رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب ، فهو ضلال خطأ وفسق . وعلى كل حال فهو من الضلال . وقلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم بحال لا يصح لمؤمن ولا مؤمنة أن يتصرف بها ويكون عليها .

وقال جل وعز في حسن متابعة الرسول والتأنسي به في أقواله وأفعاله

وأحواله: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) وبين لزوم الأدب معه صلى الله عليه وسلم بوجوب متابعته والتأسى به في أقواله وأفعاله إلا ما عالم أنه من خصوصياته صلى الله عليه وسلم

ولذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسى به صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب في صبره، ومصابرته، ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه، فقال للذين تضجروا وتزلزوا واضطربوا في أمرهم: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) أي اقتداء به صلى الله عليه وسلم اقتداء حسناً، وهو أن تنصروا دين الله، وتوازروا رسوله، ولا تختلفوا عن نصرته، وتصبروا على ما يصيبكم، كما فعل هو صلى الله عليه وسلم إذ كسرت رباء عيته وجراح وشج وجهه وأوذى بضروب الاذى فصبر، وواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أتم كذلك مثل فعله، واستنوا بستنته.

ولما كانت متابعته صلى الله عليه وسلم، والاقتداء به في مثل هذه الأمور العظام، والمواطن الصعبة التي لا يتحمل عبئها إلا من تيقن ثواب الله ورحمته ورسخ إيمانه وكمل يقينه، فلازم طاعته بكثرة ذكره، قال الله تعالى (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) أي هذه الأسوة الحسنة للذين يرجون ثواب الله ولقاءه ورحمته في اليوم الآخر والذين يذكرون الله كثيراً. والآية وإن كان سبباً بخاصها كما علمت - عامة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالتأسى به صلى الله عليه وسلم ومتابعته في كل ماجاء به حسنة في كل حال.

وقال تعالى في وجوب متابعته في كل ما أمر به وهي عنه: (وما آتاكم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ) وبين وجوب متابعته صلى الله عليه وسلم في كل ماجاء به، بفعل كل ما أمر به، وترك كل ما نهى عنه، لقوله تعالى: (وما آتاكم الرَّسُولُ

فَخَذُوهُ وَمَا نَهَا كُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا) أى أى شئ أمركم به من الطاعات و فعل الخيرات فافعلوه وأى شئ نهاكم عنه من الخبائث والمنكرات فاجتنبوه ، لأنه لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ، على أنه إنما يأمر بأمر ربه وينهى بنهى ربه ، فعدم متابعته صلى الله عليه وسلم في كل ماجاء به أو بعضه - مخالفة لأمر الله ونهيه ، ولا يحرق على مخالفة الله ورسوله إلا فقد الحياة . ولما أمر جل شأنه بالاتهار بأمره صلى الله عليه وسلم والاتهار بنهيء أمر بتقواه ، وخوف من شدة عقوبته فقال : « واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى اتقوه بامتناع أو أمره وترك زواجره ، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأياه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه . وهذا قليل من كثرة وفضض من غيض ، وحسبك من القلادة ما حف بالعنق .

الذرية السابعة

طبع نفوس النساء على التأدب في حق الله عز وجل وإلقاء خشيتها فيها وهو نوعان :

أما الأول : فعلى مثال ماجاء في قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِنِي وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيْنِي وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِي) فتراه نسب الخلق والمهدية والاطعام والسدقة إليه تعالى ، ونسب المرض إلى نفسه في قوله : (وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِي) وكان مقتضى السياق أن يقول وإذا أمرضني ، فينسب المرض إلى الله تعالى كما نسب إليه غيره من الأفعال مع اعتقاده بأن الكل منه ، وفي العدول عن ذلك من الأدب ما لا يخفى .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى حكاية عن مؤمن الجن عند بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعهم من استراق السمع : (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بِهِنَّ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) فتراه عنده إسناد الشر }}

١٠ — الخلق الكامل

بنوا الفعل للمجهول ولم يعينوا المريد له ، مع اعتقادهم بأن المريد له هو الله تعالى ، وعند إسناد الخير صرحاً بمربيده ، فقالوا : (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) وهذا أدب عظيم . ومثل هذا النوع من الآداب كثير في القرآن .

وأما الثاني : فامتثال المرأة أو أمرها جل شأنه ، واجتنابه نواهيه ومراقبته

في كل عمل من أعماله ، بل وفي سائر حركاته وسكناته ، فإن كان هذا العمل طاعةً كانت المراقبة باستحضار ذاته العالية وتمثل عظمته تعالى بقبله ، وانبعاث الحشية والخشوع من جميع جوارحه ، وأطمئنان نفسه بالمشول بين يديه ، وملحوظة أنه يراه في جميع حركاته وسكناته ، وهو معنى الإحسان الذي ذكره صلى الله عليه وسلم في قوله : « الْأَحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَمَا تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وإن كان هذا العمل معصية تذكر أن عليه رقيباً ، مهيمناً ، قريباً ، يعلم ما توسوس به نفسه ، ويختفيه صدره ، ويُبصر ديب البخل في الليلة الظلماء ، فعند ذلك يخشع قلبه ، وتستكين جوارحه ، ويتملك الخوف فؤاده ، فيجتنب القبيح بعد العزم عليه ، ويحجب عن المكر ، بعد الوصول إليه ، وبذلك تتم له السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة .

ويجمع المراقبة بقسميها كلامه « التقوى » وهي اتخاذ الوقاية من غضب الله تعالى بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه

ومن ذلك يتبيّن أنها اسم جامع لمجتمع أنواع البر ، وكامل لصاحبـهـ كلـ خـيرـ ، ومبعد عنه كلـ شـرـ ، ولذا أكثر الله جل شأنه في القرآن الكريم من الحث عليها ، مبيناً ما يترتب عليها من صلاح الدنيا ورفع الدرجات في الآخرة فمن ذلك قول الله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَنْتَظِرُونَ نَفْسَكُمْ مَا قَدَّمْتُ لَغَدِي وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَوَّا اللَّهَ فَآتَى نَسَاءَهُمْ أَنفُسَهُمْ أَوْ لَمْكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فالآية الكريمة ناطقة بثلاثة أمور :

الأول - الحث على التقوى وهي امتحان مأمور الله واجتناب مانعه الله عنه

الثاني - الحث على العمل الصالح، ومحاسبةُ الإنسان نفسه قبل أن يحاسب ،

والنظر فيما ادخره من الأعمال الصالحة ليوم معاشه وعرضه على ربه ،
ومناقشته الحساب : فيطالبه أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكته أنه لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، فإذا وجدها مع ذلك اقترفت ذنبها أو ارتكبت تقصيراً في حق الله تعالى وجب عليه أن يعاقبها ، وعقوبتها إما يمنعها عن مشتهياتها ، وإما بتوييخها الشديد ، أو باللوم عليها اللوم الصارم ، بأن يقول لها يانفس ، أى شيء جرأك على معصية الله : إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أنه لا يرايك فما أعظم كفرك ، وأشد جهلك !! وإن كانت مع عذابك باطلاته عليك فما أقل حياءك !! يانفس ، لو واجهك عبد من عبادك بل آخر من إخوانك بما تكرهينه كيف يكون غضبك عليه !! ومقتك له !! لا جرم أنك تعاقبئنه أشد العقاب ، وتخافين أنك لو تجاوزت عنه جرأتك إلى مالا تحمد عاقبته !! فكيف مع ذلك تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبه وشديده عقابه !! فإن كنت مغترة بكرم الله تعالى وفضله واستغناه عن طاعتكم وعبادتك فما بالك لا تعلمين على كرم الله في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلهم تستتبطين الحيل في دفعه ، ولا تتكلمي إلى كرم الله تعالى !!

وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينفع إلا بالدينار والدرهم ، فما بالك تنزعجين الروح في طلبها وتحصلها !! فلهم لا تعلمين على كرم الله تعالى حتى يسرّع لك عباداً من عبيده ، فيساعدك على نيل حاجتك !! أفتح حسبيان أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا !! وهكذا مثل هذه التوييخات ، فإن حاسب نفسه وعاقبها بمثل هذه العقوبات عند وجود تقصير منها تمت له طاعتها ، وسهل عليه تصريفها فيما

ينفعه وينفع قومه . أما إذا أهملها سهل عليه مقارفة المنكرات ، وانسنت بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب حرمان نفسه الفضائل السامية . وإلى هذه المحاسبة يشير الله تعالى بقوله : (ولَتُنْظُرُ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (اى حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبو ، وانظروا ماذا ادخرتم لها من الأعمال الصالحة يوم عرضكم على ربكم ، واعلموا أن الله تعالى عالم بجميع أحوالكم وأعمالكم لا تخفي عليه منكم خافية فيجازيكم عليها إن خيراً خيراً وإن شراً فشر .

الثالث - الحث على مداومة استحضار عظمة الله وجلاله كا يؤخذ من قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالذِّينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسُهُمْ أَوْ لَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فان الغفلة عن الله تعالى وجليل قدرته تورث الغفلة عن العمل الصالح الذي يرفع الأمم ويسعدها ، لأن الجزاء من جنس العمل ، قال تعالى (أَوْ لَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أى الخارجون عن صراط الله السوى

الذرية الثامنة

تربيته على حسن معاملة أفراد المجتمع

ما سلكه الاسلام في تكوين خلق الفرد أنه أوجب عليه أن يعامل أفراد المجتمع برفق ولين ، ويخفض جناحه للكبير منهم والصغير ، ولا يخاطب أحداً بغلظة ، ولا يتكبر ولا يتعاظم على أحد منهم ، بل يستجلب محبتهم بمحارم أخلاقه، وحسن معاملته ، ولطف صنيعه ، ولا يُكثِر الماء والخصوصة معهم ، وأن يبتدر من يعرف ومن لا يعرف بالتحية ، وإذا حياه غيره بتحية ردها بعينها أو بأحسن منها ، وأن يلقى غيره بالشاشة والبشر وطيب الكلام ، ولا يؤذِّهم بقول أو فعل ، وأن يعفو عن مذنبهم ، ويصفح عن تأديبهم ، ويتوَدَّد إليهم بكل وسائل أنواع التودد ، وألا يعد أحداً منهم وبعد إلا وَفَّى به ، إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة . وقد جاء

القرآن الكريم مبيناً هذه الآداب على أحسن وجهه وأكمله، مرشداً إلى ما يجب التخلق به، ويجب استعماله في معاملة أفراد المجتمع، من كل ما يجلب رضاه ومحبته فتحتده كلامهم وتتألف جامعتهم، ويسعون لأنفسهم فيما يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر والضرر: فمن ذلك ما حث الله سبحانه عليه من مقابلة الائمة بالاحسان، والذنب بالغفران، والغضب بالحلم، والغىظ بالكظم مع بيان المرة المترتبة على ذلك فقال: (وَلَا تَسْتُوِي الْحَسَنَةُ
وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِإِيمَانِهِيْ فَإِذَا الدِّيْنِيْ يَئِنَّكَ وَيَئِنَّهُ عَدَاؤَهُ كَمَّهُهُ
وَلِيْ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الدِّيْنِ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو
حَظٌّ عَظِيمٌ) فبين ما يجب على الأفراد من حسن معاملة إخوانهم صغيرهم وكبيرهم، فإن أغضبهم أحد صبروا وإن جهل عليهم حلموا، وإن أساء إليهم عفوا عنه، وإن أذنب في حقهم ذنبنا غفروه، وأغفوا عما حصل منه من المفوات، وتجاوزوا عما صدر منه من الغلطات، فإن فعلوا ذلك صار العدو لهم صديقاً، والبعيد عنهم قريباً، والبغض لهم حبيباً، وهذا ماأفاده الله بقوله: (وَلَا تَسْتُوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِإِيمَانِهِيْ
أَحْسَنَ فَإِذَا الدِّيْنِيْ يَئِنَّكَ وَيَئِنَّهُ عَدَاؤَهُ كَمَّهُهُ وَلِيْ حَمِيمٌ) أي إن أساء إليك رجل فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه: كأن يذمك فتمدّحه، أو يشتمك فتعطيه جائزة؛ فانك إن فعلت ذلك وأحسنت إليه من حيث أساء إليك - قاده إحسانك إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك، حتى يصير كأنه ول حميم أي قريب إليك يهم لأمرك من فرط الشفقة عليك. وبعد أن وصى عباده بحسن المعاملة، ومقابلة الائمة بالاحسان، وبين المرة المترتبة على ذلك، أخذ يمدح من عمل بهذه الوصية وحافظ على هذه المزية، فقال: (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الدِّيْنِ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا
إِلَّا ذُو حَظٌّ عَظِيمٌ) أي وما يقبل هذه الوصية ولا يعمل بها إلا من

اجتمعت له خلال الصبر وثبات القلب وقوة العزيمة ، وكان له منها نصيب موفور . وقال العلم الحكيم يعلم نبيه صلى الله عليه وسلم محسنـ الأدب ومكارمـ الأخلاق ، وحسنـ المعاملة ، مع صنوفـ الخلق سواء المطيع منهم والعاصي : (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ قَلْ إِنِّي بَرِّيٌّ مِمَّا تَعْمَلُونَ) فأمره أن يُلْيِنَ جانبه ويتواضعـ للمؤمنين ، لأن ذلك أدعى إلى اجتماعـ كلمتهم عليه ومحبتهم له ، وقيامـهم بكلـ ما يرضيه ، وبذلـهم النفس والنفيس في سبيلـ نشرـ دينه ، وسعـيـهم في إعلـاءـ كلمته ، ونصرـته علىـ أعدـائه ، وهذا ضربـ منـ التدـيرـاتـ الـالـهـيـةـ والـسـيـاسـاتـ الشرـعـيةـ التيـ يـحـبـ عـلـىـ كـلـ مـنـ قـامـ بـالـدـعـوـةـ لـيـرـشـدـ النـاسـ وـيـهـدـيـهـ إـلـىـ مـاـفـيهـ صـلـاحـ حـالـهـ دـنـيـاـ وـأـخـرـىـ ، وـيـقـوـمـ مـاـعـوـجـ مـنـ أـخـلـقـهـ . أـنـ يـكـوـنـ مـتـخلـقاـ بـهـ فـيـجـمـلـ الـمـعـاـلـمـ وـيـخـسـنـ الصـنـيـعـ مـعـ مـنـ خـالـفـهـ ؛ لـمـاـ فـيـ ذـلـكـ مـنـ مـحـبـهـ لـهـ وـدـعـهـ مـنـهـ ، وـرـبـاـ كـانـ ذـلـكـ سـبـبـاـ فـيـ رـجـوعـهـ عـنـ مـعـصـيـتـهـ وـمـخـالـفـتـهـ إـلـىـ طـاعـتـهـ وـأـمـتـالـ أـمـرـهـ ، وـذـلـكـ بـأـنـ يـلـطـفـ بـهـمـ وـيـخـنـوـ عـلـيـهـمـ ، فـلـاـ يـعـاقـبـهـمـ وـلـاـ يـرـدـعـهـمـ وـلـاـ يـبـرـأـهـمـ وـلـاـ يـقـبـسـوـ عـلـيـهـمـ فـيـ الـمـعـاـلـمـةـ ، وـإـنـ كـانـ مـاـعـمـلـوـهـ مـنـ الـمـخـالـفـةـ وـالـعـصـيـانـ يـسـتـحقـقـوـنـ عـلـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ ، بـلـ غـاـيـةـ مـاـ يـقـاـلـهـمـ بـهـ أـنـ يـتـبـرـأـ مـنـ عـمـلـهـمـ وـيـقـولـ لـهـمـ : (إِنِّي بَرِّيٌّ مِمَّا تَعْمَلُونَ) وـالـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ وـإـنـ كـانـ الـمـأـمـورـ فـيـهاـ بـخـفـضـ الـجـنـاحـ وـاستـعـمـالـ الـلـيـنـ وـالـلـطـفـ وـحـسـنـ الـمـعـاـلـمـ وـالـمـجـاـلـمـ هـوـ خـصـوـصـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ . هـدـاـيـهـ لـأـمـتـهـ وـأـتـيـعـهـ بـطـرـيقـ التـبـعـ ؛ لـأـنـ كـلـ أـمـرـ لـهـ أـمـرـ لـأـمـتـهـ مـالـمـيـرـدـ نـصـ مـخـصـصـ ، وـلـذـاـ وـجـبـ عـلـىـ كـلـ مـسـلـمـ أـنـ يـعـاـمـلـ جـمـيـعـ النـاسـ بـالـرـفـقـ وـالـلـيـنـ وـالـتـوـاضـعـ ، وـيـسـتـجـلـبـ مـحـبـهـمـ إـلـيـهـ بـمـكـارـمـ أـخـلـاقـهـ ، وـحـسـنـ مـعـاـلـمـتـهـ ، وـلـطـفـ صـنـيـعـهـ سـوـاـ الـخـيـرـ مـنـهـ وـالـمـسـئـ ، فـاـنـ ذـلـكـ أـدـعـىـ لـمـعـوـتـهـمـ لـهـ وـقـتـ الـحـاجـةـ وـإـغـاثـهـمـ لـهـ وـقـتـ الشـدـةـ ، وـنـصـرـتـهـ وـقـتـ الـحـرـجـ وـالـضـيقـ .

وقـالـ جـلـ ذـكـرـهـ فـيـهاـ يـحـبـ أـنـ يـسـتـعـمـلـ الـإـنـسـانـ مـعـ خـصـمـهـ مـنـ حـسـنـ

المعاملة والملاظفة واللين حتى يكون ذلك سببا في قبول قوله ، وإجابة طلبه ، مخاطبا بذلك موسى وأخاه هرون عليهما السلام ، عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله تعالى : (إذْهَبَا أَنْتَ وَأَخْوُكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنْهَا فِي ذِكْرِي ، إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ اعْلَمُ بِيَتَدَكِّرُ أَوْ يَخْشَى) فيقول الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام : اذهب أنت وأخوك هارون إلى فرعون وادعواه إلى عبادتي وتوحيدى والاخلاص لي ، ومعك آياتي ومعجزاتي وحججي وبراهيني ، متمسكين بها في اجراء أحكام الرسالة ، واتمام أمر الدعوة ، وعليكما مع ذلك عند مواجهتهما له ومقابلتكما إياه ألا تانيا ولا تقصرا في ذكرى ، واستحضار أنت وليساكما وناصركمَا مع الدعوة إلى توحيدى ، ليكون ذلك عونا لكما عليه ، وقوة وسلطانا ، كما قال نبينا عليه الصلة والسلام عن ربه : (إِنَّ عَبْدَى اللَّهِ يَدْكُرُنِي وَهُوَ مُنْتَاجِزٌ قَرِئَنِيهِ) أى يذكر أنتي وليه والأخذ بيده . وبعد أن أمر جل شأنه موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ويصبح أخيه هرون معه - أخذ يأمرهما بالذهاب إلى فرعون ، ويرشدُهما إلى ما يقولان له لعله يكون سببا في إذعانه لهما ، وقبوله ماجاه به ، فقال : اذهبا إلى فرعون إنه طغى : أى تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه وتجاوز الحد في الكفر والقرد بداعاته الربوية ، فقولا له قولًا لينا لا لخشونة فيه ، فأن التخشنين في القول من أعظم أسباب التفور وعدم الامتثال ، بخلاف تلتين القول فإنه أسرع إلى الإجابة ، وأدعى إلى كسر سورة العنة ، وتلتين قسوة الطغاة ، وقد فعل عليهما الصلة والسلام ما أمر به فقد قال الله : (إِنَّا رَسُولُنَا رَبُّكَ فَأَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِبْهُمْ) وقال له موسى عليه السلام : (هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَتَخَشَّى) فأن هذا غاية في اللين والرفق ، لأن دعاء في صورة العرضة والمشورة ، وقد ذكر جل شأنه العلة الباعثة على دعوته باللين وحسن الملاظفة

قال : (لعله يتذكرة أو يخشى) أى لعله يتأمل فيذل النصفة من نفسه ، والاذعان للحق ، فيدعوه ذلك إلى الامان ، أو يخشى أن يكون الأمر كما تصفان فيجر وإنكاره إلى الملة ، وذلك يدعوه إلى الامان أيضا ، فهذا ما أمر الله نبيه موسى وأخاه هرون : من حسن المعاملة مع فرعون واللذين له في القول والتلطيف به ، وهم صفة الله من خلقه إذ ذاك ، وهو أحاط منهما قدرًا عند الله تعالى ، فكيف بمعاملة غيره من المؤمنين ببعضهم بعضا ، فإنهم أولى باستعمال الملاطفة واللذين بينهم . وقال تعالى يعلمنا كيف تعامل خلقه ، بتأنية مالهم من الحقوق ، مع بيان ما أعدده الله لمن أحسن هذه المعاملة من النعم المقيم ، وما أعده لمن لم يحسنها من الهوان والعذاب الأليم :

« الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ مِيَثَاقَهُمْ وَالَّذِينَ يَصْلُوْنَ مَا أَمْرَهُ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيَخْشُوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُوْنَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوْا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا عَلَانِيَةً وَيَذْرِئُوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أَوْ لِئِكَ لَهُمْ عُقَبَ الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدُنٍ يَدْخُلُوْنَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُوْنَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا صَبَرُوْمُ فَنَعَمْ عُقَبَ الدَّارِ . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيَثَاقِهِ وَيَقْطَعُوْنَ مَا أَمْرَهُ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيَسْدِلُوْنَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْلَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) فيبين ما أعدده لمن أحسن من عباده المؤمنين المعاملة معه جل شأنه ، ومع عباده من الثواب الجزييل والنعيم الدائم المقيم ، وقد بين جل شأنه أن حسن المعاملة يكون بأشياء :

الأول — الوفاء بالعهد وهو بالنسبة لله عز وجل امتناع أوامرها واجتناب نواهيه ، وبالنسبة للخلق ألا يعد أحدهم وعدا إلا وفي به وأنجزه ، ولا يكون كالمنافق إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم بغير ، وإذا حدث كذب ،

و اذا اؤتمن خان .

الثاني - صلة ما أمر الله به أن يوصل ونهى أن يقطع ، وهي بالنسبة لله عز وجل دوام مراقبته وتمثل عظمته في قلبه ، حتى يكون ذلك زاجر الله عن معصيته ومخالفته أمره ، والإيمان بالكتب والرسول ، فإنه جل شأنه أمر بوصل ذلك وعدم قطعه . وبالنسبة للخلق ثلاثة أنواع : وصل قرابة المؤمنين الشابة بالآيمان والداخلة في عموم قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ويكون بالاحسان إليهم على قدر الطاقة والواسع ، ونصرتهم والذب عنهم أو الشفقة عليهم ، وجلب الخير إليهم ، ودفع الضرر عنهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ، إلى غير ذلك . ووصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويكون بالشفقة بهم ، وتعهد لهم فيما يحتاجون إليه ، واحترافهم وتوقيرهم والتودد إليهم ، كما قال تعالى : (قُلْ لَا أَسأْلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فان في صلتهم صلة رسول الله صلى الله عليهم وسلم ، وهي غاية ما يسعى المرء لنيله . ووصل قرابته من الرحم : ويكون بأن يطعمهم من جوع ، ويوئذهم من خوف ، أو يقضى عنهم دينا ، أو يفرج عنهم غنا ، أو يقضى لهم ما يحتاجون إليه إن كانوا فقراء ، ويعاملهم بالتودد ، ويعهد لهم بالزيارة ، ويدأهم بالسلام إن كانوا أغنياء .

الثالث - الخشية من الله تعالى ، ومراقبته جل شأنه في جميع الأعمال والأحوال ، والخوف من سوء الحساب في الدار الآخرة ؛ فان دوام المراقبة والخشية والخوف من سوء الحساب يوم الحساب بما يوطن قلب العبد على طاعة الله تعالى ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . وما أحسن تلك المعاملة الرابع - الصبر عن المحارم ، والتعفف عن المآثم ، وترك جميع الموبقات ، ونبذ سائر المنكرات ، واحتمال المشاق في نصرة الله ودينه ، ولا غرض من ذلك سوى طلب مرضاه الله تعالى ، وجزيل ثوابه .

الخامس - إقامة الصلاة بحدودها ومواعيدها ورسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ، فإن ذلك من حسن المعاملة بمكانة دونها كل مكانة .

السادس - الانفاق من فضل الله تعالى على من يحب لهم الانفاق : من زوجات وقرابات وأجانب : من فقراء ومساكين ، في السر والجهر .

السابع - درء السيئة بالحسنة أى دفعها بها ، فإذا آذهم أحد قابلوه بالجميل ، صبراً واحتتملاً وصفحاً وغفروا ، وإن أساء إليهم عفوا عنهم ، وإن حصل منه هفوة ، أغضوا عمما حصل منهم المفوات وتجاوزوا عما فرط منه من الغلطات ، فهذه الأشياء التي ذكرها الله غاية في حسن المعاملة معه ومع عباده . ثم بين ما يترتب عليها من التواب الجزيل والسعادة الأبدية بقوله : (أُولَئِكَ لَهُمْ عَقْبَى الدَّارِ) ثم فسر ذلك بقوله : (جَنَّاتُ عَدُونَ) أى جنات إقامة يخلدون فيها هم ومن هو صالح لدخول الجنة من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم ليكون في الجمع بينهم وبين من يحبون من أهلهـم وقربائهم قرة عين لهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب الجنة ، يسلّمون عليهم ويهنئونهم بما حصل لهم من التقرير والانعام ، والإقامة في دار السلام ، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام جزاء حسن معاملتهم مع الله ومع خلقه .

وبعد أن بين سبحانه حال السعداء وما أعد لهم من النعيم المقيم أتبع ذلك بيان أحوال الأشقياء ، وما أعد لهم من العذاب الشديد والعقاب الأليم ، وهم الذين لم يحسنوا المعاملة مع الله تعالى ومع عباده فقال : (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيَتَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْمُنْتَهَى وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) . وقال تعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم لطف المعاملة وحسن المصنعة مع اليتامي الأذلاء والفقراء الضعفاء ، ولنا فيه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة : (فَأَمَّا الْيَتَيمَ فَلَا تَقْهِرْ . وَأَمَّا

السائلـ فـلـا تـنـهـرـ وـأـمـا بـنـعـمـةـ رـبـكـ فـحـدـثـ) فيـنـ وـجـوـبـ حـسـنـ المـعـاـمـلـةـ ولـطـفـ الـمـجاـمـلـةـ معـ هـذـيـنـ الصـنـفـيـنـ ، وـهـوـ الـيـتـيمـ الـذـىـ مـاتـ أـبـوهـ وـهـوـ صـغـيرـ ، وـالـسـائـلـ الـذـىـ أـلـجـأـتـ الـحـاجـةـ وـالـفـاقـةـ إـلـىـ ذـلـىـ السـؤـالـ وـتـكـفـفـ النـاسـ : فـخـسـنـ الـمـعـاـمـلـةـ معـ الـيـتـيمـ أـلـاـ يـقـهـرـهـ وـلـاـ يـغـضـبـهـ وـلـاـ يـأـخـذـ مـنـهـ حـقـاـهـ لـهـ ، وـأـنـ يـكـونـ لـهـ كـالـأـبـ الرـحـيمـ لـلـابـنـ الـبـارـ ، فـيـسـعـيـ فـيـ نـمـاءـ مـالـهـ إـنـ كـانـ لـهـ مـالـ ، وـفـيـ تـعـلـيمـهـ وـتـرـيـتـهـ وـيـحـسـنـ كـفـالـتـهـ فـلـاـ يـذـلـهـ وـلـاـ يـنـهـرـهـ وـلـاـ يـهـيـنـهـ ، وـلـاـ يـفـعـلـ بـهـ أـمـرـ يـكـدرـ خـاطـرـهـ أـوـ يـحـصـلـ لـهـ مـنـهـ ضـرـرـ . وـإـنـماـ وـصـىـ جـلـ شـأنـهـ بـالـيـتـيمـ هـنـاـ وـفـيـ مـوـاضـعـ كـثـيرـةـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ، وـحـثـ عـلـىـ ذـلـكـ وـرـغـبـ فـيـ حـسـنـ كـفـالـتـهـ وـلـطـفـ مـعـاـمـلـتـهـ - لـأـنـ الـيـتـيمـ الـذـىـ مـاتـ أـبـوهـ ، وـكـانـ الـمـتـكـفـلـ بـحـسـنـ تـرـيـتـهـ وـتـعـلـيمـهـ وـنـجـاحـهـ وـفـلـاحـهـ وـالـسـعـىـ وـرـاءـ كـلـ مـاـيـكـوـنـ فـيـ سـعـادـتـهـ فـيـ الدـيـنـاـ وـالـآـخـرـةـ ، وـالـقـائـمـ بـتـدـيـرـ حـالـتـهـ الـمـعـاـشـيـ وـالـنـظـرـ فـكـلـ مـاـيـجـلـبـ لـهـ الـخـيـرـ وـيـدـفـعـ عـنـهـ الشـرـ وـالـضـيـرـ ، إـذـاـ لـمـ يـجـدـ مـنـ يـقـومـ لـهـ بـمـاـكـانـ يـقـومـ لـهـ بـهـ أـبـوهـ - نـشـأـ عـلـىـ الـأـخـلـاقـ الـفـاسـدـ وـالـطـبـاعـ الرـذـيلـ ؟ لـأـنـ الـنـفـسـ بـطـبـعـتـهاـ مـيـالـةـ إـلـىـ الشـرـ وـمـطـبـوعـةـ عـلـىـ الـفـجـورـ ، فـاـذـاـ لـمـ تـجـدـ وـازـعـاـ يـكـبـحـ جـاهـاـ ، وـيـحـولـ دـوـنـ تـنـفـيـذـ كـلـ رـغـبـاتـهاـ ، لـاـسـيـماـ فـيـ الصـغـرـ تـحـكـمـتـ فـيـ الشـهـوـاتـ ، وـتـمـكـنـتـ فـيـهاـ الرـذـائـلـ وـالـمـنـكـرـاتـ ، فـيـنـشـأـ صـاحـبـهاـ عـلـىـ ذـلـكـ فـاسـدـ الـأـخـلـاقـ مـرـذـولـ الـطـبـاعـ مـنـقـادـاـ لـأـهـوـاـهـ الـبـهـيمـيـةـ عـبـدـاـ لـشـهـوـاتـهـ الـمـدـنـيـةـ ، وـبـذـلـكـ يـكـونـ كـلـاـ عـلـىـ الـمـجـتـمـعـ وـجـرـثـومـةـ فـسـادـ فـيـهـ . وـحـسـنـ الـمـعـاـمـلـةـ معـ السـائـلـ يـكـونـ إـمـاـ بـاجـابةـ مـاـسـأـلـهـ ، وـالـنـصـحـ وـالـاـخـلـاصـ لـهـ فـيـ الـجـوابـ ، مـعـ دـمـرـتـهـ وـالـتـكـبـرـ وـالـتـجـبـرـ وـالـفـحـشـ فـيـ القـوـلـ وـإـظـهـارـ الـفـضـلـ عـلـيـهـ إـنـ كـانـ سـيـأـلـاـعـنـ عـلـمـ ، وـإـمـاـ باـعـطـائـهـ سـؤـلـهـ ، أـوـرـدـهـ بـرـحـمـةـ وـلـيـنـ ، وـتـعـطـفـ وـتـلـطـفـ ، إـنـ كـانـ مـخـتـاجـاـ يـسـأـلـ مـاـبـهـ يـسـدـ رـمـقـهـ وـيـزـيلـ عـوـزـهـ . وـلـاـ يـصـحـ أـنـ يـقـابـلـ السـائـلـ الـذـىـ هـذـهـ حـالـتـهـ بـالـفـاظـةـ وـالـغـلـاظـةـ وـالـكـبـرـ مـنـ الـمـسـئـولـ ؟ فـانـ فـيـ ذـلـكـ مـنـ قـلـةـ الـمـرـوـعـةـ وـخـسـةـ الـطـبـعـ مـاـلـاـ يـخـفـ .

عـلـىـ أـنـهـ لـاـيـحـسـنـ بـعـاـقـلـ أـنـ يـتـقـلـبـ فـيـ نـعـمـةـ ، وـلـاـ يـرـىـ مـنـ الشـكـرـ عـلـىـ هـذـهـ

النعمة التي جعلته مسؤولاً وغيره سائلاً، وعزيزاً وغيره ذليلاً يكشف الناس ويأسأهم، هذا يمنحه وهذا يمنعه - حقالاً يحسن به ألا يرى من الشكر أن يمنح أخيه المؤمن وهو يسأله مما منحه الله من العلم أو المال ما يسده حاجته؛ فذلك من زمانة في مرؤته وخسته في طبعه.

وقال جل ذكره يحيث على حسن المعاملة مع الناس بالعفو عن مذنبهم والصفح عن تائهم : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَأَمْسَاكِينَ وَأُمَّهَاجِرِينَ فِي سَيِّلِ اللَّهِ وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفَحُوا لَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فينبغي وجوب صلة الرحم والأقرباء مهما اقترفوا من الذنب ، ولا يكون مافعلوه سبيلاً في أن يأتلي أولوا الفضل والسعنة أى يخلفوها أن يمنعوهم ما كانوا يحسنون به عليهم ، ول يكن ديدنهم معهم العفو عن ذنبهم الذي أذنبوه ، وجنائهم التي اقترفوها ، والصفح عن تائهم بالاغضاء عنه ، والاغراض عن جنائته؛ فان ذلك سبب لعفو الله تعالى ومغفرته ، كما قال تعالى ، مرغباً في العفو والصفح ، حاثاً عليهم : (وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

وسيلة تقويم الخلق

تمهيد

الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار ، وللنفس أخلاق تحدث عنها بالطبع ، ولهما أفعال تصدر عنها بالإرادة فهما ضربان أخلاق الذات ، وأفعال الإرادة . والانسان مطبوع على أخلاق قلباً حمد جميعها أو ذم سائرها ، وإنما الغالب أن بعضها محمود وبعضها مذموم ، فتعذر لهذا التعليل أن تستكمم فضائل الأخلاق طبعاً وغريزة ، ولزム لأجله أن يتخللها رذائل الأخلاق طبعاً وغريزة ، فصارت الأخلاق غير منفعة في جبلة

طبع وغريزة الفطرة عن فضائل محمودة ورذائل مذمومة . وإذا استقر ذلك فالسعيد من غابت فضائله على رذائله ، فقدر بوفور الفضائل على قهر الرذائل ، وسلم من شين النقص ، وسعد بفضيلة الفضل فالانسان أولى بالاعطف والتشجيع على الفضائل المكتسبة ، لأنها مستفادة بفعله ، دون الفضائل المطبوعة وإن حمدت فيه لوجودها بغير فعله . ومن القبيح أن يتحرز المرء من أغذية البدن اتقاء الضرر ولا يعني بهذيب أخلاقه ومداوتها بالعلم الذي هو غذاؤها صوناً لسلامتها ، وإذا كنا نعني بجميع أعضاء البدن وخاصة بالشرف منها فالحرى أن نعني بأجزاء النفس وخاصة بالشرف منها وهو العقل .

وكما أن الأمراض التي تعرض للبدن إن لم يعلم الطبيب أسبابها لم يتمكن من علاجها كذلك علل النفس ينبغي أن نعني باستعمال أسبابها ، فتى أحسن الإنسان أنه خطأ وأراد ألا يعود ثانية فلينظر أى أصل في نفسه حدث ذلك عنه فيحتال في إزالته .

وبعد فلو لم يكن إلى تغيير الأخلاق سهل ما كان للأقاويل التي أودعها الحكاء كتبها في استصلاح الأخلاق معنى ؛ إذ لا يرجح لها نفع ولا جدوى . وكذلك لم يكن للمواعظ التي يقصد بها ذوق الأخلاق الذمية من الأشرار معنى إذا لم نطعم في اتقاهم عمامهم عليه من الشر . ولذلك كانت وسائل تقويم الخلق هي :

١ - يجب أولاً أن نحصي الأخلاق خلقاً خلقاً ونحصي الافعال الناشئة عن خلق خلق ، ومن بعد ذلك ننظر أى خلق نجد أنفسنا عليه ، وهل ذلك الخلق الذي اتفق لنا منذ أول أمرنا جميل أو قبيح ؟ والسؤال إلى الوقوف على ذلك أن تتأمل أى فعل إذا فعلناه لحقنا من ذلك الفعل لذاته ، وأى فعل إذا فعلناه تتأذى به ، فإذا وقفنا عليه نظرنا إلى ذلك الفعل : فهو فعل يصدر عن الخلق الجميل أم هو صادر عن الخلق القبيح ؟ : فإن كان ذلك عن خلق

جميل قلنا ان لنا خلقا جميلا في تلك الوجهة ، وإن كان ذلك عن خلق قبيح
 قلنا إن لنا خلقا قبيحا من هذه الوجهة ، فبهذا الوجه نقف على الخلق الذي
 نصادف أنفسنا عليه ، أى خلق هو . وكما أن الطيب متى وقف على حال
 البدن نظر : فإن كانت الحال التي صادفه عليها حال الصحة احتال في حفظها
 على البدن ، وإن كان ما يصادف عليه البدن حال سقم أعمل الحيلة في إزالتها
 عنه - كذلك متى صادفنا أنفسنا على خلق جميل احتلنا في حفظه ، وإن
 صادفناها على خلق قبيح استعملنا الحيلة في إزالتها عنها ، فإن الخلق القبيح سقم
 نفساني ، فينبغي أن نختذل في إزالة أقسام النفس حذو الطبيب في إزالة
 أقسام البدن ، ثم ننظر بعد ذلك الخلق القبيح الذي صادفنا أنفسنا عليه ، فهو
 من جهة ا زيا دة أو النقصان ؟ وكما أن الطبيب أيضا متى صادف البدن أزيد
 حرارة أو أنقص رده إلى التوسط من الحرارة بحسب الوسط المحدود
 في صناعة الطب - كذلك متى صادفنا أنفسنا على الزيا دة أو النقصان في الأخلاق
 ردناها إلى الوسط المحدود في هذا الكتاب .

ولما كان الوقوف من أول وهلة على الوسط عسرا جداً المتسنا الحيلة
 في وقف الإنسان عليه أو على القرب منه جداً : وذلك أن ننظر الخلق الحاصل
 لنا : فإن كان من حيث الزيا دة أو النقصان عودنا أنفسنا مباشرة الصد ونديم
 ذلك زمانا حتى يتحقق الوسط .

٢ - وأن يرتاض الإنسان بمكارم الأخلاق ومحاسنها ويتنزه عن مساوتها
 ومقابها ، ويأخذ في جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلاً في أفعاله عن
 عن طرق الرذائل ، وأن يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعایب ،
 ويصرف همه في اقتناء كل خلة كريمة خالصة من الشوائب ، وأن يبذل
 جهده في اجتناب كل خصلة مكرورة ، ويستنجد وسعه في اطراح كل خلة
 مذمومة ، حتى يحوز السكال بتهدیب خلائقه ، ويكتسى حلال الجمال بدماته
 شمائله ، فإنه إذا حاسب نفسه ، وأجاد فکره - علم أن الضرر في مساوى

الأخلاق أكثـر من النفع ، وأن الذى يعده نفعا ، وليس نفعا على الحقيقة - هو يسير جدا غير باق ولا مستمر ، وأن هذا يسير الذى يعده نفعا لا يفي بالضرر الكثـير والعـار الدائم المتصل .

ويعلم أيضا أن الشر والخبـث لا يعقبان إلا الشر ويوحـشـان منه الناس : ألا ترى أن من تشرـر قصـدهـ الناس بالـشـرـ واستـعدـوا لـأـذـيـتهـ ، واحـتـرـزوا منهـ وـكـرـهـواـ نـفـعـهـ ، وـحـظـرواـ عـلـيـهـ وجـوهـ الخـيـرـ ؟

وـصـفـوـةـ القـوـلـ أـنـ السـبـيلـ إـلـىـ اـعـتـقـادـ الـإـنـسـانـ الـأـخـلـاقـ الـمـحـمـودـةـ وـاسـتـعـهاـمـاـ وـاجـتـنـابـ المـذـمـومـةـ وـإـهـمـاـهـاـ ثـلـاثـةـ أـمـورـ :

الـأـوـلـ بـتـميـزـ الـقـوـةـ النـاطـقةـ بـأـحـوالـ ثـلـاثـةـ : بـمـداـوـةـ الـاطـلـاعـ عـلـىـ كـتـبـ الـأـخـلـاقـ وـالـسـيـاسـاتـ وـالـعـمـلـ بـهـاـ ، وـبـتـدـيقـ النـظـرـ فـيـ الـعـلـومـ الـعـقـلـيةـ وـالـبـحـثـ عـنـهـ ، وـبـالـتـدـرـجـ إـلـىـ اـسـتـعـمـالـ الـعـادـاتـ الـجـيـلـيـةـ وـتـرـكـ ضـدـهـ .

الـثـانـيـ بـقـهـرـ الـقـوـةـ الشـهـوـانـيـةـ بـأـحـوالـ ثـلـاثـةـ : بـأـنـ يـجـتـنـبـ مـجـالـسـةـ السـفـهـاءـ وـالـخـلـعـاءـ وـالـنـسـاءـ وـالـأـرـذـالـ ، وـبـأـنـ يـكـثـرـ مـجـالـسـةـ الزـهـادـ وـذـوـيـ الـاجـتـهـادـ وـالـوـرـعـ ، وـبـأـنـ يـتـحرـىـ الـجـيـلـ مـنـ رـغـبـاتـهـ ، فـيـحـقـقـهـ

الـثـالـثـ بـتـعـدـيلـ الـقـوـةـ الغـضـبـيـةـ بـأـحـوالـ ثـلـاثـةـ :

بـأـنـ يـذـكـرـ الـمـؤـذـىـ أـنـ لـوـ كـانـ هـوـ الـمـؤـذـىـ هـلـ كـانـ يـخـتـارـ ذـلـكـ مـنـهـ ؟ وـأـنـ يـنـفـرـ مـنـهـ ؟

وـبـأـنـ يـتـذـكـرـ ماـشـهـدـهـ مـنـ طـيـشـ غـيـرـهـ فـلـاـ يـرـضـاهـ لـنـفـسـهـ عـنـدـ الغـضـبـ ، وـبـأـنـ يـكـسـرـ سـوـرـةـ الغـضـبـ بـالـرـفـقـ ، وـبـسـتـعـمـلـهـ عـلـىـ تـعـدـيلـ الـقـوـةـ الشـهـوـانـيـةـ فـقـطـ .

لاـجـرـمـ أـنـ مـلـاـكـ الـأـمـرـ فـيـ تـهـذـيبـ الـأـخـلـاقـ هـوـ تـقـوـيـةـ الـعـقـلـ وـتـمـكـيـنـهـ مـنـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ الـقـوـانـينـ الـغـضـبـيـةـ وـالـبـهـمـيـةـ ، وـخـيـرـ السـبـيلـ إـلـىـ تـقـوـيـةـ الـعـقـلـ مـعـالـجـةـ الـعـلـومـ الـعـقـلـيـةـ ؛ فـاـنـ الـإـنـسـانـ إـذـاـ نـظـرـ فـيـهـ ، وـدـرـسـ كـتـبـ الـأـخـلـاقـ

والسير ، وداوم عليها - تيقظت نفسه ، وانتعشت من خمولها ، وأحسست فضائلها وأنفت من رذائلها ؛ لأنها إنما تضعف وتحفت إذا عدلت الفضائل والمناقب ، واستولت عليها الرذائل . وإذا ارتأى الإنسان بالعلوم العقلية ، شرفت نفسه وعظمت همته ، وقويت فكرته ، وتمكن من نفسه ، وتملك من أخلاقه ، وقدر على إصلاحها ، وانقاده طبعه ، وسهل عليه تهذيبه . ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية فيبذل جهده في تدقيق الفكر ، ومجاهدة النفس وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة ؛ لينظر أيهما أجدى عليه ، وأنفع له ، وأياماً أحمد عاقبة ، وأبقى على الأيام . وما يهذب النفس ويصلحها أن يجعل الإنسان غرضه من كل فضيلة غاليتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلا بأرفع درجة ؛ فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريراً أن يتصرف بالفضائل ، ويلغى منها درجة مرامية إن فاتته الدرجات الرفيعة . فاما إن قنع بما دون الغاية فلا يأمن أن يقصر عن بلوغها ويفوت المطلوب .

مراتب الناس في قبول التأديب

هي كثيرة وتشاهدو تعاين فيهم ، وخاصة في الأطفال ؛ فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ مبدأ نشوئهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كا يفعل الرجل التام الذي انتهى في نشوئه وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقيح منه ، فيخفىء بضروره من الحيل والإفعال المضادة لما في طبعه . وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب ونفورهم عنه ، وما يظهر في بعضهم من القحة ، وفي بعضهم من الحياة ، وكذلك ما يرى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، إلى سائر الأحوال المتفاوته - ما تعرف به مراتب الإنسان في قبول الأخلاق الفاضلة ، وتعلم منه أنهم ليسوا على مرتبة واحدة ، وأن فيهم المواتي والممتنع ، والسهل والسلس ، والفظ العسر والخير والشرير ، والمتوسط بين هذه الأطراف في مراتب لا تختصى كثرة .

وإذا أهملت الطباع ولم تُرَضِ بالتأديب والتقويم نشأ كل إنسان على سُوْمٍ طباعه وبق عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولة ، وتبعد ما وافقه بالطبع من غضب أو عراوة أو شره أو غيرها .

أثر الآسوة في تقويم الخلق

تمهيد

النفس مجبولة على حب المياثلة والمحاكاة

اعلم أن حب النفس للمياثلة ، ومحاكاة الغير - هو السبب الكلى في مسارقة الطبع وتغريمه إلى الفساد عند مشاهدة المعاصي والمقاسد ، ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعم الله عليه ، فتؤثر فيه مجالستهم فيستصغر معنده ، وتوثر فيه مجالسته الفقراء فيستعظم ما أتيح له من النعم : قال جعفر بن سليمان : كلما قترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة ، فيرجع إلى نشاطي في العبادة ، ويفارقني الكسل . ويكون في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته ، وبهذا يعرف قوله صلى الله عليه وسلم : « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » وهو كناية عن انبعاث الرغبة من القلب ، وحركة الحرص على الاقتداء بهم ، والاستنكاف عن ما هو ملابس له من القصور والتقصير . والمفهوم من خوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه : وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة ، لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي ، ويدعن للهيل إليها ، فيكون ذكرهم موجباً للعنة . وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ، بل قد صرحت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « مثل الجنين الشوء كمثل الكبير إن لم يخر قلبه بشر ره علق بك من ريحه » لهذا ينبغي لمن عرف من عالم زلة لا يحيكها : لأن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من

(١١ - الخلق الكامل)

قلو بهم استعظام الاقدام عليها ، فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية . وقد علم من هذه الكلمات سببية كون الأخلاق معدية ، والطبع سرقة ، وعرف ماجبت عليه النفس من المماطلة . وعما هو من باب المذاكلة ما جبت عليه النفوس من ميلها لشكلاها وأنسها بجنسها : قال بعض البلغاء : من شأن الأجناس أن تتواصل ، ومن عادة الأشكال أن تتألف ، والشيء يتغلل إلى معدنه ، ويحن إلى عنصره ، فإذا صادف منبته ولاقي عنصره - وشجر بعروقه ، وشبك بعروقه ، وتمكّن على الإقامة ، وثبت ثبات الطينة : قال صل الله عليه وسلم : « لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد - جاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد - جاء حتى يجلس إليه » وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع ، وإن كان هو لا يشعر : قدم الناس إلى مكة المشرفة ، فقالوا : قدمنا إلى بلادكم ، فعرفنا خياركم من شراركم في يومين ، قيل : كيف ؟ قالوا : لحق خيارنا بخياركم وشرارنا بشراركم فألف كل شكله . ومن هذا قال بعض البلغاء :

تخيير أخاف في الله تصح به ساعة * فكل امرئ يصبو إلى من يجانس
وهذا الخلق لا يختص بالانسان ، بل يوجد في سائر الحيوانات : قال بعض الكلاء : كل إنسان مع شكله ، كما أن كل طير مع جنسه . وفي الآخر أنه لما مات بعض الخلفاء واختلف المسلمون جمعت الروم ملوكها لغزو بلادهم وفتحها ، وكان فيهم رجل صاحب عقل ورأي ، فنهاهم فلم ينتهوا ، فلما أصبحوا أغدو عليهم ، فأحضر كلبين عظيمين قد أعدهما ، ثم حرش بينهما ، فتهاشما حتى سالت دمائهما ، فلما بلغان العاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على الكلبين ذئبا قد أعده ، فلما أبصراه ترك ما كان عليه ، ووثبا جميعا على الذئب فقتلاه ، فأقبل ذلك الرجل على جمع الروم وقال : مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب : لا يزال الهرج من المسلمين مالم يظهر لهم العدو من غيرهم ، فإذا ظهر العدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم ، وتألفوا على العدو . فقبلوا قوله .

ومن هذا الباب قول أرسطاطاليس : « الأشكال لاحقة بأشكالها كما أن الأضداد مبادلة لأضدادها » ومنه أخذ المتنى معنى قوله :

وشبه الشيء من جذب إليه * وأشبها بدنيانا الطعام

وكأن المشاكلة موجبة للألفة ، فعدمها مقتض للنفرة : كان من عادة ملوك الفرس أنه إذا غضب أحدهم على عالم حبسه مع جاهل . وغضب الرشيد على ثمامة بن الأبرش وكان عالماً متبحراً ، فسلمه إلى خادم يقال له ياسر ، وكان ياسر يحسن إليه ، ويتأدب في حقه ويعظمها ، حتى سمعه ثمامة يوماً يقرأ : « وَيُلْيُوْمَعَنْلَهُكَذَّبِينَ » بفتح الذال فقال ثمامة : ويحك إن المكذبين هم الأئباء . فقال له ياسر : كان يقال عنك إنك زنديق ولم أصدق ، أتشتم الأنبياء يا ثمامة ! ثم أعرض عنه وهجره . فلما رضي الرشيد عنه ورده إلى مجلسه سأله يوماً في أثناء المحاورة : ما أشد الأشياء ؟ قال : عالم يحرى عليه كلام من جاهل . ثم أخبره بقصته مع ياسر خادمه . ففضحك الرشيد من ذلك .

ومن هذا قيل : إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً ، لأن الاقتران مع الجاهل عذاب الروح ، والضرب بالسياط عذاب البدن ، والعذاب على الروح أوجع . وقيل بعض الحكماء : ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل ؟ فقال : لأن الحمل الثقيل يشارك الروح الجنود في حمله ، والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله . ولما تفقد سليمان عليه السلام الطير ولم يجد المهدد قال : (لَا عَذَّ بَنْهُ عَذَّ بِأَشَدِيْدًا ، أَوْ لَا ذَبَحَنَهُ ، أَوْ لِيَا تِينَى بِسُلْطَانِ مُبِينِ) فلما أتاه بالحجية دفع عنه العذاب الشديد ، وقال : لابد من تأدبيه حتى لا تجترئ الطيور على مثل فعله ، فحبسه مع الحداة في قفص واحد ، فلما نظر المهدد إلى كثافة طبعها ، ورقه طبعه ، وحسن منظره ، وقبح منظرها — هاله ذلك ، فطلب من سليمان أن يخرجه من ذلك القفص ويعذبه أشد العذاب ، فعذب بتنف ريشه حتى صار قطعة لحم ، وكان ذلك عليه أسهل من اجتماعه مع الحداة ، وليس ذلك إلا لعدم الجنسية . ومن هذا يعلم السبب

فِي قَلْةٍ إِخْوَانٌ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْكَالِ لِقَلْةِ الْمَنَاسِبِ فَلَا تَكَادُ تَرَى الناقص
الْأَمْبَعْضًا لِلنَّا كَامِلٌ ، وَلَا تَرَى النَّا كَامِلٌ إِلَّا مَشْنُوءًا عِنْدَ الناقصِ : دَخَلَ أَبُو الْعَيْنَاء
عَلَى الْمُتَوَكِّلِ وَعِنْدَهُ جَلْسَاؤُهُ فَقَالَ لَهُ : يَاحْمَدٌ ، كُلُّهُمْ كَانُوا فِي عَيْنِكِ مِنْذُ
الْيَوْمِ ، وَلَمْ يَقِنْ أَحَدٌ لَمْ يَذْكُرْ غَيْرَكِ . فَقَالَ :

إِذَا رَضِيتَ عَنِ كَرَامِ عَشِيرَتِي * فَلَازَالَ غَضْبَنَا عَلَىٰ لَئَامِهِ
وَقَالَ رَجُلٌ لِأَفْلَاطُونَ : إِنَّ فَلَانَا الْحَاكِمُ يُشَنِّي عَلَيْكَ ثَنَاءً جَمِيلًا وَيَمْدُحُكَ .
فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ صَرَتُ مُنَاسِبًا لِذَلِكَ الْجَاهِلِ حَتَّىٰ يُشَنِّي عَلَىٰ وَيَمْدُحَنِي ؟ لَأَنَّ
الْمَدْحُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّنَاسُبِ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » قَالَ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ :

وَمِنْ يَكْ ذَا فِمْ مَرِيْضُ * يَحْدُثُ مَرَا بِهِ الْمَاءُ الْوَلَالَا
وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : مَنْ جَهَلَ شَيْئًا عَادَاهُ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : « بَلْ كَذَّبُوا بِهَا
لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهَلُوا
وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ : أَعْجَزُ عَنِ الشَّيْءِ مِنَ الثَّعْلَبِ عَلَى الْعَنْقُودِ : وَذَلِكَ أَنَّ
الْعَرَبَ تَرْزَعُمُ أَنَّ الثَّعْلَبَ نَظَرٌ إِلَى الْعَنْقُودِ فَرَأَهُ فَلَمْ يَنْلِهِ قَالَ : هَذَا حَامِضٌ .
وَحَكَى الشَّاعِرُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

أَيَّهَا الْعَائِبُ سَلِمِي * أَنْتَ عَنِدِي كَتْعَالَهُ
رَامُ عَنْقُودًا فَلِمَا * أَبْصَرَ الْعَنْقُودَ طَالَهُ
قَالَ هَذَا حَامِضٌ لَمَا * رَأَى أَلَا يَنْالَهُ

وَقَالَ بَعْضُ الْأَسَاطِينَ لِابْنِهِ : يَا بْنِي ، عَلَيْكَ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْعِلْمِ فِي زَمْنِهِ
فَانَّ الْمَرْءَ عَدُوُّ ماجِهِلٍ ، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ عَدُوّاً لِشَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ .

وَالْعَلَةُ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ عَدُوُّ ماجِهِلٍ هِيَ أَنَّهُ يَخَافُ مِنْ تَقْرِيْعِهِ بِالْنَّاقصِ
خَصْوَصًا إِذَا ضَمَّهُ نَادٌ ، أَوْ جَمَعَ مِنَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّهُ تَتَصَاغِرُ نَفْسَهُ عِنْدَهُ إِذَا
خَاضَوْا فِيهَا لَا يَعْرِفُهُ ، وَيَنْقُصُ فِي أَعْيُنِ الْحَاضِرِينَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ آذَاكَ وَنَالَ
مِنْكَ فَهُوَ عَدُوكَ . وَقَيْلٌ لِأَفْلَاطُونَ : لَمْ يَغْضُبْ الْجَاهِلُ الْعَالَمَ وَلَا يَغْضُبْ

العالمُ الجاهل ؟ فقال : لأن الجاهل يستشعر النقص في نفسه ويظن أن العالم يحتقره ويزدريه فيغضنه ، والعالم لانقص عنده ، ولا يظن أن الجاهل يحتقره ، فليس عنده سبب لبغض الجاهل .

رضا الناس غاية لا تدرك

قال بعض الأساطين لبعض أصحابه : والله ما أقول لك إلا نصحي : إنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل ؛ فانظر الأصلاح فاعمله ، ولذلك قيل : من راقب الناس مات غنا * وفار باللذة الجسور
وقال بعض العلماء : إن الاتيان بما تستحسن جميع الطياع ليس في قدرة البشر ولبعض العقلاء :

لو كنت كالقدح في التقويم معتدلا * لقالت الناس هذا غير معتدل
وحكى أن بعض العرفاء أراد أن يعلم ابنه السلوك ، وأن يفطميه عن النظر إلى الخلق ، خرج راكبا على دابة هو وولده ، فقال بعض الناس : انظروا إلى هذين كيف ركبا على هذه الدابة وهي لاتطيق !! فنزل ولده عنها وبقي الوالد ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل كيف هو راكب ولده يمشي وكان الولد أولى منه بالركوب !! فنزل الوالد وركب الولد ، فقالوا : انظروا إلى هذا الولد ما أقل أدبه ، أبوه يمشي على أقدامه وهو راكب !! فقال لولده : انزل فنزل عن الدابة ومشيا على أرجلهما ، وترك الدابة تمشي دون راكب عليها ، فقالوا : ما أقل عقل هذين ، يمشيان على أقدامهما ، والدابة لراكب عليها !! فقال الرجل لولده . انظر إلى هذا الأمر واعتبر به ؛ فإنه لا يسلم أحد من القوال والقيل فيه مهما عمل وقد رأيته عيانا .

وحكى عن موسى عليه السلام أنه قال : « إلهي ، أسألك ألا يقال في ما ليس في » ، فأوحى الله إليه : ذلك شيء ما فعلته لنفسى فكيف أفعله بك »
ومما ينسب لسيدنا على أمير المؤمنين :

قد قيل إن الا له ذوولد * وقيل ان الرسول قد كثنا
مانجا الله والرسول معا * من لسان الورى فكيف أنا

ومن كلام له كرم الله وجهه : إن أقل قالوا حريص على الملك ، وان أنسكت قالوا جزع من الموت ؛ إشارة إلى عدم انضباط لسان الناس في حقه . وقد نسبوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر أنه أخذ لنفسه من المغمض قطيفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة وبراً نبيه من الخيانة وأنزل الله في كتابه : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَعْلُمَ وَمَنْ يَعْلَمْ بِإِيمَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَمْكُنٌ تُوقَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وفصل الخطاب في هذا الباب أن تعلم أن الله تعالى خلق الخلق أجمعين وأنعم عليهم بأنواع النعم ، وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ، ولا عظموه حق عظمته ، بل قالوا فيه مالا يليق به ، ووصفوه بما يستحيل عليه ، وأضافوا إليه ما ينقدس عنه ، وهو مع ذلك يرزقهم ، ويقضى ما ربهم ، فعاصيهم إليه صاعدة ، وبركاته عليهم نازلة : (قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) وينفق مما عنده . وبالجملة فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء باصلاح نفسه أولى .

الأسوة خير مرشد

القدوة هي المعلم القدير بلا لسان ، والمرشد الناصح من غير بيان ، وهي مدرسة الإنسان العملية التي يرسخ تعليمها في النفوس ويعلق بالآفهام . والناس مائلون طبعاً إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون باذانهم ، والمرأى يؤثراً دثاراً من المقروء والمسموع ، وتعليم العمل أفعى من تعليم القول ، والارشاد يرى الطريق ولكن القدوة البكماء تسير فيه ، ومهما أوتى المعلم من البراعة في تهذيب النفوس فليس يبالغ ما يبلغه زميل له دونه في المهارة وفوقه في السيرة . ولذا كان خير النصح : افعل كما أفعل لا كما أقول . ولما كانت غريزة التشبيه أقوى ما تكون في الأحداث وجب أن ينشئوا في بيئه صالحة ليشبوا نافعين ، فأنهم يتمثلون بمن هو لهم : كالحشرات الصغيرة تتلون بلون النبات الذي تقتات به . ومن أجل ذلك كانت التربية البيتية أفعل

في نفوسهم من التربية المدرسية؛ فالبيت أصل المجتمع، ومن ينبع عنه تنشق الآداب والأخلاق، ومحبة الأسرة مصدر الحببة الوطنية. ومن هذه الدائرة الصغيرة تتولد دوائر كبيرة تعم العالم أجمع، وصفات الوالدين تظهر في أولادهما، وأفعالهما المختلفة التي يمارسونها تحيى في أولادهما. بعد أن يكونوا قد نسوا تعليمهما الشفوي، ونظرة واحدة من الأب قد تبقى مؤثرة في الولد مدى الحياة.

كتب (فول بكتن) إلى أمه بعد أن نال منصباً عالياً يقول: (إننيأشعر على الدوام بنتائج المبادئ التي غرسها في عقلي) وكل عمل يعده الإنسان مهما كان طفيفاً هو مقدمة لنتائج لا يعلم نهايتها إلا الله. يموت المرء وتظل ذكراه حية تجول بين الأحياء وتؤثر فيهم، خيارة الإنسان في هذه الدنيا ثمرة أضجعها القرون السالفة وأوصلتها إلى حالتها الحاضرة، وللجيل الحاضر هذا الأثر نفسه في الأجيال التالية، وهكذا سيرتبط الماضي الدابر بالمستقبل البعيد، ولن تموت أفعال الناس وإن ماتت أجسادهم وصارت هباء متشرداً.

ولقد أظهر ذلك أحد المربين بعبارات بلية هي: (إن كل ذرة تتحرك بالحركة التي حرکها بها الحكماء الفلاسفة حتى إن الهواء نفسه يشبه كتاباً كبيراً على صفحاته كل ما تفوّه به بنو البشر: كل ما قالوه ولم يفعلوه، أو وعدوا به ولم يحققوه).

وكما وضع الله القدير على جهة القاتل علامه ظاهرة لجرمه، كذلك سنّ شرائع تلزم كل مذنب أن يقر بذنبه؛ لأن كل ذرة من جسده مهما تغير وضعها لازالت تتحرك بالحركة الأولى التي ارتكب بها ذلك الذنب: (يَوْمَ تَشَهِّدُ عَلَيْهِمْ أَسْتِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). لذلك كان كل فعل نفع له، وكل كلمة نقولها، لا، بل كل عمل نراه، وكل قول نسمعه - يؤثر في حياتنا أثيراً مستمراً، ويمتد تأثيره إلى الجنس البشري كله. ولا نقدر

أن تتبع هذا التأثير بتفرعاته المختلفة بين أولادنا وأصحابنا ورفاقنا ، ولا أن
نمنعه ، إذ لابد من أن يتصل بهم ، ويذوم امتداده مدى الأيام .

ومن هنا نرى أهمية القدوة الحسنة التي هي مهذب أخرس ، ويقدّر عليها
أفقر الناس وأحقّهم . والرجل الحقيق ينشأ في كل أين وآن : في أكواخ
المزارع ، وقصور المدائن . ومن فلاح أرضًا تقاس بالشبر أمكنته أن يكون
قدوة لغيره في عمله ، كمن يملك الألوف ، وعلى الفرص واتّهازها يكون معمول
الذين يجعلون من نفسيهم أسوة وقدوة .

وخير تراث يتركه الآباء للأبناء - السيرة الحسنة ، والقدوة الصالحة ؟
فإنّهم يحدّوّنهم إلى سبيل الخير ، ويصدّنهم عن الضير . ولا شرف أعظم
من أن يسعد الخلف والسلف كلّ بعمل الآخر الحميد . وذوو الهمة والمروءة
لا يقدرون أن يحرّكوا الناس للعمل ما لم يكونوا هم من أهله ، ولا يكفيّنا
أن نقول للناس : اعملوا كما وكذا ، بل علينا أن نعمل أمامهم ، وما أحسن
ما قالته إحدى السيدات وهو : (إذا أردنا فعل شيء فعلينا أن نشرع
فيه بأيدينا) :

إن قلت - ويحك - فافعل أيها الرجل * فكم رجال لنا قالوا وما فعلوا
فلو قام «نومار بط» وتبوا كلّ منبر ، وخطب في إصلاح شأن المجرمين
 ولو قام «يوحنا بوندِس» ومألا جرائد البلاد من حيث على إنشاء المدارس
للمساكيين ، ولم يعملا عملا - مأفادا شيئاً ، ولكنّهم لم ينسا ببنّت شفة ، بل
امتطيا متن العمل فنجحا ، واقتدى الناس بهما كما اقتدى الدكتور (غثري)
الواعظ البليغ الذي يدعى رسول مدارس المساكيين يوحنا بوندِس في تعليم
أبناء المعوزين على أثر رؤيته صورة تمثيل حانوت إسكاف هو «يوحنا»
والإسكاف جالس ومنظاراه على أنفه ، وبين ركبته حذاء عتيق وعليه سيمي
المهيبة والوقار وعلوّ الهمة ، وعيناه شاخصتان إلى جم من الصبيان والبنات ،
جالسين أمامه بثياب خلقة ، وكتبهم في أيديهم ، جمعهم مثل راع صالح

وعلهم ، وانتشرل من وهذه الشقاء ما ينفي على خمسة ولد وهو يحصل خبزه بعرق جبينه . فانظر كيف جعلت العناية الالهية من هذه النظرة سعادة أو لئك الأولاد الذين كانوا يطوفون الأزقة في حال يرثى لها . وإن لاخال عظاء الرجال وأشرافهم الذين أطيبوا الشعرا في مدحهم ، وأقيمت لهم الانصاب قد وقفوا في ساعة الحساب الرهيبة ، وانقسموا شطرين لكي يجتاز بينهم هذا الرجل الخامل الذكر إكبارا لأمره ، وتقديرا ل فعله . ولا شيء يؤثر في الأخلاق تأثير القدوة : لأن الناس يقتدون بمن حولهم في العادات والأخلاق والآراء ، وإن لم يقصدوا بذلك . وإن التحذير مع كونه قد يفيد كثيرا لتفوّقه القدوة الحسنة ، لأنها مذهب عامل . والمرشد الناصح السيء السيرة كمن يبني بيد ويهدم بالأخرى :

وإنك إذما تأت ما أنت أمر * به تُلْفِ مِنْ إِيَاهْ تَأْمِرْ آتِيَا
ولذا كان على العاقل أن يختار رفاقه ، ويسأل عن جاره قبل داره ، وعن رفيقه قبل طريقه ، ولا سيما في شرخ الشباب ، فإن فيه قوة خفية تجعل الشبان يتخلقون بأخلاق رفقائهم :

عن المرأة لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى
فعلى الشبان أن يعاشروا فضلاء القوم ليقتدوا بهم ، وإلا فالانفراد خير
من مرافقته أدنياء القوم ، لأن الإنسان يعرف بأصحابه : فمن عاشر حكيمها
كسب الحكمة ، ومن لازم دنيئا باه بالدنيا ، والطبع سراق :
عدوى البليد إلى الجليد سرعة * وابجر يوضع في الرماد فيخدم

ولقد أحسن السير (بطرس لى) المصور من حيث إنه ألزم نفسه لا
يطيل النظر إلى صورة قبيحة خوفا من أن يكتسب قوله منها شيئاً يفسد
ذوقه ؛ فان القبائح كالوباء ينشب أظفاره في الأجسام فيبيدها وفي العقول
فيضلها ، وملازمة الأفضل تورث الفضل كالمهواه إذاجاور الوهر طابت
ريشه : قال فرنسيس هرنر عما استفاده من معاشرة العقلاء : (لا يسعني أن

أنكر أنتي استفادة منهم استفادة عقلية أكثر مما استفدت من كل المكتب التي تصفحتها في حياتي) ولا عجب ، فالوردة تعطر مجاورها ، والذبالة تنير ماحولها ، والنيل يسوق ما في حوضه من النبات ، وكذلك تأثير العقول في العقول ، والأخلاق في الأخلاق . ولقد يبلغ الوع بالمقتدى بعظام أن يقرب منه حتى يلمس هدب ثوبه ، كما فعل (نورت كوت) مع (رينلز) المصور . والواقع الحرية خير مدرسة تبث الشجاعة في قلوب الجناء ، ولا أدل على ذلك من أن الرجال العاديين قد فعلوا العجائب ؛ لأن قوادهم كانوا أبطالاً بسلا . ولقد أراد (زِسْكَا) أن يكون قدوة صالحة في مماته كما كان في حياته ، فأوصى بحمله أن يصنع طبلة لكي يحرك شجاعة البوهيميين . وحرص الأتراك على الانتفاع بالقدوة جعلهم يطلبون عظام إسكندر بك أمير أبيروس بعد موته ليحملوها فتتصال شجاعته بهم ، ولقد عن العالم بتدوين ترجم مشهوريه ليقتدي بهم الخلف ؛ إذ يرى آباءه أحياه في سير حياتهم وجلائل أعمالهم يأمرن بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ومن مات وترك وراءه مثلاً حسناً فقد ترك لنسله ولغيرهم أفضل تركه لانقطاع ثمارها . ومن يقرأ سير الرجال الأفضل يشعر بحياة جديدة تدخل في عقله وقلبه . ولقد تنبه السير الحسنة القوى الخامدة ، وتحدث في الإنسان ميلاً إلى بعض الأمور بعد أن كان لا يشعر بها ، وفعل القدوة الحسنة يتصل بالتسليسل إلى ماشاء ربكم ، لذلك وجب اختيار الكتب الفضلى ، كاختيار أفضل العشراء ، ويحدث أحياناً أن يأخذ الإنسان كتاباً مجرد التسلية فيرى فيه سيرة تنبه قوّة كانت خاملة وتحرّك يداً كانت متقطلة .

وإذا دققنا النظرأينا في الدنيا سلسلة غير منقطعة من الناس الذين تمثّلوا بمن قبلهم ، وكأنوا مثلاً لمن بعدهم . ومن الامثلة التي يمسكتنا أن نعرضها على الشبان ليقتدوا بها — مثال العامل المسرور بعمله ؛ لأن السرور زَيْتُ النفس : يسهل حركتها ، ويزيد مررتها ، وبه تزول المصاعب ، ويزداد الرجاء

وتقعهم الفرص . والروح العالية تكون مسروقة دائمًا ونشيطة ، وتعمل أعمالها بسرور ، وتحرك الغير إلى الاقتداء بها ، وترفع شأن أحقر الصناعات . وأتم الأعمال ما يعمله الإنسان من قلبه بسرور : كان من عادة (هيوم) أن يقول : إنه يفضل الطبع الميل إلى السرور على عقار دخله عشرة آلاف جنيه مع طبع ميل إلى الحزن .

وإن شئت أن تعرف تأثير السرور في انجاح الأعمال فهذا السير (يوحنا سنكلير) امتنج اجهاده بالجذل ، فذلا له كل صعب ، وأدinya منه كل بعيد ، فقد أصلح وهو في الثامنة عشرة من عمره أملاكا اتصلت إليه بالارث من أبيه ، وانتشر إصلاحه في كل اسكتلندا ، وكانت الزراعة حينئذ في حال يرث لها ، وال فلاحون في غاية المسكنة ، ونساؤهم منهم كالدواب تحمل الأحمال ، والبلاد بدون طرق والأنهار بغیر قنطر ، فلم يف لها ومايقاربها رجل ، وفتح طريقا طولا ستة أميال تسير فيها العجلات بسهولة ، مع أنه كان يتعرّض سلوكها على المعزى ، كل ذلك في نهار واحد ، فأعجب قومه به ، وانقادوا رأيه ، وصار يفتح الطرق ، ويقيم المطاحن ، ويبني القنطر على الأنهر ، ويحسن حال الزراعة ، ويشجع المجتهدين بالجوائز ، حتى صارت البلاد جنة يضرب بها المثل في الخصب وحسن الطرق ، واتسع نطاق أعماله المفيدة ، فأنشأ مجمع الصوف البريطاني ، وجلب الأغنام على نفقته من البلدان البعيدة ، وأدخل الجنس الشفيفي إلى اسكتلندا غير ميل باستهراه مربى المواشي الذين زعموا أنه لا يمكن حيوان الجنوب أن يعيش في الشمال ، ولقد تبدد زعمهم حين رأوا كثرة الغنم الشفيفية التي أحدثت ارتفاعا عظيما في أسعار الأراضي الصالحة للمراعي .

ولما انتخب نائبا في المؤتمر عن مقاطعته ، وسُنحت له الفرصة لافادة بلاده - طلب إلى المستر (بت) الوزير مساعدته في إنشاء مجلس وطني للزراعة ، وهم باخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود ، فرك ميل الجمهور

وأكثـر أعضـاء المؤـتمر ، واستـمر عـلـى إـكـيـابـه حتـى أـنـشـىء هـذـا المـجـلس ، وـاتـخـبـ رـئـيـسـاـ لهـ بـعـدـ أـنـ كـانـ يـقـالـ لهـ فـي مـقـامـ التـيـئـيـسـ : (إنـ مـجـلسـ الزـرـاعـةـ الـذـى تـحـلـمـ بـهـ سـيـكـونـ فـيـ القـمـرـ) وجـنتـ الـبـلـادـ ثـمـارـهـ الـتـى تـجـلـ عـنـ الحـصـرـ . ولـقـدـ يـاخـذـكـ العـجـبـ حـينـ تـعـلـمـ أـنـ هـذـا الرـجـلـ العـالـىـ الـهـمـةـ قـادـ كـيـتـيـةـ عـلـىـ نـفـقـتـهـ ، عـدـدـهـاـ أـلـفـ مـتـطـوـعـ لـحـارـبـةـ فـرـنـسـاـ وـهـوـ مـديـرـ لـمـصـرـ اـسـكـنـلـنـدـاـ ، وـرـئـيـسـ لـجـمـعـ الصـوـفـ الـبـرـيـطـانـيـ ، وـمـديـرـ لـجـمـعـ صـيدـ السـمـكـ ، وـعـضـوـ فـيـ مـجـلسـ إـصـدـارـ الـأـورـاقـ الـمـالـيـةـ ، وـنـائـبـ فـيـ المؤـتمرـ ، وـهـيـ أـعـمـالـ لـاـيـقـومـ بـهـاـ عـدـةـ رـجـالـ ، ذـلـلـ مـصـاعـبـهـاـ وـحـدـهـ ، وـلـمـ تـقـفـهـ عـنـ تـأـلـيـفـ كـتـبـ تـكـفـيـ وـحـدـهـاـ لـتـخـلـيـدـ اـسـمـهـ ، وـكـتـابـهـ فـيـ الزـرـاعـةـ أـفـضـلـ كـتـابـ ، وـكـتـابـهـ فـيـ حالـ اـسـكـنـلـنـدـاـ الـاـقـتـصـادـيـةـ وـالـمـالـيـةـ فـيـ وـاحـدـ وـعـشـرـينـ مـيـجـلـداـ مـنـ أـعـظـمـ مـاجـادـتـ بـهـ قـرـيـةـ إـنـسـانـ ، وـلـقـدـ تـنـجـحـ مـنـ طـبـعـ هـذـاـ الـكـتـابـ نـتـائـجـ كـثـيرـةـ حـمـيـدةـ : مـنـهـ إـلـغـاءـ بـعـضـ الـاـمـتـيـازـاتـ الـمـضـرـةـ بـالـجـمـهـورـ ، وـرـفـعـ أـجـرـةـ الـقـسـوسـ وـالـمـعـلـمـينـ ، وـتـرـقـيـةـ شـأـنـ الزـرـاعـةـ . وـمـازـالـ هـذـاـ الـفـاضـلـ آـخـذـاـ فـيـ أـعـمـالـهـ بـاجـهـاـدـ وـسـرـورـ إـلـىـ أـنـ أـدـرـكـتـهـ الـوفـاةـ ، فـصـارـ أـفـضـلـ مـثـالـ لـأـسـرـتـهـ ، وـلـأـهـلـ بـلـادـهـ ، بـلـ غـرـةـ فـيـ جـيـنـ بـرـيـطـانـيـاـ ، وـقـدـ أـحـزـ خـيـرـ لـنـفـسـهـ ، وـهـوـ يـطـلـبـ خـيـرـ غـيـرـهـ ، لـاـجـمـعـ الـثـرـوـةـ بـلـ بـمـاـ نـالـهـ مـنـ السـرـورـ وـالـرـاحـةـ الـدـاخـلـيـةـ ، وـالـسـلـامـ الشـامـلـ ، وـتـقـمـ مـاـ يـحـبـ عـلـيـهـ لـوـطـنـهـ وـلـمـ يـنـسـ مـاـ يـحـبـ عـلـيـهـ لـأـهـلـ بـيـتـهـ . وـبـنـوـهـ وـبـنـاتـهـ اـرـتـقـواـ فـيـ درـجـاتـ الـمـجـدـ ، وـأـعـظـمـ مـاـ كـانـ يـفـتـحـرـ بـهـ (وـقـدـ نـاهـزـ الـمـاـنـيـنـ) أـنـهـ رـبـيـ سـبـعـةـ بـنـيـنـ وـمـاـمـهـمـ مـنـ اـسـتـدـانـ مـالـاـ لـاـيـقـدرـ عـلـىـ إـيـفـائـهـ ، أـوـ أـحـزـنـ أـبـاهـ بـعـملـ وـكـانـ تـجـنبـهـ يـمـكـنـاـ .

معدـرةـ فـقـدـ أـكـثـرـ مـنـ إـيـرـادـ الـأـمـلـةـ الـأـجـنـبـيـةـ مـنـاـ - لـاعـنـ فـقـرـفـ تـارـيـخـ رـجـالـنـاـ - وـإـنـماـ أـرـدـتـ بـعـثـ الـهـمـمـ بـايـرـادـ مـشـلـ قـلـيلـةـ كـانـتـ مـنـشـأـ الـحـضـارـةـ الغـرـيـةـ الـتـىـ نـمـتـحـ بـهـاـ ، وـنـقـتـقـ آـثارـهـاـ ، وـإـنـ أـرـدـتـ مـمـلـةـ خـيـرـاـ مـنـ هـذـهـ

فضح أئمّة تارينا مفعمة بها وحسبنا قوله تعالى : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »

العمل مظهر الخلق

لا قيمة للخلال التي تتصرف بها نفس الإنسان إلا إذا ظهر أثرها : فمما كانت نفس الإنسان راغبة في النظافة مثلاً ، عارفة بطرقها ، مقتنة بلزماتها لا يصح أن يقال : إنه متخلّق بخلق النظافة إلا إذا ظهر أثره في جسمه وثوبه وفناء داره ومتاع بيته .

ومهما شعر الإنسان من نفسه بالشجاعة والقدام لا يصح أن يقال : إنه شجاع مادام يحجم أو يتسلل لو اذا عن مواطن الخطر والدفاع عن الحوزة .

ومهما أحس من نفسه العطف والحنان على الفقير ولا يجود بفلس واحد في سد حاجة ذلك الفقير وتحفيف الضر عنه - لا يصح أن يقال : إنه شقيق ولا أن يصف نفسه بصفة الرحمة والحنان . وممّا حدث عن نفسه أنه يحب وطنه ، وأنه يعتقد وجوب خدمته ، والاستماع في سيله ، وهو إذا كلف أقل عمل لمصلحته جادر عن نفسه ومارى ، أو انخذل عن تأييد تلك المصلحة وتواري - كان كاذباً في دعوى الوطنية ولم يكن محباً لوطنه ولا متخلقاً بحب الوطن . وهكذا سائر الأخلاق والفضائل الإنسانية . فالأخلاق خلال مشهورة تقع آثارها تحت مشاعر الحس سواء في ذلك قبل أن تصبح عادة للإنسان أو بعد أن تصبح عادة له تصدر عن نفسه بسهولة :

أليس هو قبل أن يعتاد الصدق يصدق مرّة ثم مرّة حتى يصبح الصدق عادة له فتصدر عنه أعماله وأقواله الصادقة بسهولة ومن غير ورية ، فانظر كيف أن الأخلاق خلال تكرر آثارها الحسنة في نهاياتها كما هي كذلك في بداياتها .

حقاً إن الأعمال في الإنسان ترتكز على نيته وإرادته المستقرة في نفسه ، وبهذه النية أو الإرادة تصبح الأفعال خلقية ويكون لها حظها من الحسن والقبح ودرجتها من الاعتبار وإلا كانت وأعمال الحيوان سواء ؛ فإن أعمال الحيوان تشبه أن تكون حركات آلية لصدرها عنه من دون قصد ولا سابقة فكر : تأمل قول بعض الحكماء : « من زرع فكرًا حصد عملاً ومن زرع عملاً حصد عادة ومن زرع عادة حصد خلقاً ومن زرع خلقاً حصد حظه من هذه الدنيا سعادة أو شقاء » ومن أجل ذلك وجب على المربي أاما كان أو أباً أو معلماً إلا يتخذ القاعدة في تربية الطفل وصف الفضائل والآداب وتربيتها في نفسه وحمله على الاقتناع بضرورتها ، مكتفيا بذلك ، بل قرئها بالعمل الخارجي والممارسة الفعلية : فإذا أراد غرس خلق التعاون فلا يكتفى بأن يسرد على مسمع الطفل القضايا والمسائل سرداً ، بل يقوم بمعونة غيره عملاً بما رأى منه الفينة بعد الفينة ، ويمهد بين يديه طريق عمله ومارسته ، فيصيير الطفل معاوناً لغيره من نفسيه ، ويصح إذ ذاك أن يقال : « إنه محب للتعاون متخلق به » .

والخلق تارة يكون شخصياً أى متعلقاً بشخص الإنسان ، وعائداً أثراً إليه أو لا يجاوزه إلى مجتمعه كالسعى في كسب المال ، وطوراً يكون اجتماعياً يتصل أثراً ونفعه بالمجتمع اولاً ثم به تبعاً : كالتعاون والتحاب وبذل المساعدة للأخرين المشاركون له في هذا المجتمع ، لكننا إذا أنعمنا النظر وجدنا أنه قليلاً يخلو خلق شخصى من آثاره اجتماعية فيه أو خلق اجتماعى من أثر شخصى : فالعمل مثلاً واجب شخصى تعود ثمرته ونفعه على العامل الساعى كما قلنا ، لكن فيه آثاره أو علاقة اجتماعية أيضاً من حيث أنه لولم بعمل الإنسان ويكتدح ما وجد مجتمعه أعمال الأمة ومساعيها التي تتوقف عليه انضتها وارتقاء مجتمعها ، وأن الدرهم الذي يكتسبه العامل الساعى جزء من مجموع ثروة الأمة ، ولو لادرهم الفرد ما تكونت ثروة المجتمع : كما أنه لو لا نفقة الماء ما وجد هذا البحر الخضم .

والتعاون والتحاب خلق اجتماعي كما ذكرنا ، ولكن فيه منفعة شخصية

ويهدل ثرها على المُتَخَلِّق بخلق التعاون وإن لم يقصد هو ذلك من وراء عمله فان من أحب الناس وبغى الخير لهم ومديده إلى مساعدتهم في أيام شدتهم كانوا بالطبع حريصين على مقابلته بالمثل ، ومديد المعونة إليه في أوقات شدته ، وأيام محنته ، فيكون بذلك قد جنى من غرسه هذا الخلق الاجتماعي نفعا شخصيا وثراشيا ، وهكذا سائر الأعمال التي يزاولها الإنسان في حياته وإن كانت شخصية من جهة - كانت اجتماعية من جهة أخرى مadam الإنسان مدنيا بالطبع . وقد شاء خالقه الحكيم أن تكون مصلحته ومرافق حياته مرتبطة بمصلحة بنى جنسه ومرافق حياتهم :

والناس للناس من بدو وحاضرة * بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم
الأفعال الظاهرة دليل على الأخلاق الباطنة

قال أمير المؤمنين : إذا كان في رجل خلة رائعة فانتظروا منه أخواتها :
مثال ذلك : إنسان مستور الحال عن رأيناه و قد صدرت عنه حركة تروعك
إما لحسنها أو لقبحها : كأن ينكر غير مرة منكرا عجز غيره عن إنكاره ، أو
يسرق كذلك ، فينبغي أن تنتظرو و تترقب منه أخوات ما وقع : وذلك لأن
الخليقة الحركة له إلى فعل ذلك لابد أن تحركه إلى فعل ما يناسبها ؛ لأنها
مادعته إلى فعل تلك الحركة لخصوصية فيها ، بل لما فيه من المعنى المقتضى
وقوعها ، وهذا يتعدى إلى غيرها مما يحيط بها ، ولذلك لا ترى أحدا قد اطلع
من حاله يوما على أنه يدمن الخنزير إلا وسوف تطلع فيما بعد منه على أنه يقترب
غيرها من الخبائث ، وكذلك في الأمور الحسنة :

شتم بعض سفهاء البصرة الأحنف شتما قبيحا فلم عنه ، فقيل له في ذلك ،
فقال : (دعوه فاني قد قتلته بالحلم عنه ، وسيقتل نفسه بحرأته) فلما كان بعد
أيام جاء ذلك السفيه وشتم زيدا وهو أمير البصرة ، وظن أنه كالآحنف ،
فأمر به فقطع لسانه ويديه . وإذا عرفت أن الطبع باعث على الأفعال
فلننتل عليك شطرا مما اخترناه من الأخبار والأقوال في أن الأفعال الظاهرة

علامات على الأخلاق الباطنة وكاشفة عنها : فن ذلك قول أمير المؤمنين كرم الله وجهه : إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره ؛ فإنك تقف من مشورته على عدله وجوهره وخيره وشره .

وقال : ما أضمر أحدكم شيئاً إلا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه . ولما كان الإنسان إنما يضم في نفسه أمراً مهما عنده من عداوة أو بغضة أو محبة إلى غير ذلك ، وكان الوجود اللساني عبارة عن الوجود النفسي ومظاهره - لم يتمكن المرء من حفظ ما أضمره بالكلية ، لأن مراعاة ذلك الحفظ إنما يكون للعقل بحسب ما يراه من المصلحة ، والعقل يشغله بالتصريف في مهم آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره ، فينقلب الخيال به من سر العقل ، فيعيشه في فلتات القول من غير تزو . وكذلك لما كانت التصورات العقلية والأمور النفسانية مبادئ للأثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل - لم تنفك الأمور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار في صفحات الوجه والعين . وشاهد ذلك التجربة ، والله در القائل :

لتسأل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد من الخبر

وقول الآخر :

وفي عينيك ترجمة أراها * تدل على الضغائن والحقود وأخلاق عهدت الدين فيها * غدت وكأنها زُبر الحديد وقد عاهدتني بخلاف هذا * وقال الله أوفوا بالعهود والشعر في هذا المعنى كثير ، وإنما اقتصرنا منه على مقدار الحاجة . وما يستطرد هنا الاستدلال بالأثار الظاهرة في الجسم على الأخلاق الباطنة فيه وهو المسمى بالفراسة وهي الاستدلال بالخلق على الخلق : فن ذلك ماروى في الآثار أن الهوج في الطول ، والكيس في القصار ، والكبير في العور ، والسبّهت (١) في العميان ، والذكاء في الحرس ، وقيل مكتوب في التوراة : تسعة خصال في تسعة رجال الشؤم في الأعور ،

(١) الكذب

عبادة الله أقوى أركان الخلق

العبادة في نظر الاسلام ممارسة الطاعات البدنية ، والقيام بالشرائع العملية ، وإن كانت العبادة تطلق أيضاً في اللغة على توحيد الله و تعظيمه أبلغ تعظيم ، وتذليل النفس له ، والخضوع القابي بين يديه : جاء في الحديث الشريف : « لَا عِبَادَةَ كَمَا تَفَكَّرُ » ، فقد جعل الشارع « الفكر » من العبادات ، وإنما هو تأمل في عظمة الله و حكمته الباهرة في إبداع نظام الكائنات . فوضو خدمة العادة إذ اطاعة الله والتزام ما شرعيه من الدين ، وهذا كما يشمل الطاعات البدنية كالصوم والصلوة يشمل الطاعات الأخرى التي منها الأعمال الخلقية ، فإنها كلها أمر به الشارع ، وحضر عليه أشد حض وذكر به أبلغ تذكرة ، بل إن الطاعات البدنية على فضلها وعلو منزلتها في نظر الشارع - إنما يراد بها تكثيل الأخلاق وتربيه النفس التربية الدينية الفاضلة .

انظر قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وقوله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

(١) من ليس في الحقيقة شعر

(٢) الدهاء

لَمْ يَزَدْ دُرْمَنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا » « كُمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا
أَجْوَعُ وَأَعْطَشُ »

فالعبادة البدنية إنما تقع موقعها من رضا الله تعالى إذا أذت إلى تزكية النفس وتطهير الأخلاق وحسن القيام بالواجبات من حيث يكون ذلك سبباً في عظمة الأمة وثبات أمرها ونفوذ سلطانها ، وفي هذا يقول بعض علمائنا المتقدمين : « أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس »

وقد نبه الشارع صلى الله عليه وآله وسلم في غير ما حديث إلى تفضيل الأخلاق على العبادات بنسبة ما لها من الأثر المبين والنفع الظاهر في مصالح البشر وسعادة حالم : من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « تَفَكَّرُ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » « عَدْلٌ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » « إِصْلَاحٌ ذَاتِ الْبَيْنِ خَيْرٌ مِنْ عَامَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ » والمراد باصلاح ذات البين السعي في إزالة الخصام وسوء التفاهم من بين المتنازعين من أبناء الأمة ، فيقول أمرهم إلى الآلفة والقوة . « نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَى وَالْمَدِيْرِ جُبَّا لَهُمَا عِبَادَةً » « مَنْ مَشَى فِي حَاجَةٍ أَخْيَهُ سَاعَةً فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَعْتِكَافِ شَهْرَيْنِ » « إِنَّ صَبْرًا أَحَدِكُمْ سَاعَةً فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » يعني أن اهتمامه وشأنه في موقف يدرأ به الخطر عن أمته خير لهم العبادة في تلك المدة . وكما أن الشارع فضل مكارم الأخلاق على مجرد عبادة الجوارح كذلك فضل دراسة أسرار التشريع الإسلامي على مجرد العبادة أيضاً : قال صلى الله عليه وآله وسلم « عَالِمٌ يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ »

هذه الأحاديث الشريفية ناطقة بأن مكارم الأخلاق ، وتكامل النفس بالعلم الصحيح وممارسة الواجبات الشخصية والاجتماعية عبادة ، بل قد تكون

أحياناً خيراً من العبادة على حسب ماهما من حسن الأثر في نفع الأمة و توفير
الخير لها.

الخلق عماد الإيمان

أودع الله سبحانه و تعالى نفوس جماعات البشر روح أخلاقية ، و جعلها مناط
سعادتهم و شقاءهم ، وأقسط الموازين للدلالة على انحطاطهم وارتقائهم حتى
قال بعض علماء الاجتماع : « إنما تتفاصل الأمم في حال البداوـة بالقوة
البدنية ، فإذا ارتفـت تفاـصلـتـ بالعلم ، ثم إذا بلـغـتـ منـ الـارـتقـاءـ غـايـتهـ
تفاـصلـتـ بـالـاخـلاقـ »

ومن أجل ذلك كانت الأخـلـاقـ الرـكـنـ المـتـينـ فـيـ الشـرـائـعـ السـمـاوـيـةـ ،
وـالـسـبـبـ الـأـكـبـرـ فـيـ ظـهـورـ أـمـرـهـاـ وـبـقـاءـ سـلـطـانـهـاـ : فقد روـىـ سـيـدـنـاـ أـنـسـ رـضـيـ
الـلـهـ عـنـهـ قـوـلـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : « إـنـ حـسـنـ الـخـلـقـ نـصـفـ الدـيـنـ »
وـجـاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ الصـحـيـحـ عـنـ أـنـسـ أـيـضاـ عـنـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ أـنـهـ قـالـ :
« إـنـ الـخـلـقـ وـعـاءـ الدـيـنـ » وـهـذـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ نـسـبـهـ الـخـلـقـ الـحـسـنـ إـلـىـ الـدـيـنـ
كـنـسـبـةـ الـوـعـاءـ إـلـىـ الـمـاءـ الـمـسـتـقـرـ فـيـهـ ، فـكـاـ أـنـ الـمـاءـ لـاـ يـقـومـ بـنـفـسـهـ مـنـ دـوـنـ وـعـاءـ
يـضـمـ أـجـزـاءـهـ وـيـصـونـهـ عـنـ التـفـرـقـ وـالـضـيـاعـ ، كـذـلـكـ أـحـكـامـ الدـيـنـ وـتـعـالـيـهـ
لـاـ تـقـومـ بـنـفـسـهـ ، وـلـاـ يـدـوـمـ سـلـطـانـهـ ، مـاـلـمـ يـكـنـ لـمـتـدـيـنـ أـخـلـاقـ ثـابـتـةـ تـحـوـطـ
أـحـكـامـ الدـيـنـ وـتـحـفـظـهـ مـنـ الضـيـاعـ وـالـاضـمـحـالـ : تـأـمـلـ قـوـلـهـ صـلـيـ
الـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : « إـنـ اللـهـ حـفـ الـاسـلـامـ بـمـكـارـمـ الـاخـلـاقـ وـمـحـاـسـنـ
الـاعـمـالـ » وـقـدـ جـعـلـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ الغـاـيـةـ مـنـ بـعـشـهـ الشـرـيفـ إـلـىـ الـخـلـقـ
نـشـرـ مـكـارـمـ الـاخـلـاقـ فـيـهـ إـذـ قـالـ : « إـنـمـاـ بـعـثـتـ لـأـيـمـمـ مـكـارـمـ الـاخـلـاقـ »
وـلـمـ أـرـادـ تـعـالـيـ أـنـ يـتـيـ علىـ نـيـيـهـ فـيـ الـقـرـآنـ وـصـفـهـ بـخـلـقـ الـخـلـقـ فـقـالـ : « وـإـنـكـ
لـعـلـىـ خـلـقـ عـظـيمـ » عـلـىـ أـنـ الـاسـلـامـ قـرـرـ فـيـ غـيرـ مـوـضـعـ أـنـ الـأـعـمـالـ الـخـلـقـيةـ
مـنـ ضـرـوبـ الـإـيمـانـ : تـأـمـلـ قـوـلـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : « الـإـيمـانـ بـضـعـ وـسـبـعـونـ

شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماتة الأذى عن الطريق» ومعنى «إماتة الأذى عن الطريق» تنحية الحجر والشوك وكل عائق يؤذى الناس في طريقهم . فانظر كيف جعل إماتة الأذى عن الطريق من خصال الائمان وليست هي سوى جزء من الواجبات الاجتماعية . وإذا كانت «إماتة الأذى» من شعب الائمان كانت شعبه وخصاله التي لها علاقة بالواجبات الشخصية والاجتماعية مما يفوق الحصر ويتجاوز كل حد . وقد فسر بعض أهل الحقيقة الدنو في الحديث بالقرب وإماتة الأذى بتطهير النفس . وتأمل الأحاديث الشريفة الآتية تجدر الأخلاق الشخصية والاجتماعية دعامة عظيمة من دعائم الإسلام : قال صلى الله عليه وسلم : (أشرف الائمان أن يأمنك الناس وأشرف الإسلام أن يسلّم الناس من لسانك ويديك) «المؤمن من منه الناس على أموالهم وأنفسهم والهاجر من هجر الخطايا والذنوب» «أفضل الائمان أن تُحب للناس ما تحب لنفسك وتحكره لهم ماتكره لنفسك ، وأن تقول خيرا أو تصمت» ، «من سرت به حسنة وساعتها سيمته قدركم المؤمن» والحديث صحيح في أن المؤمن من كان له ضمير يوكله على صنيعه ، ويبيكته على ما اجترح من السيئات ، «ليس بهؤمن من لم يأمن جاره غوايده» «أحسنكم إيماناً أحسنكم أخلاقاً» «علوه الهمة من الائمان» والمراد بعلوه الهمة كبر النفس والطموح إلى معالى الأمور ، والبعد عن سفسافها ، «الدين المعاملة»

هذه الأحاديث ناطقة بأن الأخلاق الشخصية والاجتماعية من خصال الائمان وأجزاءه المتممة له ، وأن المؤمنين يتفضلون بما يتم لهم من هذه الأخلاق والخصال . فليزدد المؤمن الموفق من ذلك ولا أدل على قوة ارتباط الأخلاق بالائمان في نظر الإسلام مما ورد عن سفاته بنت حاتم الطائي : أسرتها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه بها فقالت : «هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فانرأيت أن تخلى عن ، ولا

تشتمت في أحياط العرب؛ فان ألى كان سيد قومه : يفك العانى ، ويفتل الجانى ، ويحفظ الجار ، ويحمى الدمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكل ويعين على نواب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائبا ، أنا بنت حاتم الطائى . فقال لها صل الله عليه وسلم : « يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقا . خلو عنها ، فان أباها كان يجب مكارم الأخلاق » ثم أسللت هي وأخوها (عدى بن حاتم) رضي الله عنهما »

القاعدة الخلقية

تبدىء كل قاعدة خلقية بضرب من الأوامر تقضى بثواب أو عقاب ، وباتباعها مع توالي الزمن و تكرار الفعل تصبح عادة موروثة لا تكشف فيها ، ويشعر الناس أنها شاء حسن يميلون اليه طوعا ، فتحن الآن نستر جسمونا بالملابس دون أن نؤمر بذلك ، ونخجل أن نسير عراة ولو في الظلام : لأننا نعتقد أن ذلك أمر قبيح ، بخلاف أهل الأزمان الغابتة . وكلما أردنا أن ننسن ” قاعدة خلقية صاغناها في أمر ينفذ بقوة القانون ريثما يألفها الناس وتصير عادة مستحبة عندهم ، وسنة خلقية بينهم : كمنع البصق في المراكب العامة مثلا .

فالسنة الخلقية إذاً هي الواجب الذي يفعله الإنسان من تلقاء نفسه .
معتقدا صحته .

والسنن العامة أنواع :

- ١ — السنن الكونية الطبيعية : كقوانين الجاذبية ، والضوء ، وتعاقب الفصول . وهذا النوع لا سيل إلى تغييره أو تبدلاته لاستقراره و ثبوته .
- ٢ — السنن الاجتماعية : وهي ما قضت بها ماضعات الاجتماع وعوامله وهي متغيرة بتغير الأزمان والأجيال على أن بعضها ثابت كقانون العرض والطلب في التجارة ، وكقواعد اللغات .

٣ — الشرائع الوضعية : وهي ليست عامة ولا ثابتة ، ويمكن من يرضي بتحمل العقاب أن يعصاها سراً أو جهراً .

والسنة الخلقية لا تقبل التغيير ؛ لأنها سنة الحق والصواب ، والحق عام ثابت في كل زمان ومكان وجيل وإن اختلف الناس في فهمه والوصول إلى كنهه ، والشخص أن يتخلّى بها ليس فهو إلى الخلق الكامل ، فان تجرد منها كانت شخصيته ناقصة . والفرق بين السنة الخلقية والشرع الوطني أن الأولى ليست أمرية بل يفعلها الإنسان طوعاً واختياراً ، أما الأخرى فإنها أمرية أمر بها النظام الاجتماعي وأوّل من يخالفها بالعقاب ، بخلاف السنة الخلقية التي يتبعها الإنسان بمحض إرادته ويعدّها الغاية الحسنى ، فإذا تركها نقصت شخصيته وعاقبها ضميره بالتأنيب ، وكفاه ذلك عقاباً .

فالواجب في نظر القانون أمر مفروض على الإنسان أداؤه دون مناقشة ، وأما الواجب الخلقي فشيء مسوق إليه باختياره تلبية لنداء ضميره : ذلك بأنّ السنة الخلقية تكمل الشخصية ، والحق مثل كامل يسعى إليه الإنسان مادام محتفظاً بشخصيته ، فإن أساء فهم الحق وهو حسن النية لا ينقصه ذلك شيئاً من شخصيته ؛ لأنّه لا يليث أن يدارك خطأه ، ويصلح ما أفسده . ولو تساوى الناس في العقل والحكمة والفتانة للاقروا في نقطة واحدة هي نقطة الحق الواحد المطلق العام الثابت : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْنَابِ السَّعَيْرِ) ولكن فيهم من عرف الحق واتبعه لأنّه الحق بل لأنّه يوافق رغباته ، ومنهم من طلب الحق وأخطأ السبيل ، ومنهم من هداه الله إلى الحق فعرفه ، واتبعه لذاته ، وقليل ما هم .

وما لاشك فيه أن الشرائع المدنية والقواعد الخلقية متتفقة في منع الكذب وخلف الوعود والسرقة ، فإذا تجنبها الإنسان خوفاً من العقاب فقد أطاع القانون ، ولكنّه لا يعد إنساناً كاملاً إلا إذا تركها بغضها فيها وحبها في الكمال .

الحقوق والواجبات القومية

إذا استطاع فرد أن يعيش في عزلة عن الناس كانت حقوقه وواجباته على قدر ما توحى إليه غرائزه؛ إذ لاشأن له في الحياة الخلقية؛ لأن الحياة الخلقية تتوقف على الجماعة التي يحتمل أن تتحتك الرغبات فيها وتصادم، ونواة الجماعة الأسرة وهي تحرص المحرص كلها على البقاء والسعادة، ولا سهل إليها إلا بالتضارف والتضحيه الفردية، وإذا تنسلت الأسرة نشأ عنها خذ ثم بطن ثم عمارة ثم قبيلة ثم شعب، وصار على كل فرد منه حقان: حق لأسرته، وحق لشعبه. ويحتمل أن يصطدم الحقان فيضحي ذو النفس الخلقية بحق أسرته رجاء إسعاد أمه، كما يضحي حق نفسه في إسعاد أسرته. هذا إذا كانت روابط الشعب متينة، أما إذا كانت قلوبهم شتى كانت التضحيه الكثيرة علينا عليه وعلى أسرته؛ فإن مقدار ما بين القوم من الحب والتكافل يعني ما على الفرد من الواجب، والأمم تسير في سبيل الرقي بقدر ما بين أفرادها من حسن الرابطة وتمام التعاون، والأمة التي يختل فيها هذا التوازن ويكثر فيها الحيف والمحاباة والاغتصاب تتفهقر وتتعرض للفناء، وعلى هذه القاعدة كانت القبائل يغزو بعضها بعضاً، وتعذ القوية ماتهبه من الضعيفة حقاً لها، وتسبيح دول أوربة الآن استعمار بلاد الشرق وشمال إفريقيا، وترى الحق الذي تقيمه بين أفرادها وبين جاراتها من الدول - باطلاق إزاء الأمم الشرقيه: فالحق بينها وبينهم هو القوة

فمنى أن الحق والواجب متناسبان مع قوّة التضارف بين الأفراد والجماعات، والحق في الجماعة أو الأمة الواحدة ما يوحى به الضمير ولو كان مستنداً إلى قانون يؤيده، ولكنه بين أمة وأخرى أو طبقة وطبقة تعينه القوة، وليس هذا حقاً خلقياً؛ لأن الحق الخلقي هو الحق المطلق المستمد من الضمير السليم البعيد عن التحيز الشخصية أو حزبية أو جنسية؛ لأن الناس على اختلاف درجاتهم وقوتهم وبالذم تحميهم رابطة الإنسانية، فالبساطة وطن عام للجميع،

و العالم كله سائر في سبيل الرقى العلمي والسياسي والخلقي والاقتصادي ، فليس بعيد أن نراهم جميعا ينشدون الحق المطلق ، ويحوطونه بسياج من التكافل وتبادل المنافع ، ولهذا تعقد المعاهدات ، وتسن القوانين الدولية ، فكلما قطعت الأمم خطوة نحو الرقى الإنساني قربت من الحق المطلق ، وانضوت تحت لواء الإنسانية العامة .

الموازين الخلقية

مقدمة

مثل أعمال بني الإنسان مثل كتاب ينظر فيه القاضي فيصدر حكمه وفقاً للقانون ، ويطلع عليه المؤرخ فيستخرج منه عبرة وموعظة ، ويدرسه العالم الاجتماعي فيستتبط قاعدة ، ويتأمله المشغل بعلم الأخلاق فيقضى فيه على حسب موازينه ومقاييسه . ولما كان لكل عمل من الأعمال دواعي أو بواعث وجوب أن نوجز القول في دواعي الأفعال قبل البدء في موازينها فنقول :

دواعي الأفعال

لقد نظر الخلقيون في البواعث التي تسوق الإنسان إلى اقتراف أفعاله فألفوها مخصوصة في ثلاثة : الميل الفطري ، والمنفعة ، والواجب : ذلك بأن الأطفال يأتون بأفعالهم مسوقين بحبهم وغرائزهم ليس لهم من الإرادة والاختيار ما به يعتزمون ويتخذون ، وهم في غرائزهم مختلفون : ف منهم من أُتي طبائعه هي أصول الفضائل وبدور محسن الحال وكريم العادات ، ومنهم من كان نصيبيه سيء الجبلات ورديء الغرائب ، سواء كان ما أو توه من طريق الوراثة قريباً وبعيداً ، أم هي قدرة الخالق الفرد قضت عليهم بها . وهؤلاء إن أتيح لهم قسطاً من التعليم الصحيح والتهديب الخلقى نجوا من شر طبائعهم ، ودخلوا في زمرة أهل الفطر السليمة ، فأصبحوا أخيراً أصلحين . أما المنفعة فهي تلمس الم佞اء الشخصية وإفراج الوضع في نيل المآرب وقضاء

البيانات مع التعميل على إعمال القرىحة والفكر والاستمداد من معين الارادة والعزمية.

وأما الواجب فهو فعل ما ينبغي سواء أكان فيه رضا للميل والمنفعة أم اغضاب لها ، وهو أشرف الثلاثة وأنبتها ، فهو الأمر الزاجر الحجة على القلوب الذي يجب تقديم الميل مع المنفعة قرباناً له ، لا بل يجب تقديم الحياة التي لا يعني عوض منها ، وهو يشمل الواجب الديني والمدنى والفردى والاجتماعى .

يستخلص مما تقدم أن من يتَّقَصُّ أعمال بني الإنسان يجد منها ماداً عيته الميل الفطري فقط كأفعال الأطفال ومن في حكمهم مما استحوذ على قلوبهم الهوى وجنوده ، ومنها ماداً عيته الميل والمنفعة كمن يتسم المال والبنين ، ومنها ماداً عيته محض الواجب على تعدد ضروربه كمن يزود عن بيضة دينه ، أو يدفع عن حوزة قومه ووطنه ، وقد تجتمع الدواعي الثلاثة كالعلماء ينقبون عن حقائق السنن الكونية وما أودعها الله من الفوائد والمنافع لبني الإنسان عامتهم وخاصتهم ، إذ فيها ينفع العالم غالباً ميله ، ومنها يستنبط ما يقوم بالقناطير المقتصرة من الذهب والفضة ، وفي إماتة اللثام عنها وإخراجها للعالمين - قيام بالواجب جدير بالذكر ، قيin بدائم الشاء .

وقد ردّها ابن حزم إلى أصل واحد إذ يقول في كتابه « مداواة النفوس » مانصه : « تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وطلبه فلم أجده إلا واحداً وهو طرد الهم ، فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستروا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط ، ولكن رأيهم على اختلاف أهوائهم ومطاليبهم ومراداتهم لا يتحركون حرفة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم ، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعاونون به إزاحته عن أنفسهم : فمن مخطيء وجه سيله ، ومن مقارب الخطأ ، ومن مصيب ، وهو الأقل . فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن ينتهي عالم الابتداء ويعقبه

عالم البقاء ، على ألا يقصدوا شيئاً سواه ، وكل غرض غيره في الناس من لا يستحسن : اذ فيهم من لا دين له فلا يعمل للأخرة ، وفيهم من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمان ولا الحق ،

ومن الناس من يؤثر المحول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ومنهم من لا يعني المال بل يؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنباء عليهم السلام ومن تبعهم من الزهاد والفلسفه ، ومنهم من يبغض اللذات بطبيعته ويستنقص طالها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتناه ،

وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كأكثـر من نرى من العامة .

هذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها ، وليس في العالم مذكان إلى أن يتهم أحد يستحسن لهم ولا يريد اطراحه عن نفسه ،

فليما استقر في نفسى هذا العلم الرفيع وانكشف لـي هذا السر العجيب وأنار الله لـفكـري هذا الكـنز العظيم - بحثت عن سـبيل مـوصلـة عـلى الحـقـيقـة إلى طرد الـهم الـذـى هو المـطلـوب النـفـيس الـذـى اـتفـق جـمـيع أـنوـاع الـإـنـسـانـ الجـاهـلـ منـهـمـ وـالـعـالـمـ وـالـصـالـحـ وـالـطـالـحـ عـلـى السـعـى لـهـ ، فـلـمـ أـجـدـهاـ إـلـاـ التـوـجـهـ إـلـىـ اللهـ عـزـ وـجـلـ بـالـعـمـلـ لـلـآـخـرـةـ ، إـلـاـ فـإـنـمـاـ طـلـبـ الـمـالـ طـلـابـ لـيـطـرـدـواـ بـهـ هـمـ الـفـقـرـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ ، إـنـمـاـ طـلـبـ الصـوتـ مـنـ طـلـبـهـ لـيـطـرـدـ بـهـ عـنـ نـفـسـهـ هـمـ الـاسـتـيـلاءـ عـلـيـهـاـ ، إـنـمـاـ طـلـبـ الـلـذـاتـ مـنـ طـلـبـهـ لـيـطـرـدـ بـهـ عـنـ نـفـسـهـ هـمـ قـوـتهاـ ، إـنـمـاـ طـلـبـ الـعـلـمـ مـنـ طـلـبـهـ لـيـطـرـدـ بـهـ عـنـ نـفـسـهـ هـمـ الـجـهـلـ ، إـنـمـاـ هـمـ إـلـىـ سـمـاعـ الـأـخـبـارـ وـمـحـادـثـةـ النـاسـ مـنـ يـطـلـبـ ذـلـكـ لـيـطـرـدـ بـهـاـ عـنـ نـفـسـهـ هـمـ التـوـحـدـ وـمـغـيـبـ أـحـوـالـ الـعـالـمـ عـنـهـ ، إـنـمـاـ أـكـلـ مـنـ أـكـلـ وـشـرـبـ مـنـ شـرـبـ وـلـبـسـ مـنـ لـبـسـ وـلـعـبـ مـنـ لـعـبـ وـكـنـزـ مـنـ كـنـزـ وـرـكـبـ مـنـ رـكـبـ لـيـطـرـدـواـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ أـضـدـادـ هـذـهـ الـفـعـالـ وـسـائـرـ الـهـمـومـ .

وكل ما ذكرنا لمن تدبره هموم حادثة لا بد لها من عوارض تعرض في خلاطها من فقد وضياع ومنافسة ومناومة عدو وحاسد ، أما العمل

للآخرة فقد وجدته سالما من كل عيب خالصا من كل كدر موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمسكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون على ما يطلب وزائد في الغرض الذي يقصد، ووجدته إن عاقه عما هو بسيله عائق لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذًا بذلك فهو غير مؤثر فيما يطلب. ورأيته إن قصد بالأذى سر، وإن نكبته نكبة فرح، وإن تعب فيما سلك فيه سر، فهو في سرور متصل أبداً، وغيره بخلاف ذلك. فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم، وليس له إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى، وما عدا هذا فضلال وسخف ثم أردف ذلك بقوله:

لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عن
وجل في دعاء إلى حق، وفي حماية الحرير، وفي دفع هوان لم يوجهه عليك
خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم. وباذل نفسه في غرض الدنيا كبائع الياقوت
بالحصى، ولا مروءة لمن لا دين له، والعاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنـه.

الموازين الخلقية

إن لكل شيء ميزاناً يوزن به، ويقدر على حسابه، فلا سبيل للأحاطة
بمحمله وتفصيله ومحاسنه ومثالبه، ودفع الشك والليس في جوهره وعرضه
إلا إذا عرف ميزانه ومقاييسه، فما مقياس الأعمال خيراً ها وشرها، وما مر جمعها
الذى تُرَدُّ إليه؟ لقد افترق الفلاسفة الخلقيون قدیماً وحديثاً فرقاً شتى في
إجابة هذا السؤال، فأدلى كل برأيه، ودعم حجته وبرهانه، وهذا نحن أولئـ
نبسط مذاهبهم فنقول:

الميزان إلا ول

العرف

قال قوم: إنه العرف، وحجتهم أن الإنسان لا يزال ينظر إلى عادات قومه
ومواعظهم نظرة إكبار وإجلال يستمد منها آراءه وينسج منها أحکامه،

وليس شيء أحب إليه مما وافق مأثورهم ومواضعاتهم ، فالخير ما وافقها والشر ما خالفها ، ومن جرى عليها فهو المحمود الجدير بالثناء ، ومن خالفها فهو الذي المستحق للنقم والبغضاء .

وقد بلغ من مكانة العرف أن فقهاء الحنفية اتخذوه قاعدة شرعية بنوا عليها كثيراً من الأحكام ، ييد أن التاريخ شاهد عدل على أن اتخاذ العرف معياراً للحسن والقبح وميزاناً للخير والشر خطأً عظيم : ألم تعلم أن العرب كانوا لا يرون غضاضة في أداء بنائهم والتزويج بمحارمهم جرياً على عرفهم ؟ فلما جاء القرآن ونبههم على سوء فعلهم وقبح صنيعهم كفوا عن عادتهم وأدركوها مبلغ خطئهم . وكان الرومان يقرنون ماللاباء على الآباء من الحق في قتلهم ، وظل العالم كله لا يجد عيباً في الاتجار بالرقيق ، وتنزيله منزلة السلع ، حتى جاء الإسلام . وكانت هذه العادة قد رسخت في نفوس البشر ، فغض على بغيرها واجتنابها بشتى الطرق و مختلف الوسائل . ومن الأمور التي أقرها العرف عند العرب في حاليتهم وغيرهم من الأمم البدوية أنه كان يحق لـ كل من أقارب القتيل أن يأخذ بالثأر من الجاني ، فإن هرب وخفي مكانه جاز لونى . القتيل عرفاً أن يقتل أيها كان من أقارب الجاني قتلة كقتلة القتيل .

وما لاشك فيه أن العرف مختلف لاختلاف الأمم ، ولمساوية الفواعل التي نشأت عنها وجوه الاختلاف في الخلائق والخلق : ألم يأتك نبأ بعض القبائل التي لاتزال على حالها الفطرية كأهل « برنو (١) » ، زين لهم العرف أن أحداً لا يستحق أن يخطب فتاة حتى يلقي عند قدميها هامة إنسان ، فإن مجzen عز . ذلك عذر في حكم العرف نذلاً مهيناً جباناً عند أبناء عشيرته غير كفء خطبه . هذا القتل يعتده أولئك المتوجهون بنبالة وإقداماً يوجب القصاص عند أهل الشرائع السماوية والوضعية . وما يقره عرف « الزولو (٢) » أن الجندي لا يستطيع التزوج إلا إذا شهد معركة وانتصر

(١) هم قبائل إلى الغرب من بحيرة شاد بأفريقيا

(٢) سكان بلاد جنوبى إفريقيا وهم قسمان : قسم في « ناتال » وآخر

فيها ، وأغرب من ذلك أنهم يزوجون قسراً وإلزاماً الفرقه برمتها من الجنود بذنات الفرقه الأخرى ، ومن حاول مخالفه الامر من الجنسين قتل على الفور . وما تواضع عليه الأسترييون الأصليون أن من كانت له ابنة وبلغت الرابعة عشرة من عمرها عرضها على أحد الرجال للزواج ، ومتى تم الاتفاق على تزويجها أسلماها أبوها إلى الزوج دون أن تراه أو تعرفه ، فإذا أبت أخذها بالتوبيخ ثم الزجر ثم الضرب حتى تخضع ، وعند ذلك يحررها من شعرها إلى بيته الجديد .

ومن عرفهم أنهم يطعمون الغلام من لحم أخيه القتيل لتجتمع له القوتان في جهنمه ، ومن عرف « التمنيين » وهم من أهل « سيراليونة (١) » أنهم إذا أرادوا انتخاب ملك عليهم ضربوه ضرباً مبرحاً ليتحنوا صبره وجلده ، وكثيراً ما يموت من شدة الضرب .

ولقد درج أهل « سنغافيا » على ألا يعتدوا الغلام في مصاف الرجال حتى يظهر براعة ومهارة في غزوة أو تصوicie . وما يقره « الميلاتين (٢) » أنه اذا مات أحد رؤسائهم قتلوا واحدة أو أكثر من نسائه أو واحداً من أقاربه أو أصدقائه زعموا منهم أن ذلك مضى في خدمته إلى عالم الآخرة ، وقد تطلب نساء الميت القتل طوعاً واختياراً خشية أن يعشن ذليلات بعده فاته . وما ارتضاه « الفيلوب (٣) » أنهم إذا اتهموا رجلاً بسرقة أتوه بقضيب

في مستعمرة الكاب ويعرفون جميعاً باسم « الكفار » وهي تسمية عربية أطلقها عليهم المسلمون من سكان إفريقيا ، وهؤلاء الكفار أشد أمم « البنتو » بطشاً وأكثراً إقداماً على الحروب .

(١) كلمة برغالية معناها (جبل السباع) وهي مستعمرة إنجليزية في السودان الغربي ردية الجو . (٢) قوم يقيمون وراء « غابة الجديدة » في جزائر سمارك المشتملة على جزائر بريطانية « الجديدة » « وإنلند الجديدة »

(٣) هم سكان مستعمرات إنكلترا والبرتغال على ضفتي نهر (غمبايا) في غرب إفريقيا

من الحديد مجني إلى درجة عظيمة ، فأدنوه من لسانه ، فإذا احترق ثبتت عليه جنائته ، وإذا أتهموا ساحرا من سحرتهم أو عرافا من عرافتهم حاكموه إلى كأس السم ، فيتحسها ، فإذا مات اتخذوا موته دليلا على ثبوت الجنائية عليه ، وقد حل به جزاؤه .

وما كان يستحسن « البتتو » (١) المتوضتون أنهم إذا أرادوا أن يقربوا قربانا شدوا إنسانا إلى شجرة ، فإذا افترسه وحش بالليل دل ذلك على قبول قربانهم ، وإلا أوثقوا يديه ورجليه بحبيل ، وربطوا حجرا إلى عنقه ، ثم ألقوه في البحيرة ؛ ليغرق أو ليلتقطمه التساح .

ومالا يزال يعمله « البتتو » (٢) الغريون أنهم يحتفلون كل سنة بالصلب ، فيأتون برجل يعدونه للصلب ، ثم يتقدم « البدونقا » (٣) منتضايا سيفا طويلا ، فيأمر بصلب المحكوم عليه في جذع شجرة ، ثم تدق المسامير في كفيه وقدميه ، ويسام سوء العذاب .

ومنا جرى عليه عرف « البتتا » أنهم إذا نشب حرب بينهم وبين عدو لهم حفروا حفرة ، فوضعوا فيها غلاماً ، ثم هالوا عليه التراب إلى عنقه ثم أطعموه مزيجا من « الزنجبيل » « والفلفل » « والملح » حتى إذا أشرف على الموت عطشاً سقوه قليلا من الماء ، ولا يمكنونه من الارتفاع حتى يقسم لهم أنهم متصررون على عدوهم ، فإذا أقسم صبوا في حلقه رصاصا ذائبا ، فيماوت على الفور وهو على قسمه .

هذه هي أمثال ضربناها ؛ لنبين أن العرف لا يصلح أن يكون ميزانا خلقيا .

(١) هم الذين يستوطنون الجهة الشمالية من بلاد « الـكـنـغـوـ الحـرـةـ »

(٢) هم قوم كانت لهم دولة قوية إلى الجنوب من نهر « الـكـنـغـوـ » قبل مجيء

البرتغاليين سنة ١٤٩١ ثم اعتنقوا النصرانية زمنا قصيرا

(٣) هو كاهن متنكر يلبس وجهها مستعثرا ويتسلل برداء مصنوع من ورق الموز

أو غيره من الشجر .

الميزان الثاني

الفطرة

يرى القائلون بهذا المذهب أن في النفس البشرية قوة غرزية ملهمة حفّاقٍ
الأمور هي الفيصل الذي ترد إليه الأعمال: فيها تفرق بين الخير والشر،
وتميز بين الحق والباطل كتمييز الباصرة السليمة بين الأحمر والأصفر مثلاً.
ويستدلّون على صحة رأيهم هذا بأن جلّ بني الإنسان على اختلاف العصور
قد أجمعوا كلمتهم على أمور لا يزالون مجتمعين عليها: فقالوا مثلاً إن الصدق
محمدة، والشجاعة مكرمة، والاحسان جميل، والكذب مذموم، والجبن
مقوت، والشجاع قبيح.

لامرية في أنهم فرقوا بين هذه الرذائل وتلك الفضائل بعين البداهة ومحض الالهام كا أدركت أبصارهم جمال الأمور الحسنة وقبحها . وبنوا على مذهبهم هذا أن الخير أو الشر ما ترشد اليه الفطرة لاما جلب لذلة وهناء ، أو جر إلى ألم ومساءة ، وأن الصدق صدق في ذاته وأن أفضى إلى مغبة وخيمة ، والكذب كذب في ذاته وإن أعقب اغتيابا وعاقبة هنيئة . من أجل ذلك يرون أن الأقوال والأحوال ، لا ، بل الأفعال الخلقية جميعها — وسائل لأمقاصد ، وأن الفضيلة فضيلة على اختلاف الحال والمكان والزمان لاترتبط بغاية من الغايات ومارب من المآرب ، وأنها بهدية غنية عن الدليل والحججة ، وأنها لا تنقلب إلى ضدها وإن تبدل الأحوال وتعاقبت غير الليلى والأيام . يرى أهل هذا المذهب أن هذه «الفطرة» تدرك دون خبرة وتعلم وأن هناك قواعد للسلوك الخلقي واضحة يتبين لا لبس بين خطئها وصوابها خيرها وشرها ، وأنها رأس الفضيلة الخلقية ، ييد أنهم لا يزالون مختلفين في حقيقة هذا الذي تدركه الفطرة بما أو تبنته من وحيها وتلقينها : فهو سداد الفعل ، أم سداد المبدأ الخلقى ؟ ففريق يرى أن الموهبة الجبلية التي فطر الله الناس عليها تمكنهم من التفرقة بين الحق والباطل والخير والشر في الأفعال الجزئية كما يسر لهم أن يعرفوا الأولى نظرة لون المنظور إليه أحمر أو أخضر مالم تكن على أبصارهم

غشاوة ، وفريق يرى أن الذى يدركه الإنسان بداعه هو صدق مبادىء كلية ، عم التسليم بها بين بني الإنسان فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الحكم على الأفعال الجزئية بأنها خطأ أو صواب إنما جاء من تطبيق هذه المبادىء : فإذا علمنا عليها صحيحاً أن علينا مثلاً استحوذ على مال محمد غصباً أو احتيالاً - قضينا باستهجان عمله واستحقاقه لل孽ت عملاً بمبدأ معلوم بالفطرة : وهو أن الاغتصاب والاحتياط من أعمال الباطل ; وعلى ذلك فايقاع الحكم الخلقي يتم بحركة عقلية قوامها إدخال عمل بعينه في قاعدة أو حلت بها الفطرة التي وهبها الله جميع طبقات الإنساني ، كما وهب لهم المشاعر

قدم هذا المذهب

إن الذى يستقرىء تاريخ الفلسفة وما حوطه من شتى المذاهب يرى أن القول بتلقين الفطرة ليس أمراً محدثاً ، بل قال به « زينون » الفيلسوف اليونانى : فقد كان مما يدعوه إليه رياضة النفس وامتحانها بحرمانها مشتهياتها وتطهيرها من أرجاس الشهوة وأدناسها ، إذ تمكين النفس منها يفضى إلى بطر يطغى ، وأشر يردى ، ويحول بينها وبين العمل بما علمته تلقينا وإلهاماً ، فإذا أعطيت المراد من شهوات وقوتها تعدتها إلى شهوات قد استحدثتها . وقد تقبله أتباعه ، فأخذوا ييثون في نفوس الناس ما استبطوه من أقوال أستاذهم وسيره : من الحرص على استبقاء النفس الطاهرة مجردة من شوائب الشهوات ليتم لها القيام بأوادعته بالفطرة ، وأن اللذة ليست غرضاً من أغراض الإنسان وليس من الخير في شيء ، بل أبل الأغراض وأحجاجها هو تلمس الفضيلة والحرص عليها ، وإن أفضى ذلك إلى ركوب متن الأهوال واقتحام المخاطر واحتمال الأذى في النفس والمال والولد .

أخذوا ينشرون في أرجاء بلا دهم أنه يحدى بالانسان الذى منحه الله العقل والحكمة ألا يجعل همه تحصيل الغنى وجلب اللذات ، وأنه حرى به ألا يجعل له هما سوى أن يكون متحلياً بمحارم الأخلاق رافعاً لواء عزة

النفس في أى بيضة كان ، لا يحفل بما يعامله به الناس من تبجيل أو تحفيز
موفقنا أنه جار على سنن الفضيلة . ولقد ضربوا للحياة مثلا ، فقالوا : مثل
الناس في هذه الحياة الدنيا كمثل قوم يمثلون رواية على المسرح : فهم من
عمله تمثيل الحاكم ، ومنهم من عمله تمثيل النديم أو الشحاذ أو المحتال ، فلا
اعتزاد بالكسي والأردية التي تميز بينهم ، فلا نطري الحاكم لبريق تاجه
وبهاء ملبيسه ، ونذم الشحاذ لرثاثة ثيابه وبشاشة منظره ، وإنما نحمد منهم من
يحسن نصيحة من التمثيل ، ويتقنه الاتقان المروم .

كذلك الناس في هذه الحياة الدنيا : لأنهم لحسن منظرهم وبهاء ظاهرهم ،
بل لطهارة مخبرهم ونقاوة سرائرهم ، وحسن أقوالهم وأحوالهم ، والاضطلاع
والوفاء بما أؤمنوا عليه .

نقد القول بالفطرة

حقا إن هذه الفطرة التي قصدتها أهل هذا المذهب تفرق بين الحير والشسر
وتميز الحق من الباطل والخبيث من الطيب ، لأنها الجبلة القابلة للحق ، إلا أنها
قد يعرض لها مما يحول طلاقها قليلا أو كثيرا ، ويصر فيها عن السداد في
حكمها ، ويعنى قابليتها ، وحيئذ يرى الإنسان الخير شرا والحسن قبيحا ،
فلا يصح إذن أن تكون هذه الفطرة مقاييسا خلقيا يركن إليه ، ولا رائدا
يُعوَّل عليه ، ويجمع ذلك قوله الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم :

« كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »
وهو جلي في أن الفطرة في مبدئها صافية في ذاتها لا يطبعها إلا ما يطيف بها .

الميزان الثالث

القول باللذة

تعميم ————— ييد

(أ) حقيقة اللذة

اللذة شعور جسدي أو عقلي بما أحدثه الفعل من إرضاء الشهوة سواء كانت جسدية، أم عقلية: فالشبع لذة لأنها سد الجوع، والصدق لذة لأنها أرضي الضمير، والفوز لذة لأنها أرضي الطمع بالشهوة أو رد بعياً أو صان عرضاً أو حفظ وطناً، والربح لذة لأنها أرضي شهوة الطمع في المال.

(ب) اللذة والألم

وحال الإنسان لا تخلو من أمرتين: لذة أو ألم: لذة أحاسيس المجموع، وإذا شبع أحاسيس اللذة الشبع، وحل السرور محل الألم. فال فعل ينطلق من حال الألم إلى حال اللذة، أو يقربه منها، والغريزة التي هي مصدر الأخلاق هي التي تحركه إلى الفعل الذي ينجو به من الألم.

(ج) ضروب اللذة

للذة ضروب ثلاثة: -

الأول - اللذة التي نستمدتها من فعل مضى،

الثاني - اللذة التي ننتظر أن تنشأ عن فعل معين في المستقبل،

الثالث - اللذة التي نشعر بها في الزمن الحاضر لأمر سيقع في المستقبل.

فاللذة الأولى حدثت مع حدوث الغاية، والثانية لم تحدث بعد وإنما ننتظر حدوثها، والثالثة نشعر بها في الحال.

وهنا نتساءل: هل يختلف الشعور نفسه حين حدوث اللذة عن الشعور بها حين تصورها واقعة؟

الجواب أنهم يختلفان من حيث الشدة ، وفي كثير من الأحوال تكون اللذة بتوقع حدوتها أشد منها حين حدوثها ، وفي غالب الأحيان تنتهي اللذة حين تُبلغ الغاية .

وما تقدم يتبيّن أن الغاية ليست اللذة بعينها لحدوث اللذة قبل حدوث الغاية ، وفي هذا خفاء على الذين أفوا اللذة متفقة مع الغاية ، ولو فطنوا إلى أن كثيرة من الأفعال تفعليها قبل أن تخبر غايتها لنعلم مبلغ ما فيها من المسرة أولاً - لاقتنعوا بأن الغاية شيء واللذة شيء آخر ؛ ذلك بأن الغاية دفعت إليها الغريزة حاجة الجسد أو النفس إليها ، فالطفل لم يرضع ثدي أمه لأول مرة قصدَ لذة الشبع ، وإنما الغريزة دفعته إلى رضاعة الثدي ؛ لأن وظيفتها دفعه للفعل في سبيل حياته وبقائه . والطفل يمكِّن لا لأنَّه جائع متأنٍ من الجوع ، فقد يكون شبعان ثم يمكِّن ؛ لأن الغريزة تدفعه للبكاء لكن يحرك حنو أمه لارضاعه .

ولما وجد الإنسان من طريق الاختبار أن الاندفاع في العمل بعامل الغريزة يمنجه لذة - أصبح يندفع هذا الاندفاع توخي اللذة ولكن الغريزة لم يكن قصدها اللذة ، وإنما النفع الحيوي من نموه وبقاء حياته واستمرار نوعه ، يبدأ الطبيعة قررت هذه الغاية بلذة ؛ لتغريه بالاندفاع في الفعل . فالغاية القصوى من الفعل ليست اللذة ، وإنما جاءت اللذة معها ومع الفعل دليلاً على أن ما يندفع إلى فعله إنما هو حسن له وصالح لبقاءه ، وكفيل بحياته ونجاحه ؛ فاللذة حركة مرتبطة بعلم النفس ، والغرض حركة مرتبطة بعلم وظائف الأعضاء .

وما تقدم يتبيّن وجاهة القول بأن الغاية تختلف عن اللذة . يد أن هناك من يقول: بأن الغاية القصوى هي اللذة بعينها . وحجتهم في ذلك أن الإنسان إذا لم يتوقع لذة من فعل ما لا يندفع إليه ، وإذا كانت الطبيعة قد جعلت اللذة تغرى الإنسان فتتدفعه إلى الفعل ؛ لأن غرضها حفظ الحياة وبقاء النوع - فالإنسان لا يكتفى بتنفيذ غرض الطبيعة بل يتراكم تفعل فعلها ، وهو مجاهد نفسه في تحصيل لذته لا يعني سواها في غايتها القصوى .

لهذا القول نصيب من السداد ، لأن الإنسان يسعى لادخار المال لا لأنه في حاجة إليه ، بل يستلذ التنعم به ، وقد يكون تنعمه مفضياً إلى عكس الغرض الذي تقصد إليه الطبيعة . فقد يمرض ويموت عاجلاً ، وتصبح الثروة التي أمكنته من الترف والرفاهية سبباً في سوء العاقبة له ، وقد يعلم حق العلم أن كثريين غيره ممرون انغمموا في الشهوات ساءت حاهم ، وقصمت المنية ظهورهم ، ولا يعتبر بهم ، بل هو يريد الحياة - كما يقولون - عريضة قصيرة؛ لأنه يتبع اللذة لنفسها ، لا للبقاء والحرص على الحياة . وكذلك فاعل الخير وخدم الانسانية لا يتبع من وراء فعله خير نفسه ، بل يقصد استمتاع الضمير واغباطه بالخير نفسه .

و كذلك المتفنن يقضى زهرة حياته في الفن الجميل كالشعر أو الموسيقى ، وهو يعلم أنه معوذ محروم المتع بما في الحياة من ضروب المرارات ، وأن الفن لا يغطيه ، ولكنه يعکف على فنه للذاته فيه : فاللذة هي الغاية القصوى من الفعل الذى يرمى إليه ، ولاغایة له سواها و يعلل أصحاب القول بأن الغاية واللذة شيء واحد الامثلة المتقدمة ونظائرها بأن غرض الحرص على الحياة كامن في الفعل ، قائلين إن الإنسان مهما توخي اللذة لا يغفل عن الحرص على حياته وبقاءها بوصفها غاية قصوى ؛ بدليل أن المنغمى في شهواته تمتعا باللذات متى ساءت عاقبة انغماسه وشعر أنه أخطأ - أدرك أن اللذة ليست الغرض الأول ، بل الحياة واستمرارها هما الغرض الأسمى ، وما اللذة إلا أمر صاحب الفعل ، فان كان قد اختار فعلاً غير سيد فلأن التعقل خانه ، والاختيار من وظيفة التعقل .

وصفة القول أننا إذا نظرنا إلى الأفعال في ذاتها ، وإلى المحرّكات إلى فعلها - كانت اللذة غاية الغايات التي يرمى إليها الإنسان في أفعاله على الاطلاق ، وإذا نظرنا إلى الأفعال من حيث ما فيها من حسن أو قبح ، وصواب أو خطأ - كانت الغاية شيئاً ولذة شيئاً آخر : أما الغاية فالحرص على الحياة

وأما اللذة فهي المغريّة بالفعل المحسنة له الدالة عليه، وقد تكون دلالة مضلة ، ولهذا فالمعول عليه هو التعلق ، لأنّه هو الحكم الذي يرجع إليه في الحكم . ومن ذلك يتجلّى الفرق بين المذهبين وهو أن القائلين : بأن اللذة هي الغاية القصوى لا يلحظون الوجهة الخلقية في تقريرهم أن اللذة والغاية شيء واحد ، وأن القائلين : باختلاف اللذة عن الغاية يلحظونها مستدلين بأن الإنسان ليس حيواناً مُسِيرًا بالغرائز وحدها ، بل له تعلق ذو سلطان على غريزته ، فلا يعمل عملاً إلا إذا ضرب التعلقُ فيه بسهم ولا أدل على ذلك من أنه يفكّر أحياناً ، ويترى في المفاضلة بين اللذة والحرص على حياته ، وهو في ذلك إنسان خلق لا حيوان غرزى

(٥) - تعاقب اللذة والألم

لكل نوع من العمل وجهان : سار ومؤلم ، فيقال : هذا أحسن من ذاك ؟ لأن لذته تزيد على ألمه ، وكذلك العكس .

ولا مرية في أن الحكم بأن أحد الوجهين أكثر لذة يستدعي تبصرة في مقتضيات العمل وعواقبه الخلقية ؛ فالماء الذي ينغمس في الملاهي الجسدية يجده فيها لذة ، ثم يجد فيها ألمًا في عوّاقب انغماسه من مرض وخسران مال وسوء سمعة ، فإذا تبصر في عمله ووازن بين ماضيه من لذة وألم - فربما ألقى الألم يفوق اللذة ، فيدرك أنه سوء السلوك ، فيعدل عنه ، وكذلك الغاش يجد لذة في غشه ؛ إذ ينعم بمال لم يتعب فيه ، ولكنه يجد ألمًا فقد الثقة فوق ما يشعر به من توسيخ الضمير لاختلاسه حق غيره . فإذا فاضل بين سروره وألمه شعر أن عمله كان سيئاً : ومن ذلك قالوا : إن السلوك السيء لا يخلو من لذة ، بل هو ماأفضى إلى أقل لذة ، وإن أعظم الأعمال لذة ومسرة لا يخلو من ألم : ألا ترى أن تحصيل العلوم قد يكون أعظم لذة عند الباحث وهو لا يشعر بما يلقاه من الآلام حال شعوره بلذة البحث ، فقد يضعف صحته ، أو يشغله عن اكتساب رزقه فيعيش مقترناً عليه .

(و) - تفاوت اللذات

افترق علماء الأخلاق في تفاوت اللذات ففرقتين :

فرقة تقول : إنها تختلف كـأوكيـفـاً ، وفرقة ترى أنها تختلف كـلاـغـيرـاً .
أما الفرقـة الأولى فـتـقول : إنـالـلـذـاتـ تـخـتـلـفـ كـيـفـاـ باـخـتـلـافـ مـوـضـوـعـاتـهاـ:
فلذـةـ الـعـالـمـ تـخـالـفـ لـذـةـ الغـيـ ، وـلـذـةـ الـمـتـفـنـ غـيـرـ لـذـةـ الـاـقـصـادـيـ ، وـهـلـمـ
جـراـ

وـأـمـاـ الفـرـقـةـ الـآـخـرـىـ فـتـقـولـ : إنـاـخـتـلـافـالـلـذـاتـ بـاـخـتـلـافـ مـوـضـوـعـاتـهاـ
يـرـدـ كـيـفـيـاتـهاـ إـلـىـ كـمـيـاتـ ؛ إـذـ مـنـ مـسـلـمـ بـأـنـ نـقـرـرـ أـنـ لـذـةـ الشـاعـرـ بـشـعـرـهـ قدـ
تـكـوـنـ أـعـظـمـ مـنـ لـذـةـ كـاـسـبـ الـمـالـ بـكـسـبـهـ ، وـإـذـ أـرـدـنـاـ أـنـ نـضـعـ قـاعـدـةـ
لـنـوعـيـةـ الـلـذـاتـ كـأـوـكـيـفـاـ فـلـاـ تـتـحـقـقـ هـذـهـ قـاعـدـةـ إـلـاـ فـيـ قـيـمـةـ الـلـذـاتـ وـمـاـ
يـسـتـحـقـهـ السـلـوكـ مـنـهـ ، وـفـيـ هـذـاـ رـجـوـعـ إـلـىـ الـكـمـيـةـ ؛ لـأـنـنـاـ لـاـنـحـكـمـ عـلـىـ مـقـدـارـ
لـذـةـ مـاـ إـلـاـ بـعـدـ مـعـاـوـدـهـ ، فـيـقـالـ حـيـئـنـدـ : هـذـهـ الـلـذـاتـ أـعـظـمـ قـيـمـةـ مـنـ تـلـكـ .
وـلـاـ فـرـقـ فـيـ اـخـتـلـافـ كـيـفـيـتـهـ ، إـذـ لـامـعـولـ عـلـىـ كـيـفـيـةـ فـيـ الشـعـورـ بـالـسـرـورـ
فـلـلـذـاتـ تـخـلـفـ بـاـخـتـلـافـ الشـعـورـ بـهـ ، وـالـشـعـورـ قـدـ يـكـونـ كـثـيرـاـ ، وـقـدـ
يـكـونـ قـلـيلـاـ .

وـهـنـاـ يـحـبـ أـنـ نـقـولـ : إـذـ كـانـتـ قـيـمـةـ الـلـذـةـ تـتـوـقـفـ عـلـىـ الشـعـورـ بـهـ ،
وـالـشـعـورـ خـاصـ بـالـذـاتـيـةـ الشـخـصـيـةـ ، وـالـذـاتـيـةـ الشـخـصـيـةـ تـتـغـيـرـ أـحـواـلـهـاـ حـيـنـاـ
بـعـدـ آـخـرـ ، فـاـ تـشـعـرـ بـهـ الـآنـ لـذـةـ عـظـيمـةـ لـاـ تـشـعـرـ بـهـ وـقـتـاـ آـخـرـ كـذـلـكـ . إـذـ
كـانـتـ قـيـمـةـ الـلـذـةـ كـأـوـكـيـفـاـ وـصـفـنـاـ . فـكـيـفـ يـكـنـ وزـنـ الـلـذـاتـ لـيـعـلـمـ أـيـهـاـ أـعـظـمـ
وـأـيـهـاـ أـصـغـرـ ؟

قال بعض العلماء : مـيزـانـ الـلـذـاتـ أـنـكـ تـزـنـ شـعـورـكـ بـلـذـةـ الـحـاضـرـ بـشـعـورـكـ
بلـذـةـ آـخـرـ سـابـقـةـ عـلـيـهـ .

وـلـيـسـ هـذـاـ مـيزـانـ كـبـيرـ قـيـمـةـ ، لـأـنـ ذـاتـيـةـ الشـخـصـ (ـكـاـ قـدـمـنـاـ)ـ تـتـغـيـرـ حـالـهـ
حـيـنـاـ بـعـدـ آـخـرـ ، فـلـاـ تـصـلـحـ أـنـ تـكـوـنـ مـيزـانـاـ يـرـكـنـ إـلـيـهـ .

وقال العلامة «بنتم» : ميزانها واحد من سبعة : شدتها ، وطول مدتها ، وقربها ، والتشتت من وقوعها ، وقلة ما يصحبها من الآلام ، والغاية الخلقية التي تفضي إليها ، واتساع نطاقها .

(ز) - ضروب اللذة في رأى علماء النفس

لعلماء النفس في اللذة مذهبان :

١ — اللذة الغرزية التي يسعى إليها الإنسان بفطنته .

٢ — اللذة الكسيمية التي تنشأ عن الأعمال الخلقية ، وهي نوعان :

١ — لذة يسعى الإنسان جلبه إرضاء لنفسه فقط ، وهي لذة الأثرة

المخالفة لتعاليم الاجتماع سواء أصحبتها لذة لغيره أم لم تصحبها .

ب— لذة عامة وهي مانطلقتها إرضاء لأكبر عدد ممكن من الناس لأن

في هذا سرورنا ، وما ابتعاد السرور للناس إلا وسيلة لسرورنا

المشتق من سرورهم ، وهذا النوع من اللذة يقدر بأمرین :

حدّته ومدتها ؛ فبعضه يزيد عن الآخر بمقدار تحريكه للشعور ،

أو بدوام أثره .

ملاحظة :-

نظر بعضهم إلى ما يعانيه الإنسان من الآلام في الحصول على المسرات الخلقية ، وقدرها حسباً باعتبار الآلام سلبية والسرور إيجاباً ، وبطرح السالب من الموجب يكونباقي هو مقدار السرور .

(ج) - رأى علماء الأخلاق من المسلمين في اللذة وأصنافها ومراتبها

قال الغزالى في كتابه إحياء العلوم (ج ٤ ص ٢٥٣) ما ملخصه : ركب الإنسان من قوى وغرائز ، لكل منها لذة هي تحصيلها ما يلائم طبعها الذي فطرت عليه ؛ لأن هذه الغرائز لم تركب في الإنسان عبثاً ، بل لأمر من الأمور هو مقتضها بالطبع : فغريزة الغضب خلقت للتشقق والانتقام فلا جرم أن لذاتها في الغلبة والانتقام ، ولذة السمع والبصر والشم في الابصار

والاستماع والشم ، وهناك غريزة تسمى « النور الالهى » ، وقد تسمى « البصيرة الباطنة » والعقل أيضاً لا بالمعنى الذي به تدرك طرق المجادلة والمناظرة ، بل بمعنى أنها هي التي تعلم بها حقائق الأمور كلها ، ومن أجل ذلك كان مقتضى طبعها المعرفة وهي لذتها ، وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى أن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به ، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به . ومنشأ ذلك فرط لذة العلم وما يشاعره صاحبه من كمال ذاته به ، ولذة العلم تتفاوت بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم : ألم تر إلى أن العلم يواطن أحوال رئيس البلدوأسرا رتديبه في رياسته وألذ وأشهى للنفس من العلم يواطن فلاح أو حائط .

من أجل ذلك كان الإطلاع على أسرار الربوية والعلم بترتيب الأسرار الالهية الخبيطة بكل الموجودات - هو أعلى أنواع المعارف وألذها ، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصال به كلامها وجهاها .

وصفوة القول أن اللذة القصوى عند فريق كبير من أهل الحقيقة هي لذة العلم والمعرفة بالكون وتديبه ، فهى المعيار الصادق الذى توزن به الأعمال وتقدر ، وما عداها فلذات لا تصلح أن تكون معياراً ، لأنها إما مختلفة بال النوع كخلافة لذة الأكل للذة السباع ولذة المعرفة للذة الرؤيا ، أو مختلفة بالضعف والقوة كمن كان جاءها ثم أحضر له الأكل وكان يلعب « بالشطرنج » ، فاستمر على لعبه وأعرض عن الأكل ، لأن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل على جوعه .

وفريق منهم وهم « أهل الفناء » يرون أن اللذة القصوى هي لذة مطالعة جمال الربوية : فقرة عندهم وصله ولقاوه ، ومن بلغ منهم هذا المرتبة انمحقت هممته وشهواته ، وصار القلب مستغرقاً بغيره ، فلو ألقى في النار لم يشعر بها لاستغرافه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يتلفت إليه لكمال نعيمه وبلغه الغاية التي ليس فوقها غاية .

رأى ابن حزم في صنوف اللذة

وقال ابن حزم في صنوف اللذة مaily : «لذة العاقل بتميزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده - أعظم من لذة الأكل بأكله ، والشارب بشربه ، والكاسب بكسبه ، واللاعب بلعبه ، والأمر بأمره . وبرهان ذلك أن الحكم والعاقل والعالم والعامل وأجدون لسائر اللذات التي سمعناها أو لا كما يجدها المنهمك في اللذات الأخرى ويحسونها كما يحسها المقبل عليها »

اللذة البدنية بوصفها ميزة

يرى أهل هذا المذهب أن الإنسان لا يستطيع أن يحزم بشيء سوى ما يصيب بدنـه من اللذة والألم ، فاللذة هي الخير ، والألم هو الشر ، وهو معيار الأعمال ومنظـاط الأحكـام ، وإذ أنه لا يدرى شيئاً مما يكتـنه له الغـيب - وهو يعلم الحاضـر عـلـمـاً مـحـسـاً لـأـمـرـيـةـ فـيـهـ . فالـحـكـمـةـ كـلـ الحـكـمـةـ أنـ يـتـبـلـ فـرـصـةـ اللـذـاتـ قـبـلـ فـوـاتـهـ ، وـيـنـتـهـيـ المسـرـاتـ قـبـلـ اـنـقـطـاعـهـ وـلـاـ مـرـشـدـ إـلـيـهاـ سـوـىـ مـارـكـبـ فـيـهـ مـاـفـيـهـ اللـذـةـ وـالـهـنـاءـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـةـ الدـيـنـاـ .

فرق أهل هذا المذهب

إن الذي يستقرىء آراء أهل هذا المذهب يرى أنهم ينحصرون في فريقين: «الفرقة الأولى أولوا الأثرة» ، ورأيهم أن الإنسان فطر على حب نفسه وجلب الخير لها ودفع الشر عنها جهد المستطاع ولو أدى إلى ضرر الغير ، وأنه حرى بالقواعد الخلقية أن تتمشى مع الفطرة وتساوقها فلا تقف في سيلها حجر عثرة ، فتحول دون بلوغ آمالها وتقطعها إلى أمانها . من أجل ذلك كان الخير كل الخير هو أن تبلغ النفس مساراتها ولذاتها وتدرك مآربها

وتقضى لبياناتها ، والشر كل الشر ألا تناول ذلك . والقول بهذا المذهب قديم فقد جاء في كتاب « كليلة ودمنة » إذ يقول « دمنة » لبعض الجندي دفاعاً عن نفسه : ويلك ! وهل على في التماس العذر لنفسى عيب !! وهل أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه وإذا لم يتسم العذر لنفسه فمن يتسمه !! . . . وإذ يقول مخاطباً القاضي : وأنت إذ ظننت أنني مجرم فيما فعلت فاني أعلم بنفسي منكم ، وعلىي بنفسي يقين لاشك فيه ، وعلمناكم بي غاية الشك ، وإنما قبح أمرى عندكم أنني سعيت بغيرى ، فما عذرى عندكم إذا سعيت بنفسي كاذباً عليها ، فأسللتها إلى القتل والعطاب على معرفة مني ببراءة نفسي وسلامتى مما قررت به . . . ونفسي أعظم الأنفس على حرمة وأوجبها حقا !! فلو فعلت هذا بأقصاصكم وأدناكم ما وسعنى في ديني ، ولا حسن بي في مروءتي ، ولا حق لي أن أفعله ، فكيف أفعله بنفسي !!

وكذلك ظهرت دلائله في فلسفة « أرسطيب ^(١) » القوريني ^(٢) و « جورجياس ^(٢) » و « كالكليس » من فلاسفة اليونان : فكان « أرسطيب » وأتباعه من بعده يقولون : إن أسمى اللذات هي إرضاء الشهوة ، وإمتاع النفس ، واتهاب المسرات ، واغتنام نومة الدهر ، وقد ظهر أثره أيضاً في الشعر العربي فمن ذلك قول « أبي العطاية » :

(١) أرسطيب : فيلسوف يوناني ولد في (قورينة) (مدينة من برقة في شمال إفريقية) نحو سنة ٤٠٠ ق م ورحل إلى آثينا فتلقى العلم عن سocrates ، وهو أول من قرر أن المذهب الاسمي من الحياة هو تحصيل اللذة وطرد الألم ، وأن الفضائل إنما سميت فضائل لما فيها من اللذة .

(٢) جورجياس :

فيلسوف يوناني عاش من ٤٨٥ - ٣٨ ق م ، وهو أحد أقطاب الطائفة السفسطائية وكان يرى أنه ليس بشيء موجود ، وإن وجد فلا تمكن معرفته ، وإن وجد وأمكنك معرفته فلا يمكن تعريفه الغير .

كم من مؤخر لذة قد أمكنك لغد وليس غد له بموات حتى إذا فاتت وفات طلابها ذهبت عليها نفسه حسرات تأتي المكاره حين تأتي جملة وأرى السرور يجيء في الفلتات ثم ظهر أيضاً في آراء بعض فلاسفة القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر مثل «هوبر^(١)» و«هليباخ^(٢)» و«هلفيتوس^(٣)» و«سان لمير^(٤)» و«فوريه^(٥)» : فمن كلام «هوبر» : لو استقرينا ما يسميه بنو الإنسان خيراً لوجودنا ينحصر فيما تتوقع إليه نفوسهم ، وأنهم لا يبغون في جميع أحوالهم إلا أن يؤثروا أنفسهم بأكثر قسط من ملذتهم وهناءتهم ، وإن أظهروا أنهم خير بنى الإنسان فاعلون ولا سعادهم جاهدون .

نقد القول بالآثرة :

إن القول بأن الآثرة وحدها هي الباعث على ما يقترفه الإنسان من الأفعال مردود بأن الأحقيات الخالية وما تلاها من الدهور والأزمنة أصدق شاهد على أن الإنسان على اختلاف مذاهبه ونحله يأتي من ضروب الاحسان مثلاً مالاً لون فيه للأثرة قطعاً ، بل طالما روى لنا التاريخ كيف

(١) هوبر :

فيلسوف إنجليزي عاش من ١٥٨٨ — ١٦٧٩ وما يخص مذاهبه أنه مادى في العلم النظري ، مشكك في المنطق ، قدرى وأثرى في الأخلاق ، مستبد في السياسة

(٢) هليباخ :

فيلسوف فرنسي عاش من ١٧٢٣ — ١٧٨٩ كان ماجداً وكان يزعم أن النصرانية منبع كل مرض

(٣) هلفيتوس ١٧١٥ — ١٧٧١ وهو من أكبر أنصار المذهب المادى

(٤) سان لمير ١٧١٧ — ١٨٠٣ فيلسوف فرنسي خص المذاهب الخلائقية

للفيلسوف هلفيتوس وسماها التعليم الدينى

كان يستيقن أهل الجود والسمخاء إلى بذل أموالهم والإيثار على أنفسهم ،
وهم مع ذلك عند أنفسهم في عداد المقصرين . ومن مساوىء هذا المذهب
أن تنشئة الناس على أن يقصر كل سعيه على ذات نفسه لا يدخل وسعا في
إنالتها ما ربهما غير حافل بأخوته وشركائه في البلد والدين واللغة - قضاء
على كيان الجماعة البشرية وهدم لنظمها :

أرأيت كيف تكون الحال الاجتماعية لو تقطعت بينهم أواصر التراحم ،
وقبض كل يده عن عشيرته وبني ملته ؟

لاشك في أنهم لا يألون جهدا في التهافت والتکالب على جمع المال
واحتتجانه طبيه وخبيثه ، ويصبحون وقد سلبوا نعم المعاضدة والمواصلة
والمؤانسة والاخاء والمودة ، ثم ابتلوا بالعداوة والخذلان والندامة
والخسران ، وعم بينهم الرياء والمساترة ، وصار بعضهم لبعض أعداء محذورين
يداجون بال媿ة ويتحزرون عن المكاشفة ، وكان مثلهم كالخنطولة الخضراء
أو راقها القاتل مذاقاها ، وكأن يزيد بن الحكم الثقفي عندهم بقوله :

تکاشرنى ضحکا کأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرکلى دوى
لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخدک ملتوی
فليت کيفافا کان خيرك کله وشرك عنی ما ارتوى الماء مر توى
ومما يضعف القول بهذا المذهب أننا مازلنا نقرأ في صحف الأبطال
وقاده الأمم كيف سمت بهم هممهم العظيمة إلى اطراح لذاتهم وما هم فيه من
رفاهة العيش وهناء البال ، لاسعيا وراء اللذة والمسرة ، بل لينقدوا غيرهم من
بني جلدتهم - غير مكترين بما يصيّبهم في ذات أنفسهم من أذى وإهانة ،
کأنهم يفرحون بما يدهمهم في سيلهم من نوازل الأحداث وخطوب الزمان ،
لاتهدم العظام ، ولا تفرعهم الشدائـد .

ومن قبحوا اللذة البدنية وأنكروا اتخاذها ميزان الأعمال الخلقية « ابن
مسکويه » إذ يقول ماحصله :

زعم قوم أن اللذات الحسية تبلغ بالانسان كماله وغايتها ، وأنها الخير المطلوب والسعادة القصوى ، وان القوى النفسية إنما وهبها ليرتب بها الأفعال ويميزها ، ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي درك المآرب الجسمية ، فما خلقت قوتها الحفظ والذكر إلا لحفظ الأولى آثار المللذات والمسرات ، وتذكر الأخرى هذه الآثار ، فيشتاق الجسم إليها ، ويحب معاودتها : ومعنى هذا أن منفعة الحفظ والذكر إنما هي اللذات وتحصيلها .

بهذا الفهم السقىم أذلوا النفس المميزة الشريفة منزلة العبد المهين تخدم النفس الشهوية في ما كلها ومشاربها ومنازعها الباطلة ، وضل عن أذهانهم أن الناس على هذا الوجه يشاركون في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والمجمح من الحيوان ، وأن اللذة في الحقيقة إنما هي راحة من الالم وأنها لا تحصل للملتذ إلا بعد آلام تلجمه : ألم تر كيف أن الناس يحسون الأذى الذي يلحقهم بالجوع والعمرى وضروب النقص ، ويجدون الحاجة ماسة إلى مداواتها بما يدفعها عنهم حتى إذا زالت آثارها ، وعادوا إلى حال السلامة منها التذوا بذلك ، ووجدوا للراحة لذة ، ومع هذا فهم لا يشعرون أنهم إذا اشتاقوا للذلة كل فقد اشتاقوا أولاً إلى ألم الجوع ؛ لأنهم إن لم يأكلوا بالجوع لم يتذدوا بالأكل ، أضف إلى ذلك أن اللذات في ذاتها إنما هي لضرورة الجسد ، فالبدن مركب من طبائع متضادة ، وما المأكل والمشرب وما ماثلهما إلا علاج للجسم من الأمراض التي تحدث به عند الانحلال الناشئ عن خلوه من المادة والغذاء وعنون على حفظ تركيبه على حال واحدة أبداً ، ولم يقل عاقل : إن علاج المرض سعادة تامة ، والراحة من الآلام خير محض وغاية مطلوبة ،

وقال «ابن مسكونيه» في مقام آخر : ليست الراحة البدنية من أسباب السعادة ، لانه لا يملي إليها إلا من كان إلى مرتبة البهائم أقرب كالأطفال وأهل الجهلة ، ولا يصح في الأذهان أن تنسب البهائم إلى السعادة ولا من كان

قریبا من مرتبتها ، ولقد أبدع في الاباهة عن ذلك من قبل «أرسسطو» إذ يقول : -
 « اللذة البدنية ليست الغرض الاول الذى يصبو إليه الانسان ، وتنتهى
 إليه رغبته ، بل تجلى تابعة لمقصد آخر هو أن له بعمله وجده عقلا يعتصم
 بالحكمة ونفس انتفتح من ينابيع المهدى والمحبة » ، وإذ يقول : « ينبغي الاتكoon
 همم الانسان إنسانية وإن كان إنسانا ، وألا تكون همته همة الحيوان الميت
 وإن كان هو ميتا ، بل جدير به أن يقصد بجميع قواه أن يحيا حياة تدنيه من
 الملائكة الأعلى ؛ لأن الانسان إن كان صغيرا بالجسم فهو عظيم بالحكمة ، شريف
 بالعقل ، والعقل أبل جمیع الخلاق »

حقا لاتنافي بين الفضيلة والاستمتاع ببعض اللذات ؛ لأن الانسان مadam
 في هذا العالم فهو في حاجة ماسة إلى أن تكون أحواله الخارجية مجملة ، ييد
 أنه محظور عليه أن يصرف قوته كلها في الطلب والاستكثار من عرض الدنيا
 فقد يصل إلى الفضيلة من ليس بكثير المال ولا ظاهر اليسار ، وقد تجلى
 الأفعال النبيلة من قل ماله وضعف يساره اه بتصرف
 وصفوة القول : أن القائلين بالأثرة واللذة البدنية يدعون إلى اطراح كل
 المعتقدات الإنسانية واعتدادها حجر عثرة في نيل الأمور الحقيقة التي هي
 من مقتضيات الغرائز والطبع والتى هي أصدق مرشد في زعمهم للانسان إلى
 ما يوصله إلى تحصيل مآربه وقضاء لباتاته . ان هذا هو الضلال البعيد ؟ كيف
 خفى عليهم أن اللذة البدنية ليست الخير الاسمى ، بل ليست في ذاتها خيرا ؟
 لأن الانسان خلق وله إدراك وإرادة تحصل للنفس رغبات هي أحب إليها
 من الشهوات إلى الغريرة .

الفرقة الثانية

النفعيون

يرى أهل هذا المذهب أن أوجب ما يجب على الانسان تحصيله ونيله هو
 المنفعة ، ولا ميرية في أن من يقصد بسعيه جلب المنفعة فهو قادر اللذة أيضا ،

يد أنها ليست اللذة البوئية العاجلة الزائلة ، بل التي تبقى معه مادام حيا ، لأن التجارب دلت على أن كثيرا من اللذات العاجلة لها عواقب ويلة تورث آلاما باقية ، وأنه طالما جاء السرور بعد الألم والفرح بعد الترح . ومن أجل هذا لا يليق بالانسان الذى اختص الله بهبة العقل والرشاد أن يعتقد كل ما يعرض له غنيمة يجب اقتناصها والحرص عليها ، بل يجب أن يتذرع عاقبه : فان كان ضارا اجتنبه ، وإن كان نافعا سارع اليه

لم ير أهل هذا المذهب بالمنفعة منفعة النفس فقط ، بل قالوا : المنفعة المنشودة هي تحصيل ما به أوفر قسط من اللذة والاهناء لأكبر عدد من بني البشر . وقصدوا بهذا أن نستقرى ماعساه ينشأ عن العمل من اللذات والآلام لنا ولبني جنسنا ، لا بل ولأتعامنا ، سواء في ذلك ما كان منها عاجلا أو آجلا مباشرا أو غير مباشر ، ثم نوازن بين اللذات والآلام : فان رجحت الأولى خير وهناء ، وإن رجحت الأخرى فشر ومساء . وعلى هذه القاعدة لا وزن للأفعال الخلقية في نظرهم إلا بما تأتى به من المسرة لغالب بني الإنسان ، محتاجين بأنه لا يمكن تصور حقيقة خلقية لعمل ما إلا بما يتوقع من النفع منه ، وكونه أرد وأجدى عليهم في شؤونهم الحيوية ، فان كان العمل مما تهنا به الآحاد ولا يعم نفعه الجماعة فهو في رأيهم غير جدير بال مدح والثناء . يرون أن السعادة هي أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعده عنهم الآلام ، وأن الفضيلة ما حببت إلا لأنها لراحة بني الإنسان واغتياظهم - أجلب منها لا : عاجهم وتكديرهم ، وأن الرذيلة على العكس منها . ويقولون : ما كان للصدق أن يكون فضيلة لو لا أنه ذريعة إلى ارتقاء العمران ، ووسيلة ناجعة إلى إسعاد بني الإنسان : أرأيت كيف يكون نظام الأمة محتلا ، وبناء رخاها متداعيا ، إذا لم ترزق علماء صادقين في يقينهم ، يبشرونها وينذرونها وينصحونها ويزجرونها ، وأطبلاء أمناء لا يدلسون ولا يخدعون ، يدللونها على ما به تحفظ الأبدان وتصان الأرواح ، وعلماء بالحقيقة قد فهموا السنن الكونية ، ووقفوا على ما فيها من الفوائد والمصالح ، ثم استخرجوها للناس

منها ما يداوى أسماقهم ويشفى عللهم ، ومعلمين صادقين في أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم ، حتى يكونوا قدوة صالحة لطلابهم ، وأسوة حسنة لتبنيهم .

هذا بعض من كل مما جعل الصدق فضيلة يجب الحرص عليها والاعتصام بها ، وإن كان في ذلك غضاضة على من وهم عازمهم ، وضعف قلوبهم .

ويقولون : ما كان للظلم أن يكون رذيلة لو لأن العدو أن على الناس في أموالهم مثلاً ذاهب بآمالهم ، مقعد لهم عن السعي وراء المعاش ، قابض لا يدتهم عن المكاسب ، مفض إلى انتقاص أحوالهم ، وخراب أمصارهم ، واحتلال حال دولتهم وسلطانهم : هلرأيت أمة ابتليت بنعنة يغتصب أموالها وينهب ثروتها ، ويسلبها حقوقها ، ويُسخرها على غير إرادتها ، ثم نفقت فيها سوق العمران ، أو أخرجت رجالاً صناديد يذودون عن دينهم وأنفسهم وشرفهم ووطنهن ؟ فالنفس الذليلة لا تجد ألم الهوان ، والنفس الشريفة يحرجها يسير الكلام :

من يهن يسهل الهوان عليه مالجرح بيت إيلام
نعم قد يحود الزمان بأفراد قليلين هم فلتات الطبيعة ، ونادرة الدهر ،
أولئك هم العبريون المجددون

نقد هذا المذهب

١- إن الذي يتبع آراء أهل هذا المذهب وأقوالهم ينكشف له لأول وهلة أنهم يدعون إلى إهمال مصلحة الذات ومقتضيات الغرائز ، وفي ذلك مخالفة للسنن الفطرية التي لابد من مساوتها في البدء بما يصلح النفس ، وما يعود عليها بالراحة والغبطة ثم التشنيع بغيرها من حضرت الشرائع على العناية بأمرهم وتحميم حالهم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك ثم من تعول » ، وتأييدها لقول الفلسفه : إن السعادة الفردية ضرورية لسعادة الجماعة ، وإن كانت تقصد ذاتها ، أضف إلى ذلك أن اتخاذ المنفعة في ذاتها معياراً للفعال الخلقية مفض لامحالة إلى اللبس بين الحق والباطل :

فطالما جر الباطل إلى لذة وحبور ، وجاء في سبيل الحق مالا يوصف من المهموم والشروع ، ومع ذلك فالحق أحق أن يتبع ، وما خير بخیر بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .

ب - وما أخذ على هذا المذهب أن العمل به يستوجب حتماً أنه لابد من استقراء ماعساه أن ينشأ عن كل عمل من لذة وألم تجيع بني الإنسان على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم ما يبرز منهم إلى عالم الدنيا ومالم يبرز ، وبدهى أن هذا عريق في الخطأ ، إذ كيف نستطيع أن نحكم أن العمل الذي ينفع صنفاً من أهل هذا الجيل ينفع الأجيال القادمة ! ! ألم ترى كيف ألمع عمر رضى الله عنه إلى هذا المعنى إذ يقول : « علموا أبناءكم فانهم خلقوا الزمان غير زمانكم » ، ويقول على كرم الله وجهه : « لا تكرهوا أبناءكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » إشارة إلى أن ما يحبه من الزمان بعد زمن الآباء له حكم خاص ومقتضيات جديدة . وأن عمر نهى عن حفر قناة السويس قائلاً : « إنها خرق في الإسلام » مع أن حفرها وقتنعده لم يكن فيه من خطر على الإسلام ، بل ربما كان عوناً على سرعة انتشاره .

ح - وما غالى فيه أهل هذا المذهب أنهم أدرجوا الحيوان في عداد الخليقة التي يشملها قانون الموازنـة بين المـذـادـات والـآلامـ ، وهم في ذلك قد ضلوا ضلالاً بعيداً ، إذ لو صح مذهبـهم مـاسـاغـ لـاـنسـانـ أنـ يـذـبحـ الـبـقرـةـ ليـهـنـاـ بـأـكـلـ لـهـمـ ، وـيـصـطـادـ الطـيـورـ لـيـنـعـمـ بـطـعـامـهـ . وـرـبـماـ قـالـ قـائـلـ : لـيـسـ الـحـيـوانـ فـيـ مـرـتـبـةـ وـاحـدـةـ ، فـبـعـضـهـ مـفـضـلـ عـلـىـ بـعـضـ ، وـهـذـاـ مـرـدـودـ بـأـنـ التـفـضـيـلـ قـائـمـ عـلـىـ الـهـوـىـ وـالـتـشـيـعـ ، وـذـرـيـعـةـ إـلـىـ اـرـتكـابـ الـخـطـأـ وـالـتـنـكـبـ عـنـ جـادـةـ الصـوـابـ ، وـدـعـ عـنـكـ أـنـ النـاسـ خـلـقـواـ مـتـفـاوـتـينـ فـيـ نـحـائـزـهـمـ وـأـمـرـ جـهـتـهـمـ : فـقـدـ يـبـاشـرـ اـثـنـانـ لـذـةـ وـاحـدـةـ ، فـيـجـدـهـاـ أـحـدـهـمـ كـبـيرـةـ قـيمـةـ بـأـنـ يـعـدـهـ خـيـراـ وـسـعـادـةـ ، وـيـجـدـهـاـ الآـخـرـ تـافـهـةـ لـأـوـزـنـ هـاـ وـلـاقـيمـةـ ، فـلاـ يـأـبـهـهـ ، وـلـاـ يـحـفـلـ بـشـأنـهـ ، وـفـيـ ذـلـكـ دـلـيلـ عـلـىـ بـطـلـانـ اـتـخـاذـهـاـ عـيـارـاـ تـقـاسـ بـهـ الـأـعـمـالـ .

رد النقد

١ - ولقد أجبت عن ذلك بأن الإنسان خلق مجبولا على تلبية ماتدعوه إليه فطرته : من الاحتفاظ بنفسه ، ودرء الشر عنها ، وجلب الخير إليها ، حتى إن هذا ليحمله على العداون على أخيه ، وبذل كل ماليه من الجهد والطفل في سلبه ما له وجهه ، وتعيده واسترقاها ، متذرعا طورا بمحض بطش القوة والجبروت ، وطورا بحججة الاشغال عليه ، ووقايتها من يد قاسية تعدو عليه ، فهو لذلك يأخذ في كنهه ويحميه في ظله . فلما كانت غرائز الإنسان على هذا النحو قصد الفعيلون أن يعيشوا بمذهبهم في نفوس الناس أن الأعمال لا وزن لها إلا بما تعود به من المنفعة والخير على جمهور البشر ليكسروا نَهَمَ الغرائز ، ويختضدوا شوكه سلطان الأثرة ، ويحولو اعقول الآحاد إلى أن يجعلوا للجماعة حظا من جهودهم ونصيبا من ثمرات عقوفهم ، حتى يرفعوهم إلى مستوى اجتماعي يعدهم إلى ما هم أهل له من الضرب بسهم في الشعون الاقتصادية والاعتصام بالمبادئ الخلقية . ويقولون تأييدا لقصدهم هذا : إنه إذا تعارض الحق واللذة فلا اعتداد بها ، لأن في اتباع الحق والذود عن حياضه اللذة العظمى والمناء الدائمة .

٢ - ولقد انبرى فريق من أنصار هذا المذهب إلى رد الشبهات التي أثارها الناقدون لمذهبهم فقالوا : حقا إن الموازنـة بين ما ينشأ عن الأعمال من اللذات والآلام يستدعي زمنا طويلا يستنفذ الوسع ، ويستغرق الجهد ، بيد أنها معيار لا يخطيء ، وميزان لا يغوره الخلل والعطب ، وحسبك دليلا على هذا أن أهل العصور الخالية لما جربوا الأمور وامتحنواها بعين التدبر والتفكير ، ونسبة عوائقها بعضها إلى بعض - حكموا عليها حكما صادقا لم يغيره اختلاف الزمان والمكان ، ففرقـت من أفواهـمـهمـ قضـاياـصـحـيـحةـ وـقـوـاعـدـ سـديـدةـ : قالـواـ : إن السخاء فضـيلةـ ، والشـحـ رـذـيلةـ ، والـصـدقـ نـبلـ ، والـكـذـبـ وـضـاعـةـ . مـ إـذـاـ جـدـ لهمـ حـادـثـ نـظـرـواـ فـيـهـ : فـانـ كانـ ماـ يـنـدـرـجـ فـيـ الأـصـوـلـ التـيـ لـدـيـهـمـ أـذـرـ جـوـهـ

فيها ، وإلا سلكوا في شأنه الطريقة الأولى : طريقة الموازنة بين المذات والآلام : فان رجحت الأولى سموه خيرا ، وإلا اعتدوه شرا .

أطوار النفعية

يتبع من النظر في تاريخ الفلسفة الخلقية أن الذى غرس أصول هذا المذهب هو «أيقرور» (٣٤١ - ٢٧١ ق م) ولبث مذهبه متبعا ، ورأيه منتقلًا متدرجًا من جيل إلى جيل ، حتى وصل إلى «هوبرز» (١) و «بنتام» (٢) و «سبنسر» (٣) من مفكري الانجليز الحديدين : كان «أيقرور» يرى أن الأعمال إنما توزن بما ينشأ عنها من المفعة والفائدة ، وأن المفعة لاقيمه لها إلا إذا اجتلت لذة واغتباطا ، يد أنه قال : إن اللذة وإن كانت الخير الأسمى ومنتهى الغايات — صنفان ، أحدهما مفضل على الآخر : الصنف الأول : اللذة المتنقلة الزائلة : وهى لذة المشاعر التي لا تفارقها الآلام والهموم . والثانى : اللذة الثابتة الباقية : وهى لذة العقل التي لا يشوبها الألم ولا يعقبها الهم وهى أفضل وأجرد ؛ لأنها تدنى صاحبها من الحياة الكاملة ، وتجعله رابط الجأش ، ثابت الجنان بمفارزة من وساوس الاضطراب وتشعب الهموم . ومن أجل ذلك وجب على الحكم أن ينظر نظرة سداد في رغباته و حاجاته فينظمها ويقللها حتى يستطيع فطام نفسه عن الركون إلى أهواءها ، فلا يتحققها بعد اضطراب أو وساوس .

والرغبات عند «أيقرور» ثلاثة : رغبة فطرية ضرورية كالأكل والشرب ،

(١) هوبرز : فيلسوف إنجليزى اشتهر بالبحوث السياسية والخلقية وأسس الأخلاق عنده المصلحة الشخصية (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م)

(٢) بنتام : (١٧٤٨ - ١٨٣٢ م) اشتهر ببحثه في الأخلاق والقانون ، ويعد مؤسس مذهب النفعية

(٣) سبنسر : (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م) فلسفته مؤسسة على مذهب النشوء ، ألف كتبا كثيرة في علوم النفس والأخلاق والاجتماع ، ويعد من أقطاب العلم الحديث

والقلال من هذه أحجى وأحرى : لأن من أعطى الخبر والماء فقد قاسم الملوك لذة مطاعهم ومشاربهم ، وهذا شبيه بما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » ، ورغبة غير ضرورية ألسستها العادة لباس الضروري كالرغبة في الملبس والمسكن مما يسميه ابن خلدون بالحاجي ، وهذه لابد من مرافقتها وتتبع سيرها ، ورغبة غير هاتين ، وهي الرغبة في التأنق فيها سبق من المطعم والمشرب والمسكن ، والرغبة في الجاه والغنى ، وهذه رغبة باطلة يجب فطام النفس عنها والابتعاد عن بواعثها وأسبابها

« نقد مذهب أبيقور »

لقد عاش « أبيقور » مع من كان يقول باتخاذ الغريزة المرشد الحكيم والرائد الصادق الذي يصف طريق اللذة ، ومع هذا فلم يحفل بهذا القول بل قال : لابد من إشراك العقل مع الغريزة ينصحها ويردعها ، ثم يهدئها ويرشدتها إلى مواطن المنفعة ، واجتلاف الفائدة الجديرة بالقصد والسعى . ييد أنه أخطأ في أن جعل من ذرائع اللذة اجتناب الاضطراب ، وتحاشي المزعجات ، وغير ذلك من الطرق السلبية التي هي إلى الوهم أدنى منها إلى الحقيقة ، والتي هي من دلائل الجبن وخور العزيمة ، بل ذريعتها في رأى الناقدين مباشرة المعتاد من الأعمال والأقوال والأحوال ؛ فالحقيقة مقرونته بالهيبة ، وقد فاز باللذة الجسور . وما أخذ عليه أنه قال : إن سبب إيهار اللذة العقلية على اللذة الحسية أنها غير مشوبة بالألم والمشقة ، وأنهادانية الملتمس ، وضل عن أنها عزيزة المناں لا تدرك إلا بعد عناء كبير ، وأنه اتخذ المنفعة ميزاناً توزن به الأمور ، وتقدر به الشعون ، وخفق عليه أنها ذات أنواع شتى : فما يراه هذا نافعا له يفيده ويسره يراه ذاك ضارا به يؤذيه ويؤلمه ، أضف إلى ذلك أن المنفعة لا تتحقق في رأيه إلا إذا نشأت عنها لذة ، والناس من حيث اللذة مختلفون : فمنهم من يؤثر لذة المشاعر ، وإن كانت سريعة الزوال قليلة الغناة . ومنهم من يؤثر اللذة العقلية ، وإن صحبتها العناء والنصب أو نشأ عنها الظم والكدر ؛ ومن أجل ذلك لا يصح اتخاذ المنفعة القاعدة على اللذة

المختلف في شأنها قانوناً خلقياً يهتم بـ الناس في شؤونهم ، ويحررون عليه في معاملاتهم .

«رأى بنتام في النفعية»

لقد تدرج مذهب «النفعية» ، فاجتاز مرافق كثيرة ، وتقلب في صور عده ، لاحقها أدنى إلى السداد من سابقتها : فمن ذلك أن « Bentam » المتوفى سنة ١٨٣٢ م أداه البحث والتنقيب إلى أن المفعة واللهة هما رأس الاضطلاع بالواجب والقيام به ، ثم بين مراده منها ، فقال : لا تعد اللذة كثراً يبني عليه الواجب إلا إذا نال أكبر قسط منها جل الناس ومعظمهم ، ولا يعد العمل نافعاً إلا إذا كان ما ينشأ عنه من اللذة والفرح يربو على ما يتلوه من المساعدة والترح ، ولا يعد العمل من باب الفضيلة إلا إذا كان اللذة مضاعفاً وللألم مخففاً ، ثم شفع هذه القواعد ببيان هو إلى علم الحساب أدنى منه إلى الفلسفة الأخلاقية ، أوضح به خصائص اللذة فقال : إنها واحدة من قوية أو ضعيفة ، عاجلة أو باقية ، قريبة أو بعيدة ، محققة أو ممكنة ، رقيقة أو صافية ، مستمرة أو متقطعة ، عامة يهنا بها الناس كافة أو خاصة بفئة قليلة .

ولما كان « Bentam » من القائلين بأن جميع اللذات من نوع واحد لا اختلاف بينها إلا في الكمية ، أو الأحوال المحيطة بها الأجنبي منها - قصر نظره على استيعاب خصائصها المقدمة الذكر التي هي في الواقع صفاتها الظاهرة ، ولم يحفل بصفاتها الباطنة ، كما فعل من جاء بعده من العلماء ، وتلك زلة من زلاته ، ييد أن له حسنة لا يسوغ إغفالها : وهي تأييده القاعدة : « إن الإنسان مدنى بالطبع لا يستغنى بنفسه عن غيره إذ يقول : « إن بين منفعة الفرد ومنفعة الجماعة رابطة متينة ، وتلازم وشيك »؛ لأن المرء لا يستطيع تحصيل ما هو ضروري لحياته ، دون الاستعانة ببني جنسه : إن أصحابهم سرور فهو فرح معتبر ، وإن حزبهم أمر فهو حزن متعصّب ، فمثلكم كمثل النحلة تكد وتدأب في تدبير شأن الخلية » .

وصفوة القول أن مذهبه هو أنه يجب على أنصار النفعية أن يعظوا الناس : بأن من كان يعني المال مثلاً ، والتلذذ بمحمه واستغلاله - فليغره لأمته ، وليرغب جهده في حفظ الثراء عليها ، وبذلك يكتنفه ، وتنتسب اهتماماته ، ويحشر فوق ذلك في زمرة الذين بنوا بأيديهم هيكل السعادة الوطنية ، والهداية القومية . وأن من كان يسعى لكسب الوجاهة فليطلبها لأمته ، ولا يدخل سعى في الاحتفاظ بعزمها وكرامتها ، وأنه بذلك ينال عزة ووجاهة فوق ما يقصد وأراد ؛ فمن كان من قوم أعزاء مهبيين مكرمين فهو عزيز مكرم ، وإن من صبت نفسه إلى الهيمنة على القلوب وأمتلأ ناصيتها - فليس له من سبيل إلا اطراح الأثرة ، وبذل ما يستطيع في التجاوب إلى عشيرته وبني وطنه ، والتودد إليهم ، فلا يجدون مناصا من الاعتراف له بالطاعة والولاء . وكلما حدب عليهم ، وأثرهم على نفسه ، وأيقنوا بأنه لنفسه منكر ، ولذاته مؤخر . بسطوا له يد المعونة ، ورفعوا له ألوية إلا كبار والاجلال .

يرى أنه يجدر بأنصار النفعية أن يبينوا للناس أن التكاليف الخلقية هي أن يكون حب الفرد لوطنه وملئه مثل حبه لنفسه وأهله ، وأن الحرص عليهما سابق على الحرص على راحته وحياته ، وأن الهداية ليست أن يكون المال عند الآحاد وفيها تفيض به خزاناتهم ، فتنقبض نفوذهم بخلا وجموداً ، أو أن تشبع البطون ، وتقضي اللذات وتمتلئ العيون نوماً - بل هي من فضائل الأعمال العامة ، وجلائل الصفات الشاملة .

« نقدم مذهبنا »

لامريقة في أنه لا تشابه بين اللذات والأعداد ؛ فاللذات متعددة قياسها أو تقديرها لتنوعها وتبين صفاتها ، ذلك : بأنه إذا جال في النفس قضاء واحدة من ثنتين : لذة شهود سبق الخيل ؛ ولذة مواساة صديق حميم ، وأريد إيشار إحداهمما على الأخرى فقد يتعدر ذلك ؛ لأنهما يستامن بباب واحد ، فليس لها مقاييس واحد ، وبدهى أن الموازنة لا تكون إلا بين الأشياء التي هي إلى الاستقرار والثبات

أدنى منها إلى الزوال والتغير ، ولقد قال ابن حزم في كتابه «مداواة النفوس» عند الكلام على مختلف اللذة : « وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما لامن عرف أحدهما ولم يعرف الآخر » ومن العيوب التي لا تخفي على أولى الألباب أن المنفعة التي اعتدتها « بنتام » ركنا من أركان اللذة التي تحدو بصاحبها إلى تأدية الواجب — ليست في الغالب هي الباعث الفذ ، بل هناك بوعاث أخرى . على أننا إذا سلمنا جدلا أنها تقضي إلى تأدية الواجب — فمحال أنها تصلح أن تكون ميزانا خلقيا تعرف به طبائع الأعمال الخلقية .

وقد حاول « بنتام » أن يُجَعَّل صورة المنفعة فقال : « إن الشوق إلى در كاهو الذي يحملنا على أن تتحلى بصفات الجد والقناعة والعدل » ، وشذ عن ذهنه أن الذكى الفطن الذى جرب الأمور ، وحلب الدهر أشطره — قد يتضح ببراء هذه الصفات تدرعا إلى نيل بغيته وقضاء مآربه ، وذلك ليس من الفضيلة في شيء . ولقد أبدع في الاشارة إلى هذا « قوتنيل » إذ يقول ، لما أبصر بلص يساق إلى السجن : « هذا رجل تعوزه المهارة والخذافة ، ولقد دخل في حسابه » فالذكاء والخصافة ليسا دليلا علىخلق الكريم ، والنفس الطاهرة . دع عنك أن المنفعة ليست من الأشياء التي يؤمر بها الإنسان ، ويستحبث على تحصيلها ، لأن نفسه بفطرتها بزاعة إليها ، تواقة إلى اقتناصها ، بل إنما يؤمر بالشعون الخلقية : كتأدية الواجب ، وإعلاء كلمة الحق ، والذود عن حياض الشرف والكرامة ، ومناهضة الباطل ، ومكافحة الظلم والبهتان ، مما فيه اختبار للنفس ، وامتحان لعزيمتها ، وقوة جلدتها ، ومبلغ ثباتها ، على أن المنفعة تتغير وتختلف على حسب اختلاف المقتضيات والأشخاص ، وأن ما ينفع قوما يضر بآخرين : « مصائب قوم عند قوم فوائد »

استيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م)

ولقد جاء بعد بنتام « استيوارت ميل » بخلافه في شيئين : الأول — أن اللذة مختلفة في نوعها أيضا ، لأن لها أنواعا يفضل بعضها

بعضها : كفضل اللذة العقلية على اللذة الحسية ، وإن كانت اللذة الحسية أكبر كمية وأكثر عموما وانتشارا : ألم تر أن المرأة الذى صغرت همتها واتجهت ميوله إلى إرضاء المشاعر ، وإنالتها ما تشتهيه طالما فاز برضاهما ، وتم له اغتباطها ، نفلت إلى الرذيلة والنقيصة ؟ وأن الذى كبرت همته وصبت نفسه العظيمة إلى معالى الأمور ، وعظام الفعال - لا يكاد يجد نفسه معتبرة هنية ، بل هى دوما نزاعة إلى الاستزادة من الشئون المعنوية والمتاعب العقلية ؟ وخير لابن آدم أن يكون إنسانا مكررا العيش ، متعب العقل والجسم - من أن يكون حيوانا توافرت له اللذة وكللت لديه الهناة ، وأن يكون سقراطيا متبرما من أن يكون حيوانا متمتعا

الثاني - أن مذهب المنفعة يجب أن يقصد به سعادة البشر جميعه ، فليس بكاف سعادة الأسرة أو المدينة ، بل ولا الوطن : ذلك بأن « بنتام » كما قدمتنا يرى أن المرأة إنما يفعل الخير لغيره من حيث منفعته هو وسعادته ، فإنه « ميل » وقال : ليس هذا الرأى قينا بأهل الأخلاق أن يحبذوه ، بل واجب على من يعمل عملاً أن ينزل الناس منزلة نفسه .

« نقد مذهب ميل »

لقد اعترض الباحثون على مذهب ميل قائلين : يخيل لمن يستقرى كلامه أنه قد فصم نفسه من طائفة القائلين بالاختبار والتجربة ، وهو أحد أساطيرهم وكثير دعاتهم بما أورد في كلامه من إيثاره اللذة العقلية والشئون المعنوية على اللذات الحسية ، وخفى عليه أن أفضلية اللذة العقلية ليس باعتبارها لذة ، بل بما نشأت عنده من الأمور السامية والشئون العالية التي تتفضّل بقيمتها الذاتية ، دون نظر إلى ما يعقبها من المسرة والاغتباط ، ومعنى هذا أن في الأشياء نفسها خيراً هو أسبق وجوداً من اللذة ، وهو قطب رحى تفضيل بعضها على بعض .

وعلى ذلك فالقول بإيشار اللذة العقلية على ماسواها خروج من مذهب القول باللذة جملة واحدة ودخول في مذهب العقليين .

ولما أحسن «ميل» هذه الحيرة لم يجد مختلاً إلا أنه اقترح عرض الأمر على حكمين يفصلون في تفضيل أنواع اللذات بعضها على بعض ، ويكونون من جربوا اللذات العقلية والحسية ، ييد أنه لم يحسن الخروج من مأزقه ، بل تورط وركب متن الشطط ؛ لأنهم إن كانوا من ذاقوا واحدة من اللذتين فحكمهم ناقص لا يُؤْبَهُ له ولا يغول عليه ، وإن كانوا من ذاقوا الاثنين فحكمهم فاسد مردود ؛ لأن تجربتهم حصلت في أوقات متباينة ، وأحوال غير متجانسة ، وحيينئذ فالموازنة بين اللذة الحسية ، واللذة العقلية - غير قابلة على أساس السداد والرشاد .

فمن أراد أن يوازن بين لذته وهو نشوان مخمور ولذته وهو يكافح في إنقاذ وطنه وتحرير بنى جنسه - فقد تعلق بأهداب الخيال ، واعتتصم بحبال الأحلام : ذاك في عالم النوم والحلم ، وهذا في عالم الحقيقة والحكم . ولقد انبرت للرد على «ميل» طائفة أخرى أبعد غوراً في النقد وأكثر تعمقاً في البحث ، فقالوا : إن دعوة الناس إلى أن يقصدوا بتحصيل منافعهم الخاصة بهم منافع البشر جميعه وهي دعوة تتلخص بها الصدور ، وترتاح إليها النفوس ييد أن مذهبها في جملته قائم على منفعة الذات المقصود بها جلب الخير لغيرها وبدهى أن تحصيل المنفعة لغير الذات ليس فيه إلزام ولا شبه إلزام ، والتکاليف الخلقية إن لم تؤدّ بالالزام مهارة الدعائم سريعة الزوال ، وحيينئذ فلا مفر من البحث عن مذهب آخر غير مذهب أهل الاختبار والتجربة ، يبحث الناس على أن يكونوا لغيرهم خداماً ، وجماعة بنى البشر أعوازاً . وحسبك دليلاً على أن جلب المنفعة لغير الذات ليس بالزامي أنه لو تعارضت منفعة الذات وغيرها - لأوجب «ميل» ومن هم على رأيه بإيشار منفعة الذات وتقديمها على منفعة غيرها ؛ لأن القاعدة الأولى لمذهبهم هي أن أعظم خير

يسعى إليه الإنسان في هذه الدنيا - هو درء الضرر عن نفسه وجلب الماء لها ، فكيف يستطيع أن ينقض هذه القاعدة ، فيجلب لنفسه الأكدار والهموم ، ويطوح بها في مهامه المخاطر والأهوال في سبيل إنقاذ غيره من تهلكة ، أو انتشاله من ورطة !!

لقد حاول « ميل » أن يقيم الدليل على أن مذهبه خلو من التناقض ، بيد أنه أساء الاستدلال ، ولجأ إلى المراوغة والاحتياط ، إذ يقول : لاجرم أن مصلحة الذات تتنافى غالباً مع المصلحة العامة ، وضرب لذلك مثلاً بالجنود يستميتون في القتال ، فيقدمون أنفسهم طعمة للمدافع والسيوف ، ويترون وراءهم الأرامل واليتامى فريسة للقرف والشقاء ، وعيدها لأصحاب الأموال والثراء ، فما حياتهم أبقوا ، ولا أولادهم ربووا ، إن ذلك لهوا الخسران المبين . غير أنه اقترح طريقاً يفضي إلى إضعاف التناقض بين مصلحة الذات والمصلحة العامة : هي أن تربى آحاد الأمم تربية تبلغهم درجة من الرق والتهديب لا يقادون بمحضها فرقاً بين المصلحتين . فإذا نظمت طوائف الجماعة الإنسانية على هذا النحو أمكن العمل بمذهب النفعية على رأى « ميل » وكان نعمة على بنى الإنسان في معاشهم ومعادهم .

لم يقع هذا المقترح موقعاً حسناً عند فريق الناقدين فقالوا له : لقد طلبت الحال ، وتشبّثت بأهداب الخيال ، وقرين بك أن تقول : إن مذهب النفعية على هذا الوجه ليس من الأخلاق في شيء .

إجمال القول في محاسن النفعية ومساويها

محاسنها :

يرى النفعيون في تزيين مذهبهم ما يلي :

- أن الإنسان خلق مجبولاً على تلبية ماتدعوه إليه فطرته من الاحتفاظ بنفسه ، ودرء الشر عنها ، وجلب الخير إليها ، حتى إن هذا ليحمله على العداوة على أخيه ، وبذل كل مالديه من الج Howell والطول في سلبه ماله وجاهه وتعبيده

واسترفاقه ، ومتدرعا طورا بمحض بطش القوة والجبروت ، وطورا بمحض الاشفاق عليه ووقايتها من يد قاسية تعدو عليه ، من أجل ذلك قصد النفعيون أن ينشوا في نفوس الناس أن الأعمال لا وزن لها إلا بما تعود به من المفعة والخير على الجمهور ؟ ليكسروا بهم الغرائز ، ويخضدوا بشوكة سلطان الأثرة ، ويحولوا عقول الآحاد إلى أن يجعلوا للجماعة حظاً من جهودهم ، ونصيبياً من ثمرات عقولهم ، حتى يرفعوهم إلى مستوى اجتماعي يعدهم إلى ما هم أهل له من الضرب بهم في الشعون الاقتصادية والاعتصام بالمبادئ الخلقية .

٢ - قصدوا بهذهم أن يعظوا الناس : بأن من كان يبغى المال مثلاً فليغله لألمته ، وليرغ جهده في حفظ الثراء عليها ، وبذلك يكبر نصيه وتضاعف شروته الخاصة ، ويشر فوق ذلك في زمرة الذين بنوا بأيديهم هيكل السعادة الوطنية والهداة القومية . وأن من كان يسعى لكسب الواجهة فليطلبها لألمته ، ولا يدخل وسعاً في الاحتفاظ بعراتها وكرامتها ، وأنه بذلك ينال عزة ووجهة فوق ما قصد وأراد . وأن من صبت نفسه إلى الميمنة على القلوب وأمتلأ ناصيتها فليس له من سبيل إلا اطراح الأثرة وبدل ما يستطيع في التحبيب إلى عشيرته وبني وطنه والتودد إليهم ، فلا يجدون مناصاً من الاعتراف له بالطاعة والولاء .

٣ - من أسمى أغراض النفعية أن يعلم الناس أن حبهم لوطفهم وملتهم مثل حبهم لأنفسهم وأهليهم ، وأن الحرص عليهم سابق على الحرص على راحتهم وحياتهم ، وأن الهداة ليست أن يكون المال عند الآحاد وفيها ، تفيض به خزانتهم ، فتنقبض نفوسهم بخلا وجموداً ، أو أن تشبع البطون وتقضى اللذات وتمتلئ العيون نوماً ، بل هي في فضائل الأعمال العامة وجلائل الصفات الشاملة .

٤ - أن الموازنة بين ما ينشأ عن الأعمال من اللذات والآلام معيار لا يخطيء ، وإن استدعي زمناً طويلاً ، وحسبك دليلاً على صحة هذا أن أهل العصور الخالية لما جربوا الأمور وامتحنوها بعين التدبر والتفكير ،

ونسبة عوائقها بعضها إلى بعض — حكموا عليها حكما صادقا لم يغيره اختلاف الزمان والمكان ، ففرقوا من أقواهم قضياً صحيحة وقواعد سديدة ، فقالوا : إن السخاء فضيلة ، والشح رذيلة ، والصدق نبل ، والكذب وضاعة .

مساويها :

١ — أن الذى يتبع آراء أهل هذا المذهب ينكشف له أنهم يدعون إلى إهمال مصلحة الذات ومقتضيات الغرائز . وفي ذلك مخالفة للسنن الفطرية التي لا بد من مساوتها في البدء بما يصلح النفس ، ثم التشنيه بغيرها من حضرت الشرائع على العناية بأمرهم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « ابْدأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ »

٢ — أن اتخاذ المنفعة في ذاتها معياراً للأفعال الخلقية مفضلاً لامحالة إلى اللبس بين الحق والباطل : فطالما جر الباطل إلى لذة وحبور ، وجاء في سبيل الحق مالا يوصف من الهموم والشرور ، ومع ذلك فالحق أحق أن يتبع ، وما خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .

٣ — أن العمل بهذا المذهب يستوجب استقراء ما عساه أن ينشأ عن كل عمل من لذة وألم جميع بني الإنسان على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم ، وبدهى أن هذا عريق في الخطأ إذ كيف نستطيع أن نحكم أن العمل الذى ينفع صنفاً من أهل هذا الجيل ينفع الأجيال القادمة ؟

٤ — أنهم أدرجو الحيوان في عداد الخلقة التي يشملها قانون المزارات والآلام ، ولو صح هذا ماساغ لانسان أن يذبح بقرة ليهنا بأكلها .

٥ — أن المنفعة ليست من الأشياء التي يؤمر بها الانسان ويستحب على تحصيلها : لأن نفسه بفطرتها نزاعة إليها ، بل إنما يؤمر بالشئون الخلقية ، وتأدية الواجب ، وإعلاء كلمة الحق ومكافحة الظلم مما فيه اختبار للنفس ، وامتحان لعزيمتها وقوتها جلدتها .

٦ - أن المنفعة تتغير وتختلف على حسب اختلاف المقتضيات والأشخاص ، وأن ما ينفع قوماً يضر آخرين .

الميزان الرابع

الإشار

لقد تبين مما تقدم أن جمهور الخلقين إلى آخر عهد « استيوارت ميل » لم يرضاوا مذهبها من التي بسطناها قاعدة يقوم عليها الميزان الخلقي الذي يسترشد به الناس في شؤونهم ، ويهتدون به في سلوكيهم ومعاملاتهم ، فاتبرى فريق بدعوه إلى اتخاذ أسس غير ما تقدم للميزان الخلقي ، ومن هؤلاء الفيلسوف « أوجست كنت » (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م) إذ يقول : لامريقة في أن الإنسان لا يهنا بالحياة دون الجماعة ، فقد خلق محتاجاً إليها ، فعليه ألا يألو جهداً في بذل مالديه من القوة والمعونة للذود عن كيانها ومناهضة من يعاديها ، وألا يدخل وسعاً في اقتناص وسائل إسعادها ، وتوفير راحتها . وكل طائفة لا يتضافر أحددها على الفناء فيها فهي خلو من المناعة الخلقيّة والقدرة المعنوية ، لا تستطيع أن ترد عدواً أو تقيم برهاناً ، وقال : أشد أركان الأخلاق متانة هو الإشار وهو أن يعيش كل لغيره لا لنفسه . هكذا أراد « أوجست كنت » ومن على رأيه ، وهم مغالون فيما ذهبوا إليه ، لأن الإشار المجرد ضرب شديد من ضروب الزهد ليس من الحكمة حمل الناس جميعاً عليه ، بل هو مرتبة الخواص الذين لا يرضيهم سوى المثل الكامل ، والذين يقولون : « إذا فقدنا صبرنا ، وإذا وجدنا آثراً » وإنما الزهد الذي يمكن احتماله ، والجري عليه هو ما أشار إليه الإمام على كرم الله وجهه إذ يقول : من عمل بقوله تعالى : « لِكِيدَ تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَكُمْ » فقد ملك الزهد بطرفيه ، لأن لكل نفس على صاحبها حقاً تتقاضاه منه ، وواجبها تطالبه به ، وحيثئذ فليس من المألوف أن يخرج الواحد عنهما بجماعته مختاراً

طائعاً، كأنه عنصر من جسم كيماوي، ومسار في جسم آلى. على أن القول بخروج كل واحد عن حقوقه ابتغاء هناء الجماعة لا يخلو من تناقض وتضاد؛ إذ لو وجب على كل واحد أن يخرج عنها لغيره لوجب على كل واحد أيضاً لا يرضى بفداء غيره فيه تحقيقاً لفضيلة الايثار !! وبهذا أصبح الايثار عبئاً لاقية له، ومفوتاً لما يقصد من المسرة والهناء للجماعة.

ولقد نبه «ابن مسكويه» من قبل الفيلسوف «أوجست كنرت» إلى الحاجة إلى الاجتماع، واعتداده أساساً خلقياً؛ إذ يقول في كتابه «تهدیب الأخلاق»: «ما كانت الخيرات الإنسانية كثيرة، وكانت القوى التي تصدر عنها كثيرة كذلك، ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها - وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم، ومن أجل ذلك وجب أن تكون أشخاص ينتمي إلى الناس كثيرة، وأن يتضافروا في زمان واحد على تحصيل سعادتهم المشتركة؛ ليكمل لكل واحد منهم ما يعني بمعونة الآخرين له، وبذلك تكون الخيرات بينهم مشتركة، والسعادة مفروضة بينهم، فيتوزعونها، حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها، ويتم تجميعهم بمعونة جميعهم الكمال الأسمى والسعادة القصوى».

من أجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً؛ لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر، ولو لا ذلك ماتمت للفرد سعادته، فكل واحد منهم بمنزلة عضو من أعضاء البدن، وقوام الإنسان بتمام أعضائه» انتهى بتصرف.

وقال الفارابي في هذا الصدد ماحصله: «كل واحد من الناس مفظور على أنه يحتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كلاماته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، من أجل ذلك لا يستطيع الإنسان أن ينال الكمال الذي لأجله منح الغائز إلا باجتماع جماعة كثيرة يتضافرون، فيقوم كل واحد لغيره ببعض ما يحتاج إليه في قوامه، فيجتمع مما يقوم به جمالة الجماعة لكل واحد جميع ما يحتاج إليه في قوامه وبلوغه الكمال، ولهذا كثرت أشخاص الإنسان،

فانتشروا في المعمور من الأرض ، فنشأ عن ذلك المجتمعات الإنسانية ، وهي صنفان : كاملة وغير كاملة : أما الكاملة فثلاث : عظمى ووسطى وصغرى : فالعظمى مجتمعات الجماعة كلها في أنحاء المعمور قاطبة ، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمور ، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من الوطن .

وأما غير الكاملة ف المجتمعات أهل القرية والحلة والمنزل . والقرية بمنزلة الجزء للمدينة ، والمدينة بمنزلة الجزء للوطن ، والأمة جزء من أهل المعمور ، فالخير الأفضل ، والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة ، لا بالمجتمع الذي هو أنفقه منه .

ولما كان شأن الخير في الحقيقة أن ينال بالارادة والاختيار ، وكذلك الشرور إنما تكون بالارادة والاختيار - كان من الميسور اتخاذ المدينة ذريعة للتعاون على بلوغ بعض غaiات الخير وغيایات الشر : فمعنى هذا أن كل مدينة يمكن أن تجتمع وسائل السعادة : فالمدينة التي يقصد بالمجتمع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة ، والمجتمع الذي يراد به التعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل ، والأمة التي تتضاد مدتها كلها على مادرك به السعادة هي الأمة الفاضلة ، والعالم الفاضل هو ما تضادرت أمه على بلوغ السعادة » اتهى بتصرف .

الميزان الخامس

العاطفة

لقد تبين أن الموازين المتقدمة لا تصلح أن تكون ميزاناً خلقياً للأعمال ، ومن أجل ذلك انبرى طوائف من العلماء إلى البحث عن موازين أخرى : فقالت طائفة « بالعاطفة » مؤيدین قولهم - بأن الإنسان فطر على حب الخير لغيره ، فكل ما تمشي مع هذه الفطرة فهو خير ، وكل ما باينها فهو شر :

يريدون بذلك أن الحدب على الناس هو جماع الفضيلة ، ولذلك كان هو الواجب الأسمى الذي يجب أن توجه همم بني الإنسان إلى القيام بتكميله ، يدأن هناك كثيرا من الأعمال لا يمكن أن يكون مصدرها العطف والحدب: أرأيت لو أن رجلا اقترف إثما ثم قدم نفسه للقضاء أفيقال : إنه فعل ذلك مدفوعا بالعطف والحدب ؟ الحق أنه مسوق بياudit العدل والانصاف . وعلى ذلك فالعاطفة لاتصلاح أن تكون أساسا لواجب ما ، إذ ليس لها من الالزام ما يجعلها قانونا خلقيا ، يأمر وينهى ، وينذر ويبشر . وما أجمل ما قاله ابن حزم في كتابه « تطهير الأعراق »: وجدت المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم ، وعلة ذلك طبيعية في البشر .

الميزان السادس

استهالة القلوب

وقالت طائفة أخرى : استهالة القلوب ميزان خلق توزن به الأعمال خيراها وشرها . وحجتهم في ذلك أن الناس جبلوا على ميول طبيعية تدعوهم إلى الاعتناس ببني جنسهم وتآلف قلوبهم ، فنرى الواحد منهم يشاطر إخوانه في سرائهم وضرائهم :

وعلى ذلك كل فعل يستميل القلوب ، ويستهوى الأؤنة فهو خير ، وكل مانفراها وأبعدها فهو شر ، دع عنك أن الناس محظوظون على أن يفعلوا ما يكسي بهم رضا غيرهم عن فعلهم ، وإقرارهم عليه ، وأن يتحاشوا فعل ما من شأنه تغفيرهم وإسخاطهم . وهذا معناه أن بين النفوس تجادل باومشاركة في الإحساس والشعور ، فإذا مأسدى أمرؤ إلى غيره عارقة أو قدم إليه يدا رأيت المسدى إليه ينعتطف نحو المسدى ، ويعرب عن الاعجاب بعمله وصنيعه ، فتتولد عنده عاطفة مثل عاطفة المسدى . تخدوه إلى مقابلة الصنيع بمنته . وبهذا التوالي النفسي أمكننا أن نحكم أن عمل الخير جدير بالمشورة والجزاء الحسن .

لقد تمكن هذا الرأى من نفس «آدم سميث» فجعل قاعدة السلوك هي : «ليكن عملك بحيث ينال أكابر قسط من رضا جل من يشهدونه». فمناط كون العمل خيراً أو شرًا استحسان غالب الشاهدين واستقباهم إياه ، بيدأن «آدم سميث» لما رأى أنه يتعدى على الواحد أن يشهد الناس جميع أعماله ، فيعلم من تبنته الخلقية - قال : إن من يفعل الفعل هو فاعل وشاهد فى وقت واحد ، فواجب على من يقدم على عمل متأخر يجرد من نفسه ذاته اعو اطف عاو اطف غيره ، يتخذها رقيبا على نفسه التي تبادر الفعل ، فان رضيت الذات المجردة عن العمل قام ذلك مقام الافرار عليه من أناس غيره شاهدين ، ولهذا أدخل بعض التغيير في القاعدة المقدمة الذكر فقال : «ليكن عملك بحيث ينيلك رضا شهوده مجردین عن الغرض والموى» .

نقد هذا المذهب

لقد أراد أنصار هذا المذهب أن يجعلوا الواجب الخلقى الأسمى أن يبذل المرء جهده في اجتذاب غيره إليه وإقراره على عمله وسلوكته ، وهذا معناه أن يكون مناط الحسن أو القبح الخلقى لعمل ما هو إكبار الناس هذا العمل أو تحقيره ، أي ميالهم إليه وانصرافهم عنه ، ولا مرية في أن هذا المناط قلوب متغيرة : فمن الناس من ألفوا العداوة والسلب والنهب ، وتنزلت هذه الفعال عندهم منزلة المأثور المحب الدال على الشجاعة والبس ، فإذا شاهدوا واحدا يفتات على غيره أو أمة تستعبد غيرها ، وتسلبها حقوقها ، وميراث أسلامها - مالوا إليها ، وأطروا فعاليها : لأن فعل العسف والجور بمرأى منهم أيقظ فيهم ميل العداوة والسلب الذي ألفوه ، فاستحسنوا العمل تلبية لما ضروا عليه . ومعنى هذا أن استحسان طائفة لعمل وتشيعها له هو مظاهر البيعة التي درجوا فيها ، والاحساس الذي ألفوه . وما مثلهم في هذا إلا كمثل الماء يكتسب لون إنانه ولا لون له في ذاته .

ما تقدم يتبين أن القول باتخاذ حال من أحوال الاحساس أو الوجدان

معايير توزن به الأعمال الخلقية ، ومر جعا تردى إليه الشئون المعنوية - ضعيف لا يرکن إلیه ؛ فما كان للأخلاق أن تبني على أساس بفطرتها متخيرة ، أو تردى إلى قوانين غير ملزمة : هل يصح في الأذهان أن تقوم التكاليف الخلقية على مثل قاعدة : فطر الناس على النزوع إلى عمل كذا فواجب عليهم أن يفعلوه ؟ على أن كل قانون خلقي يؤسس على الملة ووسائلها ، أو المنفعة ومقاصدها ، أو الميل النفسي وتوجهها - غير جدير بأن يكون ميزانا يستحضر به بنو آدم الذين اختصهم الله بالنبوة ، وميزهم بالعقل والحكمة . فواجب تلمس مرجع آخر أدنى إلى كلامهم ، وأليق بهم وآمامهم فما هو ياترى ؟

الميزان السابع

الاقتداء بالله

يقول أفلاطون : هو الاقتداء بالله المنفرد بصفات الجمال والكمال . فالواجب الخلقي يقضي بالاقتداء به ، والاتسام بصفاته ، ولا يستطيع إنسان أن يصلح درجة هذا الاقتداء إلا إذا أُلف بين قوى النفس الثلاث : وهي القوة التي بها يكون الفكر والتمييز والنظر في حقيقة الأمور ، والقوة التي بها يكون الغضب والنجد والأقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع ، والقوة التي بها يكون الميل : وهو طلب الغذاء والشوق إلى ملاذ المآكل والمشارب وضروب المذادات الحسية .

هذه القوى الثلاث متنافرة لا ينتظم أمرها وتسعد حال صاحبها العقلية . إلا إذا سلم بعضها بعضا ، وصارت الأولى صاحبة السلطان والغلبة والقيادة ، وانتهت الآخريان بأمرها ، فان تم ذلك تم العدل للنفس واجتمع لها كلها المعنوي ، حتى إذا هيمنت القوة العاقلة على اختيارها وأصبحت دولة العقل وقد خيم عليها الوفاق باستئصال جذور الشقاوة والخصام - وجب توجيه الهمة إلى إيجاد الألفة بين الفرد وجماعته ، وبينه وبين أمهاته ، ثم بينه وبين شعوب العالم وقبائله ، حتى إذا تمت له الألفة النفسية والقومية والعالمية قيل إنه أصبح جزءا من العالم المنظم المنافق ، وأنه يحيا حياة التجانس والجمال ، وأنه جدير

بأن يكون مثلاً خلقياً يحتذى ، وأسوة حسنة تتبع ، وأصبح كاً وصفه ابن مسكونيه في تهذيب الأخلاق - من الذين بلغوا مرتبة الفضيلة المحسنة : وهي التي لا يكون فيها تشوف إلى آت ، ولا تلفت إلى ماض ، ولا طلب لحظ من الحظوظ الجسمية والنفسية ، أوئك هم الذين يتصرفون بتصريف الخير العقلي ، وأعلى رتب الفضائل . فيوجهون كل هممهم إلى نيل الشؤون المعنوية بلا طلب عوض أى يحصلون جهودهم لنفس ذاتها فقط .

وجملة القول ، أن أفعالهم تصبح خيراً محضنا صادرة عن نفوس مستمدّة من المدد الفياض الصمداني ، لا تعيقها دواعي البدن ومنازعه البهمية وعوارض التخييل المتولد عنهم ، بل كل همّتهم وإرادتهم في ذات الفعل ، لا يطلبون بذلك حظاً ولا مجازاة ، وهكذا شأن الخير المحسن لا يفعله صاحبه من أجل شيء آخر غير الفعل نفسه ؛ لأنّه هو الغاية المتوكّلة لذاتها المقصودة لعينها ، قد يبلغ في النهاية منزلة لا تتصور معها أن يكون مقصوداً لغيره . إنّهم يلوغون بهذه الغاية القصوى من الرق العقلي والنفسي قد تم لهم الاقتداء بالباري جل شأنه ؛ فأفعاله تعالى حكمته إنماقصد الأول بها ذاته العلية ، لاشيء خارج من ذاته ، أي ليس قصدها الأول الكائنات التي نحن بعضها ؛ لأنّه لو كان كذلك لكان أفعاله حينئذ إنما كانت و تكون و تتم بمشاركة الأمور الخارجية ، وليس لهذا معنى إلا أن تكون الأشياء الخارجية أسباباً و عللاً لأفعاله ، وهذا شنيع قبيح تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، ييد أنّ عناية الله تعالى بالأشياء الخارجية إنما هي على القصد الثاني ، فليس يفعل ما يفعل من أجل الأشياء نفسها ، بل من أجل ذاته أولاً ؛ لأنّ ذاته العلية أهل للتفضيل - لامن أجل المفضل عليه ، ولا من أجل شيء آخر .

ل مجرم أن الإنسان الذي استطاع الحصول إلى سبيل الاقتداء بالله في أفعاله الحكيمية تكون أفعاله التي يفعلها على القصد الأول من أجل ذاته نفسها التي هي الفعل الآثم ومن أجل الفعل نفسه ، فإذا ما عامل عملاً ينفع به غيره فليس نفع الغير مقصده الأول ، بل مقصده الثاني ؛ لأنّ القصد

الأول ذات الفعل ووجه الفضيلة ، لا اجتلاف منفعة أو دفع مضر ، أو طلب رياسة ، أو محبة كرامة .

تقد هذا الميزان

١ - أنى للإنسان أن يؤلف بين هذه القوى الثلاث المتنافرة تأليفا يجعله مثل الأعلى الذى كان ينشده أفلاطون ؟

٢ - لقد غالى أفلاطون في علاقته النفس بالجسم ، فقد اعتنده عائقا لها عن كمالها ، بحجة أن جميع ما يتناهى من الأمراض كالجهل وغيره من الرذائل ناشيء عن اتحاده بها لما سجنحت فيه عقابا لها على ذنب اقرفتها في حياة سابقة لهذه الحياة (١)

٣ - يستخلاص من رأيه في الدولة النفسية أنه لم يدع مجالا لحرية الارادة ، وكل مذهب يقضى على حرية الارادة فليس من الأخلاق في شيء

٤ - وجماع ما يؤخذ على أفلاطون في مذهبه هذا أنه غالى في إضعاف القوتين ^{النفسية والشهوة} اضعافا قد يفضى إلى القضاء عليهما مع أن سنة الحياة تقضى بالبقاء عليهم ، مع وقوهما عند حد الاعتدال الذي لم يوفق أفلاطون إلى تبيانه .

الميزان التاسع السعادة

ماهية السعادة :

أيام أن كنت طالبا اتفقت أنا وزمرة من الزملاء على أن نذهب في يوم عطلة إلى مكان رحب الأربعاء طاق الهواء لترويح النفس مما ألم بها من تعب الدرس ، وفي أثناء ركضنا إلى غرضنا قطعنا شارعا فسيحا مليحا ، تحفه من

(١) يشعر هذا بأن أفلاطون من القائلين بتنا سيخ الأرواح ولا مراء في فساد هذه العقيدة

جانبِهِ القصور الشامخة والمنازل البادحة تحدق بها الحدائق الغناء، والرياض الفيحة، والرياح تعبيث بأشجارها، ويستوقفك تغريد أطيارها؛ ترى عليها علام العظمة واضحة، ودلائل السعادة لائحة. فوجه أحدنا نظرنا إلى وجاهة هذه الدور وما عسى أن يكون عليه أهلها من هناء وسرور، فقال آخر:

لاتخدعنيك المظاهر؛ فقد يكون وراءها ما تشق له المرائر، وطالما انطوى حسر الرواء على كثير من المشقة والعنااء: يتظاهر المضحك بأعظم سرور وقت الدَّنَانِ، وجوانحه تكاد تفتت مما ألم به من مصائب ومحن، وكثيراً ما كذبُ الخبراءُ الخبر، والمخدوع بالسراب لا يقف له على أثر، ولعل في ظاهرها الرحمة وباطنها من قبيل العذاب. وما زال الحديث يدور حول سكان هذه الدور وما تحتمله حالتهم من شدة ورخاء أو راحة وعناء، إلى أن جر ذلك إلى البحث في معنى السعادة، فطلبت من الآخوان أن يحدد كل منهم السعادة - على رأيه - بأوْجِ عبارة، وأفصح بياناً. فأخذ كل يلقي دلوه في الدلاء، وبيدي ما يعن له من الآراء: فنفهم من رأى أن السعادة في الثروة الواسعة، ومنهم من رأها في الصحة الشاملة، ومنهم من ذهب إلى أنها في المناصب السامية والدرجات العالية، ومنهم من اعتقدها في الصيت البعيد والذكر الحميد، ومنهم من قال: « يجب توافر كل هذا لـكل سعيد ». كل ذلك وأنامنست إلى كل رأى، مصغى إلى كل مقال. ولما جاء دورى قلت من فوري - وكان قد سبق ذلك تفكير ليال، وأيام طوال: « السعادة هي راحة البال (أقصد بالبال: القاب النقي، والضمير الحي، والوجدان الحساس، والنفس اللوامة التي أقسم الله بهما في سورة القيامة. وإن أصارح القاريء الكريم، وأصدقه القول في أنني ما أخذت هذا المعنى من كتاب، ولا شافهني به فيلسوف ولا أستاذ، وما كنت أدرى حينئذ (ولعل كثيراً من الناس لا يدرؤون) أن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حدد معنى السعادة تحديداً محكماً، واستودع تعريفها لفظاً ريقاً. نعم إنَّه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يذكُر ذلك في بحث علىي ولا في أثناء درس ديني، بل كان يقوله عرضًا لمن يستفهم عن دعاء أشمل

وطلب من الله أتم وأكمل ، فيكون دعاء ، ويكون سعادة ، فقد تكرر في أدعيته صلى الله عليه وسلم - طلب العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة وقد بين (عليه أفضـل الصلاة والسلام) العـفو فقال : « هـوـ أـن تـغـفـرـ عـمـن ظـلـمـكـ ، وـتـعـطـيـ ، مـن حـرـمـكـ ، وـتـصـرـلـ مـن قـطـعـكـ ، وـتـحـسـنـ لـمـن أـسـاءـ إـلـيـكـ » فالـعـفـو عـمـن ظـلـمـكـ هو نـهاـيـة الـحـلـمـ وـالـشـجـاعـةـ ، وـإـعـطـاءـ مـن حـرـمـكـ هو نـهاـيـةـ الـجـودـ ، وـوـصـلـ مـن قـطـعـكـ هو غـايـةـ الـاحـسـانـ ، وـالـاحـسـانـ إـلـىـ مـن أـسـاءـ إـلـيـكـ هو مـتـهـىـ كـرـمـ الـأـخـلـاقـ . وـأـمـاـ الـعـافـيـةـ فـهـىـ السـلـامـةـ مـنـ الـأـمـراضـ جـسـمـاـ وـنـفـسـاـ ، وـالـسـلـامـةـ مـنـ كـلـ مـاـ يـؤـذـىـ (ظـاهـراـ أـوـ بـاطـنـاـ ، مـادـةـ أـوـ أـدـبـاـ ، حـسـاـ أوـ مـعـنـىـ)ـ فـيـ الـدـيـنـ وـالـدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ .

أعتقد الآن بعد هذا البيان أنك توافقني على «أن السعادة» هي العـفـوـ وـالـعـافـيـةـ فيـ الـدـيـنـ وـالـدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ ، وـأـنـ الـإـنـسـانـ إـذـ مـنـحـهـ اللهـ تـعـالـىـ هـذـيـنـ الـأـمـرـيـنـ يـحـيـاـيـةـ طـيـبـةـ مـطـمـئـنـ الـخـاطـرـ حـسـنـ الـحـالـ مـسـتـرـيحـ الـبـالـ فـيـ دـيـنـهـ وـدـنـيـاهـ وـآخـرـتـهـ . حـقـالـقـ أـوـقـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ (صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ)ـ جـوـامـعـ الـكـلـمـ ، فـقـدـ جـمـعـ مـاـ أـقـىـ فـيـ الـفـلـاسـفـةـ أـعـمـارـهـ ، وـمـاـ قـضـواـ مـنـهـ أـوـ طـارـهـ ، فـيـ كـلـمـتـيـنـ (وـمـاـ يـنـطـقـ عـنـ الـمـوـىـ إـنـ هـوـ إـلـاـ وـحـيـ يـوـحـيـ)

ويؤيد ما ذهبت إليه من معنى السعادة قوله تعالى في سورة محمد :

(وـالـذـيـنـ آـمـنـواـ وـعـمـلـواـ الصـالـحـاتـ وـآـمـنـواـ بـمـاـ نـزـلـ عـلـىـ مـحـمـدـ ، وـهـوـ الـحـقـ) من رـمـمـ كـفـرـ عـنـهـمـ سـيـدـنـاـهـمـ وـأـصـلـحـ بـالـهـمـ) وـقولـهـ تـعـالـىـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ السـوـرـةـ نـفـسـهـاـ : (وـالـذـيـنـ قـتـلـوـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ فـلـنـ يـضـلـ أـعـمـالـهـمـ ، سـيـدـنـاـهـمـ وـيـصـلـحـ بـالـهـمـ وـيـدـخـلـهـمـ الجـنـةـ عـرـفـهـاـ لـهـمـ) . وـيـتـجـلـيـ مـنـ هـذـاـ أـنـ مـنـ عـاشـ فـيـ عـفـوـ وـعـافـيـةـ عـاشـ سـعـيـداـ ، وـيـزـدـادـ نـصـيـبـهـ مـنـ السـعـادـةـ كـلـمـاـ اـمـتـدـتـ بـهـ الـحـيـاةـ . وـإـلـىـ ذـلـكـ يـشـيرـ قولـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ : (السـعـادـةـ طـولـ الـعـمـرـ فـيـ طـاعـةـ اللهـ)

تتأمل في هذه الزمرة التي كانت تتناقش في معنى السعادة في أوقات الاستراحتة فنرى أنها صورة مصغرة من العالم في نظره إلى السعادة : كل يفسرها بما توحيه إليه طبيعته وجيئته ، وبما يميله عليه عقله وعقيدته ، وبما تطمح إليه نفسه ، وتطلع إليه همته . حقا إن الناس مختلفون في هذه السعادة الإنسانية ، وقد أشكلت عليهم إشكالاً شديدة جعلهم يتفرقون في شأنها ، ولا يهتدون إلى مكانها : فالفقير يرى أن السعادة العظمى في الثروة واليسار ، والمريض يرى أنها في الصحة والسلامة ، والذليل يرى أنها في الجاه والسلطان ، والخليع يرى أنها في المسكن من الشهوات كلها على اختلافها ، والعاشق يرى أنها في الظفر بالعشوق ، والخَيْر يرى أنها في إفاضة المعروف على المستحقين ، والبدوى الذى نشأ في الصحراء حيث صفاء السماء ورقعة الهواء وتمتعه من أنواع الحريات بما يشاء يعتقد السعادة في عزة النفس ورفعها وشرفها وسمو مكانتها ، يستميت في ذلك ولو رافقه شظف العيش ورقة الحال ، ويأى الذلة كل الآباء ولو صاحبها رغد العيش وكثرة المال : فهذا شاعر الباذية يقول :

لاتسقى ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة **كجهنم** وجهنم بالعز أطيب منزل
ولقد عبرت عن ذلك أبلغ تعبير تلك البدوية (١) التى عافت نفسها أرق
حياة فى الحضر ، وحنت إلى حياة خباء من الشعر ؛ لأنها شعرت فى الأولى
بشىء من الذلة والإهانة ، وقد ترعرعت فى الثانية على كثير من العزة وسمو
المكانة ، قالت :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف
وكلب ينسح الطرّاق عني أحب إلى من قطّ ألوف
ولبس عباءة وتقرّ عيني أحب إلى من لبس الشفوف
وبـ**كـر** يتبع الأطعان صعب أحب إلى من بـ**غـل** دفوف

(١) هي ميسونة التى تزوجها معاوية ونقلها من الباذية إلى الشام فكانت تكتثر الحنين إلى الباذية .

وَخِرْقٌ مِنْ بَنْيِ عَمِيْ نَجِيبٍ
وَأَصْوَاتُ الرِّيَاْحِ بِكُلِّ فَجٍّ
وَأَكْلٌ كَسِيرَةٌ فِي كَسْرِ يَدِيْتِيْ
خَشْوَنَةٌ عِيشَةٌ فِي الْبَيْتِ أَشَهِيْ
فَهَا أَبْغِيْ سَوَى وَطَنِيْ بَدِيلًا
جَاءَ الْإِسْلَامُ وَرَقَّ القُلُوبُ، فَرَأَى الْقَوْمُ فِي التَّقْوَىِ غَايَةَ الْمَطْلُوبِ:
(وَتَزَوَّدُوا فَانَّ خَيْرَ الرِّزَادِ التَّقْوَىِ) قَالَ الْحَطِيْعَةُ :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الود ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وحسان بن ثابت يرى أن السعادة في السلامة من شرور الناس
وغاوائهم ، قال :

وإن امرأً يسى ويصبح سالماً من الناس - إلا ماجنى - لسعيد والناثىء في الحضارة يرى أن السعادة في العهائر الضخمة ، والمراكب الفخمة ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوقة والأذعام والحرث . وقيل ليحيى بن خالد : ما السعادة ؟ فقال : « سلاماً الخلق ، وجودة الحفظ ، وذكاء العقل ، والتأني في المطلوبات » بينما المتبنى يرى أن ذا العقل شقي في هذه الحياة ، وأنها لا تصفو إلا لجاهل ، أو غافل ، أو مغالط نفسه : ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخوه الجهلة في الشقاوة ينعم

تصفوا الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسوّمها طلب الحال فتقطع
وقد بلغ من اختلاف الناس في نظرهم إلى السعادة أن كل مشتعل
بناحية من نواحي الحياة ينظر إليها من تلوك الناحية : فالكاتب أو الشاعر
مثلاً يرى سعادته في تأثير كلامه في النفوس وتعامله إلى سويدة القلوب
تأثير أو تغلغل ينبعط علىهما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الشُّعُّرِ
لَكُمْ حَمَةٌ ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » .

والمشتغل بالدين يرى أن السعادة كل السعادة في ترك المحظور ، وفعل المأمور ، مع التخلى عن الرذائل ، والتخلى بالفضائل ، وبعبارة أخرى يرى السعادة في التقيد بالدين وعدم الانحراف عن جادته أو الحيد عن محجته . وابن خلدون أول علماء الاجتماع يرى أن الملق والخاضوع مما يجلب السعادة . وأبو بكر الرازى شيخ أطباء الأجسام يقول : « إن استطاع الطبيب أن يعالج بالأغذية دون الأدوية — فقد وافق السعادة » . رأى الإمام الغزالى : والغزالى شيخ أطباء النفوس يرى أن اللذة والسعادة لابن آدم معرفة الله سبحانه وتعالى ، قال : « اعلم أن سعادة كل شيء لذته وراحتة ، ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شيء ماخلاق له : فلذة العين في الصور الحسنة ، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنها مخلوق لها . وكل مالم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به : مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ولو نهى عنها لم يتركها ، ولا ييق له عنها صبر ، وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة ؛ لأن لذة القلب المعرفة ، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر . ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ؛ لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم آثار صنعته ، فلا معرفة أعز من معرفته ، وليس منظر أحسن من منظر حضرته ، وكل لذات الدنيا وشهواتها متعلقة بالنفس ، وهي تبطل بالموت ، ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب ، فلا تبطل بالموت ؛ لأن القلب لا يملك بالموت ، بل تكون لذته أكبر وضوءه أكبر ؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء » وقال في موضع آخر :

« تمام السعادة على ثلاثة أشياء : قوة الغضب ، وقوه الشهوة ، وقوه العلم . فيحتاج الإنسان إلى أن يكون أمرها متواسطا ؛ لئلا تزيد قوة الشهوة ، فتخرجه على الرخص فيهلك ، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحق فيهلك ،

فإذا توسطت القوتان باشارة قوة العدل دل على طريق المداية . وكذلك الغضب : إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل ، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحبة في الدين والدنيا ، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة . وكذلك الشهوة : إذا زادت كان الفسق والفحوج ، وإن نقصت كان العجز والفتور ، وإن توسطت كانت العفة والقناعة ، وأمثال ذلك » وقال في موضع آخر : يخاطب ابن آدم :

« وقد جمعت في باطنك صفات : منها صفات البهائم ، ومنها صفات السبع ، ومنها صفات الملائكة :

فالروح حقيقة جوهرك ، وغيرها غريب منك وعارية عندك ، فالواجب عليك أن تعرف هذا ، وتعرف أن لسكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة : فان سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم وما إليها ، فان كنت منها فاجتهد في أعمالها ، وسعادة السبع في الضرب والفتوك ، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل ، فان كنت منهم فاشتغل باشتغالهم ، وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوية ، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق ، فان كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك ، حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الالهية ، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال وتخلاص نفسك من قيد الشهوة والغضب ، وتعلم أن هذه الصفات لأى شيء ركبتك فيك ، فما خلقها الله لتكون أسيرها ، ولكن خلقها حتى تكون أسراك ، وتسخرها المسفر الذي قدامك ، وتجعل إحداها مركرة والأخرى سلاحك ، حتى تصيد بها سعادتك » وقال أيضاً :

« فإذا رأيت واحداً منهم (أى من أفراد المملكة القلبية) قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب — فعليك بالمجاهدة ، ولا تقصد قتليما ، لأن المملكة لا تستقر إلا بهما . فإذا فعلت ذلك كنت سعيدا ، وأديت حق النعمة ، ووجبت لك الخلعة في وقتها ، وإلا كنت شقيا ، ووجب عليك النكال والعقوبة »

ما تقدم يتبيّن أن الغزالى يرى أيضاً أن السعادة في مجاهدة النفس وكبح جاح قواها . وهذا هو الجهاد الأكبر ، كما ورد في الأثر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم . ولاريب أن من انتصر في الجهاد الأكبر نال السعادة العظمى في الدارين ، ومن كبابه الجواب في أثناء هذا الجهاد فقد دخل فيمن قال الله تعالى فيهم : « وَالَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلُ أَعْمَالُهُمْ ، سَيَرَهُمْ وَيُصْلِحُ بَالَّهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرْفًا لَهُمْ »

رأى أرسطوطاليس : وأرسطوطاليس يرى أن سعادة كل شيء في تمامه وكامله الذي يخصه . فالسعادة عنده ليست واحدة لجميع الناس ، فهي تختلف عندهم باختلاف أحوالهم ، وقد تكون « مصائب قوم عند قوم فوائد » على هذا الرأي . ولذلك يعرّف السعادة بأنها « خير ما لا يحد واحد من الناس » يعني أنها خير مضاف إلى صاحبه ، ومنسوب إليه ، ومحخصوص به . فهو يعتقد أن السعادة ليست لها شخصية معينة قائمة بذاتها ومقصودة من الجميع ، بل هي تختلف بالإضافة إلى قاصديها ، وأما الذي يقصده الكل بالشوق ، وله طبيعة تقصد ، وشخصية قائمة بذاتها — فذلك هو الخير العام ، أو الخير المطلق . فالخير العام عنده غاية الجميع ، وأما السعادة فهي غاية كل إنسان فيما يختص به وتمام الحirيات له وحده . وقد فسر أرسطوطاليس تمام الحirيات بأنه « هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتاج معه إلى شيء آخر ». وقال : « إن كان عطية من الله تعالى وموهبة للناس فهو السعادة ، لأنها عطية منه عزّ اسمه وموهبة في أشرف منازل الحirيات وفي أعلى مراتبها ، وهي خاصة بالإنسان التام ، ولذلك لا يشاركه فيه أمن ليس بتام : كالصبيان ومن يجري مجراهم »

رأى الفلاسفة العصريين : الفلاسفة العصريون في نظرهم إلى السعادة فريقان : متشاركون أو قاطعون ، ومتفائلون أو آملون :

فمن الفريق الأول : « هنريك أبسن » النرويجي (١٨٢٨ - ١٩٠٦) فإنه يعتقد أن السعادة تضيع في طلبها الجهد ، إذ أن الطريق إليها مسدود

وكل محاولة في سبيل ذلك يكون نصيحتها الحقيقة ؛ لأنها بدل أن تقرب السالك تفضي إلى الواقع في المهالك : يقول : « إننا لا نعرف سبيلاً تؤدي إلى السعادة ، بل إن كل السبل تبعدها عنها » فهو بهذا قد غلبه اليأس ، واستولى عليه القنوط من نيل السعادة ، ولا أمل له فيها . يشاركه في يأسه وقنوطه « توماس هاردى » الانجليزى فإنه أخذ يبحث عن السعادة ويجد ، وينقب ويكد ، ولما لم يوفق إلى طلبه ، ولم يصل إلى رغبته — رجع غاضباً حانقاً ، يهدى هذيان المحموم ، ويفوه بما شاء له حقه ، ساخطاً على المقدر وقدره . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن الفريق الثاني : « تولستوى » الفيلسوف الروسي الشهير (١٨٢٨ - ١٩١٠ م) فإنه يرى أن السبب في إخفاق الإنسان في نيل السعادة أنه يسعى في الحصول على نيل السعادة الشخصية ، وجود سعادة فردية مستقلة جد مستحيل ؛ لأن الحصول عليها يستتبع إيقاع الضرر بالآخرين ، وهو لاء الآخرون لا يمكن أن يقفوا مكتوفين الأيدي أمام ذلك الضرر اللاحق بهم ، بل لا بد من دفاغهم عن أنفسهم ، فيقع الجميع بسبب هذه الأثرة في الشقاء . ولكن السعادة الحقيقية هي سعادة الجماعة ، فهي الحرية بأن ينقب عنها ، ويمكن العثور عليها ، و « يد الله على الجماعة » ، ولكن بالتعاون والمحبة ، فهي لا توجد في غير حياة النور : حياة التضحية في سبيل إسعاد الآخرين ، وفي إزالة العداوات الكامنة في القلوب المتحجرة بالأثرة والانقياد إلى الأهواء والشهوات التي تجر الإنسان إلى الظلم حيث يمثل أهل هذا العالم روایتهم المخزنة على مسرح الحيوانية .

و « برتراند رسل » الفيلسوف الانجليزى يشاطر « تولستوى » هذا الرأى ، وسند كلامه إن شاء الله في أسباب الشقاء « وبرناردشو » في روايته « الإنسان الرافق » يرد على أبسن في تشاوئه

قائلاً : «إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يجد طريقة تفضي به إلى السعادة ، أو أن يجتنب طريقة توصله إلى الشقاء - فليس أمامه إلا الاعتصام بحب الشجاعة ، وعدم الاقتصار على التسلیم بحتم البؤس والشقاء . ليحسب ، نفسه محاولة من محاولات الطبيعة ، ولنعتبر أنه ضحية ترقى عليها الأجيال القادمة معتبرة بأخطائه متعلمة الحكمة من حمقه وشقائه ، وحيئذ لا بد له من أن يجد طریقاً أخرى»

ويعلو «برناردشو» عدم نيل السعادة إلى كثرة أخطاء الإنسان برأيه وسعيه وراء أغراضه الخاصة وامتناعه عن الاصغاء إلى الدعوة التي توجها إليه قوة الحياة ، وعناده في تجاهل الورطة التي يجرها على نفسه بعمله ، ثم يقول «شو» : «إن هذه التهمة الموجهة إلى الإنسان لا تقوم على أنه لم يستعمل عقله ، بل على أنه يستعمله في فن التدمير : ففي سهل الحياة لا يختبر شيئاً وأما في سهل الموت فيختبر كل شيء : ذلك بأنه يستخدم نبوغه للتفنن في إثارة الحرب ، ولكنه يمتنع عن استخدامه فيما ينفع . فهو لم يرتق إلى ميدان التحرب ، ولم يتقدم في وسائل التغذية ، بل يأكل ويشرب ما كان يأكله أسلافه ويشربون من ألف سنة ، ولكنه إذا خرج ليحارب أعداءه فلن يستطيع أحد أن يتبع سرعة إبداعه وارتفاعه في بناء أدوات التدمير» .

سبب اختلاف الناس في تحديد السعادة

ا - فضل الإنسان على غيره :

اقضت إرادة الله تعالى أن يجعل له خليفة في الأرض : هذا الخليفة هو الإنسان قال تعالى : «إِنَّ جَاعِلَ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (ولذا فضلاته على غيره :) وَلَقَدْ كَرَّمَنَا بَنِي آدَمَ وَهَمَّنَا هُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَا هُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَا هُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (وخلق ماسواه معونة له :) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا (وليس فضلاته بقوه الجسم ؛ فالفيل

و البعير أقوى جسمها منه ، ولا بطول العمر ؛ فالنسر والحيث أطول منه عمراً ،
ولا بشدة البطش ؛ فالأسد والنمر أشد منه بطشاً ، ولا بحسن اللباس ؛ فالطاوس
والدراج أحسن منه لباساً ، ولا بكثرة الذهب والفضة ؛ فالصحراء والجبال
أكثر منه ذهباً وفضة - بل فضله بما خصه الله به من العقل ، ولو لاه لكان
أقل مخلوقات الله :

لولا العقول ليكان أدنى ضيغماً
وَلَمَا تفاضلت النقوص وَدَبَّرَتْ
بـ - تفاوت العقول :

هذه المنحة الـٰهـيـة العظيمـة التي اخـتـص بها الـإنسـان ليـسـت بـمـقـدـار وـاحـدـعـنـدـجـمـيعـأـفـرـادـهـ، بل شـاءـالـلـهـ تـعـالـىـ أنـتـخـتـلـفـ باختـلـافـالأـفـرـادـ وـتـبـاـينـ، وـتـقـاـوـلـ مـرـاتـبـهاـعـنـدـهـمـ وـتـيـفـاضـلـ: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَّ الْوُنُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ» وـنبـهـ عـلـىـ ذـلـكـ أـيـضـاـ بـقـولـهـ تـعـالـىـ: «وَفِي الـأـرـضـ قـطـعـ مـتـجـاـوـرـاتـ وـجـنـاتـ مـنـ أـعـنـابـ، وـزـرـعـ وـكـنـيـلـ صـيـنـوـاـنـ وـغـيـرـ صـيـنـوـاـنـ، يـسـقـيـ بـمـاءـ وـأـحـدـ وـنـفـضـلـ بـعـضـهـاـ عـلـىـ بـعـضـ فـيـ الـأـكـلـ؛ إـنـ فـيـ ذـلـكـ لـآـيـاتـ لـقـوـمـ يـقـلـوـنـ»

وَعِنْ عَاشرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَلْتَ : « يَارَسُولَ اللَّهِ ، بِأَىِّ شَيْءٍ يَفْحَضُ النَّاسَ فِي الدِّينِ ؟ » قَالَ : (بِالْعُقْلِ) . قَلْتَ : « وَفِي الْآخِرَةِ ؟ » قَالَ (بِالْعُقْلِ) قَلْتَ : « أَلَيْسَ إِنَّمَا يَحْزُونُ بِأَعْمَالِهِمْ ؟ » فَقَالَ : « يَا عَاشرَةَ ، وَهُلْ عَمِلُوا إِلَّا بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعُقْلِ ؟ فَبِقَدْرِ مَا أَعْطُوهُمْ مِنَ الْعُقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يَحْزُونُ » .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ الْعُقْلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ، فَمَنْ كَنَّ فِيهِ كَمْلَ عُقْلَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ جُزْءٌ مِّنْهَا ، فَلَا عُقْلَ لَهُ »
قال : حَسْنُ الْمَعْرُفَةِ بِاللَّهِ ، وَحَسْنُ
الطَّاعَةِ لِلَّهِ ، وَحَسْنُ الصَّبْرِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ »
ولِنَبْيِنْ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

هذا الباب أحاديث كثيرة وقيل لكل شيء غاية وحد ، والعقل لغاية له ولاحد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة والطيب : وحكمة ذلك أن الإنسان لاقدرة له وحده على إعداد جميع مايلزمه في حياته ليعيش عيشة حميدة من مأوى وملبس ومطعم وغيرها ، فلم يكن بد للناس من تشارك وتعاون ، فجعل لكل قوم صنعة معايرة للصنعة الأخرى عند غيرهم ، وكذلك جعل لكل قطر حاصلاته ، فيتولى كل صنفا من الصناعات يزاوله ويجيده ، ليتأتى تبادل المنافع : قال تعالى : (فَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ رِبِّاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) واقتضت الحكمة الإلهية أن تختلف أجسامهم وقوتهم وهمهم ، ويكون كل ميسرا لما خلق له : (فُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَكْلَتِهِ) فتكون معايشهم مقتسمة بينهم : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَخَذِّدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) وبقول الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض بعض وإن لم يشعروا خدم

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما في تباين الناس واختلاف طبقاتهم من المصلحة : فقال . « النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَيَّنُوا ، فَإِذَا تَسَاوَوا هَلْ كُوَا »

(>) سبب تفاوت العقول :

يرجع تفاوت العقول في الغالب إلى ستة أشياء :

الأول - اختلاف الأمزجة ، وتفاوت الطينة ، وتغيير الخلقة ، كما أشير إليه فيما روى أن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يؤخذ من كل أرض قبضة ، فجاء بنو آدم على قدر طينتها وجوها : الأحمر والأبيض والأسود والسهل والحزن ، والطيب والخبث ، والحار والرطب . وإلى نحو هذا أشار الله تعالى بقوله . « وَأَبْلَدَ الطَّيْبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ

رَبُّهُ، وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِيدًا» وَقَالَ تَعَالَى . (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُ كُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

الثاني - اختلاف أحوال الوالدين في الصلاح والفساد : وذلك أن الإنسان قد يرث من أبويه آثار ماهما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحهما ، كما يرث مشابهتهما في خلقتهم ، ولهذا قال الله تعالى : (وَكَانَ أَبُوهُنَّا صَالِحًا) قيل كان بينهما وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء . وعلى نحوه روى أنه قال في التوراة : « إِنِّي إِذَا رضيَتْ بِأَبِيكَ ، وَإِنْ بَرَكْتَ لِتَبْلُغَ الْبَطْنَ السَّابِعَ ، وَإِذَا سُخْطَتْ لِعْنَتُكَ ، وَإِنْ لَعْنَتِي لِتَبْلُغَ الْبَطْنَ السَّابِعَ » تنبئها على أن الحير والشر الذي يكتسبه الإنسان ويترافق به يبقى أثره موروثا إلى البطن السابع . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانِ الْحَقِيقَةِ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا تَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) . وقد سبق القول في الوراثة بما فيه مقتضى .

الثالث - اختلاف الأطفال باختلاف ما يتلقون به من رضاع وطعام وشراب ، فإن الطفل يتأثر إلى حد كبير جداً بأخلاق ظهره وصحتها ، ولذلك يقول العرب لمن تصفه بالفضل « لله دره » وقد أثبت الطب إثباتا لا يحتمل الشك أن للغذاء تأثيرا كبيرا في حالة المرأة خلقيا وصحيا .

الرابع - اختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم ، وتطبيعهم ، وتعويذهم العادات الحسنة والقبيحة . فحق الولد على الوالدين أن يؤخذ بالآداب الشرعية ، وإخبار الحق بياله ، وتعويذه فعل الخير ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « مُرُوهُمْ بِالصَّلَاةِ إِسْبَعٌ ، وَاضْرِبُوهُمْ لِعَشَرٍ » ويجب أن يصان عن مجالسة الأرديةاء ، فإنه في حال صيام كالشمع قابل للتشكل ، وأن يحسن في عينه المدح والكرامة ، ويصبح عنده الزم والمهابة ، ويبعض إليه

الحرص على المآكل والمشارب ، ويعود الاقتصاد في تناولها ومخالفته الشهوة ومجانية ذوى السخاف ، ويؤخذ بقلة النوم في النهار ؛ فهو يورث الكسل ، ويعود التأني في أقواله وأفعاله ، ويعود صلة الرحم ، وحسن تأدبة فروض الشيء : قال بعض الحكماء : « من سعادة الإنسان أن يتافق له في صباح من يعوده تعاطي الشريعة ، حتى إذا بلغ الحلم وعرف وجوبها فوجدها مطابقة لما تعوده - قويت بصيرته ، ونفدت في تعاطيها عزيمته » :

وينشأ ناشيء الفتى منا على ما كان عوده أبوه

« وربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » .

الخامس - اختلاف من يتخصص به ويختاله ويعانشه ، فإذاً أخذ طريقته ، ويسلك محجته ، ويكتسب خلقه وعاداته ؛ فإن المرء على دين خليله ، ولذا قالوا : اصحاب الألئاخ وارغب فيهم * رب من صاحبته مثل الجرب

وقيل : واختر قرینك واصطف فيه تفاخرا * إن القرین إلى المقارن ينسب واحد ر مصاحبة اللئيم فإنه * يعدى كي يعدى الصحيح الأجر

وقيل : عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرین بالمقارن يقتدى إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى ويشير إلى ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم : « ألمَرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » و سيأتي إن شاء الله من ذلك شيء كثير في الصدقة .

السادس - اختلاف الاجتهاد في تزكية النفس بالعلم النافع ، والعمل الصالح حين استقلال المرء بنفسه : قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فمنع سبحانه وتعالى المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم ، وقال تعالى : (وَمَا يَعْلَمُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ) فبني أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا ، أو يفهم منه زجرا . ولاشك أن ثمرة العلم العمل ، والعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر . وسنذهب القول في ذلك في بابي العلم والعمل إن شاء الله تعالى .

هذه هي أسباب تفاوت العقول و اختلافها ، والسعيد من اجتمع له هذه الأسباب : بأن يكون طيب الطينة ، معتدل الأمزجة ، جاري في أصلاب آباء صالحين ذوى أمانة واستقامة ، مر تضعا بذر طيب ، و مأخذها في صغره من قبل مربيه بالأداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الأشرار ، ومتخصصاً بعد بلوغه بمذهب حق ، ومجدها نفسه في تعرف الحق ، مسارعاً إلى الخير : فن وفق في هذه الأشياء تنجح فيه الخيرات من جميع الجهات ويكون جديراً أن يعدمن وصفهم الله تعالى بقوله : (وَإِنَّمَا عِنْدَنَا مِنَ الْمُصْطَفَى إِلَّا خَيْرٌ) والشوق هو من يكون بعكس هذا في الأمور التي ذكرناها .

واعلم أن من طابت أحواله انتفع بكل ماسمعه وشاهده إن خيراً وإن شراً ، ومن خبشت أحواله استضر بكل ماسمعه وشاهده ، وعلى ذلك دل الله تعالى بقوله : (وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يُخْرُجُ نَبَاتًا بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) فالخيث من الأرض وإن طاب بذرها ، وعدب ماوه - لا ينبت إلا خبيثاً ، والطيب من الأرض وإن خبث بذرها ، وملح ماوه - لا ينبت إلا طيباً . ولذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه : (يُسْقِي إِيمَاء وَاحِدِينَ فَضْلًا بِعَصْمَانٍ عَلَى بَعْضِ فِي الْأُكْلِ) . وقال في صفة ستابه : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُونٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّى)

حظ الإنسان من السعادة

على قدر حظه من العقل

قد علمنا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي روتة السيدة عائشة رضي الله عنها والذى مر ذكره آنفاً - أن الناس يتفضلون في دنياهם وفي آخرتهم بالعقل ، لأنه هو الذي يميز الخير من الشر ، والنافع من الضار ، والطيب من الخبيث . وهو الذي يقدر الأمور قدرها ، وينزلها مثلكما بوصورها على حقيقتها ، ويكشف ما هيئها وسبباً و نتيجتها . وكلما كمل وتم كان تحديده للسعادة أشمل وأعم ، فالم禄 يحيطى من السعادة على قدر مامنح من العقل .

ولما كانت العقول متفاوتة كانت آراء الناس ورغباتهم متغيرة على قدر ذلك التفاوت : فيحب الفخر شلا يدفع بعض الناس إلى طلبه من كل ناحية والبحث عنه من كل سبيل ، وهؤلاء لا يخلون بتضحيه كل مالديهم من عزيز ونفيس لقاء ذلك ، في حين أن البعض الآخر لا تطيب نفسه به ، ولا تتحرك رغبته إليه ، فلا ينشط لشنданه ، ولا يمالي بفقدانه ولا وجدانه . وكذلك المال : يتمكن حبه من قلوب فئة من الخلق حتى يسترّ لهم ويستعبدّهم ، ولا يكون له هذا السلطان العظيم على فئة العقلاء والشهداء . ومشائخها السلطة : تطيش بها الأفكار ، وتتوجه إليها الأ بصار ، وتفسد القلوب ، وتتوق النفوس إلى الاستئثار بها ، ولا يكفل بها فريق آخر ، ولا يتدارى إلى التربع فوق عرشها . وكذلك بين الناس من يوجد بنفسه ونفسيه لنيل رتبة أو وسام أو لقب يشعر بسمو المكانة ، كما أن بينهم من لا يعبأ بذلك ، ولا يغيره أدنى عنایة ، بل يضحك منه ، ويُسخر من يتهاكون عليه ، ويرى أن هذه الرب والألقاب والشارات لا تمتاز بشيء من لعب الأطفال وألقابهم وشاراتهم . وبين الخليقة من يطمح إلى الجاه الرفيع ، ويتطلع إلى الصيت البعيد ، وينهم من يود أن يجذب أحدهم جاهل الأرض ملحاً يتوارى فيه عن الأنوار ، ليخفى ما هو فيه من نسك وتواضع وانكسار ، بحيث ينقطع للتبتيل إلى الله ، وينسى العالم والعالم ينساه .

كل هذه المتغيرات - وهي قل من كثيرون ، و قطرة من بحر من أمثالها الكثيرة - نشأت عن تباين مراتب العقول و اختلاف قواها وعدم كونها في مستوى واحد من المعرفة والتقيين بسبب حظها من المادة العلمية غزاره أو نزارة ، فإنها بهذا تعلو العقول الأخرى أو تقف عندها ، أو تهوى دونها ، فلا تتشاكل المرئيات عندها ، بسبب تفاوت أبعادها أو عدم صدق مشاهدتها ، ولذلك لا تتشابه الأحكام عند الآنام . واختلاف الأنوار في التصوير ، ونبأين العقول في التقدير - لا يدلان على حدوث تبديل في الشيء أو تغيير ،

بل على عدم صدق المشاهدة؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير، فالاختلاف في تصويرها أو تقديرها ناشئ من ذات المقدر أي من الإنسان ذاته. ولما كانت قيمة الشيء وصورته هما اللذان يعثثان على الرغبة فيه أو عنده - كان الإنسان مقدراً القيمة هو سبب شقاء نفسه أو سعادتها.

إن لقدراً الأشياء تأثيراً عميقاً الغور بعيد المدى في هذه الحياة، والحاكم لهذا القدر أو عليه هو العقل، فالعقل حكمة التقدير، وعجب جد عجيب أمر الإنسان الذي يخلل شأن هذه الحكمة، ويهمل أمرها ولا يتبعدها بالترميم والتنظيف مع علمه أن في حكمها وتقديرها سعادته الأبدية، أو شقاوته السرمدية. يعني المرء منا كل العناية بأمر فعله، ويهمل كل الاموال شأن عقله، فيفقد الأول كل يوم بالصياغة والتنظيم، ولا يوجه عناته لحظة إلى الثاني، ولا يتبعده بالصلقل والتهديب والتشقيق ولو أنزل عقله منزلة حذائه، أو أعاره جزءاً من اهتمامه به واعتنائه - ما أنَّ العالم مما أوقعه فيه ضحيف العقول من ويلات ونكبات، ولا اهتدى إلى سبيل الخير وتمتع بجميع أنواع السعادات. نعم عجيب أن يعني الإنسان بغذاء الجسد، فيت منتخب ما يصلح ويتجنب ما فاسد، ولا يعني بفحص غذاء عقله، فيقدم له الآراء السقimية بدل القوية، والنظريات الفاسدة بدل الراسخة. وعجب لا يكتنف ذوى الأفكار الطائشة والآراء السخيفة، مع أنهم أعظم ضرراً من الأغذية الرديئة أو المشروبات الفاسدة. !! في يوم توجه عناته الإنسان إلى هذه الناحية يكون ذلك اليوم بدم انقلاب عظيم في الأفكار، ومجاري الأحوال، ودوراً جديداً من أدوار الاصلاح الأدبي والاجتماعي وخطوة واسعة في سبيل السعادة الحقيقة.

إن من يشتاق إلى نيل شيء ويرغب في حصوله عليه ويتوهم أن نيله نهاية السعادة - ينظر إليه بعين الشوق والرغبة، لا بعين الحقيقة « وحبك الشيء يعمى ويسقم » « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » فإذا مان الله بقى الشيء

على حاله ، ولكن قلت الرغبة فيه أوزالت ، فتنتظر إليه العين مجردة من كل مؤثر ، فينكشف له أمره ، ويكتذب خبرَهُ خبرُهُ ، وإذا بالقيمة التي أوجدها الرغبة والشوق وعظمها الظن والوهم - لا وجود لها ، فترجع النفس من السعادة التي كانت تؤملها فيه بخفي حنين . فقيمة الأشياء ليست في ذاتها ، بل في مقدار الرغبة فيها والشوق إليها : فالمال مثلاً يظن الإنسان أن في نيله كل السعادة ، وبعد الإدخار يندحر هذا الظن كل الاندحار ، فتكون له قيمتان : قيمة في نظر المعاود ، وأخرى في نظر المكتنز ، وبما أن حقيقة الأشياء ثابتة فالصواب غير الواقع : فالمال إذا كان قوى التأثير في القلوب إلى حد إيدال الطبائع وتحويل المبادئ وفعل المنكرات وانتهاك الحرمات وقطع المحارم - فإن هذه القوة ليست في المال ولاه ، وإنما في رغبة النفس الضعيفة وشوقها ، وتوهمها أن الخيال حقيقة ، وأن السراب ماء . ولاريب في أن ضعف أحد المتناظرين قوة للآخر ، فيكون أن تتخلص النفس من الرغبة القوية في المال ، لتزول منه تلك الجاذبية العظيمة ، فلا يرى عين الصواب إلا مادة لا كثراً ولا أقل .

فليست قيمة الحياة ولا تحقيق السعادة بأمثال هذه الأشياء التي لا قيمة لها في ذاتها ، وليس لها تأثير صادر في سعادة النفس الحقيقة ، وإنما تكون قيمتها وسعادتها باجتناب الخيال ، والتعلق بأهداب الحقيقة المجردة ، والركون إلى الصواب من حيث هو صواب بقطع النظر عن الرغبة فيه أو عنه .

يشعل الرجل عوداً من الش CAB ليبحث في الظلم عن شيء يبتغيه ، ثم لا يعجبه ضوء عود الث CAB ولا يرضيه ، فيترك الت نقيب عما يريد ، ويسرع في البحث عن مصباح من جديد ، ويستمر كذلك حتى يبيد عود الث CAB أو يكاد يبيد ، فيعود إلى البحث عن شيء الأول ، وقد فقد الث CAB الذي عليه المعول ، ويكون بسوء تصرفه قد أفقى مامعه من نور ضئيل ، دون أن ينال بغيةه ، أو يدرك طلبتها .

هذا هو مثال الانسان : أسباب سعادته متوافرة في ذاته ، وفي متناول يده وبين ما يملك ، لكنه لا يقنع بها ، أولاً يتمنى إليها ، ويبحث عنها في غير مكانها ، ويجد في طلبها من غير نظامها ، فإذا ضل الطريق وهو لابد ضال ، وأضناه البحث وهو لابد ماضى - يرجع إلى نفسه ، ولكن بعد فوات الفرصة : إذ يرى أن شعاع حياته قد نفذت مادته ، فانطفأ أو قرب الانطفاء فتفنى حياته دون أن ينال ماطمئن فيه ، وقصد إليها .

من هذا يتضح أن كل أنواع الشقاء والتعاسة واليأس من خطأ العقل وفساد حكمه . وإذا كان للعوامل الأجنبيّة عن ذات الإنسان تأثير في نفسه فإنه هو الذي يمنحها القوة المؤثرة بالقيمة الوهمية التي يعزّوها إليها . وكل ما يحول في الأفكار أو تقع عليه الأ بصار فهو من أسباب السعادة أو الشقاوة بحسب مقياس العقل ، وقد يخطئ هذا ويطيش منه السهم ، وقد يوفق إلى السداد فيصيب في الحكم . فلو فهم الإنسان ماهية ذاته وما يعوزها ، وما هي السعادة وما يستوجبها لوقف تنقيبه على ما يتفق مع حاجة نفسه ، ويؤدي إلى سعادته ، وفي هذه الحالة تستطيع البصيرة أن ترى الأشياء على صورتها الصحيحة ، ويمكن العقل أن يلتزم الصواب في تقديره ، فتتحدد النفس والعقل ، ولا يتسرّب إليها اختلاف في حكمها على الأشياء ، بل ما يقنع أحدهما يرضي الآخر ، ولا يرى سبباً للسعادة إلا ما كان موصلاً إليها .

إن غالب الأشياء التي تتطلع إليها النفس تحاكي الأصنام في قيمتها الحقيقة والوهمية : فالوثني هو الذي يصنع صنميه بيده من المادة ، ثم يعزو إليه من القوى المختلفة والأمور الخارقة ما ليس له منها أقل نصيب ، ثم يعتقد أن ما صنعته بيده مصدر لقدرة غير محدودة ، ويتعدى ذلك إلى خوفه منه ورهبته إياه ، ثم إلى التقرب إليه بمختلف العبادات . فهذه القيمة الوهمية للصنم عند الوثن قد نسجها وهمه وحاكها خياله ، ولو رجع إلى الحقيقة

لتجلّى له أنّه مجرد من كُل ماعزاه إِلَيْه ، وَأَنَّه لَا حُولَ لَه ولا قُوَّة ، وَلَا قِيمَة لَه غَيْر قِيمَة المادَّة المصنوعَ مِنْهَا .

فَكَذَلِكَ لو جرَدت الأشياء من قيمتها الوهمية التي يُسندُها إِلَيْها الإنسان ، وَانكشَفت قيمتها الحقيقية - لظُهرَ جلياً أَنَّهَا أَقْلَ من الْأَوَّلِ بَكْثِير ، وَلَقُلْت الرغبة فيها ، أو تحولت إلى الرغبة عنها .

الارادة والسعادة

إِنْ مِهمَّةَ العُقْلِ مَقْصُورَةٌ عَلَى التَّقْيِيزِ وَالْفَهْمِ ، فَإِذَا أَدَّاهَا تَمَامُ الْأَدَاءِ مِنْعِ ما يَحْوِلُ دُونَ السُّعَادَةِ فَفَقَطْ . أَمَّا الْعَمَلُ لِنَيلِ السُّعَادَةِ فَهُمْ قُوَّةٌ أُخْرَى مِنْ خُواصِ الذَّاتِ: هَذِهِ الْقُوَّةُ الْأُخْرَى هِيَ الْأَرَادَةُ وَالْأَرَادَةُ قُوَّةٌ ذَاتِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تَلَازِمُ الْحَيَاةَ ، فَإِذَا قَوَيْتَ الْحَيَاةَ ظَهَرَتِ الْأَرَادَةُ وَتَغْلَبَتِ عَلَى الْأَحْوَالِ الْخَارِجِيَّةِ وَالْمُؤْثِرَاتِ الْأَجْنِيَّةِ ، وَإِذَا ضَعَفَتِ الْحَيَاةُ اخْتَفَتِ الْأَرَادَةُ ، وَكَانَتِ الْغَلَبةُ حِينَئِذٍ لِلْأَحْوَالِ وَالْمُؤْثِرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ . إِذَا لَلَّا يَرِدَ شَأْنٌ هَامَ جَدًا فِي سُعَادَةِ الْأَنْسَانِ ، بَلْ أَنَّ السُّعَادَةَ تَتَوَقَّفُ عَلَى مَنْعِ الْأَحْوَالِ السَّيِّئَةِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي النَّفْسِ . حَفِظْتِ الْمَرْءَ مِنَ السُّعَادَةِ عَلَى قَطْ حَظِّهِ مِنْ قُوَّةِ الْأَرَادَةِ . وَعَلَى قَدْرِ مَا يَتَعَهَّدُ بِهِ إِرَادَتُهُ مِنَ الْعَنْيَةِ وَالتَّقْوِيَّةِ يَكُونُ دُنُونُهُ مِنَ الْهُنْمَةِ وَالسُّعَادَةِ وَقَدْ ذَهَبَ جَمْ غَيْرِ مِنْ نَطْسِ الْأَطْبَاءِ إِلَى غَايَةٍ بَعِيدَةٍ فِي تَقْدِيرِهِ قُوَّةِ الْأَرَادَةِ وَفَائِدَتِهَا وَتَأْثِيرَهَا فِي النَّفْسِ وَالْجَسْمِ ، فَخَفَقُوا تَأْثِيرَهَا فِي الْأَبْرَاءِ مِنَ الْمَرْضِ وَفِي حَفْظِ النَّفْسِ مِنَ مَرْضِ السُّودَاءِ وَالْتَّشْنجِ الْعَصْبِيِّ ، وَقَدْ حَقَّقُوا تَأْثِيرَهَا فِي إِبْدَالِ الطَّبَائِعِ . وَلَمْ يَكُنْ الْأَقْدَمُونَ يَجْهَلُونَ هَذِهِ الْقُوَّةَ ، كَمَا كَانُوا لَا يَجْهَلُونَ فَضْلَ استِخْدَامِ الْأَيَّاهِمِ فِي الْأَبْرَاءِ أَيْضًا: قَالَ أَبُو بَكْرُ الرَّازِيُّ: «يَنْبَغِي لِلطَّبِيبِ أَنْ يَوْهِمِ الْمَرِيضَ أَبْدَا الصَّحَّةِ وَيُرْجِيهِ فِيهَا» وَلَكِنَّ الْفَضْلَ فِي شَيْوَعِ استِخْدَامِ الْأَرَادَةِ وَالْأَيَّاهِمِ يَرْجِعُ إِلَى عَصْرِنَا هَذَا: فَإِذَا اعْتَقَدَ مَرِيضٌ قَدْرَةُ طَبِيبٍ شَفِيَ عَلَى يَدِيهِ ، وَإِذَا أَدْخَلَ فِي رُوْعَهِ عَدَمَ نُجَاحٍ

دواء مما أثر الوهم في نفسه تأثيراً يقلل من فائدة الدواء، كما أنه إذا رسمخ في ذهنه فائدة دواء آخر ولو كان ماء أثر في نفسه تأثيراً حسناً يساعد على الشفاء والوهم هو الداعي إلى الخوف وإلى الاطمئنان: فإذا ما أثر في العقل على وجه متأسراً بذلك الأثر إلى المراكز العصبية على ذلك الوجه، وبدت علامات ذلك في الجسم، ومرةً ذلك الوجه: فيُمْتَقِعُ عند الخوف، ويتورد عند السرور، ويحمر عند الخجل، وتتغير معالمه بتغير الأحوال النفسية. وكذلك القلب: تضعف دقاته أو تتضاعف على مقتضى ذلك، وتتسبّب الدورة الدموية، فيحدث التزيف، أو تضعف حركتها أو تقف فتفقد معها حركة القلب. وبالوهم يشعر الإنسان بالألم مع عدم وجوده، أولاً يشعر به مع وجوده. وللارادة هذا التأثير نفسه، فتحول دون تأثير العوامل الخارجية في النفس، أو تبدلها إلى ما يحول الخوف اطمئناناً، والحزن سروراً، والشقاوة هناءً وسعادة.

قد يكون أثر العذاب في الأجسام متمثلاً إذا اتحدت الآلة أو تماثلت الآلات قوة ونوعاً، ولكن الألم من هذا العذاب لا يكون بدرجة واحدة أبداً: فمن الناس من يتأنّى كثيراً لأقل مؤثر، ومنهم من لا يكاد يتأنّى ولو عظم المؤثر: فالعاشق مثلاً يقاتل بين يدي من يعشيقها دفاعاً عنها، ويُشخّن جسمه بالجراح، فلا يحسّها، ولا يتأنّى منها، ولا يتوانى عن موافاة عمله إظهاراً لشجاعته أمام عشيقته. وقد يصاب رجل آخر بمثل جراح ذلك العاشر أو دونها بلوغاً، فيتأنّى منها، ولا يقوى على موافاة الحرب. فالتأثير حادث في الجسمين، ولكن قوة الارادة عند الأول أضعف من تأثيره في المراكز العصبية، ولم يحدث الألم وقت الإصابة. وضعف إرادة الثاني جعل التأثير يصل المراكز العصبية فتهيجت، وأحدثت الألم، فأحسّه وتأنّى منه.

وقد يحكم على رجلين بالإعدام: أحدهما لفسكه برأى أو مبدأ أو عقيدة، والآخر لارتكابه جريمة، فيقدم الأول على الموت بدون أقل ازعاج لقوته

إرادته وإصرارها على التغلب على كل ما يواجهها أو ينادها من المؤثرات ، والثانية قد يموت من الخوف قبل أن تحيطه آلة الاعدام لضعف إرادته وفناها . فإذا كان هذا التأثير القوى ثابتاً للإرادة فلن لا يتوصل بها الإنسان إلى تلطيف آلامه ، أو مضاعفة مسراطه ؟

يتوهم بعض الناس أنه يمكن تحويل المعادن إلى معدن الذهب بوساطة شيء يبحثون عنه ، ولم يكن ليوهى عزائمهم ، أو يوهن قواهم ، أو يقطع آمالهم ، أو ينفيهم عن غاياتهم - ما يصادفهم في سبيل ذلك من تعب وخسارة وعقبات وإخفاق وإضاعة وقت بدون جدوى .

ولا ريب في أن السعادة أئمن من الذهب ، والناس أرحب فيها منه ، فيجب أن يكون اهتمامهم بتحويل كل المؤثرات إلى نيل السعادة أعظم منه بتحويل المعادن إلى الذهب ، وليس ذلك مستحيلاً ما دام ما يتم به التفاعل موجوداً ومدركاً لا يحبوه مثل ما يتم به تفاعل المعادن لتكون ذهبها . وهذا الشيء الذي يتم به تفاعل المؤثرات وتحويتها إلى تحقيق السعادة هو الإرادة .

إن توجيه الإرادة إلى هذه الغاية يجعل الإنسان قادراً على حكم نفسه ، وعلى منع تأثير المؤثرات الخارجية فيها أو تخفيفه ، أو تحويل ذلك التأثير إلى ما ينبغي أن يشعر به المرء من اللذة والسعادة . ولما كانت أهمية الحوادث مقصورة على ما تحدثه من التأثيرات في المراكز العصبية فبتحويلها إلى وفق مشيئة النفس وحاجتها يحصر الإنسان عملها فيما تريده الذات ، ويكون له تمام السلطة على الحياة ، فينال غايتها منها ، وهي السعادة . ولو كان الوصول إلى هذه الغاية على تلك الصورة ميسوراً لـ كل الناس لـ كانت السعادة هيئنة المثال ، ولكنه متعدد بدون قوى العقل والإرادة ، فلا بد من استمرار ما يقوله ما من العلم والتربيـة .

والتربيـة تعنى بهذـيب الأطفال وتربيـة عقوـ لهم وإعدادـها للـ كـتـالـ ، وهـى التي تطبعـ فيها قـيمـ الأـشيـاءـ ، وتحـددـ قـدرـهاـ منـ الـوجـاهـةـ والـحقـارـةـ .

فإذا وجد العلم ، و تكونت الأخلاق الفاضلة بالأدب ، و عرف العقل بالتربيـة ماهـية السـعادة - كانت الـارادة القـوية هي القـوة العـاملـة لـتحـقيق الـهـنـاء وـنـيل السـعادـة .

عناصر السعادة

كان متـوقـعا ، بل كان بـدهـيا أن يـخـتـلـف النـاسـ عـامـة ، وـالـفـلـاسـفـةـ خـاصـةـ فـيـ عـناـصـرـ السـعـادـةـ ، إـذـ أـنـهـمـ ذـهـبـواـ فـيـ شـتـىـ المـذـاـهـبـ ، وـسـلـكـواـ مـخـتـلـفـ السـبـلـ فـيـ تـعـرـفـ مـاهـيـةـ وـالـوـقـوفـ عـلـىـ حـقـيقـتـهاـ كـاـمـاـ أـوضـحـنـاـ ذـلـكـ فـيـ سـبـقـ . فـلـيـسـ عـجـيـباـ أـنـ يـكـوـنـ هـذـاـ حـاـلـمـ فـيـ تـبـيـنـ عـنـاـصـرـهـ ، وـلـيـسـ عـجـيـباـ أـيـضـاـ أـنـ التـبـيـتـ عـلـيـهـمـ اـقـسـامـهـ وـمـرـاتـبـهـ وـأـسـبـابـهـ ، فـذـكـرـوـإـلـحـدـاـهـ فـيـ مـقـامـ الـأـخـرىـ . وـمـاـدـاـمـ الـأـصـلـ قـدـ أـشـكـلـ عـلـيـهـمـ فـالـخـاطـطـ فـيـ فـرـوـعـ أـمـرـ لـاحـيـصـ عـنـهـ ؛ لـأـنـ مـعـرـفـةـ الـفـرعـ مـتـوـقـةـ عـلـىـ إـدـرـاكـ أـصـلـهـ . وـالـفـلـاسـفـةـ فـيـ ذـلـكـ فـرـقـتـانـ :

الأولى — الفيشاغورسية أو الأفلاطونية :

يرى فـيشـاغـورـسـ ، وـبـقـرـاطـ ، وـأـفـلـاطـونـ ، وـأـشـيـاـهـمـ — أـنـ عـناـصـرـ السـعـادـةـ تـنـحـصـرـ كـلـهاـ فـيـ هـذـهـ الـفـضـائـلـ الـأـرـبـاعـةـ : وـهـيـ الـحـكـمـةـ ، وـالـشـجـاعـةـ ، وـالـعـفـةـ ، وـالـعـدـالـةـ . وـأـجـمـعـواـ عـلـىـ أـنـ هـذـهـ الـفـضـائـلـ كـافـيـةـ فـيـ السـعـادـةـ ، وـلـاـ يـحـتـاجـ مـعـهـاـ إـلـىـ غـيـرـهـاـ .

الثانية — الأرسسطوطالية :

يرى أـرـسـطـوـطـالـيـسـ وـمـشـاـيـعـوهـ أـنـ عـناـصـرـ السـعـادـةـ خـمـسـةـ :

الأول — صـحةـ الـبـدـنـ ، وـلـطـفـ الـحـوـاسـ : وـيـكـوـنـ ذـلـكـ مـنـ اـعـتـدـالـ المـزـاجـ يـعـنـيـ أـنـ يـكـوـنـ جـيـدـ السـمـعـ وـالـبـصـرـ وـالـشـمـ وـالـذـوقـ وـالـلـمـسـ .

الثـانيـ — الـثـرـوـةـ وـالـأـعـوـانـ وـأـشـبـاهـمـاـ حـتـىـ يـتـسـعـ لـأـنـ يـضـعـ الـمـالـ فـيـ مـوـضـعـهـ ، وـيـعـمـلـ بـهـ سـائـرـ الـخـيـراتـ ، وـيـوـاسـىـ مـنـهـ أـهـلـ الـخـيـراتـ خـاصـةـ وـالـمـسـتـحـقـيـنـ عـامـةـ ، وـيـعـمـلـ بـهـ كـلـ مـاـيـزـيدـ فـيـ فـضـائـلـهـ ، وـيـسـتـحـقـ الشـاءـ وـالـمـدـحـ عـلـيـهـ

الثالث — أن تحسن أحد وتنه في الناس، وينشر ذكره بين أهل الفضل فيكون مدوحاً بينهم، ويكترون الثناء عليه؛ لما يتصرف فيه من الإحسان والمعروف الرابع — أن يكون منجحاً في الأمور؛ وذلك إذا استم كلّ ما روى فيه وعزم عليه، حتى يصير إلى ما يأمله منه.

الخامس — أن يكون جيد الرأي، صحيح الفكر، سليم الاعتقادات في دينه وغير دينه، بريئاً من الخطأ والزلل، جيد المشورة في الآراء. فمن اجتمعت له هذه العناصر فهو السعيد الكامل على مذهب هذه الفرقـة، ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك

* سبب اختلاف الفرقـتين *

١ - وجهة نظر الفرقـة الأولى :

ترى هذه الفرقـة أن الفضائل والسعادة كلـها في النفس وحدها، ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلـها في النفس التي ذكرناها وهي: (الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة). واتفقاً على أن المتصف بهذه الصفات لا حاجة به في سعادته إلى غيرها من فضائل البدن ولا ما هو خارج عن البدن؛ فإن الإنسان إذا حصل تلك الفضائل لم يضره في سعادته أن يكون سقيماً ناقص الأعضاء مبتليًّا بجميع أمراض البدن، اللهم إلا أن يلحق النفس منها مضره في خاص أفعالها مثل فساد العقل، ورداة الذهن، وما أشبـهـما. وأما الفقر، والخمول، وسقوط الحال وسائر الأشياء الخارجة عنها — فليست عندهم بقادحة في السعادة الـبيـنة.

وتظهر هذه الفرقـة أن السعادة لا تتحقق للإنسان إلا بعد مفارقة النفس للبدن والطبيـعـات كلـها، لأنـها تعتقد كـما قلـنا أن السعادة في النفس وحدها، وسموا الإنسان ذلك الجوهر وحده دون الـبدـن، ولذلك حكـموـا أنها مـادـامت في الـبدـنـ وـمـتـصـلـةـ بـالـطـبـيـعـةـ وـكـدـرـهـاـ وـنـجـاسـاتـ الـبـدـنـ وـضـرـورـاتـهـ وـحـاجـاتـ الـإـنـسـانـ بـهـ وـافـقـارـاتـهـ إـلـىـ الـأـشـيـاءـ الـكـثـيرـةـ فـلـيـسـتـ سـعـيـدةـ عـلـىـ الـاطـلاقـ

وأيضاً لما رأوها لاستكمال الأشياء العقلية لاستثارتها عنها بظلة البدن، أعني صورها ونفاصانها — ظنوا أنها إذا فارقت هذه الكدوره فارقت الجهالات وصفت وخافت، وقبلت الإضاءة والنور الإلهي ، أعني العقل النام . وعلى رأى هؤلاء فالإنسان لا يسعد السعادة التامة إلا في الآخرة بعد موته .

ب — وجهة نظر الفرقـة الثانية :

وتـرى الفرقـة الثانية أن الـبدن جـزء من الإـنسان وليـس آلة . فـلذلك اضطـروا إلى أن يـجعلـوا السـعادـة التي في النـفـس غـير كـاملـة إـذ لم تـقـترـن بـهـا سـعادـة الـبدـن وـماـهـو خـارـج الـبدـن أـيـضاً ، أـعـنى الأـشـيـاء التي تـكـون بـالـبـحـثـ والـجـدـ . وـالـمـحـقـقـون منـ الـفـلـاسـفـة يـحـقـرـون أـمـرـ الـبـحـثـ وـكـلـ ماـ يـكـونـ بـهـ وـمـعـهـ ، وـلـاـ يـؤـهـلـونـ تـلـكـ الأـشـيـاء لـاـسـمـ السـعادـةـ؛ لأنـ السـعادـةـ شـيءـ ثـابـتـ ، غـيرـ زـائـلـ وـلـاـ مـتـغـيرـ ، وـهـيـ أـشـرـفـ الـأـمـورـ وـأـكـرـمـهـ وـأـرـفـعـهـ فـلـاـ يـجـعـلـونـ لـأـحـسـنـ الأـشـيـاءـ فـيـهاـ نـصـيـاـمـيـ كـانـ يـتـغـيـرـ وـلـاـ يـثـبـتـ وـلـاـ يـتـحـصـلـ بـرـوـيـةـ وـلـاـ فـكـرـ ، وـلـاـ يـتـأـنـيـ بـعـقـلـ وـفـضـيلـةـ .

وـهـذـهـ الفـرقـةـ قـدـ نـاقـشتـ الفـرقـةـ الـأـولـىـ رـأـيـهاـ: أنـ الإـنسـانـ لاـ يـسـعدـ السـعادـةـ التـامـةـ إـلاـ فيـ الـآخـرـةـ بـعـدـ مـوـتهـ قـائـلـةـ: إـنـهـ مـنـ الـقـبـيـحـ الشـنـيـعـ أـنـ يـظـنـ أـنـ الإـنسـانـ مـادـاـمـ حـيـاـ يـعـمـلـ الـأـعـمـالـ الصـالـحةـ ، وـيـعـتـقـدـ الـأـرـاءـ الصـحـيـحةـ ، وـيـسـعـيـ فـيـ تـحـصـيـلـ الـفـضـائـلـ كـلـهاـ لـنـفـسـهـ أـوـ لـأـبـنـاءـ جـنـسـهـ ثـانـيـاـ ، وـيـخـلـفـ رـبـ العـزـةـ (ـتـقـدـسـ ذـكـرـهـ)ـ فـيـ خـلـقـهـ بـهـذـهـ الـأـفـعـالـ الـمـرـضـيـةـ . فـهـوـ شـقـيـ نـاقـصـ ، حـتـىـ إـذـامـاتـ وـعـدـمـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ صـارـ سـعـيدـاـتـامـ السـعادـةـ !ـ وـهـذـهـ الفـرقـةـ الثـانـيـةـ التـيـ يـرـأـسـهـ أـرـسـطـوـ طـاـ لـيـسـ تـحدـ الـإـنـسـانـ بـالـنـاطـقـ المـائـتـ ، وـبـالـنـاطـقـ الـمـاشـيـ بـرـجـلـينـ (ـلـاجـوـهـ الرـنـفـسـ دـونـ الـبـدـنـ ، كـمـ ذـهـبـتـ إـلـيـهـ الـفـرقـةـ الـأـولـىـ)ـ وـلـذـلـكـ رـأـتـ أـنـ السـعادـةـ الـإـنـسـانـيـةـ تـحـصـلـ لـلـإـنـسـانـ فـيـ الدـنـيـاـ إـذـاـ سـعـيـ لـهـ ، وـتـعـبـ بـهـ ، حـتـىـ يـصـيرـ إـلـىـ أـقـصـاهـاـ

رأي تولستوي في تقسيم السعادة

يرى هذا الفيلسوف العظيم أن السعادة نوعان : وهما ، وحقيقة . ويريد بالوهمة سعادة الفرد ، وبالحقيقة سعادة الجماعة ، ويعتقد أن السعادة الحقيقية هي الحرية بالطلب ، الجديرة بالسعى الممكنته النيل . وأما السعادة الفردية المستقلة فهي غاية لاتدرك وحدها ، لأن الحصول عليها موقوف على سعادة الجماعة ، فيمكن نيلها باعتبارها وسيلة لسعادة الجماعة لا غاية ، إذ نيلها مستقلة لا يتأتى إلا بضرر الجماعة ، والجماعة تأتي ذلك كل الآباء . فالساعي في إدراك سعادة فردية لا يحيص لأثرته عن مناهضة الجماعة ومنافستها منافسة غير مشروعة ، فيدعو ذلك إلى التنازع والتدافع ويشتند الحجاج واللجاج ، ويقوى الخصم والشقاوة ، حتى تقوم بينهما الحرب على قدم وساق ، فيهوى المرء في حضيض الشقاوة من حيث كان يرمي أن يصل إلى ذروة السعادة فالراغب في الحياة الحقيقة الدائمة لابد أن يخضع نفسه وآماله لناموس العقل السليم والوجدان الحساس والدين القويم : فهذه كلها - يؤيدتها التاريخ ، ومشاهد حياة الناس ، والاختبار — تدعوا إلى التعاون على الخير ، وتحث على الاتحاد والمودة ، وتظهر جليا لكل إنسان تعذر الوصول إلى سعادة فردية مستقلة ، وتبين له أن إرغام الكائنات الحية الأخرى على حبه فقط ، وعلى كراهة أنفسها أمر من دونه شيب الغراب .

ومع كل ذلك فالإنسان لا يدخل جهدا ، ولا يتواتي عن السعي وراء هذه السعادة المohoمة ؛ مع أنه يدرك أنه يعالج المستحيل : حقا لقد مرت الأجيال ، وكرت القرون ، وقد عرف الناس أبعاد النجوم ، وقرروا أوزانها ، ووقفوا على حقيقة مادة الشمس والسيارات ، ولم يعرفوا كيف يوفقون بين مطالب السعادة الشخصية وحياة العالم التي تجزم بعدم إمكان هذه السعادة . إن هذه المسألة في نظر الجمهور غير قابلة للحل كما كانت من مضى خمسة آلاف سنة

يقول الوجدان الحساس للانسان بعد يأسه من نيل سعادته ، ومساءلة نفسه في فائدة عمله لها أو عدم فائدته :

في إمكانك نيل هذه السعادة إن عاش جميع الناس لك ، وأحبوك أكثر من أنفسهم . والحصول على هذه الامنية في حيز الامكان إلا أنه يتوقف على شرط واحد : وهو أن كل تلكائن يعيش بعضها لخير الآخر ويحبه أكثر من نفسه فيصبح الجميع متحابين سعداء : فيمكنك الحصول على السعادة متى أحبك الآخرون أكثر من أنفسهم ، وأحببهم أكثر من نفسك .

هذه مناجاة الضمير الحى ، وذلك جوابه ، وقد أوضحه الدين الاسلامى أحسن الايضاح ، وعبر عنه القرآن الكريم ، والحديث الشريف أبلغ التعبير : قال تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ، وَلَا تَنْفِرُوا ، وَإِذْ كُرُوا نِعْمَةً اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

وقال : (وَتَعَاوَذُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَذُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُوانِ)

وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن لمؤمن من كالبدنيان يشد بعضه ببعض »

وقال : « لا يؤمِّنُ أحدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِآخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »

وقد شبه النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم المؤمنين في تعاؤنهم وتراحمهم وتواصلهم بأعضاء الجسم الواحد ، إذا اشتكتى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحي والسرير . والآيات القرآنية ، والآحاديث النبوية المحمدية في هذا الباب أكثر من أن تحصر وسيأتي الكثير منها في موضعه إن شاء الله تعالى . وإنما أمعنا إلى بعضها هنا لنشير إلى أن النقطة التي ينور حولها الفيلسوف العظيم « تولستوى » قد جلاها الاسلام ، وأوضح غامضها في بعض كلمات . حقا إن الدين الاسلام قد حل أعقد مشاكل العالم الحالية

وأعوص مسائل الحياة الحاضرة في كلمتين : قضى على التطاحن والتنابذ والتقاطع والتدابر ، والتنازع والتدافع وما إلى ذلك مما هو واقع بين جميع دول الأرض بقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وحل مشكلة الشيوعية والفووضية ، والتعطل . بقوله جل شأنه : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تَظَاهِرُهُمْ وَلَا كُفُورُهُمْ بِهَا)

يقول « تو لستوى » : على هذا الشرط والمحبة والتعاون يمكن الإنسان أن ينال الحياة والسعادة ، وعلى عين هذا الشرط يمكن استعمال كل سموات الحياة التي منها تقاتل الكائنات ، وألم الأوجاع ، وخوف الموت .

(رأى الفلسفه الاسلاميين في عناصر السعادة)

« ابن مسکويه ، الراغب الأصفهاني ، الغزالى »

١ - « رأى ابن مسکويه » :

يعتقد العلامة ابن مسکويه أن الإنسان مركب من الروح والجسم ، فله بذلك فضيلتان : فضيلة روحانية يلام بها الأرواح الطيبة أى الملائكة ، وفضيلة جسمانية يوافق بها الأنعام .

فهو بالخير الجسmany مقيد في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ، ليعمره وينظممه ويرتبه ، حتى إذا ظفر بكل هذه المرتبة انتقل إلى العالم العلوى ، وأقام فيه سرماً في صحبة الأرواح الطيبة والمراد بالسفلي كل محسوس ، وإن كان في المكان الأعلى ، كما أن المقصود من العلوى كل معقول ، وإن كان في المكان الأسفل . والأرواح الطيبة المستغنية عن الأبدان لا يحتاج في صحتها إلى شيء من السعادات البدنية ، بل تحتاج في ذلك إلى سعادة النفس فقط ، يعني المعقولات الأبدية التي هي الحكمة . فإذاً مادام الإنسان إنساناً أي مركباً من الروح والبدن فلا تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين جميعاً ، ولا يحصلان على التمام إلا بالأشياء النافعة في الوصول إلى الحكمة الأبدية :

فالسعيد إما في مستوى الجسانيات متعلقاً بأحوالها السفلية ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة ، باحثاعنها ، مشتاقاً إليها ، مغتنطاً بها . وإما أن يكون في مستوى الروحانيات متعلقاً بأحوالها العليا ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية ، معتبراً بها ، ناظراً في علامات القدرة الإلهية ودلائل الحكمة البالغة ، مقتدياً بها ، ناظراً لها ، مفيضاً للخيرات عليها ، سابقاً لها نحو الأفضل فالأفضل بحسب قبولها وعلى قدر استطاعتها .

والأول ناقص بمقصر عن الآخر ، معرض للألام دونه . وأى امرى لم يوجد في أحد هذين المستويين فهو في مستوى الأنعام ، بل هو أضل ؛ لأنها غير معرضة لهذه الخيرات ، ولم توهب مقدرة تتحرك بها نحو هذه المنازل العالية . وإنما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها ، والانسان معرض لها ، ووهب القدرة على الرق في مدارجها ، وهو مع ذلك غير محصل لها . ولا ساع نحوها ، بل مؤثر لضدتها ، يستعمل قواه الشريفة في الأمور البدنية . وأما الأنعام فتحصل له كمالاتها التي تخصها : فإذا منعت الخيرات الإنسانية ، وحرمت جوار الأرواح الطيبة ، ودخول الجنة التي وعد المتقون - فلها العذر ، والانسان غير معذور : ففشل الأنعام مثل الأنعام إذا جار عن الطريق فتردى في بئر ، فهو مرحوم غير ملوم ، ومثل الانسان مثل بصير يحور على بصيرة ، حتى يتربى في البئر فهو ممقوت ملوم .

ب — رأى الراغب الأصفهاني :

قال بعض الحكماء : جعل الله لكل شيء كالا ينساق إليه طبعاً ، وقد هداه إلى التخصيص به تسخيراً ، كما نبه عليه بقوله تعالى : (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وللإنسان سعادات أتيحت له ، وهي النعم المذكورة في قوله تعالى : (وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَنْخُصُوهَا) وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان : ضرب دائم لا ينيد ولا يحول ، وهو النعم الأخروية . وضرب يزيد ويحول وهو النعم الدنيوية . والنعم الدنيوية متى لم توصلنا إلى تلك السعادات

فهي كسراب بقعة ، وغرور ، وفتنة ، وعذاب : قال تعالى : (إِنَّمَا مَشَّلُ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ فَبَاتُ الْأَرْضُ ، مِمَّا يُأْكُلُ
النَّاسُ وَالآنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْيَنَتْ وَظَانَ أَهْلُهَا أَهْمَمُهُمْ
قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لِيَلَا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَمَّا لَمْ تَقْنَ
بِالْأَمْسِ)

وما أصدق قول الشاعر :

إنما الدنيا كرؤيا أفرحت * من رآها ساعة ثم انقضت
وما أحد إلا وهو فائز إلى سعادة يطلبها بجهد ، ولكن كثيراً ما يخطيء ،
فيظن ما ليس بسعادة في ذاته أنه سعادة فيعتبرها ، فيكون كالموصوف بقوله تعالى :
(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْهَلُهُمْ كَسْرَابَ بَقِيعَةَ ، يَحْسَبُهُمْ الظَّمَانَ مَاءَ حَقَّ إِذَا جَاءَهُ
لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) و بقوله تعالى : (أَعْهَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرُّوحُ فِي يَوْمٍ
عَاصِفٍ ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) وقال الشاعر :

كل يحاول حيلة يرجو بها * دفع المضررة واحتلال المنفعة

والمرء يغلط في تصرف حاله * فلربما اختار العناء على الدعة

السعادة الدنيوية :

النعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متى تنوالت على ما يجب وكما يجب
ويجري بها على الوجه الذي لأجله خلقت ، وذلك أن الله جعل الدنيا عارية
ليستأول منها قدراً ما يتوصى به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقيقة ، وشرع
لناس في كل منها حكماً بين فيه كيف يجب تناولها والتصرف فيها ، لكن صار
الناس في تناولها فريقين :

فريق يتناولونها على الوجه الذي جعله الله لهم ، فانتفعوا به ، فصار ذلك
لهم نعمة وسعادة ، وهم الموصوفون بقوله تعالى : (الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّا هُمْ

فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَاتَّوَالِزَّكَاةَ وَأَمْرَ وَبِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) وقوله عز وجل : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَيَعْمَلُ دَارُ الْمُتَقِّنِ) وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوهُ لَنُبَوِّئُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) فَهُؤُلَاءِ حَيُوا بِهَا حَيَاةً طَيِّبَةً كَافَا، تعالى : (فَلَمْ يُحِيطْنَاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

وفريق يتناولونها على غير الوجه الذي جعله الله لهم ، فركعوا إليها ، فصار ذلك لهم نعمة وشقاوة ، فتعذبوا بها عاجلاً وآجلاً ، وهم الموصوفون بقوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزَهَّقُ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

السعادة الأخرى :

والسعادات الأخرى ليس لنا تصور كنهها مادمنا في دار الدنيا ولذلك قال تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى فِي لَهُمْ مِنْ قُرْبَةٍ أَعْيُنٍ) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى : «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنُ رأتْ وَلَا أَذْنُ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» والسبب في قصورنا عن تصوّرها شيئاً :

أحدهما - أن الإنسان لا يمكن أن يعرف حقيقة الشيء ويتصوره حتى يدركه بنفسه . وإذا لم يدركه ووصف له بجزيئي أو كمه توصف له المرأة . هكذا حالنا في اللذة الأخرى : فإننا لا نتصورها على الحقيقة إلا إذا طالعناها ، فإذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل مادونها ، كما قال تعالى : (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَأَكِهُونَ)

وثانيهما - أن لكل قوة من قوى النفس وجزء من أجزاء البدن لذة تختص

بها لا يشار إليها غيرها : فلندة العين في النظر إلى ما تستحسن ، ولندة السمع في الاستماع إلى ما يستطيه ، ولندة اللمس في لمس ما يستلذ ، ولندة الوهم في تصور ما يؤمله ، ولندة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره ، ولندة الفكر في أمر معجول عنده يتعرفه . وكل واحدة من هذه القوى والاجزاء إذا عرض لها آفة تعوقها عن شهوتها وعن إدراك لذتها تكون كالمريض الذي لا يشتهي الماء وكان به ظماً ، وإذا تناوله لم يجد له لندة كما قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلا

وإذا كان كذلك فاللذات الأخرى هي لذات لا تدرك إلا بالعقل الحاضر ، وعقول أكثر من في هذه الدار مولهة موعقة عن إدراك حقائق اللذات الأخرى ، فلا تشعر بها ، كالمريض الذي لا يحس بالجوع ، وإن كان جوعه يؤذيه ، ولا يشتهي الطعام ، وإن كان فقد الطعام يضنه ، بل إنما يحس بالجوع إذا زال السبب المؤلم . وأيضاً فعقول أكثرنا ناقصة وجارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا أبلغ رجال قد عرفوا حقائق الأشياء : فـ كأن الصبيان ماداموا صغاراً لا يحسون باللذات والآلام التي تعرض للرجال ، فيتعلمون بالأباطيل والأضاليل . كذلك من كان في عقله صبياً لم يطلع على الحقائق . وبالاعتبار بهم قال تعالى : (وَمَا هُنْدِهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُ وَوَأَبِيبٌ) وَقَالَ تَعَالَى : (فَلَا تَغُرُّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يُغُرُّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

ولما أراد الله تعالى أن يقرب معرفة تلك اللذات من أفهم الكافة شبهها ومثلها بأنواع ماتدركتها حواسهم فقال تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ : فِيهَا أَهْمَارٌ مِّنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَهْمَارٌ مِّنْ أَبْرَى لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَهْمَارٌ مِّنْ حَمِيرٍ لَذَّةٌ لِشَارِبِينَ ، وَأَهْمَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفَّى ،) ليبين لكافة طبيعتها بما عرفوه من طيب الطعام ، وقال تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) ولم يقل :

الجنة ، لينية الخاصة على أن ذلك تصوير وتمثيل . فالإنسان مهما اجتهد في أن يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له إليها إلا على أحد وجهين : أحدهما — أن يفارق هذا الهيكل ، ويختلف وراءه هذا المنزل ، فيطلع على ذلك ، كما قال الله تعالى : (يَوْمَ يُأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ فَنْسًا إِيمَانَهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ الْأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

والثاني — أن يزيل قبل مفارقة الهيكل الأمراض النفسانية المشار إليها بقوله تعالى : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) ، وأرجاسها المشار إليها بقوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُنذِّهَ عَنْكُمُ الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا)

فيطلع من وراء ستار رقيق على بعض ما أعدله ، كما حكى عن حارثة حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « عزفت نفسى عن الدنيا ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وأطلع على أهل الجنة يتذوارون ، وعلى أهل النار يتعاون » فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « عزفت فاللزم » وقال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : « لو كشف الغطاء ما ازدلت يقينا »

رأى حجة الاسلام الغزالى :

نعم الله سبحانه — وإن كانت لاتحصى — مفصلة جملتها منحصرة في خمسة أنواع :

النوع الأول — السعادة الأخرى التي هيبقاء لا فداء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر معه يخالطه ، ولن يتوصل إليه إلا بالله ، ولا يمكن إلا بالنوع الثاني .

النوع الثاني — وهو الفضائل النفسية التي حصرنا جملتها من قبل في أربعة أمور : العقل وكاله العلم ، والعفة وكالها الورع ، والشجاعة وكالها المجاهدة ،

والعدالة وكالماء الانصاف . وهي على التحقيق أصول الدين . وإنما تكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث .

النوع الثالث — وهو الفضائل البدنية المنحصرة في أربعة أمور : في الصحة ، والقوه ، والجمال ، وطول العمر . ويتممه النوع الرابع .

النوع الرابع — وهو الفضائل المطيفه بالانسان المنحصرة في أربعة أمور : وهي المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة . ولا يتم الافتتاح بشيء من ذلك إلا بالنوع الخامس .

النوع الخامس — وهو الفضائل التوفيقية وهي أربعة : هداية الله ، ورشده وتسديده ، وتأييده .

فهذه السعادات بعد السعادات الأخرى ستة عشر ضربا ، ولا مدخل للاجتهد في اكتساب شيء منها إلا الفضائل النفسية على الوجه الذي سبق . فقد عرفت أن هذه الخيرات خمسة : وهي الأخرى ، والنفسية ، والبدنية والخارجية ، والتوفيقية . والبعض منها يحتاج إلى البعض : إما حاجة ضرورية كالفضائل التي لا مطعم في الوصول إلى نعيم الآخرة إلا بها ، وصحة البدن الذي لا وصول إلى تحصيل الفضائل النفسية إلا به . وإما حاجة نافعة : كحاجة هذه الفضائل الخارجية ؛ فان المال والأهل والعشيرة إن عدمت تطرق الحال إلى أسباب هذه الفضائل .

وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجية

فإن قلت : فما وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجية من المال ، والأهل ، والعز وكرم العشيرة ؟

فأعلم أن هذه الأمور جارية بجرى الجناح المبلغ ، والآلة المفضية إلى المقصود :

أما المال - فالفقير في طلب المال كسباً إلى الهيجاء بغير سلاح ، وكماز متصيد بلا جناح . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِرَجُلِ الصَّالِحِ» وقال : «نِعَمَ الْعَوْنَى عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْمَالُ» كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت واللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، فلا يتفرغ لاقتناء العلم الذي هو أشرف الفضائل ، ثم يحرم فضيلة الحج والصدقة والزكاة وإفاضة الحirيات .

وأما الأهل والولد الصالح - فالحاجة إليهما ظاهرة : أما المرأة الصالحة

فرث الرجل وحصين دينه : قال عليه الصلاة والسلام : «نِعَمَ الْعَوْنَى عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ» وقال في الولد : «إِذَا ماتَ الرَّجُلُ افْتَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةِ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ومهما كثر أهل الرجل وأقاربه وساعدوه كانوا له بمنزلة الآذان والأعين والأيدي ، فيتيسر له بسيبهم من الأمور الدنيوية ما يطول فيه شغله لو انفرد . وكلما تخففت الأشغال الضرورية في الدنيا تفرغ القلب للعبادة والعلم ، فهما معينان على الدين .

واما العز - فبه يدفع الإنسان عن نفسه الضيم ، ولا يستغنى عنه ؛ فانه لا ينفك عن عدو يؤديه وظلم يقصده ، فيشوش عليه وقته ، ويشغل قلبه . ولذلك قيل : «الدين والسلطان توأمان» وقيل : «الدين أَسْ، والسلطان حارس، وما لأس له فهو دم، وما لحارس له فضائع» . ولذلك قال تعالى : (ولَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) : وبالجملة دفع الأذى لابد منه للفراغ للعبادة . ولا يتم ذلك إلا بنوع من العز . وكأن الموصى إلى الخير خير - فدفع الضرار عن الخير خير أيضا .

واما كرم العشيرة وشرف الآباء - فقد يستهان به ، ويقال : المرأة بنفسه

والناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرىء ما يحسنه . ولعمرى إذا قوبـلـ شرف الأصل دون شرف النفس - بشرف النفس دون شرف الأصل - استحقـرـ شرف الأصل . أما إذا انضم إـلـيـهـ لمـتـنكـرـ فضيلـتـهـ (فـابـنـ السـرـىـ إـذـاـ سـرـىـ أـسـرـاهـماـ) وـقـدـ شـرـطـ النـسـبـ فيـ الـإـمـامـةـ ، وـقـيلـ : الـأـمـةـ منـ قـرـيـشـ .
 كـيـفـ لـاـ وـالـأـخـلـاقـ تـتـبعـ الـأـمـزـجـةـ ، وـتـسـرـىـ مـنـ الـأـصـوـلـ إـلـىـ الـفـرـوـعـ ؟
 ولـذـلـكـ قـالـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ : « تـخـيـرـُوا لـنـطـفـكـمـ » ، وـقـالـ (إـيـاـكـمـ وـخـضـرـاءـ
 الدـمـنـ وـهـيـ الـمـرـأـةـ الـحـسـنـاءـ فـيـ الـمـنـبـتـ السـوـءـ »
 فـهـذـاـ أـيـضـاـ مـنـ السـعـادـاتـ ، وـلـاـ نـعـنـىـ بـهـ الـإـنـتـسـابـ إـلـىـ بـنـيـ الـدـنـيـاـ وـرـءـوـسـهـاـ
 وـأـمـرـاهـماـ ، وـلـكـنـ الـإـنـتـسـابـ إـلـىـ التـفـوـسـ الـزـكـيـةـ الـطـاهـرـةـ الـمـزـيـنـةـ بـالـعـلـمـ ،
 وـالـعـبـادـةـ ، وـالـعـقـلـ .

وجه الحاجة إلى الفضائل الجسمية

فـانـ قـلـتـ : فـمـاـ غـنـاءـهـذـهـ الـفـضـائـلـ الـجـسـمـيـةـ ؟ فـنـقـولـ : أـمـاـ الـحـاجـةـ إـلـىـ الـصـحـةـ
 وـالـقـوـةـ ، وـطـوـلـ الـعـمـرـ — فـلـاـ شـكـ فـيـهـ . وـإـنـمـاـ يـسـتـحـقـرـ أـمـرـ الـجـمـالـ ، فـيـقـالـ
 يـكـفـيـ أـنـ يـكـوـنـ الـبـدـنـ سـلـيـاـ مـنـ الـأـمـرـاـضـ الشـاعـلـةـ عـنـ تـحـرـىـ الـفـضـائـلـ . وـلـعمـرىـ
 إـنـ الـجـمـالـ لـقـلـيلـ الـغـنـاءـ ، وـلـكـنـهـ مـنـ السـعـادـاتـ وـالـخـيـرـاتـ عـلـىـ اـجـمـلـةـ : أـمـاـ فـ
 الـدـنـيـاـ فـلاـ يـخـفـيـ وـجـهـهـ ، وـأـمـاـ فـيـ الـآـخـرـةـ فـنـ وـجـهـيـنـ :
 أـحـدـهـاـ — أـنـ الـقـبـحـ مـذـمـومـ ، وـالـطـبـاعـ مـنـهـ نـافـرـةـ ، وـحـاجـاتـ الـجـمـيلـ إـلـىـ
 إـلـىـ الـإـجـابـةـ أـقـرـبـ . فـكـاـنـهـ جـنـاحـ مـبـلـغـ مـثـالـ الـمـالـ . وـالـمـعـينـ عـلـىـ قـضـاءـ حـاجـاتـ
 الـدـنـيـاـ مـعـيـنـ عـلـىـ الـآـخـرـةـ ؛ إـذـ الـوصـولـ إـلـىـ الـآـخـرـةـ بـهـذـهـ الـأـسـبـابـ الـدـنـيـوـيـةـ .
 وـالـثـانـيـ — أـنـ الـجـمـالـ فـيـ الـأـكـثـرـ يـدـلـ عـلـىـ فـضـيـلـةـ الـنـفـسـ ؛ لـأـنـ نـورـ الـنـفـسـ
 إـذـ تـمـ إـشـراـقـهـ تـأـدـيـ إـلـىـ الـبـدـنـ ، وـاـنـظـرـ وـالـخـبـرـ كـشـيـرـاـ مـاـ يـتـلـازـمـانـ . وـلـذـلـكـ
 عـوـلـ أـصـحـابـ الـفـرـاسـةـ عـلـىـ هـيـئـاتـ الـبـدـنـ ، وـاـسـتـدـلـوـاـ بـهـاـ عـلـىـ الـأـخـلـاقـ الـبـاطـنـةـ،
 وـالـعـيـنـ وـالـوـجـهـ كـالـمـرـأـةـ لـلـبـاطـنـ ، وـلـذـلـكـ يـظـهـرـ فـيـهـماـ أـثـرـ الـغـضـبـ وـالـشـرـ . وـقـيلـ

(طلقة الوجه عنوان مافي النفس) ، (ومافي الأرض قبيح إلا ووجهه أقبح) واستعرض المأمون جيشاً، فعرض عليه رجل قبيح، فادثنافاًذا هو ألكن ، فأسقط اسمه ، وقال : (الروح إن أشرقت على الظاهر فقصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن) وقد قال عليه السلام : « أَطْلُبُوا الْحَاجَةَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ » وقال : (إِذَا بَعْثَمْ رَسُولًا فَاطْلُبُوا حُسْنَ الْوُجُوهِ، وَحُسْنَ الْأَسْمَاءِ » وقال الفقهاء : (إذا تساوت درجات المصلين فأحسنتهم وجهها أو لاهم بالامامة) وقال تعالى ممتنا به : (وزاده بسطة في العلم والجسم) وإنما نعني بالجمال ارتفاع القامة مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الأعضاء وتناسف خلقة الوجه ، بحيث لا تنبو الطبع عن النظر إليها

« معنى الفضائل التوفيقية ووجه الحاجة إليها »

فإن قلت : فما معنى الفضائل التوفيقية التي هي : المداية ، والرشد ، والتسييد ..
والتأييد فاعلم أن :

التفريق : هو الذي لا يستغني عنه الإنسان في كل حال . ومعناه موافقة إرادة الإنسان و فعله قضاء الله تعالى وقدره ، وهو صالح للاستعمال في الخير والشر ، ولكن صار متعارفاً في الخير والسعادة . ووجه الحاجة إلى التوفيق بين ، ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فـأكثـر ما يجـني عـلـيـه اـجـتهـادـه
وأما المـداـيةـ : فلا سـبيلـ لأـحدـ إـلـى طـلبـ الفـضـائـلـ إـلـاـ بـهـاـ . فـهـىـ مـبـدـأـ
الـخـيـرـاتـ كـماـ قالـ تعـالـىـ : (أـعـطـىـ كـلـ شـيـءـ خـلـقـهـ نـمـ هـدـىـ)ـ وـقـالـ تعـالـىـ : (وـأـوـلـاـ
فـضـلـ اللـهـ عـلـيـهـ كـمـ وـرـحـمـةـ مـازـ كـيـ مـنـسـكـمـ مـنـ أـحـدـ أـبـدـاـ وـلـكـنـ اللـهـ يـزـكـىـ
مـنـ يـشـاءـ)ـ وـقـالـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ : (مـاـمـنـ أـحـدـ يـدـخـلـ الجـنـةـ إـلـاـ بـرـحـمةـ

الله أَى بِهِ دِيَتِهِ، قُيلَ: «وَلَا أَنْتَ يَارَسُولُ اللهِ؟» قَالَ: «وَلَا أَنَا». وَالْمَدِيَّةُ ثَلَاثٌ مَنَازِلٌ:

الأولى — تعرِيف طرِيق الْخَيْرِ وَالشَّرِّ المُشَار إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (وَهَدَّنَا نَاهَ النَّجْدَيْنِ) وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ: بِعِصْمِهِ بِالْعُقْلِ، وَبِعِصْمِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرَّسُولِ. وَلَذِكَّ قَالَ تَعَالَى: (وَأَمَّا مُؤْمِنُ فَهَدَنَا هُمْ فَاسْتَجَبْنَا عَلَى هُدَيْنَا)

الثانية — مَا يَمْدُبُهُ الْعَبْدُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ بِحَسْبِ تَرْقِيهِ فِي الْعِلُومِ، وَزِيَادَتِهِ فِي صَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَلِيَاهُ عَنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

الثالثة — النُّورُ الَّذِي يُشَرِّقُ فِي عَالَمِ الْوَلَايَةِ وَالنَّبُوَّةِ، فَيَهْتَدِي بِهِ إِلَى مَا لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِيَضْاعَةِ الْعُقْلِ الَّذِي بِهِ يَحْصُلُ التَّكْلِيفُ وَإِمْكَانُ التَّعْلُمِ. وَإِيَاهُ عَنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) فَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَسَمَاهُ الْهُدَى الْمُطْلَقُ، وَهُوَ الْمُسْمَى حَيَاةً فِي قَوْلِهِ: (أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَنَاهُ وَجَعَلَنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدَرَهُ إِلَيْسَلَامٍ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

وَأَمَّا الرَّشْدُ — فَنَعْنِي بِهِ الْعِنَاءُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي تَعِينُ الْإِنْسَانَ عَلَى تَوْجِهِ إِلَى مَقَاصِدِهِ، فَتَقْوِيهِ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحَهُ وَتَفْتَرِهِ عَمَّا فِيهِ فَسَادُهُ. وَيَكُونُ ذَلِكُ مِنَ الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا

بِهِ عَالِيَّنَ»

وَأَمَّا التَّسْدِيدُ — فَهُوَ أَنْ يَقُومُ بِإِرَادَتِهِ وَحْرَكَاتِهِ نَحْوَ الغَرْضِ الْمُطَلُوبِ لِيَهْجُمَ عَلَيْهِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ: فَالرَّشْدُ تَبَيِّنَهُ بِالتَّعْرِيفِ، وَالْتَّسْدِيدُ إِعْانَةُ وَنَصْرَةُ بِالْتَّحْرِيكِ.

وأما التأييد : فهو تقوية أمره بال بصيرة من داخل ، وبالبطش من خارج وهو المراد بقوله تعالى : (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُّسِ) ويقرب منه العصمة : وهي فيض إلهي يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كائناً من باطنـه غير محسوس ، وإياه عنـي بقولـه : (ولَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا أَوْلَأَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ولن تستتب هذه الأمور إلا بما يمد الله به عبده من الفهم الشاقـب الصافـي ، والسمع المصنـغـي الـواعـي ، والقلب البصـير المـراعـي ، والمعلم الناصـح ، والمـال الزـائد على مقتضـي المـهمـات لـقلـة القـاـصـر ، لـما يـشـغلـ عنـ الدـين لـكـثـرـتـه ، وـالـعـشـيرـة ، وـالـعـزـ الذـى يـصـونـ عنـ سـفـهـ السـفـاهـ ، وـيرـفعـ ظـلـمـ الأـعـداءـ . فـبـهـذـهـ الأـسـبـابـ تـكـملـ السـعـادـاتـ .

رتب السعادة

رأى أرسطوطاليس

أول رتب الفضائل تسمى سعادة : وهي أن يصرف الإنسان إرادته ومحاولاته إلى مصالحـهـ فيـ العـالـمـ الـحـسـنـ والأـمـورـ الـمـحـسـنةـ منـ أـمـورـ النـفـسـ والـبـدـنـ ، وـماـكـانـ منـ الأـحـوالـ مـتـصلـاـ بـهـماـ وـمـشـارـكـاـ لـهـمـاـ مـنـ الأـمـورـ الـنـفـسـانـيـةـ . وـيـكـونـ تـصـرـفـهـ فـيـ الأـحـوالـ الـمـحـسـنـةـ تـصـرـفـاـ لـاـ يـخـرـجـهـ عـنـ الـاعـتـدـالـ الـمـلـائـمـ لـأـحـوالـهـ الـحـسـيـةـ . وـهـذـهـ حـالـ قـدـ يـتـلـبـسـ فـيـهاـ الـإـنـسـانـ بـالـأـهـوـاءـ وـالـشـهـوـاتـ ، إـلـاـ أـنـ ذـلـكـ بـقـدـرـ مـعـتـدـلـ غـيـرـ مـفـرـطـ ، وـهـوـ إـلـىـ ماـيـنـبغـيـ أـقـرـبـ مـنـهـ إـلـىـ غـيـرـهـ : وـذـلـكـ أـنـ يـجـرـىـ أـمـرـهـ نـحـوـ صـوـبـ التـدـبـيرـ الـمـوـسـطـ فـيـ كـلـ فـضـيـلـةـ ، وـلـاـ يـخـرـجـهـ عـنـ تـقـدـيرـ الـفـكـرـ ، وـإـنـ لـاـ بـسـ الـأـمـورـ الـمـحـسـنـةـ وـتـصـرـفـ فـيـهاـ .

ثـمـ الـرـتـبةـ الثـانـيـةـ : وهي التي يصرفـ الـإـنـسـانـ فـيـهاـ إـرـادـتـهـ وـمـحاـولـاتـهـ إـلـىـ

الأـمـرـ الـأـفـضـلـ مـنـ صـلـاحـ النـفـسـ وـالـبـدـنـ مـنـ غـيـرـ أـنـ يـتـلـبـسـ مـعـ ذـلـكـ بـشـئـ منـ الـأـهـوـاءـ وـالـشـهـوـاتـ ، وـلـاـ يـكـثـرـ بـشـئـ مـنـ الـنـفـسـيـاتـ الـمـحـسـنـةـ إـلـاـ بـمـاـ تـدـعـوـهـ إـلـيـهـ الـضـرـورةـ .

ثم تزايـد رتبـة الـإنسـان فـي هـذا الضـرب مـن الفـضـيلـة : وـذلـك أـن الـأـماـكـن والـرـتب فـي هـذا الضـرب مـن الفـضـائـل كـثـيرـة بـعـضـها فـوق بـعـضـ . وـسـيـهـ اختـلاف طـبـائـع النـاسـ ، وـعـادـتـهمـ ، وـمـنـازـلـهمـ ، وـمـوـاضـعـهمـ : مـن الفـضـيلـ والـعـلـمـ وـالـعـرـفـ وـالـفـهـمـ . وـبـحـسـبـ هـمـمـهـمـ ، وـشـوـقـهـمـ ، وـمـعـانـاتـهـمـ ، وـجـدـهـمـ .
الـرـتبـةـ الـأـخـيـرـةـ : ثـمـ تـكـوـنـ النـقلـةـ فـي آـخـرـ الرـتبـةـ الثـانـيـةـ إـلـىـ الفـضـيلـةـ الـأـلهـيـةـ

الـحـضـةـ : وـهـىـ الـتـىـ لـاـ يـكـوـنـ فـيـهـ تـشـوـفـ إـلـىـ آـتـ ، وـلـاـ تـلـفـتـ إـلـىـ مـاـضـ ، وـلـاـ تـشـيـعـ لـحـالـ وـلـاـ تـطـلـعـ إـلـىـ نـاءـ ، وـلـاـ ضـنـ بـقـرـيبـ ، وـلـاـ خـوفـ وـلـاـ فـزعـ مـنـ أـمـرـ ، وـلـاـ شـغـفـ بـحـالـ ، وـلـاـ طـلـبـ لـحـظـ مـنـ الـحـظـوـظـ الـأـنـسـانـيـةـ وـلـاـ مـنـ الـحـظـوـظـ الـفـسـانـيـةـ أـيـضـاـ ، وـلـاـ مـاتـدـعـوـ الـضـرـورـةـ إـلـيـهـ مـنـ حـاجـةـ الـبـدـنـ وـالـقـوـىـ الـطـبـعـيـةـ وـالـفـسـانـيـةـ . لـكـنـ يـتـصـرـفـ بـتـصـرـفـ الـخـيـرـ الـعـقـلـيـ فـيـ أـعـالـىـ رـتبـ الفـضـائـلـ ، وـهـوـ صـرـفـ الـوقـتـ إـلـىـ الـأـمـوـرـ الـأـلـهـيـةـ وـمـعـانـاتـهـاـ وـمـحـاوـلـاتـهـاـ بـلـاـ طـلـبـ عـوـضـ ، أـعـنـىـ أـنـ يـكـوـنـ تـصـرـفـ فـيـهـاـ وـمـحـاوـلـتـهـ لهاـ لـنـفـسـ ذـاتـهـ فـقـطـ .

وـهـذـهـ الرـتبـةـ أـيـضـاـ تـزـايـدـ بـالـنـاسـ بـحـسـبـ الـهـمـمـ وـالـشـوـقـ وـفـضـلـ الـمـعـانـةـ وـالـمـحاـوـلـةـ وـقـوـةـ التـحـيـزـ وـصـحـةـ التـقـةـ ، وـبـحـسـبـ مـنـزـلـةـ منـ بـلـغـ إـلـىـ هـذـاـ المـلـفـ مـنـ الفـضـيلـةـ فـيـ هـذـهـ الـأـحـوـالـ الـتـىـ عـدـدـنـاهـاـ إـلـىـ أـنـ يـشـتـدـ قـرـبـهـ مـنـ الـذـاتـ الـعـلـيـةـ وـاقـتـدـأـهـ بـهـاـ وـبـأـفـعـالـهـ

الـرـتبـةـ الـأـوـلىـ مـنـ السـعـادـةـ

يـقـولـ اـبـنـ مـسـكـوـيـهـ : «ـ إـنـ مـنـ عـنـىـ بـعـضـ الـقـوـىـ الـتـىـ ذـكـرـناـهـاـ دـونـ بـعـضـ ، أوـ تـعـدـ إـصـلـاحـهـاـ فـيـ وـقـتـ دـونـ وـقـتـ - لـمـ تـحـصـلـ لـهـ السـعـادـةـ . وـكـذـلـكـ يـكـوـنـ حـالـ الـرـجـلـ فـيـ تـدـيـرـ مـنـزـلـهـ : إـذـاـ عـنـىـ بـعـضـ أـجـزـائـهـ دـونـ بـعـضـ أـوـ فيـ وـقـتـ دـونـ وـقـتـ فـاـنـهـ لـاـ يـكـوـنـ مـدـبـرـ مـنـزـلـ . وـكـذـلـكـ حـالـ مـدـبـرـ الـمـدـيـنـةـ إـذـاـ خـصـ بـنـظـرـهـ طـائـفةـ دـونـ طـائـفةـ ، أوـ وـقـتاـ دـونـ وـقـتـ لـاـ يـسـتـحـقـ اـسـمـ الـرـيـاسـةـ عـلـىـ الـاطـلاقـ »ـ وـمـثـلـ لـذـلـكـ «ـ أـرـسـطـوـ طـالـيـسـ »ـ بـقـوـلـهـ : «ـ إـنـ يـوـمـاـ وـاحـداـ مـعـتـدـلـ الـهـوـاءـ لـاـ يـبـشـرـ بـالـرـيـءـيـعـ

فهي طالب السعادة أن يطلب السيرة المديدة عنده ، فيسر بها دائماً ، فان تلك السيرة واحدة ولذيتها في نفسها فلذلك قلنا : إنه ينبغي أن يتшوقها دائماً ، ويثبت عليها أبداً .

ولما كانت السير ثلاثة ، لأنها تنقسم بانقسام الغايات الثلاث التي يقصدها الناس : أعني سيرة اللذة وسيرة الكرامة ، وسيرة الحكمة ، وكانت سيرة الحكمة أشرفها وأتمها ، وكانت فضائل النفس كثيرة - وجب أن يفضل الإنسان بأفضليتها ويشرُّف بأشرفها : فسيرة الأفضل السعداء سيرة لذيتها بنفسها ؛ لأن أفعالهم أبداً مختاراة مدوحة ، وكل إنسان يتذمّر بما هو محظوظ عنه : يتذمّر بعدل العادل ، أو يتذمّر بحكمة الحكيم . والأفعال الفاضلة والغايات التي يتتهي إليها بالفضائل لذيتها محظوظة . فالسعادة أللذ من كل شيء : يقول « أرسطوطاليس » : إن السعادة الإلهية وإن كانت في ذروة الشرف ، وسيرتها أللذ وأشرف من كل سيرة - محتاجة إلى السعادات الآخر الخارجة لأن تظهر بها ، وإلا كانت كامنة غير ظاهرة ، وإذا كانت كذلك كان صاحبها كالفاضل النائم الذي لا يظهر فعله ، وحيينما لا يكون بينه وبين غيره فرق . فالمطلع إذن على حقيقة هذه السعادة المتمكن من إظهار فعله بها هو الذي يتذمّر بها ، وهو الذي يسر سروراً حقيقياً غير مموه ولا مزخرف بالباطل ، وهو الذي يخرج من حد المحبة إلى العشق والهوى . وحيينما يأنف أللذ يصير سلطانه العالى تحت سلطان بطنه : فلا يخدم بأشرف جزء فيه أحسن جزء فيه . وأعني بالسرور المزخرف بالأباطيل اللذات التي تشاركتها فيها العججوات ؛ فان تلك اللذات حسية ، تنصرم وشيكًا ، وتملأ الحواس سريعاً ، فإذا دامت عليها صارت كريهة ، وربما عادت مؤلمة . وكذا أن للحسن لذة عرضية على حدة - فكذلك للعقل لذة ذاتية على حدة . فلذة العقل هي اللذة الحقيقية ، ومن لا يعرف اللذة الحقيقية كيف يتذمّر بها ؟ ومن لا يعرف الرياسة الذاتية كيف يصير إليها ؟ ومن لا يعرف الخير المطلق والفضيلة العامة والحكمة

العملية أى ايثار الأفضل والعمل به والثبات عليه — لا ينشط له ولا يرتاح إليه .
المحن والمصائب لا تخرج السعيد عن سعادته :

وينبغي أن يعلم أن السعيد مadam حيا تحت هذا الفلك الدائر بكونه
ودرجهاته ومطالع سعوده ونحوه . يرد عليه من النكبات والنواب وأنواع
المحن والمصائب ما يرد على غيره ، إلا أنه لا يذعر منها ولا يتحقق ما يلحق
غيره من المشقة في احتها : لأنه غير مستعد لسرعة الانفصال منها بعادة
الحمل والجزع والأحزان ، ولا قابل لأثر المهموم والأحزان بالأحوال العارضة .
وإن أصابه من هذه الآلام شيء فهو يقدر على ضبط نفسه ، كي لا تنقله عن
السعادة إلى ضدها ، بل لا تخرجه عن حد السعادة البتة .

ولو ابتدىء بما أصاب أيوب عليه السلام وأضعافه ما أخرجه عن حد
السعادة : وذلك لما يجد في نفسه من المحافظة على شروط الشجاعة والصبر
على ما يجزع منه أصحاب خور الطباع ، فيكون سروره أولاً بذاته وثانياً
بالأحاديث الجميلة التي تنشر عنه ، ويرى أن القاتل الذي يدعى « الشطاره »
والمصارع الذي يهوى الغلبة — كل واحد منهمما يصبر على شرائد عظيمة :
من تقطيع أعضاء نفسه ، وترك الشهوات التي يمكن منها طلبها لما يحصل له
من الغلبة وانتشار الصيت ، فيرى نفسه أخرى وأولى منها بالصبر ، إذ
كان غرضه أشرف ، وصيته في الفضلاء أبلغ وأشهر وأكرم ، ولأنه يسعد
في نفسه ، ثم يصير قدوة لغيره . يقول (أرسطوطاليس) : إن بعض الأشياء
تعرض من سوء ال運ت بما يكون يسير أسهل المتحمل ، فإذا عرض للإنسان
واحتمله لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه ، وعظم همته .

ومن لم يكن سعيداً ولا سبقت له رياسته بهذه الصناعة الشريفة من تهذيب
الأخلاق فإنه سينفعه انفعالاً قوياً ، فيعرض له عند حلول المصائب إحدى
الحالتين : إما الاضطراب الفاحش والألم الشديد والخروج بها إلى الحد الذي

يرثى له ويرحم ، وإنما أن يتشبه بالسعادة ويسمع مواطنهم ، فيظهر الصبر والسكون إلا أنه جزع الباطن متألم الضمير .

وكما أن الأعضاء المفلوجة إذا حرقت إلى العين تحركت إلى الشمال – كذلك تكون حركات نفوس الأشرار : تتحرك إلى خلاف ما يحملونها عليه من الجحيل ، فتكون هذه حالم إذا تشبهوا بالآجود وأهل العدالة .

شقاوةُ الأبناء لاتخرج السعيد بعد موته من زمرة السعادة :

يقول «أرسطو طاليس» في كتاب الأخلاق : قد حكمنا أن السعادة شيء ثابت غير متغير ، وقد علمنا أيضاً أن الإنسان قد تلحقه تغيرات كثيرة واتفاقات شتى : فإنه قد يمكن لمن هو أرغد عيشاً أن يصاب ب المصائب عظيمة . ومن تتفق له هذه المصائب ومات عليها فلا يسميه أحد من الناس سعيداً . وعلى هذا القياس لا يسمى أحد من الناس سعيداً مادام حيا ، بل يتضمن به آخر عمره ، ثم يحكم عليه .

فالإنسان إذن إنما يصير سعيداً إذا مات ، إلا أن هذا قول في غاية الشناعة ؛ لما قرره من أن السعادة هي «خير ما» والمرء ينال كثيراً منه في حياته .

وما لا مجال للشك فيه أن الإنسان بعد ماته قد يلحقه من أفعال بنيه ما يسره أو يحزنه ، وما ينفعه أو يؤذيه . فقد يمكن فيمن عاش عمره كله سعيداً إلى أن بلغ الشيخوخة وتوفي على هذا السبيل أن يلحقه مثل هذه التغيرات في أولاده : فقد يكون بعضهم خياراً حسناً السيرة ، وبعضهم بعده ذلك . ومن بين أنه قد يمكن أن يوجد بين الآباء والأولاد تباين واختلاف من كل جهة ، ولكن من المنكر أن تتغير حال الميت بتغير غيره : يصير مرة سعيداً ، ومرة أخرى شقياً . ومن المنكر أيضاً إلا تكون أمور الأولاد متصلة بالوالدين في وقت من الأوقات . فالإنسان بعد ماته يتصل به لاحالة من أمور أولاده وأولاد أولاده أحوال مختلفة بحسب اختلاف سيرهم ، ولكن

الانسان إذا مات سعيداً ثم لحقه من شقاوة بعض أولاده، أو سوء سيرة من يحيى من نسله ما يكون ضد سيرته وهو حي، فإن ذلك لا يغير من سعادته: يقول: «أرسطو طاليس» في إقامة البرهان على ما تقدم: «إن سيرة الإنسان ينبغي أن تكون سيرة محمودة؛ لأنها يختار في كل ما يعرض له أفضل الأعمال: من الصبر مرة، ومن اختيار الأفضل فالأفضل مرة، ومن التصرف في الأموال إذا اتسع فيها، وحسن التجمل إذا عدمها؛ ليكون سعيداً في جميع أحواله غير متقل عن السعادة بوجه من الوجه. فالسعيد إذا ورد عليه نحس عظيم جعل سيرته أكثر سعادة؛ لأنها يداريه مداراة جميلة، ويصبر على الشدائـد صبراً جميلاً، وحتى لم يفعل كدر سعادته ونحصها وجلب له أحـزانـا وهمـومـا تـعـوقـهـ عنـ أـفـعـالـ كـثـيرـةـ . والجـيلـ إـذـاـ ظـهـرـ منـ السـعـادـاءـ فـيـ هـذـهـ الـأـحـوالـ وـالـأـفـعـالـ كـانـ أـشـدـ إـشـراـقاـ وـحـسـنـاـ: وـذـلـكـ إـذـاـ اـحـتـمـلـ مـاـ كـبـرـ وـعـظـمـ مـنـ مـصـائبـ اـحـتـمـالـ سـهـلاـ بـعـدـ أـلـاـ يـكـونـ ذـلـكـ لـعـدـمـ حـسـهـ أـوـ لـنـقـصـاـنـ فـهـمـهـ بـالـأـمـورـ بـلـ لـشـهـامـتـهـ وـكـبـرـ نـفـسـهـ . ثم قال «أرسطو طاليس» أيضاً: «إذا كانت الأفعال هي ملاك السيرة كاقتنا، فليس يكون أحد من السعداء شقياً، لأنـهـ لاـيفـعـلـ فـيـ وـقـتـ مـنـ الـأـوـقـاتـ أـفـعـالـاـ مرـذـولةـ . فإذا كان هـكـذـاـ فالـسـعـيدـ أـبـداـ يـكـونـ مـغـبـطـاـ مـهـيـاـ كـانـ نـوـعـ المـصـائبـ التي حلـتـ بـهـ ، ولاـيـكـونـ أـيـضـاـ شـقـيـاـ ، ولاـ سـرـيـعـ التـنـقـلـ مـنـ ذـلـكـ؛ لأنـهـ لاـ يـتـنـقـلـ عنـ السـعـادـةـ بـسـهـولـةـ ، فـلـاـ تـنـقـلـهـ عـنـ الـآـفـاتـ الـيـسـيـرـةـ ، بـلـ لـاـ تـنـقـلـهـ عـنـ الـآـفـاتـ الـعـظـيـمـةـ الـكـثـيرـةـ ، وـلـيـسـ يـكـونـ سـعـيدـاـ إـذـاـ نـالـهـ هـذـهـ الـأـمـورـ زـمـانـاـ يـسـيـرـاـ ، بـلـ إـذـاـ ظـفـرـ بـأـمـورـ جـمـيـلـةـ فـيـ زـمـانـ طـوـيـلـ .» ثم قال بعد قليل: «وـأـمـاـ حـالـ الـانـسـانـ بـعـدـ موـتهـ فـالـقـولـ بـأـنـ الـآـفـاتـ الـتـيـ تـعـرـضـ لـأـوـلـادـ الـمـيـتـ وـأـصـدـقـائـهـ بـأـجـمـعـهـمـ لـيـسـتـ تـتـعـلـقـ بـهـ أـصـلـاـ .ـ مـضـادـ لـمـ يـعـتـقـدـهـ جـمـيـعـ النـاسـ .ـ وـإـذـاـ كـانـ الـأـمـورـ الـعـارـضـةـ هـؤـلـاءـ كـثـيرـةـ مـتـيقـنةـ ، وـكـانـ بـعـضـهـاـ يـتـعـدـىـ إـلـىـ الـمـيـتـ أـكـثـرـ وـبـعـضـهـاـ أـقـلـ ،ـ صـارـتـ قـسـمـتـنـاـ إـيـاهـاـ إـلـىـ الـأـشـيـاءـ الـجـزـئـيـةـ غـيـرـ

منتهية . وأما بالايجمال فنكتفي بأن نقول : كما أن الآفات التي تعرض للسميت في حياته بعضها يشعل عليه احتماله ويشمل سيرته ، وبعضها يخف عليه احتماله — كذلك حاله فيما يعرض لأولاده وأصدقائه . إلا أن كل واحد من العوارض التي تعرض للأحياء مخالف تمام المخالفة لما يعرض لهم إذا ماتوا ، وما يصل إليهم من هذه الأشياء خيراً كان أو شراً يكاد يكون يسيراً نزراً بمقدار مالا يجعل غير السعيد سعيداً ، ولا ينزع السعادة من السعداء .

الرتبة الأخيرة من السعادة

وآخر المراتب في الفضيلة أن تكون أفعال الإنسان كلها أفعالاً إلهية ، وهذه الأفعال هي خير مخصوص ، والفعل إذا كان خيراً مخصوصاً فليس يفعله فاعله من أجل شيء آخر غير الفعل نفسه ; وذلك أن الخير المخصوص هو غاية متوجحة لذاتها أي هو الامر المطلوب المقصود لذاته ، والأمر الذي هو غاية في النهاية لا يكون من أجل شيء آخر . فأفعال الإنسان إذا صارت كلها إلهية - فهي كلها إنما تصدر عن لبه وذاته الحقيقة التي هي عقله الإلهي ، وتتهدى وتنمّى سائر دواعي طباعه البدنية مع سائر النفسيين البهيميين ، فلا يبق له حيّثنة إرادة ولا همة خارجتان عن فعله ، بل إرادته وهمته في ذات الفعل ، وهذا هو سبيل العقل الإلهي .

فهذه الحال هي آخر رتب الفضائل التي يتقبل فيها الإنسان أفعال «الأول» خالق الكل عز وجل : فيكون فيها يفعله لا يطلب به حظاً ولا بجازة ولا عوضاً ولا زيادة ، بل لذات الفعل ؛ ولأنه لا يليق به سواه . ففعل الإنسان في هذه الحال خير مخصوص وحكمة خالصة ؛ إذ هو يبدأ بالفعل لاظهاره لا لغاية أخرى يتوجها به .

وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ، ليس من أجل شيء وخارج عن ذاته ، وإنما كانت الأشياء الخارجة أسباباً وعللاً لأفعاله وهذا شنيع قبيح .
تعالى الله عنه علوّاً كبيراً .

وهكذا سبيل الانسان إذا بلغ الغاية القصوى الممكنة من الاقتداء بالبارى عز وجل : تكون أفعاله التي يفعلها من أجل ذاته نفسها التي هي العقل الالهى ومن أجل الفعل نفسه . وإن فعل فعلا يردد به غيره ، وينفعه به — فليس فعله من أجل ذلك الغير بل لذاته ولنفس الفضيلة والخير ، لا لاجتناب منفعة ودفع مضررة ، ولا للتباهى وطلب الرئاسة ومحبة الكرامة . فهذا غرض الفلسفه ، ومنتهى السعادة ، إلا أن الإنسان لا يصل إلى هذه الحال حتى تفني إرادته الناشئة عن باعث خارج وتفني العوارض النفسانية ، وتموت خواطره التي تكون عن هذه العوارض ، ويمتلىء شعورا إلهيا وهمة إلهية . وإنما يمتلىء من ذلك إذا صفا من الأمر الطبيعي البسيط ، ونفى منه نفيا كاملا ، وحينئذ يمتلىء معرفة إلهية وشوقا إلهيا ،

وليس تحصل هذه المراتب التي يترقى فيها صاحب السعادة التامة إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها على صحيحا ، ويستوفيها تدريجيا . ومن ظن أنه يصل إليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المزاج - فقدظن باطلًا وبعد عن الحق بعده كثيرا . وليتذكر في هذا الموضع الخطأ العظيم الذي وقع فيه قوم ظنوا أنهم يدركون الفضيلة بتعطيل القوة العالمية وإهمالها ، وترك النظر الخاص بالعقل واكتفاءهم بأعمال ليست مدنية ، ولا بحسب ما يقتضيه التمييز والعقل .

فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ، وتحرد بنفسه اللطيفة التي عن بتقطيرها وغسلها من الأدنس الطبيعية لآخره العلية - فقد فاز وأعد ذاته للاتصال بحاليه عز وجل إعدادا روحانيا ، ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التي كانت تعيقه عن سعادته ولا تشوف إليها ؛ لأنه قد تطهر منها ، وتنزه عنها ، ولم تبق فيه إرادة لها ولا حرج عليها ، وقد استخلصها اللقاء رب العالمين ولقبول كراماته وفيض نوره الذي كان غير مستعد له . و يأتيه حينئذ الذي وعد به المتقون والأبرار ، كما سبق الآيات إليها في قوله عز وجل : (فَلَا تَعْلَمُ

ذَفَنْسُ مَا أَخْتَفَ لَهُمْ مِنْ قُرْبَةِ عَيْنٍ) وَ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هُنَاكَ مَالًا عَيْنُ رَأَتْ وَلَا أَذْنُ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

رأى الغزال في رتب السعادة

اعلم أن السعادة الحقيقة هي الآخرية ، و ما عدناها سميت سعادة : إما مجازاً أو غلطًا كالسعادة الدنيا التي لا تعين على الآخرة ، وإما صدقًا ولكن الاسم على الآخرية أصدق ، وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الآخرية ويعين عليه ؛ فإن الموصى إلى الخير والسعادة قد يسمى خيراً وسعادة .
والأسباب النافعة المعينة تشرحها تفصيات أربعة :

التقسيم الأول : منها ما هو نافع في كل حال وهي الفضائل النفسية ، ومنها ما ينفع في حال دون حال ونفعه أكثر : كالمال القليل . ومنها ما ضرره أكثر في حق أكثر الحق : وذلك بعض العلوم والصناعات .

وأكثراً الالتباس في هذا وجوب على العاقل الاستظهار بمعرفة حقائق هذه الأمور ، حتى لا يؤثر الضرار على النافع ، بل النافع على الرفيع ، والرفع على النفيض الأهم ، فيطول عليه الطريق : فكم من ناظر يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، وكم من طالب حبلاً ليتمنطرق به ، فيأخذ حية يظنها حبلاً ، فقتلده . والعلم الحقيق هو الذي يكشف عن هذه الأمور .

التقسيم الثاني : إن الحيرات بوجه آخر تنقسم إلى مؤثرة لذاتها ، وإلى مؤثرة لغيرها . وإلى مؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها . فينبغي أن يعرف مراتها ليعطى كل رتبة حقها :

فالمؤثرة لذاتها : السعادة الآخرية ، فليس وراء تلك الغاية غاية أخرى .
والمؤثرة لغيرها : من المال كالدرأهم والدنانير ؛ فلو لا أن الحاجات تنقضى بها لكانـت كالحصباء وسائر الجواهر الحسيـسة
والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها : كصحة الجسم ؛ فإن الإنسان - وإن

استغنى عن المشى الذى تراد سلامته الرجل له - يريد أيضا سلامة الرجل من حيث هى سلامة .

التقسيم الثالث : إن الحيات تنقسم من وجه آخر إلى نافع وجميل ولذيد . والشرور ثلاثة : ضار وقبيح ومؤلم . وكل واحد ضربان :

أحد هما - مطلق : وهو الذى يجمع الأوصاف الثلاثة في الحير : كالحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيدة ، وفي الشر : كالجهل ، فإنه ضار وقبيح ومؤلم . والثانى - مقيد : وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فرب نافع مؤلم : كقطع الاصبع الزائد والسلعة الخارج . ورب نافع قبيح : كالجحق ، فإنه راحة : إذ قيل : استراح من لاعقل له ، أى لا يغتم للعواقب ، فيستريح في الحال . ورب نافع من وجه ضار من وجه : كالقاء المال في البحر عند خوف الغرق فإنه ضار للمال ، ونافع في نجاة النفس . والنافع قسمان : قسم ضروري : كالفضائل النفسية والوصول إلى سعادة الآخرة . وقسم قد يقوم غيره مقامه فلا يكون ضروريا : كالسكنجبين في تسكين الصفراء

التقسيم الرابع : إن اللذات بحسب القوى الثلاث والمشتهرات الثلاثة - ثلاثة : (إذ اللذة عبارة عن إدراك المشتهى ، والشمرة عبارة عن انبعاث النفس لنيل ما تنشوقه) :

لذة عقلية ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات :

الأولى : كلذة العلم والحكمة ، وهى أقلها وجودا وأشرفها :

أما فتها : فإن الحكمة لا يستلزمها إلا الحكم . وقصور الرضيع عن إدراك لذة العسل ، والطيور السمان ، والحلوات الطيبة - لا يدل على أنها ليست لذيدة ، واستطابت للبن لا تدل على أنه أطيب الأشياء . والناس كلهم إلا النادر مبتلون بالقصور عن تقدير العلم فإذا ذلك يستلزمون الجهل :

ومن يكذا فم مر مريض * يجد مرآ به الماء الزلازل

وأما أشرفيتها : فلأنها لازمة لاتزول ، ودائمة لاتتحول وثمرها في الدار الآخرة إلى غير نهاية . وال قادر على الشريف الباقى إذا رضى بالحسين الفانى كان مصابا في عقله ، محروما بشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن الفضائل النفسية لا سيما العلم والعقل لا تحتاج إلى أعواان وحفظة ، بخلاف المال ؛ فإن العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالاتفاق والمال ينقص به ، والعلم نافع في كل حال ومطلقا وأبدا ، والمال تارة يجذب إلى الرذيلة وتارة إلى الفضيلة . ولذلك ذم في القرآن في مواضع ، وإن سمي خيراً في مواضع .

الثانية : هي اللذة المشتركة بين الإنسان وبين جميع الحيوانات : كلذة المأكل والمشرب وهي أكثرها وجوداً .

الثالثة : اللذة التي يشارك فيها الإنسان بعض الحيوانات : وهي لذة الرياسة والغلبة ، وهي أشد التصاقا بالعقلاء . ولذلك قيل : (آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة) وكيف تكون لذة الأكل لذة مطلقة وهي من وجه إزالة ألم ، ولذلك قال الحسن : (الإنسان صريح جوع وقييل شبع) وجميع لذات الدنيا سبع : مأكول ومشروب وملبس ومسكن ومسموم ومبصر . وهي بحملتها خسيسة ، كما روى عن علي كرم الله وجهه : إذ قال لعمار بن ياسر ، وقد رأه يتنفس كالحزين : « يا عمارة ، إن كان تنفسك على الآخرة فقد ربحت تجارتكم ، وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفتكم ؛ فإني وجدت لذاتها المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكونات والمشمومات والمسمومات والمبصرات : فأما المأكولات فأفضلها العسل ، وهو صنعة ذباب . والمشروبات أفضلها الماء . وهو أهون موجود وأعز مفقود . وأما الملبوسات فأفضلها الدبياج ، وهو نسيج دودة .

وأما المشمومات فأفضلها المسك ، وهو دم فارة . وأما المسمومات فريحها به في الهواء . وأما المبصرات، فنيلات صائرة إلى الفناء » .

ومن آقها أن كل واحدة منها يتبرم بها بعد استيقافها في لحظة . فليعتبر حاله الفراغ من الأكل بما قبله ، ولينتظر كيف ينقلب المطلوب مهروبا منه في الحال . فأين يوازي هذا ماتدوم لذته ، ولا تفني أبد الآباد راحتة ؟ وهو الابتهاج بكمال النفس بالفضائل النفسية ، خصوصا الاستسلام على الكل بالعلم والعقل

أسباب السعادة

لو عرف الإنسان أسباب السقوط وامتنع عنها ماسقط مطلقا ، ولو عرف أسباب الخيبة وتحاشاها ما خاب في عمل أبدا : انظر إلى رقة الحديث وبلغة القول تجدهما ترعنان قدر المتكلم في نظر السامعين ، ولكن كثرة الكلام تحدو بهم إلى سآمتهم وإلى الملل من المتكلم . فلو عرف الشّثار هذه الحقيقة ما تنبه الناس ، ولا ملوا سماع حديثه . ترى العين حشرة فقتستين بها ، ثم تراها تلدع فتقتر ، فيكبر الإنسان أمرها ويخشىها ، ويأخذ لنفسه الحيطنة منها . وهكذا الناس : مرت بهم ظروف كثيرة متنوعة وأحوال متباينة ، فكانت سبب رفعـة بعضهم ونحاحـه ، وسقوط الكـثير منهم وخـيـته . فلو تعرف الإنسان أسباب الرفعـة والنـجـاحـ وتطـلبـها ، وأسباب السقوط والخـيـة وتجـنبـها - لفاز بكل أمانـيه ، وما شـكـا في حـيـاته سـوءـ الحـظـ ونـكـدـ الطـالـعـ .

ليس غرض الناس من الحرب مجرد القتل والإـفـنـاءـ والتـخـرـيبـ ، وإنـماـ الاستـعـاضـةـ منـ المـغـارـمـ غـنـمـاـ ، وـمـاـ زـهـقـ منـ نـفـوسـ المـقـتـولـينـ عـوـضـاـ وـدـيـةـ .ـ وماـ الـحـيـاةـ إـلـاـ حـرـبـ طـاحـنـةـ بـيـنـ النـاسـ وـحـظـوـظـهـ ، حـرـبـ دـائـمةـ لـاـ انـقـطـاعـ هـاـ بدـأـتـ مـنـذـ بـدـأـ الـعـالـمـ ، وـلـاـ تـنـقـطـعـ إـلـاـ يـوـمـ يـفـنـىـ آخرـ إـنـسـانـ مـنـ عـلـىـ وـجـهـ الـأـرـضـ .ـ فـلـوـ تـعـرـفـ الـعـاقـلـ أـسـبـابـ اـنـتـصـارـ الـمـتـصـرـينـ وـانـكـسـارـ الـمـخـذـلـينـ ،

وترسم في المعارك القائمة بينه وبين حظوظه خطط الأولين - ماخذل ، ولا غلبه الشقاء .

إن للتجربة ثمنا من الجهد والراحة ومن عمر الإنسان ، فلو رغب الإنسان في معرفة حقائق الحياة من تجربته وحده لانقضت حياته قبل أن يدرك ما يريد ، وماذاق شيئاً من المحناء ، ولا يعرف السعادة :

فليس يتعين على التاجر إلا فلاس لرغبة في معرفة سر النجاح ، ولا يقتضي الحال إغراق الربان سفينته ليتعلم وسائل إنقاذه من الغرق ؛ فقد يتذرع نجاح التاجر بعد إفلاسه ، وإنقاذ السفينة بعد غرقها . ولما كانت صحفية الكون بعجائبها وبحوادثه منشورة أمام الإنسان في كل حين ، فله أن يعتبر بها : فيتعلم الحكمة من شقاء غيره دون أن يشقق ، ويعرف أسرار الحياة من المتألين منها دون أن يتلمس ، ويقف على سر النجاح من أسباب سقوط المفاسد دون أن يفلس ، ويتعلم النجاة من المصيبة من وقع فيها دون أن يلق نفسه إلى أحضانها . وهذا هو معنى قولهم : السعيد من وعظ بغيره

حقاً إن الحياة علم له أصول وقواعد : فنها ما يختص بصحة الجسم أو العقل أو الأخلاق ، ومنها ما يختص بالنجاح أو السعادة . وكلها من ثمار الحكمة ، ومن نتائج أفكار الناس . فمن عرفها عنهم أمن شر الحوادث التي أوصلتهم إلى عرقانها ، والحكيم من اعتبر بمحاصائب غيره ، واستخدمها للاستفادة منها : يجعلها سبباً لهناءه وسعادةه .

من يعني بجمع طاقة من الأزهار لا يحمل شأنها حتى تذبل وتندوى وتفقد رائحتها الذكية ، وإنما ينتفع بما فيها من الفائدة : فيشم عطرها ، وينعش به نفسه . وما العالم إلا مثال الحديقة ، وما الأزهار إلا عبر الحوادث ، وما زرور شم الأزهار إلا وجوب الاستفادة من العبر : يجعلها وساطة للاغتساط والهناء بدلاً من ضياعها سدى .

سئل حكيم عن أنسجم الوسائل المؤدية إلى شمول السلام ، فقال : « محبة
الإنسان غيره كنفسه »

وفي كلام سيد الأنام محمد عليه الصلوة والسلام ما يشير إلى ذلك ، فقد
جمع أشتات الحكم في أوج العبارات ، ووصل إلى الغاية من أقصر السبيل .
يظن الإنسان أن السبيل إلى السعادة بعيد الشقة كثیر العقبات ، وال الحال
أن كثیرا من النفوس الساذجة تصل إليها من أقصر الطرق وأقلها وعورة .
ولما كانت معرفة وجود الشيء لا تکفي للوصول إليه بل يحتاج الأمر
معها إلى معرفة الطريق إليه وإلى قطعها أيضا - فـ كذلك ثبوت وجود
السعادة في الحياة لا يکفي لتحقيق سعادة الإنسان ، بل يحتم عليه معرفة
الطريق إليها والسير فيها لنيلها .

وقد كتب كثیرون عن السعادة ولکنهم أغفلوا المداية إلى الطريق المؤدي
إليها . ولما كانت مقتضياتها وأسبابها كثيرة اقتصرنا على المهم منها :

فالأول

الإيمان

ينبغي للباحث في هذا الموضوع أن ينير سبيلاً يکفيه بـ إیضاً أمور أربعة
هي : الاعتقاد ، واليقين ، والإيمان ، والدين . فيخصص كلامها بنبذة تحلى
غامضه وتوضح مشكله ، ثم يتبع ذلك ببيان ما بين الجميع من قرابة وصلة ،
وعلى ذلك عولت أن أسرير ، وبالله التيسير :

الاعتقاد : قال في المصباح المنير : « اعتقادت كذا عقدت عليه القلب

والضمير حتى قيل : العقيدة ما يدین به الإنسان ، وله عقيدة حسنة سالمه من
الشك » وأصل ذلك كلام من العقد وهو الجمیع بين أطراف الشيء ، فـ كأن المعتقد
قد جمع أطراف قلبه على معتقده ، فأحكم وثاقه ، وأمن انطلاقه ، ووثاقه
الأدلة القاطعة عنده ، والبراهين الساطعة لديه . فالاعتقاد بشيء هو تصدیقه ،
وعقد القلب والضمير عليه . ويجوز أن يكون اعتقاداً بحق لامرية فيه ،

أو يباطل يلتبس بالحق فينazuه مكانه وينحيه : فالاول كالاعتقاد بوحدانية
الخالق ، والآخر كالاعتقاد باطهية الصنم .

صاحب العقيدة لا يعمل مايخالف عقيدته مادامت العقيدة قد تملّكت
عليه نفسه ، ووصلت إلى أعماق قلبه ، لأن الإنسان مفظور على أن يصدر
عن إرادة وفكـر : يعمل الشيء بعد أن يتـرجـح لـديـه نـفعـه ، ولا يـقرـبه إـذـا
ترـجـح لـديـه ضـره . فـا دـام الـإـنـسـانـ إـنـسـانـاًـ وـالـفـطـرـةـ هـىـ الفـطـرـةـ فـعـمـلـ المـرـءـ
منـوطـ باـعـتـقـادـهـ نـاشـئـ عنـ إـرـاـتـهـ وـتـفـكـيرـهـ .ـ وـلـئـنـ طـرـأـ عـلـيـهـ منـ الأـسـبـابـ
ماـيـحـمـلـهـ عـلـىـ مـخـالـفـةـ مـاـيـعـتـقـدـ فـلـاـ يـلـبـثـ أـنـ يـعـمـلـ بـمـوـجـبـ اـعـتـقـادـهـ مـتـىـ زـالـ
ماـحـالـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـرـادـهـ .

فالعقيدة هي صاحبة الحول والطـولـ : تـصـدرـ أـمـرـهـ فـلـاـ يـكـونـ مـنـ صـاحـبـهاـ
سوـىـ الطـاعـةـ وـالـرـضـاـ ،ـ وـتـهـىـ فـلـاـ يـكـونـ مـنـهـ إـلـاـ الـخـضـوعـ وـالـخـنـوعـ .ـ وـأـمـاـ
الـأـسـبـابـ الـتـىـ تـحـولـ بـيـنـ الـمـرـءـ وـتـلـيـةـ دـاعـيـ عـقـيـدـتـهـ فـهـىـ مـلـابـسـ شـاذـةـ
وـأـسـبـابـ مـؤـقـتـهـ :ـ فـصـدـيقـكـ قـدـ يـسـيـءـ إـلـيـكـ ،ـ وـلـايـكـ أـنـ تـكـوـنـ إـسـاءـتـهـ
دـيـدـنـالـهـ ،ـ وـصـاحـبـ الـمـبـدـأـ قـدـ يـضـطـرـ إـلـىـ أـنـ يـسـيـءـ إـلـىـ مـبـدـئـهـ ،ـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـسـتـمـرـ
فـيـ تـلـكـ إـلـاـسـاءـةـ ،ـ بـلـ لـاـ يـصـبـرـ عـلـيـهـ ،ـ كـاـنـ التـقـىـ قـدـ يـفـرـطـ مـنـهـ ذـنـبـ ،ـ وـلـكـنـهـ
لـاـ يـرـضـىـ بـهـ وـلـاـ تـطـمـئـنـ إـلـيـهـ نـفـسـهـ ،ـ بـلـ تـكـشـرـ مـنـ لـوـمـهـ وـتـعـنـيفـهـ ،ـ حـتـىـ يـعـقـدـ
عـقـدـةـ النـدـمـ .ـ وـفـيـ حـدـيـثـ الدـعـاءـ :ـ «ـ لـكـ مـنـ قـلـوبـنـاـ عـقـدـةـ النـدـمـ »ـ
يـرـيدـ عـقـدـ العـزـمـ عـلـىـ النـدـامـةـ :ـ وـهـوـ تـحـقـيقـ التـوـبـةـ :ـ (ـ وـالـذـينـ إـذـاـ فـعـلـواـ فـاحـشـةـ
أـوـ ظـلـمـواـ أـنـفـسـهـمـ ذـكـرـواـ اللـهـ فـاسـتـغـفـرـواـ لـذـنـوبـهـمـ ،ـ وـلـمـ يـصـرـواـ عـلـىـ مـاـفـعـلـواـ
وـهـمـ يـعـلـمـوـنـ)ـ (ـ إـنـ الـذـينـ آتـقـوـاـ إـذـاـ مـسـهـمـ طـائـفـ مـنـ الشـيـطـانـ تـدـكـرـواـ
إـذـاـهـمـ مـبـصـرـوـنـ)ـ (ـ إـنـاـ التـوـبـةـ عـلـىـ اللـهـ لـذـينـ يـعـمـلـونـ السـوـءـ بـجـهـةـهـمـ
يـتـبـوـنـ مـنـ قـرـيبـ فـاـ وـلـيـكـ يـتـوـبـ اللـهـ عـلـيـهـمـ وـكـانـ اللـهـ عـلـيـهـ حـكـيـمـاـ)ـ .ـ
أـمـاـ ذـوـ الـأـلـوـانـ الـذـيـ يـتـغـيـرـ بـتـغـيـرـ الزـمـانـ ،ـ وـيـتـلـوـنـ تـلـوـنـ الـحـرـباءـ ،ـ وـيـتـذـبـبـ

بين هؤلاء و هؤلاء — خلائق بآلا يكون من الوجهاء أولى العقائد السليمة والمبادئ القوية والنفوس الكريمة ، بل من أصحاب العقائد السليمة والنفوس المئيمة الذين فسّدت ضمائرهم ، وعميت بصائرهم .

البيقين : يَقْنُونَ الْأَمْرُ وَضَرِح ، وَيَقْنُونَ فَلَانَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ وَتَحْقِيقُه . فالبيقين إزاحة الشك ، ولا يزاح الشك إلا بالدليل القطعى الذى لا شبهة فيه ، ولذلك قال صاحب المصاحف المنير : « البيقين : العلم الحاصل عن نظر واستدلال » وقال بعض أجلاء العلماء : « البيقين : هو اعتقاد أن الشيء كذلك (أى على حالة أو صفة معينة) مع اعتقاد أنه لا يكون إلا كذلك (على هذه الحالة أو الصفة المعينة) اعتقاداً مطابقاً ل الواقع غير ممكن الزوال . ولأن البيقين عدو مبين للشك سمي العلماء الموت يقيناً : قال البيضاوى : البيقين الموت بلأنه متيقن لحاقه لكل مخلوق » .

قال الراغب الأصفهانى : « البيقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراردة وأخواتهما يقال : علم يقين : وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم . وعلم البيقين ، وحق البيقين ، وعين البيقين ، وبينها فروق : (علم البيقين يعني عملاً كعلم الأمر البيقين ، وحق البيقين أى حق الخير البيقين أو الحق الثابت من البيقين ، وعين البيقين أى الرؤية التي هي نفس البيقين ، يعني المشاهدة التي هي أقصى مراتب البيقين ، يليها في مراتب البيقين حق البيقين ، ويلحق البيقين علم البيقين) ويقال استيقن وأيقنت قال تعالى : (إِنَّ نَفْنُونَ إِلَّا ظَنَّا وَمَا تَحْنَ بِعْسَمَيَّقَنِينَ) (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمَوْقِنِينَ) (لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) وقوله عز وجل : (وَمَا قَاتَلُوا يَقِينًا) أى ما قاتلوا قتلاً تيقنوه ، بل إنما حكموا تخميناً ووهمـا .

كتب رجل من العُباد إلى صديقه له : « إنـي رأـيت الله تبارـك وتعـالـى جعلـيـنـيـنـ بأـعـظـمـ المـواـضـعـ فـيـ أـمـرـ الدـنـيـاـ وـالـدـيـنـ : فـهـوـ غـاـيـةـ عـلـمـ الـعـالـمـ وـبـصـرـ الـبـصـيرـ وـفـهـمـ السـامـعـ ، لـيـسـ كـسـاـرـ الـأـشـيـاءـ الـتـىـ تـدـخـلـهاـ الشـهـبـاتـ ، وـبـحـرـ حـاـلـ الـأـغـفـالـ وـلـيـشـوـبـهاـ الـوـهـنـ : وـذـلـكـ أـنـ اللهـ تـعـالـىـ جـعـلـ مـغـرـ سـهـ القـلـبـ ، وـأـغـصـانـهـ الـعـملـ ،

و ثمرتها الثواب . وإنما جعل القلب لليقين مغرساً لأنه جعل الخمس الجواب
لعلم الأشياء كلها إلى القلب : السمع والبصر والتجسس والمذاقة والاسترواح .
فإذا صارت الأشياء إليه ميز بينها العقل ، ثم صارت بأجمعها إلى اليقين ، فكان
هو المثبت لها والوجه كل واحدة منها جهتها .

ولولا معرفة القلب بالعقل الذي جعله الله لذلك لم يفرق سمع بين صوتين
مختلفين ، ولا بصر بين صورتين متقاربتين ، ولا تجسسة بين شيئاً غير متشابهين .
وليقين بذلك منزلة يُعرف بها حال الضار والنافع في العاقبة عند الله تعالى .
فلما صار اليقين في التشبيه كالشجرة النابتة في القلب ، أغصانها العمل ،
و ثمرتها الثواب — أخبر ذلك أنه قد تكون الشجرة نابتة الأصل بلا
أغصان ، كما قد يكون اليقين نابتًا بلا عمل ، وأنه كما لا تكون الأغصان نابتة
بلا أصل — في كذلك لا يكون العمل نافعًا إلا يقين ، وكما أنه لا تُخْدِفُ
الثمرة في الطيب والكثرة إذا كان الأصل نابتًا والأغصان ملتفة — في كذلك
يكون الثواب لمن صاح يقينه وحسن عمله . وقد تعرض للاعمال عوارض
من العلل : « منهن الأمل المتّبّط ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى المزين
للباطل ، والشيطان الحارى من ابن آدم مجرى الدم » — يضرر بالعمل
والثواب ولا يبلغ ضررهن اليقين ، فيكون ذلك كبعض ما يعرض للشجرة
من عوارض الآفات : فتذوى أغصانها ، وتنثرونها ، وتمنع ثمرتها ، والأصل
ثابت . فإذا تحجلت الآفة عادت إلى صلاحها .

فهذا يمحبك من عمل أمرى لا يشبه يقينه ، وأن يقينه لا يرتبط برجاه
 وخوفه على ربه ؟ إنما العجب من خلاف ذلك !! ولعمري لو أشبهه عمل أمرى
يقينه : فكان في خوفه ورجائه كالمعاين لما يعانيه بقلبه من الوقوف بين
يدي الله ، والنظر إلى ما وعد وأوعد — لكن ما يعتلي على قلبه من خطرات
الخوف شاغلاً له عن الرجاء ، حتى يأتي على نفسه أول لحظة ينظر بها إلى
النار خوفاً لها ، أو إلى الجنة أسفًا عليها إذا حرمتها . وإذا كان الموقن بالبعث

بقلبه كالمعain له يوم القيمة ، وكيف يستطيع من كان كذلك أن يعقل
فضلا عن أن يعمل !

وأما قولك : «كيف لم يكن خائف الآخرة لربه كخائف الدنيا لسلطانه» .
فإن الله عزوجل خلق الإنسان ضعيفاً وجعله عجولاً : فهو لضعفه موكلاً
بخوف الأقرب فالأقرب بما يكره ، وهو بعجلته موكلاً بحب الأعجل فالاعجل
بما يشتهي . وزاده حرصاً على المخلص من المكر وهو طلب المحبوب - حاجة
إلى الاستمتاع بمتاع الدنيا الذي لو لا ماطبع عليه القلب من حبه ، وسهل على
المخلوقين من طلبه - ما انتفع بالدنيا منتفع ، ولا عاش فيها عائش . ومع
ذلك ، إن مكاره الدنيا ومحابها عند ابن آدم على وجهين : أما المكر و فيقول
فيه : عسى أن أكون ابليت به لذنب سلف مني . وأما المحبوب فيقول فيه:
عسى أن أكون رزقته بحسنة كانت مني ، فهو ثواب عُجل . وهو مع هذا
يعلم أن حلوم المخلوقين إلى الضيق ، وأن قلوب أكثر مُسلطٍ عليهم إلى القسوة ،
وأن العيب عنهم مستور ، فليس يلتمسون ملتمسهم إلا علم الظاهر ، ولا يلتفت
من أمرى إلى صلاح سريرته دون صلاح علانيته .

ومن طباع الانسان المؤم : فليس يرضي إذا خيف إلا بأن يذل ، ولا إذا رُجحى إلا بأن يتعب ، ولا إذا غضب إلا بأن يخضع له ، ولا إذا أمر إلا بأن ينفذ أمره ، ولا يتتفع المتشفع بـ^{إله} حسانه عنده إذا أساء ، ولا المطبع بكثرة طاعته في المعصية الواحدة إذا عصى ، ولا يرى الشواب لازما له ولا العقاب محجورا عليه : فإن عاقب لم يستيق ، وإن غضب لم يتثبت ، وإن أساء لم يعتذر ، وإن أذنب إليه مذنب لم يغفر . واللطيف الخبير يعلم السريرة فيغفر بها العلانية ، ويمحو بالحسنة عشرة من السيئات ، ويصفح بتوبة الساعة عن ذنوب مائة عام . وإن دعى أجاب ، وإن استغفر غفر ، وإن أطمع شكر ، وإن عصي عفا ، ومن وراء عبده بعد هذا كله ثالث : رحمته التي وسعت كل شيء ، وشهادة الحق التي لا يزكي عمل إلا بها ، وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا كله مثبت لليقين ، باسط للأمل ، مثبت عن العمل ، إلا من شاء الله ، وقليل ماهم . فلا تحمل نَطْفَ عملك على صحة يقينك ، فتوهن إيمانك . ولا ترخص لنفسك في مقارفة الذنوب ، فيكون يقينك خصما لك وحجّة عليك . وكذب أملك ، وجاهد شهوتك ؛ فإنهما داءك المخواfan على دينك ، وأسأل الله الغنيمة لنا ولنك »

الرابطة بين الاعتقاد واليقين :

علينا ما تقدم أن الاعتقاد بشيء هو تصديق وعقد القلب والضمير عليه . ويجوز أن يكون ذلك التصديق وهذا العقد على حق ، كما يجوز أن يكوننا على باطل لابس لباس الحق . وأما اليقين فهو اعتقاد الشيء على حالته اعتقادا مطابقا للحقيقة والواقع غير ممكن الزوال . إذن اليقين اعتقاد بحق ، أو اعتقاد حق فقط . فكل يقين اعتقاد وليس كل اعتقاد يقينا ؛ لأن الاعتقاد قد يكون في الحقيقة ، وقد يزايدها ويزيف عنها . وأما اليقين فهو عين الحقيقة ، والله ورسوله أعلم .

الإيمان : لفظ الإيمان إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة ، وقيل الإيمان : قول وعمل ، أى قول القلب والسان ، وعمل القلب والجوارح ، ومنه قول النبي صلى الله عليه في الحديث المتفق عليه : « الإيمان بِضُعْ وَسِئْلَونَ شُبْهَةً ، أَعْلَاهَا قَوْلٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةً الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » و « الْحَمْيَاء شُبْهَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » ومنه قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَأُوا ، وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذْ تُلَمِّذُهُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أَوْلَئِكَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ حَقًا) وقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا
عَلَى أَمْرٍ جَاءُوكُمْ لَمْ يَدْهُبُوا حَقَّيْتَهُ بِسَتَّاً ذُنُوبُهُ)

والإيمان المطلق : يدخل فيه الإسلام ، كما في الصحيحتين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لوفد عبد القيس : « أَمْرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدِّوَا هُنَّسَ مَا غَنِمْتُمْ » ولهذا قال من قال من السلف : « كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً » .

وأما إذا قرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام فإنه يفرق بينهما ، كما في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » وهو في القرآن كثير ، وكما في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والاحسان ، فقال : « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهُدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقْرِئَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحْجُجَ الْبَيْتَ » قال فما الإيمان ؟ قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ وَكَتَبَهُ وَرَسُولُهُ وَالْبَعْثَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ » قال : « فما الاحسان ؟ » قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَذَلِكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَكَ » ففرق هذا النص بين الإسلام والإيمان لما قرآن بين الاسميين ، وفي النص السابق أدخل الإسلام في الإيمان للأفراد بالذكر . وكذلك لفظ العمل : فإن الإسلام المذكور هو من العمل ، والعمل الظاهر هو وجوب إيمان القلب ومقتضاه . فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة ، وإيمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب وانقياده ، وإلا فلو صدق قلبه بأن مُحَمَّداً رسول الله ، وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته — لم يكن قد آن به ، بل هو كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كا

يعرفون أبناءهم ، وغير هؤلاء ؛ فإن إبليس لم يكذب خيرا ولا مخبرا ، بل استكبار عن أمر ربه ، وفرعون وقومه قال الله فيهم : (وجَحَدُوا بِهَا ، وَأَسْمَدُيَقْنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) وقال له موسى : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » وقال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »

فجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بمحض عليه : مثل محبة القلب له ، واتباع القلب له - لم ينفع صاحبه . بل أشد الناس عذابا يوم القيمة عالم لم ينفعه الله بعلمه . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إِنَّمَا إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَنَفْسٌ لَا تَشْبَعُ ، وَدُعَاءٌ لَا يُسْمَعُ ، وَقَلْبٌ لَا يَخْشَعُ)

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان ، وأن من دل الشرع على أنه ليس بهؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه . وهذا من أعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقة توجب التسوية بين المؤمن والكافر . ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك ؛ فإنه من المعلوم أن يكون الإنسان عالما بالحق ويغضنه لغرض آخر ، فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به .

وحينئذ فالإيمان لابد فيه من تصديق القلب وعمله . وهذا معنى قول السلف : « الإيمان قول وعمل » ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة ؛ فإن الارادة الجازمة إذا اقترن بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا ، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الارادة ، وإلا فمع كلامها يجب وجود الفعل الاختياري .

فإذا أقر القلب إقرارا تاما بأن محمدا رسول الله ، وأحبه محبة تامة - امتنع

مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكن إن كان عاجزا لخرس ونحوه ، أو لخوف ونحوه - لم يكن قادرا على النطق بهما . وأبو طالب وإن كان عالما بأن محمدا رسول الله ، وهو محب له - لم تسكن محبتة له لمحبته لله ، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه ، فيحبه للقرابة . وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرياسة ، فأصل حبه هو الرياسة . فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن الاقرار بهما زوال دينه الذي يحبه ، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه ؛ فلم يقر بهما . فلو كان يحبه : لأنه رسول الله ، كما كان يحبه أبو بكر الذي قال الله فيه : (وَسَيِّئُ جَنَبَهُمَا الْأَعْقَى الَّذِي يُؤْتَى مَالَهُ يَتَرَكَّى ؛ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُنْجِزُ ، إِلَّا إِبْتِقاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرَضُ) وكما كان يحبه سائر المؤمنين : كعمر وعثمان وعلى - لنطق بالشهادتين قطعا . فكان حبه حبا مع الله ، لا حبا لله . ولهذا لم يقبل الله مافعله : من نصر الرسول وموازنته ؛ لأنه لم يعمله الله ، والله لا يقبل من العمل إلا ما يريد به وجهه .
الإيمان قابل للزيادة والنقصان :

قال الإمام أبو الحسن علي بن خلف بن بطال الملاكي المغربي في شرح صحيح البخاري : « مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن اليمان قول وعمل ، يزيد وينقص . والحججة على زيادته ونقصانه ماؤرده البخاري من الآيات ، يعني قوله عز وجل : (لَيَزَدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) وقوله تعالى : (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) وقوله تعالى : (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ آهَتْدُوا هُدًى) وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آهَتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى) وقوله تعالى : (وَيَزِيدَ الدِّينَ آمِنُوا إِيمَانًا) وقوله تعالى : (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَإِنَّ الَّذِينَ آمِنُوا فَزَادُوهُمْ إِيمَانًا) وقوله تعالى : (فَاخْشُوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا) وقوله تعالى : (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيْمًا) :

قال عبد الرزاق : سمعت من أدركـتـ منـ شـيوـخـناـ وأـصـحـابـناـ : سـفـيـانـ

الثوري ، ومالك بن أنس ، وعبيدة الله بن عمر ، والأوزاعي ومعمر بن راشد ، وابن جريج ، وسفيان بن عيينة — يقولون : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنعمان ، والحسن البصري ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك . فالمعني الذي يستحق به العبد المدح ، والولاية من المؤمنين — هو إيمانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . وذلك أنه لا خلاف بين الجميع في أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه — لا يستحق اسم مؤمن ، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد — لا يستحق اسم مؤمن .

وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفراص لايسمى مؤمنا بالاطلاق . وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى ، لقوله عز وجل :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلَمِّذُتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَهُمْ إِيمَانًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَمِمَّا رَزَقَنَا هُمْ يَنْفِقُونَ . أَوَ أَئِكُمْ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من ينفقون .

كانت هذه صفتته

وقال ابن بطال في باب من قال : « الإيمان هو العمل » : فإن قيل قد قدمتم أن الإيمان هو التصديق قيل : التصديق هو أول منازل الإيمان ، ويوجب للصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازله ، ولا يسمى مؤمنا مطلقاً .

هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الإيمان قول وعمل . قال أبو عبيدة :

وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنن الذين كانوا مصايخ الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم .

قال ابن بطال : وهذا المعنى أراد البخاري رحمة الله إثباته في كتاب الإيمان ، وعليه بوب أبوابه كلها ، فقال : باب : (أمور الإيمان) وباب :

« الصلاة من الإيمان » وباب : « الركبة من الإيمان » وباب : « الجهد من الإيمان » ، وسائل أبوابه . وإنما أراد الرد على المرجئة في قولهم : « إن الإيمان قول بلا عمل » وتبين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم لكتاب والسنة ومذاهب الأئمة .

الفرق بين الإيمان والتصديق :

الإيمان وإن تضمن التصديق فليس مرادف له : فلا يقال لكل مصدق بشيء إلا أنه مؤمن به . فلو قال :

أنا أصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه - لم يقل لهذا إنه مؤمن بذلك ، بل لا يستعمل إلا فيما يُخْبِرَ بشيء من الأمور العائبة كقول إخوة يوسف :

« وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا » فـإِنَّهُمْ أَخْبَرُوهُ بِمَا غَابَ عَنْهُ

وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به : فالاول يقال للمخبر والثانى للمخبر به ، كما قال إخوة يوسف : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا) وقال تعالى : (فَمَا آمَنَ لِمَوْمِي إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ قَوْمِهِ) وقال تعالى : (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنُنَا ، قُلْ أَذْنُنَّ خَيْرٍ لَّكُمْ ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَوْمَ مِنْ لِلْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين ، لأن المراد يصدق المؤمنين إذا أخبروه ، وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به . ومنه قوله تعالى عن قول فرعون وملئه : (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْنَيْنِ ؟) أى نظر لها ونصدقها . ومنه قوله : (أَفَتَظْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟) ومنه قوله تعالى : (فَمَنْ لَهُ أُوتُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) ومن المعنى الآخر قوله تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) وقوله : (آمَنَ الرَّسُولُ)

بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُفَّارُهُ
وَرَسُولِهِ، لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) وَقُولُهُ : (وَلَا يَكُنَ الْبَرُّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمُلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) أَيْ أَقْرَبُ بِذَلِكَ . وَمِثْلُ هَذَا
فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ .

المُؤْمِنُ الْكَاملُ الْإِيمَانُ لَا يُخْرِجُهُ الْاِبْتِلَاءُ عَنْ كُلِّ إِيمَانِهِ :

لِيسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يُؤْدِي فِي أَقْصَى الْعِبَادَاتِ صُورَةً ، وَيَتَجَنَّبُ الْمُحْظَوْرَاتِ
فَقَطْ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ الْكَاملُ الْإِيمَانُ لَا يُخْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ ، وَلَا يُسَاكِنُ
فِيهَا يَحْرِي وَسُوْسَةً . وَكَلَّا اشْتَدَ الْبَلَاءُ زَادَ إِيمَانَهُ ، وَقَوْيَ تَسْلِيمَهُ . وَقَدْ يَدْعُو
فَلَا يَرَى لِلْأَجَابَةِ أَثْرًا وَسَرَهُ لَا يَتَغَيِّرُ : لَأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَلْوَكٌ وَلَهُ مَالُكٌ يَتَصَرَّفُ
بِمَقْتَضَى إِرَادَتِهِ . فَإِنْ اخْتَلَجَ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ خَرَجَ مِنْ مَقْامِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى
مَقْامِ الْمَنَاظِرَةِ ، كَمَا جَرِيَ لِإِبْلِيسِ . وَالْإِيمَانُ الْقَوِيُّ يَسِّيِّئُ أَثْرَهُ عِنْدَ قُوَّةِ الْبَلَاءِ .
فَأَمَّا إِذَا رَأَيْنَا مُثْلَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : تَسْلِطُ عَلَيْهِ فَاجْرٌ ، فَيَأْمُرُ
بِذَبْحِهِ فَيَذْبَحُ - فَرِبَّمَا اخْتَلَجَ فِي الطَّبَعِ أَنْ يَقُولُ : فَهَلْ رَدَ عَنْهُ مِنْ جَعْلِهِ نَبِيًّا ؟
وَكَذَلِكَ كُلُّ تَسْلِطٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَلَى الْأَنْيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا وَقَعَ رَدُّهُمْ .
فَانْهَى جَسَّ بالفَكْرِ أَنَّ الْقَدْرَ تَعْجِزُ عَنِ الرَّدِّ عَنْهُمْ كَانَ كُفَّارًا ، وَإِنْ عَلِمَ أَنَّ
الْقَدْرَ مُتَمَكِّنَةٌ مِنِ الرَّدِّ وَمَا رَدَتْ ، وَأَنَّهَا قَدْ تُجُوَّعُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتُشَيِّعُ الْكُفَّارَ ،
وَتَعْفَى الْعَصَةَ ، وَتُمْرِضُ الْمُتَقَىَنِ - لَمْ يَقِنْ إِلَى التَّسْلِيمِ لِلْمَالِكِ وَإِنْ أَمْضَ وَأَرْمَضَ .
وَقَدْ ذَهَبَ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَبَكَى أَبُوهُ طَوِيلًا ثُمَّ لَمْ يَيْئُسْ :
وَقَدْ قَالَ لِمَا ضَمَّ إِلَى فَقْدِهِ فَقْدَ أَخِيهِ : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا) وَقَدْ دَعَا
مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى فَرْعَوْنَ فَأَجْيَبَ بَعْدَ زَمْنٍ طَوِيلٍ ، وَكَمْ مِنْ
بَلِيَّةٍ نَزَلتْ بِمَعْظَمِ الْقَدْرِ ، فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا تَسْلِيمًا وَرَضَا ، فَهُنَاكَ يَظْهَرُ مَعْنَى
قُولِهِ : (وَرَضُوا عَنْهُ) وَهَا هُنَا يَظْهَرُ مَلْعُونَ الْإِيمَانَ ، لَا فِي رَكَعَاتٍ : قَالَ
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : « هَاسْتَوْى النَّاسُ فِي الْعَافِيَةِ ، فَإِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ تَبَيَّنُوا »

حقاً إنه يَبْيَنُ إيمان المؤمن عند الابلاء : فهو يبلغ في الدعاء ولا يرى أثراً للإِجابة ، ولا يتغير أمله ورجاؤه ، ولو قويت أسباب اليأس ؛ لعلمه أن الحق أعلم بالصالح ، أو لأن المراد منه الصبر والإيمان ؛ فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسلیم ؛ لينظر كيف صبره ، أو يريد كثرة اللجاج والدعاء . فأمامن يريد تعجیل الإِجابة ، ويتدمر إن لم تعجل - فذاك ضعيف الإيمان يرى أن له حقاً في الإِجابة ، وكأنه يتغاضى عن أجرة عمله . ومن أعظم الجهل أن يتذمر في باطنه لذلك أو لانعکاس أغراضه ، ومن الحق أن يقال : حصول الغرض لا يضر ، والدعاء لم يستجب . ولاشك أن ذلك من ضعف الإيمان ، وعدم التسلیم للحكمة الالهية .

ومن الذي حصل له غرض ثم لم يقدر ؟ هذا آدم طاب عيشه في الجنة وأخرج منها ، ونوح سأله في ابنته فلم يعط مراده ، والخليل ابتلى بالنار ، وإسحاق بالذبح ، ويعقوب بفقد الولد ، ويوسف بمجادلة المهوی ، وأيوب بالضر ، وداود وسليمان بالفتنة ، وجميع الأنبياء على هذا ، وما لقي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجموع والأذى وكدر اليش معلوم . فالدليلاً خلقت للجهاد ؛ فينبغي للعقل أن يوطن نفسه على الصبر ، وأن يعلم أن ما حصل من المراد لطف ، وما لم يحصل فعلى أصل الخلقه والحبة للدنيا كما قيل :

طُبعت على كدر وأنت تريدها * صفووا من الأقدار والأكدر
ومكلف الأيام ضد طباعها * متطلب في الماء جذوة نار
وهنا تتبين قوّة الإيمان وضعفه ، فليس للمؤمن الكامل الإيمان إلا التسلیم
للملك والتحکیم لحكمةه ، ولیقل قد قيل لسيد الكل : (لَيْسَ لِكَمَنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)
فلا يئس من روح الله ، وإن طال عناؤه في هذه الحياة . وله خير
قدوة فيمن غيره ، وامتلأت حياته بالبلاء والكدر ، ولا محيس من الصبر
على ذلك ؛ ليحظى برضا مالك الملك : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَا
يَأْتِكُمْ مثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضُّرُّاءُ وَرُزْلُوا حَقَّي

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)
وَسِيَّاتِي الْكَثِيرُ مِنْ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى الرَّضَا .

فَلَلَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ الْحُكْمِ فِي ابْتِلَاءِهِ أَنْبِيَاءُهُ وَرَسُلُهُ وَعِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ - مَا تَفَاقَرَ
عَقُولُ الْعَالَمِينَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ . وَهُنَّ وَصَلُّ مِنْ وَصْلِ إِلَى الْمَقَامَاتِ الْمُحْمُودَةِ ،
وَالنَّهَيَاتِ الْفَاضِلَةِ ، إِلَّا عَلَى جَسْرِ الْمَحْنَةِ وَالْابْتِلَاءِ :
كَذَا الْمَعْالِى إِذَا مَارَمْتَ تَدْرِكَهَا * فَاعْبُرْ إِلَيْهَا عَلَى جَسْرِ الْتَّعْبِ

الدين

قال في المصباح المنير : « وَدَانَ بِالإِسْلَامِ دِينًا (بالكسر) : تَعْبُدُهُ ، وَتَدَّيَّنَ
بِهِ كَذَلِكَ ، فَهُوَ دَيْنٌ ، مُشَلٌ سَادٌ فَهُوَ سَيِّدٌ . وَدَيْنُهُ (بِالشَّقِيلِ) : وَكْلَتِهِ إِلَى
دِينِهِ ، وَتَرَكَتِهِ وَمَا يَدِينُ : لَمْ أَعْتَرِضْ عَلَيْهِ فِيمَا يَرَاهُ سَائِغًا فِي اعْتِقَادِهِ » فَصَرَّحَ
هَذِهِ الْعِبَارَةُ أَنَّ الدِّينَ هُوَ الْعِبَادَةُ الَّتِي تَوَجَّبُهَا الْعُقْدَةُ ، وَالطَّاعَةُ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
الْتَّصْدِيقُ ، وَالْأَنْقِيادُ الَّذِي يَوْجِبُهُ الْإِيمَانُ وَيُسَيِّعُهُ . فَهُوَ نَتْيَاجُ مَقْدَمَاتِ
الْاعْتِقَادِ وَالْإِيمَانِ بِوَمَرَّةٍ غَرْسَهُمَا ، وَظَاهِرَةٍ وَجُودَهُمَا . وَمَعْلُومٌ مَا سَبَقَ
أَنَّ الْاعْتِقَادَ قَدْ يَكُونُ بِحَقِّ يَقِينِي لَارِيبِ فِيهِ : كَاعْتِقَادِ تَوْحِيدِ الْخَالِقِ ، كَمَا
قَدْ يَكُونُ بِسَاطُلِ تَزِيَّابَنِي الْحَقِّ وَنَازِعِهِ مَكَانَتِهِ : كَاعْتِقَادِ إِلَهِيَّةِ الصَّنْمِ .

وَبِذَلِكَ يَكُونُ الدِّينُ - وَهُوَ نَتْيَاجُ مَقْدَمَتِهِ ، وَفَرْعَنْبَعْتِهِ ، وَمَرَّةٌ شَجَرَتِهِ -
تَابَعًا لَهُ فِي الْأَحْقِيقَةِ وَالْبَطْلَانِ ، وَالصَّحَّةِ وَالْاعْتَلَالِ ؛ لَأَنَّ الدِّينَ قَدْ يَكُونُ
مَبْنِيَا عَلَى الْاعْتِقَادِ الْيَقِينِ الَّذِي تَعْزِزُهُ الْأَدَلَّةُ الْيَقِينِيَّةُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَطْعِيَّةُ . فَهُوَ
وَالْحَالَةُ هَذِهِ دِينٌ صَحِيحٌ ، وَمَذْهَبٌ خَالِصٌ صَرِّحَ ، لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ وَهُنَّ
وَلَا تَجْرِيْحٌ ، وَقَدْ يَكُونُ مَبْنِيَا عَلَى الْاعْتِقَادِ الزَّائِغِ ، وَالْإِيمَانِ غَيْرِ السَّائِعِ
الَّذِي يَتَعَلَّلُ مَعْنَقَهُ بِالْأَدَلَّةِ الْوَهْمِيَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الْوَاهِيَّةِ ، فَيَكُونُ دِينًا فَاسِدًا ،
وَمَذْهَبًا خَاطِئًا .

يُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلَهُ تَعَالَى : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا

أَنْتُمْ عَايِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَايِدُ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَايِدُونَ مَا أَعْبُدُ .
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِي)

قال الراغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن ما يفيد : « والدين يقال للطاعة والجزاء ، واستعير للشريعة ، ويطلق على الطاعة والانقياد للشريعة : قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (وَمَنْ أَحْسَنْ دِينًا مِّنْ أَسْلَمَ) أَى طاعة (وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ) وَقَوْلُهُ : (لَا تَغْلُبُوا فِي دِينِكُمْ) وذلك حتى اتباع دين النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أوسط الأديان ، كما قال : (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

وقوله : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قيل يعني الطاعة ؛ فإن ذلك لا يكون في الحقيقة إلا بالإخلاص ، والإخلاص لا يأتي في الإكراه . وقيل إن ذلك مختص بأهل الكتاب البازلين للجزية . وقوله : (أَفَغَيَرَ دِينَ اللَّهِ يَعْبُدُونَ ؟) يعني الإسلام لقوله : (وَمَنْ يَدْبَغُ غَيْرَ الْإِسْلَامَ دِينًا فَلَمَّا قَبِلَ مِنْهُ) وعلى هذا قوله : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ) (وَلَا يَدْعُونَ دِينَ الْحَقِّ) وقوله : (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) أى غير مجزيين .

الرابطة بين الدين والآيات

قال بعض الفلاسفة : « الاعيان وإن تنوّعت صوره قريب من الدين مرتبط به ، بل إن الدين لا يكون بدونه ، مع إمكان وجوده هو بدون الدين . وكما أن الأشياء قد تختلف في الصور والوضاع الظاهر و تكون كلها من مادة واحدة - فكذلك الاعيان والدين : هما من جوهر واحد ، وإن جاز اختلافهما في الشكل الظاهر .

وإذا أرجعنا النظر قليلاً إلى الحديث الشريف الذي سأله فيه سيدنا جبريل

عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وقوله بعد جوابه عما سأله عنه واصفاته : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم - نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أراد بالدين ما يشمل الإيمان والإسلام والإحسان . فجماع هذه الثلاثة على ذلك هو الدين . والله ورسوله أعلى وأعلم .

الإيمان بالله

الحياة تجهر بوجود الله :

قد توصل العلماء بوساطة الآلة المكثرة التي تُرى الجسم أكبر مما هو بأكثـر من ألف ألف مرة إلى أن في الأجسام الحية جراثيم صغيرة شفة لزجة خالية من اللون قوامها كقوام البيض النبـيـ . وقد راقبـها العلماء طويلاً ، وخصوصـها بأقوى ما عندـهم من المـكـبرـات ، فلم يروا لها أعضـاء ، ولا آلات ، ووجـدوا شـكـلـها واحدـاً في كل أنـواع النـباتـ والـحـيـوانـ : من الفـطـيرـ الـدـنـيـ إـلـى دـمـاغـ الـإـنـسـانـ . ووجـدوا أنها تـتـحـركـ بـحـيـثـ لا تـبـقـيـ عـلـىـ حـالـةـ ولو لـحظـةـ منـ الزـمانـ ، ولا تـزالـ تـتـناـولـ المـوـادـ غـيرـ الـحـيـةـ مـاـ جـاـورـهـ ، وتحـيـيـهاـ حـالـاـ بـطـرـيقـةـ عـجـيـبـةـ لمـ يـكـشـفـهـ الـعـلـمـ ، ثـمـ تـكـوـنـ مـنـهـاـ خـيـوـطاـ عـصـيـةـ أوـ شـرـيـانـيةـ أوـ عـظـمـيـةـ أوـ عـضـلـيـةـ أوـ نـحـوـ ذـلـكـ . وتنـسـجـ هـذـهـ الـحـيـوـطـ أـعـصـابـاـ وـشـرـائـينـ وـعـظـاماـ وـعـضـلـاتـ : فـإـنـ كـانـتـ مـاـ يـكـوـنـ عـظـماـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ عـصـباـ مـهـماـ اـسـتـعـمـلـهـاـ مـنـ الـوـسـائـطـ ، وـكـذـاـ مـاـ يـكـوـنـ مـنـهـاـ وـرـقـاـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـوـنـ ثـمـراـ ، وـمـاـ يـكـوـنـ زـهـراـ لـاـ يـكـوـنـ خـشـبـاـ ، وـقـسـ علىـ ذـلـكـ .

هـذـاـ مـعـ أـنـ جـرـاثـيمـ الـوـرـقـ وـالـزـهـرـ وـالـثـرـوـ الـلـحـمـ وـالـعـظـمـ وـالـشـرـائـينـ وـالـأـورـدةـ - هـىـ بـحـسـبـ مـاـ يـعـلـمـ وـاحـدـ أـبـداـ وـدـائـمـاـ فيـ كـلـ أـنـواعـ الـنـبـاتـ وـالـحـيـوانـ وـفـيـ كـلـ أـدـوارـ الـحـيـاةـ ، وـكـثـيرـاـ مـاـ تـكـوـنـ مـوـادـ غـذـائـهـاـ وـاحـدـةـ أـيـضاـ ، وـلـكـنـهاـ لـاـ تـخـطـيـءـ وـلـاـ تـخـلـطـ فـيـ عـمـلـهـاـ .

ثـمـ إـنـهـاـ إـذـاـ كـوـنـتـ هـذـهـ الـأـعـضـاءـ لـاـ تـرـكـهـاـ ، بـلـ هـىـ نـفـسـهـاـ تـكـوـنـ قـدـ تـجـزـأـتـ

أجزاء كثيرة وانتشرت فيها كونته لها أو عظمها أو ورقاً أو ثمراً الخ، حتى إنك تراها منتشرة في كل أنسجة الجسد بحيث لا تجد فسحةً قطرها جزء من خمسين جزء من البوصة خاليةً من هذه الجراثيم. ومقدارها في الجسد الحى نحو خمسة جراماً. ومن المؤكد أن هذه الجراثيم لا تكون إلا من جراثيم حية. فإن قيل: أنت أنت حياة الجرثومة الأولى؟ وكيف تأتى أن تعطى الحياة لماجاورها من الموات غير الحياة؟ وكيف تستطيع أن تنقسم أقساماً كثيرة جداً، ولكل قسم خواص الجرثومة الأولى تماماً؟ وكيف تم أعمالها دائماً على غاية لا تقاوم؟ هنا طأطاً كل العلماء رءوسهم، وقالوا: لانعلم، ولم يكشف لنا عما هي الحياة، ولا يمكن أن تكون خاصة من خواص المادة؛ للتناقض الظاهري بينها وبين الاستمرار، بل هي عرض خارجي يؤتى به إليها ويدهبه عنها، والآتي بها إلى هذه الجراثيم ذات قدرة قدرتها بالغة إلى كل الموجودات الحية وقابضة على زمام الطبيعة.

ألا يَسِينُ من هذا أن الحياة -محور دولاب الكون، وروح العالم الحى- تجهر بوجود إله محى قادر حكيم؛ جرياً على القول الحق: إن لكل معلول علة، ولكل عمل عامل؟

موازنة:

الذين ذهبوا إلى المعرض رأوا هناك آلات مختلفة الأشكال والصفات: رأوا آلة تطحن القمح وتعجنه وتحبزه. وأخرى تبل التبغ وتفرمه وتنسقه، وأخرى تطبع الورق وتطويه وتخيطه، إلى غير ذلك. فذهلوا عن أنفسهم، وقالوا: ما أحكم الإنسان، وأعجب ما وصل إليه! ولو حاولت إقناعهم بأن هذه الآلات وجدت من نفسها، أى إن دقائق الحديد، ودقائق الخشب تجمعت وتركت، فصار بعضها عوارض، وبعضها مخازن، وبعضها دواوين، وبعضها أساطير إلى غير ذلك من الأجزاء المختلفة الأقدار والهيئات، ثم تركت على أوضاع خاصة، فتألفت منها تلك الآلات العجيبة، ثم إن هذه الآلات

جذبت إليها الفحم من طبقات الأرض ، وأضرمت فيه النار ، وملأت جوفها من مياه الينابيع ، فسخن الماء بحرارة النار ، فصار بخارا ، ورفع الأساطين التي فوقه فارتقت ، وأدارت الدواليب الكثيرة ، وحركت الأدوات المختلفة ، فأحدث ذلك طحن القمح وعجن الطحين ، وخبز العجين ، وطبع الورق وبيل التبغ الخ ، وقد جرى كل ذلك ولم تدخل فيه يد الإنسان . لو جهرت لهم بهذه النتيجة لعدوك مجنونا أو هاذرا ، بل من تراه يسلم بذلك ؟ وأى عقل يعتقد سخيفاً كان أو ثقيفياً ؟ أيمكن أن توجد هذه الآلات من نفسها ؟ أيمكن أن تختار هذه الأوضاع بلا صانع قادر على صنعها ؟ كلا ؛ فالعقل والنقل لا يسلمان بذلك ، بل يرفضانه . لكن ما هذه الآلات بالنسبة إلى أصغر ضروب الحيوان التي لصغرها لا تراها العين ، والتي لو جمع ألف حيوان منها معاً مابلغ جرمها كلها جرم الحزرة الصغيرة ؟ ما هذه الآلات بالنسبة إلى العفن الذي نراه متذمراً كالماد الأخضر ؟ وإذا نظرنا إليه بآلة التكبير رأينا غابات من الأشجار ، وكلها تحيا وتنمو على صورة قصرت عقول البشر عن إدراك كنها ! !

من يتجرس فيقول : إن هذه الحيوانات وهذه النباتات وجدت هكذا من نشاء الطبيعة ؟

لكن ما هذا بالنسبة إلى الحيوانات الكبيرة ذات الأيدي والأرجل والعيون والأذان ؟ أين آلات البشر من جسد الإنسان ؟ من عينيه ذات الطبقات الكثيرة والتراكيب العجيبة ؟ فلو جمعت كل آلات البشر شرقاً وغرباً ما ساوت كلها عيناً واحدة في الإتقان والغرابة ، ولو اجتمع كل علماء الأرض وصناعها ، وأرادوا أن يصنعوا عيناً باصراً كعين البوضة ، وصرفوا عمرهم كله في هذا العمل إلى أن حانت منيتهم - لجئتهم في آخر حياتهم وقدرموا آلاتهم في النار ، وقالوا كلهم : عجزنا عجزنا .

ليس في ذلك شيء من المبالغة ، لأن سبيل الحياة والنور لم ينحط فيه إلا إنسان

فيما مضى ، ولا يُؤمل أنه يخطو فيه فيما يأتي . وأيسر على الإنسان أن يصدق باقامة سلم يصل من الأرض إلى الشمس من أن يصدق بامكان عمل عين باصرة ، أو أذن سامعة ، أو جرثومة نامية :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذِبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَإِنْ يَسْلُبُوهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَقْدِمُوهُ مِنْهُ ضَعْفًا الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقٌّ قَدْرٍ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

وإن كان لا يمكن الآلات التي يعملها الإنسان أن تكون من نفسها ، بل لابد لها من صنع قادر على عملها ، وهي دون الآلات الموجودة الحية بمالا يقدر - فمن يصدق أن هذا العالم العظيم مع ما فيه من الأجسام الحية التي لا تقع تحت الحصر أوجد نفسه ؟

وخلاصة ما تقدم : أن الكائنات الحية تنطق بوجود خالق قادر خلقها وأحياناها . وليس هذا قولًا جرى على لسان الخلق - كما يزعم بعض المتكلسين - بل هو حقيقة وقف العلماء عندها ، وحكم أذعن له مشهورو الباحثين .

عنابة الله :

قلت سابقاً : إن جميع الأجسام الحية مؤلفة من جراثيم زلايلية شفة ، وإن ترکيها واحد في جميع أنواع النبات والحيوان . أما هذه الجراثيم فركرة كيمياء يأْمن أربعة عناصر بسيطة وهي : الأكسجين والميدروجين والنتروجين والكربون : فالأكسجين : غاز شف كالهواء يشعل أكثر الأجسام وإن كانت باردة ، وفيه خاصة لقوية اشتعال الأجسام المشتعلة .

والميدروجين : غاز شف للأكسجين ، ولكنه أخف منه كثيراً ، وأخف من كل العناصر المعروفة ، ومن جملة خواصه أنه يتحد بالأكسجين فيتكون منها ماء . وكل المياه التي على الأرض وفي البحر وفي السحاب مركبة من الأكسجين والميدروجين .

والنتروجين : غاز شف كالأكسجين ، ولكن خواصه تختلف خواص الأكسجين والميدروجين . وهو يتحد بالأكسجين فيتكون من اتحادهما حواضن شديدة الفعل : أهمها الحامض التريك أي ماء الفضة الذي يذيب الفضة وأكثر المعادن ، ويميت الأنسجة الحيوانية والنباتية كما لا يخفى قلت : إن الجراثيم الحية مركبة من هذه العناصر الأربع : فلو اتحد الأكسجين بالميدروجين عند أول اتصالهما لحدث من ذلك ماء فقط ، وبقى النتروجين والكريبون معلقين . ولو اتحد الأكسجين بالكريبون لتكون من ذلك غاز سام . ولو اتحد الأكسجين بالنتروجين لتكون منهما حامض أكال . ولو اتحد الميدروجين بالكريبون لتكون منهما غاز قابل الاشتعال . ولو جمعت هذه العناصر الأربع وتركت ما أمكر . أن يتربك منها إلا هذه المركبات ، ولكنها غير حية . وأكثرها مضر بالحياة .

فمن يخالف السنن الكونية ويركب هذه العناصر ، ويجعل منها أصلًا حيا ، ويعتنى بها دائمًا حتى لا تنحل ولا تترتب بخلاف ذلك ؟ ومن يعطي هذه الجراثيم قوة ، حتى تكون في النبات نباتا ، وفي السمك سمكًا ، وفي الطير طيرا ، وفي الإنسان إنسانا . ويحكم عليها ، ويعتنى بها في كل أدوار حياتها حتى لا تخطئ أبدا ؟ مع أنه لم يهد عن جرثومة نبات كونت حيوانا ، ولا عن جرثومة سمك كونت إنسانا ، مع أن الجراثيم واحدة دائمًا ، وتركيتها غير متغيرة في كل أنواع النبات والحيوان ، وفي كل أدوار الحياة .

قل لنا من يرتاب في العناية الإلهية لو بطلت العناية حقيقة ؟ أما كان أوكسجين الهواء يحرق الجسد كما يحرق الحديد ؟ أما كان أوكسجين جسده يتحد بهيدروجينه فيصير ثلاثة أرباعك ماء ؟ أما كان أوكسجين جسده يتحد بنتروجينه فيصير حامضاً أكالاً ويأكل البدن ؟

قل لنا يامن تشك العناية - لو انتفت العناية كما تزعم - فمن كان يمنع جراثيم

جسديك من أن تكون لحماً فقط ، فتصير كلك لحماً لا عظم فيه ، أو أن تكون عظماً فقط ، فتصير كلك قطعة من عظم ، أو أن تكون دماً فقط ، فتصير بركة دم تنتن عما قليل ، وتهب راحتلك الخبيثة في الأقطار ؟
شمول عناية الله :

ومن الناس من يقول : إن الله معتن بالأمور الكبيرة ، ولكنه لا يلتفت إلى الصغيرة : (ومَا يَعْرِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِيقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) . فلو صح زعمهم وترك صغار الأشياء لترك الجرائم نفسها ، لأنها من أصغر ما يوجد . ولو تركها سنة واحدة لخرب نظام العالم ، وصار الإنسان يزرع أرضه فيما فتنبت له عقارب ، وينصب كرمه علينا فيخرج له حيات ، ويتزوج بأمرأة فتلد له جنادب ، ويركب على فرس فيستحيل تحته ضفدع !!

ولا تظن أني خرجت بهذا من معرض الجدل إلى معرض الم Hazel . بل الحق أنه لو انقطعت العناية لحظة من الزمان لتذر علينا أن نعرف مصير هذه الجرائم . أما الذين أرادوا أن ينكروا العناية فقد بذلوا جدهم في جمع شواد الكون لاثبات دعواهم ، ولما وجدوها شيئاً لا يذكر بالنسبة إلى أموره القياسية أخذوا يبحشون عن سبب في المادة يجعلها تسير على سنن واحد ، وإلى الآن ما وجدوا .

أما ما تقدم فكاف لاقناع غير المكابر بأن حياة الأجسام الحية تقتضي وجود إله محى ، وإنماها وظائفها بلا خلل يستدعي كون هذا الإله ناظراً إليها ومعتنياً بها .

العالم الأدبي يدل على وجود الله وعلى عنايته :

قد ظهر من البحوث الواافية أن الإنسان قد اعتقاد في كل أين وأن وجود إله ، ووجوب العبادة له . ولا يخلو هذا الاعتقاد أن يكون غريزة في فطرة البشر : « كل مولود يولد على الفطرة » أو استنباطاً وصلوا إليه بالدليل ،

أو إعلاناً جاءهم بحى من هذا الإله : فإن كان غريرة في فطرتهم فالذى فطرهم عليه هو خالقهم ، وهو خير شاهد لنفسه . وإن كان استبانته فلا بد من أنهم استبطنوه بما في الطبيعة من الشواهد على وجود الله وعنايته ، ونعم ما فعلوا . وإن كان الله سبحانه وتعالى قد أعلن لهم ذاته بطريقه ما فاعتقادهم في محله وهو عين الصواب . وعلى كل فوجود هذا الاعتقاد بين كل البشر دليل على أن آداب الإنسان تثبت وجود الله وعنايته . فالعالم الأدبي يعلن وجود الله ، ويثبت كونه معتنباً بخلاقته دائماً مثل العالم المادى .

أثر الإيمان بالله

يترب على ما تقدم أمر جوهرى جداً : وهو أن الله ناظر إلى كل فرد من أفراد البشر دائماً وأبداً . فإذا كان الله ناظراً إلينا دائماً فأى أناس يحب أن تكون ؟

يادعاة الحق ، يامن يغارون على خير بلادهم ، يامن يقصدون إصلاح العالم ، يامن يضحون بمصالحهم في خدمة وطنهم ، يامن يسفكون دمهم في طلب الراحة والحرية وإنقاذ المظلومين ورفع لواء العدل والإنصاف ، أنا أريكم طريقاً للبُلوغ أمانِيك : اذهبوا وعلموا الناس أن الله ناظر إليهم دائماً ، واطبعوا في عقولهم أن عين الله عليهم دائماً ، أى أنه مطلع عليهم ومعن بهم . اطبعوا في عقل القاضى أن الله مطلع عليه ينتَفِ كل ظلم من حكمه . اطبعوا في عقل التاجر أن الله مطلع عليه ينتَفِ كل خداع من متاجرته . اطبعوا في عقل العامل أن الله مطلع عليه ينتَفِ كل غش من عمله . اطبعوا في عقول الجميع أن الله لطيف خير يعلم ما في ملوكه من كبير وصغير يرتع الناس في بحبوحة الأمان والراحة والحرية والسعادة .

أيها الناس فتشوا عن كل الوسائل التي يمكن استخدامها لترقية شأن بلادكم تجدوا أن هذه هي الوساطة الفضلى . وإن لم يمكننا أن نغير عقول أهل الجيل الحاضر فلننسع في تغيير عقول الجيل المقبل . وفقنا الله إلى الصواب .

واعتقاد كون الإنسان مخلوقا له خالق ديان ، يرضيه العمل الصالح ، وينقضبه لعمل الطالح - يرجع نفعه إلى الإنسان ذاته ، ولو ضل معرفة ذلك الخالق ، وتأه عن حقيقته .

وهذا الاعتقاد ينبع منه إلى الفضائل ، ويقعد عن الرذائل على قدر ما يميز بين الأولى والثانية وعلى قدر رسوخ عقيدته في نفسه ورغبتة في إرضاء ربه . ولو لا ما كان للحياة قيمة ولا منها فائدة ، ول كانت في نظر الإنسان ليلا بلا فجر ، فيسأها ويقل نشاطه ، ويتذكر عيشه . فالإيمان هو في الحقيقة منشأ القوة في النفس وجمال العالم في نظر العين ، وهو الذي يجعل للحياة غرضا منها وغاية لها ، فينطلق الشخص إلى تحقيق غرضه منها ، ويسعى إلى الغاية ليدركها . والأمل بنيل الثواب في اليوم الآخر يملأ نفسه قوة واتساعاً . أما عدم الإيمان فإنه أضر بالإنسان من الاعتقاد الباطل ، لأنه أقوى العوامل المؤدية به إلى حضيض السفه والتلف .

فالإيمان بالله من أسباب رق الإنسان وسعادته . ولو لا ما كان نظام العالم ، ولا عرف معنى الواجب ولا حدوده . والواجب هو نقطة ارتكاز النظام بين الأفراد والجماعات والأمم والإنسانية عامة .

حقاً إنه ليس للشهوة قامع ، ولا للأهواء رادع - إلا الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمورات القلوب ومطويات الأنفس ، سامي القدرة ، واسع الحول والقوة ، مع اعتقاد أنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحياة .

وفي الحق أن هاتين العقائدتين وازعان قويان ، يكبحان النفس عن الشهوات ، ويعنعنها العدوان ظاهره وخفيه ، وحسامان صارمان يمحوان أثر الغدر ، ويستأصلان مادة التدليس .

وهما أفضل وسيلة لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَالْتَّوْقِيفِ عَنْ الْحَدِّ ، وَهُمَا مِجْلِبَةُ الْأَمْنِ وَمِنْسَمِ الرَّاحَةِ . وَبِدُونِ هَذِينِ الاعتقادَيْنِ لَا تَلْبِسُ الْمَدْنِيَّةَ سُرُّ بَالِ

الحياة ، ولا يستقيم نظام المعاملات ، ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش .

فالدين - وان انحطت درجته بين الأديان ، وهي أساسه - أفضل من عدمه ، وأمس بالمدينة ونظام الجمعية الإنسانية وأجمل أثرا في عقد روابط المعاملات ، بل في كل شأن يفيد المجتمع الإنساني . وفي كل ترقى بشرى إلى آية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الأولى .

ولا ريب في أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق ، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا شك أنه يكون سببا في السعادة التامة والنعيم الكامل ، ويذهب بمعتقداته في طرق الكمال الصوري والمعنوي ، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني ، ويرفع أعلام المدينة لطلاها ، بل يفيض على المتدينين من دين الكمال العقلي والنفسي ما يظفر بهم سعادة الدارين . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

إنكار الالهية

هذه العقيدة الفاسدة كلما نجحت في أمة أفسدت أخلاقها ، وأوقعت الخلل في عقولها ، وتمخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل وألوان من التلبيس ، حتى تصبح تلك الأمة وقد وهي أساسها ، وتفطر بناؤها ، واغتالتها رذائل الأخلاق من الآثرة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات ، ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضمحل ويمحي اسمها من صفحة الوجود أو تضرب عليها الذلة ، ويخلد أبناؤها في الفقر والعبودية .

وقد يظن بعض ضعفة العقول أن في جهد الإله بسطة الفكر ، وسعة الحرية ، مع أن هذه النزعة وحدها كافية في إفساد المجتمع وتزعزع أركان المدينة . وليس من ضروب الباطل ما هو أشد منها تأثيرا في محظوظات

وإثارة الخيال والرذائل . وليس من الممكن أن يجتمع لشخص واحد وهم المنكر وفضيلة الأمانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجلة :

ذلك أن كل فرد من نوع الإنسان قد أودع بحسب فطرته وبناء بناته شهوات تمثل به إلى تحصيل مشترياته ، ولا يستطيع تسكين هواه . ولا كسر سوررة نفسه إلا بنيل ما يمكنه من تلك المشتريات ، كأنه يعالج ألم الطلب بما يصل إليه من المطلوب . ولم تحدد الطبيعة طريقا معينة يسلكها الراغبون للوصول إلى رغائبهم : فسييل حق ، وسييل باطل ، وسييل الفتنة والفساد ، وسييل المهدى والرشاد ، وسييل سفك الدماء واغتصاب الحقوق ، وسييل الإجمال والتعفف . وكلها ميسر للطالب غير متسع على السالك .

فقصور النفوس على طريقة محدودة ، ووقف أهواها عند حدود معينة ومنعها من تجاوز حد الاعتدال في آثارها وأعمالها ، وإرضاء كل ذي شهوة بحقه ، وكفه عن الاعتداء والاجحاف بحقوق غيره . هذا كله إنما يكون بأحد أمور أربعة : دفاع شخصي ، وشرف نفسي ، وحكومة رادعة ، واعتقاد بالله مجاز في حياة بعد هذه الحياة .

الأول : أما المدافعة الشخصية فكفاح وضراب ، ونضال وقتل ، وجلاد تسيل به الــأــودــية مهجا ، وتخضــلــ بهــ الــرــبــ دــمــا ، وتنفــانــ بهــ النــفــوــســ طــلــبــا للــحــقــوقــ ، أو دــفــاعــاــ عــنــهــاــ . و تكون الدائرة للأقواء على الضعفاء ، حتى إذا قوى الضعفاء يوما ما ثاروا على الأقواء ، فلا يزال صاحب القوة يطعن الــضــعــيفــ ، والأقران يــســعــقــ بــعــضــهــمــ بــعــضــهــ ، إــلــىــ أــنــ يــعــمــ جــمــيــعــهــمــ الــفــنــاءــ . وينقرض النوع الإنساني من وجه البسيطة .

الثاني : وأما شرف النفس فصفة تنكب بصاحبتها عن اتيان ما يلزم عند قبيلته ، وغضيان ما يصبح في أنظار عشيرته . ويقابلها خســةــ النــفــســ : وهي صفة لا يتأثر بها صاحبها من التشنيع ، ولا تتفعل نفسه من التقييع

صفة شرف النفس ليست لها حقيقة معينة ، ولا هي في حدود معروفة

عند جميع الأمم حتى يمكنهم بالمحافظة عليها أن يقفوا بالشهوات عند حد الاعتدال : ألا ترى أن كثيرا من الأمور بعد ارتكابه عند بعض الأمم خسارة ودناءة ، وهو دعيمه عند بعض آخر شرف ورقة يستتبع المدح والثناء ، على أنه في الحقيقة شر الشروق وأعظم الفجور ؟ . وذلك كالغارة عند سكان البايدية وأهل الجبال وسكان المدن وأهل الحضارة ، وكذلك الحيلة والمكر يحسبهما قوم خسارة وخيانة ، وآخرون حكمة وعقلاء . واعتبر ذلك في الطبقات المتعددة في الأمة الواحدة : فقد يكون الشيء عند بعض الطبقات في ذروة الشرف والكمال ، وهو عند الطبقة الأخرى خارج عن حد الاعتدال : فذوو السلطان لا يبالغون بنقض العهود وخرق الزمم خصوصا مع من دونهم في السلطان ومن لا يضار بهم في القوة ، ولا يأنفون الظلم ولا ينكرون الغدر ، ولا يتجرأون مذمة من تملك المذام ، ولا يدعون شيئا منها خسارة ، ولا يحسبونها من غاشيات الدناءة ، مع أن واحدا من هذه الأعمال لو صدر من آحاد الرعية بعضهم مع بعض - لعد من دنيات الفعال ، ورمي صاحبه بخسارة النفس وسقوطها . هذا كله إذا فرضنا وقوف كل طالب لشرف النفس عند ما يطيشه شرفا ، لا يخالفه إلى سواه لاختفائه ولا جهرة ، لكن من حيث كان الباعث على التبخل بهذا الوصف إنما هو الرغبة في تحسين المعيشة والفرار من مصانعها - فقلما يستوي ظاهر الإنسان وباطنه في هذه الصفة ؛ فهو في معلنات أمره يسلك سبل الشرف ليتأل حظه من ميل القلوب إليه ، ثم لا يمنعه ذلك غشيان الخيانة الخفية ، وغمض يده في قدر العدوان من وراء حجاب التستر ، وبسط كفه لتناول الرشوة في زوايا المحاكم ؛ لأن طالب خفض العيش يعرف أن هذه الخبائث الخفية تصل به إلى مقاصده من السعة على أمن من الاشتئار بصفة الدناءة . وذلك معروف من أحوال الظاهرين في ثياب الشرف والعفة ، والله أعلم ماذا يسترون تحت ذيولهم ، وما يضمرون دون جيوبهم ، وما يحتاجون من الأموال في خزانتهم .

فاذن لا يليق بذى عقل أن يجعل شرف النفس ميزانا للعدل . ولا مجال للظن بأن هذه الصفة تقف بكل عند حده ، وترضيه بحقه ، وتكف النقوص عن غصب الحقوق ، وتدفعها عن الجور وتنعها الحيف ماظهر منه وما باطن . ولم تبق ريبة في قصور هذه الخلة عن الكفاية في تعديل الأخلاق ، وتحديد الشهوات وحجب العدوان ، وحفظ النظام الإنساني ، اللهم إلا أن تكون مستندة إلى عقيدة في دين ، وتكون حقيقتها محدودة في ذلك الدين ، فعند ذلك تكون دعامة لبناء الشركة الإنسانية ، ومعقدا لروابط الألفة ، وسيما لانتظام سلسلة المعاملات ، لاستنادها على الدين لا بنفسها مجردة .

الثالث : الحكومة : ليس يحاف أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر ، ورفع الظلم بين . أما الاختلاس والزور المموج ، والباطل المزين ، والفساد الملوّن بصبغ من الصلاح ، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات - فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفیيات الحال ، وكامنات الدسائس ، ومطويات الخيانة ، ومستورات الغدر ، حتى تقوم بدفع ضرره ؟

على أن الحكم وأعوانه قد يكونون - بل كثرا ما كانوا ويكونون - من تملّكهم الشهوات . فأى وازع يأخذ على أيدي أصحاب السلطة ، وينعمون مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم ؟ وأى غوث ينقد ضعفاء الرعايا ، وذوى المسكنة منهم - من شره أو لعنه المتسليطين وحرصهم ؟ قد يكون الحكم في خفي أمره رئيس السارقين ، وفي جلى حاله قائد الناهبين ، وأعوانه آلات يستعملها في الجور ، وأدوات يستعين بها على الفساد والشر ، فيعطّلون من حقوق عباد الله ، ويهدّكون من أعراضهم ، ويغنمون من أموالهم : يرون ظمآن شهوتهم بدماء الضعفاء ، وينقضون قصورهم بمهرج الفقراء ، ويكون مبلغ سعيهم هلاك العباد ودمار البلاد !!

الرابع - الاعتقاد بأن لهذا العالم صانعا قادرًا محيط العلم نافذ الحكم ، وأنه

يوف كل عامل جراء عمله : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَهُ) - ثوابا جزيلا ، أو عقابا ويلات في حياة بعد هذه الحياة . حقا إن الإيمان بذلك هو وحده الكفيل بقمع الشهوات ، وردع الأهواء . وقد سبق الكلام في ذلك ، فلحوظ القلوب من هاتين العقيدتين (الاعتقاد بالله ، وبالثواب والعقاب في الحياة الأبدية) - لسكنتها شياطين الرذائل ، وسدت عليها طرق الفضائل . ومن أين لمنكر الجزاء أن يكفر نفسه عن خيانة ، أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق ؟ وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هي نفسه ، فإن لم يؤم من ثواب ، وعقاب ، وحساب وعتاب في يوم بعد يومه - فما الذي يمنعه ذمام الفعال ؟ خصوصا إذا تمكן من إخفاء عمله ، وأمن سوء عاقبته في الدنيا ، أو رأى منفعته الحاضرة في ركوب طريق الرذيلة ، والعدول عن سنن الفضيلة ، وأى حامل يحمله على المعاونة ، والمرادفة ، والمرحمة ، والمرودة ، وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التي لاغنى للمجتمع عنها ؟

(ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد ، أو كان أبتر ناقصا ، لفقد ما يمد من سائر صفات الكمال) . الحق أن جحدة الالهية في أي أمة ، وبأى لون ظهروا - كانوا ولا زالون يسعون لقلع أساس هذا القصر المسدود الشكل : قصر السعادة الإنسانية القائم بستة جدران : ثلاثة عقائد ، وثلاث خصال ، (وسيأتي الكلام عليها) أعراض أفكارهم تدكدهك هذا البناء الرفيع ، وتلقي بهمدا النوع الضعيف إلى عراء الشقاء ، وتهبط به من عرش المدينة الإنسانية ، إلى أرض الوحشية الحيوانية .

وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان جميعها ، وعدها أوهاما باطلة ، ومجعلات وصفية ، وبنوا على هذا أن لاحق ملة من الملل أن تدعى لنفسها شرفا على سائر الملل اعتمادا على أصول دينها ، بل الأليق بها - على رأيهما -

أن تعتقد أنها ليست أولى من غيرها بفضيلة ، ولا أجر بمزية . ولا ينفي ما يتبع هذا الرأى الفاسد من فتور الهمم ، وركود الحركات الإرادية عن قصد المعالى ، كما يأتي بيانه إن شاء الله .

قالوا : إن الإنسان في المنزلة كسائر الحيوانات ، وليس له من المزايا ما يرتفع به عن البهائم ، بل هو أحسن منها خلقة ، وأدنى فطرة . فسلوا بذلك على الناس إتيان القبائح ، وهونوا عليهم اقتراف المنكرات ، ومهدوا لهم طرق البهيمة ، ورفعوا عنهم معايب العدوان .

ذهبوا إلى أنه لا حياة للانسان بعد هذه الحياة ، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية : تنبت في الربيع مثلاً ، وتيسس في الصيف ، ثم تعود تراباً . والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمة . وبهذا الرأى الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأمين ، ودفعوها إلى أنواع العدوان : من قتل وسلب وهتك عرض . ويسرروا لها الغدر والخيانة ، وحملوها على فعل كل خبيثة ، والوقوع في كل رذيلة ، وأعرضوا بالعقل عن كسب السكال البشري ، وأعدموها الرغبة في كشف الحقائق وتعلم أسرار الطبيعة .

متى ظهر جحود الإلهية في أمّة نفذت وساوسهم في صدور الأشرار من تلك الأمة ، واستهوت عقول الخبائث الذين لا يهمهم إلا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهم من أي وجه كان ، لموافقتهم هذه الآراء الفاسدة لأنّهم الخبيثة ، فيميلون معهم إلى ترويج مشرّبهم وإذاعته بين العامة غير ناظرين إلى ما يكون من أثره . ومن الناس من لا يساهمهم أراءهم ، ولا يضرّب في طرقوهم ، إلا أنه لا يسلم من مضارتها ومجاصدها ؛ فإن الوهن يلم بأركان عقائده ، والفساد يسرى إلى أخلاقه من حيث لا يشعر ؛ إذ أنّ أغلب الناس مقلدون في عقائدهم منقادون للعادة في أخلاقهم ، وأقل التشكيل وأدنى الشبهة يكفي علة لزعزعه قواعد التقليد ، وضعيضعة قواسم العادة . وإن هؤلاء الجحدة بما يقدّرون بين الناس من أباطيلهم يبذرون في النفوس بذور المفاسد ، فلا تلبث أن تنمو في تراب الغفلة ، فت تكون ضريعاً وزقماً .

ولهذا قد يعم الفساد أفراد الأمة التي تظهر فيها هذه الطائفة ، وكل لا يدرى من أى باب دمر الفساد عليه قلبه . فتشريع بينهم الخيانة والغدر والكذب والنفاق ، ويتهتكون حجاب الحياة ، وتصدر عنهم شنائع تنكرها الفطرة البشرية . يأتون ما يأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تحرج . وكل منهم وإن كان يدعى بلسانه أنه مؤمن يوم الجزاء ، وفي نفسه أن ذلك اعتقاده واعتقاد آبائه ، إلا أن عمله عمل من يعتقد أن لا حياة بعد هذه الحياة لسريران عقائد المنكرين إلى قلبه ، وهو في غفلة عن نفسه

فلهذا تغلب عليهم الأثرة ، وهي إفراط الشخص في حب نفسه إلى حد لو عرض في طريق منفعته مضررة كل العالم لطلب تلك المنفعة ، ومن أثر هذه الصفة أن صاحبها يؤثر منفعته الخاصة على المنافع العامة ، ويبعث وطنه وأمته بأبخس الأثمان ، بل لا يزال به الحرص على هذه الحياة الدنيا يبعث فيه الخوف ، ويُكن فيه الجبن حتى يسقط به في هاوية الذل ، ويكتفى من الحياة بمدّها ، وإن كانت مكتنفة بالذلة ، محاطة بالمسكينة ، مبطنة بالعبودية . فإذا وصلت الحال في أمة إلى أن تكون آحادها على هذه الصفات تقطعت فيها روابط الالئام ، وتمزقت وحدتها الجنسية ، فقدت قوتها الحافظة ، وهو هو عروش مجدها ، وهجرت الوجود كاهجرها .

اختلاف العقائد

واختلاف أنصارها

إن آراء الناس تتباين في تقريرها الحقائق عن الأديان ، وتقرير الصور المختلفة المتناقضة للوجه الواحد تدل أوضح دلالة على خطأ التقرير ، وعلى بقاء الحقيقة ضائعة بين الأباطيل . وهذا يستدعي وجوب تلمسها ، والبحث عنها ، ولزوم إعلان الباحث آرائه لتمحيصها : لجواز الخطأ والصواب فيها . فلو لا البحث عن الفاقد ما وجد ، ولو لا التحقيق ما عرف الطيب من

الحقيقة ، ولو لا إفراط في الحذر والاحتراس لاجتاز العالم نور المداية إلى الحق من زمان بعيد ، ولرجوع الناس إلى دين واحد وإله واحد ، ولزال من بينهم موجب خلافهم وداعم تقاطعهم ، ولشتم العالم السكون والسلام : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ جَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَّ الْوَنَّ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) .

ولما كانت العقائد مختلفة ، وكان الناس ينتصر كل لعقيدته لتسليمها بسلامتها من الشك وبفساد ما يخالفها - (كُلُّ حِزْبٍ يُمَا لَدَهُمْ فَرِحُونَ) ، (وَلَا تَسْبِحُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُحُوا اللَّهُ عَدُوًا لَّعْنَةٌ عَلَيْهِ ، كَذَلِكَ رَبَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمِلُهُمْ ثُمَّ هَلَى رَبِّهِم مَرْجِهِمْ فَيَنْبَغِيُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) لما كانت العقائد كذلك كثرة الخلاف بين أنصار كل دين والمتألين عليه من الأديان الأخرى : كل يدعى أن الحق حليفه ، والصواب أليفه ، وأن من سواه ليس على جانب الحق ، ولا على سبيل الصواب : (وَقَاتَ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَاتَ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَلَوَّنُ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَعْلَمُ كُمْ بِيَدِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

ونشأ من هذا الخلاف قيام من أنكرها جميعاً وناهضها جميعاً .

إنكار الاسلام تجاه الاديان

جاء الاسلام والناس شيع في الدين ، وكأنوا - إلا قليلاً - في جانب عن اليقين ، يتباذلون ويتعلّعون ، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون . فرقه وتخالف وشغب ، يظلونها في سبيل الله أقوى سبب ، أنكر الاسلام ذلك كله ، وصرح تصريحاً لا يتحمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان ،

وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد . قال الله تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا آخْتَلَ الدِّينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِغَيْرِهِمْ) (وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَائِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (شَرَعَ لَكُمُ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ ، وَمَا وَصَّنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبِرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخَذَ بَعْضُنَا بَعْضًا إِرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

وكثير من ذلك يطول إبراده في هذه الورقيات . والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشقة ، مع ظهور الحجة واستقامة الحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه - معروفة لـ كل من قرأ القرآن ، وتلاه حق تلاوته .

أصول دين الله واحدة واختلاف الفروع رحمة :

نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إبراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه : مما هو مصلحة للبشر ، وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة . قد ضمته كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسليه ، ودعا العقول إلى فهمه منه ، والعزم إلى العمل به . وإن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف ، وإن العجاج والمراء في الجدل مفارقة للدين ، وبعد عن سنته . ومتى روحت حكمته ، ولوحظ جانب العناية الإلهية في الانعام على البشرية . — ذهب الخلاف

وتروجت القلوب إلى هداها ، وسار الناس جميعاً في مرادهم إخواناً بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين .

فالآديان كلها ترمي إلى غاية واحدة : هي عبادة موجد الوجود وخالق الكائنات . أما صور العبادات ، وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الآديان سابقاً مع لاحقها ، والآحكام متقدمة مع متأخرها فصدر ذلك رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ماعلم فيه الخير للأمة وللامامة لزمان ، وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتاريخ في تربية الأشخاص : من خارج من بطنه لأعلم شيئاً ، إلى راشد في عقله ، كامل في نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره - كذلك لم تختلف سنته ، ولم يضطرب هديه في تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب ، من يوم خلقه الله ، إلى أن يبلغ به من الكمال منها ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النبوة قائماً على ما يقرره الفطرة الإلهية في شأن أفراده . ومن هنا تظهر حاجة البشر إلى الرسالة ، وتتجلى رحمة الله تعالى بخلقه في تتبع إرسال الرسل إليهم بالآديان التي تناسب استعدادهم وأزمانهم ، فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات وجود الإنسان ، ومن أهم حاجاته في بقاءه ، ومن زانها من النوع منزلة العقل من الشخص . فرحة أمتها الله ؛ لكن لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

ماؤفادته الآديان من العقائد والخلاص :

أُكسب الدين عقول البشر ثلاثة عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاثة خصال : كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء المجتمع ، وأساس حكم ملديتها . وفي كل منها سائق يحيث الشعوب والقبائل على التقدم نحو غايات الكمال والرقي إلى دار السعادة ، ومن كل واحدة وازع قوى يساعد النفوس عن الشر ، ويزعها عن مفارقة الفساد ، ويصدّها عن مقاربة ما يبيدها ويددها .

العقائد الثلاث :

الأولى — التصديق بأن الإِنْسَان ملك أرضى ، وهو أشرف المخلوقات .
 الثانية — يقين كُل ذى دين بأن أُمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

الثالثة — جزمه بأن الإِنْسَان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كُل يهبه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي ، والانتقال من دار ضيق الساحات ، كثيرة المكر وهاط ، جديرة بأن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام ، إلى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لاتنقضى سعادتها ، ولا تنتهي مدتها .

لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة في الاجتماع البشري والمنافع الجمة في المدينة الصحيحة ، وما يعود منها بالصلاح على روابط الأمم وما يكل واحدة من الآئر فيبقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة والمواعدة والأخذ بهم الأمم إلى الصعود في مراقى الكمال النفسي والعقلي ، وإليك البيان :

العقيدة الأولى :

من بين أن لكل عقيدة مظاهر لازايلها : فن مظاهر الاعتقاد بأُن الإِنْسَان أشرف المخلوقات — ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الحصول الضروري ، واستنكافه عن ملائكة الصفات الحيوانية . ولا ريب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه إلى العالم العقلي ، وكلما سما عقله أوفي على المدينة ، وأخذ منها بأوفر المخطوط ، حتى ينتهي به الحال إلى أن يكون واحداً من أهل المدينة الفاضلة ، يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجة على قواعد الحكمة ، وأصول العدالة . وتملئ نهاية السعادة الإنسانية في الدنيا ، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها .

فهذه العقيدة أعظم صارف للاِنسان عن مصارعة الحرث الوحشية في معيشتها ، والثيران البرية في حالتها ، ومصاربة البهائم السائمة ، والدواوب الهمامة ، والهوام الراسحة التي لا تستطيع دفع مضرها ولا التقى ، ولا تهتم طريقاً لحفظ حياتها ، وتقضى آجاها في دهشة الفزع ، ووحشة الانفراد . هذه العقيدة أشد زاجر لأنباء الإِنسان عن التقاطع المؤدى إلى افتراس بعضهم ببعض ، كما يقع بين الأسود الكاسرة ، والوحوش الضاربة ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات في خسائص الصفات . وهذه العقيدة أحجى حادل الفكر في حركته ، وأنجح داع للعقل في استعمال قوته ، وأقوى فاعل في تهذيب النقوس وتطهيرها من دنس الرذائل . إن شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون أن الإِنسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنيا والرذائل ، وإلى أى حد تصل بهم الشرور ، وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقوتهم عن الحركات الفكرية ؟

العقيدة الثانية : ومن مظاهر يقين الأمة بأنها أشرف الأمم ، وجميع من يخالفها على الباطل - أن ينهض آحادها لـكاثرة الأمم في مفاخرها ، ومساماتها في مجدها ، ومسابقتها في شرائط الأمور وفضائل الصفات ، وأن يتافق جميعها على الرغبة في فوت جميع الأمم ، والتقدم عليها في المزايا الإِنسانية ، عقلية كانت أو نفسية ، ومعاشية كانت أو مادية . وتأني نفس كل واحد عن اقتراف الذينة ، والرضا بالضمير لنفسه ، أو لأحد من بنى أمتة . ولا يسره أن يرى شيئاً من العزة ، أو مقاماً من الشرف لقوم من الأقوام ، حتى يطلب لأمتة أفضله وأعلاه ؛ ذلك أنه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل ما يعود شرفاً إنسانياً .

فإن جارت صروف الدهر على قومه ، فأضر عتهم أو ثلمت مجدهم ، أو سلبتهم

مزية من مزايا الفضل - لم تستقر له راحة ، ولم تفتّ له حمية ، ولم يسكن له حيشان ، فهو يمضى حياته فى علاج مالم بقومه ، حتى يأسوه ، أو يموت فى أساه . فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق إلى غايات المدينة ، وأمضى الأسباب إلى طلب العلوم والتتوسع في الفنون والإبداع في الصناعات ، وإنها لأبلغ في سوق الأمم إلى منازل العلاء ، ومقاومة الشرف : من غالب قاسى ، ومستند قاهر عادل .

وإن أردت فالمجتمع يعقللك حال قوم فقدوا هذا اليقين : ماذا تجد من قبور في حركات آحادهم نحو المعالى ؟ وماذا ترى من قصور في هممهم عن درك الفضائل ، وما ينزل بقواهم من الضعف ، وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكينة ، وإلى أى هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصا إذا بعى عليهم الجهل ، فظنوا أنهم أدنى من سائر الملل ؟

العقيدة الثالثة : ومن مقتضيات الجزم بأنّ الإِنسان ماورد هذا العالم إِلَيْهِ يتزود منه كلاً يعرج به إِلى عالم أرفع ، ويرتحل به إِلى دارٍ أوسع ، وجناب أمرع أن من أشربت هذه العقيدة قلبه ينبعث بحکمها ، وينساق بحاديتها لاِضطرار عقله بالعلوم النافعة ، والمعارف الصافية ؛ خشية أن يهبط به الجهل إلى نقص يحول دون مطلبها . ثم ينصرف همه لِبراز ماؤود فيه من القوة السامية ، والمدارك العقلية ، والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ، فينجلي كماله من عالم الخفاء إِلى عالم الظاهر ، ويرتقي من درجة القوة إلى مكانة الفعل ، فهو ينفق ساعاته في تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولا يناله التقصير في تقويم ملائكته النفسية ، وينزع لـكسب المال من الوجوه المشروعة متنكباً عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والاحيلة ، معرضًا عن أبواب الرشوة ، متربعاً عن الملق الكلبي ، والخداع الشعبي

ثُم ينفق ما كسب في الوجه الذي يليق ، وعلى الوجه الذي ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي ، لا يأتي فيه باطلًا ، ولا يغفل حقًا عما أُوهِيَّ .

فهذه العقيدة أحجم مرشد ، وأهدى قائد للإنسان إلى المدينة الشابة المؤسسة على المعارف الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أقوى ركن في بناء المجتمع الذي لاعمد له إلًا معرفة كل واحد حقوقه ، وحقوق غيره ، والقيام على صراط العدل المستقيم . هذا الاعتقاد أبجح النرائع لتوثيق الروابط بين الأمم ؛ إذ لا يعتقد لها إلامراعاة الصدق ، والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات .

هذا الاعتقاد نفحه من روح الرحمة الأزلية ، تهب على القلوب بيرد المهدو والمسلمة ؛ فان المسالمة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسيجايا الحُسْنَة ، وهي غراس تلك العقيدة التي تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيه من متاه الشقاوة وتعاسة الجد ، وترفعه إلى غرف الحضارة الصحيحة الفاضلة ، وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة ؛ فكم يبدو لك فيه من شقاوة وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واحتلاس !! وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والإغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد !! وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة من نور المعرفة !!

الخصال الثلاث

وأما الخصال الثلاث التي توارتها الأمم من تاريخ قد لا يحده قدمًا ، وإنما طبعها في نفو سهم طابع الدين :

فأحدها - خصلة الحياة : وهو انفعال النفس من إتيان ما يجلب اللائمة ، وينحي عليها بالتوبيخ ، وتأثيرها من التلبس بما يعبد عند الناس نقصا . وفي الحق أن يقال : إن تأثير هذه الخلطة في حفظ نظام الجماعة البشرية

وكف النفوس عن ارتكاب الشنائع - أشد من تأثير مئين من القوانين وآلاف من الشرط والمحتسبين ؟ فإن النفوس إذا مزقت حجاب الحياة ، وسقطت إلى حضيض الحسنة والدنسنة ، ولم تبال بما يصدر عنها من الأعمال - فأى عقاب يردعها عن المفاسد التي تخلي بنظام الاجتماع سوى القتل ؟

وقد رأى ذلك (سولون) حكيم اليونان : إذ جعل القتل جزاء كل عمل قبيح ، حتى الكذبة الواحدة .

وخلة الحياة يلزمه شرف النفس : وهو ما تدور عليه دائرة المعاملات ، وتتصل به سلسة النظام ، وهو مناط صحة العقود والتزام أحكامها ، ومعصم الوفاء بالعهود ، ورأس مال الثقة بالإنسان في قوله وعمله . وشيمة الحياة هي بعينها شيمة الإباء وسجية الغيرة ، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف جهاتها وأثارها في ردع النفس عن شيء أو حملها على عمل . والإباء والغيرة هما مبعث حركات الأمم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف ، وتسمم قم الشرف والرفة ، وتفويت الشوكته وبسط جناح العظمة ، وتوفير مواد الغنى والثروة . وكل أمة فقدت الغيرة والإباء حرمت الترق ، وإن تسنى لها من أسبابه ما تنسى فهي تعطى الدنية ، ولا تتألف من الحسنة ، وتضرب عليها الذلة والمسكينة ، حتى ينقضى أجلها من الوجود .

ملائكة الحياة تنتهي إليها روابط الألفة بين آحاد الأمة في معاشراتهم ومخالطاتهم ؛ فإن جبال الألفة إنما يحكمها حفظ الحقوق ، والوقوف عند الحدود ، ولا يكون ذلك إلا بهذه الملائكة الكريمة .

هذه سجية تزين أصحابها بالأدب ، وتنفر به عن الشهوات البهيمة ، وتفيض روح الاعتدال على حركاته وسكناته وجميع أعماله .

هذا هو الخلق المفرد الذي ينهض بصاحبها لمحارة أرباب الفضائل ، ويتجاهف عن مضاجع النقاد ، ويأنف عن الرضا بالجهل والغباء أو الضعف والضراوة .

هذا الوصف السليم هو منبت الصدق والأمانة ؛ وهمما معه في قرن ، هو أداة المتعلمين ، والقائمين على التربية والدعاة إلى مكارم الأخلاق والمولعين

بترقية الفضائل صوريّة و معنوّية ، يستعملونها في نصائحهم ، يذكرون بها العاقل ، ويحرضون الناكل ، ويوقظون النائم ، ويقعدون القائم : ألا ترى المعلم الحكيم : كيف يعظ تلميذه بقوله : ألا تستحي من تقدم قريئك عليك و تختلف عنك عنه !! فإن لم تكن هذه الخصلة فلا أثر للتوبیخ ولا نفع للتقریع ولا بحاج للدعوة . فانکشف ما بینا أن هذه الخلة مصدر لجیع الطیبات ، و مرجع لكل فضیلة ، و سلم لكل ترق . و يمكن أن تمثل قوما هجر الحیاء نفوسيهم : فما ذری فيهم سوى المجاهر بالفحشاء ، والمنافسة في المنكر و شووس الطیاع ، و سوء الأخلاق ، و الاخلاد إلى دنیات الأمور ، و سفساف الشیئون ؟ وكفى بمشهدھم شناعة أن نرى تغلب الشهوت البهیة عليهم ، و تملك الصفات الحیوانیة لا راد لهم ، و تسلطها على أفعالهم !

الخصلة الثانية

الأمانة

من المعلوم الجلى أن بقاء النوع الإیساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الأعمال . وروح المعاملة والمعاوضة إنما هي الأمانة ، فان فسدة الأمانة بين المعاملين قطعت صلات المعاملة ، وانبرت جبال المعارضه ، فاختل نظام المعيشة ، وأفضى ذلك بنوع الإیسان إلى الفناء العاجل .

ثم من بين أن الأمم في رفاهتها ، والشعوب في راحتها وانتظام أمر معيشتها - محتاجة إلى الحكومة بأى أنواعها : إما جمهورية ، وإما مملكة مطلقة ، أو مقيدة . والحكومة في أية صورها لا تقوم إلا برجال يلون ضربا من الأعمال : فنهن حراس على حدود المملكة ، يحمونها من عدوان الأجانب عليها ، ويدافعون الواقع في ثغورها . وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدي السفهاء : من يهتك ستر الحياة ، ويميل إلى الاعتداء من فتك أو سلب أو نحوها . ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون ، يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات ، والحكم في المنازعات . ومنهم أهل جباية الأموال ،

يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها في ذلك، ثم يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة، وإن كانت مفاتيحها بأيدي خزتها. ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعاية، مع مراعاة الاقتصاد والحكمة: كإنشاء المعاهد والمدارس، وتمهيد الطرق، وبناء القنطر، وإقامة المسور، وإعداد المستشفيات. ويؤدي أرزاق سائر العاملين في شئون الحكومة: من الحراس والمحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسماً عين لهم.

لاريب في أن قوماً يساسون بحكومة خائنة إما أن ينقرضوا بالفساد، وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم يسمونهم خسفاً، ويستبدون بهم عسفاً، فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال. ومن الظاهر أن استعلاء قوم على آخرين إنما يكون باتحاد أحاد العالين، والتئام بعضهم بعض، حتى يكون كل منهم لبنته قومه كالعضو للبدن، ولن يكون هذا الاتحاد حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم، وعمت بالحكم أفرادهم. فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان، ومستقر أساس الحكومات، وباسط ظلال الأمن والراحة، ورافع أبنية العز والسلطان، وروح العدالة وجسدها، ولا يكون شيء من ذلك بدونها.

وإليك الاختيار في تصوير أمة عطلت نفوتها من حلية هذه الخلة الجليلة، فلا تجد فيها إلا فئات جائحة، ورزايا قاتلة، وبلايا مهلكة، وفقارا معوزاء،

وذلا معجزاً . ثم لا تثبت بعد هذا كله أن تتبعها بلا لíل العدم ، وتلهمها
أمهات اللئيم (١)

الخصلة الثالثة

الصدق

الإِنسان كثیر الحاجات ، غير معدود الضرورات . وكل ما يسد حاجاته
ويدفع ضروراته وراء ستر الخفاء محظوظ ، وتحت حجاب الغیب مکنون .
قد ف بالإِنسان من غیب يجهله إلى ظهور لا يعرفه ، فقام في بدء إنشائه في
زاوية عماء ، لا يذکر اسمًا ولا يعرف رسماً .

هذا الإِنسان على ضعفه كأنما أحفظ الأَكوان قبل وجوده ، فأرصدت
له القتال ، وهیأت له النضال ، فله في كل ثانية منها بلية كاملة ، وفي كل حِينٍ رزية
رابضة ، وكل أفقاً سُهمه في قسى الأدوار الزمنية ليصيّب مقاتل الإِنسان .
منح الإِنسان خمسة مشاعر : السمع ، والبصر ، والذوق ، واللمس ، والشم .
ولكن لاغناء بها في هدايته لاقرب حاجاته ، وإرشاده لدفع ما خف من
ضروراته ، فاحجي أن لا كفاء لها في استطلاع مکامن البلايا ، وكشف مخابي
الرزايا ، ليأخذ حذره ، ويحرز أمره . فهو في حاجة كل الحاجة للاستعانته
بمشاعر أمثاله من بنى جنسه ، والاستهدا بمغارفهم ، ليتفادي بهدايتهم بعض
لاسعات المصائب ، ويصيّب من الرزق ما فيه قوام معيشته ، وسداد عوزه .
والاستهدا إنما يكون بالاستخار ، ولا يتم فائدة الخبر في المداية إلا أن
يكون من مصدر صدق ، يحدث عن موجود ، ويحکي عن مشهود ، وإنما
المداية في خبر لا واقع له ؟

حقاً إن الكاذب يرى البعيد قريباً ، والقريب بعيداً ، ويظهر النافع في
صورة الضار ، والضار في صورة النافع . فهو رسول الجهلة ، وبعيث الغواية ،
وظهير الشقاء ، ونصير البلاء .

(١) اللئيم : الداهية

فعلى ما تقدم تكون صفة الصدق ركناً كيناً للوجود إنساني ، وعماداً للبقاء الشخصي والنوعي ، وموصل العلائق الاجتماعية بين آحاد الشعوب ، ولا تتحقق دونه ألفة مدنية أو منزلة .

وانظر فيما إذا فقدت أمة خلة الصدق : كيف ينبع الشقاء بها رواحه ، وينفذ سوء البحث فيها عوامله ! وكيف ينتشر نظامها ، ويفسد التعامده !

الدين والعلم

الآديان كثيرة ، وقد قصر بعضها صور العبادة على أوضاع وأقوال تؤدي في أوقات مخصوصة بشروط معينة .

ولما كان العلم ناهضاً إلى توسيع المدارك والعقول ، وإلى اطراح ما فيها مما يتافق مع حقائقه — قامت حرب عوان بينه وبين كثير من التقاليد ، فأخذت هذه تنكمش أمامه ، ولا زال هو يتأثرها . ومن الواضح أنه لودام الحال على هذا المنوال فلا بد من بجه يوم تزول فيه كل المعتقدات التي لا تتلامم مع روح العلم .

لقد احتفظ رجال الديانات بتقاليده وأوضاع اعتبروها دينية ، واحتفظوا بها على قدر ما سمح الوقت بيقاها وانتشارها ، وجرى الناس على منهاجها ، ثم صدمتها قوة العلم ، فزعزعت أساسها الواهية ، فكادت تتداعى ، فأخذت تطرح منها ما ظنته يقف قوتها العاديمية رغبة في البقاء . ولكن التشك بالمالوفات عاق العلم عن الإسراع بها إلى التلاشي والفناء .

العلم ينهاض كثيراً من التقاليد والمعتقدات الفاسدة ، ويتفق دائماً مع الإيمان بوحدة الخالق ؛ فإنه يثبت وحدة الوجود ، ووحدة القوة الموجدة . وعلى هذا لا يكون الخلاف بين الإيمان والعلم الصحيح ، ولا بينه وبين الدين الصحيح ، وإنما هو بين ما يرمي إليه العلم من الحقائق ، ويدركه العقل منها أو يفوته فهمه — وبين فهم حقائق الإيمان ومقتضياته من الشريعة .

لحظ العقل أن بعض الأديان مؤسس على السلطة المطلقة وعلى التسلیم بدون الاقتناع ، وأن العلم يرتكز على التجربة والتحقق بالاختبار . ولهذا قرر تعذر جمع النقيضين وموافقة المخالفين في الأساس والمبدأ ، والحال أن ما يرى متغرياً ربما لم يكن كذلك ، وإنما ظهر في تلك الصورة لقصور العقل عن إدراك مكان الاتفاق ، وأسبابه ، ودواعيه : فهناك كثير من النظريات الفاسدة لبث الناس دهوراً يعتقدونها حقائق ثابتة ، ثم ظهر فسادها عند ظهور الصواب يخالفها . إن منشأ الإيمان القلب ، ومرجعه إلى القلب ، ومنشأ العلم العقل ، وسلطانه عليه وحده .

ولما كان الدين الصحيح هو ما كانت أركانه وعقائده سالمة من الشك ومتتفقة مع العقل والحقيقة لم تكن حركة العلم إلى تحرير الأفكار وإطلاقها من قيود السخافات والأباطيل ضارة بمبادئ ذلك الدين ، ولا منافية لعقائده الصحيحة ، بل لابد من امتزاج القوتين ، والعمل بهما لتطهير المجتمع من كل فاسد يرجع به إلى عصور الجهل .

الدين الإسلامي والعقل

إبطال الإسلام للتقليد ومخاطبته للعقل :

آخر الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة صادقة بدّدت فايقه المتبغية على النفوس ، واقتلت أصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم .

صاحب بالعقل صيحة أزعجه من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هيئته من سذاته هيأ كل الوهم : « نم فإن الليل حلالك ، والطريق وura ، والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والأزواب قليلة » علا صوت الإسلام على وساوس الطعام ، وجه بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولذلكه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام : أعلام الكون ، ودلائل الحوادث . وإنما المعلمون منبهون

ومرشدون ، وإلى طرق البحث هادون .

صرح في وصف أهل الحق بأنهم : (الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّمِعُونَ أَحْسَنَهُ) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ؛ ليأخذوا بما عرفو حسنة ، ويطرحو ما لم يتبنوا صحته ونفعه . ومال على الرؤساء ، فأنزلهم من مستوى كانوا يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مراء وسיהם يخبرونهم بما يشاءون ، ويتتحققون مزاعهم على حسب ما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحق والسفاهة على الآخرين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مُسمياً لعقول على عقول ، ولا لازدган على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل لللاحق من علم الأحوال الماضية ، والاستعداد للنظر فيها ، والاتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون - ما لم يكن له تقدمه من أسلافه وأباءه ، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهر العواقب السيئة للأعمال من سبقيهم ، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم : (فَسَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائـب

عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آباءهم ، ووقفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم : (بَلْ فَنَتَّمْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا) (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهَمَّدُونَ) فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبد له ، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخصيـوغ في ذلك لله وحده ، والوقوف عند

شريعته ، ولا حد للعمل في منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بناء الإسلام على استقلال الفكر والإرادة :

بما تقدم تم للإنسان بمقتضى هذا الدين أمران عظيمان ، طالما حرمَهما :
وهما استقلال الإرادة ، واستقلال الرأي والفكر . وبهما كملت له إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله لحكم الفطرة التي فطر عليها .
وقد قال بعض حكام الغربين من متأخرِيهم : إن نشأة المدينة في أوروبا ، إنما قامت على هذين الأصلين : فلم تهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقاً في تصريف اختيارهم ، وفي طلب الحقائق بعقولهم . ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح عليه السلام .
وقرر ذلك الحكم : أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ، و المعارف المحقين من أهله في تلك الأزمان .

دعوة الإسلام إلى فهم الدين :

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استئشراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرب المقدسة ، ففرضوا على العامة ، أو أبا حواهم أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب ، لكن على شريطة ألا يفهموها ، ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ماترمى إليه ، ثم غالوا في ذلك ، خرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلاً ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ماجاء في الشرائع والنبوات ، ووقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف ، فذهبوا بحكمة الإرسال ، جاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا ، فقال :

(وَمِنْهُمْ أُمَّيَّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ) (مَثَلُ
الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلَ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أَمَا الْأَمَانِي
فَقَسَرَتْ بِالْقِرَاءَاتِ وَالْتَّلَاقَاتِ أَى لَا يَعْلَمُونَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَتَلوُهُ ، وَإِذَا ضَنَوْا
أَنْهُمْ عَلَى شَىءٍ مَا دَعَا إِلَيْهِ فَهُوَ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِمَا أَوْدَعَهُ وَبِلَا بَرْهَانٍ عَلَى مَا تَخْلَيْوْهُ
عَقِيْدَةٌ وَظَنْوَهُ دِيْنَاهُ ، وَإِذَا عَنْ لَأْحَدِهِمْ أَنْ يَبْيَنْ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِهِ وَمَقَاصِدِهِ
لَشْهُوَةٌ دَفَعَتْهُ إِلَى ذَلِكَ جَاءَ فِيهَا يَقُولُ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَيْنَتِهِ ، وَاعْتَسَفَ فِي
الْتَّأْوِيلِ ، وَقَالَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ
بِمَا يَدْرِيْهُمْ كُمْ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيَسْتَرُوا إِنَّمَا قَلِيلًا) أَمَا الَّذِينَ
قَالُوا لَنَّهُمْ لَمْ يَحْمِلُوا التَّوْرَةَ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بَعْدَ مَا حُمِّلُوهَا فَهُمُ الَّذِينَ لَمْ
يَعْرُفُوا مِنْهَا إِلَّا الْأَلْفَاظُ ، وَلَمْ تَسْمِ عَقْوَلَهُمْ إِلَى درَكَ مَا أَوْدَعَتْهُ مِنَ الشَّرَائِعِ
وَالْأَحْكَامِ ، فَعَمِيتُمْ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ طَرْقَ الْإِهْتِدَاءِ بِهَا ، وَطَمَسْتُمْ عَنْ أَعْيُنِهِمْ
أَعْلَامُ الْهَدَايَةِ الَّتِي نَصَبْتُ بِأَنْزَالِهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْمَثَلُ الَّذِي أَظْهَرَ شَأْنَهُمْ
فِيهَا لَا يُلِيقُ بِنَفْسِ بَشَرِيَّةٍ أَنْ تَظَهُرَ بِهِ : مَثَلُ الْحَمَارِ الَّذِي يَحْمِلُ الْكِتَابَ ،
وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْ حَمْلِهِ إِلَّا الْعَنَاءُ وَالتَّعبُ وَقَصْمُ الظَّهَرِ وَابْنَهَارُ النَّفْسِ . وَمَا أَشْنَعَ
شَأْنَ قَوْمٍ انْقَلَبُتْ بِهِمُ الْحَالُ : فَمَا كَانَ سَيِّئًا فِي إِسْعَادِهِمْ - وَهُوَ التَّنْزِيلُ وَالشَّرِيعَةُ -
أَصْبَحَ سَيِّئًا فِي شَقَائِصِهِمْ بِالْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ !!

وَبِهِذَا التَّقْرِيرُ وَنَحْوُهُ ، وَبِالْدُعْوَةِ الْعَامَةِ إِلَى الْفَهْمِ وَتَحْمِيسِ الْأَلْبَابِ لِلتَّفْقِيْهِ
وَالْيَقِيْنِ مَا هُوَ مُنْتَشِرٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ فِرْضُ الْإِسْلَامِ عَلَى كُلِّ ذِي دِينٍ أَنْ
يَأْخُذَ حَظَّهُ مِنْ عِلْمٍ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي كِتَبِهِ ، وَمَا قَرَرَ مِنْ شَرْعِهِ ، وَجَعَلَ النَّاسَ
فِي ذَلِكَ سَوَاءَ بَعْدَ أَسْتِيْفَاءِ الشَّرْطِ بِاِعْدَادِ مَا لَابْدَمْنَهُ لِلْفَهْمِ ، وَهُوَ سَهْلُ الْمَنَالِ
عَلَى الْجَمِيعِ الْأَعْظَمِ مِنَ الْمُتَدَيِّنِينَ ، لَا تَخْتَصُ بِهِ طَبْقَةٌ مِنَ الطَّبَقَاتِ ، وَلَا
يَحْتَكِرُ مِنْ يَتِيهِ وَقْتَ مِنَ الْأَوْقَاتِ .

الاسلام والمدنية :

الإنسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع إلى أن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيع من كمال جسدي ولذة بدنية ، ويدفع عنها ما يمكنه دفعه من مبادات الوجود ومهماته ، ثم إن مامتع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول إلى أكثر رغائبها ، مادام يعمل للحصول عليها بالوسائل المشروعة.

على هذا فطر الإنسان ، وقد حقق لنفسه بعض هذه الأمانة في أزمنة مختلفة ، ولكن قادة الأديان أرادوا أن يقبحوا على نوافع الأمة ، ويسيئوا لها لأهوائهم ، وخشووا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للإنسان بالتملص من قيودهم ، والخلص من سلطتهم ، فيضعوا مكانهم الموهوم ، فمزجوا بأحكام الدين مالييس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة ، وحبوا إليهم الزهد ، والتشفيف . نعم أرسل الله بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق في الدنيا ونعمتها ، ولكن كان ذلك لأسباب خاصة في أحوال تقضيها ، لأن الدين بطبيعته عدو للمنافع المادية ، وخصم للسعادة الجسدية .

تمسكت أمم بالدين المشوب بتلك البدع ، فانحطت أهلها إلى أسفل الدركات ، وصاروا أضعف الناس في ميدان التغالب الحيوى ، ووقد في النفوس أن الدين ينافي كل عمل يؤدي إلى النعيم البدنى ، فنجحت الشبه والشكوك ، وتناقضت أحکامه والفطرة البشرية ، وتمسكت قادته بأصولهم ، فأخذوا يعملون على إبادة كل نزعه تبدو من الأمم لطلب الرقي ، وأصبح الدين في أيديهم آلة للتعذيب والقهر ، وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين الدعاة إلى المدينة ، حتى تم لهم الفوز المطلق ، فقضبت موارد العلم ، ودرست أعلامه ، وأمسى العالم في ظلام حالم من الجهل والعماية .

ظهر الاسلام ، فقرر أن الدين ليس عدواً للمدنية ، بل هو دليلها الصادق ، ومرشدتها الخبير ، فقال تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) وقال تعالى : (رَبَّنَا آتَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ

حسنة) و قال تعالى : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ انْقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هُدًى الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)
 وقال تعالى : (وَلَا تَنْسَ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)
 ولما كان العامل في إيجاد المدينة المادية هو العلم قرر الاسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة : فقام تعالى : (وَقُلْ رَبُّ زِدْنِي عِلْمًا) وقال : (وَمَا أُوتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) و قال : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) و قال : (وَإِذَا أَخْذَ اللَّهُ مِيشَاقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لِتَبْيَنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) و قال عليه الصلاة والسلام : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لَا تَمْنَعُوا الْعِلْمَ أَهْلَهُ بِفَإِنَّ فِي ذَلِكَ فَسَادَ دِينَكُمْ وَالتَّبَاسَ بِصَافَرِكُمْ) ثم قرأ : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أَوْ إِنَّكَ يَعْنُونُ اللَّهَ وَيَعْنُونَ الْأَعْنُونَ) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ كَمَ عِلْمًا يُحْسِنْهُ أَجْمَعُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامِ مِنْ نَارٍ »

الاسلام والمساواة :

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات بغير حق ، وكان من حكمها ألا يقام وزن لشئون الأديان ، متى عرضت دونها شهوات الآعلين ، وكم قامى الأولون فى سبيل ذلك شقاء وأهوالا، وذاقوا فى إسعادة الآخرين وبالا ونكالا . فلما جاء الاسلام قرر أن الناس كلهم سواء : أبوهم آدم والأم حواء: فلا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعربي على عجمى إلا بالتقوى ، قال تعالى : (يَا يَهُوا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَاءِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَقْنَاكُمْ) جاء هذا الدين

يحدد الحقوق ، ويسمى بين جميعطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسمى لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأتي بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير ، وما كان يريده نفسه ، ولكن ليوسع به مسجدا

فليما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة ، فور دأمره برد بيتها إليها ، مع تأنيب الأمير على ما كان منه . عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبي طالب أمام القاضى ، وهو من نعلم ، ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما . عدل يجعل أول خليفة للمسلمين يخطب فيقول : (يا لها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ، ولقد وددت أن واحدا منكم قد كفاني هذا الأمر ، ولو وجدتم فيّ اعواجا فقوموه) فكان هذا إقامة لصرح الحرية الإنسانية الذى ارتفعت عليه الشعوب إلى أعلى منازل الشعور بالكرامة الاجتماعية ، وبنت عليه ماقدر لها من معارج الصعود إلى ذروة الرفعة القومية .

تظاهر العقل والدين واقتدار أحدهما إلى الآخر :

العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لا يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأس والشرع كالبناء ، ولن يعني أنس مالم يكن بناء ، ولن يثبت بناء مالم يكن أنس . وأيضا العقل كالبصر ، والشرع كالشاعع ، ولن يعني البصر مالم يكن شعاع من خارج ، ولن يعني الشعاع مالم يكن بصر . ولهذا قال الله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه) وأيضا العقل كالسراج ، والشرع كالزيت الذى يمد : فإن لم يكن زيت لم يحصل الإسراج ، ومالم يكن سراج لم يضيء الزيت ، قال الله تعالى : (الله نور السموات وألاء رضي مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، لمصباح في زجاجة ، الزجاجة

كائناً كُوكِبُ دري يُوقَدُ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يُضيّعه ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء). وأيضاً الشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهم متعاضدان ، بل متعدان . ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن : نحو قوله : (صُمُّ بِكُمْ عَمِّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ولكون العقل شرعاً من داخل قال في وصف العقل : (فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ بِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ) فسمى العقل ديناً . ولكونهما متعددين قال : (نُورٌ عَلَى نُورٍ) أي نور الشرع ونور العقل ، ثم قال : (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) بعلمهما نوراً واحداً : فالشرع إذا فقد العقل عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد الشّعاع . والعقل بنفسه قليل الغناء ، لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها : نحو أن يعلم جملة : حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، وتعاطي الجميل ، وحسن استعمال العدالة ، وملازمة العفة ، ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك في كل شيء على تحديه . والشرع يُعرف كليات الأشياء ، ويبيّن ما الذي يجب أن يعتقد في كل شيء على انفراده ، وما الذي هو معمدة في كل شيء منفصل عن غيره . ولا يعرفنا العقل أن حلم الحنزيز والدم والخمر محظوظ ، وحظوظ زواج المحرمات ؛ فإن أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا بالشرع . فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة ، والأفعال المستقيمة ، والدال على مصالح الدنيا والآخرة ، ومن عدل عنه فقد ضل سواه السبيل . ولأنه لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك قال الله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) وقد قال الله تعالى :

(وَلَوْ أَنَا أَهْمَدْ كُنَاهُمْ بِعِذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَاتُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَبَيَّنَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلْ وَنَخْزَى) (وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ لَا تَبِعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) (وعن بالقليل المصطفين من الآخيار .

الدين الإسلامي أعظم الاديان

استيفاء للأمور التي تم بها سعادة الأمم

قال السيد جمال الدين الأفغاني رحمة الله تعالى عليه : إذا نظرنا فيها بين أيدينا من الأديان وجدنا دين الإسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين : ذلك أن عروج الأمم في معارج الحق الأعلى ، ودرج الشعوب في مدارج العلم الأجل ، وصعود الأجيال في مرافق الفضائل ، وإشراف طائف الإنسان على دقائق الحقائق ، ونيلهم للسعادة الحقيقة في الدارين - كل ذلك مشروط بأمور لا يتم إلا بها :

الأول

صفاء العقول من كدر الخرافات ، وتصديأً للأوهام ؛ فإن عقيدة وهمية يُدنس بها العقل تقوم حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ، وينفعه من كشف نفس الأمر ، بل إن خرافته قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك إلى أن يحمل المثل على مثله ، فيسهل عليه قبول كل وهم ، وتصديق كل ظن ، وهذا مما يجب بعده عن الكمال ، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق ، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة ، وقرب الدهشة ، والخوف مما لا يخيف ، والفزع مما لا يفزع . ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب ، يتظير من طيران الطيور وحركات البهائم ، ويضطرب من هبوب الرياح ، وينزعج لقصف

الرعد والتماع البرق ، ويسلك به الوهم طرق الخيفه مما لا أثر له في الإخافة ، وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ، ثم يكون العوبة في أيدي المحتالين ، وصيادا في حيائـل الماكرين والدجالين .

وأول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول بصدقـال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام : فمن أهم آصوله الاعتقـاد بأن الله منفرد بتصرـيف الأـكون ، متـوحـد في خـلـقـ الفـوـاعـلـ والأـفـعـالـ ، وأنـ منـ الـواـجـبـ طـرـحـ كـلـ ظـنـ فـيـ إـنـسـانـ أوـ جـمـادـ عـلـويـ أوـ سـفـلـيـ بـأـنـ لـهـ فـيـ الـكـوـنـ أـثـرـأـ بـنـفـعـ أوـ ضـرـ ، أوـ إـعـطـاءـ أوـ مـنـعـ ، أوـ إـعـزـازـ أوـ إـذـلـالـ .

ومن المفروض خـلـعـ كـلـ عـقـيـدةـ بـأـنـ اللهـ جـلـ شـأنـهـ ظـهـرـ أوـ يـظـهـرـ بـلـبـاسـ البـشـرـ ، أوـ حـيـوانـ آخـرـ ؛ لـصـلـاحـ أوـ فـسـادـ ، وـأـنـ تـلـكـ الذـاتـ المـقـدـسـةـ نـالـتـ فـيـ بـعـضـ أـطـوـارـهـ شـدـيدـ الـآـلـامـ وـأـلـيمـ الـأـسـقـامـ ؛ لـصـلـحةـ أـحـدـ مـنـ الـخـلـقـ ، فـضـلـاـ عـمـاـ يـحـفـ بـذـلـكـ مـنـ خـرـافـاتـ ، كـلـ وـاحـدـةـ مـنـهـ كـافـيـةـ فـيـ إـهـمـالـ الـعـقـولـ وـطـمـسـ نـورـهـاـ .

الثاني

أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهـةـ الشـرـفـ ، طـامـحةـ إـلـىـ بـلوـغـ الغـاـيةـ منهـ : بـأـنـ يـجـدـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ نـفـسـهـ أـنـهـ لـأـئـقـ بـأـيـةـ مـرـتـبـةـ مـنـ مـرـاتـبـ الـكـيـالـ الـإـنـسـانـيـ ، مـاعـداـ رـتـبـةـ النـبـوـةـ ؛ فـإـنـهـ بـعـزـلـ ، وـإـنـماـ يـخـتـصـ اللهـ بـهـ مـنـ يـشـاءـ مـنـ عـبـادـهـ . وـلـاـ يـدـهـبـ وـهـمـ أـحـدـ مـنـ الـأـمـةـ أـنـهـ نـاقـصـ الـفـطـرـةـ ، مـنـحـطـالـ الـلـزـلـةـ فـاقـدـ الـاسـتـعـادـ لـشـيءـ مـنـ الـكـيـالـاتـ .

فـإـذـاـ أـخـذـتـ نـفـوسـ النـاسـ حـظـهاـ مـنـ هـذـهـ الصـفـةـ ، أـعـنـيـ إـلـيـقـبـالـ عـلـىـ وـجـوهـ الـشـرـفـ - تـسـابـقـ الـأـحـادـ فـيـ مـجاـلـاتـ الـفـضـائلـ ، وـتـمـادـتـ بـهـمـ الـجـارـةـ إـلـىـ مـحـاسـنـ الـأـعـمـالـ ، فـلـعـ كـلـ وـاحـدـ مـاـئـىـ عـلـيـهـ سـعـيـهـ مـنـ عـالـيـاتـ الـأـمـورـ ، وـشـرـائـفـ الـمـرـاتـبـ . وـلـوـ أـنـ قـوـماـ أـسـامـواـ الـظـنـ بـأـنـفـسـهـمـ ، وـاعـتـقـدـواـ أـنـ نـصـيـبـهـمـ مـنـ

الفطرة نقص الاستعداد ، وخشبة المنزلة ، وأن لا سبيل لهم إلى الوقوف في مصاف غيرهم من طبقات الناس فلا ريب في أن يسقط من همهم مقدار ما ظنوا في أنفسهم . وبذلك يتولى النقص أعمالهم ، ويملك الخنود عقوتهم ، فيحرمون معظم الكمالات البشرية ، وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف ^{الدنيوية} .

إن الدين الإسلامي فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس ، وكشف لها عن غايتها ، وأثبت لكل نفس صريح الحق في أي فضيلة ، وأبأ كل ذي نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ، ومحق امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسى لا غير : فالناس إنما يتفضّلون بالعقل والفضيلة . وقد لا تجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة : فلديك دين (برهما) : قسم الناس أربعة أقسام ، وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لا يجاوزها ، وكان هذا التقسيم سببا في انحطاط المتدينين بهذا الدين ، وقصور خطاهم عن الرقي في مدارج المدنية ، وانحسار أفكارهم دون الوصول إلى ما يطّلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة ، والعلوم النافعة ، مع أنهم أقدم الأمم وأسبقها نظراً في الكون وشئونه .

ومن الأديان ما يغلب اليوم على أمم من البشر ، وفي أصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب إسرائيل مثلا ، وكتابه المعروف يخاطب أبناء ذلك الشعب بالكرامة والإجلال ، ويدرك غيرهم بالتحقير والإهانة ، نعم جاء رؤساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم ، وأغفل فيها بنيهم ، حتى كأنه لم يكن من دينهم ، إلا أن مسلبوه من الكرامة عن غيرهم انتحلوا لأنفسهم ، فارتفع امتياز الجنسية من بين أهل الدين ، وخلفه امتياز الصنفية ، فسمت منزلة الرؤساء الروحانيين في قلوب الآخذين بدينه ، حتى صار من عقائدهم أن صنفا من الناس على منزلة القرب من الله بحيث لا يرد الله له

طلبة ، ثم الحجاب بين الله وبين سائر الأصناف : لا يقبل الله من أحد صرفاً ولا عدلاً ، ولا يعتد له ولا يغفر له ذنبنا بتوبته ، حتى يتوسط له أهل طبقة الرياسة . فعندهم أن كل نفس - وإن بلغت من الكمال ما بلغت - ليس فيها ما يؤهلهما لعرض ذنبها على أبواب العفو الإلهي ، ولا أن ترفع إليه طلب المغفرة لخطئتها ، بل لابد في قبول ذلك منها أن يكون بوساطة الرئيس الديني . ومن آمن بالله وصدق به وأخذ بأحكامه لا ينظر الله لـ *إيمانه* حتى ينظر إليه الرئيس الديني ويتعتده *إيماناً* . واستندوا في هذه العقائد على نصوص من كتابهم ، تفيد أن ما يحلونه في الأرض يكون محلولاً في السماء ، وما يعقدونه في الأرض يعقد في السماء . وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاء طويلاً ، وألقت بهم في جحالة عميماء ، وذلة خرساء زماناً مديداً ، حتى ظهر فيهم مجّدون ، نقضوا ذلك العقد ، وخالفوا فيه ما شهروا من نصوص الكتاب ، وقلدوا في ذلك الدين الإسلامي ، وسموا مذهبهم «*الإصلاح*» ونشروه في ممالك متعددة ، فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشفت عنهم تلك الجهالات ، وحلت من أعناقهم هذه الرباوة ، ونهضوا من حضيض ذلك إلى ذروة رفعة ، فنطقوها بعد ما صمتوها ، وعلموا بعد ما جهلوها ، وحكموا بعد ما حكموا ، وسادوا بعد ما سيدوا .

الثالث

أن تكون عقائد الأمة - وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها - مبنية على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تحامى عقولهم مطالعة الظنوں في عقائدها ، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ؛ فإن معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موتنا ، فلا يكون مؤمناً . *هذا* والآخذ في عقائده بالظن ينصب عقله على متابعة الظنوں ، والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته ، فأولى به أن يكون عليها - يلتقي مع سابقه في مضارب الوهم ، وبخاج الظن . وأولئك المتبعون للظن القانعون

بالتقليد تقف بهم عقوتهم عند ما تعودت إدراكه ، فلا يذهبون مذاهب الفكر ، ولا يسلكون طرائق النظر . وإذا استمرّ بهم ذلك تعشّتهم الغباوة بالتدريج ، ثم تكاثفت عليهم البلادة ، حتى تعطل عقوتهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة ، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر ، فيحيط بهم الشقاء ويتعثرُ بهم البحث . وبئس المآل مآلهم .

وإن كان لابد من الاستئناس لما نقول أوربي ، فهذا (كينزو الفرنساوى صاحب تاريخ المللتين الأوروبي) ، قال : « إن من أشد الأسباب أثراً في سوق أوربة إلى تمدينهما ظهور طائفة في تلك البلاد قالت : إن لناحنا في البحث عن أصول عقائدها ، وطلب البرهان عليها ، ولو كان ديننا هو الدين المسيحي . وعارضها كثير من رؤساء الدين ، ومنعواها ما دعت من الحق متحججين عليها بأن بناء الدين على التقليد . فلما أخذت تلك الطائفة قوتها ، وانتشرت أفكارها برئت عقول الأوروبيين من علة الغباوة والبلادة ، ثم تحركت في مداراتها الفكرية ، وترددت في المجالات العلمية ، وكدحت لاستحصال أسباب المدينة » .

إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفرداً من بين الأديان بتقريره للمعتقدين بلا دليل ، وتوسيع المتبعين للظنون ، وتبكيت الخطاطفين في عشواء العواية ، والقدح في سيرتهم . هذا الدين يطالب المللتين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل وال بصيرة ، وأن الشقاء والضلال من لواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد كل منها ينفع العامة ، ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه ببيان الغاية منه في الأغلب . وفي القرآن من ذلك مالا يحصى كثرة . وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزاية ، وأطن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة .

ومن الأديان الظاهرة مابنى أعظم أركانه على أصل الكثرة في الواحد ، أو الوحدة في الكثير ، وأن الواحد يكون أكثر ، والكثير يكون واحداً مما تنبذه بداعاه العقل ، فلما أنكر العقل أصله هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل ، فلا ينال الفكر دركه لا بالكتبه ولا بالوجه ، ولا يهتدى لدليل عليه ، ولا مرشد إليه . يريدون أنه لابد من تكب طريق العقل ، ونبذ أحكامه ؛ حتى يمكن الإيمان بهذا الأصل ، مع أن العقل مشرق الإيمان ، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان ، وإن فرقاً بين مالا يصل العقل إلى كنهه ، لكنه يعرفه بأثره ، وبين ما يحكم العقل باستحالته : فال الأول معروف عند العقل يقرّ بوجوده ، وأما الثاني فمطروح من نظره ، ساقط من اعتباره ، لا يتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ؟ .

الرابع

أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، لا ينون في تنوير عقولهم بالمعارف النافعة وتحليلها بالعلوم الصافية ، ولا يألون جهداً في تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم في جوادّها . سـمـ طائفة أخرى تقوم على النفوس ، تولـيـ تهـذـيهـاـ وـتـقـوـيـمـاـهـاـ ، وـتـكـشـفـ عنـ الـأـوـصـافـ الفاضـلـهـ وـحـدـودـهـاـ ، وـتـمـشـلـ للـمـدارـكـ فـوـائـدـهـاـ وـمـحـاسـنـ غـایـاتـهـاـ ، وـتـفـضـحـ مـسـتـورـ الرـذـائـلـ ، وـتـشـقـ الـخـجـابـ عـنـ مـضـارـهـاـ ، وـسـوـءـ مـنـقـلـبـ المـتـدـنـسـينـ بـهـاـ . وـتـشـتـدـ فيـ الـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـىـ عـنـ الـمـنـكـرـ ، لـاـتـلـمـيـزـهـاـعـنـهـمـاـ غـفـلـةـ وـلـاـتـرـدـهـاـصـعـوبـةـ .

وـذـلـكـ أـنـ بـدـاهـةـ الـعـقـلـ حـاكـمـةـ بـأـنـ جـلـ الـمـعـارـفـ الـبـشـرـيـةـ ، وـالـعـقـائـدـ الـدـينـيـةـ مـكـتـسـبةـ . فـإـنـ لـمـ يـكـنـ فـيـ النـاسـ مـعـلـمـ قـصـرـتـ الـعـقـولـ عـنـ درـكـ ماـيـنـيـغـيـ لـهـ درـكـهـ ، وـانـقـطـعـتـ دونـ الـكـفـاـيـةـ ماـ تـسـتـدـعـيـهـ ضـرـورـاتـ الـحـيـاةـ الـأـوـلـىـ

وـالـاستـعـدـادـ لـمـ يـكـونـ فـيـ الـأـخـرىـ ، وـسـاـوـيـ الـإـنـسـانـ فـيـ مـعـيشـتـهـ سـائـرـ الـحـيـوانـاتـ ، وـحـرـمـ سـعـادـةـ الدـارـيـنـ ، وـفـارـقـ هـذـهـ الـدـينـاـ عـلـىـ أـتـعـسـ الـأـحـوـالـ .

فإذن من الواجب الديني إقامة معلم . والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد توقف عنده ، ولا لرغائب الأنفس غاية تقطع عندها ، فان فقد من بين الناس مقوم النفوس ، ومعدل الأخلاق - طغى سلطان الشهوة ، واندفع إلى الحيف والإجحاف ، ومن طغت بهم شهواتهم سلباً راحة غيرهم ، وheetkoوا ستر أمتهم ، ثم هم لا ينفلتون من غالنة أعمالهم ، بل يحتقرون بغير أن شهواتهم ، فيراقبون الدنيا على عناء ، ويقارنونها على شقاء ، فإذا ذن لا بد من الأمر بالمعروف ، الناهي عن المنكر ، القائم بتنقييم الأخلاق .

وإن من أهم الأركان الدينية في الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين : نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر : (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ أَخْيَرٍ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ) (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَتَقَهَّمُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن دين الإسلام قد فاق غيره من الأديان في العناية بهذه الأمرين .

أمور أخرى

وإذ كانت أركان الدين الإسلامي بالغة حدة الكثرة ، فلو أخذت في بيان ما يفيده كل ركن منها في تقويم المدينة ، وتشييد بناء النظام الانساني ، وإقامة الدليل على أن كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الإنسانية - لطال المقال . والحق أن (المدينة الفاضلة) التي مات الحكام حسرة من فقدوها لاختفط في العالم الانساني إلا بالدين الإسلامي . وإنما كان المسلمون على مأوى من الحال والشأن المحزن ، لأنهم حادوا عن محجة دينهم ، وطرحوه وراءهم ظهرياً ، بعد أن بلغوا به ما بلغوا ، حتى شهد العالم بفضلهم :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

السبب الثاني من أسباب السعادة

التخلّي بالفضائل والتخلّي عن الرذائل

« الفضائل التي تتحصيلها تنال السعادة »

إذا عرف أن السعادة تنال بتزكية النفس وتمكيلها ، وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها - فلا بد من تعرف الفضائل جملة وتفصيلا : فاما الفضائل بحملتها فتتحصر في معينين : أحدهما جودة الذهن والقيمة . والآخر : حسن الخلق .

أما جودة الذهن : فليميز بين طريق السعادة والشقاوة ، وليعتقد الحق في الأشياء على ماهي عليه : عن براهين قاطعة مفيدة لليقين ، لاعن تقليدات ضعيفة ، ولا عن تخيلات واهية .

وأما حسن الخلق : فبأن يزيل جميع العادات السيئة ، التي بين الشرع تفاصيلها ، وأن يتبع العادات الحسنة ويستيق إلىها ، فيؤثرها ويتنعم بها كاً قال عليه الصلاة والسلام : « جعلت فرحة عيني في الصلاة ». أما أداء المأمورات وترك المحظورات مع استقال وكراهة فنقص قد يقعده بصاحبها عن بلوغ كالسعادة ، ولكن دوام المجاهدة يفضي إلى الغاية ، وإن كان أقل رتبة من العمل عن طوع ورغبة . وقولهم : الحق مر : يصدق على من لم يتهذب ، فبقيت فيه صوارف عن الحق ولذلك قال الله تعالى : (وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِشِينَ) وقال عليه السلام : « إِنِّي أَسْتَطَعْتُ أَنْ تَعْمَلَ فِي الرُّضَا لِلَّهِ فَاعْمَلْ ، وَإِلَّا فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرُهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ »

ثم لا يكفي في نيل السعادة استلذاذ الطاعة ، واستكرار المعصية في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام في جملة العمر . ولذلك لما سئل عليه السلام عن السعادة قال : « طول العُمر في طاعة الله » ولذلك

كره الأنبياء والأولياء الموت ؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أكثر ، والنفس أزكي وأطهر ، وكما لها أثتم ، وابتهاج صاحبها بحملها عند التجر عن علاق البدن أشد وأوفر .

يتم ذلك إذا اطرح الشواغل ، وتنبه من نومه الذي أغفله عن إدراك حال نفسه : من حمال يبتهاج به ، أو خزي وخيال يبتلي به ، فالناس من شهواتهم نيا ، فإذا أماتوها انتبهوا من رقتهم .

فهذه مجتمع الفضائل ، وغايتها أن تصدر من الإنسان أبداً بغير فكر وروية وتعب ، ويطلع على الحق بغير كبير عناء كالصانع الحاذق في الخساطة والكتابة ، لا يعاني في عمله نصب التفكير تلك الفضائل محصورة في فن نظري ، وفي فن عملي ، يحصل كل واحد منها على وجهين :

أحد هما - بتعلم بشري ، وتكلف اختياري ، يحتاج فيما إلى زمان وتدرب وممارسة ، وبنقوي الفضيلة فيه تدريجاً خفياً يختلف عند الناس على حسب استعدادهم .

والآخر - يحصل بجود إلهي : نحو أن يولد الإنسان ، فيصير بغير علم عالماً كعيسى بن مريم ، ويعيى بن زكريا ، وسائر الأنبياء عليهم السلام الذين حصل لهم من الأحاطة بحقائق الأمور ما لم يحصل لطلاب العلم بالتعلم . وقد يحصل ذلك أيضاً لغير الأنبياء ومن نهجو نهجهم وساروا على سنتهم . ولا ينبغي أن تستبعد أن يكون بالطبع في مبدأ الفطرة من الخلال ما يحصل بالجهد والاكتساب : فرب صي صادق اللهجة ، سخن جرى ، ورب آخر على خلافه . تم هذه الخلال من طريق التأديب والتعويذ : فالفضيلة تارة تحصل بالطبع ، وطوراً بالاعتياد ، ومرة بالتعلم . فمن تيسرت له الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً - فهو في غاية الفضيلة . ومن كان رذلاً من هذه الجهات الثلاث فهو في غاية الرذالة ، وبينهما رتبة من

اختلقت فيه هذه الجهات ، والأخيران في حاجة شديدة إلى الرياضة والمجاهدة .

الذريةة إلى محاربة الهوى

للامن في مجاهدة الهوى ثلاثة أحوال :

الأول - أن يغلبه الهوى ، فيملكه ولا يستطيع له خلافا ، وهو حال

أكثراً الخلق ، وهو الذي قال الله تعالى فيه : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) ؟
إذا لا معنى للإله إلا المعبود ، والمعبود هو المتبوع الإشارة . فنـ كان ترددـ في جميع أطواره خلف أغراضه البدنية وأوطاره فقد اتخذ إلهـ هوـاهـ .

الثاني - أن تكون الحرب بينهما سجالا : فهـذا الرجل من المجاهدين ،
فـان اختـرمتـهـ المـنيةـ فـهـذهـ الـحـالـةـ ،ـ فـهـوـ مـنـ الشـهـداءـ ،ـ لـأنـهـ مشـغـولـ بـامـشـالـ قـوـلـهـ
صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ :ـ «ـ جـاهـدـوـاـ هـوـاهـ كـمـ كـمـ تـجـاهـدـوـنـ أـعـدـاءـ كـمـ »ـ وقدـ سـئـلـ
رسـولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ :ـ أـيـ الجـهـادـ أـفـضـلـ يـاـ رـسـولـ اللهـ ؟ـ فـقـالـ عـلـيـهـ
الـصـلـاةـ وـالـسـلـامـ :ـ «ـ جـهـادـكـ هـوـاكـ »ـ وـلـذـلـكـ قـالـ :ـ «ـ لـيـسـ الشـدـيدـ بـالـصـرـعـةـ
إـنـماـ الشـدـيدـ مـنـ مـلـكـ نـفـسـهـ عـنـدـ الغـضـبـ »ـ وـهـذـهـ الرـتـبـةـ العـلـيـاـ لـغـيـرـ الـأـنـيـاءـ
وـالـأـوـلـيـاءـ .

الثالث - أن يغلب هوـاهـ ،ـ فـيـصـيرـ مـسـتـوـلـيـاـ عـلـيـهـ ،ـ لـاـ يـقـهرـ بـحـالـ منـ
الـاحـوالـ .ـ وـهـذـاـ هـوـ الـمـلـكـ الـكـبـيرـ ،ـ وـالـتـعـيمـ الـحـاضـرـ ،ـ وـالـحرـيـةـ الـتـامـةـ ،ـ وـالـخـلـاصـ
مـنـ الرـقـ .ـ وـلـذـلـكـ قـالـ عـلـيـهـ الـصـلـاةـ وـالـسـلـامـ :ـ «ـ مـاـمـنـ أـحـدـ إـلـاـ وـلـهـ شـيـطـانـ
وـلـيـ شـيـطـانـ ،ـ وـإـنـ اللهـ قـدـ أـعـانـيـ عـلـىـ شـيـطـانـيـ حـتـىـ مـلـكـتـهـ »ـ وـقـالـ فـيـ
حـقـ عـمـرـ :ـ «ـ مـاـسـلـكـ عـمـرـ فـجـأـ إـلـاـ وـسـلـكـ الشـيـطـانـ فـجـأـ غـيـرـهـ »ـ وـهـنـاـ مـزـلةـ
الـقـدـمـ :ـ فـكـمـ مـنـ إـنـسـانـ يـظـنـ أـنـ نـالـ هـذـهـ الرـتـبـةـ ،ـ وـهـوـ فـيـ الـحـقـيقـةـ شـيـطـانـ
مـرـيدـ ؛ـ فـإـنـهـ يـتـبعـ أـغـرـاضـهـ ،ـ وـيـلـبـسـهـ لـبـاسـ الدـينـ :ـ فـقـدـ تـرـىـ جـمـاعـةـ اـشـتـغلـواـ
بـالـوـعظـ وـالـتـدـريـسـ وـالـخـطـابـةـ وـأـنـوـاعـ الرـيـاسـةـ ،ـ وـهـمـ مـتـبـعـونـ لـلـهـوـيـ ،ـ وـيـزـعـمـونـ
أـنـ باـعـهـمـ الدـينـ ،ـ وـمـحـرـكـهـ طـلـبـ الثـوابـ ،ـ وـمـنـافـسـتـهـمـ عـلـيـهـ لـلـشـرـعـ ،ـ وـهـيـ

نهاية الحق والغور . وإنما تعرف حقيقة ذلك بأمر : هو أن الواقع المقبول : إن كان يعظ الله لا لطلب القبول ، وقصده دعوة الخاق إلى الله - فعلامته أنه لو جلس مكانه واعظ أحسن منه سيرة ، وأغزر منه علمًا ، وأطيب منه لهجة ، وتضاعف قبول الناس له - فرح به ، وشكر الله على إسقاط هذا الفرض عنه بغيره ، وبين هو أقوم منه : كمن تعين عليه جهاد كافر ، وقتلهم لارتفاعه ، فنزلت بالكافر صاعقة أحرقته ، وكفى مئونته ، والجهاد معه - ففرح به وشكر الله تعالى

و تلك حال لا يحسها إلا الأصفياء ، وآيتها دوام الحذر واليقظة ، كما نقل عن الصديق رضي الله عنه قوله : « اقتلوني فلست بخاير لكم »
الفرق بين إشارة الهوى وإشارة العقل :

إن هذا مطلب عويص ولا خلاص منه إلا بالعلوم الحقيقة ، إذ بها يكشف التلبيس عن الحق ، ولكن القدر الذي ينبغي أن يضرع إليه عند التحير هو العلم بأن العقل في أكثر الأمور يشير بالصلاح للعواقب ، وإن كان فيه كلفة ومشقة في الحال ، والهوى يشير بالاستراحة ، وترك التكليف . فإن عرض لك أمران ، ولم تدرأ بهما أصوب - فعليك بما تذكره لا بما تهواه ، فأكثر الخير في الكراهة : قال عليه السلام : « حُوتَ الجنةُ بالْمَكَارِهِ ، وَحُوتَ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » و قال تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرُهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) و قال تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرُهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) فما تميل فيه إلى الدعة والرفاهية ، وحذر الكاف ، وإشار الراحة في الحال - فاتهم فيه نفسك ، فإن حبك الشيء يعمى ويصم .

وأكثر ما يلبس به الهوى معاذير مزخرفة ، والعقل يسترشد بحجج حقيقة ، والعاشق لشخص قبيح أو المتناول لطعام يشع شغف به لعادته لو روجع لزخرف فيه معاذير موهبة ، يشهد عليه العقل بأنه متصنع متكلف .

وبالجملة : إدراك هذه الحقيقة لا يكون إلا بنور إلهي ، وتأييد سماوي . فليسكن الفزع إلى الله في مظان الحيرة ؟ فقد قال بعض العلماء : إذا مال العقل إلى مؤلمه في الحال نافع في العاقبة ، ومال الهوى في نحو نقضه الملاذ في الحال الوخيم العاقبة ، وتنازعا وتحاكا إلى القوة المدببة المفكرة - سارع نور الله تعالى إلى نصرة العقل ، وبادر وسواس الشيطان ، وأولياؤه إلى نصرة الهوى ، وقام صف القتال بينهما : فإن كانت القوة المدببة من حزب الشيطان وأوليائه ذهلت عن نور الحق ، وعميت عن نفع الآجل ، واغترت بلذة العاجل ، وجنحت إليه ، وقهراً أولياء الله . وإن كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره ، واستهانت بالعاجلة ، وطلبت الآجلة . قال الله تعالى : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

ويرى بعض العلماء أن الله تعالى شبه العقل بشجرة طيبة ، والهوى بشجرة خبيثة ، فقال : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلُّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبَّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ أَلَّا مِثَالًا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) فعند قيام الصف والتحام القتال بين هذين الجنديين اللذين أحدهما من أعداء الله والآخر من أوليائه - لا سبيل إلا إلى الفزع إلى الله تعالى ، والاستعاذه من الشيطان الرجيم . قال تعالى : (وَإِمَّا يَنْزَغَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ إِنَّ الَّذِينَ أَتَقْوَاهُ إِذَا مَسَّهُمْ طَاعِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) والهوى محمود ومذموم :

فالمحمود : من فعل الله تعالى : وهو قوة جعلت في الإنسان ، لتبعث بها النفس لنيل ما فيه بقاء بدنه أو نوعه ، أو إصلاحهما .
والملموم : من فعل النفس الأمارة بالسوء : وهو استحبابها لما فيه لذتها

البدنية . وهي إذا غلت سمية هوى ؛ فإنها تستتبع الفكرة ، و تستخدمها ل تستغرق وقتها في الامتناع لأمرها . وال فكرة متعددة بين الشهوة والعقل ، يخدمها العقل فوقها والشهوة تحتها . فتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت و شرفت ولدت الحasan ، وإذا مالت إلى الشهوة تسفلت إلى أسفل السافلين ، و ولدت القابح وبعدت من الحasan .

قد تصدر الفضائل من ليس بسعيد ولا فاضل :

أجمل ابن مسكونيه هذا البحث فيما يلي : إن السعادة تظهر في أفعال العدالة والشجاعة ، والعفة ، وسائر ما تحت هذه الأنواع التي سنخصصها ونحددها إن شاء الله تعالى . وهذه الأفعال قد تظهر من ليس بسعيد ولا فاضل : وذلك أنه قد يعمل بعض الناس عمل العدول وليس بعادل ، ويعمل عمل الشجعان وليس بشجاع ، وي العمل الأعفاء وليس بعفيف . مثال ذلك :

إن من ترك الشهوات من المأكل والمشارب وسائر اللذات التي ينهمك فيها غيره : إما لأنّه يتّظار منها أكثر مما يحضره ، وإما لأنّه لا يعرفها ولم يأشّرها : كالأعراب الذين يبعدون عن البلاد ، وكالرعاة في البوادي وقلل الجنان . وإنما لأنّه ممتلىء مما يجده و يحضره ، وإنما جمود شهوته و نقصان تركيه ، وإنما لأنّه استشعر خوفاً من تناولها ومكرورها يلحقه بسلبيها ، وإنما لأنّه من نوع منها - هؤلاء كلّهم يغفون وليسوا بأعفاء على الحقيقة ، وإنما يسمى عفيفاً على الحقيقة من وفّي العفة حدّها ، و اختارها لنفسها ، لاغرض آخر غيرها ، و آثرها لأنّها فضيلة ، ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة ، ومن الوجه الذي ينبغي ، وفي الوقت الذي ينبغي ، وفي الحال الذي ينبغي .

وكذلك حال الذي يعمل أعمال الشجعان وليس بشجاع : وذلك أن من باشر الحرب ، وأقدم على ركوب الأهوال لبعض ما توصل إليه من المال ، أو لبعض الرغبات التي لا تحدّ كثرة - مثل هذا يعمل عمل الشجعان ، ولكن يحمله بطبيعة الشهوة ، لا بطبيعة الفضيلة التي تدعى شجاعة . وكل من كان أكثر

إقداماً وأصبر على أهواه هذه الأحوال - يجب أن يكون أكثر شرهاً ونهاهاً، لا أكثر شجاعة: وذلك أنه يخاطر بنفسه الشريرة، ويصبر على المكاره العظيمة؛ طمعاً في المال وما يصل إليه بالمال.

وقد رأينا أهل الشقاوة يعملون عمل الأعفاء وعمل الشجعان وهم أبعد الناس عن كل فضيلة: وذلك أنهم يصبرون عن الشهوات كلها، ويصبرون على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الأعضاء والجراحات التي لا يؤمن منها، وينتهون فيها لأقصى الصبر على الصليب وسمل العيون، وقطع الأيدي والأرجل، وضروب المثليل؛ طليباً لاسم وذكر بين قوم في مثل حالمهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل. وقد يعمل أيضاً عمل الشجعان من يخاف لامة عشيرته، أو عقوبة سلطانه، أو خوف سقوط جاهه، أو ما أشبه ذلك. وقد يعمل عمل الشجعان من اتفق له مراراً كثيرة أو يغلب أقرانه فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية وجهاً بواقع الاتفاقيات. وقد يعمل عمل الشجعان أيضاً العشاق: وذلك أنهم يركبون الأهواز في طلب المغشوق؛ لحرصهم على متعة العين منه، لاطب الفضيلة ولا لاختيار الموت الجميل على الحياة الرديعة، كما يفعل الشجعان بالحقيقة.

وأما شجاعة الأسد والفيل وأشباههما من الحيوانات فإنها تشبه الشجاعة، وليس بشجاعة حقيقة: وذلك أنها قد وثبتت بقوتها، وأنها تفوق غيرها في تقدم؛ لا بطبيعة الشجاعة، بل ل تمام القدرة وثقة النفس بالغلبة. وأما الشجاع: فإن خوفه من الأمر أشد من خوفه من الموت، ولذلك يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة.

على أن لذة الشجاع لا تكون في مبادئ الأمور تكون مؤذية له، لكنها تكون في عواقب الأمور، وتسكون أيضاً باقية مدة عمره وبعد عمره، لاسيما إذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة في

وحداثية الله عز وجل ، والشريعة التي هي سياسة الله وستته العادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة .

فإن مثل هذا - وقد فكر في قصر مدة عمره ، وعلم أنه لا حالة سيموت بعد أيام ، ثم كان محباً للجميل ، ثابتًا على الرأى الصحيح - لاحالة يحمى عن دينه ، ويمنع العدو عن استباحة حرميه والتغلب على مدinetه ، ويأنف من الفرار ، ويعلم أن الجبان إذا اختار الفرار - فـإِنَّمَا يُسْتَبَقُ شَيْئًا هُوَ لَا حَالَةَ فَانِ زَائِلٌ ، وإن تأخر أيامًا معدودة . ثم هو في هذه الحياة اليسيرة مقوت مكدر الحياة بالذل وضروب الصغار .

وهذه حال الشجاع في تغلبه على شهواته واعتراضه بالشجاعة لذاتها .

ولذلك قال عليه الصلوة والسلام : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ مَلَّتْ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » ومن سمع كلام الإمام على رضى الله عنه الذي صدر منه عن حقيقة الشجاعة : إذ قال لأصحابه : « أَيُّها النَّاسُ ، إِنَّمَا يُقْتَلُونَ تَمُوتُوا ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ يَدِهُ لَأَلْفَ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ عَلَى الرَّأْسِ أَهُونُ مِنْ مِيتَةِ عَلَى الْفَرَاشِ » - من سمع هذابين له أن جمِيع ما أحصيناه للاِنسان من مظاهر الشجاعة ليس بمحدود فيها ، وإن كان يشبهها بالصورة . فليس كل من يقدم على الأهوال بشجاع ، وكذلك من لا يفزع من ذهاب شرفه ، أو عند حدوث الرجفات والزلزال والصواعق ، أو الزمانة في الأمراض أو عدم الإِخوان والأصدقاء ، أو عند اضطراب البحر وهو في الأمواج ؛ فهو بأن يوصف بالجبنون أولى بأن يوصف بالشجاعة .

وكذلك من خاطر بنفسه في وقت الأمان والطمأنينة : بأن يثبت من سطح عال ، أو يصعد من تقى صعبا ، أو يحمل نفسه على السبع في ماء غزير ، وهو لا يحسن السباحة ، أو يساور جملًا هائجا ، أو ثورا صعبا ، أو فرسا لم يرض ، من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك ، بل مرأة بالشجاعة وإظهار أنه من أهلها ؛ فهو بأن يسمى مطر مطر (١) مائقا أولى منه بأن يسمى شجاعا .

(١) هو من يقول ولا يفعل

وأَمَّا من خنق نفسه خوفاً من الفقر أو الذل ، أو أهلكها بالسم وما أشبهه ، فراراً من الضيم - فهو بـأن يوصف بالجبن أولى منه بـأن يوصف بالشجاعة : وذلك أن الإقدام وقع منه بطبيعة الجبن ، لا بطبيعة الشجاعة ؛ فإن الشجاع يصبر على ما يرد عليه من الشدائـد صبراً جميلاً ، ويـعمل أعمـلاً تـليـق بـذلك الحال .

ولذلك يجب أن يـعـظـمـ الشـجـاعـ ، وـيـسـحـ بـنـفـسـهـ ، وـحقـ عـلـىـ السـلـطـانـ خاصةـ ، وـالـقـيـمـ بـأـمـرـ الـدـيـنـ وـالـمـلـكـ أـنـ يـنـافـسـ فـيـهـ ، وـيـجـلـ قـدـرـهـ ، وـيـعـلـىـ خـطـرـهـ ، وـيـمـيزـهـ مـنـ سـائـرـ مـنـ يـتـشـبـهـ بـهـ مـنـ ذـكـرـ نـاهـ .

تبين من جميع ما قلناه أن الشجاع هو الذي يستهين بالشدائـدـ في الأمور الجميلةـ ، وـيـصـبـرـ عـلـىـ الـأـمـورـ الـهـاـئـلـةـ وـيـسـتـخـفـ بـمـاـ يـسـتـعـظـمـهـ عـوـامـ النـاسـ حـتـىـ بالـمـوـتـ لـاـخـتـيـارـ الـأـمـرـ الـأـفـضـلـ ، وـلـاـيـحـزـنـ عـلـىـ مـاـ لـادـرـكـ فـيـهـ ، وـلـاـيـضـطـرـبـ عـنـدـمـاـ يـفـدـحـهـ مـنـ الـمـصـائـبـ ، وـيـكـوـنـ غـضـبـ إـذـاـ غـضـبـ بـمـقـدـارـ مـاـ يـحـبـ ، وـعـلـىـ مـنـ يـحـبـ ، وـفـيـ الـوقـتـ الـذـيـ يـحـبـ . وـكـذـلـكـ يـكـوـنـ اـتـقـامـهـ عـلـىـ هـذـهـ الشـرـائـطـ ؛ فـإـنـ الـحـكـمـاءـ قـالـواـ : إـنـ مـنـ لـاـ يـتـقـمـ يـلـحـقـ قـلـبـهـ ذـبـولـ ، فـإـذـاـ اـتـقـمـ عـادـ إـلـىـ حـالـتـهـ مـنـ النـشـاطـ . وـهـذـاـ اـتـقـامـ إـذـاـ كـانـ بـحـسـبـ الشـجـاعـةـ كـانـ مـحـمـداـ ، وـإـذـاـ لـمـ يـكـنـ كـذـلـكـ كـانـ مـذـمـومـاـ : فـقـدـ نـقـلـ إـلـيـنـاـ فـيـ الـأـخـبـارـ الـمـأـثـورـةـ روـاـيـاتـ كـثـيرـةـ عـنـ أـقـدـمـ عـلـىـ سـلـطـانـ قـوـىـ ، وـرـأـمـ أـنـ يـتـقـمـ مـنـهـ ، فـأـهـلـكـ نـفـسـهـ مـنـ غـيـرـ أـنـ يـضـرـ سـلـطـانـهـ . وـكـذـلـكـ حـالـ مـنـ أـقـدـمـ عـلـىـ قـرـنـ قـوـىـ أـوـ خـصـمـ أـلـدـ ، لـاـيـسـتـطـعـ مـقاـومـتـهـ ؛ فـإـنـ اـتـقـامـ مـنـهـ يـعـودـ وـبـالـأـ عـلـيـهـ ، وـزـيـادـةـ فـيـ الذـلـ وـالـعـجزـ .

فـاذـنـ لـيـسـتـ تـقـمـ شـرـائـطـ الشـجـاعـةـ وـالـعـفـةـ إـلـاـ لـلـحـكـمـ الـذـيـ يـسـتـعـملـ كـلـ شـيـءـ فـيـ مـوـضـعـهـ الـخـاصـ بـهـ ، وـبـقـدرـ إـقـسـاطـ الـعـقـلـ لـهـ . فـكـلـ شـجـاعـ عـفـيفـ حـكـمـ ، وـكـلـ حـكـمـ شـجـاعـ عـفـيفـ .
وـهـذـهـ الـحـالـ بـعـيـنـهاـ تـظـهـرـ فـيـمـنـ عـمـلـ الـأـسـخـيـاءـ وـلـيـسـ بـسـخـيـ : فـنـ

بذل أمواله في شهواته ؛ طلباً للسمعة والرياء ، أو تقرباً إلى السلطان ، أو لدفع مضره عن نفسه وحرمه وأولاده ، أو بذلها من لا يستحق من أهل الشر أو المأبهين أو الساخرين ، أو بذلها لطمع في أكثر منها على سبيل التجارة والربحية - فكل هؤلاء يعمل عمل الأسيخاء وليس بسخى : أما بعضهم فيبذل ماله بطبيعة الشره ، وأما بعضهم بطبيعة الطرفة والرياء ، وأما بعضهم فعل طريق الازدياد من المال والربح فيه ، وأما بعضهم فعل سبيل التبذير وقلة المعرفة بقدر المال . وهذا أكثر ما يعرض للوارث ، ولمن لا يتعب في اكتساب المال ، فلا يعرف صعوبة الأمر فيه ؛ لأن المال صعب الاكتساب ، سهل الإنفاق والتفرقة . وقد شبه الحكماء بهن يرفع حملًا ثقيلاً إلى قمة جبل ، ثم يرسله ؛ فإن الأمر في ترقيته وإسعاده صعب ، ولكن إرساله من هناك أمر سهل .

السبب الثالث من أسباب السعادة

الإخلاص

كل شيء يتصور أن يشوبه غيره إذا صفا عن شوبه ، وخاص عنه — سمي خالصاً . ويسمى الفعل المصنف المخلص إخلاصاً : قال الله تعالى : (مِنْ يَنْ فَرَثٌ وَدَمٌ أَبْدَأَ خَالِصًا سَائِغًا لِشَارِبِينَ) فانيما خلوص اللبن إلا يكون فيه شوب من الدم والفترث ، ومن كل ما يمكن أن يتمزج به . والإخلاص يضاده الإشراك : فمن ليس مخلصاً فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات : منه الحق ومنه الجلي ، وكذلك الإخلاص .

والإخلاص وضده يتواidan على القلب ، فجعله القلب ويكون ذلك في القصد والنية . ومن حيث إن النية ترجع إلى إيجابة البواعث ، فتى كان البواعث واحداً فقط سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً : فمن فعل خيراً بقصد الرياء فقط فهو مخلص ، ومن كان غرضه الوحيد التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العرف قد خصص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب

إلى الله تعالى عن جميع الشوائب . ومثل ذلك الإلحاد ، فهو عبارة عن الميل إلى الحق أو عنه ، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق .

الخلاص والصدق :

وريد ذكر الصدق ويراد به الإخلاص : وذلك إذا كان متعلقاً بالنية والإرادة وهو ألا يكون للمرء باعث في حركاته وسكناته إلا الله تعالى : فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وسمى صاحبه كذلك ، قال عليه السلام : « أول من يسأل يوم القيمة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم ، فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراق النهار ، فيقول الله تعالى : كذلك ، وتقول الملائكة : كذلك ، بل أردت أن يقال : فلان عالم ، إلا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالا ، فيقول الله تعالى : لقد ألمت علیك فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراق النهار ، فيقول الله تعالى : كذلك ، وتقول الملائكة : كذلك ، بل أردت أن يقال : فلان جاد ، إلا فقد قيل ذلك . ورجل قتل في سبيل الله تعالى ، فيقول الله تعالى : ماذ صنعت ؟ فيقول : يارب أمرت بالجihad ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله : كذلك ، وتقول الملائكة : كذلك ، بل أردت أن يقال : فلان شجاع ، إلا فقد قيل ذلك » قال أبو هريرة : « ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال : « يا أبا هريرة ، أولئك أول خلق تسر نار جهنم يوم القيمة »

فليس الغرض من التكذيب في هذا الحديث نفي العمل ، بل نفي الإخلاص في العمل . ولذلك قال بعضهم : « الصدق صحة التوحيد في القصد » وكذلك قول الله تعالى : (والله يشهد إن المنافقين لکاذبون)

وقد قالوا : « إنك لرسول الله » وهذا صدق ، ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان ، بل من حيث ضمير القلب ؛ فهم في قراره فهو سهم مكذبون ، وفي إخبارهم عن ذلك كاذبون .

فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية ، وهو الإخلاص : فكل صادق لا بد من أن يكون مخلصا قال الله تعالى :

« أَيْسَرِ الْبَرَّ أَنْ تُؤْلَوْا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَسْرِقِ وَأَمْغَرِبِ ، وَأَكْبَنَ الْبَرَّ
مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيَوْمَ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ
عَلَى حُبُّهِ ذُوِّي الْقُرْبَى وَالْمَيْتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَةَ ، وَالْمُؤْفُونَ يَعْهَدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ
فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِرَنَ الْبَاسِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلَئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ »

فهذه الآية الكريمة حاوية لجميع السمات البشرية برمتها . تصرحها أو تلويحاً لما أنها مع تكثير فنونها ، وتشعب شجونها — منحصرة في خلال ثلات : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة مع العباد ، وتهذيب النفس . وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصل ، وإلى الثانية بآياته المال ، وإلى الثالثة باقامة الصلاة إلخ . ولذلك نعمت المتسمون بها بالصدق لا ينافيهم واعتقادهم ، وبالتفوى لحسن معاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق . وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَمِلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَ
الإِخْلَاصِ وَالنَّصِيحَةِ »

فسر صاحب المصباح المنير النصيحة بأنها : « الإخلاص والصدق
والمشورة والعمل » فهى كلمة جامعة لكل ذلك . قال ابن الأثير في النهاية :
« النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة : وهى إرادة الخير للمنصوح له » وليس

يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيرها . وأصل النص في اللغة الخلوص . . . وفي حديث أبى : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن التوبة الناصحة ، قال : « هىَ الْخَالِصَةُ الَّتِي لَا يَعْوَدُ بَعْدَهَا الذَّنْبُ » وقال تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنْنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله : « النصيحة كلمة جامدة معناها : حيازة الحظ للمنصوح له . ويقان : هو من وجيء الأسماء ، ومحتصر الكلام ، وليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة ، كما قالوا في الفلاح : ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه . وقيل : النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه : إذا خاطه ، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحرأ من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الشوب . وقيل : إنها مأخوذة من نصحت العسل : إذا صفيته من الشمع : شبها تخليص القول من العش بتخلیص العسل من الخلط »

أوردنا ذلك جميعه ، ليتجلى لك أن الإخلاص والصدق والنصيحة كلمات تتعاور المعنى الواحد وتتداول المفهوم المنفرد ، وأن النصيحة قد تطلق ويراد بها الاثنين قبلها معاً ، أو أحدهما على انفراده .

أنواع الأخلاص

روى تيم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدُّينُ النَّاصِحَةُ »
قلنا من ؟ قال : « اللَّهُ وَرَبُّكُمْ وَرَسُولُهُ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَةَ هُنَمَّ »
فهذا حديث عظيم الشأن أو جز فيه النبي صلى الله عليه وسلم أنواع الإخلاص
التي عليها مدار السعادتين : الدنيوية والأخروية ، والتي لو شرحت حق الشرح
بما انطوى تحتها من شعب ، وما أجمل فيها من مفردات لاستغرقت كثير

المجلدات ، وجهدت الجهود دون مالها من غايات . ولا غرابة فقد أوثقى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، حتى جاءت أحاديثه حكمة الحكم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) وسبعين هذه الأنواع على القدر المستطاع :

الإخلاص لله تعالى:

الإخلاص لله تعالى معناه منصرف إلى الإيمان به ونفي الشرك عنه ، وترك الاحاد في صفاتة ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها ، وتنزيهه سبحانه وتعالي من جميع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وجihad من كفر به ، والاعتراف بنعمته ، وشكره عليها ، وتخلص جميع الأمور عن الشوائب كلها : قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيها قصد التقرب إلى الله تعالى ، فلا يكون فيها باعث سواه ، ثم الدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة ، والحمد عليها ، والتلطف في جمع الناس ، أو من أمكن منهم عليها : قال محمد بن سعيد المروزي : « الْأَمْرُ كُلُّهُ يُرْجَعُ إِلَى أَصْلَيْنِ : فَعَلَ مِنْهُ بَكْ وَفَعَلَ مِنْكَ لَهُ ، قَرَضَ مَا فَعَلَ ، وَتَخَلَّصَ فِيمَا تَعْمَلَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ سُعدْتَ بِهِذَيْنِ ، وَفَزْتَ فِي الدَّارَيْنِ »

وقد أكثر الشيوخ الاقاويل في الإخلاص لله تعالى ، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم : إذ سئل عن الإخلاص فقال : « أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أَمْرَتَ » أى لا تعبد هو لك ونفسك ولا تعبد إربك ، وتسقين في عبادته كما أمرت .

وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر ، وهو الإخلاص حقاً ، وهو المراد بقوله تعالى : (وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْمَلُوا اللَّهُ يُحِلُّ صِرَاطَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ) وقال تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَاصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ) وقال تعالى : (فَمَنْ كَانَ

يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَا يَعْمَلُ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) نزلت هذه الآية فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه .

الإِخْلَاصُ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى :

وَأَمَّا الْإِخْلَاصُ لِكِتَابِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَالإِيمَانُ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَنْزِيلُهُ، لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِّنْ كَلَامِ الْخَلْقِ، وَلَا يُقْدِرُ عَلَى مُثْلِهِ أَحَدٌ مِّنَ الْخَلْقِ، ثُمَّ تَعْظِيمُهُ وَتَلَاوُتُهُ حَقُّ تَلَاوَتِهِ، وَتَحْسِينُهَا وَالْخَشُوعُ عَنْهَا، وَإِقَامَةُ حِرْفَهُ فِي التَّلَوَةِ وَالذِّبْعِ عَنْهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْمُحْرِفَيْنِ وَتَعْرِضُ الطَّاعِنِيْنِ، وَالتَّصْدِيقُ بِمَا فِيهِ، وَالوقوفُ مَعَ أَحْكَامِهِ، وَتَفْهِيمُ عِلْمِهِ وَأَمْثَالِهِ، وَالاعتِبَارُ بِمَا عَوَّظَهُ وَالتَّفَكِيرُ فِي عِجَابِهِ، وَالْعَمَلُ بِمَحْكَمَهُ، وَالتَّسْلِيمُ لِمُتَشَابِهِ، وَالْبَحْثُ عَنْ عِمَومِهِ وَخُصُوصِهِ، وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ، وَنَشْرُ عِلْمِهِ، وَالدُّعَاءُ إِلَيْهِ وَإِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ نَصِيحةٍ

الإِخْلَاصُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

الإِخْلَاصُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَصْدِيقَهُ عَلَى الرِّسَالَةِ، وَالإِيمَانُ بِجُمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ، وَطَاعَتِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَنَصَرَتِهِ حَيَاً وَمِيتَاً، وَمَعَادَةُ مَنْ عَادَاهُ وَمُوَالَةُ مَنْ وَالَّا، وَإِعْظَامُ حَقِّهِ وَتَوْقِيرُهُ، وَإِحْيَاءُ طَرِيقَتِهِ وَسَلَتِهِ، وَبَثْ دُعَوَتِهِ وَنَشْرُ شَرِيعَتِهِ وَنَفْيُ التَّهْمَةِ عَنْهَا، وَاسْتِتَارَةُ عِلْمِهِا، وَالتَّفْقِهُ فِي مَعَانِيهَا وَالدُّعَاءُ إِلَيْها، وَالتَّلَطُّفُ فِي تَعْلِيمِهِا وَتَعْلِيمِهِا، وَإِعْظَامِهِا وَإِجْلَالِهِا وَالتَّأْدِبُ عَنْ قِرَاءَتِهِ، وَالإِمْسَاكُ عَنِ الْكَلَامِ فِيهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِجْلَالُ أَهْلِهَا لَا تَنْسَابُهُمْ إِلَيْها، وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِهِ، وَالتَّأْدِبُ بِآدَابِهِ، وَمحْبَتِهِ أَكْثَرُ مِنَ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، بَلْ وَأَكْثَرُ مِنَ النَّفْسِ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ كُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَا لِهِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ» وَفِي روَايَةِ: «وَمَنْ نَفَسَهُ» وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي مَعْرِضِ التَّهْدِيدِ وَالإِنْكَارِ: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالَ اقْتَرَفُوهَا وَتِجَارَةً تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضُوهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْبَصُوا حَتَّى
يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ثُمَّ مُحِبَّةُ أَهْلِيَتِهِ وَأَصْحَابِهِ،
وَبِجَانِبِهِ مِنْ ابْتِدَاعٍ فِي سُنْتِهِ أَوْ تَعْرِضَ لِأَهْدِرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مَا يَطْوُلُ
اسْتِيفَاؤُهُ، وَيَتَعَذَّرُ اسْتِقْصَاؤُهُ.

الإخلاص لأئمة المسلمين :

الإخلاص لهم معاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه ، وأمرهم به ، وتنبيههم
وتذكيرهم برفق ولطف ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق
المسلمين ، وترك الخروج عليهم ، وتألف قلوب الناس لطاعتهم .

قال الخطابي رحمه الله : « وَحَقُ النَّصِيحَةِ لَهُمُ الصَّلَاةُ خَلْفُهُمْ ، وَالْجَهَادُ
مَعْهُمْ ، وَأَدَاءُ الصَّدَقَاتِ إِلَيْهِمْ ، وَتَرْكُ الْخَرْوَجَ بِالسَّيْفِ عَلَيْهِمْ إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ
حِيفٌ أَوْ سُوءٌ عَشْرَةٌ ، وَأَلَا يَغْرِيَنَا إِلَكَاذِبِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَدْعُنَا لَهُمُ الْصَّالِحَ »
وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم من يقوم بأمور المسلمين
من أصحاب الولايات وهذا هو المشهور : قال الخطابي : « وَقَدْ يَتَأَوَّلُ ذَلِكُ
عَلَى الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ هُمْ عَلَيْهِمُ الدِّينُ ، وَأَنْ مَنْ نَصِيَحْتُهُمْ بِقِبْلَةِ مَارُوفٍ ، وَتَقْلِيدِهِمْ
فِي الْأَحْكَامِ ، وَإِحْسَانِ الظَّنِّ بَعْدَمِهِ » .

الإخلاص لعامة المسلمين :

عامة المسلمين هم من عدا ولاة الأمر ، والإخلاص لهم إرشادهم لصلاحهم
في آخرتهم ودنياهם ، وكيف الأذى عنهم : فيعلمهم ما يحبونه من دينهم ،
ويعينهم عليه بالقول والفعل ، وستر عوراتهم ، وسد خلاتهم ، ودفع
المضار عنهم ، وجلب المنافع لهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر
برفق وإخلاص ، والشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، ورحمة صغيرهم ، وتخويفهم
بالموعظة الحسنة ، وترك غشهم وحسدهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ،

ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه ، والذب عن أموالهم وأعراضهم ، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل ، وحثهم على التخلق بجميع ماذكرناه من أنواع الإخلاص ، وتنشيط هممهم إلى الطاعات .

وقد كان في السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه : قال جرير بن عبد الله : « بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم » ولجرير في هذا منقبة ومكرمة رواها الحافظ أبو القاسم الطبراني : اختصارها : أن جريراً أمن مولاه أن يشتري له فرساً ، فاشترى له فرساً ثلثمائة درهم ، وجاء به وبصاحبه لينقده المثلث ، فقال جرير لصاحب الفرس : « فرسك خير من ثلاثة درهم ! أتباعيه بأربعمائة درهم ؟ » قال ذلك إليك يا أبا عبد الله ، فقال : « فرسك خير من ذلك ! أتباعيه بخمسين مائة درهم ؟ » ثم لم ينزل يزيده مائة فمائة ، وصاحبه يرضي ، وجرير يقول : « فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة درهم ، فاشتراه بها ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إنني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم » والله أعلم .

السبب الرابع من أسباب السعادة

الصحبة

العلاقة بين النفس والبدن :

كل من النفس والبدن متاثر بصاحبه ، فإن النفس إن كملت وكانت زاكية حسنت أفعال البدن وكانت جميلة . وكذا البدن : إن جملت آثاره حدث منها في النفس هيئات حسنة ، وأخلاق مرضية .

ولما كانت النفس مرتبطاً بطاطاً وثيقاً بالجسم على نحو ماذكر كان أحدهما متعلقاً بصاحبه متغيراً بتغييره ، فيصبح بصحته ، ويرض بمرضه . ونحن نرى ذلك مشاهدة وعياناً بما يظهر لنا من أحوالها : وذلك أنها نرى المريض من جهة بدنها - خصوصاً إذا كان مريضاً بالدماغ أو القلب - يتغير دقيقه

ويمرض ، حتى ينكر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوى نفسه الشريرة ، ويحس هو من نفسه بذلك ، كذلك أيضا نرى المريض من جهة نفسه - إما بالغضب ، وإما بالحزن ، وإما بالشهوات المأجحة به - تغير صورة بدنها حتى يضطرب ويرتعد ، ويصفر ويحمر ويهلل ويسمن ، ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحسن .

تصویر المرض :

هذه العلاقة يجب أن تتفقد مبدأ الأمراض : فإذا كان مبئوها من النفس ذاتها : كالتفكير في الأشياء الرديئة وإجلال الرأي فيها ، وكاستشعار الخوف من الأمور العارضة والمتربعة والشهوات المأجحة - قصدنا علاجها بما يخصها . وإن كان مبئوها من المزاج ومن الحواس : كالحور الذي مبئوه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية ، والعشق الذي مبئوه النظر مع الفراغ والبطالة - قصدنا أيضاً علاجه بما يخص هذه .

ولما كان طب الأبدان ينقسم قسمين : أحدهما : حفظ صحتها إذا كانت حاضرة . والآخر : ردها إليها إذا كانت غائبة . (وسينأتي إن شاء الله الكلام على ما يجب نحو صحة الأبدان) — لما كان طب الأبدان ينقسم بهذه القسمة وجب أيضاً أن نقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها : فنحفظها إذا كانت حاضرة ، ونردها إذا كانت غائبة .

ما يجب لحفظ صحة النفس

إذا كانت النفس خيرة فاضلة ، تحب نيل الفضائل ، وتحرص على إصابتها ، وتشتاق إلى العلوم الحقيقة والمعارف الصحيحة - يجب على صاحبها أن يراعي الأمور الآتية :

الأول

عاشرة الأُخْيَار

فيجب عليه أن يعاشر من يجانسونه ، ويطلب من يشاكلونه ، ولا يأنس بغيرهم ، ولا يجالس سواهم ، ويحذر كل الخدر منعاشرة أهل الشر والمحون ، والمجاهرين باصابة اللذات القبيحة ، وركوب الفواحش والمفتخرین بها والمنهمكين ، ولا يصغى إلى أخبارهم مستطياً ، ولا يروي أشعارهم مستحسنًا ، ولا يحضر مجالسهم ممتهجًا ؛ وذلك أن حضور مجلس واحد من مجالسهم ، وسماع خبر واحد من أخبارهم - يعلق من وضره ووسخه بالنفس ما لا يغسل عنها إلا بالزمان الطويل والعلاج الصعب ، وربما كان سبباً لفساد الفاضل الحنك ، وغواية العالم المستبصر ، حتى يصير فتنة لهما ، فضلاً عن الحدث الناشيء المسترشد :

اصحب الأُخْيَار وارغب فيهم رب من صاحبته مثل الجرب والعلة في ذلك أن محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية طبيعة للإنسان للنفّاقيّ التي فيه ، فتحن بالجبلة الأولى والفطرة السابقة تميل إليها ، ونحرص عليها ، وإنما نزم أنفسنا عنها بزمام العقل والشرع ، حتى نقف عند ما يرسم لنا ، ونقتصر على المقدار الضروري منها .

وكذلك : إنعاشرة الأصدقاء الذين سنذكر أحواهم فيما يأتي ، وسنحكم بتهم السعادة معهم و لهم - لاتتم هذهعاشرة إلا بالمؤانسة والمداخلة ، ولا بد في ذلك من المزاح المستعدب ، والأحاديث المستطابة ، والفكاهة المحبوبة ، وإصابة اللذة التي تطيقها الشريعة ويقدرها العقل ، حتى لا يتتجاوزها إلى الإسراف ، ولا يقصر عنها تهاوناً بها ؛ لأن الخروج إلى أحد الطرفين إن كان إلى جانب الزيادة سمعي مجونة وفسقاً وخلاعة وماأشبهها من أسماء الذم ، وإن كان إلى جانب النقص سمعي فدامة ، وعبوساً ، وشكاسة ، وماأشبهها من

أسماء الندم أيضاً . والمتوسط بينهما هو الظريف الذي يوصف بالهشاشة والطلاقة وحسن العشرة . ويعرض من الصعوبة في وجود هذا الوسط ما يعرض في سائر الفضائل الخلقية .

الثاني

الارتياض بالأمور الفكرية

وما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه أن يتلزم وظيفة من الجزء النظري والعملى لا يسوع له الإخلال بها البة ؛ لتجرى للنفس بجرى الرياضة التي تلزم في حفظ البدن . وأطباء النفوس أشد تعظيمها لها في حفظ صحة النفس ؛ لأن النفس متى تعطلت من النظر ، وعدمت الفكر والغوص على المعانى تبلدت وتبليت ، وانقطعت عنها مادة كل خير . وإذا ألغت الكسل ، وترمت بالروية واختارت العطلة - قرب هلاكها ؛ لأن في عطلتها هذه انسلاخاً من صورتها الخاصة بها ورجوعاً منها إلى رتبة البهائم ، وهذا هو الانتساك في الخلق نعوذ بالله منه . وإذا تعود الحدث الناشئ من مبدأ تكوينه الارتياض بالأمور الفكرية ، وأخذ نفسه بها - ألف الصدق ، واحتلما شغل الروية والنظر ، وأنس بالحق ، ونبأ طبعه عن الباطل ، وسمعه عن الكذب . فإذا بلغ أشدته وانتقل إلى مطالعة الحكمة استمر طبعه ، وتشرب ما يستودع منها ، ولا يرد عليه أمر غريب ، ولا يحتاج إلى كثير تعب في فهم غواصتها واستخراج دفائتها : فيصل سريعاً إلى سعادتها التي سنذكرها إن شاء الله تعالى .

وإن كان حافظ هذه الصحة قد توحد في العلم وبرع ، فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الأزيداد ؛ فإن العلم لانهاية له ، وفوق كل ذي علم عاليم . ولا يتکاسل عن معاودة ماعلهه ودرسه ؛ فإن النسيان آفة العلم . وليتذكر

قول الحسن البصري رحمة الله عليه : « اقذعوا هذه النفوس ؛ فانها طلعة ،
وحادثوها ؛ فانها سريعة الدثور »

الثالث

عدم إثارة قوى الشهوّة والغضب

وينبغي لحافظ الصحة على نفسه ألا يحرك قوته الشهوانية ، وقوته العضدية بذكر مأاصاب منهما ، بل يتذكرهما حتى يتحركا بأنفسهما : وذلك أن ألا إنسان ربما تذكر لذاته فيإصابة الشهوات وطبيتها ومراتب كرامته من السلطان وغيرها ، فاشتاق إليها ، وإذا اشتاق إليها تحرك نحوها ، وجعلها غرضه ، فيضطر إلى استعمال الروية واستخدام النفس الناطقة فيها ، لتدرك له الوصول إليها . وهذه صورة من يثير بهائم عاديه ، ويبيح سباعا ضاريه ، ثم يتلمس معاجلتها والخلاص منها . وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال ، بل هي من أفعال المجانين الذين لا يميزون بين الخير والشر ولا بين الصواب والخطأ . ولذلك يجب ألا يتذكر أعمال هاتين القوتين ؛ لئلا يشتق إليةما ، ويتحرك نحوهما ، بل يتذكرهما ؛ فانهما سيثوران لأنفسهما ، ويبيجان عند حاجتهما ، ويلتمسان ما يحتاج البدن إليه ، ويتحذآن من باعث الطبيعة ما يعنيك عن بعضهما بالفكر والرواية والتمييز ، فيكون حينئذ فكرك وتمييزك في إزاحة علتهما وقدر ما تطلقه لهما في الأمر الضروري الواجب لأبداننا الحافظ لصحتها ، وهذا هو إ مضاء أمر الله تعالى ، وسلوك سبيل حكمته ؛ لأنه تعالى إنما وهب لنا هاتين القوتين لمستخدمهما عند حاجتنا إليهما ، لا لخدمهما وتبعدهما . فكل من استعمل النفس الناطقة في حاجات خدمها فقد تجاوز أمر الله ، وتعدى حدوده ، وحاد عن سبيل حكمته ؛ لأن خالقنا عز وجل رتب لنا هذه القوى بتدبره وتقديره ، ولا عدل أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره ، وكل من خالفه وعدل عنه فهو أعظم جائز على ذاته ، وأكبر ظالم لنفسه .

هذا . ولو لا خوف الإطالة لفصلنا ما يحمد ويذم من هاتين القوتين . وبالإجمال : ليحذر حافظ صحة نفسه في جميع أوقاته ملابسة رذيلة ، أو مساعدة رفيق عليها ، أو مخالفة صواب . ولا يستحقون شيئاً مما يأتيه من صغار السيئات ، ولا يطلبن رخصة فيها ؛ فإن ذلك يدعوه إلى أعظم منها . ومن تعود في أول نشوئه وحدثان شبابه بضبط النفس عن شهوتها عند ثورة غضبه وحفظ لسانه واحتمال أقرانه - خف عليه ما ينقل على غيره من لم يتادب بتلك الآداب . وبيان ذلك : أنا بخدم الحمد وأشباحهم إذا بدوا بمخدومين ساءت أخلاقهم يسفهون عليهم ويسبون أغراضهم - هار عليهم الخطب فيما يسمونه ، حتى لا يؤثر فيهم ، وربما تصاحكوا عند سماع مكروه شديد ضحكا غير متتكلف ، ويعملون عند ذلك أعمالهم ودعين طلقين غير قلقين ، وقد كانوا قبل ذلك شرسين غاضبين غير محتملين ولا ممسكين عن الأجرة والانتقام بالكلام وطلب التشفق بالخصام ، ويكثر ذلك منهم إذا حسنت أخلاقك مخدوميهم : قيل لحكيم : لا تصفح عن عبده ، وهو يقصر في خدمتك ، فيفسد باحتمالك ، قال : « لأن يفسد عبدي في صلاح نفسي خير من أن تفسد نفسي في صلاح عبدي » فإن احتمال ذلك إصلاح للنفس ، والانتقام إصلاح للعبد .

وهذه سهلنا إذا ألفنا الفضائل ، وتجنبنا الرذائل ، وأمسكنا عن مقاولة السفهاء ومجاراتهم والانتقام منهم

ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالحزم ؛ فأنهم يستعدون للأعداء بالعدة والعتاد والتحصن قبل هجوم العدو ، وهم في مهلة من زمانهم ، وفي اتساع من نظرهم . ولو أغفلوا ذلك إلى أن تحل بهم المكار ، وتطرقهم الشدائ لأذلهم الأمر عن الحيلة والرأي السديد . فعلى هذا الأصل يجب أن نبني أمورنا في الاستعداد للأعدائنا من الشر والغضب ، وسائر ما يزيينا عن أغراضنا من الفضائل : بأن تتعود الصبر على ما يجب الصبر

عليه والحلم عن ينبعى أن نحلم عنه ، وضبط النفس عن الشهوات
الرديئة ، ولا نتظر دفع هذه الرذائل وقت هيجانها ؛ فان الأمر عند ذلك
صعب جدا ، ولعله غير ممكن البته . ومثال رد الشهوة في أول انباعها صرف
عنان الدابة عن توجها إلى باب دار تدخله : فما أهون منها وصرف عنانها .
ومثال علاجها بعد استحکامها أن تترك الدابة حتى تدخل وتحاوز الباب ،
ثم تأخذ بذنبها جارا لها إلى الوراء . وما أعظم التفاوت بين الأمرين .
فليكن الاحتياط في بدايات الأمور ، فأما أواخرها فلا تقبل إلا صلاح في
الأكثر إلا بجهد شديد يوازي نزع الروح .

الرابع

التدبر في كل الأمور ومعاقبة النفس عند فعل المخظور

ينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن يلطف نظره في كل ما يعمر، ويذير، ويستعمل فيه آلات بدنه ونفسه؛ لئلا يجرى فيه على عادة تقدمت له مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته؛ فما أكثر ما يعرض للإنسان من بدء أو أفعال مخالف لما قدم فيه عزيمته، وعقد عليه رأيه.

فمن عرض له مثل هذا وجب عليه أن يفرض لنفسه عقوبات يقابل بها أمثال هذه الذنوب : فإذا أنكر من نفسه مبادرة إلى طعام ضار وترك حمية قد كان استشعرها ، أو تناول فاكهة غير موافقة أو حلواه كذلك عاقب نفسه بصوم لا يفطر فيه إلا على ألطاف ما يقدر عليه وأقله ، وإن أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب في غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منه - فليقابل ذلك بلوم نفسه وتعنيفها وإرضاه من غضب عليه ، وليرض على نفسه مالاً يخزنه صدقة . وإن أنكر من نفسه كسلًا وتوانيا في مصلحة له فليعاقبها بسعي فيه مشقة ، أو إصلاحة فيها طول ، أو بعض الأعمال الصالحة التي فيها كد وتعب . وبالاجمال : ليرسم على نفسه رسوماً تصير عليها فرائض

وحدوداً، لا يدخل بها ولا يتخصص فيها إذا أنسك من نفسه مخالفة لعقله، وتجاوزاً لرسومه.

الخامس

استقصاء عيوب النفس

ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يطلب عيوبها باستقصاء شديد، ولا يعمل بما قاله جالينوس في ذلك : فإنه ذكر في كتابه المعروف بـ*تعرّف المرأة عيوب نفسه* : « لما كان كل إنسان يجب نفسه خفية عليه معايبه ، ولم يرها وإن كانت ظاهرة » وأشار في كتابه هذا بأن يختار من يجب أن ييرأ من العيوب صديقاً كاملاً فاضلاً ، فيخبره بعد طول المؤانسة أنه إنما يعرف صدق مودته ، إذا أصدقه عن عيوبه حتى يتذنبها ، ويأخذ عهده على ذلك ، ولا يرضى منه إذا قال له : لا أعرف لك عيّباً ، بل ينسكه عليه ، ويعمله أنه قد اتهمه بالخيانة . ويعاود مسألته والإلحاح عليه . فإذا لم يخبره بشيء من عيوبه زاد في العتب الصريح والإلحاح قليلاً ، فإذا أخبره ببعض ما يعثر عليه منه فلا يظهر له في وجهه استنكاراً ولا انقباضاً ، بل يبسط له وجهه ، ويظهر السرور بما أخرجه إليه ، ونبهه عليه ، ويشكره على الأيام وفي أوقات المؤانسة ؛ ليسهل عليه إهداء مثله إليه ، ثم يعالج ذلك العيوب بما يزيل أثره ويمحو ظله ، ليعلم بذلك المهدى إليك عيتك أنك من وراء نفسك وفي طريق علاج مرضك ، فلا ينقطع عن معاودتك ونصيحتك . وهذا الذي أشار به جالينوس معوز غير موجود ولا مطموع فيه ، ولعل العدو في هذا الموضع أنفع من الصديق ؟ فإن العدو لا يكتشمنا في إظهار عيوبنا ، بل يتتجاوز ما يعرف منها إلى التحرص والكذب فيها ، فلننتبه إلى كثير من عيوبنا من جهتهم ، بل تتجاوز ذلك إلى أن نتهم نفوسنا بما ليس فيها . وجالينوس أيضاً : (إن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم .) قال الشاعر : عدائي لهم فضل على " ومتة فلا أبعد الرحمن عن الأعدايا

همو بحثوا عن زلتى فاجتنبها وهم ناسونى فاكتسبت المعاليا
 قال أبو يوسف بن اسحق الكندي : « ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه أن يتخد
 جميع معارفه من الناس مرآة له تريه صور كل واحد منهم عند ما تعرض له
 آلام الشهوات التي تتمر السينيات حتى لا يغيب عنه شيء من سينياته . وبذلك
 يكون متقددا سينياتهم ، فتى رأى سينية بدبة من أحدهم ذم نفسه عليها كأنه
 فعلها وأكثر عتبه على نفسه من أجلها ، ويعرض عليها كل يوم وليلة جميع
 أفعاله ، حتى لا يشذ عنه شيء منها .

إذا وقفتنا على سينية من أفعالنا اشتد عذلنا لأنفسنا عليها ، ثم لنقم عليها
 حدا نفرضه ولا نضيءه . وإذا تصفحتنا أفعال غيرنا ووجدنا فيها سينية عاتينا
 أيضاً نفوتنا عليها ؛ فإن نفوتنا تدع حينئذ عن المساوى وتألف الحسنات ،
 وتكون المساوى أيضاً يبالنا لانساحتها ولا يأتي عليها زمان طويل ، فيعفو
 ذكرها ، ولذلك ينبغي أن نعمل في الحسنات لنفرغ لها ، ولا يفوتنا منها
 شيء . قال وينبغي إلا نقطع بأن نصير أشباه الدفاتر والكتب التي تفيد
 غيرها معانى الحكم ولا تتصف بها ، أو كالمسن يشحد ولا يقطع ، بل تكون
 كالشمس التي تفيد القمر كلما أشرقت عليه إنارة من ذاتها فتكسيبه تماماً ،
 حتى يكون له شبهها ، وإن قصر عن نورها . فهكذا ينبغي أن يكون حالنا إذا
 أ Ferdinand غيرنا الفضائل .

قيمة حفظ الصحة النفسية

حافظ صحة نفسه إنما يحفظ عليها نعمما شريفة جليلة وهو به لها وكتنوزاً ،
 عظيمة مدخلة فيها ، وحللا فاخرة مفرغة عليها . ومن كانت هذه الموارب
 الجليلة موجودة له في ذاته لا يحتاج إلى تطلبها من خارجها ولا إلى بذل الأموال
 فيها لغيره ، ولا يكلف العناه والمؤمن الثقال لتحصيلها ، ثم مع ذلك أعرض
 عنها ، وأهمل أمرها ، حتى انسليخ عنها وعرى منها - من كان كذلك فهو ملوم في
 فعله ، مغبون في رأيه ، غير رشيد ولا موفق : إذ هو يرى طالبي النعم

الخارجية يتجمشون الأسفار البعيدة الخطرة، ويقطعون السبل المخوفة الوعرة، وي تعرضون لضروب المكاره وأنواع التلف من السباع العادية، وطبقات الآشرار الباغية، وهم يخسون في أكثر الأحوال، مع مقاساة هذه الأحوال، وربما عرضت لهم الندامة المفرطة، والحسرة المعطوبة التي تقطع أنفاسهم، وتفصل أعضاءهم. فإن ظفروا بشيء من مطالبهم كان لا محالة زائلاً عن قرب، أو معرضًا للزوال، وغير مطموع في بقائه؛ لأنه من خارج النفس، وما كان خارجاً عنها فهو غير منتنع عما يطرق من الحوادث التي لا تختصى كثرة، وصاحبها مع هذه الحال شديد الوجل، دائم الإشفاق، متعب الجسم والنفس بحفظ مالا يجد إلى حفظه سيلان، والخذر على مالا يعني فيه الخذر فتيلاً.

وإن كان طالب هذه الأشياء الخارج عن النفس سلطاناً أو صاحب سلطان - تضاعفت عليه المكاره أضعافاً كثيرة بقدر ما يلايه وبحسب ما يقتضيه من الأضداد والحساب على البعد ومن القرب، وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن في استصلاح من يليه ويلي من يليه، وفي مداراة من يواليه ويعادييه. وهو في كل ذلك ملوم مستبطاً، ومعتب مستقصراً، ويسرزده جميع أهله والمتصلين به، ولا سبيل له إلى إرضاء واحد منهم به جميعهم، ولا يزال يبلغه عن أخص الناس به من أولاده وحرمه ومن يحرى مجراهم : من حاشيته وخوله -

ما يملؤه غيظاً وحنقاً، وهو غير آمن على نفسه من جهتهم مع التجاود الذي يبيّنهم من مكتبة الأباء إياهم ومواطأة الحساب لهم. وكلما ازداد من الأعوان والأعضاء والأنصار زادوه في شغل القلب، وجلبوا إليه من المكاره ما لم يكن عنده فهو غنى عن الناس، وهو أشدتهم فقراً، ومحسود وهو أكثرهم حسداً. وكيف لا يكون فقيراً وحد الفقر: هو كثرة الحاجة. فأكثر الناس حاجة أشدتهم فقراً، كما أن أغنى الناس أقلهم حاجة :

فإله تعالى أغنى الأغنياء؛ لأنه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء، والملوك منا أشد الناس فقراً لـكثرة حاجتهم إلى الأشياء. ولقد صدق أبو بكر الصديق

ولعل من يرى ظاهر الملوك من الأسرة والفرش والزينة والآثاث،
ويشاهدهم في مواكبهم محفوظين محسودين، بين أيديهم الجنائب والمراكب
والعيدين والخدم، والحجاب والخشيم - يروعه ذلك، فيظن أنهم مسرورون
بما يراه لهم . لا ، والذى خلقهم وكفانا شغلهم ، إنهم لفي هذه الأحوال
ذاهلون عما يراه البعيد لهم ، مشغولون بالآفكار التي تعتورهم فيما قلناه
من ضروراتهم . ولعل بعض من يصل إلى الملك أو السلطان يتذمّر في المبدأ
مدة يسيرة جداً بمقدار ما يتمكن منه وتنفتح عينه فيه ، وبعد ذلك يصير
جميع ماملكه كالشىء الطبيعي له ، لا يلتفت به ، ولا يفكر فيه ، ويمد عينيه
إلى مالا يملكون . فلو ملك الدنيا بعذافيرها لقى دنيا أخرى ، أو نزقت همتته
إلى البقاء الأبدى ، والملك الحقيقي : ذلك أن حفظ الدنيا صعب جداً لما في
طبيعتها من الأخلال والتلاشي ، ولما يضطر الملك إليه من الأمور التي
وصفناها ، والأمور الجمة المصروفة إلى الجناد المرتبطين ، والخدم المسوّمين ،
والذخائر والكنوز المعدّة للآفات ، والحوادث التي لا يؤمن طرورها .

فهذه حال طلاب النعم الخارجيين ، وأما تلك النعم التي هي في ذواتنا فـ^{هي} موجودة عندنا وفيينا وهي غير مفارقة لنا ، لأنها موهبة الخالق - جل وعلا - وقد أمرنا باستثمارها والترقى فيها . فإذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعمـاً بعد نعمـود درجة بعد درجة ، حتى تؤدينا إلى النعم الأبدية التي هي الملك

الحقيقي الذي لا يزول ، والغبطة الدائمة الصافية التي لا تحول . فلن أخسر صفة وأظهر سقطة من أضاع جواهر نفيسة باقية عنده موجودة له ، وطلب أعراضًا خسيسة فانية ليست عنده ، ولا موجودة له : فإن اتفق أن يجدها لا تبقى له ، ولا ترك عليه : وذلك أنها تُنْقَل عنه ، أو يُنْقَل عنها لا محالة .

لذلك يطلب من رزق الكفاية ، ووجد القصد من السعادةخارجة -
ألا يشتغل بفضول العيش ؟ فإنها بلا نهاية ، ومن طلبها أوقعته في مهالك
لأنهاية لها .

علاج النفس

علاج النفس رد الصحة إليها إذا لم تكن حاضرة : وذلك بمداواة أمراضها
الغالبة ، وهي مقابلات الفضائل الأربع : الشجاعة ، والعفة ، والحكمة ،
والعدالة .

ولما كانت الفضائل أو ساطاً محمودة ، وأعياناً موجودة أمكن أن تطلب
وتقصد وتنتهي إلى الحركة والسعى والاجتهد . وأما سائر النقط التي ليست
بأوساط فإنها غير محدودة ، ولا أعيانها موجودة ، وجودها بالعرض
لابالذات . فكل فضيلة طرثان محدودان يمكن الإشارة إليهما ، وأوساط
يinهمما كثيرة لأنهاية لها ، ولا يمكن الإشارة إليها ، إلا أن الوسط الحقيقي
واحد ، وهو الذي سميـناه فضيلة ، وبحسب هذا البيان تكون أجناس
الشرور والرذائل ثمانية : لأنها ضعف الفضائل الأربع ، وهي هذه :

التهور والجبن طرثان للوسط الذي هو الشجاعة ، والشره والخنود طرثان
للوسط الذي هو العفة ، والسفه والبله طرثان للوسط الذي هو الحكمة ،
والجور والمهانة طرثان للوسط الذي هو العدالة . فهذه أجناس الأمراض
المقابلة للفضائل التي هي صحة ، وتحت هذه الأجناس أنواع لأنهاية لها .
ونذكر بعون الله تعالى هذه الأجناس مع بيان أسبابها ووسائل علاجها

مبتدئين بذكر التهور والجبن الذين هما طرفا الشجاعة :

التهور والجبن

الشجاعة فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية، وهي مع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع في إقدامها وإحجامها، فهى وسط بين رذيلتها المطيفتين بها : وهما التهور والجبن :

فالتهور لطرف الزيادة عن الاعتدال ، وهى الحالة التي بها يقدم الإنسان على الأمور المحظورة التي يجب في العقل الإحجام عنها .

سبب التهور : وسبب التهور الغضب : وهو حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوةً للانتقام . وسيأتي إن شاء الله إسهاب القول في الغضب وأسبابه وعلاجه

علاج التهور :

علاجه أن يشعر المرء نفسه بعواقب الأمور ، وبعظام أخطارها ، ويتكلف الإحجام إلى الاعتدال ، أو ما يقرب منه ؛ فإن التزام حد الاعتدال شديد ، ولو تم ذلك لتخلصت النفس من شوائب البدن وأكداره فلا تتعذر أصلا بالتأسف على ما يفوتها منه ، ولا يتکدر عليها ابتهاجها بما يتجلى لها من جمال الحق وجلاله ، ومن استقام على الصراط في الدنيا استقام على الصراط في الآخرة ؛ إذ يموت المرء على معاش عليه ، ويحشر على مماته عليه . ولذلك وجب في كل ركعة من الصلاة قراءة الفاتحة المشتملة على قوله : « اهْدِنَا الصّرّاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

والجبن لطرف النقصان عن الاعتدال ، وهى حالة بها تنقص حركة الغضبية عن القدر الواجب ، فتصرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام . سبب الجبن : لما كانت الأصداد يعرف بعضها ببعض ، وقد عرفنا الطرف

الذى حددناه بحركة للنفس عنيفة يحدث منها غليان دم القلب شهوةً

للانتقام - فقد عرفنا إذن مقابله : أعني الطرف الآخر الذي هو سكون للنفس عند ما يجب أن تتحرك فيه ، وبطلان شهوة الانتقام : فإذا كان الغضب هو مبعث التهور فالطرف المقابل له سبب الجن والخور .

ويتبعهما إهانة النفس وسوء العيش ، وطبع طبقات الأنذال وغيرهم من الأهل والأولاد والمعاملين وقلة الثبات والصبر في المواطن التي يجب فيها ذلك وما أيضا سبب الكسل ومحبة الراحة اللذين هما سبب كل رذيلة . ومن لواحق هذه الحالة الاستخدا لـ كل أحد والرضا بكل رذيلة وضمير ، والدخول تحت كل فضيحة في الأهل والنفس والمال ، وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والقذف ، واحتمال كل ظلم من كل معامل ، وقلة الأنفة مما يأنف منه الناس .

علاج الجن :

تعالج الأسباب السابقة ولو احقرها بأضدادها : وذلك بأن توظف النفس التي تمرض هذا المرض بالتحريك ؛ فإن الإنسان لا يخلو من القوة الغضبية رأساً حتى تجلب إليه من مكان آخر ، ولكنها تكون ناقصة عن الواجب ، فهي بمنزلة النار الخامدة التي فيها بقية لقبول الترويح والنفح ، فهي تتحرك لا محالة إذا حركت بما يلأها . وتبعث ما في طبيعتها من التوقد والتلهب : فلن كان في طبعه ميل إلى النقصان الذي هو الجن فليتعاطف أفعال الشجعان متكتلاً مواطباً عليها ، حتى يصير له الاعتياد طبعاً .

وقد حكى عن بعض المتكلسين أنه كان يتعمد مواطن الخوف ، فيقف فيها ، ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ، ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه ؛ ليعود نفسه الثبات في المخاوف ، ويجرب منها القوة التي تسكن عند الحاجة إلى حركتها ، ويخر جها عن رذيلة الكسل ولو احقره . ولا يكره لصاحب هذا المرض بعض المراء ، والتعرض للهلاكة ، وخصوصية من يؤمن غائلته حتى يقرب من الفضيلة التي هي وسط بين الرذيلتين : أعني

الشجاعة التي هي صحة النفس المطلوبة . فإذا وجدها وأحس بها من نفسه كيف ووقف ، ولم يتجاوزها حذراً من الواقع في التهور الذي تقدم سببه وعلاجه .

ما يندرج تحت التهور والجبن

يندرج تحتهما البذخ والبذلة والجسارة والنكول والتبرج وصغر النفس والهملع والاستشاطة والانفрак والتكبر والتخاس ، والعجب والمهانة . فما يميل منها إلى جانب الزيادة فهو تحت التهور ، وسببه سبب التهور ، وعلاجه علاجه . وما يميل إلى جانب النقصان فهو تحت الجبن ، وسببه سبب الجبن ، وعلاج الجبن علاج له :

فأما البذخ فهو الإِنفاق فيما لا يحب من الزينة وغيرها طلباً للصلف . وأما البذلة فهي الدناءة وترك الإِنفاق فيما يجب والافتخار بالأشياء الصغار . وأما الجسارة فالاستهانة بالموت حيث لا تجب الاستهانة ، أو هي قلة التأثر بأسباب الهملاك من غير أثر جميل تقضيه . وأما النكول فهو الانقباض فيما لا يحب عنه الانقباض خوفاً من الهملاك . وأما الهملع فهو سوء احتمال الآلام والمؤذيات .

وأما التبرج فهو تأهيل النفس للأمور الكبار من غير استحقاق . وأما صغر النفس فهو تأهيل النفس لما دون الاستحقاق .

وأما الاستشاطة فسرعة الغضب وحدته . وأما الانفراك فبطء الغضب وبلا دته

وأما التكبر فهو رفع النفس فوق قدرها . وأما التخاسـ فخط النفس في الكرامة والتوقير دون قدرها . فإن كان على الوجه الواجب سمي تواعضاً محموداً . وذم الناس للتكبر والمخل أشد من ذمهم للتخاس والتبذير ؛ فإن الأولين في غاية القبح . والآخرين وإن كانوا مذمومين - شبيهان بالسخاء والتواضع ، وربما يدق الفرق بينهما ، فيظن أنهما محمودان ، وهما رذيلتان

بالحقيقة مائتان عن الوسط ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طوبى لمن تواضع من غير منقصة ، وذل في نفسه من غير منكنة »

الغضب

إن القوة الغضبية هي مبعث التهور والجبن ومبدهما ، فالثلاثة بأسرها من علاق الغضب . والغضب في الحقيقة هو - كما تقدم - حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوة للانتقام . فإذا كانت هذه الحركة عنيفة أجيّت نار الغضب وضررتها ، فاحتـدـ غـلـيـانـ دـمـ القـلـبـ ، وامـتـلـأـتـ الشـرـاـينـ والدماغـ دـخـانـاـ مـظـلـمـاـ مـضـطـرـ بـاـ يـسـوـءـ مـنـهـ حـالـ العـقـلـ وـيـضـعـفـ فـعـلـهـ ، وـيـصـيرـ مـثـلـ الـإـنـسـانـ عـنـدـ ذـلـكـ عـلـىـ مـاحـكـمـتـهـ الـحـكـمـاـ مـثـلـ كـهـفـ مـلـيـءـ حـرـيقـاـ وـأـضـرـمـ نـارـآـ ، فـتـجـمـعـ فـيـهـ الـاهـبـ وـالـدـخـانـ ، وـعـلـاـ التـأـجـجـ فـصـعـبـ عـلـاجـهـ ، وـتـعـذـرـ إـطـفـاؤـهـ ، وـصـارـ كـلـ مـاـ يـدـنـىـ مـنـهـ لـلـإـطـفـاءـ سـبـيـاـ لـرـيـادـتـهـ وـمـادـةـ لـقـوـتـهـ . كذلك يعمي الإنسان عن الرشد ، ويضم عن الموعظة ، بل تصير الموعظة في تلك الحال سبباً لزيادة في الغضب ، ومادة للهرب والتراجُج ، وليس له في تلك الحال حيلة .

وقال بعض الحكماء : إن السفينة إذا عصفت الرياح ، وقدرت بها إلى موج كالجبل - أرجى من الغضبان الم��ب : ذلك بأن السفينة في تلك الحال يلطف لها الملاحون ، ويخلصونها بضروب الحيل . وأما النفس إذا استنشاطت غضباً فليس يرجى لها حيلة البتة : وذلك أن كل مارجي به الغضب من التصرع والمواعظ والخضوع يصير له بمنزلة الجزل من الخطب : يوجهه ويزيده اشتعالاً .

اختلاف الناس في الغضب :

يتفاوت الناس في ذلك بحسب المزاج : فإن كان المزاج حديداً كان قريباً الحال من حال الكبريت الذي إذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة التهب ، وإن كان المزاج بالضد فحاله كذلك بالضد . وهذا في مبدأ أمره . فاما إذا احتدم فيكاد حال الناس يتقارب فيه .

وتصور ذلك من الحطب اليابس والرطب ، ومبداً اشتعال النار بسرعة وشدة من الكبريت والنفط ، ثم انحدر منها إلى الأدھان المتوسطة ، إلى أن تنتهي إلى الاحتكاك : فان الاحتكاك وإن كان ضعيفاً في توليد النار ربماً قوى حتى تلتهب منه الأجمة العظيمة . وكفاك مثل السحاب الذي هو من البخار : كيف تهتك السحابتان حتى تنقدح بينهما النيزان ، وتنزل منها الصواعق التي لا يثبت إثرها شيء من الموارد ، ولا تفارق ما تمر به حتى يصير رميماً ، وإن كان جيلاً أطلس ، أو حجراً أصم أملس .

قال الغزالى : « والناس في الغضب يختلفون : فبعضهم سريع التوقد سريع الحمود ، وبعضهم بطئ التوقد بطئ الحمود ، وبعضهم بطئ التوقد سريع الحمود ، وهو الأحمد مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة » ومقتضى القسمة العقلية أن يكون هناك قسم رابع : سريع التوقد بطئ الحمود . ولو وجد لكان الأكثراً ذاماً ، والأوخر عاقبة .

مراتب أفعال الغضب :

تنقسم أفعال الغضب إلى محمود ، ومكرود ، ومحظوظ :

أما محمود في موضعين : أحدهما : المسمى غيرة : وهو أن يقصد حريم الرجل ، ويعرض محارمه . فالغضب له لدفعه محمود ، وقلة التأثر به مذمة ومعرة . ولذلك قال عليه السلام : (إِنَّ سَعْدًا لَغَيْرُهُ وَإِنَّ اللَّهَ أَغْيَرُ مِنْهُ) وقد وضع الله الغيرة في الرجال لحفظ الأنساب ؛ فإن النفوس لوفقتها لا خلطت الأنساب . ولذلك قيل : كل أمة وضع الله الغيرة في رجالها وضفت الصيانة في نسائها .

والثاني : الغضب عند مشاهدة المنكرات والفواحش ؛ غيرة على الدين وطلبها للانتقام . ولذلك مدح النبي عليه السلام والذين معه بكونهم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم . وقال عليه الصلاة والسلام : « خير أمّة أخذوا همها »

فالمراد به الحدة للدين ، ولذلك قال تعالى : (وَلَا تَأْخُذْ كُمْ بِهِمَا رَأَيْتُمْ فِي
دِينِ اللَّهِ)

ومع هذا ، فالسلطان إذا غضب عند جنائية جان ، ينبغي أن يحبسه ، ولا
يُبادر إلى عقوبته ، حتى يحدد النظر فيه ؛ فإن الغضب غول العقل ، فربما
يحمله على مجاوزة حد الواجب في الانتقام .

وأما المكر و هو : فغضبه عند فوات حظوظه المباح نيلها : كغضبه على
خادمه ، وعده عند كسر آنيته ، أو توانيه في خدمته بحكم تغافل يمكن الاحتراز
عنه . فهذا لا ينتهي إلى حد المحظور ، ولكن العفو والتجاوز أول وأحب .
قيل لـ حكيم : لا تصفح عن عبده ، وهو يقصر في خدمتك ، فيفسد باحتفالك ،
 فقال : « لأن يفسد عبدي في صلاح نفسي خير من أن تفسد نفسى في
صلاح عبدي »

وأما المحظور : فهو الاستشاطة الصادرة عن الفخر والتكبر والمباهة والمنافسة
والحدق والحسد ، وعن أمور واهية تتعلق بالحظوظ البدنية من غير أن يكون في
الانتقام مصلحة في المستقبل دينا ودنيا . وهو الغالب على أكثر أهل ،
وهو انقياد للخلق الذي يضاد الحلم والتحلم ؛ فإن الحلم عبارة عن إمساك
النفس عن هيجان الغضب ، والتحلم عبارة عن إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا
هاج . والشكال في الحلم ، ولكن التحلم صبر على المكر و هو فيه أيضاً
خير كثير .

أسباب الغضب صنفان : صنف تطبع النفس به ، وآخر يبعثه منها
والأول مرده أمران : المزاج والاعتياض .

أما المزاج : فإن الغضب - كما تقدم - غليان دم القلب : فإن كان على من فوقك
في القدرة على الانتقام تولد منه انقباض من ظاهر الجلد إلى القلب ، وكان
حزنا ، ولأجله يصفر الوجه . وإن كان على من دونك تولد منه ثوران دم

القلب لانقباضه ، فيكون منه الغضب الحقيق وطلب الاتقام . وإن كان على نظيرك في القدرة على الاتقام تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط ، ويختلف به لون الوجه ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

وأما الاعتياد : فان من يعاشر جماعة يباهون بالغضب والطياع السبعية انطبع ذلك فيه . وإن من خالط أهل المدحه والوقار أثرت العادة أيضاً فيه . وأما الصنف الثاني فيرجع إلى العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور التي فيها لذة ، ويتنافس فيها الناس ويتحاسدون عليها . وشهرة الاتقمام غاية جماعها ، ونهاية لها .

لواحق الغضب:

ومن لواحق الغضب : الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلاً أو آجلاً
وتحير المزاج وتعجل الألم : ذلك بأن الغضب جنون ساعة ، وربما أدى إلى
التلف باختناق حرارة القلب فيه ، وربما كان سبباً لأمراض صعبية مؤدية إلى
التلف ، ثم من لواحقه : مقت الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، واستهزاء الحساد
والآراذل من الناس

حسم أسباب الغضب:

ولكل واحد من أساليب الغضب علاج يبدأ به ، حتى يقلع من أصله ،
وإذا ما تقدمنا لحسم هذه الأسباب فـ قد أوهنا قوة الغضب ، وقطعنامادتها
وأينا غائتها . فإن عرض لنا عارض - لا يمنعنا أن نطيع العقل وتلتزم
شرائطه ، وتحل بفضيلته : وهي الشجاعة - يكن إقدامنا على مانقدم عليه
كما يحب ، وبحيث يحب ، وبالمقدار الذي يحب ، وعلى من يحب .
وإليك القول مفصلاً في حسم الأسباب المفضية إليه واحداً بعد الآخر :

العجب والافتخار

« ١ » فالعجب : ظن كاذب بالنفس باستحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها . وحقيقة على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتورها :

فإن الفضل مقسم بين البشر، وليس يمكن الواحد منهم إلا بفضل غيره، وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه.

«ب» والافتخار: هو المبالغة بالأشياء الخارجة عنا. ومن باهت بما هو خارج عنه فقد باهت بما لا يملك، وكيف يملك ما هو معرض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة، ولستنا على ثقة منه في وقت من الأوقات؟ وأصح الأمثال وأصدقها فيه ما قاله الله عز وجل: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَاحَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) إلى قوله: (فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرْشَهَا) وقال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْخَيْمَةَ الدُّنْيَا، كَمَاءُ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَاصْبَحَ هَشِيًّا تَدْرُوُ الرُّياحُ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)

وفي القرآن من هذه الأمثال شيء كثير، وكذلك في الأخبار المروية عن النبي عليه الصلاة والسلام

وأما المفتخر بنسبته: فأكثر ما يدعوه - إذا كان صادقاً - أن أباه كان فاضلاً، فلو حضر ذلك الفاضل، وقال: إن الفضل الذي تدعوه لي أنا مستبد به دونك فما الذي عندك منه ما ليس عند غيرك؟ - لو حضر وقال له ذلك لافهمه وأسكنته. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أخبار كثيرة صحيحة منها أنه قال: «لَا تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ وَأَئْتُونِي بِأَعْمَالِكُمْ» أو ما هذا معناه. ويحكى عن مملوك كان بعض الفلاسفة أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه، فقال له: «إن افتخرت على بفرسك، فالحسن والفراهة للفرس لك، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالحسن لها دونك، وإن افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم لا فيك، فإذا كانت الفضائل والمحاسن خارجة عنك، وأنت منسلخ عنها، وقد ردناها على أصحابها، بل لم تخرج عنهم، فترد عليهم - فكيف تسنى لك أن تفتخر بها؟..».

المراء واللجاج

المراء : الطعن في القول تزييفاً له وتصغيراً لقائله ، واللجاج : تماحك
الخصمين وتماديهما .

ومن هذا كان واجباً أن نحدّرَهما مع كل أحد وبخاصة الصديق ؛ فإن
مماراته تقتلع المودة من أصلها ؛ لأنها سبب الاختلاف ، والاختلاف سبب
التباین وقطع الألفة التي دعت إليها الشريعة القوية . ومن الناس من يؤثر
المراء ، ويزعم أنه يقدح خاطره ، ويشحد ذهنه ، ويزيل شكوكه ، فهو
يتعمد في المحافل التي تجتمع رؤساء أهل النظر ومتاعطى العلوم عماراة صديقه ،
ويخرج في كلامه معه إلى ألفاظ الجمال من العامة وسقاطهم ؛ ليزيد في خجل
صديقه ، وليظهر انقطاع حجته ، وليس يفعل ذلك عند خلوته به ومداكرته
له ، وإنما يفعله حين يُظْنُ به أنه أدق نظراً ، وأحضر حجة ، وأغزر علماً
وأحد قريحة .

فما أشبه هذا بأهل البغي ، وجباررة أصحاب الأموال ، والمشبهين بهم
من أهل البدع ؛ فإن هؤلاء يحتقر بعضهم بعضاً ، ولا يزال يغض من صاحبه
ويزدرى مروءته ، ويتطلب عيوبه ، ويتبع عثراته ، ويبالغ في إساءاته ، حتى
يؤدى بهم الحال إلى العداوة التامة التي تصحبها السعاية وإذلة النعم ، وقد
تجواز ذلك إلى سفك الدم وأنواع الشرور . فالمراء واللجاج لا تثبت معهما
محبة ، ولا ترجي بهما ألفة ، ولا يولدان إلا الشتات والفرقه والتباغض
بين الإخوان .

المزاح والتيه والاستهزاء

المزاح : هو الدعاية وما يستملح من الكلام . والمعتدل منه محمود ، وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً . والوقوف على
المقدار المعتدل منه صعب ، وأكثر الناس يبتدىء ولا يدرى أين يقف

منه ؟ فيخرج عن حده ، ويروم الزيادة فيه على صاحبه ، حتى يصير سبباً للوحشة ، فيثير غضباً كاملاً ، ويزرع حقداً باقياً . فلذلك عدنه في الأسباب ، فينبغي أن يحذر من لا يعرف حده ، ويذكر قول القائل : « وبعض الحرب أوله مزاح » فقد يهيج فتنة لا يهتدى لعلاجها ، ويشعر ناراً يصلها الأبراء ، ولا تطفأ إلا بارقة الدماء .

التيه : هو قريب من العجب ، والفرق بينهما : أن المعجب يكذب نفسه

فيما يظن لها ، والтиه يتهم غيره ولا يكذب نفسه ، إلا أن علاجه علاج المعجب بنفسه : وذلك بأن يعرف أن ما يتهم به لا مقدار له عند العقلاء ، وأنهم لا يعتدون به لخساسته قدره ونراة حظه من السعادة ، ولأنه متغير زائف غير موثوق بيقائه ، ولأن المال والأثاث وسائر الأعراض - قد توجد عند كل صنف من الناس الأرادل والأشراف والعلماء والجهال . وأما الحكمة فلا توجد إلا عند الحكماء خاصة .

الاستهزاء : هو السخرية من الناس . ويستعمله المجان ، ومن لا يبال بما يقابل به ، لأنه قد ووضع في نفسه احتمال مثل ذلك وأضعافه ، فهو ضاحك قرير العين بضروب الاستخفاف التي تلتحقه ، وإنما يتعيش بالدخول تحت المذلة والصغار ، بل إنما يتعرض بقليل ما يبتديء به لكثير ما يعامل به - ليضحك غيره ، وينال اليسر من بره .

والحر الفاضل بعيد من هذا المقام جداً ، لأنه يكرم نفسه وعرضه ، ويصونهما عن تعرضاً يضمهما للسفهاء ، ويعنّهما بجميع خزان الملوك ، فضلاً عن الحقير التافه .

الغدر والضيم

الغدر : هو نقض العهد ، وترك الوفاء بالوعد . ووجوهه كثيرة : فقد يستعمل في المال ، وفي الجاه ، وفي الحرم ، وفي المودة . وهو على كثرة وجوهه

مذموم بكل لسان ، ومعيب عند كل أحد ، ينفر السماع من ذكره ، ولا يعترف به إنسان ، وإن قل حظه من الإنسانية ، ولا يوجد إلا فيمن فسدت طباعهم وأسفت أخلاقهم ، فيتوقاهم الناس ، ويأنفون منهم ، ومن عرف قبح الغدر باسمه ، ونفور العقلاه منه ، ثم عرف معناه - فلا يستعمله ، وبالاخص من جادت طبيعته ، وسمت خليقته ، وطابت أعرقه .

والضمير : هو تكليف احتمال الظلم والغضب ، وربما يعرض منه شهوة الانتقام . وينبغي لأنسرع إلى الانتقام عند ضمير يلحقنا ، بل تنظر فيه ونحذر ، حتى لا يعود علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضمير . وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل ، وهو الحلم بعيشه .

المقتنيات النفسية

الخلط بين الغضب والشجاعة

يسُمِّي بعض الناس الغضب في غير موضعه رجولة وشدة شَكيمَة ، ويذهبون به مذهب الشجاعة التي هي في الحقيقة اسم لل مدح ، وشتان ما بين المذهبين : فإن صاحب هذا الخلق الذي ذمناه تصدر عنه أفعال ردية كثيرة يجور فيها على نفسه ، ثم على إخوانه ، ثم على الأقرب فالأقرب من معامليه حتى يتنهى إلى خدمه وحرمه ، فيكون عليهم سوط عذاب ، ولا يقيهم عشرة ولا يرحم لهم عبرة ، وإن كانوا براء من الذنوب غير مجرمين ولا مكتسبين سوءا ، بل يتجرم عليهم ، ويُهْبِط من أدنى سبب يجدر به طريقة إليهم حتى يبسط لسانه ويده . وهم لا ينتفعون منه ، ولا يتجررون على رده عن أنفسهم ، بل يذعنون له ، ويقررون بذنب لم يقتربوا لها استكفارا لشره وتسكيناً لغضبه ، وهو مع ذلك مستمر على طريقته ، لا يكفي يدا ولا لسانا ، وربما تجاوز في هذه المعاملة الناس إلى البهائم التي لا تعقل وإلى الأولاني التي لا تحس : فإن صاحب هذا الخلق الرديء ربما قام إلى الحيوان أو الطائر ، فيتناوله بالضرر والمكره ، وربما عرض القفل إذا تعسر عليه ، وكسر الآنية التي لا يجد

فيها طاعة لأمره . فهذا النوع من رداءة الخلق مشهور في كثير من الجهات ، يستعملونه في الشوب والزجاج والحديد وسائر الآلات .

وهذه الافعال كلها قبيحة ، وبعضاها مع قبحه مضحك يزرى بصاحبها . فكيف يمدح بالرجلة والشدة وشرف النفس وعزتها ، وهي بالذمة أولى منها بالمدح ؟ وأى حظ لها في العزة والشدة ، وهي في المرضى أقوى منها في الأصحاء ، والصيانت أسرع غضباً وضجرأ من الرجال ، والشيخوخ أكثر من الشبان ؟ ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره : فإن الشره إذا تذر عليه ما يشتته غضب وضجر على من يهيء طعامه وشرابه من نسائه وأولاده وخدمه وسائر من يلبس أمره ، والبخيل إذا فقد شيئاً من ماله تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه ، وتوجهت تهمته إلى أهل الثقة من خدمه ومواليه .

وهو لاء الطبقات لا يحصلون من أخلاقهم إلا على فقد الصديق وعدم الصحب وعلى الذم السريع واللوم الوجيع . وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور ، وصاحبها أبداً محزون كئيب متغتصب بعيشته متبرم بأمره ، وهي حال الشفى المحروم . تلك خصال الشجاع الزيف .

الشجاع الحق :

أما الشجاع العزيز النفس فهو الذي يقرر بحمله غضبه ، ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهم ، ولا يستفزه ما يرد عليه من المحرمات لغضبه ، بل يتربى وينظر كيف ينتقم ، ومن ينتقم ، وعلى أي قدر يكون انتقامه وكيف يصفح ويغضى ، وعمن ، وفي أي ذنب ؟

حكي عن الإسكندر أنه نهى إليه عن بعض أصحابه أنه يعييه وينقصه ، فقال له بعض أصحابه : لو أدبته أنها الملك بعقوبة تنهكها بها فقال له : ليس من الحكمة تنهكها بالعقوبة ؟ لأنك حينئذ أبسط لساناً ، وأعذر عند الناس . وأتى يوماً بعض أعدائه من المتغلبين الخارجيين عليه ، وكان قد عاث في أطراف بلاده عيشاً كثيراً ، فصفح عنه ، فقال له بعض جلسائه : « لو كنتُ

أنا أنت لقتلته» فقال له الإسكندر: «ولكن لم أكن أنا أنت فليس بقتاله». هذه هي معظم أسباب الغضب مقررتاً بها علاجها، والغضب أعظم أمراض النفس، وإذا تقدم الإنسان في حسم سبيله لم يخش تمكنه منه، وكان ما يعرض له سهل العلاج، قريب الزوال، لا مادة له تلبيه وتمده، ولا سبب يسعره ويوقده، وتتجدد الروية موضعًا لا جالة النظر والتفكير في فضيلة الحلم واستعمال المكافأة إن كان صواباً، أو التغافل إن كان حزماً.

أسباب الخوف وعلاجه

لما كان الخوف الشديد في غير موضعه من أمراض النفس ، وكان متصلًا بالقوة الغضبية - وجب أن نذكره ، ونذكر أسبابه وعلاجه فنقول : إن الخوف يعرض من توقع مكروه ، وانتظار محذور ، والتوقع والانتظار إنما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل ، وهذه الحوادث ربما كانت عظيمة ، وربما كانت يسيرة ، وربما كانت محتومة ، وربما كانت ممكنة .

والأمور الممكنته : قد تكون أسبابها ، وقد يكون غيرنا سببها :
 أ - أما الأمور الممكنة : فهي بالاً جمال متعددة بين أن تكون ، وبين ألا تكون ، ويجب ألا نقطع بأنها تكون ، فنستشعر الخوف منها ، ونتعجل مكرره التألم بها ، ولعلها لاتقمع ، وقد أحسن الشاعر في قوله :

وقل للغؤاد إن ترى بك نزوة : من الروع أفرخ ؛ أكثر الروع باطله
وما كان كذلك فالخوف من مكر وته يجب أن يكون على قدر حدوثه ،
 وإنما يحسن العيش وتطيب الحياة بالظن الجميل ، والأمل القوى ، وترك
الفكر في كل ما يمكن ألا يقع من المكاره . هذا ما كان سببه غيورنا . وأما
ما كان سببه سوء اختيارنا وجنائتنا على أنفسنا فينبغي أن نحترز منه بترك
الذنوب والجنايات التي نخاف عوائقها ، ولا نقدم على أمر لا تؤمن غائلته ؟

فإن هذا فعل من نسى أن الممکن هو الذى يجوز أن يكون ، ويحوز إلا يكون : ذلك بأنه إذا أتى ذنباً أو جنى جنائية قدر في نفسه أن عمله يخفى ولا يظهر ، أو لا يخفى ويظهر ، إلا أنه يتتجاوز عنه ، أو لا تكون له غائة . وكأنه - كصاحب القسم الأول - يجعل طبيعة الممکن واجباً ، إلا أن هذا يأمن الجانب المذور خاصة .

و geli أن الممکن وسط طرفة الواجب والممتنع ، فإذا صار مستقبلاً ماضياً بطل اسم الممکن عنه ، وكان : إما في جانب الواجب ، وإما في جانب الممتنع . ولا يصح مادام ممکناً أن يحسب من جانب هذا أو من جانب ذاك ، بل تعتقد فيه طبيعته الخاصة به ، وأنه يمكن أن يصير إلى أحد الجانبين ، ولذلك يقال : وجوه الأمور الممکنة في أعقابها .

ب — وأما الأمور المحتومة - كالهرم وتوابعه - فعلاج الخوف منه أن نعلم أن الإنسان إذا أحب طول الحياة فقد أحب لاحالة الهرم ، واستشعره استشعار مالا بد منه . ومع الهرم يحدث نقصان الحرارة الغرزية والرطوبة الأصلية التابعة لها ، وغلبة ضديها من البرد واليس ، وضعف الأعضاء الأصلية كلها . ويتباع ذلك قلة الحركة وبطلان النشاط ، وضعف آلات الهضم ، وسقوط آلات الطحن ، ونقصان القوى المبددة للحياة . وليس الأمراض والآلام شيئاً غير هذا ، ثم يتبع ذلك موت الأحياء وقد الأعزاء ، والمستشعر لهذه الأشياء المتلزم لشرائطها في مبدأ كونه لا يخاف منها ، بل ينتظرها ويتوقعها

هذه جملة الكلام على الخوف المطلق . ولما كان أعظم ما يلحق الإنسان هو خوف الموت ، وكان هذا الخوف عاماً ، وهو مع عمومه أشد وأبلغ من جميع الخواوف - وجب أن نبسط القول بعض البساط في ذكر أسبابه وعلاجه :

أسباب الخوف من الموت وعلاجه

نذكر هنا أسباب الخوف من الموت مع العلاج الناجع لكل سبب.

وأشهر هذه الأسباب ستة:

١ - عدم معرفة حقيقة الموت :

ليس الموت بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها، وهي الأعضاء التي يسمى مجموعها بدننا، كما يتراك الصانع استعمال آلاته. والنفس جوهر ليس بجسم ولا عرض ولا قابل للفساد، وهذا الجوهر مفارق لجوهر البدن مبين له كل المباينة بذاته وخواصه وأفعاله وآثاره. فإذا فارق البدن بقى البقاء الذي يخصه، وتخلص من علاقه الطبيعة، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه؛ فإن الجوهر لا يفني من حيث هو جوهر، ولا تبطل ذاته، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات التي بينه وبين الأجسام بأضدادها، فأما الجوهر فلا ضد له، وكل شيء فاًنما فساده من ضده.

وإن تأملنا الجوهر الجسماني الذي هو أحسن من ذلك الجوهر الكريم، واستقرينا حاله - وجدناه غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر، وإنما يستحيل من حالة إلى أخرى، وتستحيل خواصه وأعراضه التي كانت لتفى الحالة الأولى إلى خواص وأعراض تناسب الحالة الأخرى. فأما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل إلى عدمه وبطلاهه.

مثال ذلك: الماء: فإنه يستحيل بخاراً وهواء، وكذلك الهواء يستحيل ماء وناراً، فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصه، وأما هو فلا سبيل إلى عدمه.

هذا في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة والتغير، وأما الجوهر الروحاني الذي لا يقبل الاستحالة ولا التغير في ذاته وإنما يقبل كماله وتمام صوره، فكيف يتم به العدم والتلاشي؟

٣ - جهل المصير أو جهل بقاء النفس :

من يخاف الموت لأنّه لا يعلم إلى أين يصير بعده ، وجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد - فليس في الحقيقة يخاف الموت ، وإنما يجهل ما ينبغي أن يعلمه ، فالجهل إذن هو المخوف ، وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به ، وتركوا لأجله اللذات الجسمانية وراحات البدن ، وفضلوا عليه النصب والسرير ، ورأوا أن الراحة من طرح الجهل هي الراحة الحقيقية وأن التعب الحقيق هو تعب الجهل ؛ لأنّه مرض مزمن للنفس ، والبرء منه خلاص لها ، وراحة سرمدية ولذة أبدية .

لذلك وجب على العاقل أن يطلب العلم الحقيق الذي يكشف له حال إلاّ إنسان بعد موته ، كما قال حارثة للنبي صلى الله عليه وسلم : « كأني أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتلاعنون فيها » وهذا العلم إنما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس ووجه علاقتها بالبدن ووجه خاصيتها التي خلقت لها ووجه التذاذه بخاصيته وكاله مع معرفة الرذائل المانعة له من كاله . وقد نبه الشرع على ذلك العلم في مواضع كثيرة ، وأمر بالتفكير في النفس ، كما أمر بالتفكير في ملائكة السموات والأرض .

ولما تيقن الحكماء أن كمال النفس وسعادتها في العلم ، ونقصها وشقاءها من الجهل ، وألاّ برء من هذا إلاّ بذلك - لما تيقنوا بذلك ، واستبصروا فيه ، وهجموا على حقيقته ، ووصلوا إلى الروح والراحة منه - هانت عليهم أمور الدنيا كلها ، واحتقروا ما يعظمه الجمّور : من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب التي تؤدي إليها ؛ إذ كانت قليلة الثبات والبقاء ، سريعة الزوال والفناء ، كثيرة الهموم إذا وجدت ، عظيمة الغموم إذا فقدت .

وقد اقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة ، وتسلوا عن فضول العيش الذي حوى ماذكر من العيوب ومالم يذكر ، ولا نها مع ذلك

بلا نهاية؛ لأن الإنسان إذا بلغ منها غاية تاقت نفسه إلى غاية أخرى من غير وقوف على حد، ولا انتهاء إلى أمد.

وهذا هو الموت لاما يخاف منه، والحرص عليه هو الحرص على الزائل، والشغل به هو الشغل بالباطل. ولذلك جزم الحكماء بأن الموت موتان: موت إرادى، وموت طبى. وكذلك الحياة حياتان: حياة إرادية، وحياة طبيعية. وعنواناً بالموت الإرادى إماتة الشهوات، وترك التعرض لها. وبالموت الطبيعي مفارقة النفس البدن. وعنواناً بالحياة الإرادية ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا من المآكل والمشابر والشهوات، وبالحياة الطبيعية بقاء النفس السرمدى بما تستفيده من العلوم الحقيقية، وبراً به من الجهل. ولذلك وصى أفلاطون طالب الحياة بقوله له: «مت بالإرادة تحى بالطبيعة» ومثل ذلك قول الإمام على كرم الله وجهه: «من أمات نفسه في الدنيا فقد أحياها في الآخرة» على أن من خاف الموت الطبيعي للإنسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه: ذلك أن هذا الموت هو تمام حد الإنسان لأنه حى ناطق ميت: قال الراغب الأصفهانى: «وليس معناه ما توهمه كثير من الناس من أنه من الحياة الحيوانية والموت الحيواني، والنطق الذى هو في الإنسان بالقوة، وإنما أريد بالحى من كانت له الحياة المذكورة في قوله تعالى: (لَيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيَاً) وبالنطق **البيان** المذكور بقوله: (عَلَمَهُ الْبَيَانَ) وبالميت من جعل قوله الشهوانية والغضبية مقوهرين على مقتضى الشريعة» فالموت تمام الإنسان وكاله، وبه يصير إلى أفقه الأعلى. ومن علم أن كل شيء مركب من حد، وحده مركب من جنسه وفصوله، وأن جنس الإنسان هو الحى، وفصليه الناطق والميت - علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله؛ لأن كل مركب لامحالة من محل إلى ماتركب منه. فمن أجهل من يخاف تمام ذاته! ومن أسوأ حالاً ممن يظن أن فناءه بحياته! ونقصانه بتمامه!! ذلك بأن الناقص إذا خاف أن يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل. فاذن الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان، ويأنس بالقائم، ويطلب كل ما يتممه،

ويكمله ، ويشرفه ، ويعلى منزلته ، ويخلِّي رباطه من الوجه الذي يؤمن به الواقع في الأسر لا من الوجه الذي يشد وثاقه ، ويزيده ترکيماً وتعقيداً . ويتحقق بأن الجوهر الشريف الالهي إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسدي خلاص بقاء وصفو ، لخلاص مزاج وكدر – فقد سعد وعاد إلى ملوكه وقرب من بارئه وفاز بحوار رب العالمين ، وخالف الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه ، ونجا من أضداده وأغياره .

ومن هنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة إليه خائفة من فراقه – فهى في غاية السقام والبعد من ذاتها وجواهرها ، سالكة إلى بعد جهازها من مستقرها ، طالبة قرار مala قرار له .

٣ - خوف العقاب الذي يعقب الموت :

إن من خاف الموت لأجل العقاب الذي يوعده به بعده ينبغي أن نبين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب ، وهو لامحالة معترف بذنبوب له وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب ، ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لاعلى الحسنات ، فهو إذن خائف من ذنبه لامن الموت ، ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويتجنبه ، ويتدارك ما فرط منه باتوبه النصوح . والأفعال الرديئة التي تسمى ذنوباً إنما تصدر عن أخلاق رديئة هي منشأ الرذائل التي أحصيناها وعرفنا أضدادها من الفضائل . فالخائف من الموت من هذه الجهة جاهل بما ينبغي أن يخاف منه ، وعلاج الجهل هو العلم . فالحكمة هي التي تخلصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة الناشئة عن الجهل ، والله الموفق لما فيه الخير .

٤ - جهل ما يقدم عليه بعد الموت :

ومثل ما تقدم من خاف الموت لأنه لا يدرى على ما يقدم بعد الموت ؟ لأن هذه حال الجاهل الذي يخاف بجهله ، فعلاجه أن يتعلم ليعلم ويشتاق ، وذلك أن من أثبت لنفسه حالاً بعد الموت ، ثم لم يعلم ما هي تلك الحال

- فقد أقر بالجهل . وعلاج الجهل العلم ، ومن علم فقد وثق ، ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة ، فهو يسلكها لا محالة ، ومن سلك طريقاً مستقيماً إلى غرض صحيح فقد أفضى إليه بلا شك ولا مزية ، وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين ، وهي حال المستبصر في دينه ، المستمسك بحكمته .

٥ — الحزن على ما يختلف من الأهل والولد والمال :

من يزعم أنه ليس يخاف الموت ، وإنما يحزن على ما يختلف من أهله وولده وماله ونشبه ، ويأسف على مايفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها – ينبغي له أن يعلم أن الحزن تعجل ألم ومكروه على ما لا يجدى الحزن عليه . وسنذكر علاج الحزن في باب خاص .

جملة القول في الخوف من الموت

الخوف من الموت لا يعرض إلا من لا يدرىحقيقة الموت ، أو لا يعرف إلى أين تصير نفسه ، أو لأنّه يظن أنّ بدنّه إذا انخل وبطل تركيبه فقد انحل ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وأنّ العالم سيقى موجوداً ، وليس هو فيه ، كما يظن ذلك من يجهلبقاء النفس وكيفية المعاد ، أو لأنّه يظن أن للموت أملاً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته ، وأدت إليه ، وكانت سبب حلوله ، أو لأنّه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنّه متغير لا يدرى على أي شيء يقدم بعد الموت ، أو لأنّه يأسف على ما يختلفه من المال والمقنيات . وهذه كلها ظنون باطلة لاحقيقة لها كما سبق بيانه .

والإنسان من جملة الكائنات ، وكل كائن فاسد لا محالة ، فمن أحب إلا يفسد فقد أحب إلا يكون ، ومن أحب إلا يكون فقد أحب فساد ذاته ، فـ كأنه يحب أن يفسد ويحب إلا يفسد ، ويحب أن يكون ويحب إلا يكون ، وهذا الحال لا يخطر ببال عاقل .

وأيضاً لوم يمت أسلافنا وآباءنا لم ينته الوجود إلينا ، ولو جاز أن يبقى الإنسان ليقى من تقدمنا ، ولو بقى من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التنااسل ولم يموتوا ما وسعتهم الأرض :

هب أن رجلاً واحداً من السلف المشهورين كعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه مثلاً بقى موجوداً إلى الآن ثم ولد له أولاد ولأولاده أولاد، وبقوا كذلك يتناسرون ولا يموت منهم أحد: كم يكون مقدار من يجتمع منهم إلى وقتنا هذا؟ فانك تجدهم آلاف ألف رجل: وذلك أن بقيتهم الآن مع ما قدر فيهم من الموت والقتل الذريع أكثر من ألف ألف نسمة في جميع الأرض. واحسب لمن كان في ذلك العصر من الناس على بسيط الأرض مثل هذا الحساب؛ فإنهم إذا تضاعفووا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة، ولم تتحصّهم عدداً. ثم امسح بسيط الأرض؛ فإنه محدود معروفاً؛ لتعلم أن الأرض حينئذ لا تسعهم قياماً، فكيف قعوداً أو منصرين، ولا ييقن موضع عمارة يفضل عنهم، ولا مكان زراعة، ولا مسيرة لأحد، ولا حرفة، فضلاً عن غيرها.

وهذه مدة يسيرة من الزمان، فكيف إذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة؛ فهذه حال من يتمنى الحياة الأبدية للبدن، ويكره الموت، ويظن ذلك مكناً أو مطمئناً فيه، وهي حال جهل وغباء. فإذا حكمت البالغة والعدل المبسوط بالتدبر الإلهي هو الصواب الذي لا يعدل عنه، ولا يحيص منه، وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد أو راغب مستفيد. ولذلك ذكره الله في النعم، وعرضه في معرض الامتنان: (تبَارَكَ الَّذِي بَيَّدَهُ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُو كُمْ أَيُّهُكُمْ أَحَسَنُ عَمَلاً) وقدم الموت على الحياة لأنّه السبيل الوحيد إليها. فالخائف من الموت هو الخائف من عدل الباري وحكمته، بل هو الخائف من جوده وعطائه. فقد ظهر ظهوراً حسياً أن الموت ليس برداء كما يظنه جمهور الناس، وإنما الرداء الخوف منه، وأن الذي يخاف منه هو الجاهل به وبذاته. وقد ظهر أيضاً فيما تقدم أن حقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن، وهذه المفارقة ليست فقط بالنفس، وإنما هي فساد المركب، وأما جوهر النفس الذي هو ذات الإنسان

ولبه وخلاصته فهو باق ، وليس بجسم يلزم فيه مالوم في الأجسام فلا يتراحم في المكان لاستغنائه عن المكان ، ولا يحرص علىبقاء الزمان لاستغنائه عن الزمان ، وإنما استفاد والاجسام - كلاما . فإذا كل بها ثم خلص منها اصار إلى عالمه الشريف القريب إلى بارئه ومن شئه تعالى وتقديس . وهذا الكمال الذي يستفيده في هذا العالم الحسى هو السعادة القصوى للإنسان .

نسأل الله حسن المعونة على ما يقربنا منه ، ويعيننا من سخطه . إنه جواد

كريم رءوف رحيم .

ذَكْرِي الْمَوْتُ

للانسان — في تذكر الموت — حالان : حال قبله ، وأخرى عنده

الحال الأولى

ينبغى للانسان قبل الموت أن يكون دائم الذكر له ، ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكرهم الموت وحشthem على دوام تذكره ، ومن أكبرهم الفلاسفة تفكيرهم به ، وبسط القول في أن الحياة باطلة والموت حق : قال عليه الصلاة والسلام «أكثرووا من ذكر هازم اللذاتِ فما نهَّى مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضيقٍ إِلَّا وَسَعَهُ عَلَيْهِ وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ» وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب تذكر الموت كل حين : فإذا ولد الطفل عندهم صبّعوا له نعشًا بقدره ، ووضّعواه بجانب المهد ، يجددونه على مقدار النمو في الطفل ، ولا يزالون يفعلون ذلك ، حتى إذا بلغ أشدّه وضعوا النفس بجانب السرير إلى أن يحل يوم أجله ، فيحملونه عليه : يشيرون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحيتان متصلان ، وأن الانسان يمشي في هذه الدنيا وكأنه عابر جسر : عن يمينه الموت وعن شماله الحياة . وأنه كما

يدب بنموه في الحياة يدب بأنفاسه نحو الممات ، وأنه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت ، كما يحضره ذكر الحياة ، وأن اليقين ككل اليقين في أعود النعش ، والشك كل الشك في أساطير القصر . وهم ليسون السواد حدادا في يوم الولادة والبياض فرحا عند حلول الأجل ، ولم يعتبروه شرا ، بل هو الخير كله عندهم . فمن متهي غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء في الحياة الدنيا ، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر ، فما الدنيا في الآخرة - كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم - إلا مثل ما يجعل الواحد أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع ؟

ما عليه الناس في هذه الحالة

الناس في الحالة السابقة ينقسمون ثلاثة أقسام : قسم لا يذكره أبنته ، وقسم يذكره رباعا وخشية ، وأخر يذكره عقلا وحكمة :

القسم الأول : هو ذلك الأحمق الذي لا يتذكر الموت ، ولا يجرى له على

خاطر ، كأنه قد رسم في ذهنه أن لا فناء ، فلا يحس هذه الحقيقة إلا عند المشاهدة ، ولا يذكر الموت إلا ريثما تنقضي تلك المشاهدة : كأن يشتدد به المرض ، أو يختطف الموت أحد أهله أو جيرانه .

فهو لا يتفكر في الموت وما بعده إلا نظرا في حال أولاده وتركته عند موته ، ولا ينظر ويتدبر في أحوال نفسه ، وعند ما يرى جنازة إلا بقوله بسانه : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِحُونَ) ولا يرجع إلى الله بأفعاله بل بأقواله فقط ، فيكون كاذبا فيها تحقيقا .

القسم الثاني : وهو ذلك الذي يذكر الموت دائماً لخشيته من وقوعه وخوفه

من نزوله ، فيتو Lahم الرعب ، ويستولى عليهم الفزع . وأكثر ما يذكر ونه إذا خلوا من أشغالهم ، وانتقلوا إلى أوقات فراغهم ، فيكدرون صفاء هناء هم

ويسودون بياض معيشتهم . وأشد ما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أرداه الله عليهم النعمة إثر النعمة ، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة قبراهم فيهم دائم وعنة مقيم ؛ للتوقى من الأخطار ، والتحرز من أسباب الهالاك ، ويتغالون في ذلك التوقى إلى حال الجنون ، فيحاذرون هبوب النسم وحرارة الضياء ، ويتوهمون في كل لقمة تجمة ، وفي كل جرعة غصة ، حتى تمرض الأجسام من تلك الوساوس والأوهام التي قد تؤدى إلى الموت الزقام .

القسم الثالث : وهو العاقل السكيس الذى لا يفارقه ذكر الموت كالمسافر

إلى مقصد الحاج مثلا ؛ فإنه لا يفارقه ذكر المقصود ، وأشغال المنازل في الحط والترحال لا تنسيه مقصوده .

وذلك لأنه يعلم أن ذكر الموت يطرد فضول الأمل ، ويكف عن المني ، ويرون المصائب ، ويحول بين الإنسان والطغيان . ومن ذكر الموت تتولد القناعة بما رزق ، والمبادرة إلى التوبة ، وترك الحاسدة والمرص على الدنيا ، والنشاط في العبادة ، ولا ينبغي أن يهمل الإنسان نفسه من تذكر الموت أكثر من يوم ، بل يصبح كل يوم على تقدير الاستعداد للرحلة ؛ فكل من يتظاهر أن يدعوه ملائكة الموت كل ساعة ينبغي أن يكون مستعدا للإجابة ، فإن لم يكن فربما يأتيه الرسول وهو غافل ، فيحرم السعادة ؛ فما من وقت إلا والموت فيه ممكن .

الحالة الثانية

هي حال الإنسان عند الموت ، والناس عنده ثلاثة أقسام أيضا :

الأول : ذو بصيرة علم أن الموت يعتقه والحياة تسترقه ، وأن الإنسان وإن طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكتاف السماء ، ثم عادت للاختفاء ، فلا يشق عليه الخروج من الدنيا إلا بقدر ما يفوته من خدمة ربها عزوجل ، والازدياد من تقربه ، والاشفاقي ما يقول أو يقال له ، كما

قال بعضهم لما قيل له : لم تجزع ؟ قال : « لأنى أسلك طريقاً لم أعهده ، وأقدم على رب لم أره ، ولا أدرى ما أقول وما يقال لي » ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت ، بل إذا عجز عن زيادة العبادة ربما اشتاق إليه . وقال بعضهم في مناجاته : « إلهي ، إن سألك الحياة في دار الممات فقد رغبت في البعد عنك ، وزهدت في القرب منك ؛ فقد قال نبيك وصفريك - صل الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ لِقاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللَّهِ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ لِقاءَهُ »

والثاني : رجل ردىء البصرة ، متلطخ السريرية ، منهك في الدنيا ، منعمس في علاقتها ، رضى باختيارة الدنيا ، واطمأن بها ، وينس من الدار الآخرة ، كما ينس الكفار من أصحاب القبور : فإذا خرج إلى دار الخلود أضر ذلك به ، كما تضر رياح الورد بالجعل ، وإذا خرج من قادورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء ، ومصباح الملأ الأعلى ، فكان كما قال الله تعالى : (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) فالدنيا سجن الأول وجنة الثاني ، (والأول) كعبد دعاه مولاه ، فأجابه طوعاً ، وقدم عليه مسروراً يتوافر على خدمته ، (والثاني) كعبد آبق ، رد إلى مولاه مأسوراً ، وقيد إلى حضرته مقهوراً ، فيسيق ناكس الرأس بين يدي مولاه ، محتزياً من جنابته . وشنان مابين الحالين .

والثالث : رتبة بين الرتبتين : رجل عرف غوائل هذا العالم ، وكراه صحبته ولكن أنس به وألفه ، فسيله سيدل من ألف ييتا مظلماً قدرها ، ولم ير غيره ، فهو يكره الخروج منه ، وإن كان قد كره دخوله ، فإذا خرج ورأى ما أعد الله للصالحين لم يتأسف على ما كره فواته ، بل قال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحْلَنَا دَارَ

المُقاَمَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمْسِّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمْسِّنَا فِيهَا لَغُوبٌ)
وَلَا يَعْدُ أَنْ يَكُرِهُ الْإِنْسَانُ مُفَارِقَةَ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِذَا فَارَقَهُ لَا يَتَأْسِفُ عَلَيْهِ .
فَالصَّبِيُّ وَقْتُ الولادة يَسْكُنُ لَمَّا يَنْالُهُ مِنْ أَلْمِ الْإِنْتِقالِ ، ثُمَّ إِذَا عَقْلٌ لَا يَتَمْنِي
الْعُودَ إِلَيْهِ ،

وَالْمَوْتُ وَلَادَةُ ثَانِيَةٍ يَسْتَفَادُ بِهَا كَمَالٌ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ بَشَرَطٍ أَلَا يَكُونُ قَدْ تَقْدَمَ
قَبْلَ ذَلِكَ الْكَمَالِ مِنَ الْآفَاتِ وَالْعَوَارِضِ مَا أَبْطَلَ قَبْوَلَ الْمُحِلِّ لِلْكَمَالِ ، كَأَنَّ
الولادة سببُ لِكَمَالٍ مَغْبُوطٍ لَمْ يَكُنْ عَنْدَ الاجْتِنَانِ بَشَرَطٍ أَلَا يَصِيبَهُ وَقْتَهُ
مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْعُلُلِ مَامِنْعُ قَبْوَلِ الْكَمَالِ .

علاج الحزن

الحزن ألم نفساني يعرض لفقد محظوظ أو فوت مطلوب ، وسيبه الحرص
على القنوات الجسمانية ، والشره إلى الشهوات البدنية ، والحسرة على ما يفقده
أو يفوته منها . ومتى كان الإنسان آمناً في سرمه ، معافاً في بدنـه ، وله قوت
يومـه - فحزنه وغمـه بسبب أمر الدنيا أمارة نقصـاته وحـماقـاته ؛ فـإن غـمـه ليس
يخلـو : إـما أـن يـكون تـأسـفاً عـلـى مـاضـه ، وـإـما أـن يـكون خـوفـاً مـن مـستـقبلـه ،
وـإـما أـن يـكون حـزـناً عـلـى سـبـب حـاضـرـ فيـ الحالـ :

الحزن على ماض

فـإن كانـ علىـ فـائـتـ فالـعـاقـلـ بـصـيرـ بـأنـ المـجـزـعـ عـلـىـ مـاـفـاتـ لـاـيـلـ شـعـثـاـ ، وـلاـ
يـرـمـ مـاـتـكـثـ ، وـمـاـلـاحـيـلـةـ فـيـهـ فـالـغـمـ عـلـيـهـ خـرـقـ ؛ فـإـنـماـ يـحـزـنـ وـيـخـزـعـ عـلـىـ
فـقـدـ المـحـبـوبـ ، وـفـوـتـ المـطـلـوبـ - مـنـ يـظـنـ أـنـ مـاـيـحـصـلـ لـهـ مـنـ مـتـاعـ الدـنـيـاـ
يـحـوـزـ أـنـ يـبـقـيـ وـيـثـبـتـ عـنـدـهـ ، أـوـ أـنـ جـمـيعـ مـاـيـطـلـبـهـ مـنـ مـفـقـودـاتـهـ لـاـبـدـ أـنـ
يـحـصـلـ لـهـ وـيـصـيرـ فـيـ مـاـكـهـ . فـإـذـاـ أـنـصـفـ نـفـسـهـ ، وـعـلـمـ أـنـ مـتـاعـ الدـنـيـاـ زـائـلـ ،
وـأـقـصـرـ بـهـمـتـهـ عـلـىـ الـبـاقـيـ ، وـأـعـرـضـ عـمـاـ لـيـسـ فـيـ طـبـعـهـ أـنـ يـثـبـتـ وـيـبـقـيـ ، وـإـذـاـ
حـصـلـ لـهـ مـنـهـ شـيـءـ بـادـرـ إـلـىـ وـضـعـهـ فـيـ مـوـضـعـهـ ، وـأـخـذـ مـنـهـ مـقـدـارـ الـحـاجـةـ إـلـىـ

دفع الآلام من الجوع والعرى وما يشبههما ، وترك الادخار المندوم ، والتهاك على الاستكشاف المقوت ، والتماس المباهاة والافتخار ، ولم يحدث نفسه بالملائكة بها والتقى لها ، وإذا فارقته لم يأسف لها ، ولم يبالي بها - فإن من فعل ذلك أمن فلم يحزن ، وفرح فلم يحزن ، وسعد فلم يشق . ومن لم يقبل هذه الوصية . ولم يعالج نفسه بهذا العلاج - لم يزد في جزع دائم ، وحزن غير منتقص ؛ وذلك لأنه لا يعدم في كل حال فوت مطلوب ، أو فقد حبوب ، وهذا لازم لعلمنا : عالم الكون والفساد . ومن طمع من الكائن الفاسد ألا يكون ولا يفسد فقد طمع في الحال ، ومن طمع في الحال لم يزل خائباً ، والخائب أبداً محزون ، والحزن شقي . ولذلك قال تعالى : (لَكِيَّلَّا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ) وقال الشاعر : « وهل جزع بحد على فأجزعا »

الحزن على حاضر :

وإن كان حزنه على حاضر : فاما أن يكون حسداً لوصول نعمة إلى من يعرفه ، وإما أن يكون حزناً للفقر ، وفقدان المال ، والجاه ، وأسباب الدنيا . وسبب هذا الجهل بعوايل الدنيا وسمومها ، ولو عرفها معرفتها لشكر الله تعالى على كونه من المخففين دون المقلين ، ولو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يعشقه ؛ إذ يعلم أن الدنيا حالة المصائب كدرة المشارب ، تورث للبرية أنواع البلية : فما أخذ فيها إلا وهو في كل حال غرض لأسباب ثلاثة : سهم نعمة ، وسهم رزية ، وسهم منية :

تناضل الأحداث من كل جانب فتحطئه طوراً وطوراً تصيه فنـ كـ اـ مـ عـ تـ بـ رـ أـ بـ ماـ يـ تـ جـ دـ كـ لـ يـوـمـ : مـ اـ رـ تـ جـ اـعـ النـعـمـ مـ اـ رـ بـ اـهـاـ ، وـ حـلـوـ القـوارـعـ بـ اـ صـاحـبـاـ ، وـ شـدـةـ اـغـتـامـهـ بـ فـقـدـهـاـ - لـ مـ يـ تـأـسـفـ عـلـىـ فـوـاتـهـ . ولذلك قيل لبعضهم : لم لا تغنم ؟ قال : « لأنني لا أتقى ما يغمى فقده » ومتى أمعن إنسان فكره في غفلة أرباب الدنيا عن الآخرة ، وكثرة مصائبهم فيها تسلي

عنها وهان عليه تركها . وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى ليشاهد هم ويشاهد علهم ومحنهم ، ويحضر الحبس أيضاً ويشاهد أرباب الجنایات ومجيئهم لإقامة العقوبات ، وأيضاً يحضر المقابر ، فيشاهد أرباب المصائب وأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه ، وكان يعود إلى بيته بالشکر طول النهار على نعم الله عليه في تخليصه من كل البلاء . وحق على إلا إنسان في الدنيا أن ينظر أبداً ما عاش إلى من هو دونه ليشکر ، وفي الدين إلى من هو فوقه ليشمر . والشیطان إذا استولى نكس هذا النظر وعكسه . فإذا قيل له : لم تعاطى هذا الفعل القبيح ؟ اعتذر بأن فلاناً يتعاطى ما هو أكبر منه ، مع أنه ليس في المعصية ولا في الكفر مناظرة . وإذا قيل له لم لا تقنع بهذا الموجود ؟ فيقول : فلان أغنى مني ، فلم أصبر على ما ليس يصبر عنه ؟ وهذا عين الضلال والجهل المضلل .

الحزن على مستقبل :

إن كان الغم على الأمر المستقبل : فإن كان على أمر ممتنع وجوده أو واجب كونه مثل الموت فعلاجه محال . وإن كان ممكناً وجوده نظر : فإن كان لا يقبل الدفع كالموت قبل الهرم ، فالحزن له حماقة . وإن كان قابلاً للدفع فلا معنى للغم ، بل ينبغي أن يحتال للدفع بعقل غير مشوب بحزن . فإذا فعل ما قدر عليه من تمييد حيل الدفع بقى ساكن القلب منتظرًا للقضاء لله وقدره ، عالماً بأنه لا مرد لما قضاه ، فيتلقاه بصبر إن لم يندفع ، ويتحقق أن ما قدر فهو كائن ، ويذكر قول الله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَاٰ فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّاٰ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأُوهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ ، لِكِيلَاتَأُسْوَادَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ،
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَبَحْرٌ)

وإنما حرص الناس على تهيئة أسباب الدنيا من شؤه الغرور وحسن

الظن بانحسار الآفات ، وتقديم صدفاء الأوقات . وهيهات ثم هيهات ! . قال على رضى الله عنه : « ما قال الناس لقوم : طوبى لكم - إلا وقد خبأتم الدهر ليوم سوء » وصدق الشاعر فيما قال :

إن الليالي لم تحسن إلى أحد إلا أسامت إليه بعد إحسان
 فالعالق إذا أمعن النظر في هذه الأمور خف على قلبه أكثر الغموم ، إلا إذا كانت العلاقة قد استحكمت بينه وبين معشوقه من آدمي أو مال أو عقار أو حرقه أو رياضة أو ولادة أو أي أمر من الأمور ، فلا خلاص له من غمومها إلا بعد قطع العلاقة عنها . ولا يمكن ذلك إلا بكف النفس عنها تدريجًا والاشتغال بغيرها ، وإن كان ذلك الغير أيضًا مما يجانسها في وجوب التباعد عنه ، ولكن لا بأس بغسل الدم بالدم إذا كان الأول أشد لصوصًا ، وهذه من دقائق الرياضيات ؛ فان النزوع عمًا وقع إلا لف به دفعه واحدة عسر بل ممتنع . ولذلك يرقى المعلم الصبي بالترغيب في اللعب بالصواريخ والطيوور ، ثم يكتفه عن اللعب بالترغيب في الثروة والمال ، والتزيين بالشباب الجميلة وغيرها ، ثم يرقى من ذلك بالترغيب في الحمددة والشأنة ونيل الكرامة والرياضة ، ثم يرقى بالترغيب في سعادة الآخرة . والرياضة آخر ما يخرج من رءوس الصديقين . ولقد كانت هذه المعالجة بأمور مخدورة في نفسها ، ولكن مطلوبة بالإضافة إلى ما هو شر منها ، وكانت منازل وأطوار يرتقي فيها الإنسان واحداً واحداً ، ولا يمكن الخلاص إلا بهذا التدرج . فليراع ذلك في كل صفة استولت على النفس ، واشتدت علاقتها بها ، وبقطع العلاقة تتحى الغموم .
انتفاء الألم لا يستدعي وجود السعادة :

يقولون : إنه لا اغتباط مع وجود الألم ، وما دام هو ثابت الوجود فلا سبيل إلى الغبطة والهناء ، فإذا كان هذا القول صواباً كانت نتيجته أنه إذا انتفى الألم أو انتفى شعور الإنسان به حصلت السعادة : والواقع غير هذا ؛ فإن من بين الناس كثرين من ضعيف الدرك والبله والمجانين لا يشعرون بالألم مطلقاً ويندر أن يكون للمؤثرات المشجبة تأثير في شعورهم ، أو للأعراض

الموجعة قوة كافية لتنبيه حاسة الألم في نفوسهم . فهل أوئلئك سعداء ؟ وهل يكون عدم شعورهم بالألم هو السعادة التي يطمع فيها الإنسان ؟ وهل يرضى عاقل أن يكون من ذلك الفريق ليغتبط مثله بالسعادة إن صح أن الجنون سعادة ؟ ألا إن هذا الخير دليل على أن تلاشى الألم أو عدم الشعور به لا ينشأ عنه وجود السعادة ، بل ليس من الأسباب الضرورية للشعور بالهناء .

اجتماع الألم والسعادة :

ذكرنا فيما تقدم أن السعيد كغيره تنتابه ضروب الله كبات والنواب وأنواع المحن والمصائب إلا أنه لا يفرغ منها ، ولا يجد مشقة في احتمالها ، ولا تؤثر فيه أحوالها . فالنوازل منها قويت وتوالت ، والآلام منها الشديدة وتتالت لاتخرجه عن سعادته ، لما اتصف به من صبر وشجاعة ، بل قد يجد السعادة في مكافحة تلك الآلام ومنازلتها ، فهو سعيد بالآلام معتبراً بشدائده : كلمرأة تتألم عند الولادة وألم الوضع مما لا يسهل احتماله ، ومع شدة تأثير الحادث في نفسها ، وعظم الألم ، وكثرة التألم - تسر الولادة بسلامة المولود ، وتشعر بلذة الأمومة ، وتعتني بالآلام في ذات اللحظة التي تتألم فيها .

ضرورة الألم في السعادة :

قد قال العقلاة ، ولازالوا يقولون : إنه لو لا الشر ما كانت الرغبة في الخير ، وكذلك يجب أن يقول : إنه لو لا الألم ما عرفت الرغبة في اللذة والهناء ، فال الألم - إذا لم يكن بليغاً إلى حد لا يتحمل أو يقتل - يكون حتماً ساطة للتقوية والسعادة : يأخذ الإِنسان من بعض أنواع السموم مقداراً معيناً للتداوي به ولتنقوية جسمه ، فإذا زاد المقدار كان البوار ، والألم ليس أعظم منه خطراً ولا أذرعه ضرراً . فالمتحمّل منه يرقى النفس ، ويقوى الجسم ، ويُسْبِّحُ غرار العزيمة ، ويصلق مرءة الفكر .

الألم حقيقة لابد منها :

ما تقدم يعرف الإِنسان أن الألم الذي يخشاه ويتوقاًه ويلعنه حقيقة

لابد من وجودها لتسكون معياراً للسرور المفقود ، ووساطة للرغبة في نوع جديد منه ، ويعرف أيضاً أنه لا قيمة للذلة بدون احتمال الألم ، ولا مكان للسرور بدون عرقان الحزن . وبضدتها تتميز الأشياء ، فالألم والشقاوة هما السبيل المؤدى إلى السرور والسعادة .

إن الأرض لا يحسن زرعها دون حرثها وشق كبدها ، وكذلك النفس لا تشعر بالغبطة ولا يجد أثراً فيها ، دون أن تعرف الشقاء وتألم منه . فال الألم هو الذي يولد الذكاء ، ويقوى الهمة ، ويبعث النشاط . وهو الذي يطير النفس ، ويسمو بها إلى أوج النبل والشرف ، ويحدو العقل إلى الروية والتدبر . وهو المنبه الوحيد للضمير الميت ، ومن يحييا ضميره يعود إلى الحياة .

الألم كالظل :

فكلما لا يبحث إلا إنسان عن ملاشاة ظله لوثقه من تعذر الوصول إلى ذلك ، ومن بحث في مقارقة ظله فقد أقام البرهان على ضعف عقله . كذلك يعتبر من الحق وخطل الرأي البحث عن ملاشاة الألم ؛ لأنه لا يزول من الوجود ما يقي إنسان على قيد الحياة ، ومن الحكمة تحويل نتائجه إلى فائدة الفرد والمجتمع ، ولا أقل من أن يكون هو الوساطة في تهذيب النفوس وإحياء الشعور .

الحياة بدون ألم ناقصة :

لو سلمنا جدلاً إمكان خلو الحياة الدنيا من الألم لكان حياة ناقصة ينقصها الجزء المتمم لأسباب المحنّة والسعادة : إذ من خاصية النفس سامة الحال الواحدة والمنظر الدائم ، فإذا مالفت السرور زال بعد حين تأثيره المهجج فيها ، واعتراها الملل والساقة والفتور . ومن خاصية الألم تجديد قوة النفس ونشاطها ، وبعث الميل إلى الراحة والسرور . فـما الألم في الواقع إلا مثال الحمام الكهربائي : يعالج به المريض ، فيتأنم منه ، ويصرخ ، ولكنه يبرئ علته ، وينزع أسباب مرضه ، ويعيد له العافية والمحنة .

الألم سر النبوغ :

من النظريات المعروفة : أن شدة الضغط تضعف القوة المضبوط عليها . فكذلك يكون الألم الحاد ، والتألم الشديد من الأسباب التي تخرج الإنسان من حالة الطبيعية في كثير من الظروف فيبرز تبريزا لا يتم له لولا التألم ، وهكذا أمثلة على ذلك :

١ — كل من يعني بالبحث عن سر نبوغ عظماء الرجال وقادة الأفكار ورجال الانقلابات السياسية لا يعتم أن يتحقق من كون السبب الوحيد الذي نشط بهم إلى الفوق والظهور بتلك المظاهر لم يكن إلا كثرة التألم .

٢ — ما الشعر إلا تصوير الخيال والشعور النفسي في شكل الألفاظ التي تدئنه من أفهام الناس . فقدر الشعر ورقته وبلغته يكون على قدر تنبه إحساس الشاعر ورقة عواطفه ، وما أكثر ما يسمو به الإنسان إلى عالمي الخيال والحقيقة إذا تألم شديداً ، وبه الألم شعوره ، وألهب عواطفه . فكذلك يكون ما تأثرت به النفس من أنواع الشقاء ، ومن انحصاره من الألم هو معيار حظها من النبل ، ومن المرودة والهمة .

٣ — انظر إلى من نبغوا من صفوف الأحزاب المعارضة تجد أن تألم نفوذهن من معارضة خصوصهم هي التي نشطت هممهم ، وأظهرت قواهم ، وفتحت لهم الحيلة ، فنسبت إليهم القدرة والنبوغ . وأمعن في النظر طويلاً تجد أن هذا الامتياز يزول تماماً ، ويعود النابع إلى حالة الطبيعية بمجرد زوال القوة الضاغطة عليه أو المقاومة إياه ، وإذا ما أتيح له أن يتربع عرش السلطة ، ويستأثر بالنفوذ - ييدو له من الضعف ومن حقيقة حاله مالم يكن يعرفه في نفسه ، ولا يعرفه الناس منه .

٤ — يشعر المرء بتقصير عن إخوانه ، ويحس في نفسه نقصاً عن أخيه ، فيتألم لذلك كثيراً ، ويتدفق طعمه مرا مريضاً ، ويقتصر في زوايا نفسه عن منبت هذا التقصير ، ويبحث في حنایتها عن موطن الضعف فيها ، ثم إذا

وقف على ما ينقب عنه شرع يفكك في الوسائل التي يتوصل بها إلى تقوية ضعفه وإكمال نقصه ، ومتى وفق إلى ذلك أقبل على العمل بهمة قوية وعزيمة ماضية ، ولا يزال كذلك في جد وكد ، لا يتطرق إليه ملل ، ولا يعتوره وهن ولا كلل ، حتى يفوق أقرانه ويذخلانه .

ومن هذه الأمثلة يتجلى لنا أن القوة والنبوغ والعظمة والرقي كلها تكون بسبب الألم .

الأمم كالأفراد في أثر الألم :

ليست الحقيقة السابقة مقصورة على الأفراد ، وإنما يشمل حكمها الشعوب والأمم : فالآمة التي تئن من الألم يكون هو خير وساطة لعلم شملها ، واجتماع قلوب أبنائها ، وتقويتها بعلمه الآخاء بين أفرادها ، وتكلافهم في طلب الخلاص من بواعث الألم ، كما أنه يكون من أقوى البواعث على حب العظمة وطلب السمو والسوداد : انظر إلى اليهود : فقد أجمع الناس على تقرير امتيازهم بالذكاء والدهاء . وما هذا لخاصية فيهم ، وإنما نشأ عن الاضطهاد الذى تولت عليهم أزمانه ، والآلام البالغة التى ذاقوها من أبناء البلد الذى تشتتوا فيها . وقد يدق لهم هذا الفوق الفكرى ما بقى الاضطهاد ودام الإرهاق ، ثم أخذ يقل ويهبط إلى مستوى ذكاء الآخرين منذ زوال سبب وجوده ومنذ تمع الإسراءيليون في البلاد التى يسكنونها بحمل مواطنיהם من الحقوق الاجتماعية .

الشره والخمود

تكلمنا فيما سبق عن أمراض القوة الغضبية ، وأتبعنا كل مرض بأسبابه وعلاجه الذى يستحصل هذه الأسباب ، حتى تبرأ تلك القوة من أمراضها ، ونتنوب إليها صحتها وفضيلتها وهى الشجاعة ، إلا أنها قد أسبابنا فى ذلك كثيرة لضرورة انتشار هذه الأمراض واستفحالها بين الناس ، حتى كدنا ننسى موضوعنا الأصلى ، والآن نسوق الكلام في أمراض القوتين الشهوية

والعقلية متبوعين ذلك بعلاج هذه الأمراض في كثير من الأحيان الذي يقتضيه المقام فنقول :

إن العفة هي فضيلة القوة الشهوانية وهي انتقادها على تيسير وسهولة القوة العقلية ، حتى يكون انتقادها وانبساطها بحسب إشارتها . ويكتنفها رذيلتان : الشره والخmod : فالشره هو إفراط الشهوة إلى المبالغة في اللذات التي تستبيحها القوة العقلية ، وتهي عنها . والخmod هو كلام الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضى العقل نيله وتحصيله . وهمما مذمومان ، كما أن العفة التي هي الوسط محمودة .

ويندرج تحت هذين الرذيلتين - الوقاحة ، والتخخت ، والتبذير ، والتقتير والرياء ، والهتك ، والكنازة ، والمجانة ، والعبث ، والتحاشي ، والشّكّاسة ، والملق ، والحسد ، والشماتة :

(١) فأما الوقاحة فلجاج النفس في تعاطي القبيح من غير احتراز من الذم ، وأما التخخت فحال تعترى النفس من إفراط الحياة يقضى بها عن الانبساط قوله وفعله .

(ب) وأما التبذير فأناء المال فيما لا يجب ، وفي الوقت الذي لا يجب فيه ، وأكثر مما يجب . وأما التقتير فهو الامتناع من إنفاق ما يجب ، وسيبه البخل والشح واللؤم . ولكل واحد من هذه الثلاثة رتبة : فالبخيل هو الذي يفرط ويقصر في الإنفاق ؛ خوفاً من أن تضطره الفاقة إلى المسألة والتذلل للأعداء ، وكان سبب البخل هو الجبن عند البحث . وأما الشّح ي فهو الذي يجمع إلى البخل لأن يكره حسن حال غيره ؛ طمعاً في أن يضطره إلى الحاجة إليه ، فينال به الجاه والرفة . ومن شأن هذا ضرب من الجهل . وأما اللئيم فهو الذي يجمع إلى البخل والشح احتمال العار في الشيء الحقير . وهو ضرب من الخبث : وذلك كالمتصاص ونحوه .

(ـ) والرياء هو التشبيه بنوى الأعمال الفاضلة ؛ طليباً للسمعة والفاخرة ،

- وَالْهُكْمَةُ كَهْمَةُ الْأَعْرَاضِ عَنْ تَزْيِينِ النَّفْسِ بِالْأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ ، وَالْمَجَاهِرَةُ بِإِعْرَاضِهَا .
- (ء) وَالْكَزَازَةُ الْأَفْرَاطُ فِي الْجَدِ ، وَالْجَانَةُ الْأَفْرَاطُ فِي الْهَزَلِ
- (ه) وَالْعَبْثُ الْأَفْرَاطُ فِي الْأَعْجَابِ بِلَقَاءِ الْجَلِيلِ وَالْأَنْسِ ، وَالتَّحَاشِيُّ
الْأَفْرَاطُ فِي التَّبَرُّمِ بِالْجَلِيلِ
- (و) وَالشَّكَاسَةُ مُخَالَفَةُ الْمُعَاشِرِينَ فِي شَرَائِطِ الْأَنْسِ ، وَالْمَلَقُ التَّجَبُّ إِلَى
الْمُعَاشِرِينَ مَعَ التَّعَافُلِ عَمَّا يَلْحُقُ مِنْ عَارٍ لِلْإِسْتَخْفَافِ .
- (ز) وَالْحَسَدُ الْأَغْتِيمَانُ بِالْخَيْرِ الْوَاصِلُ إِلَى الْمُسْتَحْقِقِ الَّذِي يَعْرَفُهُ الْحَاسِدُ ،
وَالشَّهَادَةُ الْفَرَحُ بِالْشَّرِ الْوَاصِلُ إِلَى غَيْرِ الْمُسْتَحْقِقِ مَنْ يَعْرَفُهُ الشَّامِتُ

علاج هذه الامراض

علاج هذه الامراض كلها أن يراقب الإنسان شهوته ويعمل أن الافراط والتفرط في مقتضياتها نقصان، وأن الكمال في الاعتدال . ومعيار الاعتدال العقل والشرع : وذلك أن يفهم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة : فشهوة الطعام إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذي يسد خلل ما ينحل من أجزاءه بالحرارة الغرزية حتى يتحقق البدن حياً والحواس سليمة ؛ ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرك حقائق الأمور ، ويتشبه بالطبيعة العليا بالإصابة إليه ، وهي رتبة الملائكة ، وبها كلها وسعادتها . ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوى على العبادة دون التلذذ به ، فيقتصر ويقتصر لا حالة ، ولا يشتد إليه شره . وشهوة الجنس خلقت لبقاء النوع محفوظاً ، فتطلب للولد والتحصن ، لللعب والتمتع . وإن تمنع ولعب كان باعثه عليه التألف والاستمتاع الباعثة على حسن الصحبة ،

وحكمة شهوتي الطعام والجنس ترجع إلى أمرين : أحدهما إبقاء الشخص بالغذاء ، والنوع بالحرث ؛ فانهما ضروريان في الوجود بحكم إجراء الله سنته بمشيئة الأزلية التي لا تبدل لها ولا تحويل .

والآخر ترغيب الخلق في السعادات الآخرية ؛ فانهم مالم يحسوا بهذه اللذات والآلام لم يقدروا نعيم الجنة فيرغبوه ، ولم يعرفوا عذاب النار فيحذروه ، ولو اقتصر على الوعد والوعيد لما أثر ذلك بمجرده في نفوسهم

الخب والبله

الحكمة الخلقية حالة وفضيلة للنفس العاقلة ، بها تسوس القوة الغضبية والشهوانية ، وتقدر حركاتها بالقدر الواجب في الانقضاض والانبساط وهي العلم بصواب الأفعال .

وهذه الفضيلة تكتنفها رذيلتان : وهما **الخب** والبله ، فهما طرفا إفراطها وتفرطيها : أما **الخب** فهو طرف إفراطها ، وهو حالة يكون بها الإنسان ذات فكر وحيلة باطلاق الغضبية والشهوانية يتحرّك إلى المطلوب حرفة زائدة على الواجب ، ويسمى **السفه** أيضاً .

وأما **البله** : فهو طرف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال ، وهو حال للنفس تقصر بالغضبية والشهوانية عن القدر الواجب ، ومشوه بطء الفهم وقلة الإحاطة بصواب الأفعال .

ورذيلة **الخب** يندرج تحتها الدهاء والجربة : فالدهاء ، استنباط ما هو أبلغ في إتمام ما يظن صاحبه أنه خير ، وليس بخير في الحقيقة ، ولكن فيه ريح خطير : فإن كان الريح خسيساً سمي : جربة . فالفرق بين الدهاء والجربة يرجع إلى **الحقارة والشرف** . وأما رذيلة **البله** فتندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون : فالغمارة : قلة التجربة في الأمور العملية مع سلامة التخييل . وقد يكون الإنسان عمرًا في شيء دون شيء بحسب التجربة . والغمر هو الذي لم تتحك التجارب . وأما الحمق : فهو فساد النظر فيما يؤدى إلى الغاية المطلوبة ، حتى ينهي غير السبيل الموصل : فإن كان خلقة سمي حمّقا طبعياً ، ويُعسر علاجه أو يتعدّر . وقد يحدث عند مرض فيزول بزواله . وأما الجنون : فهو فساد التخييل في انتقاء ما ينبغي أن يؤثّر ، حتى يتوجه إلى إثارة غير المؤثر :

فالفاقد من المجنون غرضه ، ومن الأحمق سلوكه ؛ إذ غرض الأحمق كغرض العاقل ، ولذلك لا يعرف في أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل الغرض . والجنون هو فساد الغرض ، ولذلك يعرف في أول الأمر .

علاج هذه الأمراض : ولما كانت أمراض القوة العقلية هي الإفراط أو التفريط في القوة الغضبية والقوة الشهوانية ، كانت أمراضها تعالج بعلاج أمراض هاتين القوتين ، وقد تقدم شرح ذلك في محله

الغبن والتغابن والجور

العدل حالة للقوى الثلاث : العقلية والغضبية والشهوانية - في انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب في الاستعلاء والانتقاد . فليس العدل على ذلك جزء من الفضائل ، بل هو جملة الفضائل ، وهذا هو العدل في أخلاق النفس الذي يتبعه لاحالة ، ويترتب منه العدل في المعاملة والعدل في السياسة . ونستطيع بعد ما تقدم أن نعرف العدل بمعنى أن شمل بأنه هو :

الترتيب الواجب في الأخلاق والمعاملات وتدبر الشئون العامة .

والعدل في الأخلاق جماع الفضائل كما أسلفنا ، فالرذائل المطيبة به جماع الرذائل أيضاً ، والعدل في المعاملة وسط بين رذيلتي الغبن والتغابن ؛ إذ هو أن يأخذ المرء ماله أخذه ، ويعطى ماله إعطاؤه . أما الغبن : فإن يأخذ ماليس له ، والتغابن : أن يعطي في المعاملة ماليس عليه حمد ولا أجر .

والعدل في السياسة : أن ترتقي أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس ، حتى تكون المدينة في ائتلافها ، وتناسب أجزائهما ، وتعاون أركانها ، على الغرض المطلوب من الاجتماع - كالشخص الواحد . ولا يكتفي العدل بهذا المعنى رذيلتان ، بل يقابلها رذيلة الجور فقط ؛ إذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط ، وبمثل هذا الترتيب قامت السموات والأرض ، حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والأجزاء

ومن حيث إن العدل حالة القوى الثلاث فعلاج أمراضه هو علاج أمراض القوى الثلاث . والله أعلم

السبب الخامس من أسباب السعادة

الغنى

حقيقة الغنى والفقير :

يحدّ الحكماء الغنى بأنّه قلة الحاجة ، كما يحدّون الفقر بأنّه كثرة الحاجة : فأقل الناس حاجة أغناهم ، وأكثرهم حاجة أشدّهم فقرا . لذلك كان الله جل شأنه أغني الأغنياء ، لأنّه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء ، وكان الملوك أشد الناس فقرا الكثرة حاجتهم ، فهم أشقي الناس في الدنيا والآخرة ، كما وصفهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وأصل ذلك يرجع إلى توافر رغبات النفس وعدم توافرها : فأعظم الناس غنى هو من لا تطلب نفسه شيئاً ليس في يده : لأنّ كان قانعاً بما أوتي على قوله ، مقبلاً على طاعته ، محملاً في طلب حاجته ، مطمئناً كل الاطمئنان إلى حالته . وهذا هو الغنى الحقيقي وسنفرد له ببابا خاصا . أو كان ذا بسطة في المال الحال فاستطاع أن يحصل كل مجال في نفسه : من رغبات وآمال في غير إسراف ولا ضياع لحق معلوم للسائل والمحروم ، بل كان ينفقه في متاعة نفسه غير متتجاوز به طاعة ربّه ، يغيبت به المأهوف ، ويصطنع به كل معروف ، يحب المال حباً جماً ، ولكنه يتطلب في رفق وهوادة ، ويسمى إليه في اطمئنان و töدة . وهذا هو الغنى المجازى . والفرق بين الحقيق والمجازى : أن الأول فيه إجمال في الحب وإجمال في الطلب ، واطمئنان ورفق إلى أقصى حد ممكن للبشرية ، وقد لا يكون فيه حب أبنته ، ولكنه يتطلب لأنّه عورت على الدين ، وحفظ للكرامة . وأما الآخر ففيه الحب الجم ، والطلب الأوفر . ونصيب هذامن الرفق والاطمئنان أقل بكثير من سابقه . واضح أن كلا النوعين يمت إلى

السعادة بسبب ، إلا أن الأول أقوى سبيلا ، وأقرب نسبيا . وأشد الناس عوزا من يرغب في شيء لا يتيسر له نيله ، ولو كثر ماله ، وامتد سلطانه ، وتعدد أنصاره وأعوانه . والطمع هو تعدد الرغبات والحرص على نيلها : فهن تكثرون رغباته يكثرون عدد ما يعجز عن الحصول عليه ، وهذا هو الفقر الحقيقى الجدير صاحبه بالرثاء له ، لأنه بائس بأماله ، شقى بأمواله .

وعلى هذا لا تكون العبرة بما تملكه اليد من الكثير أو القليل ، وإنما بعدم تجاوز الرغبات حد الممكن نيله .

الغنى والفقير :

ليس ثم فارق صحيح بين المثرى والمعدم في الحياة : فإن الحمى التي تصيب الفقير مثلا هي بعينها التي تصيب الغنى ، وترك كل منها يتالم ويمرض ، فلا الفراش الوثير يخفف من وطأتها على المريض ، ولا الخاصة تخرجها عن نوع المرض . والموت يعود على الأمير في قصره وهو بين حراسه وحبابه ، فلا يدفعه الحراس ، ولا يمنعه الحجاب ، ولا يُطيش سهمه لمعان الذهب ، فيزهق روح ذلك الكبير الخطير ، كما يفعل بالفقير الحقير .

فإذا صح أن المال لا يدفع ألمًا ، ولا يمنع مرضًا ، ولا يحول دون الموت . كان حظ التعبس الفقير في الحياة هو بعينه حظ الوجيه الغنى فيها ، لا يميز بينهما غير الطعام والكساء ، وما هذه بمميزات صحيحة بين الإنسان وأخيه . فإذا قيل : إن المال من البواعث على نشاط الفكر وعلى الذكاء قلنا : إن حظ الفقير من المواد والفضل والفضل لا يقل عن حظ الغنى منها .

وال تاريخ يدل عن أن فئة عظيمة من مشهورى الرجال الذين امتازوا بالأعمال العظيمة ، والفتوات الباهرة ، أو بالعلوم الغزيرة ومواهب الكتابة والشعر - نبغوا وظروا من صفووف الفقراء ومتوسطي الحال ، ولا مشاحة في هذا ، لأن من هؤلاء كل رجال العمل والفنون والصناعات وأصحاب الاختراعات ورجال العلم أيضا .

إن لراحة البال وهدوء الفكر تأثيراً واضحاً في سعادة الإنسان بل هو السعادة نفسها ، والغنى أكثر الناس خوفاً من الطوارئ ، وإن كان أقلهم شكوى من تعسر قضاء الحاجات ، ومن الحصول على ما الشهوى من المآكل ، وطاب من المشارب والمساكن .

ولما كان القليل من الرزق يملاً البطن ويدفع الجوع ، والبسيط من الثياب يستر العورة ، ويدفع عادية الحر والبرد ، والكون الخقير يكفي لسكن الإنسان عند الضرورة - لم تكن هذه من أسباب الشقاء ، كما أنها ليست من بواعث الماءمة ، وكانت متاعب الإنسان ليست من قلة المال ، وإنما من جشع النفس وعدم القناعة .

الفقر والعوز :

هناك فرق بين الفقر والعوز : فال الأول يتأتى أن يكون مع وجود الحاجات الضرورية للحياة والعيش ، والآخر يكون بعدم وجود تلك الحاجات ، وبعدم استطاعة الإنسان الحصول عليها : فمن يتأتى له أن يرجح مافيه كفافه وأسرته لا يكون معوزاً وإن كان فقيراً ، ومن لا يستطيع هذا كان معوزاً حقاً .

والعوز من أكبر المسائل الاجتماعية التي يعني علماء الاجتماع والاقتصاد بحلها ، وبالبحث عن وسيلة ناجحة تكفل للمعوزين حاجتهم الضرورية وتنمنع أن يكونوا عالة على المجتمع : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِعَصْمَكُمْ عَلَى بَعْضِ
فِي الرِّزْقِ)

من المتعذر بداعه إيجاد حل يساوى الناس بعضهم بعض في الغنى والثروة ؛ لأنه إذا أمكن هذا في وقت ما لا تثبت الحال أن تعود بعد قليل إلى ما كانت عليه من التفاوت بين الأفراد بسبب كسل البعض ونشاط البعض الآخر ، وتبذير فريق من الناس وحرص فريق آخر ، وبسبب التفاوت أيضاً في العلم والجهل والذكاء والغباء . فهو جود الأغنياء يتحتم وجود الفقراء ،

وبالتزاحم على موارد الـكـسـب جـرـياً مـع تـنـازـع الـبقاءـ وـالـأـثـرـةـ لـاـيـتـأـنـىـ أـبـداـ حـفـظـ المـواـزـنـةـ بـيـنـ النـاسـ عـلـىـ صـورـةـ وـنـسـبـةـ وـاحـدـةـ .

وسائل تخفيف شقاء العوز :

هـنـالـكـ وـسـائـلـ كـشـيرـةـ لـتـخـفـيـفـ الشـقـاءـ ، وـلـمـنـعـ اـنـتـشـارـ الـفـوـضـىـ بـسـبـبـ تـكـاثـرـ الـمـعـوزـينـ وـاضـطـرـارـهـمـ إـلـىـ الـحـيـاةـ : فـنـ أـهـمـ هـذـهـ الـوـسـائـلـ مـبـاشـرـةـ الـحـكـومـةـ جـمـعـ الزـكـاـةـ مـنـ تـجـبـ عـلـيـهـمـ لـإـنـفـاقـهـاـ عـلـىـ الـمـعـوزـينـ ، وـإـيجـادـ عـمـلـ نـافـعـ لـهـمـ يـرـتـزـقـونـ مـنـهـ بـإـنشـاءـ الـمـعـاـمـلـ وـالـمـصـانـعـ مـنـ أـمـوـالـ الزـكـاـةـ ، ثـمـ قـيـامـ الـجـمـاعـةـ بـأـوـدـ الشـيـوخـ وـالـعـجـزـةـ وـذـوـيـ الـعـاهـاتـ الـبـلـيـغـةـ ، وـمـنـهـ التـعـلـيمـ بـالـجـانـ وـالـقـضـاءـ عـلـىـ الـاحـتـكـارـاتـ وـالـمـضـارـبـاتـ ، بـلـأـنـ هـذـهـ هـىـ الـتـىـ يـجـمـعـ الـأـغـنـيـاءـ بـهـاـ الـمـالـ ، وـيـسـلـبـونـهـ مـنـ الـأـفـرـادـ ، وـهـىـ فـيـ الـحـقـيقـةـ الـسـبـبـ الـأـقـوىـ فـيـ سـدـأـبـ الـرـزـقـ وـالـكـسـبـ فـيـ وـجـوهـ الـكـشـيرـينـ مـنـ النـاسـ ، وـفـيـ خـلـقـ رـوـحـ الـإـجـرـامـ فـيـ نـفـوسـ مـنـ أـسـرـتـ بـهـمـ الـفـاقـةـ ، وـحـطـ عـلـيـهـمـ الـعـوزـ . وـيـوـمـ تـنـسـاـوـيـ جـرـائمـ الـأـغـنـيـاءـ وـالـفـقـرـاءـ فـيـ نـظـرـ النـاسـ ، وـتـكـوـنـ السـرـقـاتـ الـمـبـاحـةـ بـالـاحـتـكـارـ وـالـمـضـارـبـةـ فـيـ مـسـتـوـيـ السـرـقـاتـ الـمـعـاقـبـ عـلـيـهـاـ لـاعـتـبارـهـاـ ضـارـةـ بـالـجـمـعـمـ — يـكـونـ ذـلـكـ خـطـوةـ وـاسـعـةـ فـيـ سـيـلـ إـصـلـاحـ الـاجـتمـاعـ .

سلطان المال :

الـسـيـدـ يـمـلـكـ الـعـبـدـ فـيـكـوـنـ لـهـ السـلـطـانـ عـلـيـهـ ، فـإـنـ لـمـ يـكـنـ هـذـاـ فـلـاـ يـكـوـنـ السـيـدـ سـيـدـاـ وـلـاـ الـعـبـدـ عـبـدـاـ . وـيـقـالـ : إـنـ الـإـنـسـانـ يـمـلـكـ الـمـالـ . فـإـذـاـ كـانـ هـذـاـ صـحـيـحاـ وـجـبـ أـنـ يـكـوـنـ لـلـمـالـكـ سـلـطـانـ عـلـىـ مـاـيـدـلـكـ . وـلـمـ كـانـ الـوـاقـعـ أـنـ الغـيـرـ فـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ أـسـيـرـ الـمـالـ ، وـلـهـ السـلـطـانـ التـامـ عـلـيـهـ — كـانـ الـمـالـ !

لـقـدـ دـالـتـ دـوـلـ عـدـدـ عـظـيمـ مـنـ الـأـفـكـارـ الـفـاسـدـةـ ، وـتـقـوـضـتـ مـعـ مـرـورـ الـزـمـنـ وـرـقـ الـأـفـكـارـ دـعـائـمـ كـشـيرـ مـنـ الـمـعـقـدـاتـ الـبـاطـلـةـ ، وـلـكـنـ سـلـطـانـ

المال على الناس لازال على حاله الأولى إن لم يكن قد تضاعف . قام هذا السلطان على اعتقاد باطل ، ودام بدوام جهل الحقيقة أو تجاهلها ، وباستمرار تأثير الوهم في العقول ، والغرور في الأفكار ، والعادة في النفوس . فلو زال أساس هذا السلطان الوهمي لتحرر الناس من قيود العبودية والوثنية ، ولا ارتقعت عن العيون الحجب التي منعها صدق الرؤية ، وعن الأفكار كل وسائل الإيهام والتغير التي أبعدتها من تمييز الحقائق ، وجعلتها تختلط بين المال والسعادة .

قيمة المال :

الإفراط في تقدير قيمة الشيء يدنى التقدير من الخطأ . والإنسان هو الذي قدر قيمة الحياة واقترضها ثمينة ، وفاته أنها لا قيمة لها بذونه ، فلا جرم أنه أفرط في تقديره ، فأخطأ في عرفة قيمتها ، وقدر لها قيمة وهمية هي دونها في كل حال . فكذلك المال : له مزايا كثيرة تيسر للمرء كثيراً من بواعث السرور ، ولكن الإنسان أخطأ في تقدير قيمته حتى تجاوز الحقيقة ، فكان هذا الإفراط داعية سلبية أسباب السعادة الحقيقة ، والاغتراب الصحيح ، وقوة الإرادة ، واستقلال الذات . وكل من يجعل مصدر هنائه من غير ذاته يرى نفسه دون ذلك المصدر ، فيخضع له ويفقد حرية نفسه ،

ولكن الناس لا يرون هذه الحقيقة ، ولا يصدقون الواقع ؛ لعدم تمييزهم الفارق بين القيمة الذاتية للمال ، وبين ما أُسند إليه إسناداً .

إن قيمة الذهب في الصحراء الخالية من الناس هي دونها في المدينة العارمة ، وشأن الدرهم مع الغنى لا يُستوى مع شأنه عند الفقير المحتاج ، وتقدير البخيل الدينار لا يُماثل تقدير المسرف إياه . كل هذه حقائق يستنبط منها العقل أن قيمة المال فيها ينفع له ، وفيها ينيل الإنسان من رغبات نفسه . وهذه القيمة اللاذاتية تشنن وتتنقص ، وتغلو وترخص بقدر كثرة رغبات النفس وقلتها وبقدر حاجتها : سئل مثـر من كبار المسؤولين عما إذا كان

سعیدا ، فقال : إذا كان الغرض من السعادة إمتاع النفس وتلذتها بما تشتهي من اللذائذ المادية فإن المال عندي كثیر يكفل قضاء كل تلك الحاجات ، وأما إذا كان معنى السعادة سرور النفس واغتباطها فإن حضى كمحظوظ الناس منها ؛ لأن الهناءة لاتباع ولا تشتري ، فما المال بموصى إليها .

وسئل عن حقيقة سروره بما يشتريه من منتخبات التحف والآثار ، فقال : إن التحفة قبل أن تصل إلى يدي تكون طبعاً عند باعها ، فلو كانت هي وساطة للسعادة والإغبطة بها ماباعها ؛ فما يبيع تلك التحف إلا لينال عوضاً منها ، يظنه يؤدي إلى رغبته ، ويفضي إلى هناءته ، وربما كان سرور البائع بالتخلص مما باع أكثر من سروزى بما اشتريته منه .

وفي الحقيقة قيمة التحفة على قدر ندرتها وإعجاب الناس بها ورغبتهم فيها ، والناس ليسوا سواء في النظر والتقدير ، فلو لا اختلاف الأنظار لبارت السلع . ومادامت قيمة الشيء تختلف باختلاف رغبة الناس ونظرهم فلا تكون قيمته في ذاته ، وإنما فيما يلوح له من الشأن عند الغير ، وفي مقدار ندرته والرغبة فيه . وما قيمة هذه حالها من الاختلاف إلا قيمة وهمية حائلة .

النَّظرُ الْحَقِيقِيُّ إِلَى الْمَالِ :

ليست الحكمة في احتقار المال ، وإنما في عدم الاستعباد له ، ولو أمكن هذا لتحرر عشاقه وضحاياه جميعاً من ربقة الإذلال والخضوع . إنهم يعشقون المال لذاته ، وللتلذذ بمحمه ، لا بسبب ما يكفله من الخير إذا حسن استعماله . وهذا تراهم يفقدون في سبيل جمعه واكتنازه أكثر وأثمن مما ينالون : يفقدون القوة الذاتية ، والجهودات ، والوقت ، والفكر ، والحياة ، بدون أن يعوا ضمهم المال من ذلك شيئاً يذكر . فلو أتسح أن يتعلم الصغار من الطفولة حقيقة أمر المال وقيمه الذاتية ، والغرض منه ، والسبيل التي يجمع لتشميره فيها - لشبوا وهم واثقون تمام الثقة من أن السعادة لا تكون بوفرة المال ولا بالشهرة والمجد الباطل ، ولو ثقوا أيضاً من أن ما يشعر به الإنسان من السعادة

بسبب طيب القلب ونقاء السريرة والقناعة لا يمكن أن يحصل بدونها ، ولو مع الغنى والجاه .

إذا نظرنا هذه النظرة الحق إلى المال استقللنا ذاتا وإرادة ؛ إذ الغنى الصحيح هو استقلال الذات وحرية الإرادة ؛ لأنهما سبب قوة الإنسان وعظمته ونيل النفس وشرفها ، وبهما يتأتى قمع الميول الفاسدة ، ونيل العيات الجليلة ، وتحقيق الرغبات الصالحة ، كما يتأتى شعور النفس بالسرور الصادق والسعادة الحقيقة .

المال للخير وللشر :

يرى الجم الغفير أن السعادة في المال الوفير ، وهو رأى خاطل ، ووهم لاشك باطل : يؤيد ذلك العقل السليم ، والدين القويم ، والعلم الصحيح ، والواقع المحسوس . والغالب أن المال قد يجر إلى المصائب ، ويقع في المعاطب ، وهو من حبائل الشيطان ، وللانسان فتن ، يكتسبه من طريقه المشروعة وغير المشروعة ، ويسلك لنيله السبيل المألاوة وغير المألاوة ، وفي الإنفاق كثيراً ما يغضب الرزاق باتهاك حرمة الآداب والدين والأخلاق ، فتجابه السعادة والنزاهة ، ويزداد به شقاوة وشرامة : كالنار تطفأ بالزيت فيزيد بها اتقاداً ، ويُصعد لها بها إصعاداً . وكالظلمآن يشرب من ماء البحر فلا تبرد غلته ، بل تشتد عليه هفته . فشل هذا يتهاك في الحصول على امتيازه ، ويستميت في سبيل نيله واحتيازه ، يجمعه من حله ومن غير حله ، وينفع ذوى الحقوق حقوقهم ، ويلهم عن واجب الله ، وينفقه فيما لا يرضاه . وبذلك يكون الثراء وسيلة الشقاء ، لا كما تزعم الدهماء من أنه سبيل الهناء ، ويكون هو الفقر الحقيق الذى ذمه الأنبياء والحكماء ، وندد به الشعراء ، وفضلوا العدم عليه : روى عن المسيح عليه السلام أنه قال : « في المال ثلاثة خصال » قالوا : « وما هي ياروح الله ؟ » قال : « لا يكتسبه من حله » قالوا : « فإن فعل » قال : « يمنعه من حقه » قالوا : « فإن لم يفعل قال : « يشغله إصلاحه عن عبادة ربه » وقال حكيم :

«ألم تر ذا الغنى؟ ماأدوم نصبه، وأقل راحتة، وأحسن من ماله حظه، وأشد من الأيام حذره، وأغرى الدهر بشله ونقضه!! ثم هو بين سلطان يرعاه، وأكفاء يتنافسونه، وولد يودون فراقه، قد بعث عليه الغنى من سلطانه العنان، ومن أكفاءه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوى الحقوق الندم، ومن الولد الملامة، لا كندي البلجة: قنع فدام له السرور، ورفض الدنيا فسلم الجسد، ورضي بالكافف فتكتبه الحقوق: وقال الشاعر:

من شرف الفقر ومن فضلها على الغنى إن صح منك النظر
أنك تعصى الله تبغى الغنى ولست تعصى الله كي تفتقر

حقاً إن الغلو في تقدير القيمة الوهمية للمال هو علة خراب النعم، وانتشار الفساد، والتفنن في الخداع، والعيش في المعاملات التجارية. خب المال إلى درجة العبادةيسهل استباحة المخذور وارتکاب الجرائم، ويبدل حقائق الأحوال ومقتضياتها، فيحترم الناس الغنى لغناه، وإن كان لاصاً جديراً بالاحقار والمقت، ويحتقرن النبيل الشريف لفقره، وإن كان جديراً بالتكريم والإجلال.

يا الله من فضاعة ماحدث: إن الطفل منذ الطفولة يخني ركبته للعجل الذهي، والصحف لا تكف عن الإفاضة بمدح الأغنياء، والناس يتزرون لهم الأماكن الممتازة حتى في دور الصلاة والعبادة، والنساء أدنوا إلى الانخداع بهظاهر الغنى من الرجال، والجميع يرون المال حائلاً بين حقيقة الإنسان وإن سفل بخصاله، وبين مظاهره الداعية إلى احترامه وإجلاله، فالدنيا إذا أقبلت على أحد أعارته محسن غيره، وإذا أدررت عنه سلبته محسن نفسه. فالكل خادع ومخدوع، وغار ومغدور، وحقيقة الحال ضائعة بين الخداع والغدر، وبين المظاهر الكاذبة وتأثيرها في العقول.

أما إذا كسب المال من حيث يحب، وأنفق فيما يحب وبقدر مايحب - كان في السعادة أقوى سبب، وكان مدوحاً، وصاحبها مغبوطاً، والسعى في نيله مطلوباً: قال تعالى: «فَامْشُوا فِي مَنَابِكِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» وروى

عن ابن عمر : « احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واحرث لآخرتك كأنك تموت غداً » وقال الشيرازى : « لا تستهزء بالمال وتنميته ؛ فان المال آلة لله كارم ، وعون على الدهر ، وقوة على الدين ، ومؤلفة للأخوان ، ومعين على حوادث الزمان ، وبهجة الدنيا وزيتها : قيل لحكيم : لم تجتمع المال وأنت حكيم ؟ قال : لأنصون به العرض ، وأؤدي به الفرض ، وأستغنى به عن القرض . وقد المال يصحبه قلة الاكتراش من الناس ، وتتبعه قلة الرغبة فيه والرهبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة أو رهبة استخف به الناس » وقال الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأبشع الكفر والإِ فلاس بالرجل
وقال آخر :

شكا الفقر أو لاق الصديق فأكثرا صلات ذوى القرى له أن تنكرأ تعيش ذا يسار أو تموت فتعذرأ من الناس إلا من أجدَ وشمرأ وما طالب الحاجات من حيث تُبتغى فلا ترض من عيش بدون ولا تنم وكيف ينام الليل من كان معسراً ؟ فالمال قوة يمكن استخدامها للخير ، كما يمكن استخدامها للشر ، فلا يحوز أن يسمو بها الإِنسان عن مكانها من الاعتبار .

المال آلة تقضى بها الحاجات ، والآلة نافعة لا تتحقر ، ولكنه لا تأخذ شيئاً غير الذى لها ، ولا تضيع إلى جانبها قيمة العامل بها ، ولا كرامته الذاتية . ولما كان النزوع بقدر المال إلى أسمى من قدره الحقيقى يغض من كرامته الإنسان كان من الواجب الاحتفاظ بالكرامة الذاتية ، ولو بتضحيه كل ماعداها ، فليست كرامة المرء مقدرة بما في حوزته من المال ، وإنما بهاله من الصفات الفاضلة ، والأخلاق الكريمة ، والأعمال الجليلة : فالمادحون من الشعراء يتعمدون المغالاة في المدح ، وينسبون إلى مدح حبيهم كل ما يبعد

من المفاحر والمحامد ، وما عهداهم ذكرها الغى محمدة لذاتها ، ولا عدوه مكرمة بخصوصه . فالرفعة والفخر ليسا بالثروة الواسعة ، ولا بالمراكيز السامية ، وإنما بما لا نسان من شمائل نليلة ، وتربيه عالية ، وأخلاق محمودة فعجيب أن يغض الأنسان عينه لكي لا يصر وجوه المفارقة بين ما يفترضه للثروة من المزايا وبين حقيقة الحال ، وعجب أيضاً أن ينفرد برأيه ، وألا يحفل بأقوال الحكماء والأئمـاء عنها ، ولا بما نسب إلى الخالق منها .

ما يجب في تناول المال

لتناول به السعادة

الولوع بالدنيا رأس كل جريمة ، وليس الدنيـا مقصودة لذاتها ، بل هي مزرعة الآخرة ، ففيها الحـير النافع ، وفيها السـم النـاقـع ، ومثـالـاً مـثالـ حـيـةـ : يـأخذـهاـ الرـاقـ ، وـيـسـتـخـرـجـ مـنـهاـ التـرـيقـ ، وـيـأـخـذـهاـ الغـافـلـ فـيـقـتـلـهـ سـمـهاـ مـنـ حـيـثـ لاـ يـدـرـىـ . وـالـمـالـ مـنـ الـخـيـراتـ الـمـتوـسـطـةـ ؛ فـاـنـهـ يـنـفـعـ مـنـ وـجـهـ وـيـضـرـ مـنـ وـجـهـ ، كـاـمـاـ تـقـدـمـتـ الـإـشـارـةـ إـلـىـ ذـلـكـ ، فـلـمـ يـكـنـ بـدـ منـ الـاقـتـصـارـ عـلـىـ النـافـعـ مـنـهـ ، وـالـاحـتـراـزـ مـنـ الـمـهـلـكـ . وـأـصـلـ ذـلـكـ مـعـرـفـةـ رـتـبـةـ الـمـالـ وـقـيـمـتـهـ ؛ فـاـنـ أـصـلـ الـأـمـورـ كـلـهاـ عـلـمـ بـحـقـائـقـ الـأـشـيـاءـ ، فـعـلـيـ طـالـبـ السـعـادـةـ مـرـاعـاةـ أـمـورـ فـيـ حـقـ الـمـالـ مـنـ حـيـثـ قـيـمـتـهـ وـالـدـخـلـ وـالـخـرـجـ وـالـقـدـرـ الـمـتـنـاـولـ بـالـنـيـةـ الـوـاجـبـةـ ، وـسـنـوـضـحـ كـلـاـ مـنـ هـذـهـ الـأـمـورـ الـخـيـنةـ فـنـقـولـ :

قيمة المال ورتبته

المقتنيات المرغوب فيها ثلاثة : نفسية ، وبدنية ، وخارجية . والخارجـةـ أدقـ هذهـ الـثـلـاثـةـ ، وـالـمـالـ مـنـ جـمـلةـ الـخـارـجـةـ ، وـالـدـرـاـهـمـ وـالـدـنـانـيـرـ أحـطـ أنـوـاعـ المـقـتـنـيـاتـ الـخـارـجـةـ ؛ لأنـهـمـ خـادـمـانـ وـلـاـ خـادـمـهـمـ ؛ إـذـ النـفـسـ تـخـدـمـ الـعـلـمـ وـالـفـضـائـلـ النـفـسـيـةـ لـتـحـصـلـهـ ، وـالـبـدـنـ يـخـدـمـ النـفـسـ ، فـيـكـونـ آـلـةـ ، وـالـمـطـاعـمـ وـالـمـلـابـسـ

تخدم البدن ، والدرارهم والدنانير تخدم المطاعم والملابس ، والمقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن البدن تكميل النفس . فـ عرف هذا الترتيب وراعاه فقد عرف قدر المال ، ووجه رتبته ، ووجه شرفه من حيث هو ضرورة كمال النفس . ومن عرف غاية الشيء واستعمله لتلك الغاية فقد أحسن إلى الغاية ، وعند ذلك يقتصر على قدر الحاجة الموصولة إليها ، فلا يركن إليه معتقدًّا بكتبه همه عليه . وبهذا النظر تكشف له الشبهة في ذم الله تعالى المال في مواضع حيث قال : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) و مدحه حيث امتن به فقال : (وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) فإنه من حيث كونه وسيلة للحياة الباقيه والسعادة الدائمه محمود ، ومن حيث كونه صارفا عنها مذموم ، ولذلك قال عليه الصلوة والسلام : « نعم المال الصالح » وقال تعالى : (لَا تَلْهِيَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ خاسِرِينَ) وكيف لا يكون خاسرا من يجمع الشعير لدابته ثم يترك الدابة ، ويشتغل بتنقية الشعير وعد حباته وبناء حصن حواليه ، حتى تهلك الدابة جوعا !! وهذا مثل من صرفه الدنيا عن الآخرة وهو الخسران . بل مثل الناس كلهم في الاعتراض بزهرة الدنيا والاعتكاف على لزوم لذاتها مثل راكبي سفينه متوجهي إلى أفضل بلدة ينال فيها أعلى رتبة ، فأضفت بهم السفينة إلى جزيرة ذات أسود وأسود ، فأمرروا بالخروج ليزرو دواهنهما ، وأن يكونوا على حذر من غواصي الجزيرة ، فرأوا حجراً مزبراً وزهراً منوراً ، فأعجبتهم ذلك ، وشغفوا به ، فتبعادوا عن المركب ونسوه ونسوا المقصد ، وبقوا لا هم حتى سارت السفينة ، وجن عليهم الليل ، فشارت عليهم الأسود تفترسهم والأسود تنهشهم ، ولم يعن عنهم حجرهم وزهرهم شيئاً ، فيقول واحد منهم : (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا) والآخر يقول : (مَا أَغْنَى عَنِي مَالِيَهُ هَلَكَ عَنِي سُلْطَانِيَهُ) وبعضهم يقول : (يَا حَسَنَتَا

عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) وَلَمْ يَقِنْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا حِسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ لَا آخِرٌ
لَهَا وَمُجاوِرَةُ الْأَفَاعِيِّ وَالْأَسْوَدِ مَعَ الْحَزْرِيِّ وَالنَّكَالِ. فَهَذَا بَعْنَيْهِ مَثَالُ الْمُغْتَرِبِينَ
بِمَتَاعِ الدِّينِيَا. وَلِهَذَا الْخَطَرُ الْعَظِيمُ اسْتَعْذَ الْخَلِيلُ لِإِبْرَاهِيمَ وَقَالَ : (اجْنَبْنِي
وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ أَلَا صَنَّا مَا) وَعَنِّي بِهَا هَذِينُ الْحَجَرِيْنِ : الْذَّهَبُ وَالْفَضَّةُ؛ إِذَا
رَتَبَةُ النَّبُوَّةِ أَجْلٌ مِنْ أَنْ يَخْشَى فِيهَا أَنْ تَعْتَقَدَ الْإِلَهِيَّةُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحِجَارَةِ. وَلِهَذَا
قَالَ عَلَى : « يَا حَمِيرَاءَ غَرَى غَيْرِي ، وَيَا يَيِّضَاءَ غَرَى غَيْرِي » وَلَذِلِكَ شَبَهَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ طَلَابَ الدِّنَانِيِّرِ وَالدَّرَاهِمَ الْمَشْغُوفِينَ بِهِمَا بَعْدَدَ الْحِجَارَةِ ، فَقَالَ
« تَعِسَّ عَبْدُ الدَّرَاهِمِ تَعِسَّ عَبْدُ الدِّنَانِيِّرِ وَلَا تَنْتَعَشْ ، وَإِذَا شَيْكَ(١)
فَلَا أَنْتَقَشَ» (٢)

٢

الدخل

الدخل: إِمَّا بِالَاكْتِسَابِ ، وَإِمَّا بِالْبَخْتِ : أَمَّا الْبَخْتُ فَهِيَ رَاثٌ أَوْ وَجْدٌ كَبِيرٌ
أَوْ حَصْوَلٌ عَطِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ . وَأَمَّا الْكَسِيبُ فِي هَاتِهِ مَعْلُومَةٌ . وَأَخْذُ الْمَالِ
دُونَ تَحْرِجٍ مَذْمُومٍ شَرْعًا ، فَلَا يَنْبَغِي أَخْذُهُ إِلَّا مِنْ وَجْهِهِ . وَالْوَجْهُ الْطَّيِّبَةُ
مَعْلُومَةٌ مِنَ الشَّرْعِ : فَإِنْ وَجَدَ حَلَالًا طَيِّبًا فَلْيَأْخُذْهُ ، وَإِنْ كَانَ حَرَامًا مَحْضًا
فَلْيَجِتنِبْهُ ، وَإِنْ كَانَ الْعَالَبُ أَنَّهُ حَلَالٌ فَإِنْ قَدِرَ عَلَى الْحَلَالِ الْمَطْلُقِ مِنْ غَيْرِ
تَعْبٍ فَلْيَتَرَكْ؛ فَإِنْ مِنْ حَامٍ حَوْلَ الْحَمِيِّ يُوشِكُ أَنْ يَقْعُدْ فِيهِ . وَإِنْ لَمْ يَتِمْسِرْ
الْحَلَالُ الْمَطْلُقُ فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ قَدْرَ الْحَاجَةِ ، فَإِنْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى الْحَلَالِ الْمَطْلُقِ
وَلَكِنْ بَعْدَ طَولِ التَّعْبِ وَاسْتَغْرَاقِ الْوَقْتِ . فَلِهِ حَالَتَانِ : إِنْ كَانَ مِنَ الْعَامَلَيْنِ
بِالْأَبْدَانِ مَعَ اعْتِقَادِ رَاسِخٍ فَلِيَشْتَغِلْ بِطَلَبِ الْحَلَالِ؛ فَإِنْ تَعْبَهُ فِي طَلَبِ الْحَلَالِ
عِبَادَةً كَتَعْبِهِ فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ . وَإِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ وَأَرْبَابِ
الْعِلُومِ ، وَكَانَ يَتَعَطَّلُ عَلَيْهِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ لَوْ اسْتَغْرَقَ أَوْقَاتَهُ فِي الْحَلَالِ الْمَطْلُقِ -

(١) إِذَا أَصَابَهُ شُوكَةٌ

(٢) فَلَا أَخْرَجَتْ

فليأخذ من الذى يتيسر قدر حاجته ؛ فان المظور المغض قد ينقلب مباحثاً
خوفاً من مظور آخر شر منه

٣

الخرج

كالدخل وجه معين كذلك الخرج ، فلا بد من مراعاة الترتيب فيه .
فالإِنفاق محمود ومذموم ، وال محمود منه ما يكسب صاحبه العدالة : وهو
الصدقه المفروضة والإِنفاق على العيال . ومنه ما يكسب الحرية والفضيلة
وهو إِيتار الغير على النفس على الوجه المندوب إليه شرعاً .

والذموم ضربان : إِفراط و تفريط : فالإِفراط : الإِنفاق أَكثراً مما
يحب - بحيث لا يتحمله حاله - فيما لا يجب ، والإِخلال بالأَهم ، والصرف
إلى ما دونه . والتفرط : المتع عما يجب الصرف إليه ، والنقصان من القدر
الذى يليق بالحال . ومتى أخذ المرء المال من وجهه ووضعه في وجهه كان
محموداً مأجوراً ، والناس في المال ثلاثة أصناف : صنف منهم كون في الدنيا
بلا التفات إلى العقبي إلا باللسان وحديث النفس ، وهم الأَكثرون ، وقد
سموا في كتاب الله عبدة الطاغوت وشر الدواب ونحوها . وصنف مخالفون
لهم غاية المخالفه : اعتكفوْ بكنه همهم على العقبي ، ولم يلتقوْ أصلاً إلى
الدنيا : وهم النساك . وصنف ثالث متوضطون وفوا الدارين حقهما : وهم
الأفضلون عند المحققين ؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة . ومنهم
الأنبياء عامة عليهم السلام : بعثتهم الله عز وجل لإقامة مصالح العباد في
المعاش والمعاد . وقيل ثلاثتهم - المراديقوله تعالى : (وَكُنْتُمْ أَزَّ وَاجَّاً ثَلَاثَةً
فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ الْمَشَائِهِ مَا أَصْحَابُ
الْمَشَائِهِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

فالمراعي للدنيا والدين كما يجب ، وعلى ما يجب ، جامعاً بينهما — خليفة

الله في أرضه ، فهو السابق عند أهل هذا القول .

وقال بعض المحققين : « الناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاشه فهو من الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاشه فهو من الماليكين ، ورجل مشتغل بما ، وذلك درجة المخاطرين » .

و甄ي أن المنازل الرفيعة لاتنايل إلا باقتحام الأخطار . وقد حكى أن بعض أولاد الملوك العادلة عظمت رتبته في العلم والحكمة ، فاعتزل الناس وزهد في الدنيا ، فكتب إليه بعض الملوك : قد اعتزلت مانحن فيه ، فأن علمت أن ما اخترته أفضل فعرفنا ؛ لنذر مانحر فيه ، ولا تحسبني أقبل منك قول بلا حيجة . فكتب إليه :

« أعلم أنا عبيد لرب رحيم ، بعثنا إلى حرب عدو ، وعرفنا أن المقصود من ذلك قهره أو السلامة منه ، فلما قربنا من الزحف صرنا ثلاثة أقسام : متخفف طلب السلامة منه ، فاعتزله ، فاللزم ترك الملامة ، وإن لم يكتسب الحمدة . ومتهور قدم على غير بصيرة ، ففرحه العدو وقهره ، واستجلب بذلك سخط ربه . وشجاع أقبل على بصيرة ، فقاتل وأبل ، واجتهد ، فهو الفائز التام الفوز . وإن لما وجدتني ضعيفاً رضيت بأدنى الممتنين وأدون المذلتين . فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكون من أكرهم عنده .. »

وهذا الكلام يكشف حقيقة الأمر فيه ، وينبه على صحة ذلك — قوله

تعالى : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصْيَبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) وإنما يكون الإحسان بدخول السرور على قلوب المسلمين بمال ، ولكن الأخطار فيه عظيم ؛ فإنه ربما يشتغل من ضعفت بصيرته بما فيه ضرره من حيث لا يدرى ، فلخطره وجبيت المبالغة في الضرر عنه .

ح

القدر المتناول

لا غنى بك عن ملبس ومسكن ومطعم ، وفي كل واحد ثلاثة أنواع :
أدنى وأوسط وأعلى :

الملبس :

أدنى درجات الملبس من حيث القدر ما ي嗣 الجزء المعتمد ستره من أدنى الأنواع وأخشنها ، وبالإضافة إلى الوقت ما يبقى يوماً وليلة ، كما نقل عن عمر رضي الله عنه : أنه رقع قميصه بورق شجر ، فقيل له : هذا لا يبقى . فقال : « أو أحيا إلى أن يفنى ؟ » ..

وأوسطه ما يليق بمثل حاله من غير تنعم وترفة ، ولا ملبوس حرام كـ بـ رـ يـ سـمـ غالـبـ . وأعلاه جمع الشاب وطلب الترفـ بهـاـ عـلـىـ مـاعـلـيـهـ جـماـهـيرـ أـهـلـ الدـنـيـاـ .

المسكن :

وأدنى المسكن ما يقل من الأرض : من مسجد أو ملجأ أو نحوهما . وأوسطه ملك لازاحم فيه ، فتقدر على أن تخلو فيه بنفسك ، ويبيق معك عمرك ، وهو على أقل الدرجات من حسن البناء والمرافق ، وهذا حد الكفاية . وأعلاه دار فيحاء فسيحة مزينة البناء كثيرة المرافق ، وتتبعها زيات لا تنحصر على ما يرى عليه أرباب الدنيا وأولوا الرتب . والأول هو قدر الضرورة ، إذ المقصود من المسكن أرض تقلك يحيط بها حائط يمنع عنك العوادي ، ويظلك سقف يمنع المطر وحر الشمس . ولن يقنع به إلا المتوكلون . والأوسط هو حد الكفاية وما بعده خارج عن حد الدين بإقباله على أمر الدنيا ، واستغفاله بزيتها ، أما الجلوس فيها مع العفولة عنها دون اشتغال بها وطمأنيتها إليها فمن المباحثات .

المطعم:

أما المطعم فهو الأصل العظيم، إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور. وله أيضاً ثلاثة مراتب:

أدنها: قدر الضرورة: وهو ما يسد الرمق، ويبيق معه البدن وقوه العبادة، وذلك يمكن تقليله بالعادة: بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً؛ حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين، وقد انتهى الزهد في القدر كل يوم إلى حصة، وبعدها في الوقت إلى عشرين يوماً، وقيل: إلى أربعين. وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقبل بها، فإن لم يقدر على ذلك فالدرجة الوسطى: وهي في ثلث البطن، كما ذكرناه من قبل. ولا ينبغي أن يزيد على القدر الذي حدده الشرع؛ فالزيادة عليه بطيئة. ثم يقتصر أيضاً من نوعه على الوسط، كما اقتصر من قدره على الوسط؛ فنعم السعيد من قنع بقدر الكفاية، ولكن النظر مختلف في قدر الكفاية من حيث الوقت: فرب إنسان فارغ القلب من قوت يومه مشغول القلب بما بعده، وينتهي حرصه إلى أن يقدر لنفسه عمراً طويلاً، ويريد أن يفرغ قلبه طول عمره، ثم قد يقدر له حاجات، فيطلب الاستظهار بالخزائن، وهو الضلال المضى.

ومن أوتي من هذه الأمور قدر كفايته ثم اشتعل قلبه بغيره كان مغبوناً:

قال عليه السلام: «من أصبحَ آمناً في سرِّيه مُعافاً في بَدَنه، وله قوتُ يومِه فـكَعَّـما حيزَتْ لِهُ الدُّنْيَا بـحـدـاً فـيـرـهـا»

٥

النية الصالحة

الأمر الخامس: أن تكون نية المرء صالحة في الأخذ والترك: فإذا أخذ ما يأخذه ليستعين به على العبادة، ويأكل ليتقوى به عليها، ويترك ما يترك زهداً فيه واحتقاراً له: فقد قال عليه السلام: «مَنْ طَلَبَ رِزْقَهُ عَلَى مَاسِنَ

فهو جهاد» وقال عليه السلام لابن مسعود : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُؤْجِرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الْقُمْمَةِ يَضْعَهَا فِي قَمِ امْرَأَ تِهِ» وأراد بالمؤمن من يعرف حقائق الأمور فيقصد بما يتعاطاه وجه الله ، والاستعانته على سلوك سيله .

وعند هذا يتبيّن أنّه ليس الزاهد من لا مال له ، بل الزاهد من ليس مشغولاً بالمال ، وإن كان له أموال العالمين ، ولذلك قال على رضي الله عنه : « لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فليس برأب » فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله : بأن تكون حركتك مقصورة على عبادة ، أو على ما يعين على عبادة ولا يستغنى عنك العباد : كالأكل وقضاء الحاجة مثلاً ؛ فانهما معينان على العبادة ، وهما أبعد الحركات عن العبادة ، وعند هذا يكون الكامل النفس في تناول الدنيا كالراقي الحاذق في مس الحياة متقياً سهماً ومستخراجاً جوهرها ، والعامى إذا تشبه به ونظر إليه ظن أنه أخذها مستحسناً شكلاً وصورتها مستليناً سهماً مستصحباً إياها ، فإذا ظن ذلك أخذها وتقلدها ، فقتلته . وقد شبهت الدنيا بها فقيل :

الدنيا كجية تنفس السموم الواقع ، وإن لأن ملمسها . وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصر في تحطّي قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة - فمحال أن يتشبه العامي بالكامل في تناول الدنيا . وإذا تؤمل ملك سليمان وما أوى مع رتبة النبوة علم أن الزهد زهد النفس ، لا خلو اليد . وكيف تضر الدنيا بالأنبياء والأولياء ، وهم يعرفون ضرها ونفعها وربتها في الوجود ، ويعلمون أن للإنسان في وجوده ثلاث منازل : منزلة في بطن أمه ، ومنزلة في فضاء العالم ، ومنزلة بعد الموت . والدنيا في مثال نزل ^{بني} ، وينتهي إليه المسافر في المنزل الأوسط ، وقد هيئت فيه أسباب وأوان وأقوات ، ليستعين بها المسافر ، ويتنفع بها انتفاعه بالعارية والمنحة ، ويخليها لمن يلتحق بعده ، فيأخذها بشكير ، ويتركها بانشراح صدر ، وقد انتهى إلى النزل جماعة من الحمقى ،

فظنوا أن هـذا المنزل وطن وأن هذه الأسباب ليست عارية وإنما هي هبة مؤبدة ، فصاروا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليـد وزرع الروح . وقيل : إن مثلـ الناس فيما أعطـوا من الدنيا كمثلـ رجل هـياـ دارـا ، وهو يدعـو أقوـاما إلى دارـه على الترتـيب واحدـا بعد واحدـ ، فأدخلـ واحدـا دارـه ، فقدمـ إلـيه طبقـ ذهبـ عليهـ بخـورـ وريـاحـينـ ؛ ليـشمـهـ ويـترـكـهـ لـيـتـملـكـهـ ، فـيـهـ رسـمـهـ ، فـظـنـ أـنـهـ وهـبـ لـهـ ، فـلـمـ اـسـتـرـجـعـ مـنـهـ ضـبـرـ وـتفـجـعـ . وـمـنـ كـانـ عـالـماـ بـرسـمـهـ اـتـفـعـ بـهـ وـرـدـهـ باـشـرـاحـ صـدرـ .

السبب السادس من أسباب السعادة

القناعة

حقيقة :

عناصر القناعة خمسة : الرضا بالكافاف ، والإجمال في الطلب ، والاطمئنان إلى القدر ، والتوكـل على الله ، والزهد في الدنيا . هـذهـ هـىـ القنـاعـةـ وـهـىـ الغـنىـ الحـقـيقـىـ الذـىـ أـشـرـنـاـ إـلـىـ شـىـءـ مـنـهـ سـابـقاـ : قالـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلامـ : « لـيـسـ الـغـنـىـ عـنـ كـوـرـةـ الـعـرـضـ ، وـلـأـيـكـنـ الـغـنـىـ غـنـىـ النـفـسـ » أـىـ أـنـ الـغـنـىـ غـنـىـ النـفـسـ وـشـبـعـهـاـ وـقـلـةـ حـرـصـهـاـ ، لـاـ كـثـرـةـ المـالـ مـعـ الـحـرـصـ عـلـىـ الـزـيـادـةـ ؛ لـأـنـ مـنـ كـانـ طـالـبـاـ لـلـزـيـادـةـ لـمـ يـسـتـغـنـ بـمـاـ مـعـهـ ، فـلـيـسـ لـهـ غـنـىـ : وـلـذـلـكـ قـالـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلامـ : « الـقـنـاعـةـ كـنـزـ لـأـيـنـفـدـ » إـذـ الـإـنـفـاقـ مـنـهـ لـأـيـنـقـطـعـ ؛ لـأـنـ صـاحـبـهاـ قـدـ حـصـرـ رـغـبـاتـهـ فـيـاـ تـحـتـ يـدـهـ ، وـكـلـاـ تعـذرـ عـلـيـهـ شـىـءـ مـنـ أـمـورـ الدـنـيـاـ قـعـ بـمـاـ دـونـهـ وـرـضـيـ . وـهـذـهـ هـىـ السـعـادـةـ التـامـةـ : إـذـ شـئـتـ أـنـ تـحـيـاـ سـعـيدـاـ فـلـاـ تـكـنـ عـلـىـ حـالـ إـلـاـ رـضـيـتـ بـدـونـهـاـ وـمـنـ طـلـبـ الـعـلـيـاـ مـنـ الـعـيـشـ لـمـ يـزـلـ حـقـيرـاـ وـفـيـ الدـنـيـاـ أـسـيـرـ غـبـوـتـهـ لـذـلـكـ يـحـبـ عـلـىـ مـنـ رـزـقـ الـكـفـاـيـةـ ، وـوـجـدـ الـقـصـدـ مـنـ السـعـادـةـ الـخـارـجـةـ أـلـاـ يـشـتـغـلـ بـفـضـولـ الـعـيـشـ ؛ فـإـنـهـاـ بـلـ نـهاـيـةـ ، وـمـنـ طـلـبـهاـ أـوـقـعـتـهـ فـيـ هـمـ الـكـلـ

لأنهاية لها ؛ إذ الغرض الصحيح من الكفاف والقصد مداواة الآلام ، والتحرز من الوقوع فيها ، لا التمتع وطلب اللذة ؛ فإن ذلك يأتى عرضا لاقصدا ، ومن عالج الجوع والعطش اللذين هما مرضان مؤلمان حادان لا ينبغي له أن يقصد لذة البدن بل صحته ؛ فالعاقل يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل ، ومع ذلك فالذى يقصد صحة البدن سيلتذر لاحالة . وأما من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة فلا تحصل له الصحة ، ولا تبقى له اللذة . وأما من لم يرزق الكفاية ، واحتاج إلى السعي والاضطراب في تحصيلها - فيجب ألا يتتجاوز القصد وقدر حاجته منها إلى ما يضطره إلى السعي الحثيث والحرص الشديد والتعرض لقيح المكاسب أو ضروب المهالك والمعاطب ، بل يحمل في طلبها إجمال العارف بخسائرها العالم بأنه يضطر إليها لنقصانه ، فيطلب منها القدر الضروري ،

فالاقتصر على الكفاف والسعى إلى القوت لحفظ النفس والبدن أمر لأندمنه ، وأما إلا يغالي في ذلك والإفراط فيه فمشغلة لاحد لها وعناء لاغائية له ومدعاة إلى الخروج عن جادة الشريعة : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب الناس فكان من خطبته قوله : « والله ما أخشى عليكم أنها الناس إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، فقال رجل : يا رسول الله أيأتي الخير بالشر ؟ فضفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم قال : كيف قلت ؟ قال : قلت يا رسول الله : أيأتي الخير بالشر ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بُخْرَىٰ ، أَوْ خَيْرٌ هُوَ ؟

إِنَّ كُلَّ مَا يَنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا^(١) أَوْ يُلْمَمُ^(٢) إِلَّا كِلَةً أَخْضَرَ أَكَلَتْ حَتَّىٰ إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْمَلَتِ الشَّمْسُ ثَلَطَتْ^(٣) أَوْ بَالَتْ ،

(١) المبطن بفتح الحاء المهملة وبالباء الموحدة : التخمة وأن تأكل كل الماشية فتكسر ،

حتى تنتفخ لذلك بطونها ، ولا يخرج عنها ما فيها . (٢) أو لم : يقارب القتل

(٣) الثلطة : الرجيع الرقيق . وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفييلة ، ويقال :

لَمْ اجْتَرَّتْ (١) فَعَادَتْ فَأَكَاتْ : فَمَنْ يَا خُذْ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ يَا خُذْ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمِثْلُهُ كُمَّلَ الَّذِي يَا كُلُّ وَلَا يَشْبَعُ » وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثُ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَذَرَهُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدِّينِ ، وَخَافَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، فَقَالَ هَذَا الرَّجُلُ : إِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ لَنَا مِنْ جَهَةِ مِبَاحةِ كَعْنِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَذَلِكَ خَيْرٌ ، وَهُلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ ؟ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٌ وَاسْتِبْعَادٌ ، أَى يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ خَيْرًا ، شَمْ يَتَرَبَّ عَلَيْهِ شَرٌّ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَا الْخَيْرُ الْحَقِيقِ فَلَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، أَى لَا يَتَرَبَّ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرٌ . شَمْ قَالَ : أَوْ خَيْرٌ هُوَ ؟ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَحْصُلُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدِّينِ لَيْسَ بِخَيْرٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَتْنَةٌ . وَتَقْدِيرُهُ : الْخَيْرُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ هَذِهِ الْزَّهْرَةُ بِخَيْرٍ ؛ لَمَّا تَؤْدِي إِلَيْهِ : مِنَ الْفَتْنَةِ ، وَالْمَنَافِسَةِ ، وَالْإِشْتِغَالِ بِهَا عَنْ كَالِ الْإِقْبَالِ عَلَى الْآخِرَةِ . شَمْ ضَرَبَ لَذَلِكَ مَثَلاً ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ كُلَّ مَا يُنِيبُ الرَّبِيعُ يُقْتَلُ حَبَطًا أَوْ يُلْمَ إِلَّا كَلَةً الْحُضْرَ إِلَى آخِرَهُ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ نَبَاتَ الرَّبِيعِ وَخَضْرَهُ يُقْتَلُ حَبَطًا بِالنَّخْمَةِ لِكَثْرَةِ الْأَكْلِ أَوْ يَقْارِبُ الْقَتْلَ ، إِلَّا إِذَا اقْتَصَرَ مِنْهُ عَلَى الْيُسِيرِ الَّذِي تَدْعُوا إِلَيْهِ الْحَاجَةَ ، وَتَحْصُلُ بِهِ الْكَفَايَةُ الْمُقْتَصِدَةُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ . وَهَكُذا الْمَالُ : هُوَ كَنْبَاتُ الرَّبِيعِ مُسْتَحْسِنٌ تَطْلُبُهُ النُّفُوسُ ، وَتَمْيلُ إِلَيْهِ : فَهُنْمَنْ مِنْ يَسْتَكْثِرُ مِنْهُ ، وَيَسْتَغْرِقُ فِيهِ غَيْرُ صَارِفٍ لَهُ فِي وِجْوهِهِ ، فَهَذَا يَهْلِكُهُ ، أَوْ يَقْارِبُ إِهْلَاكَهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِدُ فِيهِ ، فَلَا يَأْخُذُ إِلَّا يُسِيرًا ، وَإِنْ أَخْذَ كَثِيرًا فَرَقَهُ فِي وِجْوهِهِ ، كَلَّا تَشَدِّدُهُ الدَّابَّةُ ، فَهَذَا لَا يَضُرُّ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : « فِيهِ مَثَلًا » أَحَدُهُمَا لِلسَّكْثَرِ مِنَ الْجَمِيعِ الْمَانِعُ مِنَ الْحَقِّ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ مَا يَنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يُقْتَلُ » ؛ لَأَنَّ الرَّبِيعَ يَنْبِتُ أَحْرَارَ (٢) الْبَقْوَلَ ، فَلَمْ يَسْكُثْرُ

ثُلْطُ الْبَعِيرِ : إِذَا أَلْقَى بِعَرْهَرْقِيَا . (١) اجْتَرَتْ : مَضْعَثَتْ جُرْتَهَا ، وَالْجَرَّةُ : مَا يَخْرُجُهُ الْبَعِيرُ مِنْ بَطْنِهِ لِيُضْعَفَهُ . (٢) أَحْرَارُ الْبَقْوَلَ : الْجَيْدُ مِنْهَا

منه الدابة حتى تهلك . والثاني للمقصود ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : «إلا آكلة الخضر لأن الخضر ليس من أحراق الب قول» وقال القاضي عياض : «ضرب صلى الله عليه وسلم لهم مثلاً بحالى المقصود والمكثر : فقال صلى الله عليه وسلم : أتم تقولون : إن نبات الريش خير ، وبه قوام الحيوان . وليس هو كذلك مطلقاً ، بل منه ما يقتل أو يقارب القتل : فحالة المبطون المتخوم كحالة من يجمع المال ، ولا يصرفه في وجوهه ، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى أن الاعتدال والتوسط في الجماع أحسن ، ثم ضرب مثلاً من ينفعه إكثاره ، وهو التشبيه بآكلة الخضر ، وهذا التشبيه لمن صرفه في وجوهه الشرعية . ووجه الشبه أن هذه الدابة تأكل من الخضر حتى تمتليء خاصرتها ، ثم تسلط ، وهكذا من يجمعه ثم يصرفه ، والله أعلم »

القناعة والعمل :

يظن بعض المتعالين الذين لم ينشئوا نشأة دينية فلم يتذوقوا طعم الدين ، ولم يتغدو ببلائه — أن القناعة ، والرضا ، والقضاء ، والقدر ، والتوكيل ، والزهد ، أمور تدعوا إلى الجمود والخلول والكسل والتأنّر . اعتقاد فاسد ، ووهم خطاطي يدل على جهالة جهلاء ، وضلاله عميان ، فإن الشرع أمر بالسعى إلى العيش وتحث على الجد في تحصيل الرزق ، وكانت دعوه إلى هذه الأمور : ليكون المرء في عمله غير مروع القلب ، ولا مشتت الفكر ، بل رابط الجأش ، ثابت الجنان ، معتمداً على الله في عمله ، مستمدًا منه المعونة ، ثم هو بعد ذلك لا يحزنه فوت المطلوب ، ولا يبطله نيل المرغوب ؛ إذ النتيجة من تقدير الملك القادر ، وما عمله هذا إلا سبب ظاهر : (وَإِنْ يَمْسَسْكُ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرْدِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادٌ لِفَضْلِهِ ، يُصَدِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

وقد جمع الله تعالى القناعة والرضا والقضاء والقدر والتوكيل والزهد في قوله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ

قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، إِنَّكُمْ لَا تَأْسُوْ أَعْلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

فأنـت ترى بهذا أنـ الدين قد دعا إلى هذه الأمـور لغاـية سـامية ، وحكـمة عـالية يتـوقف عـليـها النـجـحـ في الأـعـمالـ باـتقـانـهاـ ، وبلـوغـ الـآـمـالـ باـحـكـامـ وـسـائـلـهاـ : هـذـهـ الحـكـمةـ وـتـلـكـ الـغاـيةـ هـيـ غـرسـ الـاطـمـئـنـانـ فـيـ النـفـوسـ وـقـتـ الـقـيـامـ بـالـعـملـ ، وـإـنـزالـ السـكـينةـ عـلـىـ القـلـوبـ عـنـدـ ظـهـورـ نـتيـجـتـهـ ، وـلوـ كـانـتـ عـلـىـ غـيرـ المـتـنـظـرـ منـ حيثـ يـعـلـمـ العـاـمـلـ أـنـ ماـ وـقـعـ قـدـ سـبـقـ تـقـدـيرـهـ مـنـ الـحـكـيمـ الـخـبـيرـ ، وـأـنـهـ لـيـسـ لـهـ قـوـةـ عـلـىـ دـفـعـهـ ، بـلـ مـاـ يـزـيدـ اـطـمـئـنـانـهـ ، وـيـثـبـتـ جـنـانـهـ - اـعـتـقادـهـ أـنـ الـخـيـرـ فـيـ الـوـاقـعـ ، وـأـنـهـ لـوـ اـطـلـعـ عـلـىـ الـغـيـبـ لـاـخـتـارـ ذـلـكـ الـوـاقـعـ ، كـاـ أـخـبـرـ بـذـلـكـ سـيـدـ الـمـرـسـلـيـنـ عـلـيـهـ أـفـضـلـ الـصـلـاـةـ وـأـتـمـ الـتـسـلـيـمـ ، وـأـنـهـ إـنـمـاـ سـعـيـ جـهـدـهـ لـمـاـ كـانـ يـطـهـ خـيـراـ ، وـلـكـنـ الـخـيـرـ الـحـقـيقـ هـوـ مـاـ أـرـادـهـ اللـهـ لـهـ .

بـغـيرـ عـلاـجـ لـمـ تـجـرـيـ الـرـياـحـ بـمـاـ لـاـ يـشـتـهـيـ هـوـ الرـضاـ بـالـقـدـرـ . وـأـمـاـ مـنـ لـمـ يـعـتـقدـ ذـلـكـ فـيـكـونـ فـيـ عـمـلـهـ قـلـقـ الـخـاطـرـ خـوفـ الـإـخـفـاقـ ، مـشـتـتـ الـفـكـرـ خـشـيـةـ الـرـولـلـ ، مـتوـتـرـ الـأـعـصـابـ خـيـفـةـ السـقـوطـ ، وـمـنـ فـرـقـهـ تـفـرـقـ قـوـاهـ ، فـيـكـونـ عـنـ الـإـتـقـانـ وـالـإـجـادـةـ بـمـنـحـاهـ ، وـيـؤـتـيـ مـنـ نـاحـيـةـ مـعـتـقـدـهـ ، فـيـقـعـ فـيـهـ يـخـشـاهـ ، فـيـرـغـيـ وـيـزـبدـ ، وـيـبرـقـ وـيـرـعدـ ، وـيـخـنـعـ نـفـسـهـ حـزـنـاـ ، وـيـتـحرـغـاـ وـكـمـاـ . فـأـيـنـ هـذـاـ مـنـ يـسـيرـ فـيـ عـمـلـهـ مـرـتـكـنـاـ عـلـىـ جـانـبـ رـبـهـ ، رـاضـيـاـ بـقـضـائـهـ ، وـأـنـ مـاـسـيـكـونـ وـعـلـىـ أـىـ وـجـهـ يـكـونـ هـوـ مـنـ آـلـهـ وـنـعـائـهـ ، فـيـشـكـرـهـ عـلـىـ السـرـاءـ وـالـضـرـاءـ ، وـالـشـدـةـ وـالـرـخـاءـ ، اللـهـمـ إـنـ الـفـرـقـ يـنـهـمـاـلـوـ الـفـرـقـ بـيـنـ الـاطـمـئـنـانـ وـالـقـلـقـ ، وـالـأـمـنـ وـالـفـرـقـ ، وـالـنـجـاحـ وـالـغـرـقـ ، وـالـيـأسـ وـالـأـمـلـ ، وـالـنـجـاحـ وـالـخـيـرـةـ .

انتصار الـإـسـلـامـ بـهـذـهـ الـعـقـائـدـ :

وـلـاـ غـرـابـهـ فـيـاـ قـدـمـنـاهـ مـنـ أـثـرـ هـذـهـ الصـفـاتـ فـيـ سـعـادـةـ الـإـنـسـانـ وـنـجـاحـهـ ؛ فـقـدـ اـنـتـصـرـ الـإـسـلـامـ بـالـسـلـفـ عـلـىـ قـلـةـ عـدـدـهـمـ وـعـدـتـهـمـ ؛ لـاـ شـرـابـ هـذـهـ الـعـقـائـدـ

في قلوبهم بقوة إعانتهم ، وامتزاجها باحتمتهم ودمهم ، وتغلغلها في نفوسهم إلى مدى بعيد ، وتأثيرهم بها إلى أقصى غاية ، يذكر الواحد منهم نفسه بالخروج لله عن كل أمواله ، بل الجود بالنفس في إعلاء كلمة الله كان أحب آماله : يجود بالنفس إن ضن الجواب بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود وإليك مثلاً تبين مبلغ أثر هذه العقيدة في تقدم المسلمين :

الأول : لما حصر المسلمون في فتح مصر حصن بابليون أرسل المقوقس إلى عمرو

ابن العاص : « إنكم قد ولجتم في بلادنا ، وألحتم على قتانا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أتكم عصبة يسيرة وقد أظللتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أتكم أسارى في آيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم ، نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب ، وينقطع عننا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ، ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما أتت عمراً رسول المقوقس جبسوهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال ل أصحابه : « أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ، ويستجلون ذلك في دينهم !! »

وإنما أراد عمرو بذلك انهم يرون حال المسلمين ، ثم رد عليهم عمرو مع رسلهم : « إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلات خصال : إما أن دخلتم في الإسلام ، فكنتم إخواننا في الإسلام وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم أعطيتكم الجزية عن يد وأتم صاغرون ، وإنما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين » .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه ، قال : « كيف رأيتموه ؟ » قالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من

الرفة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهاية ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضعفهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، وينخشعون في صلاتهم . فقال المقوقس : « والذى يخلف به لو أن هؤلاء استقلوا الجبال لازالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد »

وما قاله عبادة بن الصامت للمقوقس : « إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدواً من حارب الله لرغبة الدنيا ، ولا طلبا للاستكشاف منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعل ماغمنا من ذلك حلالا ، وما يملى أحدهنا أكان له قناطير من ذهب ألم كان لا يملك إلا درهما ؟ لأن غاية أحدهنا من الدنياأكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشمرة يلتحفها . وإن كان أحدهنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطر من ذهب أنفقه في طاعة الله ، واقتصر على هذا ؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة . بذلك أمرنا الله ، وأمرنا به ندينا ، وعهد إلينا ألات تكون همة أحدهنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همة وشعله في رضا رب وجهاد عدوه »

وبينما عبادة بن الصامت يصلى في ناحية ، وفرسه عنده - رأه قوم من الروم ، فخرجوإليه وعليهم حلية وبزة ، وتحرشوأبه ، فلما دنوا منه سلم من الصلاة ، ووثب على فرسه ، ثم حمل عليهم ، فلمارأوه ولوا هاربين ، وتبعدهم ، فعلوا يلقو مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم ، فصار لا يلتفت إليه حتى دخلوا إلى الحصن ، ورمي عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوه من متاعهم ، حتى رجع إلى موضعه الذي كان فيه ، فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم إلى متاعهم وجمعاوه . هؤلاء هم المسلمين قد انتصروا بالعقيدة ، وأتوا بالأعمال المجيدة ،

فخضعت لهم الأمم القوية العنية . ويوم أُقفرت النقوس من هذه العقائد وذهب أثراها - ضعفت الهمم ، وفسدت الأخلاق ، وانحطت النقوس ، وزال مجد الدين ، وخنعت الأمة للمغرين ، وطأت رقامها النير الاحتلال . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الإسلام الذي انتصر بالقناعة قد حث على السعي :

إن الإسلام الذي انتصر بالقناعة على النحو الذي ضربنا لك مثلاً منه من أمثال لا تحصى ولا تستقصى - ليりهن لك على أن دعوته إلى القناعة وما يندرج تحتها ليست دعوة إلى الخمول والخيبة والتقهقر ، بل بالعكس هي دعوة إلى النجاح والتقدم : إن الإسلام الذي دعا إلى ذلك هو الذي حث على السعي والأخذ بالأسباب الظاهرة : قال تعالى للسيدة مريم لما جاءها

المخاص إلى جذع النخلة : (وَهُزِّي إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبَاجَنِيًّا) ولو شاء الله أن ينزله عليها من غير أن تسعى في هز النخلة لفعل . وقال : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَاندَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَإِذْ كُرُوا اللَّهُ كَثِيرًا عَلَمُكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال : (فَامْشُوا فِي مَنَارِكُمْ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) ، وقال : (وَأَنْ لَيْسَ إِلَّا نَسَانٌ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة .

ولما أقبل النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك استقبله معاذ فصافحه فوجد في يده أثر العمل ، فسأل الله عن ذلك فقال : « أحدثت بالمسحة وأنفقه على عيالي » فقبله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لا تمسه النار » وكان عمر رضي الله عنه إذا نظر إلى قتي وأعجبه سائل : هل له حرفة ؟ فإذا قالوا : لا - سقط من عينيه . وقال ابن عباس رضي الله عنه : « قدم قوم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال : « أيمكم كان يكفي طعامه وشرابه ؟ » فقالوا : كلنا ،

فقال : « كلامكم خير منه » . وللحافظة على الطمأنينة التي تلزم القناعة وراحة البال التي ترمي إليها ، ولتحاشى الانهيار في طلب الدنيا ، وحصر كل الهم في ذلك ، واحتلال الفكر به - أمرنا الإِسلام بالقصد في الطلب ، والإِجمال في السعي : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اقتضدو أَفِي الطلب ؟ فَإِنْ مَارُزْ قُتُّمُوهُ أَشَدُ طَلَبًا مِنْكُمْ لَهُ ، وَمَا حُرِّمَتُمُوهُ فَلَانْ تَسْأَلُوهُ ، وَلَوْ حَرَّ صَبَّمْ »

لامنافاة بين القناعة وكثرة المال :

ما يحدركم التنبية عليه هنا أنه لا تناقض بين القناعة وبين المال الوفير ، مادام هذا المال الوفير لا يذهب بالطمأنينة التي هي حكمة الدعوة إلى القناعة ، ولا يمس هدوء البال الذي هو غاية السعادة ، وما دام هذا المال الوفير لا يقصد به إلا سد الخلة وستر العورة والتقوية على العبادة ، ثم التصدق بالزيادة . ومن هذا يتضح جليا - كما تقدم - أنه ليس الزاهد من لا مال له ، بل الزاهد من ليس مشغولاً بالمال ، وإن كان له أموال العالمين : ولذلك قال على رضى الله عنه : « لو أن رجلاً أخذ جميع ماقع الأرض ، وأراد به وجه الله فليس برأب » وقال : من عمل بقوله : (إِنَّمَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرُحُوا بِمَا آتَاكُمْ) - فقد ملك الزهد بطرف فيه .

القناعة والادخار :

من حيث ثبت أن كثرة المال لا تتفق صفات القناعة أرى أن لا منافاة أيضاً بين هذه الصفات والادخار ، متى توافرت الثقة واليقين والتوكيل والاطمئنان ، وقد يقصد بالادخار الأخذ بوجه من وجوه الأسباب الظاهرة ، بل قد يكون الادخار أولى إذا كان المرء بدونه يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والتفكير ، حتى لو كان لا يتفرغ قلبه إلا بامساك ضئيلة يكون دخلها وافياً بقدر كفايته لكان ذلك له أولى ؛ لأن المقصود إصلاح القلب ليتجدد ذكر الله ؟ ورب شخص يشغله وجود المال ؟ ورب

شخص يشغله عدمه ، والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيا في عينها غير مذودة ، لا وجود لها ولا عدمها : ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون ، فلم يأمر التاجر بتترك تجارتة ، ولا المحترف بتترك حرفة ، بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى . وعمدة الاشتغال بالله عز وجل - القلب : فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، أما من يعول غيره فلا يخرج عن حد القناعة بادخار قوت سنة لعياله ؛ جبراً لضعفهم وتسكينا لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك مبطل للقناعة . وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ؛ لا لضعف قلب فيه وفي عياله ، ولكن ليشرع ذلك للضعفاء من أمهه ، بل أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتي رخصه ، كما يحب أن تؤتي عزائمها تطبيقاً لقلوب الضعفاء ، حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتربوا الميسور عليهم من الخير بعجزهم عن متنهي الدرجات . فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم .

دفع الضرر والوقاية منه :

لا ينافي التوكيل ولا الرضا أن يسعى المرء في دفع ضرر متوقع حصوله لنفس أو مال قطعاً أو ظناً لا وهمآ :

أما في النفس : فكالنوم في مسبيعة أو مجرى سهل أو تحت جدار مائل أو سقف منكسر : فكل ذلك منهى عنه ، وصاحبته قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . وإذا كان سيناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فالصبر أولى : قال تعالى : (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) وقال تعالى : (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلْ)

الْمُؤْمِنُونَ) وَقَالَ عَزْ وَجْلٌ: (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) إِلَى آخر الآيات الكثيرة التي وردت في ذلك.

هذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحياة والسباع والعقارب مثلا فترك دفعها ليس من الرضا والتوكيل في شيء .

وأما في المال : فلا ينقص الرضا والتوكيل بإغلاق باب البيت عند الخروج ، ولا بأن يعقل البعير ، ولا بنحو ذلك ؛ لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى قطعاً أو ظناً : ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أهمل ناقته وقال : توكلت على الله :- « اعْلَمُهَا وَتَوَكَّلْ » وقال تعالى : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) وقال في كيفية صلاة الحوف : (وَلَمَّا خُذِنَا أَسْلِحَتَهُمْ) وقال سبحانه : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْمِ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَخْلَمْ) وقال تعالى لموسى عليه السلام « فَأَسِرْ بِعِبَادِي لِيَلَّا » والتحصن بالليل احتفاء عن أعين الأعداء ، واحتفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار احتفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر . وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعاً قطعاً - كقتل الحية والعقرب - ولكن سبب مظنون ، والمظنون كال المقطوع كأسلافنا .

كيف يكون الآخذ بهذه الأسباب راضياً متوكلاً :

من أخذ سلاحه حذراً من العدو ، وأغلق بابه خوفاً من اللص ، وعقل بغيره خشية أن ينطلق - فهو متوكلاً راضياً ، وحالاً :

فاما العلم : فإن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفایته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إيه ، وكذلك عقل البعير وحمل السلاح : فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بغير يعقل ويموت أو يفلت ، وكم من آخذ سلاحه يُقتل أو يُغلب . فلا اعتماد على هذه الأسباب بل على من سلّمها .

واما الحال : فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى في بيته ونفسه ، ويقول : اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو سليلك ، وأن اراض

بحكمك ، وما أغفلت الباب تحصنا من قضائك و تسخطا له ، بل جريأ على مقتضي سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك ياموجد الأسباب .

الوقاية من المرض :

إن الوقاية من المرض نوع من الوقاية من الضرر الذي تقدم أنه لا ينافي الرضا والتوكيل : فقد أمرنا بالغفار من المجدوم ، كما نفر من الأسد : ويدل على ذلك أيضاً ماروا عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون : فإنهم لما قصدوا الشام ، واتهوا إلى الجایة (١) - بلغهم أن به موتاً عظيماً ووباء ذريعاً ، فاقترب الناس فرقتين : فقال بعضهم : لاندخل على الوباء ، فناقى بأيدينا إلى التهاكة . وقالت طائفة أخرى : بل ندخل وتتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت ، فشكون كمن قال الله تعالى فيهم : (عَمِّ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتَ) فرجعوا إلى عمر ، فسألوه عن رأيه ، فقال : « نرجع ولا ندخل على الوباء » فقال له الخلفون في رأيه : « أنفر من قدر الله تعالى ؟ » قال عمر : « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » ثم ضرب لهم مثلاً ، فقال : أرأيت لو كانت لأحدكم غنم ، فهبط وادياً له شعبتان : إحداهما مخصبة والأخرى مجدهبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ وإن رعى المجدهبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف لسؤاله عن رأيه ، وكان غائباً ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن ، فسألته عمر عن ذلك ، فقال : عندى فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : « الله أكبر » فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تُقْدِمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » ففرح عمر رضي الله عنه

(١) قرية من أعمال دمشق

بذلك ، وحمد الله إذا وافق رأيه ، ورجع من الجائحة بالناس . فهذا إجماع من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على أن الأخذ بأسباب الوقاية من الأمراض لا ينافي التوكل على الله ولا الرضا بقضاءه ، كما أنه لا يقبح في الرغبة والتوكل الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي .

علاج المرض :

يدل على أن التداوى غير مناقض للرضا والتوكيل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و قوله ، وأمره : أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَهُوَ دَوَاءٌ عَرَفَهُ وَجَهَّلَهُ مِنْ جَهَّلَهُ إِلَّا السَّلَامُ » يعني الموت ، وقال عليه السلام : « تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدُّوَاءَ »

وسئل عن الدواء والرق : هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هي من قدر الله » وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوی وبالجمیة ، فبعث إلى أبي بن كعب طيباً قطع له عرقاً وكواه عليه (أى فصده وكواه) وقال لعلى رضي الله عنه ، وكان رمد العين : « لا تأكل من هذا » يعني الرطب « وكل من هذا فإنه أوفق لك » يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير .

وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى أنه كان يكتحل ويختجم ويشرب الدواء ، وتداوی صلى الله عليه وسلم من العقرب وغيرها ، وما روی في تداویه وأمره بذلك كثير خارج عن حد الحصر ، وقد صنف في ذلك كتاب وسمى : طب النبي صلى الله عليه وسلم .

فوجد الأسباب أجرى سنته بربط المسبيات بالأسباب إظهاراً للحكمة . والأدوية أسباب مسخرة بحکم الله تعالى كسائر الأسباب . والله تعالى أعلم .

كيف يرضي القانع بالبلاء والمحن؟

قدمنا أن البتلاء لا يخرج المؤمن الكامل عن كمال إيمانه ، كما أسلفنا أيضاً أن المصائب والمحن لا تخرج السعيد عن سعادته ؛ لأن كلاً منها يكون راضياً بحالته قاعداً بها ، بل مسروراً بما هو فيه ، فكيف يتصور ذلك ؛ يتصور ذلك من ناحية حب الله تعالى واستغراق الهم به ؛ إذ لا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب : قال حجۃ الإسلام الإمام الغزالی : يكون ذلك من وجوهين :

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يحرى عليه المؤلم ولا يحس به .
وتصنيه جراحة ولا يدرك ألمها ، ومثاله :

(أ) الرجل المحارب : فإنه في حال غضبه ، أو في حال خوفه - قد تصنيه جراحة ، وهو لا يحس بها ، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة .

(ب) الذي يغدو في عمل هام قد يصنيه أذى في بدنـه ، ولا يحس أبداً لشغله قلبه ؛ لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر لم يدرك مaudاه .

وكذلك العاشق المستغرق في المحبة مشاهدة معشوقة أو بحبه قد يصنيه ما كان يتأنم به أو يغتم له ، لو لا عشقـه ، ثم لا يدرك غمه وألمـه ؛ لفـرط استـيلـاء الحب على قلـبه . هذا إذا أصابـهـ من غير حبيـبهـ ، فـكـيفـ إذا أصابـهـ من حبيـبهـ ، وشـغلـ القـلـبـ بالـحـبـ وـالـعـشـقـ منـ أـعـظـمـ الشـوـاغـلـ . وإـذاـ تصـورـ هـذـاـ فيـ أـلـمـ يـسـيرـ بـسـبـبـ حـبـ خـفـيفـ تصـورـ فـيـ أـلـمـ العـظـيمـ بـأـحـبـ الـعـظـيمـ : فـإـنـ الحـبـ أـيـضاـ يـتـصـورـ تـضـاعـفـهـ فـيـ القـوـةـ ، كـمـ يـتـصـورـ تـضـاعـفـ الـأـلـمـ ، وـكـمـ يـقـويـ حـبـ الصـورـ الجـمـيلـةـ الـإـاطـنةـ المـدـرـكـةـ بـجـاسـةـ الـبـصـرـ - كذلك يـقـوىـ حـبـ الصـورـ الجـمـيلـةـ الـإـاطـنةـ المـدـرـكـةـ بنـورـ الـبـصـيرـةـ . وجـمالـ حـضـرةـ الـرـبـوـيـةـ وـجـلالـهـ لاـ يـقـاسـ بـهـ جـمالـ وـلـاجـلالـ : فـنـ يـنـكـشـفـ لـهـ شـيـءـ مـنـهـ فقدـ يـبـهـ بـحـيثـ يـدـهـشـ وـيـعـشـيـ عـلـيـهـ فـلـاـ يـحـسـ بـمـاـ يـبـرـىـ عـلـيـهـ : فـقـدـ روـيـ أـنـ اـمـرـأـ فـتـحـ الـمـوـصـلـ عـثـرـتـ ، فـانـقـطـعـ ظـفـرـهـاـ فـضـحـكـتـ ، فـقـيلـ لـهـ : أـمـاـ تـجـدـيـنـ الـوـجـعـ ؟ فـقـالـتـ : «ـ إـنـ لـذـةـ ثـوـابـهـ

أزالـت عن قلـي مـراـة وـجـعـه » وـكـان سـهـل رـحـمـه اللهـ تعالـى بـه عـلـة ، يـعـالـج غـيرـه مـنـهـا ، وـلـا يـعـالـج نـفـسـهـ ، فـقـيلـ لـهـ فـي ذـلـكـ : فـقـالـ : « ضـرـبـ الحـبـيـبـ لـا يـوـجـعـ » ثـانـيـهـماـ : أـنـ يـخـسـ بـالـأـلـمـ وـيـدـرـ كـهـ ، وـلـكـنـ يـكـونـ رـاضـيـاـ بـهـ ، بـلـ رـاغـبـاـ

فـيـهـ ، مـرـيدـاـ لـهـ ، أـعـنـيـ بـعـقـلـهـ ، وـإـنـ كـارـهـاـ بـطـبـعـهـ :

(ا) كالـذـى يـلـتـمـسـ مـنـ الطـبـيـبـ بـتـرـ عـضـوـ يـخـشـىـ مـنـهـ عـلـىـ سـائـرـ الـجـسـمـ ؟ فـإـنـهـ يـدـرـكـ أـلـمـ ذـلـكـ ، إـلاـ أـنـهـ رـاضـ بـهـ وـرـاغـبـ فـيـهـ وـمـقـلـدـ مـنـ الطـبـيـبـ مـنـهـ بـفـعـلـهـ . فـهـذـاـ حـالـ الرـاضـىـ بـمـاـ يـحـرـىـ عـلـيـهـ مـنـ أـلـمـ .

(ب) وـكـذـلـكـ كـلـ مـنـ يـسـافـرـ فـيـ طـلـبـ الرـحـجـ : يـدـرـكـ مـشـقـقـةـ السـفـرـ ، وـلـكـنـ جـبـهـ لـثـرـةـ سـفـرـهـ طـيـبـ عـنـدـهـ مـشـقـقـةـ السـفـرـ ، وـجـعـلـهـ رـاضـيـاـ بـهـ . وـمـهـمـاـ أـصـابـتـهـ بـلـيـةـ مـنـ اللهـ تعالـىـ ، وـكـانـ لـهـ يـقـيـنـ بـأـنـ ثـوابـهـ الذـىـ اـدـخـرـ لـهـ فـوـقـ مـاـفـاتـهـ رـضـىـ بـهـ ، وـرـغـبـ فـيـهـ ، وـأـحـبـهـ وـشـكـرـ اللهـ عـلـيـهـ . هـذـاـ إـنـ كـانـ يـلـاحـظـ الثـوابـ وـالـإـحـسـانـ الذـىـ يـحـازـىـ بـهـ عـلـيـهـ ، وـبـحـوزـ أـنـ يـغـلـبـ الـحـبـ بـحـيثـ يـكـونـ حـظـ الـحـبـ فـيـ مـرـادـ مـحـبـوـهـ وـرـضـاهـ لـاـمـعـنـ آـخـرـ وـرـاءـهـ ، فـيـكـونـ مـرـادـ حـبـيـيـهـ وـرـضـاهـ مـحـبـوـهـ مـطـلـوـبـاـ . وـكـلـ ذـلـكـ مـوـجـودـ فـيـ المـاـشـاهـدـاتـ فـيـ حـبـ الـخـلـقـ ، وـقـدـ تـواـصـفـهـاـ الـمـتـوـاـصـفـوـنـ فـيـ نـظـمـهـمـ وـتـرـهـمـ . وـلـامـعـنـ لـهـ إـلـاـ مـلـاحـظـةـ جـمـالـ الصـورـةـ الـظـاهـرـةـ بـالـبـصـرـ : فـإـنـ نـظـرـ إـلـىـ الجـمـالـ فـاهـوـ إـلـاـ جـلـدـ وـلـحـمـ وـدـمـ ، وـإـنـ نـظـرـ إـلـىـ الـمـدـرـكـ لـلـجـمـالـ فـهـىـ الـعـيـنـ التـىـ تـغـلـطـ فـيـمـاـ تـرـىـ كـثـيرـاـ : قـتـرـىـ الـصـغـيـرـ كـبـيـرـاـ ، وـالـكـبـيـرـ صـغـيـرـاـ ، وـالـبـعـيـدـ قـرـيـباـ ، وـالـقـيـصـ جـمـيـلـاـ . فـإـذـاـ تـصـوـرـ اـسـتـيـلـاـهـ هـذـاـ الـحـبـ فـنـ أـيـنـ يـسـتـحـيـلـ ذـلـكـ فـيـ حـبـ الـجـمـالـ الـأـزـلـىـ الـأـبـدـىـ الذـىـ لـاـمـتـهـنـىـ لـكـمالـهـ الـمـدـرـكـ بـعـيـنـ الـبـصـيرـةـ التـىـ لـاـ يـعـتـرـيـهاـ الغـلطـ ، وـلـاـ يـدـورـ بـهـ الـمـوتـ ، بـلـ تـبـقـىـ بـعـدـ الـمـوتـ حـيـةـ عـنـدـ اللهـ فـرـحةـ بـرـزـقـهـ تـعـالـىـ مـسـتـفـيـدـ بـالـمـوتـ مـزـيدـ تـنبـيـهـ وـاسـتـكـشـافـ ؟ فـهـذـاـ أـمـرـ وـاـضـحـ مـنـ حـيـثـ النـظـرـ بـعـيـنـ الـاعـتـبارـ ، وـيـشـهـدـ لـذـلـكـ الـوـجـودـ ، وـحـكـاـيـةـ أـحـوـالـ الـمـحـبـينـ وـأـقـوـاـهـمـ ، وـهـىـ كـثـيرـةـ لـاـ تـحـصـىـ ، فـلـنـ كـتـفـ بـذـلـكـ ، وـالـلـهـ الـمـوـفـقـ .

السعادة هي القناعة

أعتقد - بعد ما تقدم - أن السعادة في القناعة ، بل لا أكون مغالياً إذا قلت : إن السعادة هي القناعة ، والقناعة هي السعادة ؛ لأن الغاية من القناعة غرس الطمأنينة في النفس في كل شيء : في السراء والضراء ، والشدة والرخاء . وهذه الطمأنينة هي عين السعادة ؛ لأننا عرفنا السعادة بأنها : راحة البال : قال جعفر بن محمد : « ثمرة القناعة الراحة » وذلك أن النفس المطمئنة يكون سرورها بال泚بة مثل سرورها بالنعمة ، فيستوى عندها الغنى والفقير ، والنفع والضر ، والمنع والعطاء ، لا تحزن على مآفات ، ولا تفرح بما هو آت ، فهنئ ممتلئة رضا ، مفعمة سروراً ، وصاحبها في غبطة دائمة ، وسعادة خالدة :

قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيلُ الرُّوحِ وَالْفَرَحُ فِي الرُّضَا وَالْيَقِينِ ، وَجَمِيلُ الْغَمِّ وَالْحُزْنِ فِي الشُّكِّ وَالسُّخْطِ » ونفس شأنها اليقين ، وحالها الرضا - لاتدع صاحبها يفكر إلا في صالح ، ولا يقول إلا صالحا ، ولا يعمل إلا صالحا ، فتعيش في سعادة حقيقة ، ويوم القيمة يقال لها :

(يَا يَاهَا النَّعْمَ المُطْمَئِنَةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً)

وقد روى عن ابن عباس والحسن رضي الله عنهم في تفسير قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مَوْرِدٌ مِنْ فَلَنْجِيَّةٍ حَيَاةً طَيِّبَةً) -
أن المراد بالحياة الطيبة القناعة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الرُّهُدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْبَدَنَ ، وَالْأَعْبَدُ فِيهَا تُكْبِرُ الْهُمَّ وَالْحُزْنَ » : وقال رجل لمحمد بن واسع : « أوصني » فقال له : « كن ملكا في الدنيا ملكا في الآخرة » فقال : « وكيف لي هذا؟ » قال : « ازهد في الدنيا واقنع » ومن كلام على رضي الله عنه : « كفى بالقناعة مُلْكًا ، وبحسن الخلق نعيما » : وبينما فتح الموصلى في أصحابه إذا بصيدين معهما رغيفان : على رغيف أحدهما كامن ، وعلى رغيف الآخر

عسل . فقال صاحب الكامن لصاحب العسل : « أطعمني من عسلك » فقال : أطعمك على أن تكون لي كلبا ، فقال : « أنا كلبك » فجعل في فمه خرقه يجره بها ، فالتفت فتح إلى أصحابه وقال : « لو قع هذا بкамنه لم يصر كلبا لصاحب العسل »

وقال علي بن موسى : « القناعة تجمع إلى صيانة النفس وعز القدرة طرح مئونة الاستكثار والتبعيد لأهل الدنيا ، ولا يملك طريق القناعة إلا رجالان : إما متقلل يريد أجر الآخرة ، أو كريم يتبرأ عن آثام الدنيا ، » وقال الراضي : « القانع يعيش آمناً مطمئناً مستريحاً مريحآ ، والشره لا يعيش إلا تعباً نصباً في خوف وأذى » وقال وهب : « خرج العز والغنى يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرراً » والله المهدى إلى سواء السبيل .
محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل في القناعة :

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : لم لا فعلته ؟ ولا قال في شيء كان : ليته لم يكن ، ولا في شيء لم يكن : ليته كان . وكان إذا خاصمني خاصم من أهله يقول : « دعوه ؛ لو قضى شيء لكان » فنأراد أن يعرف حقيقة الرضا عن الله عز وجل في أفعاله ، وأن يدرى من أين نشأ الرضا - فليفك في أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنه لما تكاملت معرفته بالخلق سبحانه رأى أن الخالق مالك ، وللملك التصرف في ملوكه ، ورأه حكيم لا يصنع شيئاً عبثاً ، فسلم تسليم ملوك الحكم ، فكانت العجائب تجري عليه ، ولا يوجد منه تغير ، ولا من طبعه تألف ، ولا يقول بلسان الحال : لو كان كذلك ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح .

هذا سيد الرسل صلى الله عليه وسلم ، بعث إلى الخلق وحده ، والكافر قد ملا الآفاق ، فجعل يفر من مكان إلى مكان ، واستتر في دار الحيزران ، وهو يضربوه إذا خرج ، ويدمون عقبه ، وشق السبيل على ظهره ، وهو ساكت

ساكن ، وينخرج كل موسم ، فيقول : من يؤويني من ينصرني ؟ ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر ، ولم يوجد من الطبع استنكاف ، ولا من الباطن اعتراف ؛ إذ لو كان غيره لقال : يارب ، أنت مالك الخلق ، وقدر على النصر فلِمَ أذل ؟ كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية : « ألسنا على الحق ؟ فلِمَ نعطي الدنيا ! » ولما قال هذا قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنى عبد الله ولن يضيعنى » فجمعت الكلمات الأصلية اللذين ذكرناهما : قوله : إنى عبد الله إقرار بالملك ، وكأنه قال : أنا ملوك يفعل بي ما يشاء . وقوله : لن يضيعنى : بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عيناً . ثم يبتلي بالجوع فيشد الحجر ، والله خزائن السموات والأرض ، وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويمثل بعمره وهو راض . ثم يرزق ابنا ، ويسلب منه ، فيتعلل بالحسن والحسين ، فيخبر بما سيجري عليهم ، ويسكن بالطبع إلى عائشة رضي الله عنها ، فيُنْعَصِّ عيشه بقذفها ، ويوالى إظهار دلائل نبوته ، فيقام في وجهه مسلمة والعنسى وابن صياد . وينشر لواء الأمانة والصدق فيقال : كذاب ساحر ، ثم يعلقه المرض الشديد وهو ساكن ساكت . فإن أخبر بحاله فلِمَلْمَ الصبر . ثم يشد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريف وهو مضجع في كسام ملبد وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليتئذ ! ! . كما فاق في صبره جميع من سبقه من الأنبياء : فهذا نوع عليه السلام يضج مما لاقى ، فيصبح من كمد وجده : (لا تذر)

عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا) ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول :

(اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ، وهذا الكلام موسى صلى الله عليه وسلم يستغيث على القدر عند عبادة قومه العجل : (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) وعيسى صلى الله عليه وسلم يقول : (إن صرفت الموت عن أحد فاصفره عنى) ، ونبينا صلى الله عليه وسلم يخير بين البقاء والموت ، فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى . وهذا سليمان صلى الله عليه وسلم يقول : (هَبْ لِي مُمْكَنًا)

ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : « اللَّهُمَّ اجْعِلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا » هذا فعل من عرف الوجود والوجود ، فماتت أغراضه ، وسكنت اعتراضاته ، فصار هو اه فيها يجري . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

الرضا وجمال العالم :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كأن عين السخط تبدى المساوايا قرن الله تعالى الفرح بالرضا ، كاقرن الغم بالسخط : فالراضي يرى في كل ما تقع عليه عينه باعثاً لسروره وسيباً لسعادته ، إذا نظر إلى الشيء بصره عن كل قبيح فيه كليل ، وإلى كل حسن حديد ، بل الناحية القبيحة عنده مليحة وليس ذلك عن به أو جنون أو سوء تقدير ، ولكنه الرضا يستوى عنده قبح الأشياء وحسنها ، كما تستوى عنده الصحة والمرض والغنى والفقير والسراء والضراء والشدة والرخاء والراحة والعناء : ومعنى تساوى هذه الأمور عنده أنه لا يبالى على أيها كانت حالته ، فهو في غبطة دائمة ، وسعادة مقيمة والساخط بضد ذلك : نظره حسير عن كل حسن ، حديد إلى كل قبيح ، بل الناحية المليحة عنده جد قبيحة ، لاتراه إلا متبرما ، ولا يقع نظرك عليه إلا ساخطاً : سواء في ذلك غناه وفقره ، ومرضه وصحته ، وعنته وراحته . فهو في هم دائم وشقائه ملازم .

ولسنا الآن بقصد السخط والساخطين ؛ لأن السخط من أسباب الشقاء ، ونحن الآن تكلم في أسباب السعادة التي من أعظمها وأهمها الرضا :

الرضا يجعل كل منظر من مناظر هذا العالم سيما من أسباب الابتهاج والغبطة والسعادة : فاشراق الشمس مشهد عجيب ، يغرى بامتناع النظر به ، وكذلك الغروب : منظر يأخذ بمجامع القلوب ، وصحو السماء يدعوك إلى التأمل والابتهاج ، وكذلك تلبدها بالغيوم ونزول الأمطار ، وهكذا قل في مناظر القمر وضوئه الفضي اللطيف : في منظر الأفق المترامي الأطراف ، والسماء الضاحكة ، والكتواكب المتلاiate ، وما في القبة الزرقاء من المناظر المتنوعة

والشاهد المختلفة المبتدةعة - كل ذلك يقيد الأنظار ، ويجلب المسرة ، ويدعو إلى الفكرة والعبرة . بل مهما اختلفت مراتب الناس في الأذواق والمعرفة ، ومهما تباينت ميولهم ومشاربهم وأفكارهم - فإن مرأى السماء يؤثر في نفوسيهم أثرا خفيف الروح لطيف الواقع ، يحدوهم إلى السرور والإعجاب والتأمل .

إن الإنسان يعجب بما تحمله يد الصناعة الراقية والفن الجميل ، فكيف لا يعجب بما يدل على الإبداع والإعجاز ؟ إنه يعجب بما ترسمه اليدين المناظر ، ويلونه الذوق السليم بالألوان التي تقربه من صور الحقائق ، فعجب بالإير تاح نظره إلى ما في العالم من المناظر الصادقة والجمالية الثابت .

من الدهشة أنه ليس بين كل من نبغوا من المصورين ، وبين كل ذوى الموهبة والقدرة من يستطيع حماكاة الخلقة في إحكام الصنع وإبداع المصنوع ، بل وليس منهم من يدانى الحقيقة عند نسخ صورها عن لوحة الكون ومناظرها الفتاتة .

إن الإنسان يكبر ما يراه من الهندسة العجيبة والبنيات الفخمة ونسقها الشائق ، ويعظم شأن المنسق الماهر ، وينسب إليه القدرة والنوع ، يشعر معهما نحوه بالجلال . ومن الواضح أن ما في الكون من النظام المحكم والنمسق البديع عمل القدرة والحكمة الإلهية ، وكله يشير إلى قصور الإنسان مما ارتقى ، وإلى عظم القدرة الإلهية في التكوين والإبداع ، فلا مكان للموازنة بين رافع السماء وباسط الأرض ، وبين منشئ القصور ومزخرف البناء ، وليس هناك تناسب في الأحكام بين نظام الأكون والأفلاك وحركة السيارات مثلا ، وبين نظام الآلات الميكانيكية وحركة الطواحين ! ألا إن الله وحده العظمة والقدرة ، ولهم انفراد بالإبداع والخلق . فتبارك الله أحسن الخالقين . وكم يشعر المرء بعظمي الحبور في مرأى البحار المضطربة أو الساكنة ، وفي مشاهد الجبال والآسيات ، والقمم الشاهقات ، والوديان والوهاد ، والمرتفعات والأنجاد ، والسهل والصعب ، والحزن والوعر ، والأشجار المورقة ، والأزهار

الموئنة ذات الروائح العطرة التي إذا تضوّعت انعشت الإنسان ، وطيبة ما يستنشقه من هواء .

وما أطن سروراً يشمل النفس ويؤثر فيها الأثر الجميل يعادل سرورها بالزهر ومرأه ، وشمها وتعن تركيه بفان الزهرة الواحدة التي تنظرها العين ، فلا يستوقفها منظرها الرائع - فيها من الأسرار والبدائع ومدهشات الصناعة ما لا يتصوره العقل ، أو يحصيه العلم . وإن الوردة النذابة التي تلقىها اليد إلى الأرض ، فتهدم تركيبيها ، وتبدأ أوراقها - فيها من دقة النظام ، وإحكام التركيب ، وإتقان الصناعة والإبداع ما ليس في جسم الإنسان نفسه على معرف من نظامه وإحكامه ، وفيها من الشعور الرقيق والحس ما ليس لـ إنسان مثله ، ولا يتفق إلا للنادر من أنواع الحيوان .

الحس ينكر ما لا يتحقق بالرؤيا أو اللمس ، ولكن العلم وقف على هذه الأسرار الدقيقة ، فكشف للعقل ما غابت عنها معرفته ، وتعذر عليها إدراكه ، فأثبتت تمتع النبات بالشعور والحركة والحياة ، حتى بالإدراك : انظر إلى الزهرة إذا وجدت بين ضوءين ترها تتحوّل إلى ناحية الأشد منها حرارة وسطوعاً . وما حصل هذا اعتبرطاً ، وإنما تدخل منه شيئاً من الحرارة تنتفع به وقت الحاجة . وهذا وحده دليل محس على وجود الحياة والشعور والإدراك ، بل والحس أيضاً . وقد حضر إلى مصر منذ عدة سنوات فيلسوف هندي كبير أقام عدة تجارب في الجمعية الجغرافية تؤيد ما تقدم . فما أبدع الأزهار ، وما أجمل ألوانها الزاهية ، وروائحها الزكية ، وما ألطف تأثيرها في نفس الإنسان ! إنها بما لها من المنظر الفتان ، والثوب الزاهي ، والنضاره الأخاذة ، وبما لها من الوداعة واللطف ، حتى في ذبولها - بما لها من كل ذلك تحرك العواطف ، وتهز النفس حرّكات وهزات تبعث على الانسراح والسرور .

كذلك يشعر الإنسان بكثير من الغبطة في تأمله عالم الحيوان : فاللذة

التي تشعر بها النفس من مشاهدة صوره واجتلاه حفائقه لا تكون مقصورة على علماء هذا النوع ، وإنما يشعر بها كل من تدفعه الرغبة ، ويبيعه على درس أحواها الشوق ، وحب الاطلاع . ولو عن الاِنسان بطالعة سفر مما كتب عن الكلب مثلاً ، وعما عرف عنه من الأُمانة وألِّا خلاص ، ومن تنبه الحواس فيه إلى درجة يصعب تصديقها ، ومن الغرائز التي تلصقه بالأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة - لو عن المرء بطالعة هذا لوجده شائقاً جميلاً ، يحقق رغبة النفس في الانشراح والنشاط ، والتعقل في الاطلاع والمعرفة ، بل ويحصل له سراً من أسرار الوجود ، وقوة من القوى التي أوجدتها الحكمة ، وسخرتها لنفع الاِنسان ، وتحقيق أسباب سروره وهناءه وكذلك مما يبعث السرور تأمل ذات الاِنسان وتكونها من مملكة تضارع تمام المضارعة المملكة الظاهرة في كل هيئاتها وفي جميع مراقبتها ، وكذلك مما يشرح الصدر ويدعو إلى الاِعجاب الوقوف على التغيير والتبدل الذي يعتري الاِنسان من طفولته إلى شيخوخته في جسمه وصفاته ، وقوة عقله وتهذيب نفسه إلى غير ذلك مما لا يشعر به في حينه

كل هذه المشاهد المتنوعة وغيرها مما لا يدخل تحت حصر توثيق النفس أثراً لطيفاً منعشأ وتنشط بالعقل إلى التصور البديع والخيال الراقى فينشرح القلب ، ويشعر بالراحة والسرور ، ويتعرف لذة الهناء التي ينشدها الاِنسان من غير طريقها

ذهب أفلاطون إلى أن استجلاء الجمال الرائع يضاعف قيمة الحياة ، وذهب آخر إلى أنه عزاء الروح وتسلية عن آلام سجننه في الجسد ، وقال الأستاذ المنفلوطى رحمة الله تعالى :

« اطلب السعادة في الحقول والغابات ، والسهول والجبال ، والأغراض والأشجار ، والأوراق والأثار ، والبحيرات والأنهار ، وفي منظر الشمس طالعة وغاربة ، والسحب مجتمعة ومترفرفة ، والطير غادية ورائحة ، والنجموم

ثابتة وسارية . واطلبها في تعهد حديقتك وتحيط جداوها ، وغرس أغراضها ، وتشذيب أشجارها ، وتنسيق أزهارها ، وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك إلى قم الجبال ، والحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي إصغائك في سكون الليل وهدوئه إلى خير المياه ، وصفير الرياح ، وحيف الأوراق ، وصرير الجنادب ، وتنقیق الصفادع . واطلبها في مودة الآخوان ، وصداقة الأصدقاء ، وإداء المعروف ، وتفریج كربة المکروب ، والأخذ بيد البائس المنکوب ؛ ففي كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف - جمال شریف طاهر يستوقف النظر ، ويستلزم الفكر ، ويستعرق الشعور ، ويحيي میت النفس والوجودان ، ويملاً فضاء الحياة هنا ورغمداً »

يقولون : إن الحياة مدرسة تجرب عمليّة آخر دروسها الموت . فإذا كان هذا حقيقة فلماذا لا يحرّب الإنسان اعتياد النظر إلى المرئيات لاستجلاء محسنهما بدل البحث عن عيوبها ؟ ولماذا لا ينزل إلى نفسه ليتعرفها ، بدلاً من أن ينشط إلى التعرف بمن يشكوا خبث نياتهم ، وقلة وفائهم ؟ إن تحقيق هذه الأمور ينهض الإنسان إلى حال جديدة تيسّر لها ال�ناة ، وتدنيه من السعادة .

والنفس التي تسكن إلى الحسن ترقّ عواطفها وتنتظر ، ويصلّى جوهرها صقلًا ، فتنفر من القبيح وتترفع عن الصغار ، وعن كل ما لا يتفق مع جوهرها الكريم ، وتكون حساسة إلى حد يكفل ارتقاء الفكر وسعة المدارك وسمو الخيال : فالشعر الذي يتم به انتعاش النفس وسرورها ليس في الحقيقة إلا من الصروح التي يشيدها الخيال ، وما هذه الصروح إلا لسكنى النفس وترويحها ، وتسليتها بالخيال عن الحقائق المؤلمة .

وكم في العالم من أنواع المحسنات والحسن غير ماذكر !! ، وكم بين المناظر والمستحدثات من آيات الجمال التي تجلو عن الصدور صدأ الهموم ، فتبعث

النفوس على الاتهاج عند تعرّفها ، فهل للإنسان أن يسكن إلى مناظر الحسن
ليرتاح إلى الحياة ، وإلى الرضا !! بالحال ؟

أسباب أخرى للسعادة يأتي ذكرها في بحوث الأخلاق العملية :

هذه الأسباب هي : العلم ، والعمل ، والعدالة ، والمحبة ، والصدقة ،
والأسرة ، والوطن ، والتعاون .

أسباب السعادة

في رأي الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل في كتابه : «الظفر بالسعادة»
السعادة نوعان رئيسان : أولهما مصدره الشعور ، والآخر مصدره
الفكر . وجميع الناس سواء في الأول ، وينفرد بالآخر طبقات المتعلمين
دون غيرهم . وعلى حرارة الشعور ، وقوه الميل إلى العمل - تتوقف السعادة
في كلتا الحالتين : فالهمجي الأسترالي الذي يطارد الأرانب البرية يشعر
بشئء من سعادته في حياته ؛ لقيامه بعمله هذا برغبة وحماسة عظيمتين ،
وكذلك الحال عند العالم (باتشينيلوجي) الذي يعمل على طرد الجراثيم
من خلال منظاره ؛ ليكون جو بحوثه صحيحاً .

ولقد يختلف الآقبال على العمل باختلاف طبائع الأشخاص وسيجاي لهم :
فمنهم من يزاوله بغير غرور ، ومنهم من يقدم عليه متواضعاً واثقاً من
نفسه ثقة لا تذهب به إلى حد الغرور :

فالذين يقومون بأعمالهم مغرورين لا يشعرون بسعادة ، حتى في أوقات
نجاحهم ؛ لأن غرورهم لا يجعل لهم من نجاحهم هذا وقعاً من المفاجأة الحسنة
الأثر ؛ إذ يضعون نفوسهم في مكانة أكبر مما تستحقه في الواقع ، فيصبح
نجاحهم - مهما عظم - شيئاً غير مذكور بالقياس إلى عقر ي THEM الفذة الملوهة ،
ويتأملون جد الألم إذا أخفقوا ؛ لأنهم يرون فيه حالة لاتتلاءم ، وما زعموه
في نفوسهم من كبير وغرور .

أما المتواضعون فإنهم يجدون في كل نجاح تصل إليه أيديهم هزة نفسية

جميلة الأثر من جراء تلك المفاجأة الجميلة عند نجاحهم.

وقوة الإقبال على الأعمال تنشأ من شدة الاهتمام وقوة اليقين اللذين يقابلان عدم المغalaة وضعف الإيمان : فأسباب السعادة بين شبان أوربة قليلة ؛ لضعف إيمانهم بعاليهم وبآدتهم ، على عكس ما نرى بين شبان روسيا ؛ إذ لا يزال ذلك الإيمان فيه قوياً . وما نسممه الآن من أن حياة العمال لتشابها قد سببت الناس شيئاً من تلك السعادة الناشئة عن اختلاف ألوان الحياة الزراعية ، وسلبيتهم لذلة الدقة في الأعمال اليدوية - كل هذا غير صحيح ؛ فلا نزال نرى عملاً يقومون بأعمال يدوية غالية في الدقة ، ولا تنس أن الحياة الزراعية تختلف في نفس المرء الاستسلام للقوى الكونية والرضا بقضاء الله وقدره ؛ لما يراه من التقلبات الجوية التي يتقلب لها عمله الزراعي .

أما الآلة فتبعد في النفس كبير الثقة بعدم تأثيرها بهذه الفواعل .

إن سر السعادة هو الإكثار في هذه الحياة من كل أمر يجذب النفس له ، ويرغبها فيه ، ويجعل الصلة بينه وبين المرء صلة حب وصداقه ، لاصلة بعض ولا نزع :

السبب الأول - مبلغ الشعور بلذة الحياة : تتخذ الحالات النفسية التي يتقدم

بها بعض الناس إلى تناول الطعام أساساً شرح مانعنه من تعبيرنا هذا :

أ - فن الناس من يقبل على الطعام إقباله على شيء لاذله له فيه ، مهما كان جيد الصنف والطهي ، وهؤلاء لم يجربوا الجوع ، ولم يحسوا بالحاج المعدة في طلب القوت إذا عسر الحصول عليه .

ب - ومنهم المرضى الذين يتناولون من الطعام المقدار المحدود وفقاً لأمر الطبيب .

ج - ومنهم الأيقوريون الذين يقبلون على الطعام بشغف ، فلا يكادون يصيرون شيئاً منه حتى يشروعوا في التبرم والنقد .

د - ومنهم النهمون الذين يقبلون عليه بشهه ، ولا يزالون يأكلون حتى يتخموا .

هـ - ومنهم أصحاب المعد السليمة والمزاج المعتدل ، يقبلون على الطعام ، ويأكلون بميل عظيم ، حتى إذا كثروا قاماً قانعين ، ورغبوا عن ملء معدتهم بالطعام . والإنسان السعيد يشبه تلك الطبقة الأخيرة من هؤلاء الآكلين ، وعلاقة الجوع عندهم بالطعام تشبه تماماً علاقة الشعور بلذة الحياة .

إن أسباب سعادة المرء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأسباب جاذبية الحياة ، وكلما زادت وسائل تلك الجاذبية زادت وسائل السعادة وأسبابها ، وخلص من أسباب الانقضاض والتواكل : فالماء الذي يجده في كثير من شئون حياته المختلفة ما يجذب نفسه لا يجذب الانقضاض والتواكل إليه سبيلاً ، وكل إنسان لهذا المرء له في كل شيء أمامه سبب من أسباب المتعة والسرور .

إن عقل الإنسان آلة ثمينة حقاً ، تتناول المواد الأولية من العالم الخارجي ، ثم تحيلها لذة للنفس ، ولا تصلح للعمل إلا بتلك المواد : فالذين يُشغّلون بأنفسهم عن العالم الخارجي وما فيه ، يعطّلون عقولهم ، ويحرمونها المواد الالزمة للعمل ، فتصدأ شر صداً .

ولكن مasicيل العقل إلى جاذبية الحياة ؟ وما سببه إلى المواد الصالحة للإنتاج ؟ ذلك هو إقباله بقوّة على الحياة . وقد ان تلك القوّة في حياة الفرد يرجع إلى القيود الثقيلة التي تفرضها عليه نظم الحياة المدنية .

إن الهمجي يهم بصيد ما يقتات به تلبية لنداء الجوع الذي شعر به ودفعه إلى العمل ، والإنسان المتحضر لا يقوم بالحصول على القوت إيجابة لداعي الجوع المباشر : فأنت مثلاً لا تذهب إلى عملك أو مكتبك ؛ لأنك جائع ، بل تتضمن قوتك ، وفي هذا فرق عظيم بين باعث المتحضر وباعت الهمجي .

الثاني - العطف : من أهم ما يجعل الإنسان فقيراً إلى قوة الحياة شعوره

بأنه غير محظوظ ، يقابل ذلك أن شعوره بأنه محظوظ يذكي فيه قوة الحياة وحماستها .

وأسباب شعور المرء بأنه غير محظوظ كثيرة ، والذى يشعر بذلك يتوجه

في حياته اتجاهات كثيرة متنوعة ، هي نتيجة مباشرة لذلك الشعور : فقد يجهد نفسه في إرضاء غيره واكتساب عطفه ، فيسوء بالأخفاق المؤلم؛ وذلك لأن الإنسان بطبيعته ميل إلى عدم العطف على من يستجدى عطفه ، ولأن المرأة الذي يجهد نفسه في اكتساب عطف الناس يسيئه أقل جحود يناله منهم ، وقد يحمله الشعور بكراهتهم له على الانتقام منهم ، فيتشعل نار الثورة ، أو يقيم الحروب ، أو يلتجأ إلى قلمه ، فيما لا أسماع التاريخ أساليب التحكم والسخرية بهم ، غير أن القادرين على هذه الألوان من الانتقام قليلون .

ومعظم الذين يتولّهم الشعور ببعض الناس لهم منعزلون في أنفسهم ، مشغولون عن العالم وما فيه ، مقيدون داخل نفوسهم في جو من التشاؤم والسطح ، وشعورهم بحاجتهم إلى عطف غيرهم المحروم منه يولد فيهم القلق وعدم الاطمئنان في حياتهم ، فيحرمون المرأة والإقدام حرماناً يسبب لهم الأخفاق في كل ما يعملون ؛ فالعطف المتبادل من أقوى العوامل التي تقوم عليها المرأة والإقدام . وإنزيد المسألة وضوها نستعمل كلمة إعجاب مكان كلمة عطف ونقول :

جميع الذين يظرون في الحياة من رجال السياسة والصحافة وغيرهم تظل حمية الحياة قوية فيهم مادام إعجاب الجمهور بهم قوياً ، ولاعنى بالعطف ذلك العطف الشائن الذي تغمر به الأمهات أولادهن فينشئون على الاعتقاد بأن عالم عطف أمها هم عالمهم الذي لا حياة لهم في جو غير جوه ، فانخرجوه منه ضاعوا في لجج الحياة ، فليعرف الوالدان ذلك ، وليعذروا كثيراً بموضع العطف والإعجاب ، ومتى وكيف يعجبون أو يعطفون !!

الثالث - الأسرة : هي أكثر مخلفات الإنسانية اضطراباً ، وأمسها إلى

الإصلاح والتنظيم ، وهذا الشعور المتبادل بين الآباء وأبنائهم ، والذي هو أغزر مصادر السعادة - يجف معينه شيئاً فشيئاً . وعجز الأسرة عن توفير

أسباب السعادة للمرء سبب بعيد الأثر في اضطراب العصر وقلقه الدائم ، وشقاء الأسرةاليوم يرجع إلى عوامل نفسية ، واقتصادية واجتماعية ، وغيرها مما لا يتسع ذلك البحث له ، ولكن نكتفي بشيء يسير فنقول : نفور المرأة من مسؤولية الأسرة بين الجماعة الذين توافرت لديها أسباب الرزق يرجع إلى أمرين :

أولا - انفتاح ميدان العمل أمامها ، ومساواتها في ذلك بالرجل .

ثانيا - اشمئزاز المرأة العصرية من خدمة البيت . وهنالك مشكلة المسكن ؛ فإن ازدحام المدن بداع التجمع في المراكز الصناعية لم يمكن المرأة من مسكن يضمن لها حريتها ، فهو في مسكنه الضيق يحس بنقص في راحته . وكذلك فترة الانتقال ، وانتشار الديموقراطية - ضيّعت شعور الطاعة الماضية ، فاضطررت الرابطة بين الآباء وأبنائهم ، فأصبح كل منهم جاهلا بما يجب له وما يجب عليه ، فلا غرابة بعد هذا أن يقل التناسل في ذلك العصر كثيرة بداع الامتناع عن الزواج .

لا يمكن أن تدوم هذه المدينة إذا انقطع حبل التناسل ، واضطراب الاضطراب الحالى ، فكيف يتحاشى الناس أسباب الانقطاع ؟ يتحاشونه بمعالجة الأسرة وجعلها صالحة لبعث السعادة في نفوس الناس من طريق نظامها ، وإقامتها على أساس جديدة مشمرة .

إن غريزة الأمة والأبوة هي أقصى ما يبعث السعادة في النفس ، والذين لا يتذوقون تلك الغريزة تظل نفوسهم تحس نقصا لا تعرف سببه . وليسكون إلا إنسان سعيدا - ولا سيما بعد الشباب - لا بد أن يشعر أنه ليس بالفرد المنقطع الصلة بالحياة الدائمة ، والأولاد صلة الفرد بتلك الحياة : فإذا كان إلا إنسان غير متصل بالمستقبل بسبب أو نسب ظللت حياته جافة ، وظل مستقبلا شيئا لا خطره عنده ، فإذا ما اتصل بذلك المستقبل بطريق الأولاد امتدت أمامه أطراف السلوى ، كما تعزى إبراهيم عليه السلام حين علم أن

سلسلة سوف يملاً الأرض

الرابع - آل العمل من أسباب السعادة أو من أسباب الشقاء؟

كثير من الأعمال يضنى الجسم ، ويؤذى النفس ، ولكن من ذا الذي ينكر السعادة التي يحسها المرء في العمل المعقول المثمر ؟ إن غاية ما أمرته المدنية الحديثة من الإبداع هو كيف يشغل المرء أوقات فراغه بما يفيده . والترم الذي يحسه الرازح تحت أعباء العمل لا يعد شيئاً أمام الضمير الذي يحسه الرازح تحت أثقال الفراغ الذي لا يعرف كيف يستخدمه . والعمل طريق الإنسان إلى النجاح ، ومهمما خلامن أسباب الجاذبية فإنه يظل محتملاً مرغوباً فيه ، مادام هو طريق المرء إلى الشهرة ، وعلى ذلك فالغاية ودوساً السير في طريقها من ضروريات السعادة . وهناك عاملان رئيسان يجعلان العمل

جذاباً : هما المهارة والإنشاء :

كل إنسان يحذق عملاً يميل إلى الدأب على مارسته ، ويظهر هذا الميل في أيام الإنسان الأولى : فالولد الذي يحسن الوقوف على رأسه يميل إلى عدم الوقوف على رجليه ، والطيار الماهر في الألعاب البهلوانية يظهر من ضرورة مهارته ما يعرض حياته لخطر الموت ، ولكنه يشعر في ذلك بسعادة كبرى ، وكل الأعمال التي تتطلب المهارة تسبب سرور النفس للإنسان الماهر بشرط أن يكون ميدان المهارة متسعًا للتلوين والاختلاف الدائمين : فالمسابق الذي ينتصر في سباق مائة (ياردة) لا يشعر بالسرور وإن هو جمد عند هذا الحد ولم يسبق في شيء آخر ، ومن حسن الحظ أن الأعمال التي تحتاج إلى مهارة متنوعة أسباب التغيير والتبدل ، وهي مفتوحة الأبواب للإنسان حتى نهاية العمر : فالرجل لا ينضج في السياسة قبل الستين أو السبعين من العمر ، ولهذا كان السياسيون ورجال الأعمال والمشروعات العظيمة أسعدوا في شيخوختهم من يوم

في صباهم .

والإنشاء عنصر من عناصر السعادة، فمن الأعمال ما ينتهي بأثر دائم،
يعود في نفس منشئه أكبر العزاء.

ومن ألوان المهدم ما يبعث في النفس الراحة، ولكن هناك فرقاً بين شعور
المهدم وشعور الإنشاء: فالهدم ينتهي عند حد معلوم، في حين أن فكرة
الإنشاء لا تنتهي إلى حد معروف. وأغزر مصادر السعادة هي تلك التي تبعث
من عمل أسباب نجاحه غير محدودة: فرجال العلم ورجال الفن يعملون أعمالاً
تکثر لهم بطبعها، ولكن في الغالب نرى رجال الفن يميل بهم مزاجهم إلى
التشاؤم والشقاء، ولو لا ما يحسونه من عزاء في أعمالهم لاتحرر معظمهم، على
غير ما نرى في رجال العلم: فمعظمهم يسعدون بأعمالهم، وبطبيعة أمر جتهم -
وما ينقص رجال الفكر من أرباب القلم هذا العصر راجع إلى شعورهم أنهم
مستعبدون للصحافة التجارية التي يديرها أصحاب الأموال، فهم يشعرون
أنهم يسيئون إلى أفلامهم وأنفسهم بما يكتبون، ولكنهم مضطرون إلى
ذلك، وإلا ما توا جوعاً. والإنسان الذي يشعر أنه يحتقر نفسه تستحيل
عليه السعادة.

الخامس - الجهاد - ليست السعادة منحة، إلا في أحوال نادرة، ولكنها

حق مكتسب :

كل امرئ يحتاج إلى الجهاد، وهذه الحقيقة ثابتة في الغرب أكثر منها
في الشرق، وخاصة فإن جو الغرب يجعل العمل أحب إلى النفس من الكسل،
وعلى هذا فالتسليم في الغرب لا يؤدي إلى أية سعادة، ومعظم الناس في الغرب
يحتاجون في الحصول على سعادتهم إلى شيء أكثر من القوت الضروري؛ لأن
النجاح عندهم أهم عوامل السعادة، غير أن هذا النجاح يقاس اليوم بمقاييس
مادي، هو مبلغ ما يربحه المرء من أعماله. ولما كانت الأرباح تتفاوت في مقدارها
ووسائلها فالغرب مضطر إلى شيء من التسليم في تقدير مراتب النجاح، وسعادة
الزواج تتعلق بالزوجين، ولكن ما قولك في هذا العصر الذي اتسعت فيه

حرية الفرد ، واضطربت نسبة الرجال إلى النساء ، فكل من الجنسين في إنجلترا يعلن عن نفسه أنه زاد عن الآخر . ولذلك فهذا السبيل في حاجة إلى شيء من التسليم ، والعناية بالأولاد والجهاد في سبيلهم له خطره : فالغرب يجاهد في سبيل قوت الأولاد ، والمحافظة على صحتهم ، وتربيتهم وتعليمهم ، و توفير أسباب السعادة لهم في حياتهم ، ولكن في الشرق العناية بالأولاد قليلة ، ولذلك كانت نسبة الوفيات عندهم عالية جداً .

وفي الإنسان ميل إلى طلب القوة ، وهذه تختلف أشكالها وألوانها : فمن الناس من ينشد النفوذ والسلطان على عقول غيره أو نفوسهم ، أو يطلب ذلك لتعديل نظم الاجتماع إلى غير ذلك ، وكل هذا يحتاج إلى الجهد . والغرض من ذلك أن الإنسان الذي لا يطلب القوة في الحياة هو الإنسان الذي لا يشعر بأية مسؤولية تُحب عليه للإنسانية ، ولعل في هذا التقدير خير ما أستطيع توجيهه من النقد لِأقبال الغرب على ما يسمونه : «حكمة الشرق» في حين أن الشرق نفسه قد رغب عن هذه الحكمة نفسها (١) .

ال السادس - التسلیم : للتسلیم شأن في تحصیل السعادۃ . . . ومن الناس من يضطربون لأقل عثرة ، فعلى هؤلاء أن يوفروا قواهم النفسية ، ولا يسرفو في بعثرتها عند كل صدمة في العمل . والصدق في العمل لا يتعادل مع اندفاع العاطفة نحوه ، بل كثیراً ماتكون شدتها مما يعرقل حدق الإنسان ومهارته ، والأديان تنصح بالخضوع لارادة الله ، وليس من شك في أن الإنسان مضطرب إلى أن يستسلم إلى شيء من هذا القبيل في كل أفعاله وما يتغنى به ، وعلى المرء أن يعمل أقصى جهده ، ثم يسلم الأمور بعد ذلك لمدير الكون ، والتسلیم

(١) يظهر من كلام «رسُل» أنه لم يدرس الحكمة الشرقية دراسة مكنته من فهمها؛ فليست تدعوا إلى الحمود والجمود كاففهم، وكما يفهم أمثاله من فلاسفة الغربين الذين يكتفون بالقصور عن الباب، بل هي تتحت على العمل لسعادة الدارين. والشقاء الذي حل بالشرق يرجع إلى إهماله لهذا التراث العلمي الخلقي العظيم !

نوعان : نوع يتصل أكبر الاتصال باليأس ، ونوع يتصل بالأمل الذي لا يقهر : فالذين يندحرون اندحارا يفقدون كل أمل في الأعمال العظيمة يلجهون إلى تسليم اليأس ، ويشعرون أنفسهم بترديد عبارات السلوب ، ولكن نفوسهم تظل غير سعيدة ، وأصحاب الأمل الذي لا يقهر مهما أصابوهم من خيبة يظلون سعداء :

وذلك لأن الأمل العظيم هو الذي يتعدى حدود الشخص ، ويمتد إلى حدود الإنسانية جموعها ، والعالم مهما خاب في مساعيه العلمية لا يشقى ؛ لأن أمله غير شخصي ، وإنما هو أمل السعي في سبيل الحقائق العلمية ، ومثل هذه الحالات لا دخل للتسليم فيها ، وإن صرحت شئ منه فهو تسليم الأمل ، والذين يفزعون لـ كل شيء يجب أن يتعلموا شيئاً من سببية تسليم الأمل فتبعث إلى نفوسهم بشيء من الراحة والهدوء .

السعيد :

يستمد الإنسان سعادته من مصادرتين : عالمه الداخلي ، وعالمه الخارجي . وقد دار بحثنا بوجه عام على اختصاص العالم الداخلي بسعادة الإنسان ، وإذا توافرت لهـ أسباب القوت والسكن ، والصحة والنجاح في الأعمال ، واحترام بيته له - فليس ما يقول بيته وبين السعادة إلا مرض نفسي يجب معالجته بالطرق التحليلية النفسية الحديثة ، وإذا كانت ظروف العالم الخارجي ليست تعسـة تعـسا شاملـاً فليس ما يعني الإنسان أن يكون سعيداً ، وعلى ذلك فالتعليم يجب أن يرمي إلى التوفيق بين عالم الإنسان الداخلي وعالمه الخارجي . إن الإنسان السعيد هو الذي يحيا للعالم لا لنفسه ، ويجد في كل شيء من أشياء العالم سبيلاً من أسباب المتعة ، ويشعر في ذاته أنه هو نفسه ممتدة لغيره وسبـة له . ولعلـي لا أتهم بالتحامل حين أنـكر على بعض علماء الأخلاق إسرـافـهم في الكلام على نـكـران الذـات حتى أصبحـ بمـوجبـ

التعاليم الخلقية المعروفة أكبر سبب من أسباب الاستغلال بالنفس ، وحين أنكر عليهم أيضاً القول بأن الحب يجب أن يكون بعيداً عن المصلحة الشخصية ، فما قولك في أن تدعو سيدة إلى الزواج منك ؟ لأنك تريد إسعادها وشقاءك !! الحق أن شخصية الفرد جزء من الشخصية الإنسانية العامة : مصلحة المجتمع لا تعنى إنكار مصلحة الفرد ؛ لأن الفرد والمجموع شيء واحد ، وسعادة الإنسان في هذا التوافق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، وفي المساواة بين عقل الإنسان الظاهر وعقله الباطن ، والإنسان السعيد هو الذي لا يشعر بأى تناقض بينه بوصفه فرداً ، وبين غيره بوصفه مجموعاً ؛ لأن الفرد والمجموع وحدة لا تتجزأ إلا للشقاء وضياع السعادة .

أسباب الشقاء



خطأ العقل وفساد حكمه

قد يخطئ العقل في تقدير السعادة ، أو في السبيل الموصل إليها ، أو في طول ذلك السبيل وقصره ، وما يعترضه من عقبات وعواقب : فقد يقدر العقل أن السعادة كل السعادة في أمر معين فيحفر صاحبه على أن يجد ويكتد ، ويجالد العقبات التي تعترضه في سبيله إلى ماضن فيه السعادة ، ويغالب العواقب التي تترجم في أثناء سلوكه إلى مبتغاه ، ثم لا يزال كذلك في عناء وشقاء حتى تتجلّى له الحقيقة المؤلمة من أن ماسعي إليه لم يكن إلا سراباً خداعاً حسبيه عقله الواهم سعادة ، وما هو من السعادة في شيء ، بل بينه وبين السعادة التي ينشدها ما بين السراب والماء ، أو ما بين الثرى والثريا ، أو على الأقل ما بين الحقيقة والخيال من الملاصقة والقرب . هنا لا يتصفح له أنه أفق العمر في طلب مالا ينال ولا يدرك ، فيسقط في يده ، ويناله من الشقاء والحزن أضعاف ما كان يريد أن يناله من السعادة الملوهومة ؛ إذ ليس أصعب على النفس من

الاندحار عند الانتصار ومن الخيبة في مقام الفوز ، وأصعب منهما عليها أن تقضي الحياة في طلب السعادة ، فتضيع الحياة ولا تنال السعادة .

ومن الناس من يقصد إليها من طريق يختاره بعد طول الإمعان والتفكير ، فيقطع فيه شوطاً طويلاً ، ثم يلوح له أنه على غير الدرب ، فيعود أدراجه ، ويختار سبيلاً آخر ، وقد يبدو له بعد أن يبلغ فيه شأواً بعيداً ما بذاته فيما سبقه من السبيل التي حاد عنها ، أو تنتهي حياته قبل أن ينتهي إلى آخره .

يقولون : إن الشقاء يطرد مع تقدم العمران والمدنية ومع توافر أسباب الهداء ، ويركدون أنه يتضاعف مع كر الأيام وتواتي الحقب . أفلًا يكون مرد هذا أن حركة سير العالم إلى غير وجهة السعادة ، أو أنه سائر نحوها إلا أنه لم يدن من أفقها ؟

هذا ما يجب أن يتناوله البحث ؛ فإن من المؤلم أن تلقى النفوس الخيبة واليأس عند نهاية شوطها في الحياة بدلاً من السعادة التي تتوق وتتجدد إليها . ومن الناس من يتحقق الغاية ويعرف سبيلها ، ولكن البعد الذي يحول دونها كثیر العقبات جمـ الحوائل ، لايسهل على الإنسان اجتيازه ، ولا الدنو من نهايته . وكم من طامع في الوصول إلى هذه الغاية تألم من بعدها ومن طول المزار ، فأعيته الحيلة ، ولم يبلغ مقصدـ إليه . وهذا هو حظ الكثـيرين ، ويقلـ بل يندرـ بلوغـ الإنسانـ إلىـ الحـدـ الذـيـ يـظـنـ عنـدهـ السـعادـةـ

منـ مثلـ هذهـ الحالـ وـ ماـ تـقـدـمـ هـاـ ، وـ مـنـ خـيـةـ الـآـمـالـ ، وـ عـدـمـ نـيـلـ الـآـمـانـ .

تـكـثـيرـ الـأـنـاتـ ، وـ تـتوـالـيـ الزـفـراتـ ، وـ يـسـمـعـ الـإـنـسـانـ منـ كـلـ جـوـانـبـ الـأـرـضـ الـدـائـرـةـ صـدـىـ الشـقـاءـ وـ التـعـسـ ، فـيـوـثـرـانـ فـيـ نـفـسـهـ أـثـرـهـماـ المشـجـيـ ، وـ مـاـ خـفـ منـ الـأـحـزـانـ أـعـظـمـ ، وـ مـاـ اـسـتـرـ فـيـ الصـدـورـ أـنـكـيـ ؟ـ إـذـ أـعـظـمـ الـحـزـنـ ماـ تـجـمـدـ مـعـهـ العـيـنـ ، وـ أـبـلـغـ الـأـلـمـ مـاـ لـيـ يـقـوـيـ مـعـهـ المـرـءـ عـلـيـ إـظـهـارـهـ .

يـسـتـبـطـ مـنـ ذـلـكـ كـلـهـ أـنـ ضـرـوبـ الشـقـاءـ مـنـ خـطاـ العـقـلـ وـ فـسـادـ حـكـمهـ :

فـكـلـ مـاـ تـقـعـ عـلـيـهـ العـيـنـ مـنـ أـسـبـابـ السـعـادـةـ وـ الشـقـاءـ بـحـسـبـ تـقـدـيرـ العـقـلـ ،

وقد يخطئ هذا، وقد يصيب في حكمه . فلو عرف الإنسان حقيقة ذاته ، وما تحتاج إليه ، وحقيقة السعادة وأسبابها - لقصر بحثه على الأسباب التي تتفق وحاجة النفس ، وتوءد إلى سعادتها ، ولتكن العقل من تقدير حقيقة الأشياء بصورة صحيحة ، فيكون ماراً به سبباً للسعادة وهو صلاً إليه على الحقيقة .

٣

عرفنا مما سبق أن الأفكار تختلف باختلاف النظر والغاية : فلن ينظر في
شيء بقصد إظهار عيوبه لا تبحث عن غير العيوب ، بل لا تبصر سواها ،
بخلاف من يتأمل الشيء بقصد المدح ؛ فإنه يوجه نظره إلى كل المحسنات التي فيه ،
ويقتصره على ذلك . وبسبب هذا الاختلاف في النظر وفي الغاية يختلف حكم
الناظرين : فلن يدخل حديقة غناة في فصل الربيع - فصل حياة الأزهار - للاجتلاء
محاسن الحديقة ، وإنما يدخلها للبحث عما استتر فيها من العيوب - لا يصعب عليه
أن يجد بين الأزهار العطرة المفتوحة إلا كمام وردة لفتحتها حرارة الشمس فذابت ،
وأخرى تفجرت منها ينابيع الحياة تفجرًا ، فانفرطت أوراقها وتهدمت بنياتها .
ولا يتعذر عليه أن يرى بين الزنابق النضرة زهرة وفقت نحلة
بين جفونيها تمتص منها ماء الحياة ، وما أكثر ما يجد من شقوق التل في سيقان
الشجيرات والأشجار ، ومن البعض على الأوراق الخضراء تفسد نضرتها
وتودي بيهجتها !! كل هذابيراه الباحث ، ولا ينكر وجوده أحد ، ولا يستطيع
منعه إنسان ، وإن كان من العيوب التي لا تتفق مع كمال الحسن ، ولكن
الواقع أن هذه العيوب مع وجودها لم تمح محاسن الحديقة ، ولم تقلل من
بهاء منظرها ، ولم تحمل دون تأثير رونقها الجذاب ، إلا في نظر الذى قصر
بحشه عليها : فالناس ينتعشون ويبيتهم جون بمحاسن الحديقة وجمالها ، والآخر
يتأمل ويحزن من مساوتها وعيوبها .

وليست الحياة إلا على هذا المثال : تمثل لمن ينعم النظر فيها على مثال الصورة التي يريد أن يصور الحياة على شكلها ، وتنوع في نظره مناظرها باختلاف المسافات التي يطل عليها منها ، وباختلاف الغاية التي يريد النظر إليها من أجلها والأوقات التي يختارها لرؤيتها فيها ، كما يختلف منظر الحقيقة باختلاف الفصول : فبينما نجد إنساناً ينظر إلى الخليقة نظر المظلوم إلى الظالم نرى الآخر يشكر الله تعالى على رحمته ، ونرى واحداً يشكو من ظلام الليل وطوله ، وثانياً يقول : « يالليل طل » ويلتذ من منظره الرهيب وثوبه الحالك ، ويرتاح إلى سكونه الشامل . فالحقيقة والليل لا يتبدلان ، ولكن آراء الناس عندهما قد اختلفت بسبب اختلاف نوع النظر والغاية منه .

ومن يكون أمامه الحسن والقبيح ويختار الثاني ، ثم يشكو قبح ما أخذ ، ويندب حظه - فهو أحمق . وليس أدنى إلى هذا المثال من حقيقة حال الإنسان في الحياة : أمامه وجوهها المتنوعة ، وصورها كثيرة الحسنة منها والقبيحة ، ثم لا يختار منها ما يتفق مع رغبته ، ويعيث في نفسه الرضا والإغبطة ، بل يقصر نظره على ما يراه غاية في القبح ، ثم يشكو من قبح الحياة وشناعتها ، وسوء حظه فيها وانقضاض صدره وسأمته . وهو لو ميز بين الحسن والقبيح واختار النظر إلى الأول لأنعش نفسه ، ولبعثها على الإغبطة والهناء .

٣

التطرف أو الشذوذ

إن شذوذ أفكار بعض الناس يؤثر في غيرهم وفي الجماعات البشرية تأثيراً سيئاً يبقى طويلاً ، وينتقل بالعدوى والوراثة . ولما كانت مصادر شقاء النوع الإنساني كثيرة متفاوتة كان التطرف أو الشذوذ في المرتبة الأولى منها ، وكانت الشكلية منه عظيمة دائمة . إن من يكون دليلاً قافلاً تجاهل الطريق قد يصل بها إلى وجهتها ، أو يضل الطريق ، فتضلل معه ، وتهلك جميعها . ومن

بين من يتصدرون للكتابه والفلسفة كثيرون شأنهم مع الناس شأن الدليل الذي يضل الطريق ، فينفسون في العقول ما يعقمها ، وفي الأفكار ما يطيشها عن بهجة الحياة ، كأنما قضى على ذلك النفر ألا يروا من الأحوال إلا مافيها من أسباب التensus وانقباض الصدر ، وما يدعون إلى التذمر والسنخط على العيش ، فيطبعون الأفكار على مثالهم ، وينغصون على الناس الحياة . الاستيء من الحياة عام إلا أنه في الحقيقة ناشيء من تأثير الأفكار الشادة في العقول ، ولو لاها ما وصل السنخط إلى حد تشويه الحسن وعدم الرضا به ، والناس يقبلون الآراء المتعطرة أو الشادة : إما لاتفاقها مع ما يرون ، وإما للشقة بأصلة رأى الكاتب أو الحكم . والفاليسوف لا يرى الحقيقة دائمًا بل يكون مایراً ويعكم به مثالاً للصورة التي يتمثلها فكره عند تأثير نفسه بعوامل الحياة المؤثرة فيها .

ولو كانت آراء المستاءين جمیعاً مرتكزة على أسباب واحدة لكانـت متـحدـة في جـواـهـرـهـا ، لـكـنـهاـ تـخـتـلـفـ باختـلـافـ العـوـاـمـلـ المؤـثـرـةـ فيـ نـفـسـ كـلـ مـفـكـرـ ، ولـذـلـكـ لاـ تـمـاثـلـ ، وـكـثـيرـاـ ماـ تـنـاقـضـ : إـنـ العـيـنـ المـتـأـثـرـ لـاـ تـبـصـرـ الأـشـيـاءـ عـلـىـ صـورـهـاـ الصـحـيـحةـ ، بلـ بـعـيـدةـ عـنـ الحـقـيقـةـ بـعـدـ العـنـ عـنـ حـالـهـاـ الـطـبـعـيـةـ . فـكـلـ أـوـلـئـكـ الـذـيـنـ نـقـرـأـ كـتـابـاتـهـمـ ، وـنـطـبـعـ فـيـ عـقـولـنـاـ صـورـآـرـأـيـهــ ماـ نـظـرـواـ إـلـىـ الـحـيـاةـ إـلـاـ بـعـيـونـ حـوـلـاءـ ، وـهـمـ مـتـأـثـرـونـ بـعـوـاـمـلـ عـارـضـةـ أـثـرـتـ فـيـ أـفـكـارـهـمـ ، فـصـورـ كـلـ مـنـهـمـ الـحـيـاةـ عـلـىـ مـاـ تـمـثـلـهـاـ فـيـ تـلـكـ الـلحـظـةـ ، لـاعـلـىـ صـورـهـاـ الـحـقـيقـيـةـ وـشـكـلـهـاـ الـبـهـيجـ . وـلـكـنـ النـاسـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ القـوـلـ كـأـنـهـ الـحـقـيقـةـ وـلـاـ يـعـنـونـ بـالـبـوـاعـثـ عـلـىـ النـطـقـ بـهـ ، فـيـؤـثـرـ فـيـهـمـ ، وـيـمـتـزـجـ بـأـفـكـارـهـمـ ، شـمـ يـبـرـزـ مـنـهـاـ كـأـنـهـ حـكـمـهـاـ الـخـاصـ ، فـيـؤـيدـوـنـ بـهـاـشـاؤـاـ مـنـ الـأـدـلـةـ ، وـلـاـ يـرـجـعـونـ عـنـهـ وـلـوـ ظـهـرـ خـطـؤـهـ

كلـ ماـ يـلـقـىـ فـيـ الـمـاءـ النـقـىـ مـنـ الـمـوـادـ الـعـكـرـةـ يـعـكـرـ وـيـمـنـعـ صـفـاءـهـ ، كذلكـ ماـ يـحـسـرـ فـيـ الـفـكـرـ مـنـ الـآـرـاءـ الـفـاسـدـةـ يـعـكـرـ صـفـاءـ الـنـفـسـ ، وـيـمـنـعـهاـ

اجتلاه جمال الحياة وبهجة العيش ، ويحزنها الفكر بتصوراته المشبوبة ، ويقتل لها الموت في كل لحظة ، وسيفه مسلولا على الرأس ، والقبر مفتوحا على مصراعيه ، وهو امه وحشراته تدب على الأرض جشعة متربصة لاتهام الجسد ، فتنفر النفس من الحياة ، وتتألم من الوجود ، ويلازمها الخنول ، ويضعفها اليأس . ولما كان الاستياء ناشئاً في الغالب من تأثير الآراء الفاسدة في فكر الإنسان وفي نفسه - كان اطراح هذه الآراء حائلا دون تأثيرها وداعياً إلى اجتلاه جمال العالم وأسباب الغبطة .

أسباب الشقاء

في نظر (برتراند رسل) الفيلسوف الانجليزي في كتابه : «الظفر بالسعادة»

الأول — الأثرة : الاشتغال بالنفس ، وحصر الإنسان إياها في دائرة ذاتيته - يفسد جو الحياة : كالمصابح حين تضنه في غرفة ثم تغلق نوافذها ؛ فإنه يفسد الهواء . والمشتغل بنفسه يجد في أقل صدمة يصطدم بها في حياته طعنة مقصودة موجهة إليه من القدر المشتغل عن العالم بمحاربة هذا الفرد الواهم . وفي هذا الاعتقاد الخاطئ كثير من أسباب الشقاء . وأول خطوة في سبيل سعادة المرء هي خروجه من سجن ذاته ، واهتمامه بالحياة العامة للجماعة .

حقاً إن الاهتمام بالجماعة لا يخلو من عثرات للفرد ، ولكن ليس بهذه العثرات في النفس الأثر الذي لها في نفس المشتغل بذاته : فعثرة الرجل المهمم بسعادة المجموع لا تقصد عليه حرارة نفسه ، كما تقصد أقل صدمة حرارة نفس المشتغل بذاته : فالحرب العالمية مثلاً لا تعرقل حرارة حياة المرء الخاصة ، كما يعرقلها فكر ضئيل يطرأ عليه بمحاجة من سلطان أثرته ، واحتلاله بنفسه عن العالم .

الثاني — الإسراف في التنافس : سل الناس اليوم في أوربة وفي أمريكا عمما يشغلهم في الحياة يحييوك فوراً : «يشغلنا فيها الكفاح للرزق» والحق

أن هذا الجواب غير صحيح : ذلك أن حقيقة ما يسعى إليه الناس هناك التغلب لا الرزق . وما أكثر الناس الذين يعيشون حياة يفضلها الموت ألف مرة بسبب التنافس والتطاحن في سبيل الفوز !! والنجاح عند أولئك الناس شيء مادي لا يكاد يعدو المال ، فالمال عندهم هو كل شيء في الحياة ، وقد بلغت شهوة الاندفاع وراء النجاح المادي مبلغا خطيرا حتى إن المرء يندفع اليوم في ألوان من المضاربات والمعامرات تجعل حياة أصحابها قلقا مستمرا ، واضطرابا غير منقطع .

ولا أنكر أن الرغبة في النجاح عامل خير في حياة الناس ، ولكنني أنكر جعلها عنصر السعادة الوحيد . فلتكن رغبة النجاح عنصراً من عناصر السعادة في الحياة ، لاختلاصة عناصرها مجتمعة .

الثالث الملل : لا ينشأ الملل من فقدان وسائل السعادة ، بل من فقدان

ما يثير الرغبة ، وإثارة الرغبة في الإنسان غريزة بعيدة الغور في نفسه ، وأحسب أن هذه الرغبة كانت تجد كفايتها من الإثارة في العصور الأولى التي كان يقتات فيها الإنسان بما يصيد ، فلما انتقل إلى عصر الزراعة أخذت أسباب الملل تتسلب إليه ، ونحن مازلنا نشعر بذلك بعيدة الأثر في النفس حين نخرج للصيد ، فالميل إلى إثارة الرغبة ظاهرة قوية الواضح بين الهمج ، وكثيراً ما نسمع عن ملل الحياة في هذا العصر الآلي ، ولكننا نرى أن هذا العصر الآلي أزال كثيراً من أسباب ملل الحياة الزراعية :

فسيارات العمل بين العمال ليست ساعات وحدة وأنفراد كساعات الزارعين ، أما ساعات فراغهم فيمكن أن تصرف في كثير من أسباب إثارة الرغبة بفضل الآلة . فأين ساعات الليل المظلمة بالأمس الزراعي من ساعات الليل في هذا العصر الآلي ؟ : كانت الأسرة في الماضي تجتمع ليلاً في غرفة أو في منزل ضئيل النور ليتحدث الآباء وليصفع الآباء ، ولم يكن الخروج من شارع إلى آخر ميسوراً للرداعاة الطرق وقلة الأنوار ، به العادات : فقد كانت

للزوم المنزل أوجب ، أما اليوم فالليل نهار ، والآلة التي أحدثت تملك الشورة الاقتصادية كسرت قيود الماضي ، فخرجت المرأة تعامل وترتّق ، ولم تعد الأسرة محصورة في المنزل ، بل خرجت إلى ميدان فسيح الجو انب بفضل الآلة : فهناك دور الخيال والمذيع ، والمرسخ ، وما إلى ذلك ، تمهد سيلها طرق مرصوقة مضاءة وسيارات ... ، وعادات جديدة لا تعرف تزما ولا شبهة ترمت . والهروب من الملل إذا لم تتوافر أسباب إثارة الرغبة قد يكون سبباً في شرور كثيرة : فالاندفاع وراء المخدرات ، وأسباب الخلاعة - سببه نشدان الخلاص من الملل وبواعثه .

الرابع - الغيرة : الغيرة سجية أولية في الإنسان ، يبدى الطفل مظاهر قوية منها قبل أن يتم السنة الأولى من حياته ، وليست الغيرة شراً كلها : فالعامل الحيوى في إيجاد المساواة وازدهارها مرد الغيرة ، وهل ترى أن السواد من الناس كانوا يتطلعون إلى المساواة لو لا ما يحسونه من أسباب الغيرة من الطبقات الأخرى ؟ وآفة الإنسان في سجية الغيرة اعتياد المرء أن ينظر إلى الحياة نظرة موازنة ومفاضلة : فالواحد لا يقنع بما عنده ويُسعد به ، ثم يحاول أن يزيد ، ويوازن بين ما يملّك من أسباب السعادة ، وما يملّك غيره منها ، فينفس عليه ويشق بنفسه . والأجدى على الناس إلا يتوجهوا في حياتهم إلى المفاضلة إذ هم نشدوا المهنأة وراحة البال . والغيرة خدن المنافسة : فالناتج الصغير مثلاً لا ينفّس على صاحب (الملايين) ولকنه ينفّس على أمثاله . وهذا عصر اتسع فيه نطاق المنافسة والغيرة ؛ لأن المواصلات العصرية المختلفة ، وربط أنحاء العالم بعضها ببعض بشتى الوسائل : كالصحف ، والخيالة ، والمذيع وما إلى ذلك — تعرض على الناس مختلف ألوان الحياة الإنسانية عرضًا أخذًا ، يوقد جذوة المنافسة والغيرة . وما حياة العصر إلا تنافس وتشاحن بين الطبقات والأمم والشعوب ، وفي هذا يكمن الخطير الذي قد يودي بالمدنية ، أو يسرع إلى زوالها .

الخامس — الإِجْهَاد : من المفيد للجسم أن يتعب بعض التعب ، ولكن ليس من الفائدة في شيء أن يرهق بالعمل ، وقد كان العمال قبل العصر الآلي يرهقون أشد الارهاق ، فلما جاءت الآلة رفعت عنهم كابوس الإِجْهَاد ، إلا أن هذا التعب الزائل حل مكانه آخر لا يقل عنه خطراً ، وهو إِجْهَاد الأعصاب وإِرهاقها :

يترك عامل اليوم منزله إلى المصنع ، فتتلتفف أذناه أصوات السيارات والعجلات الكهربائية والقاطرات البخارية ، وما شئت من جلبة الآلات ، فإذا وصل إلى المصنع استقبلته عاصفة هو جاء من الصخب والضوضاء ترهق الأعصاب شرّاً إِرهاقاً ، وهو في هذا كله في قلق نفسي مستمر : فهناك خشية الطرد ، وعنت الرؤساء ، وخوف الاصطدام بألة من الآلات . كل هذا وأمثاله يشير في نفس العامل شتى الاضطرابات مما يرهق النفس والأعصاب معاً .

هذه حياة العمال ، أما أصحاب العمل ففي شر آخر : في قلق مستمر من التنافس والمقامرات والمضاربات ، وما قد تؤدي إليه من خراب ودمار . لا ينكر أحد أن حياة اليوم جهاد مستمر في سبيل النجاح ، وهذا الجهاد العملي النفسي يفضي إلى الإِعياء ، ومعظم هذا الإِعياء من قلق النفس ، وليس أجدى على المرء من انتهاج مجحة نفسية صحيحة تجعله متزن التفكير في أعماله ، متزن النفس ، سديد الحكم . وهناك عامل خفي شديد الأثر في تضاعف التعب في العصر الحالي : هو الحاجة إلى ما يشير العاطفة ويشحذها ، حتى تتذوق السعادة : فالآخرة الاقتصادية الحاضرة ترجى الزوج ، فلا يمكن الرجل منه إلا فيما بين الثلاثين والأربعين ، وكذلك الزوجة تكون قد جاهدت جهاده ، وبلغت من السن ما بلغه ، فتجيء حياتهما الزوجية فاترة أشد ما تكون حاجة إلى إثارة العاطفة ، وفي هذا إرهاق مرضن للأعصاب .

ال السادس — وخز الضمير : لاشك في أن وخزات الضمير لها أكبر

والضمير لا يوحى بخير ولا بشر ، وإنما ينضح بما رسب في العقل
الباطن من عادات ونوازع . والخوف من الاصطدام بهذه النوازع أو
التساوق معها هو ما نعرفه نحن باسم الخير والشر . وهذه المواد التي تتآلف
منها عقولنا الباطنة مجتمعة ما استقر فيها من وراثات ، وما نكتسبه من
البيئة التي ننشأ فيها ، وتكون ضمائرنا .

نخلص من هذا كله بنتيجة خطيرة : هي خروج قوانيننا الأخلاقية من سلطان العقل . والناس يتناولونها كما يتناولون المخدرات ، وواجب المرء أن يبتعد عنها . أنا لا أقول باطراح الناس القوانين الأخلاقية ، ولكنني أصر على وجوب اصطناع قوانين من وحي العقل ، لامن وحي الوراثة (١) والبيئة .

السابع — توهם عداء الناس : من ألوان الجنون أن يتوهם المرء وجود

مطاراتدين له ، يقتفيون خطاه لا يقع الأذى به ، وكثيراً ماتنتهي هذه الأوهام إلى ضرورة حفظ المصاب بها في إحدى المصادر ، ولكننا لسنا

(١) صريح أن المؤلف أراد بالقوانين الخلقية ما تكون من الوراثة والبيئة دون عقل وروية، وجل أن ذلك لا يسرى على قوانين الأخلاق الإسلامية؛ فهى تساوق العقل، ولا تناقضه.

نبحث في هذه الحالات الشاذة ، بل هناك كثيرون من الناس فريسة هذه الأوهام ، قراهم بها في كدر مقيم : يتوهون أنهم يحسنون إلى غيرهم فيسىء إليهم ، وأنهم يصفونه النيمة والارشاد ، فينالهم منه المحود والنكران ، ويبذلون في سبيل الإحسان إليه كل مشقة ، فيسرف هو في الإساءة والشر . فهو لاء يجب أن يذكروا أن كثيرون مما يتخيّلون مرض نفسي تسهل معالجته بقليل من العناية ، ونصيحتي أن يذكروا الأمور الآتية :

١ - ليس أعمالهم التي يتوهونها مثلاً لنكران النفس في سبيل غيرهم كما يظنون

٢ - ليجتهدوا في تعرف حقيقتهم ، وفي تعرف هذه الحقيقة تخفيف لآلامهم : فنهم من يقدر مواهبه مثلًا فوق قدرها ، فيتوهون أن غيره يسىء إليه حين لا يعطيه حقه من التقدير لتلك الموهبة الفذة .

٣ - ليذكروا أن الناس لهم ما يشغلهم في الحياة غير انقطاعهم لنكران صنائع هؤلاء الأفراد والإساءة إليهم

٤ - ليذكروا أن الناس ليسوا دائمًا على استعداد لقبول كل ما يقدم إليهم من المعروف والارشاد ، وما إلى ذلك .

الثامن — الخوف من الرأي العام : قل من يستطيع أن يسعد في الحياة إذا تناقضت آراؤه وتقاليد الجماعة التي يعيش معها ، ومن أقوى مظاهر العصر الحاضر اختلاف الناس اختلافاً بيناً في معتقداتهم المدنية والسياسية والدينية وغيرها . وإن ذن فأسباب عدم السعادة كثيرة كثرة هذه الاختلافات في المعتقدات ، وحضارة اليوم تثبت وثبات واسعة لا اتزان فيها ، وهذا من شأنه أن يوسع رقعة تبادل المغارب واختلاف الآراء وتضاربها . وليس أنقل على النفس من التضييق على المرء فيما يعتقد أحقيته .

ومن أشد الأخطاء الشائعة القول : بأن العبرية لا يعوق ظهورها عائق ما ، وأن المرء الصحيح النزعة والآراء لابد أن تتغلب نزعته على الرأى العام . هذا خطأ سقيم : فكم من عقري نابع دفن حياؤه وعقريته دون أن يعرف الناس شيئاً عنه : دفنه في الحياة جهل الناس وغباءهم .

وليس من الأوصاف أن تكفى العبرى وحده تحدى الرأى العام ، بل الأخرى أن تفسح الجماهير المكان لكل فرد ، حتى يظهر ما عنده خيراً كان أو شراً .

وليذكر الأفراد المoho بونأن الدهماء والكلاب سواء : فأنت حين تلتفت إلى الكلب يزداد نباحاً وصراخاً ، وإذا أهملته التزم الصمت ، وعاد كلباً بعد أن كان قد استأسد .

قلنا : إن المدينة حملت معها أسباب التباين والاختلاف ، فنقتصر أسباب السعادة عند بعض الناس من جراء التصادم والتنافر . ويحدربنا أن نقرر أن هذه المدينة عينها حملت معها علاج هذا الأمر إن أحسن الناس الاستفادة منه : ذلك بأنه كان المرء بالأمس إذا تناقر في آرائه مع أفراد أسرته أو عشيرته من أهل القرية أو المدينة لم يكن من السهل أن يجد له بيئة أخرى فيها جو يتساوق وما يأخذ به من الآراء والمعتقدات ، أما اليوم في حين أجده عشيرتي متنافرة أفكارها معم أفكارى يسهل علىّ أن أجده لنفسى بيئة أخرى أطمئن إليها وتطمئن إلى دون تبشم المشقات ؛ فالمواصلات ربطت أنحاء العالم بعضها ببعض . ومن هذا يتبيّن أن البيئة الاجتماعية اليوم تعدد حدود الأسرة وحدود القرية أو المدينة ، فأصبحت أوسع من ذلك ، وإذا كان الفرد قد تخالص بذلك من سلطان الأقلية الظالمة فهل تخالص من سلطان الصحافة ؟ لا ؛ لأن ما كانت عليه الأسرة بالأمس والمدينة والقرية من السلطان وشدة التحكم بالأفراد والجماعات - انتقل اليوم إلى الصحافة . فليتق رجـال القلم ربـهم في كل ما يكتـبون .

أهم أسباب الشقاء

في رأي فضيلة العلامة الشيخ الدجوى

الأول — الترف الذي أمات خاق المروءة ، وأجلأ ذويه إلى اكتساب المال من غير وجوه المشروعية ، واضطربهم إلى الذل في تحصيله حتى يصلوا إلى ما يريدون من زخرف باطل ، ونعم كاذب .

الثاني — الإسراف وهو نتيجة الترف ، وأكنته قد يكون ناشئاً من ضعف الرأى وعدم الحكمة في التصرف ، فيكون بلا شرف ولا فائدة أصلاً ، ويلحق بالعيت الصرف .

الثالث — عدم تنظيم الأوقات وصرف الكثير منها في غير ماینفع : فعل الإنسان أن يعمل لنفسه نظاماً يتبقيه ، ولا يحيد عنه في كل شيء ، ولا يصدق نفسه في أنها غنية عن النظام ، وليس تفعل إلا اللائق أو اللازم ؛ فإنها جاهلة أو خداعه تهوى الإطلاق وتفر من التقيد ، وإن كان فيه صلاح حالها .

والإنسان طوبل العمر جداً إذا كان من العاملين ، وما أظهر له أنه قصير العمر ، وأذهب حياته بلا فائدة — إلا عدم إرثام نفسه قانوناً مخصوصاً حتى ضاعت أوقاته ، وأختلت أعماله .

الرابع — الاكتفاء بالعلم في تهذيب النفوس ، وعدم تعويدها الفضائل .

الخامس — عدم غرس الدين في نفوس النشء على ما يجب ، وعدم تمرينهم على ماجاء فيه ، وتركهم لل تعاليم المدرسية ، أو ترك ولاة الأمور الاهتمام

بذلك . وليس مثل الدين شيء يردع النفوس عن القبيح ، ويأخذ بها عن شهواتها ، ويصل بها إلى كمالها .

السادس — عدم رياضة النفس وإشعارها بالفضائل : بالمطالعة في كتب الدين والأخلاق آنا فـآنا ؟ (فإن النفوس تحتاج في حفظ صحتها إلى الرياضة بذلك العلم ، كما تحتاج الأبدان إلى الرياضة «المعروفة») ، وعدم تحريك الإحساس الديني فيها من وقت إلى وقت ، حتى ضعف في أغلب الناس ، أو كاد يقضى - عليه بالكلية ، «والغفلة والنسيان من طبع الإنسان»)
وإذا استمر القلب على التوجّه إلى جهة واحدة كاد يجهل ماعداها ، أو يعلمه عليها لا يترتب عليه أثر . وتعهد النفوس في رياضتها يجب أن يكون قبل تعهد الأجسام .

السابع — إنكار الروحانيات وقصور النظر على الطبيعيات ، وهو أساس الشقاء ، وسبب البلاء ، وقد جاء ذلك من بعد عن علوم الدين وما ورد فيه ، ومن تقليد الغربيين الذين لا يعرفون غير علوم الأجسام ، لأنها وجهتهم : (ولكل وجهة هو مولىها)

الثامن — عدم ملاحظة استعداد النشاء : فكثيراً ما يكون الولد قوى البنية ميلاً للحركة تجاه الأعمال الفكرية (لأنه لم يخلق لها) ويرتاح للأعمال البدنية ، ولو اشتغل بها لكان له نتيجة حسنة تعود عليه وعلى الناس ، فيسعد في نفسه وتسعد به أمه ، ولكن والده تحمله الآفة أو الحافظة على أن يكون مثله ، بل الجهل وعدم التبصر - ألا يعلمه ما هو مستعدله من الصناعات والأعمال : فتراه يرسله إلى الأزهر أو المدارس طمعاً في الشرف الرفيع والمستقبل الباهر ، فيقهره على غير مأخلق له ، فلا يزال يعاني مشاق الحياة الجلوسية ومتابعته للأعمال العقلية ، حتى يغلبه استعداده أخيراً (وقد فات زمان التعليم) فيشقى شقاء طويلاً ، وتفقد الأمة عضواً من أعضائها كانت تتتفع به لولم

يكن أشنل أو مجدوماً يخاف على جسمها منه . ولو تبصر الناس ، ولاحظوا ذلك ، وهو أصل كبير في التربية ، وأرسلوا إلى التجارة من يصلح لها ، وإلى الصناعة من يميل إليها على اختلاف أنواعها ، وإلى العلم من خلق له — لأنّوا الرقي من بابه ، والسعادة من أقرب طرقها :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

* * *

والحمد لله الذي هدانا لهذا : (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)
والصلوة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسل لا إسعاد الإنسان في دنياه
وآخره ، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه ، فسلكوا سبيل السعادة ،
وفازوا بالحسنى وزيادة .

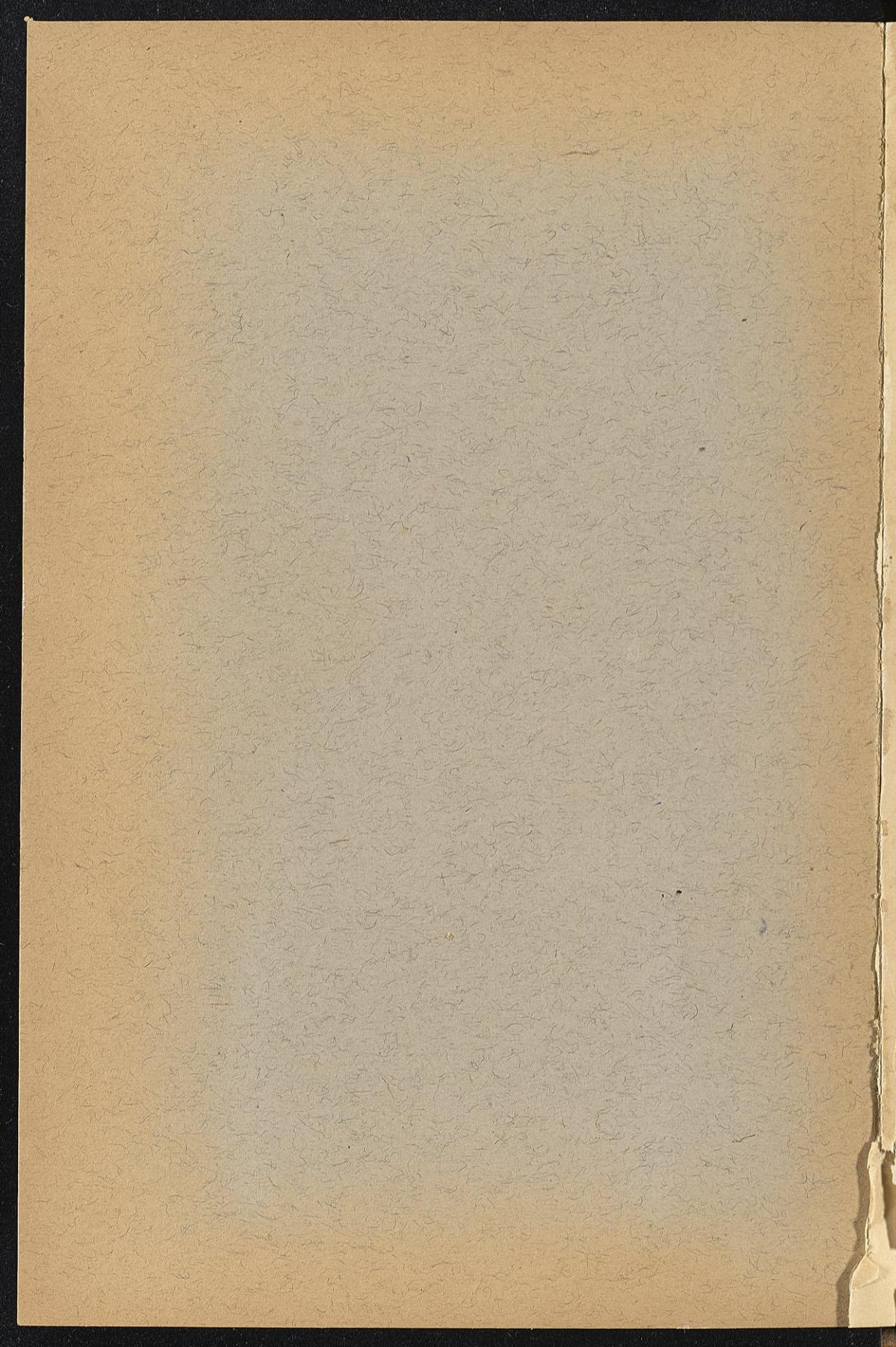
بعون الله تعالى تم الجزء الأول

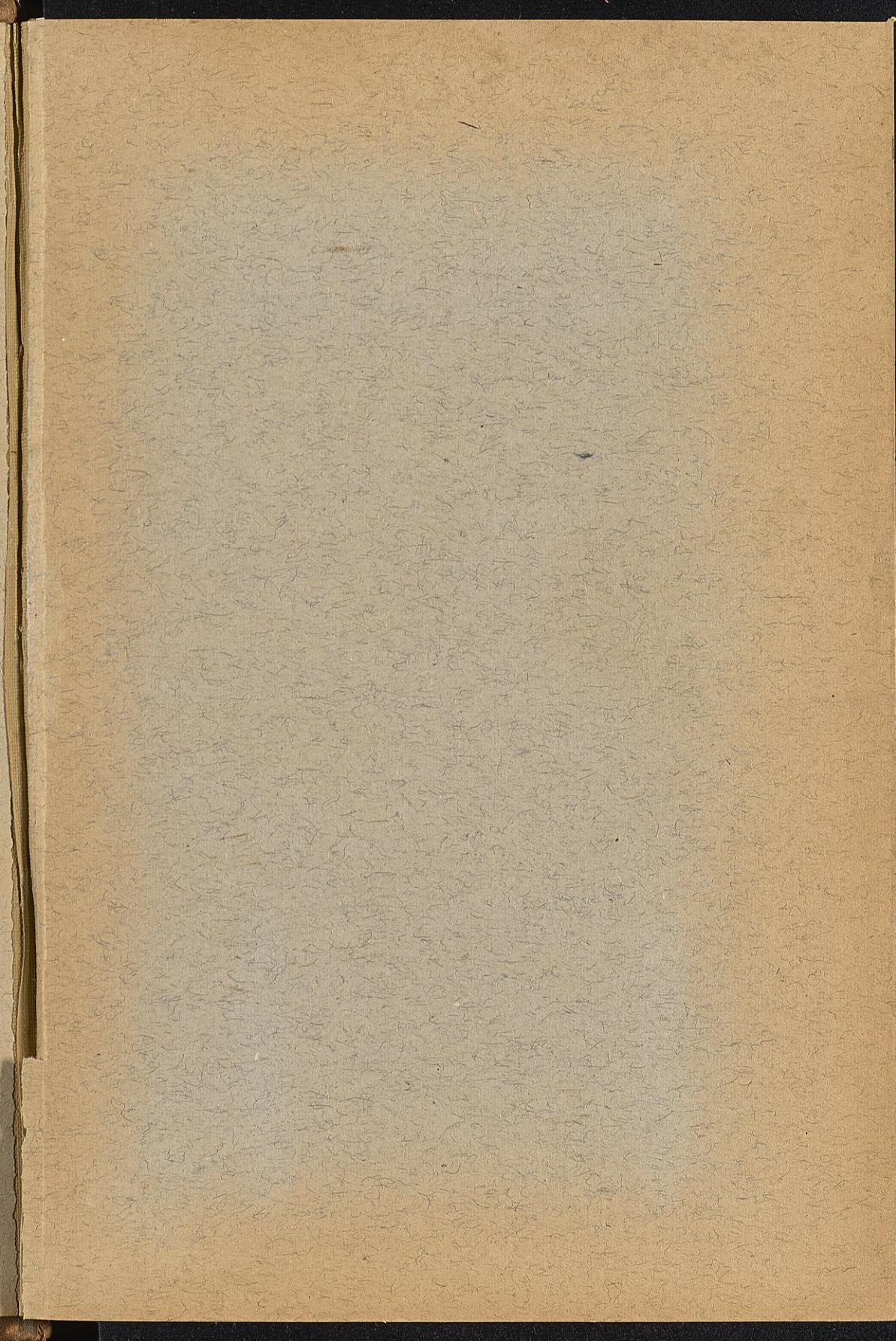
ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثاني وأوله : الخير :

تذبيه

نسترعى نظر القارىء الكريم إلى أن جدول الخطأ والصواب لم يتضمن
إلا الأخطاء المأمة التي أمكن إصلاحها ، وهناك أخطاء لا خطر لها مثل:
همزات قطع متروكة ، ونقط لم تظهر ، ورسوس حروف لم تتبين ، وأوآخر
حروف لم تتضح ، ولهذا السبب لم نستطع إصلاح هذه الأخطاء ، ولأنها
لا تخفي على فطنة القارىء اللبيب .

المؤلف





COLUMBIA UNIVERSITY



0026815575

895.7991

J17

v.1

SEP - 1 1964

